



المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام
بلاد الشام في العهد الأموي



محاضر الندوة الثالثة

٢-٧ ربيع الأول ١٤٠١هـ - ٢٤-٢٩ تشرين الأول ١٩٨٧م
القسم العربي - المجلد الأول

تحرير

محمد عدنان البخيت

عمان / ١٩٨٩م



GROUND PLAN

CAVE VIRGIN, ROCK

SECTION 2-2



صورة الغلاف

مركز الوجه: صورة الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥هـ/٦٨٥م - ٨٦هـ/٧٠٥م)
منتصب القامة ملتحياً مرتدياً لباساً عربياً ويده اليمنى على مقبض سيفه.

الهامش: باتجاه عقارب الساعة من اليمين:

بسم الله لا اله إلا الله وحده محمد رسول الله
الظهر القطعة الأصلية: سارية فوق مصطبة من أربع درجات هي تحويل للشعار
البيزنطي.

الهامش: بسم الله ضرب هذا الدين سنة سبع وسبعين.

الصور الداخلية

١. لوحة لقبة الصخرة المشرفة: الواجهة الجنوبية كما رسمها سنة ١٩٠٩م وليام هارفي
(William Harvey) مأخوذة من كتاب

Early Muslim Architecture Umayyads by K.A.C. Creswell, Oxford, 1969

٢. صورة أمامية للمسجد الأموي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٤٠٩

المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي .- (الثالث .- عمان : الجامعة الأردنية ، ١٩٨٨)

تاريخ بلاد الشام - تحرير محمد عدنان البخيت .- عمان : الجامعة الأردنية ، ١٩٨٨

(٦٣٦ ص)

ر.أ (١/١/١٩٨٩)

أ - بلاد الشام - تاريخ - العصر الأموي

١ - محمد عدنان البخيت - تحرير ٢ - الجامعة الأردنية « اشراف »

ب - العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

يسرني أن أضع بين أيدي القراء والمهتمين من الباحثين والمؤرخين المعنيين بتاريخ بلاد الشام مجموعة من الأوراق البحثية التي قدمت إلى «ندوة تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي» بعد أن قُيِّمت وتم تمييزها حسب الأصول العلمية المرعية، وذلك على ضوء المداورات والمداخلات التي طرحت أثناء أعمال هذه الندوة. وهذه البحوث تتناول عدداً من المحاور كالمصادر ومؤسسة الحكم بالإضافة إلى معالجتها لجوانب من حياة السكان ودورهم في الحياة السياسية. كما أن عدداً من هذه البحوث قد درس المؤسسات التي قامت في بلاد الشام في العصر الأموي، هذا بجانب دراسة الإقطاع خلال القرنين الأول والثاني. وتم تناول الحياة العلمية والحوار الديني بالإضافة إلى طريق الحج من خلال ثلاث أوراق، زيادة على ذلك أفردت ورقة للحياة الفنية وللعمارة، كما تبنت من خلال قبة الصخرة في القدس. ومن أجل استكمال صورة هذه الندوة يسعدنا ان نشير هنا إلى مجموعة الأوراق المقدمة باللغة الإنجليزية والفرنسية والتي ستظهر في مجلد مستقل مكملاً لأعمال ندوتنا هذه، التي جاءت انموذجاً يحتذى في التعاون العلمي ما بين الباحثين الأردنيين واشقائهم العرب وزملائهم في الجامعات غير العربية. وهذا العمل يمثل نمواً متكاملاً لفكرة خلاصتها تعاون الجامعات الأردنية في سبيل كتابة تاريخ بلاد الشام من جوانبه كافة، كمشروع وطني وقومي بمشاركة دولية.

وما كان لمجموعة هذه الأبحاث أن تظهر لولا الجهد الكبير الذي بذله عدد من زملائي في العمل، وعلى رأسهم الأستاذ الجليل الدكتور عبدالعزيز الدوري الذي أعطى هذا العمل عنايته وغزير علمه. كما يسرني هنا أن أنوه بالجهد الذي بذله الأستاذ احسان عباس والدكتور عبدالحميد العبادي والسيد حامد الزغول في قراءة النص. وأشكر السيد فخري حمدان والأوانس سعاد عبدالجليل وجهاد العساف وأنعام محافظة وعزيزة المكحل، على ما بذلوه من جهد في اعداد الفهارس. أما جهود السيد محمد يونس العبادي تظل موضع الشناء والتقدير.

ويسرني هنا أن أنوه بكل اعتراز بالجهد غير العادية التي ابداهها العاملون في مطبعة الجامعة الأردنية في طباعة النص واخراجه إلى حيز الوجود. ومثل هذا الشكر يقدم إلى السيد سركيس لابيحيان، الذي قام باعداد الصور.

وما كان لهذا العمل ان يصل إلى ما وصل إليه لولا الدعم المتواصل من رئيس الجامعة الأردنية الأستاذ الدكتور عبدالسلام المجالي الذي عني بتاريخ بلاد الشام منذ أن طرحت الفكرة في ربيع ١٩٧٢م، وأن دعمه المتواصل كان وما يزال ضماناً للنجاح لهذا العمل الجليل.

ويسعدني هنا أن أتوجه بالشكر الجزيل لجميع المؤسسات التي آزرتنا في إنجاح هذا المؤتمر وبخاصة الملكية الأردنية.

مقرر لجنة متابعة عقد الندوات والمؤتمرات

لتاريخ بلاد الشام
(الدكتور محمد عدنان البخيت)

عمان في ١٥ كانون الثاني ١٩٨٩م

اللجنة العليا

للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

رئيس اللجنة العليا : سمو ولي العهد الأمير الحسن بن طلال المعظم

الاعضاء

- ١ . الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي
 - ٢ . الأستاذ الدكتور محمد زياد الشويكي
 - ٣ . الأستاذ الدكتور علي محافظة
 - ٤ . الأستاذ الدكتور محمد أحمد حمدان
 - ٥ . الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري
 - ٦ . الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة
 - ٧ . الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت
 - ٨ . الأستاذ الدكتور معاوية ابراهيم
 - ٩ . الأستاذ الدكتور إحسان عباس
 - ١٠ . الأستاذ الدكتور يوسف غوانمة
 - ١١ . الأستاذ الدكتور محمد خير ياسين
 - ١٢ . الدكتور كامل العسلي
 - ١٣ . الدكتور عدنان الحديدي
 - ١٤ . السيد محمد صالح عبد العاطي
 - ١٥ . مدير العلاقات الثقافية والعامّة
- رئيس الجامعة الأردنية
رئيس جامعة دمشق
رئيس جامعة مؤتة
رئيس جامعة اليرموك
الجامعة الأردنية
الجامعة الأردنية
الجامعة الأردنية
جامعة اليرموك
الجامعة الأردنية
جامعة اليرموك
الجامعة الأردنية
الجامعة الأردنية
دائرة الآثار العامة
الجامعة الأردنية
الجامعة الأردنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة

صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال

ولي العهد المعظم

أيها العلماء الاجلاء

أيها الاخوة الافاضل

أحييكم أطيب تحية، وأرحب بكم في بلدكم الاردن وفي رحاب الجامعة الأردنية أجمل ترحيب، ونحن نفتتح أعمال الندوة الثالثة والاخيرة من ندوات المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، التي تتناولون فيها بالبحث والتمحيص تاريخ بلاد الشام في العهد الأموي، بعد أن استعرضت الندوة السابقة تاريخ الفتح الإسلامي لهذه البلاد، وبينت المراحل المبكرة لدخول العنصر العربي إلى بلاد الشام واستقراره فيها، كما بينت فضل الرسالة الإسلامية الخالدة في بلورة الهوية الحضارية للعنصر العربي في هذه البلاد، بعد أن صهرت في بوتقة حضارة الاسلام المضيئة.

أيها الاخوة والاخوات،

انطلاقاً من إدراكنا لأهمية مؤتمركم هذا، ولما ستخلصون إليه من نتائج وتوصيات، غايتكم فيها الحقيقة المنزهة عن الميل والهوى، وأسلوبكم فيها البحث العلمي المتزن الرصين، فقد حرصنا في المملكة الأردنية الهاشمية على العناية بكتابة التاريخ العربي الاسلامي، على قاعدة من التخطيط والتدقيق، فها هو جلاله الحسين يقترح على إخوته زعماء العالمين العربي والاسلامي في مؤتمر القمة الاسلامي الخامس في الكويت «قيام مؤرخين مسلمين ثقات، بكتابة تاريخ المسلمين المشترك، مما يعكس الروح الحقيقية للاسلام القائمة على الحب والسلام والعلم والايمان...» ويعلم جلالته على المؤتمرين أن أفضل سبيل لتوثيق عرى التفاهم والتعاون والانسجام بين أجيال

المسلمين القادمة، هُوَ في تأليفِ كُتُبٍ على هذا الجانبِ المُضيءِ في التاريخِ الاسلامي المشترك، في منأى عن الجوانب التي مَن شأنها أن تُتَّيَرِ البغضاء والكراهية بين الشعوبِ الاسلامية، إذ أن هَدَفَنَا كَتَجْمَعِ إسلاميٍّ مُنظَّمٍ ينبغي ألا يقتصرَ على جِمَايةِ مُسلمي اليوم، بُلٍ أيضاً جِمَايةِ الاجيالِ المسلمةِ المقبلةِ مِنْ مُتَرَسِّبَاتِ أخطاءِ الماضي والحاضر.

إننا نُؤمِنُ بأننا أُمَّةٌ عريقةٌ ذاتُ عقيدة، وأن لنا دوراً بارزاً ومستمرّاً في الانجازاتِ الحضارية لنا ولغيرنا مِنْ أبناءِ الأممِ الاخرى، ولذلك يُؤلِّمُنَا أن نشهدَ ظاهرةَ التجزئةِ في كِتابةِ التاريخِ تتفشى على الساحتينِ العربيةِ والاسلامية. وانطلاقاً مِنْ إيماننا بِأُمَّتِنَا وبدورنا الحضاري، وتجاوُزاً لظاهرةِ التجزئةِ في كِتابةِ التاريخِ كانتِ الدعوة في البداية لكتابةِ تاريخِ بلادِ الشامِ بالتعاونِ ما بينِ الجامعةِ الاردنيةِ وجامعةِ دمشقِ وجامعةِ اليرموك، حيثُ حُشدتْ كُلُّ الطاقاتِ العلميةِ التي تتميزُ بإخلاصها للعلمِ والحقيقةِ للنهوضِ بهذا العملِ الكبير، وقد حَظِيَ المؤتمرُ - مُنذُ أن كانَ فِكْرَةً في الازهان - برعايةِ الحسينِ وعنايتهِ وتوجيهه فتمَّ تحديدُ الهدفِ وبدأنا بتوفيرِ أسبابِ النجاحِ لتحقيقِ الهدفِ، وتمكنا بالعملِ الجادِّ المُخلصِ الدؤوبِ مِنْ توفيرِ البنيةِ التحتيةِ اللازمةِ التي تتمثلُ فيما يلي:

أولاً إنشاءً مركزِ لجمعِ المخطوطاتِ والوثائقِ والسجلاتِ والدفاترِ المتعلقةِ ببلادِ الشامِ والبلادِ العربيةِ بشكلٍ عام، وقطعناً شوطاً كبيراً في هذا المِضمارِ.

ثانياً إتاحةُ الفُرصةِ لباحثينا للاطلاعِ على ما يُكتَبُ حولَ تاريخِ هذهِ البلادِ في الخارجِ، وذلك بتوفيرِ ما تَمَّ طبعُه ونشرُه هناك عَنِ العربِ والاسلامِ والمسلمينِ وأمصارِهِم.

ثالثاً مَسْحُ مَصَادِرِ التاريخِ المحليَّةِ وتجميعها مِنْ وثائقٍ ومذكَراتٍ وأوراقٍ شخصيةٍ ورواياتٍ شَفَوِيَّةِ.

رابعاً نشرُ نتائجِ البحوثِ التي نتوصلُ اليها في المجالاتِ العلميةِ المتخصصةِ والمُحكمةِ وفي الدورياتِ ذاتِ المستوىِ الثقافيِّ المتميزِ مِنْ أجلِ إيصالِ الفائدةِ إلى قاعدةِ أرحبِ ضِمْنِ إطارِ المملكةِ والبلادِ العربيةِ والعالمِ أجمع.

كما أن اهتمامنا برفدِ مؤتمرِ تاريخِ بلادِ الشامِ بالحقيقةِ العلميةِ دعانا الى توفيرِ

فُرْصَةَ اللِّقَاءِ وَالتَّأْلِيفِ الْعِلْمِيِّ مَا بَيْنَ الْمُخْتَصِّينَ فِي عِلْمِ الْإِثَارِ وَالْحَفْرِيَّاتِ وَالنَّقُودِ وَالنَّمِيَّاتِ، فَعَمَدُنَا إِلَى تَشْكِيلِ لَجْنَةٍ مِنَ الْمُخْتَصِّينَ مِنَ الْإِرْدَنِ وَمِنَ الْخَارِجِ، مِنْ أَجْلِ الْعِنَايَةِ بِتَارِيخِ الْإِرْدَنِ فِي مُخْتَلَفِ الْحَقَبِ التَّارِيخِيَّةِ مُنْذُ أَقْدِيمِ الْعُصُورِ، وَقَدْ عَقَدَتِ هَذِهِ اللَّجْنَةُ عِدَّةً مِنْ نَدَوَاتِهَا خَارِجَ الْإِرْدَنِ، وَذَلِكَ لِلتَّوْفِيقِ مَا بَيْنَ الْإِنْجَازِ الْمَحَلِّيِّ الْعِلْمِيِّ وَالخُبْرَةِ الدَّوْلِيَّةِ، وَلِتَعْمِيمِ الْفَائِدَةِ فَقَدْ قُيِّمَتِ الْبَحُوثُ الْمُقَدِّمَةُ وَتَمَّتْ طِبَاعَتُهَا وَنَشْرُهَا وَتَوَزُّعُهَا لِتُشْكَلَ رَافِداً مُهِماً مِنْ رَوَافِدِ التَّارِيخِ الْوَطْنِيِّ.

وَيَأْتِي اهْتِمَامُنَا بِدِرَاسَةِ التَّارِيخِ الْمَحَلِّيِّ عَلَى مَسْتَوَى الْإِرْدَنِ مِنْ قَنَاعَاتِنَا بِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ دِرَاسَةَ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ عَنْ طَرِيقِ دِرَاسَةِ الْمَوْسَسَاتِ الْكَبِيرَةِ فَقَطْ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ التَّوَجُّهِ لِلْعِنَايَةِ بِالتَّارِيخِ الْمَحَلِّيِّ وَالْوَطْنِيِّ، ضِمْنَ فَهْمِ يَقُومُ عَلَى مُسَلِّمَةِ أَنَّنَا جُزْءٌ مِنْ تَارِيخِ أُمَّةٍ وَأَنَّنا أَهْلُ عَقِيدَةٍ وَرِسَالَةٍ هِيَ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ وَالْعَرُوبَةِ.

وَلِأَنَّ الْإِرْدَانَ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَأُ مِنْ أُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهُوَ مِنْهَا بِمِثَابَةِ الْقَلْبِ، وَلِأَنَّهُ وَرِثُ النِّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْكَبْرَى، فَقَدْ أَتَا حُلَمَاءُ الْأُمَّةِ وَفُقَهَائُهَا وَمُفَكِّرِيهَا وَكُتَّابُهَا وَفَنَانِيهَا أَنْ يَجْتَمِعُوا فِي مَنَبَرِ حُرِّ مَسْئُولٍ أَسَّسَهُ بِاسْمِ مُنْتَدَى الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ، وَأَصْبَحَتْ لِقَاءَاتُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ تُمَثِّلُ مَرَحَلَةً مِنْ مَرَاجِلِ النُّضُوجِ الْفِكْرِيِّ عَلَى الْمَسْتَوَى الْوَطْنِيِّ بِكَامِلِهِ وَكَثِيراً مَا يَتَعَدَّرُ عَلَى عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَمُتَّفِقِيهَا أَنْ يَجْتَمِعُوا فِي رِحَابِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ فِي هَذَا الزَّمَنِ الصَّعْبِ وَلِذَلِكَ فَتَحَ الْإِرْدَانُ أَبْوَابَهُ لِاسْتِقْبَالِ النُّخْبَةِ مِنَ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ.

وَإِيمَاناً مِنَ الْإِرْدَانِ بِحَقِيقَةِ انْتِمَائِهِ الْإِسْلَامِيِّ، وَبِدَوْرِهِ وَمَسْئُولِيَّتِهِ تَجَاهَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَقَضَايَاهَا وَطُمُوحَاتِهَا، جَاءَتْ فِكْرَةٌ إِنْشَاءً مَجْمَعٍ لِبُحُوثِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أُسْمِيْنَاهُ مَوْسَسَةَ آلِ الْبَيْتِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ نُقْطَةَ حَذْبٍ وَالتَّقَاءِ وَتَأْلِيفِ الْعُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، يَفِيئُونَ إِلَيْهَا كُلَّ عَامٍ مِنْ أَنْحَاءِ الْمَعْمُورَةِ مِنْ أَجْلِ اللِّقَاءِ وَالتَّعَارُفِ وَالتَّحَاوُرِ وَالتَّفَكِيرِ الْمَشْتَرِكِ فِي حَاضِرِ أُمَّتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَاضِيهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا.

وَهَكَذَا وَبِفَضْلِ رِعَايَةِ الْحُسَيْنِ أَصْبَحَتْ الْمَوْسَسَاتُ الْفِكْرِيَّةُ وَالْعِلْمِيَّةُ فِي الْإِرْدَانِ مِنْ جَامِعَاتٍ وَغَيْرِهَا نِقَاطَ جَمْعٍ وَجَذْبٍ وَتَأْلِيفٍ وَتَعَارُفٍ بَيْنَ الْعُنَاصِرِ الْفَاعِلَةِ وَالْمُنْفَعَلَةِ الَّتِي تَتَوَلَّى كِتَابَةَ التَّارِيخِ وَصِنَاعَةَ الْمَسِيرَةِ الْحَضَارِيَّةِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ. وَاصْبَحَتْ عَمَانُ دَاراً لِلْخَيْرِ تَجْمَعُ بَيْنَ أَهْلِ الْفِكْرِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالْإِخْتِصَاصِ فِي مُخْتَلَفِ الْحُقُولِ وَالْمِيَادِينِ، تَتَأَلَّفُ نَفُوسُهُمْ وَتَتَجَانَسُ طُرُقُ تَفَكِيرِهِمْ وَتُجْمَعُ طَاقَاتُهُمْ لِتُوجَّهَ لِخِدْمَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وقد امتدت اهتمامات جلالته القائد لتشمل الاجيال الناشئة وابتاعنا من مختلف مراحل التكوين التعليمي فأسند إلى تاليف لجنة مستقلة من المفكرين والمؤرخين المرموقين، ليقوموا بوضع خطة متكاملة المراحل لكتابة تاريخ الاردن المعاصر في اطار تاريخ أمتة العربية ونشر بحوث ودراسات ذات مستوى علمي رفيع ومنهج موضوعي يتوخى الحقيقة وحدها، ولا يقصد إلا وجه الحق، وتستخلص من هذه البحوث والدراسات سلسلة من الكتب لمختلف الفئات، من الناشئة، إلى جبهة المثقفين، إلى كبار المتخصصين.

ولقد أشرفنا على مراجعة كاملة ودقيقة وشاملة لتجربتنا التربوية في المملكة توجت بمؤتمر للعملية التربوية افتتحه جلالته الملك الحسين بتوجيه ملكي يشخص المشاكل ويضع الحلول، وقد رأينا أن الحاجة ماسة لصياغة مناهج للعلوم الاجتماعية والتربوية تأخذ بعين الاعتبار انجازات الأمة وتستوعب تطوراتها، ومن هنا فإننا نتطلع إلى أعمالكم وبحوثكم ومداولاتكم من خلال هذه الندوة ومما سبقها، وما سيتلوها من ندوات، على أنها تمثل المعين الغزير لصياغة المنهاج الجديد وبنائه على أسس جديدة وسليمة.

وما دُمننا في الحديث عن المنهاج فإنه لم يغرب عن بالنا ما تعرضت له مناهج الضفة الغربية وقطاع غزة ومترفعات الجولان من تحريف، كما أننا نذكر مقدار التحدي الموجه للهوية الحضارية العربية الاسلامية لفلسطين العريضة ومحاولات العدو الدائبة لتغيير الاسماء والمعالم، وتشويه الشخصية التاريخية لأمتنا وعقيدتنا في فلسطين، وعليه؛ فإننا نرى أن الواجب والمسؤولية تُصبحان فرض عين على كل واحد منا للتصدي لكل هذه المحاولات بالعلوم الموضوعية، وعلى رأسها التاريخ الذي يتسلح به العدو من أجل إنكار حقنا فيما يدعيه من دعاوى تاريخية، فتحية خالصة من على هذا المنبر إلى الجامعات والمعاهد والمدارس في الضفة الغربية وقطاع غزة. وتحية إلى أهلنا الصامدين هناك في وجه الاطماع الحاقدة والممارسات الارهابية الهادفة إلى تفرغ الارض من أهلها الشرعيين.

أيها العلماء الافاضل،

إن اجتماعنا اليوم هو وفاء لمسؤوليتنا تجاه تاريخ أمتنا العربية الاسلامية في الحفاظ عليه والدفاع عنه وإصرارنا على حشد كل الطاقات العلمية من أجل معالجته

وكتابه بطريقتي موضوعية دون تحيز أو تعصب. وفي هذا المضمار لا بد لي أن أشير إلى ظاهرة هامة في القرون الإسلامية الأولى من تاريخنا يجب التركيز عليها وهي ظاهرة التفاعل الحضاري - ظاهرة الانفتاح العربي آنذاك على كل ما وجدوه في العالم المحيط بهم من معرفة وفكر وتراث، وما أن نجح العرب المسلمون في استيعاب كل ذلك والتكيف معه حتى انطلقوا إلى بناء حضارة جديدة سبقت أغنت العالم لمدة قرون طويلة.

أيها الحفل الكريم،

وما تاريخ بلاد الشام من هذه الناحية إلا مثال لقصة الحوار الحضاري بين الأمم والشعوب يرمز إلى الأصالة من جهة، وإلى الانفتاح من جهة أخرى. هذه الظاهرة عميقة في وجودنا عمق البتراء في جذور هذا البلد، لذلك فإنني أدعو في ختام كلمتي هذه إلى إقامة جمعيات صدقة لمؤتمر بلاد الشام في الدول الشقيقة والصديقة، وإلى العناية بنشر النصوص وترجمة الأمهات من الدراسات حول تاريخ بلاد الشام باللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وإلى إعداد الأطالس التاريخية والمعاجم الجغرافية والتاريخية لبلاد الشام مع فهرسة المواقع الأثرية والمزارات والاضرحة. وإلى توجيه طلاب الدراسات العليا نحو تاريخ هذه البلاد، ويسعد الأردن أن يرحب بطلاب الجامعات الشقيقة والصديقة الراغبين في دراسة تاريخ هذه البلاد.

أيها الاخوة الكرام،

أبارك لكم جهودكم في خدمة العلم والحقيقة والتاريخ، وأرجو الله أن يكون التوفيق حليفكم في مساعيكم النبيلة الخيرة.

وفقكم الله وسدد خطاكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة

الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي

رئيس الجامعة الأردنية

مولايَ حضرةَ صاحبِ السموِّ الملكيِّ الأميرِ الحسنِ وليِّ العهدِ المعظمِ مندوبَ حضرةِ صاحبِ الجلالةِ الهاشميةِ الملكِ الحسينِ المعظمِ ، ورئيسِ المؤتمرِ .

في ظلِّ الملِكِ يَحُلُونَا التَفِيؤُءَ ، وبرعايتهِ وَحَدْبِهِ يَكْبُرُ فِينَا الأملُ ، ومن صائبِ قراراتِهِ نستمدُّ ثباتَ الخُطى في المسيرِ ، أرادَ للحقيقةِ أن تُنيرَ فَأَنارتُ ووفَّرَ للمؤتمرِ أسبابَ النجاحِ فطبَّقتُ شهرتَهُ الأفاقَ ، ورعاهُ يومَ كانُ برُعمًا ندياً ، وعهدَ إلى سَموِّكمُ بإستمرارِ رعايتهِ ورئاستِهِ ، فعدا بفضلكم يا مولايَ جَمَّ العطاءِ داني الثمارِ .

وها نحنُ بتأييدِ مِنَ اللهِ العليِّ القديرِ ما نزالُ مَعَ الحقيقةِ العلميَّةِ على عهدٍ ، وما نزالُ نتمثَّلُ في كُلِّ عملٍ ننجزه تشجيعَ جلالَةِ القائدِ في رسالتهِ إلى سَموِّكمُ عندما قالَ : «وقد أسعدني ما تحقَّقَ حتى الآنَ في بلدنا الغالي، من انتشارِ الجامعاتِ ومعاهدِ الدراسةِ المختلفةِ ، ومراكزِ البَحْثِ العلميِّ ومجاميعِهِ وجمعياته التي ضربتُ بسهمٍ وافرٍ في ازدهارِ الحياةِ العقليةِ والتقدُّمِ الحضاريِّ لهذا القطرِ، الذي استطاعَ ، بتوفيقِ اللهِ وبفضلِ أبنائه ، أن يبلِّغَ مِنَ المراتبِ ما يفوقُ امكانياته ، وأن يُصبحَ واحَةً لحريةِ الفكرِ ، وملتقى للندواتِ والمؤتمراتِ العربيَّةِ والاسلاميةِ والدوليةِ ، فكانَ بذلكَ مَعقِدَ الآمالِ ، ومَطْمَحَ الأنظارِ ، ومَحَلَّ التقديرِ والثناءِ .

سيدي صاحبِ السمو الملكي :

لقد بدأتُ مؤتمراتُ الشامِ يومَ بدأتُ ، ورائدُها التَعَرُّفُ والكشفُ ، ولكنَّها اليومَ بعد أن قَطعتُ كُلَّ تلكِ المراحلِ ، لَمْ تَعُدْ تكتفي بهذهِ الغايةِ ، إذ أضافتُ إلى ذلكَ كُلَّهُ البناءَ المتتابعَ للنتائجِ ، واستخدَامَ كُلِّ الوسائلِ المُسَعِّفةِ على الاستقراءِ ، وتَوْصِيلِ المَعْرِفَةِ إلى مستوياتٍ مختلفةٍ مِنَ الناسِ ، لَقَدَ بدأتُ حينَ كانتُ مُهمَّةُ المؤرِّخِ أخذةً بالتباعدِ عن منطِقَةِ السُّهولةِ ، وبالدُّخولِ في مَنطِقَةِ مَعقَدَةٍ تَلزِمُهُ فيها الوسائلُ المتعدِّدةُ وتضطرُّهُ إلى الاستعانةِ بالروافِدِ المُخْتَلِفةِ : فَلَمْ يَعُدْ المؤرِّخُ قادراً على الاكتفاءِ بالمصادرِ التي خَلَّفها أسلافُهُ المؤرِّخونَ بَلْ أصبحَ لزاماً عليه أن يستعينَ بالوثائقِ والنقودِ والأختامِ والآثارِ

والنقوش وكل ما يوضح أبعاد الصورة، ويضيف إليها، ولم يعد تفسيره للتاريخ قاصراً على محاكاة النص التاريخي بنفسه، بل أصبح من الضروري له أن يسترفد النتائج المهمة التي تقدمها إليه العلوم الأخرى من اقتصاد واجتماع وانثروبولوجيا وعلوم استراتيجية، ومسح طبوغرافي وجغرافي. وحين تعقدت مهمة المؤرخ أصبح التاريخ أشد اقتراباً إلى العلم منه إلى الفن، وإن لم يفقد ذاتية المؤرخ وقدرته الخاصة على التصور، ونصيبه الوافر من الاحساس بالتاريخ. إن تعديلاً كبيراً قد طرأ على مقولة يعقوب بيكرهارت مؤرخ عصر النهضة حيث يقول «ما يزال التاريخ في نظري شعراً إلى حد بعيد، فهو سلسلة من أجمل المنظومات وأروعها». نعم إن المؤرخ بحاجة إلى الروح الشعرية، إلى الخيال، ولكن الوسائل التي أصبح يتعامل معها لا تفرق في كثير عن وسائل العلم التجريبي.

مولاي ولي العهد المعظم

أيها الحفل الكريم

حين بدأت مؤتمرات بلاد الشام حيث بدأت، كانت الشام في التاريخ جزءاً صغيراً واقعاً على طرف من أطراف امبراطورية كبرى، أما هذه الندوة الثالثة فتختلف عن كل ما سبقها من ندوات، إذ تعالج بلاد الشام يوم أصبحت مركز امبراطورية كبرى، يوم أصبحت هي القلب الكبير الذي تصله بالأطراف وتصل الأطراف به شرايين وأوردة. من بلاد الشام تمت الفتوحات وعلى يد الجيوش الشامية تم نشر الاسلام شرقاً وغرباً، ومنها انطلقت التنظيمات الادارية والمالية والسياسية، وفيها التقت أمواج الحضارات، وبلغ المجد العربي أروع ذراه سموقاً وعزة، فانتم اليوم - أيها العلماء الاجلاء - تميظون اللثام عن جوانب كانت مجهولة من هذا التاريخ، وتردون الانصاف إلى حقبة لحقها الظلم. وترجعون إلى الموضوعية العلمية ما سلبه منها الهوى، فقد ظلم تاريخ بلاد الشام - في العهد الذي تعالجونه، أعني العهد الأموي - مرتين، مرة يوم تولى كتابة ذلك التاريخ ناس كانوا يعيشون في ظل الدولة العباسية، ومرة في العهد نفسه على يد القراء والمتطرفين من أتباع الأحزاب السياسية المناوئة.

انني لا ألقى على أسماع السادة العلماء جديداً حين أقول: إن كتابة التاريخ عملية ذات وجهين: فجانب منها استرجاعي يحاول أن يتمثل أقرب الصور واقعية من

الماضي، وجانبٌ منها استثنائيٌّ يحاولُ أن يوظفَ الماضي في خدمةِ المستقبلِ ، ويقيني أنكم تعلمون جميعاً بأننا لا نكتبُ التاريخَ ولا نستعيدُه لنستنمِ إلى أمجادِ الماضي وبطولاته ومنجزاته، ولكنَّ غايَتنا الكبرى من هذا الاهتمامِ بالتاريخِ هي استلهامه فيما يخدمُ حاضرنا ومستقبلنا، وما يمنحنا الثقةَ بما لدينا من طاقاتٍ وقدراتٍ. إن الماضي ليسَ مجرداً كُلهُ، وليسَ وضاءً من كلِّ جوانبه، والتردُّدُ فيه بين الصُّعوبِ والهبوطِ هو حكايةٌ دقيقةٌ لمسيرةِ الانسانِ وصراعه مع الزمنِ، وهذه الحقيقةُ مهمَّةٌ لنا لتدفعَ عَنَّا اليأسَ وتُحيي الرجاءَ في حاضرنا. وحينَ بدأتُ مؤتمراتُ بلادِ الشَّامِ كانَ الذينَ يراعونَ قيامها على وعيِ بهذه الحقيقةِ، لقد أرادوا منها التاريخَ الواقعيَّ غيرَ موشَّحٍ بالمغالاةِ والتعصُّبِ، فكانَ لهم ما أرادوا، ولكنهم شاءوا أيضاً أن تكونَ هذه المؤتمراتُ رمزاً للتعاضدِ والتعاونِ العمليِّ بين الجامعاتِ الأردنيَّةِ وجامعةِ دمشق، وصورةً للقائهاتِ حرَّةٍ بين مفكرينَ مُختلفي الانتماءاتِ، وتعبيراً عن جانبٍ من المسيرةِ العلميَّةِ للأردنِ وروحه السَّمحةِ، وسعةِ صدره، فإذا بهذه المؤتمراتِ تصبَّحُ «معهداً» أو «مدرسةً» للبحثِ، ومُنطلقاً لترسيخِ المنهجِ العلميِّ، ونموذجاً للتَّجرُّدِ النزويهِ والصِّدقِ التاريخيِّ.

مولاي صاحب السمو الملكي:

أيها الحفل الكريم

مُنذُ سنواتٍ غير قليلةٍ ونحنُ نسمعُ التنادي في بقاعٍ مُختلفةٍ لاعادةِ كتابةِ التاريخِ . ولكنَّا لم نرَ - حتى اليومَ - شيئاً قد تحقَّقَ. لهذا التَّعاضدِ في الاقبالِ على هذا المشروعِ الضروريِّ أسبابٌ كثيرةٌ ليس أقلها ضخامةُ المشروعِ وصُعوبته، ولكن في مقدمتها التعارضُ بين تنامي النَّزعةِ القوميَّةِ الضَّيقةِ وَبَيْنَ الانفتاحِ على سِجِلِّ الحسناتِ والسيئاتِ دونَ إبرازِ الأولى وطمسِ الثانيةِ، وفي مُقدِّمتها أيضاً تعمُّقُ «الاقليمية» التي تخافُ من طغيانِ الصُّورةِ الكبرى على الصُّورةِ الصُّغرى. وأقولُ - بكلِّ تواضعٍ - إننا في الأردنِ قد تجاوزنا كلَّ تلكِ العقباتِ فرسمنا بمؤتمراتِ بلادِ الشَّامِ نموذجاً قابلاً للتوسعةِ في كيفيةِ إعادةِ كتابةِ التاريخِ، ووضعنا في هذا المضمارِ لِبَناتٍ أولى قابلةً للازديادِ والعُلُوِّ، وليسَ الاقتصارُ على بلادِ الشَّامِ إلا خضوعاً لمحدوديةِ الوسائلِ التي نملكها، وإلَّا رغبةً في التركيزِ على نموذجٍ بعينه تَتَّبَعُهُ نماذجٌ أُخرى، وحينَ تُصبحُ وسائلنا أغنى وأغزرَ، فإنَّ رَبْطَ تاريخِ بلادِ الشَّامِ بالتاريخِ العربيِّ الاسلاميِّ عامَّةً سيكونُ موضعَ العنايةِ والاهتمامِ.

إننا نحاول تجربة رائدة، وفي سبيل إنجازها نبذل كل ما تتطلبه من عوامل مساعدة، وها نحن لا نقف عند حد الحوار العلمي الذي يدور بين العلماء في هذه الندوات، بل نحاول أن نُقَرِّبَ نتائج هذا الحوار إلى جموع الطلبة والدارسين في المدارس والجامعات، بحيث يدخل مبحث التاريخ في المدرسة والجامعة ما توصل إليه العلماء الاجلاء من ثمرات جديدة، فتعم الفائدة ويتكاثر المستفيدون.

سيدي صاحب السمو الملكي:

برعايتكم المخلصة للعلم والعلماء أخذت الدوحة العلمية تكبر وتزداد فروعاً، وليست هذه الندوة إلا ثمرة من ثمرات رعايتكم المستمرة، فاسمحوا لي سيدي أن أتقدم لدى افتتاح هذه الندوة المباركة - باسم الجامعة الأردنية، باصدق آيات الولاء المتجدد وأخلص تحيات الاجلال والإكبار، إلى مقام جلالة الحسين المعظم، القائد الحريص على تقدم مسيرة العلم والعمران في بلدنا الحبيب، كما اتقدم إلى سموكم بعظيم الشكر والعرفان لما بذلتموه وتبدلونته من سهر على التقدم الحضاري لهذا الوطن الغالي، في شتى الميادين.

كما أرجو أن تسمحوا لي يا مولاي أن أرحب باسمكم بهذه الصفوة من العلماء الاجلاء، وأن أشكر لهم جهودهم في البحث والترحال وخدمة الحقيقة.

وَفَقَّكُمْ اللهُ وَسَدَّدَ خُطَاكُمْ.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت

مقرر لجنة متابعة المؤتمرات والندوات

سيدي صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال ولي العهد المعظم

أيها العلماء الأجلاء

أيها الحفل الكريم

يسرني بالنيابة عن لجنة تاريخ بلاد الشام أن أتوجه بالشكر الجزيل لصاحب السمو الملكي الأمير الحسن ولي العهد المعظم رئيس اللجنة العليا لتاريخ بلاد الشام، لما له من فضل على أعمال مؤتمرات بلاد الشام منذ أن كانت فكرة إلى أن استوت ونضجت وأضحت تحظى باحترام الهيئات العلمية والجامعات في الوطن العربي الكبير وفي العالم أجمع. وأصبح العلماء الثقات يفيئون مع التتأم كل ندوة إلى رحاب هذا البلد من أجل التدارس والتباحث - في جو من المسؤولية العلمية والانتماء - في تاريخ امتنا العربية الاسلامية. إن ملتقانا هذا يتميز بخصوصية واضحة الا وهي أهمية بلاد الشام في عهد بني أمية، فمن أرضها الطاهرة نفر المجاهدون لتغرس السواعد العربية الراية الاسلامية على تخوم الصين ولتعب مرابك الخير إلى بحر العودة لتزرع بذرة الحضارة العربية الاسلامية في أرض الاندلس، وعلى كل هذا الامتداد كان بناء المؤسسات وكان التعريب ليتحمل العربي مسؤوليته تجاه مهمات الدولة الجديدة. فهذا هو القدر الحقيقي لبلاد الشام: تحفز وتوحيد وبناء واعلاء لشأن الأمة والعقيدة، فعلى أرضها توحد المسلمون ضد الفرنجة وعلى رحابها نشر الهاشميون راية العروبة لتتدفق الحياة من جديد في عروق منابر بني أمية ولتنتشي محاربيهم بالنفس الزكي الهاشمي القرشي.

وها هو جلالة الحسين في الزمن الصعب زمن التشظي ينبرى يلم الشمل ويوحد الصف ويدفع الغوائل عن الأمة وعن تاريخها، ويتمسك بلا هوادة بما قدر الله للانسان العربي من الكرامة وبما أنزله الله من الموقع الأول المسؤول في عالم الاسلام. مصداقاً ومنفذاً لقوله تعالى «وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون». صدق الله العظيم.

فلجلالته الشكر على الرعاية ولسمو ولي عهده الأمين الوفاء بالجميل فبهما زهت

عمان وأصبحت حقا دار العرب وبيت المسلمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حولية ثيوفانيس : مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الاموي

لطفي عبد الوهاب

الحولية التي أحاول تقويمها في هذه الصفحات كتبها راهب بيزنطي هو ثيوفانيس Theophanes، عاش في الفترة الواقعة بين العقد السادس من القرن الثامن وأواخر العقد الثاني من القرن التاسع الميلاديين، (ولد بين ٧٥٢ و ٧٦٠م وتوفي في ٨١٨م). والكاتب يتناول في حوليته الأحداث التي مرت بها الامبراطورية الرومانية في مرحلتها الأخيرة ابتداء من عام ٢٨٤م، ثم يتبعها بالأحداث التي مرت بها الامبراطورية البيزنطية حتى ٨١٢م، كما يؤرخ في حديثه لأحوال المناطق التي تعاملت معها الامبراطوريتان آنذاك في جانب أو في آخر. وضمن هذه الفترة يأتي حديثه عن الدولة الأموية (٦٦٠ - ٧٥٠م) عموماً، وعن بلاد الشام بوصفها مركز هذه الدولة على وجه التخصيص، سواء فيما يتصل بالأحداث الداخلية أو بالعلاقات مع الدولة البيزنطية.

وعلى الرغم من الأصل الأرستقراطي للراهب الكاتب والبيئة الأرستقراطية التي أحاطت بميلاده ونشأته، واستمرار هذه البيئة طوال الشطر الأول من حياته الخاصة والعامة قبل أن يتجه الى الرهبنة، على نحو ما سنرى في ما بعد، الا أنه كتب حوليته ليخاطب بها شريحة واسعة من المجتمع البيزنطي هي شريحة المثقف العام، فجاءت مختلفة في منهجها عن كتابات المؤرخين الذين سبقوه أمثال الكاتب البيزنطي السوري المولد أميانوس ماركلينوس Ammianus Marcellinus (القرن الرابع الميلادي) والكاتب البيزنطي الفلسطيني المولد بروكو بيوس Prokopios (القرن السادس الميلادي)، الذين كتبوا للصفوة المثقفة، وتميزت بقدر ظاهر من التحليل والتعليل، كما تميزت بتفسير الأحداث تفسيراً عقلانياً الى حد كبير. وقد اقتصرت حولية ثيوفانيس في عمومها على سرد الأحداث من جهة، كما نجد الكاتب، من جهة أخرى، يقدم تفسيراً دينياً للأحداث في المناسبات التي علق عليها. ومن هنا نجده يرد بعض الانتكاسات التي تعرض لها العرب، سواء في لقاء عسكري مع البيزنطيين أو في انسحاب عربي في أثناء حصار القسطنطينية أو عدم تعرض العرب لكنيسة في مدينة اقتحموها، الى التدخل المباشر للسيد المسيح أو السيدة العذراء أو الى استجابة القديسين لصلوات أهل المدينة، والتفسير ذاته يقدمه الكاتب اذا تعرض البيزنطيون لانتكاسة على يد

(*) النص المعتمد لحولية ثيوفانيس في هذه الدراسة يقع في الجزء الاول من الطبعة المعادة (Hildesheim 1963) عن الطبعة التي ظهرت في ١٨٨٢ - ١٨٨٥ تحقيق de Boor تحت عنوان :-

Theophanis Chronographia, ed. Carolus de Boor. leipzig, 1883-1885.

العرب، اذ يكون السبب هنا هو تدخل السيدة العذراء عقاباً للبيزنطيين على انحرافهم عن المذهب الديني الذي يرى الكاتب أنه يشكل السنن القويم للعقيدة المسيحية (١).

على أنني أبادر هنا فأذكر أن كاتب الحولية، فيما عدا أمثلة هامشية تعد على أصابع اليد وفي مقدور الباحث أن يكتشفها دون عناء كبير (٢)، لا يوغل في تفسيره الديني الى درجة الغيبية أو حتى الى درجة تقترب من ذلك، وإنما يورد الأحداث كما وقعت فعلاً: وكما أدى بعضها الى بعض على أرض الواقع، ثم يردف بتعليقه الديني الذي ينسب فيه النتيجة الأخيرة لتسلسل الأحداث الى تدخل السيدة العذراء أو القديسين على نحو ما أسلفت. وهكذا لا يكون أمام الباحث الا أن يستبعد التفسير الديني الذي رأينا أنه لا يتجاوز حجم التعليق، ليجد نفسه أمام الأحداث التي يصبح في مقدوره أن يتعامل معها تعاملًا مباشرًا. وأما فيما يخص الأحداث ذاتها، فعلى الرغم من أنه اعتمد في ذكرها نهج السرد المتقطع بالضرورة من سنة الى سنة على طريقة كتاب الحوليات، مما يفقدها قدرًا من استمرارية الموقف التاريخي، وقدرًا من التنظير الذي نجده عند المؤرخين البيزنطيين السابقين الذين لم يتبعوا نظام! الكتابة الحولية، الا أن حولية ثيوفانيس تبقي، رغم ذلك على المادة التاريخية الأولية، وهي الأحداث، التي يستطيع الباحث أن يتتبعها بسهولة في السنوات المتعاقبة، كما يستطيع أن يفسرها حسب المذهب التاريخي الذي يسير عليه.

وفي صدد استكمال هذا التعريف، فإنه رغم وفرة التفاصيل التي قدمها كتاب الحوليات والمؤرخون المسلمون عما كان يدور في بلاد الشام وعن الدور الذي قامت به الدولة الأموية في صراعها مع الدولة البيزنطية، الا أن هذا لا يقدم في الواقع الا جانباً واحداً من الصورة. أما نظرة أصحاب الرأي على الطرف الآخر من الصراع ومدى اهتمامهم بما كان يدور على الجانب العربي - وهو النصف الآخر من الصورة - فيظل ناقصاً. ومن ثم تظل حقيقة المساحة التي شغلتها الدولة الأموية على خريطة العالم الحضاري قاصرة في بعد أساسي من أبعادها، وهو البعد السياسي الدولي - وهنا تبرز قيمة حولية ثيوفانيس في استكمال الصورة المطلوبة.

وأول ما يسترعي نظر الباحث هو الاهتمام الكبير الذي يوليه كاتب هذه الحولية لما يدور على الجانب الأموي؛ وهو اهتمام لا يقتصر على الأحداث المتصلة بالصراع الأموي البيزنطي فحسب، بل أنه يتعدى ذلك الى تتبع الأوضاع الداخلية للدولة الأموية، وعلى وجه التخصيص على ساحة بلاد الشام، مركز هذه الدولة. ويظهر هذا الاهتمام في مجموع المساحة

١. الحولية: أمثلة عن التدخل لصالح البيزنطيين، ص ٣٩٦ - ٤٠٦، ٣٩٩، مثال عن التدخل عقاباً لهم، ص ٤٠٦.

٢. الحولية، ص ٣٩٩، مثال يذكر فيه ثيوفانيس أنه في أثناء انسحاب العرب من حصار القسطنطينية (عام ٧١٨ م) بناء على أمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز سقط على أسطولهم «مطر ناري» جعل مياه البحر ترغى وتزبد وتسبب ذلك في خسائر كبيرة. مثال آخر ص ٤٠٦ حيث يذكر ثيوفانيس أن أحد القواد البيزنطيين من أنصار المذهب اللايقوني (المعادي لتقديس صور القديسين) قذف صررة للسيدة العذراء بحجر، فجاءته في المنام وذكرت له أن ما فعله سيرتد الى رأسه. وفي اليوم التالي (وكان العرب يحاصرون القسطنطينية) تسلق القائد المذكور أعلى السور فاصابه حجر رماه العرب بالقلع وهشم رأسه.

التي يتطرق فيها الكاتب لشؤون المنطقة وأحداثها – وهي مساحة تكاد تساوي تلك التي خصصها لشؤون الدولة البيزنطية وأحداثها. بل اننا، في حدود المساحة المذكورة، نجد حديث الدولة الأموية وبلاد الشام يستغرق في بعض الأحيان القسم الأكبر من أحداث احدى سنوات الحولية على حساب الأحداث البيزنطية، بينما يشكل هذا الحديث، في أحيان أخرى، كل ما يذكره الكاتب في السنة التي يؤرخ لها.

وهذه الظاهرة تستحق التوقف، فقد عودنا الكتاب البيزنطيون السابقون لثيوفانيس ومن قبلهم الكتاب الرومان، أن يكون الحديث عن الامبراطورية الرومانية أو الامبراطورية البيزنطية هو المحور الأساسي لكتابتهم، بينما يأتي الحديث عن الأحوال الداخلية للمناطق الأخرى ضمن الحديث عن شؤون الامبراطوريتين كلما دعت الحاجة الى ذلك. ولا يغير من هذه الحقيقة أن يفرد بعض هؤلاء الكتاب فصولاً بأكملها من كتاباتهم، فيما يخص الامبراطورية البيزنطية مع الفرس أو الندال – فالحديث هنا في حقيقته هو عن النشاط الحربي لهذه الامبراطورية وليس عن هذه الشعوب ذاتها^(٣).

ولا يقتصر اهتمام ثيوفانيس ببلاد الشام في العصر الأموي على المساحة التي خصصها للحديث عنها، وانما يتخطى ذلك الى نوعية المعلومات التي يقدمها عن المنطقة. وفي هذا الصدد نجد أن هذه المعلومات لا تدخل في باب التعريف العام بأحوال المنطقة ومجتمعها في عاداته وموارده ونشاطه الاقتصادي أو وصف مدنه أو ذكر مقتطفات من تاريخه السابق – على نحو ما عودنا الكتاب الكلاسيكيون السابقون من أمثال هيرودوتوس Herodotos أو سترابون Strabon أو بلينيوس Plinius – وانما نجد ثيوفانيس يركز، بشكل واضح، على المعلومات التي يحتاج البيزنطيون، بالدرجة الأولى، الى معرفتها عن العرب ومركز دولتهم في بلاد الشام، بوصفهم القوة الشرقية التي أصبحت تشكل طرف المواجهة المقابل لهم – بعد سقوط الامبراطورية الفارسية – في الصراع الحضاري العالمي الدائر آنذاك ببعديه العسكري والسياسي، مضافاً اليهما البعد الديني الجديد الذي تمثله العقيدة الاسلامية كأسلوب حياة وفكر، في وقت كان فيه العامل الديني يشكل أحد الأبعاد الرئيسية للكيان الحضاري البيزنطي.

ومن هنا نجد ثيوفانيس يركز، في حوليته، على الصراعات السياسية في الدولة الأموية، وعلى انطلاق هذه الصراعات بين العصبية القبلية في مناسبات عديدة، ويشير في أثناء ذلك الى القيسية واليمينية. كما يتعرض للطوائف الدينية فيشير، على سبيل المثال، الى تحركات الخوارج (الذين يذكروهم تحت اسم $\chi\alpha\rho\upsilon\rho\upsilon\gamma\iota\alpha\iota$ ، أو «الحروريين»، وهو الوصف المرادف الذي لازمهم منذ بداية ظهورهم) من حيث دور هذه التحركات في اثاره القلائق بالنسبة للأمويين، كما يتحدث عن أنصار بني العباس الذين أسهموا في اسقاط الدولة الأموية. ولا يفوت كاتب الحولية ملاحظة الأثر السلبي الذي تركته هذه الصراعات الداخلية على مجريات

٢. على سبيل المثال حديث أميانوس ماركلينوس Ammians Marcellinus ماركلينوس في كتابه Res Gestae عن الحروب مع الفرس، وحديث بروكوبيوس Prokopios في كتابه « $\Upsilon\pi\epsilon\rho\upsilon\sigma\upsilon\upsilon\pi\alpha\lambda\epsilon\iota\sigma\mu\epsilon\upsilon\varsigma$ » عن الحروب مع الفرس

الأمر في بلاد الشام، فيذكر في مناسبة القتال الذي دار بين أنصار مروان الثاني (٧٤٤ – ٧٥٠ م) ومعارضيه في ٧٤٥ – ٧٤٦ م أن الامبراطور قسطنطين (الخامس ٧٤١ – ٧٥٥ م) الذي هاجم بلاد الشام آنذاك «وجد فرصته من خلال الحرب الأهلية بين البرابرة» (αδειαυ ευρω) δ' αγγιω βαρβ' αρωι «العرب على القتال فيما بينهم دون أن يعطي بعضهم بعضاً فرصة للراحة» (αδειαυ ευρω) δ' αγγιω βαρβ' αρωι^(٢)

وأخيراً فالكاتب ينفذ في كتابته الى أدق التفاصيل في صدد تعريف القارئ البيزنطي بالأحوال الداخلية في بلاد الشام. وهكذا نجده يتحدث عن الكليبيين بوصفهم إحدى القبائل اليمينية، وعن بعض التقسيمات داخل طائفة الخوارج، كما يذكر أن أنصار بني العباس كانوا يتشحون بالسواد، ويشتق لهم تسمية من هذه الصفة، وهو على علم بأن المسلمين في بلاد الشام – شأنهم شأن بقية المسلمين – كانوا يحرمون، في عمومهم، التعامل مع الصور، وهو أمر يتضح من خلال حديثه عن الامبراطور البيزنطي ليون الثالث (٧١٧ – ٧٤١ م) – وكان الكاتب يحمل عليه بسبب تصديه للمذهب الأيقوني الذي يدعو الى تقديس صور السيدة العذراء والسيد المسيح والقديسين – فيصفه مرة بأنه يفكر مثل العرب (σαρακην'οφρω) ومرتين بأنه يفكر مثل معلميه العرب (ως οξ διδ' αικαλου αυτου Αραβις)^(٣)

ومثل هذا الاهتمام من كاتب الحولية يدل على التحول الذي بدأ يسود الرأي العام البيزنطي، ليس في أوساط الدوائر الحاكمة فحسب، وإنما على مستوى شريحة لا يستهان بها خارج هذه الدائرة، إذا ما أدخلنا في اعتبارنا ما أسلفت الإشارة اليه وهو أن الحولية كتبت لتخاطب عامة المثقفين ولم تكتب للنخبة من بينهم – وهو أمر نستطيع أن ندرك مغزاه اذا تذكرنا أن المد العربي، الذي اقتطع بلاد الشام ومصر من الامبراطورية البيزنطية قبل العهد الأموي، لم يقتصر الآن على اقتطاع قسم آخر من الامبراطورية وهو شمال افريقية أو على مهاجمتها في قبرص وصقلية، وإنما بدأ يضيق الخناق عليها في أسية الصغرى، وبلغ ذروته في

٤. الحولية: ص ٤٢٢

٥. الحولية: ص ٤٢٤

٦. الحولية، المرة الأولى، ص ٤٠٥، المران الثانية والثالثة، ص ٤٠٦، ٤١٠

محاصرة العاصمة البيزنطية ذاتها، سواء بخطر القوات العسكرية أو بخطر العقيدة الجديدة (٧).

والنقطة الثانية التي تقدمها لنا الحولية في صدد استكمال التعرف على الدولة الأموية ومركزها في بلاد الشام، تخص موضوع العلاقات المباشرة بين الأمويين والبيزنطيين – حرباً أو مهادنة أو اتفاقاً يستهدف السلام. وفي هذا المجال، فإن ما كتبه ثيوفانيس عن أحوال الدولة البيزنطية بشكل عام وعن العلاقات مع الدولة الأموية بشكل خاص، يعطينا الخلفية التي تسهم في تفهم المسار العام لهذه العلاقات، كما تقدم الظروف التي تفسر بشكل خاص عدداً من تفاصيلها. وفيما يتصل بالشق الأول نجد ثيوفانيس يتحدث بالتفصيل عن عوامل الانهالك التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية – وهي عوامل اذا ضمناها الى ما يقابلها في الجانب الأموي، استطعنا أن نفهم أحد الأسباب التي جعلت الصراع العربي البيزنطي يستمر سجالاتاً دون أن يصل الى نهاية حاسمة.

وفي هذا الصدد يعطينا ثيوفانيس صورة حية للقلقل التي واجهت الامبراطورية من الداخل بشكل يكاد يكون مستمراً. فيحدثنا عن الصراع المذهبي بين الأيقونيين الذين كانوا يدعون الى تقديس صور السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين و بين اللاأيقونيين الذين كانوا يتصدون لهذه الدعوة، وما اقترن بهذا الصراع من اضطرابات بلغت قدراً كبيراً من الشراسة، وبخاصة ما يذكره لنا الكاتب من تبني بعض الأباطرة لهذا المذهب أو ذاك في أغلب الأحيان. كذلك يحدثنا عن الصراعات السياسية والحروب الأهلية التي كانت تستهدف في بعض الأحيان خلع أحد الأباطرة وتنصيب آخر، وعن التمردات العسكرية والثورات ضد

٧. لا يزال هذا هو تقويم عدم سقوط القسطنطينية أمام الحصار العربي عند بعض الكتاب الغربيين المعاصرين هو أنه أنقذ الحضارة الغربية من المد العربي الاسلامي، راجع على سبيل المثال:

George Ostrogorsky: History of the Byzantine State,

(Translated from the German - Geschichte des Byzantischen,

Staates- by Joan Hussey), Basil blackwell, Oxford, 1984 P. 125.

حيث يقول «لا يوجد أي شك في أن الهجوم العربي على القسطنطينية كان أشرس هجوم قام به «الكفار» على معقل مسيحي، وقد كانت العاصمة البيزنطية هي السد الأخير الذي وقف في طريق المد الاسلامي الصاعد. ولم يقتصر أثر صمودها على انقاذ الامبراطورية البيزنطية فحسب، بل أنقذ كذلك، الحضارة الأوروبية بأكملها».

راجع كذلك في المعنى ذاته:

Harry Turtledove. The Chronicle of Theophanes, University of Pennsylvania Press, Philadelphia,

1982, pp. VII - VIII.

البيزنطيين في مناطق سيطرتهم . هذا الى جانب التحديات الخارجية على الحدود الغربية من جانب البلغار – وهي تحديات كانت مصدر استنزاف عسكري دائم للامبراطورية (٨).

أما فيما يتعلق بالشق الثاني الذي يسهم في التفسير المباشر لعدد من مواقف وأحداث الدولة الأموية في علاقاتها مع البيزنطيين، فأقدم مثالين أحدهما في ٦٦٧ م على عهد الامبراطور البيزنطي كونستانس الثاني (٦٤٢ – ٦٦٨ م) وعهد معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ – ٦٨٠ م) حين تمرد سابوريوس Saborios، والي أرمينية، على الامبراطور، وأرسل رسولا الى معاوية يفاوضه على الوقوف الى جانبه مقابل اخضاع منطقة بيزنطية للخليفة العربي، فكان رد الفعل لدى الامبراطور البيزنطي هو أن أرسل بدوره رسولا الى الخليفة يفاوضه على عدم مساعدة الأرمينيين (٩). وهكذا أصبح معاوية في موقف المساوم القوي الذي يمكنه أن يمسك بزمام المبادرة ازاء الامبراطور البيزنطي. وقد ظلت هذه المبادرة في يد الخليفة العربي عشر سنوات كاملة لم تستطع الامبراطورية البيزنطية خلالها أن تحصل من معاوية على اتفاقية سلام كانت في أشد الحاجة اليه، حتى كانت سنة ٦٧٧ م على عهد الامبراطور قسطنطين Kostantinos الرابع (٦٦٨ – ٦٨٥ م)، الذي نجح في أخذ المبادرة من يد معاوية، وذلك عن طريق ارسال مجموعة من شعب المردة ΜαρS αιταλ الذي كان يقيم في منطقة الأناضول، حيث تسربوا الى جبال لبنان، وشنوا عليه عدداً من الغارات التي جعلته تحت سيطرتهم الفعلية – وفي هذا المأزق الأموي استطاع الامبراطور البيزنطي أن يحصل من معاوية على اتفاقية السلام التي يريدها (١٠).

والمثال الآخر الذي أقدمه يقع في ٧٤٢ م على عهد قسطنطين الخامس (٧٤١ – ٧٧٥ م)، وعهد هشام بن عبد الملك (٧٢٤ – ٧٤٣ م). وهنا يحدثنا ثيوفانيس عن هجوم قام به أرتافاسدوس Artavasdos، القائد البيزنطي لمنطقة أوبسكيون Opsikion على القسطنطينية، نجح القائد على أثره في اقتحام العاصمة، ونشب القتال بينه وبين الامبراطور – امتداداً للصراع المذهبي بين القائد الأيقوني والامبراطور المعادي للأيقونية. وازاء هذا الظرف المواتي للعرب الذين كانت قواتهم موجودة آنذاك في أسية الصغرى، شن القائد العربي هجوماً على البيزنطيين تمكن على أثره من أسر أعداد كبيرة منهم (١١).

والآن، وبعد أن حاولت اظهار قيمة الحولية في مجال استكمال الصورة التي قدمتها لنا المصادر العربية عن بلاد الشام والدولة الأموية في بعدين أساسيين من أبعاد هذه الصورة

٨. الحولية؛ أمثلة في ص ٢٨٥ – ٢٨٦، ٢٩٨ – ٢٩٩، ٤١٣، ٤١٥.

٩. الحولية؛ ص ٢٤٨ – ٢٥٠.

١٠. الحولية، ص ٢٥٥.

١١. الحولية، ص ٤١٥.

أنقل الحديث الى تأصيل ما جاء بها من معلومات بهدف التعرف الى قيمتها كمصدر يعتمد عليه الباحث في تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي سواء فيما يتصل بالأحوال الداخلية في بلاد الشام أو فيما يخص العلاقات الأموية البيزنطية.

لقد رأينا، فيما يخص الشق الأول، اهتمام كاتب الحولية بكل ما كان يدور في داخل بلاد الشام كما رأينا كيف أورد ذلك في قدر من تفاصيله الأساسية ينم عن معرفة داخلية. وهذا النوع من المعرفة لا يتسنى الحصول عليه من الأخبار العامة التي قد تصل الى البيزنطيين بشكل أو بآخر. ومن هنا فالكاتب لا بد أن يكون قد حصل على معلوماته من مصدر مكتوب، يسهل على صاحبه أن يحصل على هذه المعلومات، إما من كتابات سابقه فيما يخص تاريخ بني أمية (أو بمعاصرتها لها في الفترة اللاحقة لعصر بني أمية والتي أوردها الكاتب في حوليته). والاستنتاج المطروح أمامنا في هذا الصدد هو أن ثيوفانيس اعتمد على مصدر عربي أو سرياني لم يصل إلينا، وتمت ترجمته الى اليونانية خلال العقد الأول من القرن التاسع أو على أقصى تقدير في نهاية القرن الثامن، اذا أدخلنا في تقديرنا أن ثيوفانيس بدأ كتابة حوليته في ٨١٠م. والاختيار المرجح هو أن يكون المصدر سريانياً حيث أن السريان كانوا هم الذين يعرفون اللغة اليونانية، ويتعاملون معها في حركة الترجمة منذ بدايتها في أواخر العصر الأموي حتى بلغت ذروتها في عصر الخليفة المأمون (٨١٢ - ٨٢٣م) سابع الخلفاء العباسيين.

ونحن نستطيع أن نؤكد هذا الاستنتاج من مقارنة حولية ثيوفانيس بمصدر تاريخي آخر يرجع لوقت متأخر عن حولية ثيوفانيس بأربعة قرون، كتبه بالسريانية جريجور يونس الملطي المعروف بابن العبري (١٢٢٦ - ١٢٨٦)، ثم قام هو نفسه بنقله الى العربية مع شيء من الاختصار وبعض الإضافات تحت عنوان «تاريخ مختصر الدول». وبالمقارنة بين الحولية وتاريخ ابن العبري نجد كثيراً من الفقرات المتطابقة (١٣). ومن غير الممكن أن يكون ابن العبري قد نقل عن حولية ثيوفانيس، فرغم اتقان ابن العبري لليونانية إلا أنه كان يتقن السريانية والعبرية كذلك، ومن ثم كان بمقدوره أن يحصل على مادته التاريخية عن تاريخ العرب من مصدر أو مصادر كتبت بأي منهما، إذ لا يكون هناك أي معنى لأن ينقل معلوماته في هذا المجال عن حولية كتبت باليونانية، فمثل هذه الحولية لا يمكن في أحسن الأحوال إلا أن يكون صاحبها قد اعتمد على أصل سرياني (أو عربي) مترجم الى اليونانية. هذا، الى أن ابن العبري كان بإمكانه أن يحصل على كل ما كان متوفراً في أيامه من المصادر العربية أو السريانية عن تاريخ العرب، فقد نزع مع أسرته الى بلاد الشام لتستقر هناك وهو بعد في

١٢. ابن العبري، غريغورس أبو الفرج بن هارون الملطي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، (د.ت). مثالان على التطابق: ص ١٠١ - ١٠٩ عند ابن العبري تعادل ص ٢٤٩ - ٢٥٠ عند ثيوفانيس، ص ١٢٢ عند ابن العبري تعادل نهاية ص ٢٦٤ وبداية ص ٣٦٥.

السابعة عشرة من عمره وفيما عدا سنوات قليلة، قضى بقية حياته متنقلاً بين الشام والعراق – حيث تتوافر هذه المصادر (١٣).

وهكذا لا يبقى أمامنا إلا أن يكون ثيوفانيس وابن العبري – إزاء تطابق عديد من الفقرات في كتابيهما – قد اعتمدا على مصدر واحد مشترك على الأقل في الحصول على معلوماتهما، وهو مصدر سرياني على وجه الترجيح، كتبه أحد أبناء المنطقة العربية ممن كان بإمكانهم، بالضرورة، أن يصلوا بسهولة إلى ما يريدون من المعلومات من المخطوطات التاريخية المتوافرة آنذاك. فإذا أدخلنا في اعتبارنا دقة المعلومات التي تتم عن معرفة داخلية بأمور بلاد الشام في العصر الأموي، والتي تظهر في حولية ثيوفانيس، يصبح في مقدورنا أن نقول: إن هذا الكاتب قد اعتمد في معلوماته في هذا الصدد على مصدر يوثق به.

أما فيما يخص معلوماته عن العلاقات البيزنطية الأموية وعن أحوال الدولة البيزنطية في الفترة التي عاصرت الدولة الأموية، فهو، على عكس الفترة السابقة لذلك، لا يمكن تسمية مصدره، وكل ما يمكن التأكد منه في هذا الصدد هو ما توصل إليه عالم البيزنطيات الروسي أوستروجورسكي Ostrogorsky، عن طريق المقابلة بين المعلومات التي أوردها ثيوفانيس في حوليته ومعلومات مشابهة أوردها مؤرخ بيزنطي آخر معاصر له هو البطريك نيكيفورس Nikephoros في كتابه «موجز التاريخ»، «ιστορία στην Γωω». إن الكاتبين يشتركان في الاعتماد على مصدر واحد، وإن كان ثيوفانيس يتميز على قرينه بالدقة في ضبط التواريخ وبتفصيل أوفر وربط أفضل بين الأحداث^(١٤)

وأود أن أضيف إلى ما قاله أوستروجورسكي أن تميز ثيوفانيس بهذا الضبط والتفصيل والربط بين الأحداث، رغم اشتراكه مع نيكيفورس في الاعتماد على مصدر واحد، يشير بوضوح إلى أن ثيوفانيس اعتمد على مصدر آخر لم يكن متوافراً لدى نيكيفورس. وأن هذا المصدر لم يكن مخطوطاً تاريخياً واللاستطاع نيكيفورس أن يحصل عليه، فالرجلان كانا متعاصرين، وتجمع بينهما أكثر من رابطة – إذن فالمصدر الذي اعتمد عليه ثيوفانيس، والذي ميزه على قرينه لا بد أن يكون قد وصل إليه بجهوده الشخصية. والفرضية التي أقدمها هنا هي أن هذا المصدر كان هو السجلات الحكومية أو سجلات القصر الإمبراطوري، إضافة إلى المعلومات الشخصية التي كان بإمكانه أن يحصل عليها من أولي الأمر ممن عاصروا الأحداث في الفترة التي عاصرت المرحلة الأخيرة من الحكم الأموي (١٥)، إذا أدخلنا في اعتبارنا أن ثيوفانيس قد أدرك في حياته عدداً من هؤلاء – فقد كان ميلاده، حسبما ذكرت في مناسبة

١٣. المصدر السابق نفسه، مقدمة المحقق، ص ج – و.

١٤. Ostrogorsky: Theophanes (Realencyclopaedie der Altertumswissenschaft), col. 2121.

١٥. يشير ثيوفانيس إلى هذا المعنى في حوليته، ص ٤١٦. راجع أدناه، الشطر الأخير من هذا القسم من الدراسة وكذلك حاشية ٤.

سابقة، خلال العقد السادس من القرن السابع الميلادي وهو العقد الذي شهدت بدايته السنة التالية مباشرة لنهاية الحكم الأموي.

وأبني افتراضي هذا على الظروف الشخصية التي أحاطت بميلاد الكاتب وتنشئته والشطر الأول من حياته الخاصة والعامية التي لم يفقد الميزات المترتبة عليها الا قبل موته بثلاث أو خمس سنوات على الأكثر، بعد أن كان قد انتهى من كتابة حوليته - وهي ظروف تجعل في مقدوره أن يصل بسهولة الى السجلات الحكومية والامبراطورية، وأن يتصل بمن كانوا على علم بمجريات الأحداث (١١٦). فقد ولد ثيوفانيس لأبوين من الطبقة الأرستقراطية، وظل أبوه حتى وفاته من أهل الثقة لدى الامبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥ م)، وبعد وفاة والدي ثيوفانيس وضعه الامبراطور تحت رعايته الشخصية، وقام على تنشئته وتعليمه. كما قام ليون Leon الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠ م)، الذي خلف قسطنطين على عرش الامبراطورية، بتكريمه، فأضفى عليه لقباً رفيعاً من ألقاب الدولة، كذلك تزوج ثيوفانيس من أحد البيوت النبيلة واستمر زواجهما لفترة قبل أن يضعها نهاية له، ويتجه الزوجان الى حياة الرهبنة، ولم يتعرض طوال هذه الفترة لأي غضب أو نقمة من جانب السلطة الامبراطورية الا حوالي ٨١٥ - ٨١٦ م حين سجنه الامبراطور ليون الخامس (٨١٣ - ٨٢٠ م) ثم نفاه (١١٧)، وكان ثيوفانيس قد انتهى من كتابة حوليته قبل هذا التاريخ.

وفي هذا الصدد تجدر الاشارة الى أنه، باستثناء كتاب نيكيفوروس الذي سبقت الاشارة اليه، والذي يحتاج الاعتماد عليه في البحث العلمي الى قدر كبير من الحذر، تظل حولية ثيوفانيس هي المصدر الوحيد للتاريخ لشؤون الامبراطورية البيزنطية وعلاقاتها الخارجية خلال القرنين السابع والثامن اللذين يشكلان الفترة التي تغطي تاريخ بلاد الشام في العصر الأموي، وذلك بسبب اندثار كل ما يمكن أن يكون قد كتب عن تاريخ الدولة البيزنطية في هذه الفترة. و يظهر هذا واضحاً في اعتماد المؤرخين البيزنطيين اللاحقين لهذه الفترة عليها - وهو أمر نلمسه، على سبيل المثال، في الكتاب الذي وضعه الامبراطور قسطنطين السابع پورفيروجينوس Porphyrogenitos (٩١٣ - ٩٥٩ م)، والذي ينقل فيه الامبراطور الكاتب

١٦. فقد ثيوفانيس ميزات موقعه في عهد الامبراطور ليون الخامس الذي بدأ حكمه في ٨١٣ م. وكان هذا الامبراطور من أنصار مذهب اللايقونية المعادي للمذهب الايقوني الذي كان يعتنقه ثيوفانيس. وقد رفض ثيوفانيس مناصرة السياسة الدينية للامبراطور فسجنه. ولكن يبدو أن المواجهة المباشرة بين الامبراطور وخصومه المذهبيين لم تبدأ الا في ٨١٥، بعد أن تولى العرش بستنتين فنحن نعرف أنه عزل البطريرك نيكيفوروس من منصبه الديني في هذه السنة، ومن ثم تكون هي السنة ذاتها التي سجن فيها ثيوفانيس.

١٧. عن حياة ثيوفانيس راجع :

Ostrogorsky: Theophanes (حاشية: ١٢٠ أعلاه) cols 217 - 28)

Constantine Porphyrogenitus De Administrando Imperio.

Dumbarton Oaks Center for Byzantine Studies, Washington, D.C

بوفرة عن ثيوفانيس بما في ذلك صفحات متتالية في عديد من الأحيان يكتفي الامبراطور بأن يذكر في عنوانها عبارة «من حولية ثيوفانيس» «*Εκ του χρονικου Θεοφανους*» مذبوعة بتاريخ السنة التي يتحدث عنها صاحب الحولية (١٨).

وفي نهاية الحديث عن تأصيل حولية ثيوفانيس كمصدر لتاريخ الأمويين ، هناك نقطة يجب أن نتريث عندها. ذلك أنه رغم ما ثبت من دقة التفاصيل التي يوردها الكاتب في هذا الصد، ومن المعرفة الداخلية لكثير من الأمور الخاصة بمقر الخلافة الأموية في بلاد الشام، إلا أن حديثه عن تصرفات العرب ازاء نقطتين محددتين يبدو فيها التزيد على الحقيقة أو نقضها فعلا في بعض حالات وان كانت قليلة. وذلك بالمقارنة بما جاء في المصادر الأخرى أو بما ذكره ثيوفانيس نفسه في مواضع أخرى من حوليته.

والنقطة الأولى في هذا الصد هي ما ذكره عن حرق أسقف مدينة أفامية حياً في السنة السادسة من خلافة معاوية بن أبي سفيان (٦٦٥ - ٦٦٦ م) (١٩). ولا أجد لهذا القول ذكراً في المصادر التي كتبها المؤرخون المسلمون، كما لا أجد له ذكراً كذلك في مصدرين كتبهما اثنان من رجال الدين المسيحي الذين تناولوا شؤون الدولة الأموية، أحدهما البطريرك سعيد بن بطريق (القرن العاشر الميلادي)، والثاني هو الأسقف غريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبري (١٢٢٦ - ١٢٨٦ م) (٢٠). وكان حرياً بالرجلين أن يتوقفا عند هذه الواقعة، وبخاصة أولهما، سعيد بن بطريق، الذي خصص القسم الأكبر مما كتبه للحديث عن شؤون الكنائس، ورجال الدين المسيحي، ومعاملاتهم مع الخلفاء وعن شؤون المسيحيين بوجه عام. ولا يمكن أن نقول هنا: أن الكاتبين لم يتطرقا الى هذه الواقعة خوفاً من الحاكم العربي أو نفاقاً له، اذا كان ذلك وارداً، فقد حررا كتابيهما في العصر العباسي، وكان في مقدورهما إزاء العداء التقليدي بين بيت بني العباس وبيت بني أمية، أن يقولوا ما يشاء عن ممارسات الدولة الأموية.

أما النقطة الثانية فهي ما يذكره ثيوفانيس عن تدمير العرب لبعض المناطق أو المدن التي فتحوها. ورغم أن التدمير أمر وارد في الحروب بصفة عامة، إلا أن حديث ثيوفانيس عن العرب في هذا الصد ينبغي أن نأخذه بشيء من الحذر، واستدل على وجوب هذا الحذر مما نسبه الكاتب الى معاوية من تدمير الكولوسوس kolossos - وهو التمثال الذي نحته المثال اليوناني في ٢٨٠ ق.م. ليكرم به سكان جزيرة رودس إلهة الشمس هليوس Helios، أكبر ألهة

١٨. على سبيل مثالين يكتفي الامبراطور فيهما بأن يقول في عنوان الحدث «من حولية ثيوفانيس».

«*Εκ του χρονικου Θεοφανους*» 2De Administrando Imperio, NvII, 1: 1-2

١٩. الحولية: ص ٢٤٨.

٢٠. ابن بطريق، انتيقيوس المكنى بسعيد بن بطريق (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)، كتاب التاريخ المصنوع على الحفص

والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٩. حديثه عن معاوية: ص ٣٣ - ٣٩.

ابن العبري، حديثه عن معاوية: ص ١٠٩ - ١١٠.

الجزيرة وبلغت أبعاده درجة غير عادية من الضخامة - وذلك عندما اجتاحت هذه الجزيرة (٦٥٣ - ٦٥٤ م) أثناء ولايته على بلاد الشام على عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (٢١). ومع ذلك فإن المؤرخ الروماني بلينيوس Plinius الذي عاش في القرن الأول الميلادي (٢٤/٢٣ - ٧٩ م) يذكر لنا أن هذا التمثال قد سقط بعد اقامته بستة وستين عاماً (أي حوالي ٢٢٦ ق. م) Post LXVI annum terrae motu prostratum نتيجة لزلزال هز الجزيرة، ثم يصفه كشاهد عيان بقوله «ولكنه، حتى وهو ملقى (على الأرض) لا يزال معجزة» (est sed iacens quoque miraculo...٢٢).

والتفسير الذي أقدمه - وهو ليس تبريراً لعدم الدقة - هو أن ثيوفانيس حين كان ينقل عن مصادره المكتوبة كان دقيقاً في نقله. ومن هنا، في حدود الاستثناءات التي أوردتها، كانت دقة معلوماته عن شؤون بلاد الشام، سواء فيما يخص أحوالها الداخلية أو نشاط الأمويين في الخارج، فهو مثلاً يتحدث، فيما يخص رجال الدين المسيحي، عن تكريم بعض الخلفاء لهم أو عن عقابهم إياهم، إذا سبوا الإسلام أو الرسول (ص)، بالنفي أو قطع اللسان أو القتل بالسيف - وهو العقاب الذي تذكر لنا المصادر العربية أن الخلفاء كانوا ينزلونه بالمسلمين أنفسهم إذا بدر منهم ما يثير الفتنة. ولكن المصادر المكتوبة لم تكن كل ما كان يعتمد عليه ثيوفانيس في أخبار ما كان يحدث في بلاد الشام، وإنما كان يعتمد إلى جانب ذلك، حسبما يذكر هو نفسه في إحدى فقرات الحولية، على الأخبار التي يحملها الرواة وتصله سماعاً عن طريق العننة. ففي هذه الفقرة يتحدث الكاتب عن عقاب أنزله الوليد بن يزيد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤ م) في ٧٤٣ م باثنين من رجال الدين المسيحي، وبعد أن يذكر الواقعة يقول: «حيث أن الذين نقلوا هذا يقولون: إنه كلام مؤكد، لأنهم سمعوه بأنفسهم» (ὅτι οἱ διὰ τὴν ἀλήθειαν τῆς φωνῆς τοῦτο πεπληροφορηθησάντες...٢٣).

والمبالغة والتحريف، وفي بعض الأحيان ذكر أحداث لا أصل لها، أمر وارد وطبيعي في حديث العننة، وبخاصة في عصر كانت تسوده ظروف الصراع الممتد، كما كان الحال في عهد بني أمية، بين العرب والمسلمين والبيزنطيين المسيحيين.

٢١. الحولية: تدمير المناطق البيزنطية المفتوحة في مناسبتين على سبيل المثال (٦٦٣/٦٦ و ٦٦٦/٦٦٧ م) ص ٣٤٨. قارن ما نسبته ثيوفانيس إلى معاوية أثناء ولايته على الشام. على عهد عثمان بن عفان. من تدمير مدينة أرواد وحرقتها (٦٤٩. ٦٥٠ م). ص ٣٤٤. حديث ثيوفانيس عن تدمير الكولوسوس. ص ٣٤٥.

٢٢. Plinius: Naturalis Historiae, XXXIV, 41.

هذا وأود أن أذكر هنا أن المؤرخ بولسبيوس (Polybios, V, 88) يتحدث عن سقوط التمثال اثر زلزال أصاب أنجيريده في أنخرة ذاتها التي يشير إليها بلينيوس. وجدير بالذكر أن بولسبيوس يذكر في الفقرة التالية (V, 89) أن أحد ملوك البطالسة وعد أهل رودس بتقديم مساعدة نقدية وعينية لهم لاعادة اقامة التمثال. وقدم بالفعل جزءاً من هذه المساعدة، ولكنه لا يتحدث عن قيام الروديسيين بذلك بالفعل. وأمام شهادة بلينيوس فإن التمثال قد بقي على ما هو عليه. ملقى على الأرض.

٢٣. الحولية: التكريم والعقاب. ص ٤١٦ - ٤١٧. العننة السماعية. ص ٤٦١.

والنقطة الثانية في هذا التفسير امتداد للنقطة الأولى، وهي أن الفترة التي كتب فيها الكتاب حوليته كانت فترة تطرف ديني في الدولة البيزنطية – وهو تطرف كان أحد مظاهره الصراع المذهبي الذي أسلفت الإشارة إليه. فإذا وضعنا في تقديرنا، الى جانب ذلك، التوجس التاريخي من الجانب البيزنطي إزاء العرب، استطعنا أن نصل الى السبب الذي جعل كاتب حولية، على الرغم من تحريه الدقة في الكتابة، يقبل ما كان يسمعه من الرواة عن العرب – إذ كان هو ذاته من المتطرفين الدينيين : فالعرب، حسب تسمياته، هم أعداء الله ^{θεοῦ ἔχου} والمنكرون للمسيح ^{Χριστοῦ ἔχου} والبرابرة ^{βάρβαροι}. والامبراطورية البيزنطية هي مملكة المسيحيين ^{Χριστιανῶν βασιλευσιν} وهكذا.

ومن هنا نفهم شيوع عدد من المسلمات لدى البيزنطيين عن تصرفات العرب، ومن بين هذه المسلمات تدمير العرب للمدن التي كانوا يفتحونها. كما نفهم قبول ثيوفانيس لعدد من الأخبار التي كانت تتفق مع هذه المسلمات. وإذا أضفنا الى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن الكاتب كان على معرفة بموقف المسلمين المحرم للتعامل مع الصور والتماثيل، أمكننا تفسير قبوله للرواية التي تنسب تحطيم تمثال الكولوسوس الرودي الى معاوية.

وفي ضوء هذا التأصيل أستطيع أن أقول : إن ثيوفانيس كان كاتباً يتحرى الدقة فيما يخص الأحداث المتصلة بالعلاقات الأموية البيزنطية، وكذلك الأحداث التي تتصل بالتحركات العسكرية والصراعات السياسية والقبلية والأحوال والتحركات المذهبية والطائفية التي كانت تدور على ساحة الدولة الأموية – فكلما النوعين من الأحداث كان مما يهم البيزنطيين التعرف إليه على حقيقته. أما فيما يخص الأحداث والتصرفات التي تمس ما يمكن أن نسميه بالسمعة الحضارية العربية، فينبغي أن نتعامل معها بقدر من الحذر – فالعصر، كما رأينا، كان عصر توجس من جانب البيزنطيين إزاء المد العربي الاسلامي، ومن ثم فإن قدراً من التحامل البيزنطي في هذا الصدد – سواء عن طريق المبالغة أو المغالطة – يصبح أمراً وارداً في الروايات البيزنطية التي كان ثيوفانيس من بين الذين اعتمدوا عليها في بعض مواضع حوليته.

وأنقل الحديث الآن الى بعض الأمور التي اهتم ثيوفانيس بتسجيلها عن بلاد الشام الى جانب اهتمامه بالتحركات والصراعات السياسية والقبلية والمذهبية، فضلا عن العلاقات الأموية البيزنطية – وهما البعدان اللذان أولاهما عناية خاصة من حيث التفصيل على نحو ما أسلفت. وأحد الأمور التي يقدمها ثيوفانيس في هذا الصدد تتعلق بالجانب العسكري عند الأمويين. فنحن نستطيع أن نتعرف من حولية على بعض أنواع السفن الحربية التي كان الأمويون يستخدمونها، وعلى السفن التجارية التي كانت تساعد هذه السفن، وعلى النظام المتبع في حراستها، وعلى طريقة العرب في العصر الأموي في حصار المدن. كما يحدثنا كاتب حولية عن أثر النار الاعرقيية على السفن الحربية الأموية – وهي نار سائلة أقرب ما تكون

الى النابالم في العصر الحالي، اخترعها حوالي ٦٧٢ م، على عهد معاوية بن أبي سفيان، كالينيكوس الذي كان ينحدر من أسرة إغريقية (أو متأغركة) تقيم في مدينة بعلبك Heliopolis. ثم غادر البلاد الى البيزنطيين وأطلعهم على اختراعه الذي استخدموه في سفن خاصة أسموها حاملات النار ^{κακκαβουτφορος}، وكانوا يطلقونها على السفن العربية المحاصرة للقسطنطينية من خلال أنبوب ^{σφωβ} يعطيها قوة دفع لمسافة طويلة. وقد كان لهذه النار الاغريقية التي احتفظ البيزنطيون بسرّها أثر سيء على تجمعات السفن العربية في أكثر من مناسبة، احراقاً أو تشتيتاً (٢٠١٢). وربما نجد هنا سبباً أساسياً من الأسباب التي لم تمكن العرب من حسم المعركة لصالحهم في المناسبتين اللتين حاصرا فيهما عاصمة الامبراطورية البيزنطية، مرة بين ٦٧٤ و ٦٧٨ م على عهد معاوية بن أبي سفيان والأخرى بين ٧١٧ و ٧١٨ على عهد سليمان بن عبد الملك ثم عمر بن عبد العزيز.

كذلك يأتي في حولية ثيوفانيس حديث عن استخدام الأمويين في بعض المناسبات لمقاتلين من غير العرب. والكاتب يشير في احدي هذه المناسبات الى اشتباك عسكري وقع بين الأمويين والبيزنطيين في ٦٩٣ م على عهد عبد الملك بن مروان (٦٨٥ – ٧٠٥ م) والامبراطور يوستينيانوس الثاني (٦٨٥ – ٦٩٥ م) يغري القائد العربي خلاله قائد القوات الصقلية التي كانت تحارب تحت الراية البيزنطية بالانضمام اليه ومعه عشرون ألفاً من جنوده، ثم نسمع بعد سنتين أن القائد العربي هاجم البيزنطيين ومعه الصقالبة الذين فروا (من الجانب البيزنطي)، لأنهم، والحديث لا يزال لكاتب الحولية، «كانت لديهم خبرة بأراضي بيزنطة» (٢٠١١)، وغير وارد هنا أن يكون الهدف من اصطحاب القائد العربي لهذا العدد الكبير من الصقالبة هو أن يكونوا أدلاء له، فهذا أمر لا يحتاج فيه إلا أفراد قلائل – ومن ثم يصبح الهدف الواضح هو الاعتماد عليهم كمقاتلين في الصفوف العربية. أما المناسبة الأخرى فتشير الى هذه الممارسة عند الأمويين وان كانت المناسبة ذاتها (٧٥٤ م) ترجع الى السنة الرابعة من بداية الحكم العباسي، ففي هذه السنة دارت معركة في نصيبين Nisibis بين أبي مسلم، القائد المعين من قبل أبي جعفر المنصور، وقائد المنطقة السورية الذي كان قد انشق على خلافة العباسيين وفي نهاية حديث ثيوفانيس عن المعركة التي جاءت نتيجتها لصالح أبي مسلم يذكر لنا أن أغلب القتلى من رجال القائد المنشق كانوا «صقالبة وأنطاكيين» (٢٠١١).

٢٥. الحولية: أنواع الفن عند الأمويين ص ٣٩٥ – ٣٩٦. اختراع كالينيكوس للنار الاغريقية وتسليم الاختراع للبيزنطيين، ص ٣٥٤. من بين أسماء النار الاغريقية: النار الرومانية. ص ٣٥٣. النار البحرية، ص ٣٥٤. النار السائلة، ص ٣٩٦. الأثر السبيء للنار الاغريقية على العرب، ص ٣٩٦. ٣٩٧.

٢٦. الحولية: اغراء القائد العربي للجنود الصقالبة بالانضمام اليه، ص ٣٦٦. خبرة هؤلاء بأراضي بيزنطة، ص ٣٦٧.

٢٧. الحولية، ص ٤٢٨.

ومن بين الأمور التي تردد ذكرها في مناسبات عديدة في حولية ثيوفانيس، ظاهرة نقل مجموعات سكانية كبيرة من مناطق تقع تحت السيطرة البيزنطية الى بلاد الشام على أيدي قواد أمويين ثم اقرارهم هناك، وفي المقابل نقل الأباطرة البيزنطيين لمجموعات سكانية، سواء عن طريق الحرب أو الاغراء، من بلاد الشام الى مناطق بيزنطية. وفي مناسبة واحدة نجد الامبراطور البيزنطي يدفع بمجموعة سكانية من أسية الصغرى لتهاجم بلاد الشام، وتستقر في جبل لبنان، وتصبح مصدر قلق دائم بالنسبة للأمويين.

ومن أمثلة النوعين الأولين ما قام به الأمويون في ٦٦٤ م حين سيطروا على قسم من جزيرة صقلية حيث نقلوا قسماً من السكان، بناء على رغبتهم، الى بلاد الشام، وأقروهم في دمشق، ويتكرر الموقف، ولكن مع مجموعة سكانية من شعب آخر، حين نشب صدام في السنة التالية بين الأمويين والبيزنطيين كانت نتيجته انتقال المقاتلين الصقالبة، الذين كانوا يحاربون ضمن القوات البيزنطية، الى الجانب العربي وذهب خمسة آلاف منهم مع الجيش الأموي الى بلاد الشام حيث أقرهم الأمويون في منطقة سليوكوبولوس Sleukobolos قرب أفاميه Apamia. أما من جانب البيزنطيين فيحدثنا ثيوفانيس أن يوستينيانوس (الثاني) ينقض اتفاق السلام مع عبد الملك بن مروان في ٦٩٢/٦٩١ م ويحاول اقرار القبارصة في قبرص، وهو أمر يفترض أن الأمويين كانوا قد أقروا عدداً من سكان الجزيرة في بلاد الشام في منطقة قريبة من الحدود البيزنطية. كما يحدثنا صاحب الحولية في ٧٤٥/٧٤٦ م، في عهد مروان الثاني بن محمد، عن هجوم قام به قسطنطين الخامس على بلاد الشام، نقل على أثره عدداً من السوريين من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة وأقرهم في الأراضي البيزنطية. ويحدثنا الكاتب أن أغلب هؤلاء كانوا لا يزالون يقيمون في تراقية في الوقت الذي كتب فيه حوليته بعد ذلك بأكثر من ستين عاماً. هذا بينما نجد الأمويين يعيدون اقرار القبارصة في بلاد الشام في ٧٤٢ م على عهد الوليد الثاني بن يزيد (٧٤٣/٧٤٤ م) (٢٨).

أما عن النوع الثالث من نقل السكان فأشير في صدره الى ما سبق ذكره في عهد معاوية ابن أبي سفيان من محاولة ضغط الامبراطور قسطنطين الرابع على الخليفة العربي ليحصل منه على اتفاق للسلام فيرسل عبر الحدود السورية بمجموعة من شعب المردة الذي كان يقيم في منطقة ليقية (الى الجنوب الشرقي من أنقرة حالياً)، لكي يشنوا غارات مستمرة في جبل لبنان بهدف اثاره المتاعب للأمويين في هذه المنطقة. والذي أود أن أضيفه الآن هو أن وجود المردة في المنطقة استمر (ربما بشكل سلمي) حتى بعد اتفاق السلام بين معاوية وقسطنطين، فبعد هذا الاتفاق (٦٧٨ م) بنحو عشر سنوات يتحدث ثيوفانيس عن اتفاق آخر في ٦٨٧ م بين عبد الملك بن مروان (٦٨٥/٧٠٥ م) و يوستينيانوس الثاني (٦٨٥/٦٩٥ م) على

٢٨. الحولية: اقرار الصقليين في دمشق، ص ٢٤٨. اقرار الصقالبة قرب أفامية، ص ٢٤٨. محاولة يوستينيانوس اعادة اقرار القبارصة في قبرص، ص ٢٦٥. نقل عدد من السوريين الى بيزنطة، ص ٤٢٢. اعادة القبارصة الى بلاد الشام، ص ٤١٧.

استعادة المردة الذين كانوا يعدون ١٢ ألفاً. والجديد هنا أن كاتب الحولية يسميهم المردة المقيمين في لبنان εἰς τὸ Ἰβανὸν Μαριδαίτα وهي تسمية تفيد معنى الاستقرار (٢٩).

وفي الحقيقة فإن ظاهرة نقل السكان من منطقة الى أخرى كانت تدخل ضمن السياسة العامة للبيزنطيين. وكانت تخدم أهدافاً عسكرية الى جانب أهداف سياسية أو دينية في بعض الأحيان. وفيما يخص ظهور هذه السياسة ضمن العلاقات البيزنطية العربية نجد أنها تعود، قبل عهد الأمويين، الى عهد عمر بن الخطاب حيث يذكر لنا الطبري كتاباً أرسله الخليفة العربي الى الامبراطور البيزنطي يطلب اليه فيه أن يعيد سكان حي من أحياء العرب نزحوا الى الأراضي البيزنطية (ربما تحت اغراء الامبراطور والا لما كتبه عمر في الأمر)، وهو مطلب استجاب اليه الامبراطور البيزنطي ازاء تهديد الخليفة (٣٠). ومن هنا فقد كان الأمويون على علم مسبق بهذه الظاهرة، فعمدوا اليها في علاقاتهم مع البيزنطيين ووظفوها لمصلحتهم وأظهروا حرصهم على تطبيقها. وقد مر بنا في مناسبة سابقة ما ذكره ثيوفانيس من استخدام بعض هؤلاء السكان النازحين ضمن صفوف المقاتلين الأمويين.

وهناك أمر آخر أولاه ثيوفانيس قدراً ملموساً من اهتمامه بحيث ظهر بشكل متواتر في حوليته، وهو ظاهرة ذكر الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها بلاد الشام في العصر الأموي. وأسارع هنا فأقول ان هذا الاهتمام كان أمراً وارداً كذلك في الكتابات التاريخية التي ظهرت في العربية والسريانية على السواء، ويبدو أنها كانت من اهتمامات المؤرخين وكتاب الحوليات في العصور الوسطى. وعلى سبيل المثال فان ثيوفانيس يسجل على عهد معاوية بن أبي سفيان فيضاناً في الرها Edessa في ٦٦٩ م هلك فيه خلق كثير، ووباء جراد في ٦٧٦ - ٦٧٧ م. وعلى عهد عبد الملك بن مروان يسجل مجاعة ووباء تعرضت لهما البلاد في ٦٨٤ - ٦٨٥ م، ومجاعة أخرى بعد ذلك بثلاث سنوات في ٦٨٧ - ٦٨٨ م. وعلى عهد الوليد الأول بن عبد الملك يتحدث الكاتب عن زلزال شديد تعرضت له البلاد في ٧١٤ م، كما يشير الى زلزال قوي آخر في ٧١٧ - ٨١٨ م على عهد عمر بن عبد العزيز، وعن مناسبتين لانتشار الوباء على عهد هشام بن عبد الملك، احدهما في ٧٢٦ - ٧٢٧ م والأخرى في ٧٣٣ - ٧٣٤ م، وعن زلزال كبير آخر في ٧٤٧ م على عهد مروان الثاني (الجعدي)، يبدو أنه أصاب البلاد بأكملها. إذ يفصل الكاتب الحديث عنه أكثر من المعتاد، فيذكر أنه أصاب فلسطين وسورية والأردن، وأنه

٢٩. الحولية، ص ٣٦٤.

٣٠. عن ممارسات الامبراطورية البيزنطية في نقل المجموعات السكانية راجع أمثلة في:

Ostrogorsky: History of the Byzantine State, PP. 130-1

عن رسالة عمر بن الخطاب الى ملك الروم راجع:

الطبري، أبو جعفر محمد بن خليل (٣١٠ هـ/٩٢٢ م): تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ج ٤، ص ٥٥ (بدون تاريخ).

هلك فيه عشرات الألوف من السكان، كما انهارت في أثنائه كنائس وأديرة في الصحراء وحول بيت المقدس (٣١).

والموضوع له أهميته في مجال التأريخ لبلاد الشام في العصر الأموي من حيث ربط هذه الظواهر أو الكوارث الطبيعية بالأثر الاقتصادي الذي ترتب عليها، ثم ربط هذا الأثر بالسياسة الداخلية والخارجية للبلاد. وفي الواقع فإننا نجد ثلاث اشارات في حولية ثيوفانيس الى ما ترتب على بعض هذه الظواهر الطبيعية، أولاها في مناسبة المجاعة وانتشار الوباء على عهد عبد الملك بن مروان، حيث يذكر الكاتب أن الخليفة «أخضع أهل البلاد وسيطر عليهم» ἐκρίσθησαν τοὺς ἐθνούς (٣٢) - وهي اشارة تتضمن حدوث ثورة في البلاد نتيجة انتشار المجاعة. والاشارة الثانية يوردها الكاتب في المناسبة ذاتها فيذكر أنه بينما كان الوباء على أشده، والمردة يمارسون غاراتهم في منطقة جبل لبنان، (بكل ما سببه ذلك من قلق داخلي يمنع الأمويين من التفرغ لمجابهة التحركات البيزنطية)، أرسل عبد الملك الى الامبراطور البيزنطي يطلب شروط السلام نفسها التي كان معاوية بن أبي سفيان قد توصل اليها قبل. أما الاشارة الثالثة فيذكرها ثيوفانيس في صدد حديثه عن المجاعة التي حدثت في البلاد في ٦٨٧ - ٦٨٨ م على عهد الخليفة ذاته حيث يذكر الكاتب أن عدداً من السكان حاول التخلص من آثار الضائقة الاقتصادية بالانتقال عبر الحدود الى أراضي الدزلة البيزنطية (٣٣).

الحولية: ذكر هذه الظواهر الطبيعية على التوالي : عهد معاوية، ص ٣٥١، ٣٥٤. عهد عبد الملك بن مروان ص ٣٦١، ٣٦٤. عهد الوليد بن عبد الملك، ص ٣٨٣. عهد عمر بن عبد العزيز ص ٣٩٩. عهد هشام بن عبد الملك، ص ٤٠٤. عهد مروان الثاني، ص ٤٢٢.

٣٢. الحولية: ص ٣٦١.

٣٣. الحولية: ص ٣٦٤.

عبدالله بن لهيعة (٧٩-١٧٤هـ / ٧١٥ - ٧٩٠م)
واهمية صحيفته المحفوظة في هيدلبرج في
دراسة التاريخ الاسلامي في القرن الهجري
رئيف خوري

لا يمكنني أن أتحدث عن صحيفة عبد الله بن لهيعة وعن ابن لهيعة نفسه دون أن أذكر، ولو بايجاز، مجموعة أوراق البردي المحفوظة في هيدلبرج وأهميتها، بصورة عامة، في التراث الاسلامي القديم.

ورق البردي ومجموعة هيدلبرج

على الرغم من أن ورق البردي أقدم شيء حافظت عليه، الى الآن، معظم وأهم الآثار التي وصلت إلينا من الثقافة الاسلامية بصورة عامة، فلم يكن هناك أي اهتمام به قبل أوائل القرن الماضي، إذ اكتشف فلاحون مصريون سنة ١٨٢٤ في قبر أو في بئر بالقرب من أهرام سقارة جرة، وجد فيها برديتان عربيتان فأخذهما المستشرق A.I. Silvestre de Sacy ونشرهما سنة ١٨٢٥ و١٨٢٧^(١). ومع ذلك فلم يزد الاعتناء بهذا العلم بعد ذلك سوى في سنة ١٨٧٧ إذ اكتشفت كمية كبرى من البرديات في خراب كوم فارس وكوم الخريانة شمالي مدينة الفيوم الحالية. فاشترت بعض المتاحف الاوروبية عدة قطع منها مثل متحف برلين (معظم القطع القديمة محفوظة الآن في برلين الشرقية) ومتحف اكسفورد. ثم أتت سنة ١٨٨٢ بعشرة آلاف قطعة إلى فينا، اشتراها صاحب الفضل الكبير على العلم الدوق الأكبر راينر (Rainer) النمساوي، وكان ما بينها أكثر من ثلاثة آلاف قطعة عربية. ثم نتابعت اكتشافات كميات أخرى من البرديات في تلال القاهرة القديمة (الفسطاط) وأنقاض أبو صير الملق (في أوائل القرن العشرين)، وأهناس، دون أن ننسى كوم أشقوة (Aphrodito) وأخميم وجبلين، (من هنا أتى قسم من مجموعة هيدلبرج)، وأدفو (من هنا جاء بصورة خاصة «جامع الحديث» لعبد الله بن وهب - ت ١٩٧ / ٨١٢م) بينما لم يكتشف الا القليل من البرديات خارج مصر: ففي فلسطين وقعت حفريات جرت سنة ١٩٣٦ و١٩٣٧ في عوجاء الحفير على (٦٠٠) قطعة، منها ١٣ عربية بالإضافة الى عدد ضئيل جدا جدا وجد في سامراء أو في دمشق...

١. Antoine Isaac Silvestre de Sacy: Memoire sur quelques Papyrus écrits en arabe et récemment decouverts en Egypte. IN: Journal des Savants (1825) 462-473; Memoires de l' Institut Royal de France, Academie des Inscriptions et Belles-Lettres, IX (1831) 66-85; Nouveaux aperçus sur l' histoire de l' Ecriture chez les arabes du Hedjaz, In: Journal Asiatique X (1827). ص. ٢٢٠ وما بعدها.

إن هذا العرض الموجز للأماكن التي اكتشفت فيها البرديات يشير بكل وضوح إلى أهمية مصر كبلد لهذه المادة. ومن المعلوم أن معظم الكميات من هذه المخطوطات ذهبت إلى أنحاء العالم، ووزعت على مكتبات ومتاحف مختلفة.

وبلا شك فالمركز الأول يعود إلى فيينا، إذ يوجد في مكتبتها الأهلية (Nationalbibliothek) عدد ضخم جدا يتعدى الخمسين الفا من القطع المختلفة اللغات والحضارات، ومنها ما يزيد على العشرة آلاف قطعة عربية كاملة أو جزئية، وهناك حوالي ثلاثين الفا على الورق، وكان (J. Von Karabacek) أول من اهتم بهذه المجموعة فنشر أو درس (٤٠٠) منها تقريبا، ثم جاء جروهمن فتابع العمل وزاد النشر نشرا والدرس دراسة. وكل يعلم ما لهذين المستشرقين من الفضل ليس فقط في تطوير علم البرديات العربية، وبخاصة الأخير منهما، إذ يعتبر بحق الأب الروحي له، بل في مجالات أخرى هامة من الحياة الادارية والتاريخية واللغوية والاجتماعية بصورة عامة.

وليس الهدف عرض ما في العالم من المجموعات الأخرى، فما كتبه جروهمن في علم البرديات وما نشرته مؤخرًا من العرض العام يغنيان عن ذلك (٣). وإنما أود، بصورة خاصة، التنبيه إلى مجموعة هيدلبرج، إذ لها، بالرغم من كل ما قيل إلى الآن، مكان خاص بين مجموعات العالم، لما فيها من البرديات التاريخية والادارية بشكل أكمل مما في غيرها، ولا سيما أن تلك القطع تشكل أقدم ما وصل إلينا من هذا النوع في تاريخ الحضارة الاسلامية، كما سنراه فيما بعد. فهذه المجموعة شكلت ابتداء من أواخر القرن الماضي في مكتبة جامعة هذه المدينة، بمساعدة راينهردت (C. Reinhardt) الذي كان يعمل مترجما في القنصلية

٢. أقدم ما كتب في علم البرديات بقلم أدولف جروهمن تحت عنوان :

Adolf Grohmann: Aperçu de papyrologie arabe, Le Caire 1932; Adolf Grohmann: From the World of Arabic Papyri, Le Caire 1952; Adolf Grohmann: Einführung und Chrestomatie zur arabischen Papyruskunde. I. Einführung, Prague 1954.

و يعتبر هذا الكتاب الأخير أحسن ما كتبه ثم لخصه تحت عنوان :

Arabische Papyruskunde. In: Handbuch der Orientalistik 1966.

نشر في ليدن في سلسلة البروفسور (Spuler)، وأما القسم الثاني لهذا المدخل (أي المختارات) فلم ينشره أبدا. وكلفني المجمع العلمي النمساوي بكتابته، وسينشر قريبا في نفس هذه السلسلة الأخيرة.

ثم إن هناك مقالة تتناول تاريخ علم البرديات العربية إلى حوالي سنة ١٩٨٠ نشرتها مؤخرا باللغة الألمانية :

Raif Georges Khoury: (Arabische) Papyrologie. In: Grundriss der arabischen Philologie. I. Wiesbaden 1982, 251-270.

الألمانية بالقاهرة، واشترى بعض القطع للمكتبة سنة ١٨٩٧. ثم اشترى نفس هذا المترجم في أوائل هذا القرن (سنة ١٩٠٤) أكثر من ألف بردية لرجل من أثرياء مدينة هيدلبرج اسمه شوت (F. Schott) فجاء هذا الرجل المحب للعلم وقدمها هدية لمكتبة تلك الجامعة، (وجامعة هيدلبرج أقدم جامعة ألمانية على الإطلاق، أسست سنة ١٢٨٦)، فهكذا تكونت هذه المجموعة محتفظة باسم جامعها (وهو من مدينة ميونخ) وباسم صاحب الخير، فعرفت منذ ذلك الوقت بمجموعة P SSR أي Papyri Schott-Reinhardt. وهذه المجموعة تحتوي على عدد كبير من البرديات المتنوعة الموضوعات. ويوجد في مجموعة هيدلبرج أربع مجموعات من البرديات التاريخية والإدارية تجعل لهذه المجموعات مكاناً خاصاً بين مجموعات أنحاء العالم وهي:

١. مجموعة رسائل من قرّة بن شريك (ت ٩٦ هـ / ٧١٤ م)، والي مصر الأموي إلى عماله، ولها أهمية كبرى في فهم الحياة الإدارية في شتى نواحيها في العهد الأموي، وبخاصة أنه ليس لدينا ما يماثلها لبقية الأمصار الإسلامية في القرن الأول والثاني الهجريين. وهذه الرسائل تشكل ٢٤ قطعة بين كاملة وجزئية. وهي أكمل وأكبر مجموعة وصلت إلينا في هذا المجال. وهناك بعض القطع الأخرى (في شيكاغو وستراسبورج خاصة) بنفس المجال. وقد سبق للمستشرق الألماني كارل هاينريخ بيكر (C.H. Becker) أن نشرها في أول مجلد خصص لهذه المجموعة على الإطلاق سنة ١٩٠٦ في هيدلبرج (٤). ولولا أوراق البردي هذه لبقى قرّة بن شريك، هذا الوالي الرفيع الشأن، بين من يذمهم المؤرخون اللاحقون ويطعنون فيهم، وبخاصة في العصور العباسية، مشوهين بذلك الواقع التاريخي والوجدان السليم. وسانشر في المستقبل القريب، إن شاء الله، كل الرسائل العربية واليونانية العائدة إلى هذا الوالي والمنشورة في مكاتب عالمية عديدة، مع دراسة شاملة في الحياة الإدارية والتاريخية والاقتصادية لهذا العهد من التاريخ الإسلامي في مصر.

٢. بردية مؤرخة عنوانها «حديث داود» كتبت في ذي القعدة ٢٢٩ هـ / ٨٤٤ م.

وأحاديثها تعود إلى عدة محدثين وعلماء، غير أن معظمها ينسب إلى وهب بن منبه (٣٤ - ١١٠ هـ / ٦٥٤ - ٦٥٥ هـ / ٧٢٨ - ٧٣٢ م)، نشرتها (مع القطعة التالية في

٣. إن بعض الباحثين يرون خطأ في (Schott) مديراً لمكتبة جامعة هيدلبرج. وذلك رأي خاطئ لا أساس له. والمستشرق بيكر (C.H. Becker) لم يكن مديراً للجامعة بل أستاذاً في قسم الدراسات الشرقية.

٤. Carl Heinrich Becker: Papyri Schott-Reinhardt in der Universitäts-Bibliothek in Heidelberg. I. Heidelberg 1906;

Arabische Papyri des Aphroditofundes,
In: Zeitschrift für Assyriologie, XX (1907) 68-104.

مغازي رسول الله) سنة ١٩٧٢، مع دراسة شاملة في حياة ومؤلفات وهب (٥). بعد ترميم أجزاءها وإصاقها بعضها مع بعض، وكانت متجزئة متقطعة جدا. لم يبق من معظم أوراقها سوى قسم منها أو في منتصف صفحات عديدة منها إلا كلمة أو حرف أو أكثر أو أقل. فجمعت أجزاءها وملأت القسم الأكبر من فراغها الهائل الذي أكله الدود ولعب به الخراب مع الزمن، وذلك بواسطة قصة النبي داوود من كتاب «بدء الخلق وقصص الأنبياء» لأبي رفاعه عمارة بن وثيمة بن الفرث الفارسي (ت ٢٨٩هـ / ٩٠٢ م). وقد نشرت هذا الكتاب الأخير سنة ١٩٧٨ مع دراسة شاملة للنص ولكل الرواة المهمين المذكورين فيه. وعمارَة وأبوه وثيمة (ت ٢٢٧هـ / ٨٥١ م)، الذي يعتبر المؤلف الأصلي للكتاب (٦)، يستندان كما أبنت ذلك بوضوح على كتاب لوهب بن منبه في أول الأمر عنونه: «المبتدأ وقصص الأنبياء»، وهو أول كتاب من هذا النوع في الإسلام، ويضيفان إليه أخباراً أخرى مستقاة من طائفة من العلماء على رأسهم اسحاق بن بشر (ت ٢٠٦هـ / ٨٢١ م)، وجاء في البردية: اسحاق بن بشير (٧) وهو خطأ. وجملة الكلام إن كتاب أبي رفاعه وأبيه وثيمة يحتوي على ملخص تراث الإسلام بما يتعلق بالبدء أو المبتدأ في القرون الثلاثة الأولى، فليس هو في نظر العلم سوى بردية كبيرة تشكل أكبر وأجل ما وصل إلينا من هذا الفن من الأجيال الأولى للحضارة الإسلامية.

وبلا شك فإن بعض صفحاته من أروع ما كتب في الفن القصصي عند العرب على الإطلاق، (انظر مثلاً ما قيل في لقمان الحكيم وفي فضل العقل وعار الجهل والجاهل)، ومما يدل بوضوح على قدمه ويزيده قدراً هو أن عدداً من صفحاته في قصة داوود النبي

٥. في حديث داود راجع كتابي في وهب بن منبه:

Raif Georges Khoury: Wahb B. Munabbih. I. Der Heidelberger Papyrus Heid Arab 23. Leben und Werk des Dichters. Wiesbaden

Codices Arabici Antiqui I) 1972, 33-115. في سلسلتي في المخطوطات العربية القديمة:

٦. انظر في كتابي في الوالد وابنه وكتابهما:

Raif Georges Khoury: Les legendes prophetiques dans l'Islam depuis le premier jusqu'au troisieme siecle de l'Hegire, D'apres le manuscrit d'Abu Rifa'a Umara b. Watima b. Musa b. al-Furat al-Farisi al-Fasawi: Kitab al-Bad wa-qisas al-anbiya, avec edition critique du texte. Wiesbaden (Codices Arabici Antiqui III) 1978. ص ١٣٧-١٥٨ من النص الفرنسي.

٧. راجع في ذلك المصدر السابق ص ١٧٥-١٧٦، وابن النديم، محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق (ت ٢٨٠هـ / ٩٩٠م): الفهرست (طبعة فلوجل) ص ٨٤.

يسير بصورة موازية لما في بردية هيدلبرج كلمة كلمة وحرفا وحرفا، ويبقى على حد قول ابن حجر العسقلاني من أصلح ما صنف في ذلك الفن (٨).

٢. بردية في «مغازي رسول الله تنسب بصورة واضحة لوهب بن منبه، المذكور سابقاً، باسناد كامل بواسطة أفراد عائلته، وبخاصة حفيده من ابنته التي بقي اسمها مجهولاً، عبد المنعم بن ادريس، (ت ٢٢٨ هـ/ ٨٤٢ م) (٩). وحوادث هذا النص الرائع تبتدىء بحديث أسعد بن زرارة وإيمان ابنيه زرارة بن أسعد بالنبي، ثم يأتي وصف العقبة، فاجتماع دار الندوة، ثم الهجرة إلى المدينة (وهنا أقدم وصف معروف للنبي)، والقسم الأخير في «غزاة خثعم»، ومن المعروف أن وهب بن منبه ألف ثاني كتاب في مغازي رسول الله في الإسلام يشكل أقدم مصدر وصل إلينا منه بعض الشيء في هذا المجال من الحضارة الإسلامية. ووهب كان قاضي صنعاء على عهد عمر بن عبد العزيز، ويعتبر إمام المؤلفين في التاريخ القصصي في العهد الأموي. وتنسب إليه عدة كتب بإمكاننا ترتيبها على الأقسام التالية:

أ) قسم في التاريخ اليهودي والمسيحي والعربي (من بدء الخلق إلى ظهور الإسلام): كتاب المبتدأ وقصص الأنبياء - كتاب الأسرائيليات، كتاب زبور داود - حكمة وهب - حكمة لقمان - موعظة وهب - كتاب القدر (اتهم بالقدرية فكان يتبرأ من هذه التهم بأن لا أساس لها)، تفسير وهب (لم يصل إلينا منه سوى مقاطع صغيرة هنا وهناك).

ب) قسم في التاريخ الإسلامي: فتوح وهب (لم يصل إلينا منه سوى الإشارة إلى هذا العنوان) - مغازي رسول الله.

ج) قسم في التاريخ اليميني: «كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم» الذي يشكل أساس «كتاب التيجان لابن هشام» (١٠).

ونرى من هذه النظرة الشاملة ما لوهب من الأهمية في الحركة الفكرية التاريخية القصصية، وقد ترك أثراً كبيراً بكل ما يتعلق بالعلاقات بين الإسلام واليهودية والمسيحية. ومما لا مجال للجدال فيه أيضاً هو أن لوهب الفضل الأول - أي قبل ابن إسحاق - في توسيع النطاق التاريخي الذي كان محصوراً في السنوات الأولى للحضارة الإسلامية على حياة النبي

٨. ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكفاني (ت ٧٧٢ - ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م): لسان الميزان (طبعة حيدر اباد) مجلس دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٩ - ١٣٣١ هـ، ج ٦/٢١٧، وكتابي المذكور (في الحاشية رقم ٦) من النص الفرنسي ومقدمتي العربية ص خ - د.

٩. في مغازي وهب راجع كتابي في هذا المؤلف (حاشية رقم ٥) ص ١١٧ - ١٧٤، وفي عبد المنعم، نفس المصدر، ١٨٤ - ١٨٥.

١٠. في الكتب المنسوبة إلى وهب. راجع كتابي فيه (حاشية رقم ٥) ص ٢٠٢ - ٣٠٢.

وغزواته: فأصبحت النظرة الى التاريخ تشتمل على وصف التاريخ (الديني) للعرب، وعلى تاريخ العرب، بعد وفاة الرسول، بالإضافة إلى وصف حياة الرسول نفسه.

فابن خلدون، على الرغم مما في مقدمته من الشدة على المؤرخين القصاص الأوائل قبل ابن منبه، اعترف أن النقل عنهم كان كثيراً حتى «امتلات التفاسير من المنقولات عنهم»، وحتى تساهل المفسرون وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات «إذ كان لهؤلاء العلماء شأن كبير في بيئتهم، وكانوا المرجع الأساسي لكل هذه الأسئلة التي اهتم بها المفسرون والمؤرخون في ذلك العصر. ابن خلدون يتكلم عن: «مسلمة بني اسرائيل» ويسمى كعب الأحبار وعبد الله بن سلام وابن منبه أو اهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى(١١).

٤. صحيفة عبد الله بن لهيعة (٩٧ - ١٧٤هـ/٧١٥ - ٧٩٠ م) (١٢) في التاريخ والحديث. وهي الصحيفة الوحيدة المعروفة في الحضارة الاسلامية التي وصلت إلينا وسلمت من الفناء، طولها ١٨٩ سنتمترا على ٢٣ عرضا. وهي مكتوبة على الوجه والقفا. ولا تحمل عنوانا ولا تاريخا، ولكنها من وقت مؤلفها أو تلميذه عثمان بن صالح (١٤٤ - ٢١٩هـ/٧٦١ - ٨٣٤ م) الذي يرويها بصورة رئيسية عنه (١٣). وعدد أسطرها ٤٢٢ سطراً، ومن الممكن أنه كان هناك في بعض فراغها أسطر أخرى تلفت بتلف هذه المقاطع منها. ومؤلفها الذي يعود معظم الحديث إليه هو ابن لهيعة كما ذكرت. وبجانبه نرى اسم الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥هـ/٧١٢ - ٧٩١ م) (١٤)، وهو إمام الديار المصرية في العلم والحديث وأمير مصر غير المتوج في القرن الثاني وكان صديقا لابن لهيعة، ومحسنا إليه وإلى طائفة كبيرة من العلماء، ومنهم مالك بن أنس، ثم نرى عبد الله بن وهب (١٢٥ - ١٩٧هـ/٧٤٣ - ٨١٢ م) الذي جمع علم شيوخه الليث وابن لهيعة (١٥).

١١. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥ م)، المقدمة بيروت، ١٩٦٧، ص ٥٨٩، ٧٨٦ - ٧٨٧.

١٢. في عبد الله بن لهيعة وصحيفته والمدرسة المصرية، انظر كتابي:

Raif Georges Khoury: Abd Allan Ibn Lahi a juge et grand maitre de L'Ecole Egyptienne, Avec edition critique de L'unique roullau de papyrus arabe conserve a Heidelberg. Wiesbaden (Codices Arabici Antiqui IV) 1986.

في ابن لهيعة ص ٧ - ٨٦. في شيوخه وتلامذته. ص ٨٧ - ١٧٧. في محتوى الصحيفة ص ١٧٩ - ٢٢٢. في خط ولغة الصحيفة ص ٢٢٢ - ٢٤١. ونص نشرته ص ٢٤٤ - ٣٠٧.

١٣. في عثمان راجع المصدر السابق، ص ١١٨ - ١٢٢.

١٤. في أهمية الليث بن سعد في بعض المصادر القديمة وبخاصة في بردية ابن لهيعة، راجع مقالتي:

Al-Layth Ibn Sa'd (94/713-175/791), grand maitre et mecene de L'Egypte, vu a travers quelques documents islamiques anciens. In: Journal of Near Eastern Studies XL (1981)

(Arabic and Islamic Studies in Honor of Nabia Abbott. Part 1) 189-202.

وأيضاً كتابي في ابن لهيعة (حاشية رقم ١٢) ص ١٧٢ - ١٧٧.

١٥. في ابن وهب راجع نفس المصدر (حاشية رقم ١٢) ص ١٢٢ - ١٢٣.

ومن خلال هذه الصحيفة نرى ما لعبد الله بن لهيعة ولابن سعد من المكانة الرفيعة في تاريخ التراث العربي الاسلامي، إذ أسسا معاً ما يدعى بالمدرسة المصرية في التاريخ الحديث: ذلك لأن الفضل الأول في جمع التراث القديم المنسوب للصحابة والتابعين وتابعي التابعين في مصر يعود لهما ولتلامذتهما من بعدهما (عبد الله بن وهب وعبد الله بن المبارك - ١١٨ - ١٨١ هـ / ٧٣٦ - ٧٩٧ م) (١٦)، فكل ما صنفاه من الكتب في الحديث والتاريخ ضاع معظمه مع الأسف، إلا ما هو محفوظ في كتب العصور اللاحقة لهما. فلم يصل إلينا بصورة مستقلة إلا هذه الصحيفة فهكذا يحتوي كتابي في عبد الله بن لهيعة (طبع سنة ١٩٨٦) وهو رابع مجلد للسلسلة التي أنشرها في دار هراسوفيتس في المخطوطات العربية القديمة - نشرا للصحيفة مع دراسة شاملة لخطها ولغتها ولكل مؤلفيها وتلامذتهم من القرن الأول إلى أوائل الثالث الهجري (وهم حوالي المئتين).

وليس من الصدفة أن مؤلفي كل النصوص القديمة، التي نشرتها في سلسلتي المذكورة أعلاه إلى الآن، مرتبطون بصورة أو بأخرى ببعضهم بعضاً فمصر لم تكن فقط بلد ورق البردي فحسب، الذي كتبت عليه تلك المؤلفات القديمة، بل أصبحت ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة حلقة وصل بين العالم الإسلامي في الشرق وبين شمالي أفريقيا والأندلس، ومحط رحال عدد كبير من العلماء المسلمين الذي وردوا إليها من أمصار متفرقة. فهكذا نرى كتب وهب بن منبه الصنعاني، الفارسي الأصل، يرويها راو مصري، بعد أن أخذها بطريقتهم أو بأخرى عن بعض أفراد عائلة القاضي اليميني. وعائلة أبي رفاعة عمارة بن وثيمة أصلها من بلاد فارس أيضاً: وكان وثيمة - المؤلف الأساسي لكتاب «بدء الخلق وقصص الأنبياء» الأتف الذكر - قد أتى من بلاد الشام، وسكن الفسطاط، حيث قاده البحث عن كتب قديمة في هذا المجال من التاريخ إلى ما تركه ابن منبه أو صنفه من بعده بصورة نهائية أحد أفراد أسرته، فوصل إلينا منه بعض الشيء في بردية «حديث داود» المشار إليها سابقاً (راجع في وثيمة وكتابه المجلد الثالث للسلسلة). وأما مؤلف الكتاب الثاني (أي: كتاب الزهد) فهو أسد ابن موسى (١٣٢ - ٢١٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٢٧ م) (١٧). الأموي الأصل، وكان قد جاء من دمشق هارباً من اضطهاد العباسيين ومنتكراً، إلى الفسطاط أيضاً، حيث زار الليث بن سعد وتلمذ لابن لهيعة، ومن المعروف أنه كان لابن لهيعة مكتبة في بيته كان قد جمع فيها الكتب العديدة، وبينها أصول كثيرة، فكان العلماء يترددون إلى بيته ينقلون ما شاء الله لهم أن

١٦. في ابن المبارك انظر نفس المصدر ص ١٧٠ - ١٧٢.

١٧. في اسد بن موسى وكتابه هذا راجع:

Raif Georges Khoury: Asad B. Musa (132-212/750-827): Kitab az-Zuhd. Nouvelle édition revue, corrigée et augmentée de tous les certificats de lecture d'après les deux copies de Berlin et de Damas. Avec une étude sur l'auteur. Wiesbaden (Codices Arabici Antiqui II) 1976.

ينقلوا. وإذا بهذه المكتبة تصبح مكاناً رفيعاً، وشعلة علم لأئمة الفكر المصري في ذلك العصر، مثل عبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك وغيرهم ممن تركز عليهم أسس المدرسة المصرية، لكثرة ما صنفوا ودونوا فحفظوا من الفناء كثيراً من أصناف العلوم المعروفة في ذلك الوقت.

وهكذا نرى أن لمصر أهمية كبرى في دراسة الحضارة الإسلامية القديمة التي لم يصل إلينا من مؤلفاتها بشكلها الأصلي إلا القليل القليل. وهذا يزيد برديات هيدلبرج أهمية، ويعطيها مكانة خاصة بين مجموعات البرديات في العالم، وبخاصة صحيفة عبد الله بن لهيعة الفريدة.

إن هذه الصحيفة صعبة القراءة، وقد قضيت عدة سنوات ليس لضبط كلماتها وأحاديثها فحسب (راجع آخر المقالة أيضاً)، بل لضبط أسمائها الكثيرة؛ لأنها سلسلة أحاديث بأسانيد كاملة. ولكل هذه الأسماء قيمة كبرى؛ إذ أنها أسماء لأصحاب الرأي والحديث والثقافة التاريخية وغيرها في الديار المصرية، ابتداء من القرن الأول إلى أوائل الثالث. ومحتوى هذه البردية الرائعة يدور حول أمور دينية فقهية أو أمور متعلقة بالحياة الأخرى من ناحية، وتاريخية عائدة لبعض الخلفاء والولاة في القرن الأول من ناحية ثانية. وسنحاول عرض هاتين الناحيتين بصورة مختصرة، إذ يجد الراغب في المزيد من ذلك معلومات واسعة في كتاب عبد الله بن لهيعة (١٨).

الناحية الدينية تستوعب معظم أسطر الصحيفة وهي حول قضايا مختلفة: مثل أول قبائل العرب خرابا (بالتأكيد يوم البعث...) (راجع س ٨ -) أو ما هي أول مدن مصر خرابا؟ (س ١٢ - ١٣) الخ، أو فضل مسح رأس يتيم (س ١٤ - ١٥)، أو خوف عمر بن الخطاب من أن يفسد العرب لباس القمص والاحتذاء بالنعال (س ١٧)، أو الرسول والكي والاكتحال... (س ١٩ - ٢١ الخ).. وهناك أمور خاصة بالملاحم والفتن درستها في فصل خاص لأهمية كلمة الفتنة في التراث العربي الإسلامي بصورة عامة، إذ أن هذا النص القديم يعطي أمثلة لأقدم استعمالاتها باللغة العربية، كما سنرى ذلك فيما بعد. وهناك أمور عامة متعلقة بخصب مصر وخرابها وخراب أمصار أو بلاد أخرى. وبعلاقة بعض القبائل العربية أو بأشخاص من هذه القبائل الواحد مع الآخر، دون أن ننسى ما تأتي به البردية من الأحاديث التي عليها طابع الحكمة العامة - وهنا يجب الإشارة إلى حديث الأعرابي الذي رأى الرسول دون أن يعرف من هو فسأله النبي عما إذا أخذه مرض ما، فأجابه دائماً على كل سؤال عن أمراض أو أوجاع مختلفة بالسلبية، فإذا رسول الله يقول لمن حوله: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار في الدنيا فلينظر إلى هذا لو كان الله يريد خيره لظهر جسده بالمرض (س ٢٨٦ - ٢٩٠)

١٨. راجع كتابي في ابن لهيعة (حاشية رقم ١٢)، ص ١٧٩ - ٢٢٢. ومن ص ٢١٧ - ٢٢٢ ملخص لمحتوى كل اسطر الصحيفة.

بالإضافة إلى أشياء كثيرة، دراستها مفيدة جدا ليس من الناحية الدينية فحسب، ولكن أيضا من الناحية اللغوية والأدبية بشكل عام، مما لا يسعنا التكلم عنه في هذا المجال هنا.

أما الجهة التاريخية فهي غاية في الأهمية، إذ يوجد في البردية وصف بعض الأشخاص أو الحوادث التي هزت القرن الأول، وشغلت أفكار المؤرخين والعلماء اللاحقين، والحوادث المهمة تدور حول عثمان بن عفان وعبد الله بن الزبير. فسنحاول أن نبرز باختصار ما هناك من الأفكار حولهما، وننهي هذا العرض بدراسة خاصة لمفاهيم كلمة الفتنة كما سبق لي أن ذكرته فيما سبق.

عثمان بن عفان (١٩). اسمه يأتي في عدة أحاديث: -

أ (البردية تبثديء بوصف مطاردة معاوية بن سفيان - إذ كان والي سوريا - لقتلة عثمان، وسنرى ذلك موجزا فيما بعد.

ب (يأخذ الكلام مرتين ليدافع عن نفسه تجاه المسلمين وتجاه محاصري داره (س ٢٢٥ وما بعده، و٣٦٢ وما بعده).

ج (حديث واحد يذكر بين من جمع القرآن (س ٢٤٧).

إن دراسة النص الأكبر - أي دفاع الخليفة عن نفسه - تنور بصورة تلقائية ما يتعلق بقضية مطاردة القتلة وجمع القرآن، فلذلك سنبتديء بايراد هذه الأسطر ثم نقوم ببعض التعليق عليها لابرز أهميتها من الناحية التاريخية والدينية أيضا.

س ٢٥٥ - ٢٦٤:

«ح بن لهيعة قال حدثني يزيد بن عمرو المعافري أنه سمع أبا ثور الفهمي قال دخلت على عثمان بن عفان فبينما أنا عنده إذ خرجت فاذا أنا بوفد أهل مصر، فرجعت إلى عثمان فقلت له: إن وفد أهل مصر قد رجعوا وعليهم ابن عديس البلوي في ستماية فارس، فقال: كيف رأيتمهم؟ قلت رأيت قوماً في وجوههم الشر، قال: فطلع ابن عديس منبر رسول الله، فخطب الناس، ثم صلى بأهل المدينة الجمعة، وقال في خطبته: ألا إن عبد الله بن مسعود حدثني أنه سمع رسول الله يقول: إن عثمان بن عفان أضل من عييه نعلاه غال مفتاح قفلها، فدخلت على عثمان، وهو محصور، فحدثته أن ابن عديس صلى بهم فسألني ماذا قام به، فأخبرته، فقال: كذب، والله ابن عديس ما سمعها من ابن مسعود ولا سمعها ابن مسعود من رسول الله، ولولا ما ذكرى شيئاً، ولقد اختبأت لي عند ربي عسراً إني لرابع أربعة في الاسلام، ولقد ائتممني رسول الله على ابنته، ثم توفيت، فأرجحني الأخرى، ووالله ما زنيت ولا سرقت في جاهلية ولا اسلام قط، ولا تغنيت ولا تمنيت ولا مستت فرجي بيمينني منذ بايعت رسول الله، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله، ولا مرت بي جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا ألا أجد فيها، فاعتق في التي تليها رقتين.

س ٣٦٣ - ٣٧١ : نجد هنا إعادة لنفس الكلام السابق مع بعض الفروق الطفيفة التي لا تبرر إعادة النص بكامله. فسنكتفي بالإشارة إلى أهم هذه النقاط، إذ النصان يوضح أحدهما الآخر، لترداد نفس العبارات والكلمات على انعموم. إسناد الحديث الأخير هذا أكمل، إذ نرى بين ابن لهيعة وأبي ثور الفهمي بكر بن سوادة الجذامي (٢٠).

ثم نقرأ ها هنا «قدمت على عثمان» بدل «دخلت» و«فقمتم وإذا أنا...» «بدل» إذ خرجت فاذا أنا بوفد...» وهنا نرى «عبد الله» يضاف إلى «ابن عديس» خطأ إذ اسمه عبد الرحمن كما مر ذلك في السطر الثاني من البردية. والرواية المعادة لا تذكر شيئاً عن عدد الفوارس، ولكنها تستعمل أيضاً كلمة «كذب»، وتردد جملة «أضل» إلى «قفلها» وفيها: «فزوجني» بدل «فأرجحني».

إن قضية الثورة ضد الخليفة، أو الفتنة الكبرى، عرضت بوضوح كاف عدة مرات منذ مقالة ليفي ديلا فيدا Levi Della Vida في أول طبعة من دائرة المعارف الإسلامية، وما يحتويه المجلد الخامس لأنساب الأشراف للبلاذري إلى كل ما كتب في السنوات الأخيرة في الشرق والغرب، فذلك لن ندخل في تفاصيل هذه الأمور الفاجعة، بل نود أن نحدد الإطار الذي يضم هذا الدفاع التاريخي لنبيين ما يشير إلى ذلك، وما له قيمة مهمة بوجه عام.

أ (عثمان محصور في بيته، وأبو ثور يخبره برجوع «وفد أهل مصر». والنصان يستعملان نفس الفعل «قد رجعوا» مما يشير بجلاء إلى حوادث الحصار الثاني. وكلام الخليفة حصل إذاً بين الحصاريين. وأبو ثور ليس معروفاً بصورة خاصة، ولكن بعض المراجع تنسبه إلى الصحابة وإلى من اشترك في فتح مصر، وليس يعرف عنه شيء آخر له أهمية خاصة يعود إلى علاقته بعثمان وإلى كيفية دخوله في خدمته. ومن المعروف أنه سكن مصر بعد فتحها، كما يذكر ذلك ابن حجر في الإصابة.

ب (قضية الحلفاء: إن البردية لا تذكر إلا «وفد أهل مصر» مع العلم أن بقية المراجع تتكلم عن وفود ثلاثة تحالفت ضد الخليفة: (وفد البصرة والكوفة ومصر). لماذا؟ إن هناك نقطة هامة بالنسبة للصحيفة يجب أن تفهم بصورة عامة: ليست هذه الأخيرة نصاً تاريخياً محضاً أو مجموعة من الأخبار التاريخية الصرفة، بل إنها مؤلفة من سلسلة من الأحاديث التي نجد بينها بعض الأفكار التاريخية، وبالأحرى يجب أن نقول: إن النواحي التاريخية ليست هنا محضة، بل إنها تابعة لأفكار دينية وأخرى تشكل روح الصحيفة بوجه عام.

وابن لهيعة مصري، واهتم بجمع التراث المصري أو المتعلق بمصر، وبخاصة لوفد مصر أهمية كبرى في هذه الفتنة، إذ أن المراجع تتكلم عما يقارب المتين لوفد الكوفة، والمئة

٢٠. في أبي ثور، انظر كتابي في ابن لهيعة (حاشية رقم ١٢) ص ١٠٦ وخاصة أنه غير معروف تماماً، غير أنه كان صحابياً استوطن مصر. وفي بكر بن سوادة (ت ١٢٨هـ / ٧٤٥ - ٤٧٦ م) راجع ص ٩٩.

والخمسين لوفد البصرة، بينما تذكر أن عدد المصريين يتراوح بين أربع مئة والألف (راجع مثلاً الطبري)، والبردية تحسم هذا الخلاف لقدمها، إذ تحدد العدد بستمئة. على أي حال فللمصريين الاشتراك الأكبر، ولقوادهم كلمة لا يستهان بها، وكل هذا يظهر تماماً في غضب الخليفة الخاص، إذ كان قد طلب من واليه بمصر أن يشد العقاب عليهم، وكل النصوص تذكر اسم عبد الرحمن بن عديس في طليعتهم. ومن المعلوم أن الجوفي في مصر كان مناهضاً لعثمان ومناصريه، وبخاصة بعد عزله عمرو بن العاص عن ولاية البلاد، وعدم مقدرة من خلفه عليها (عبد الله بن سعد بن أبي سرح (ت ٢٧هـ/٦٥٧م - ٦٥٨م) (٣١). في ترتيب الأمور فيها. غير أن عدو عثمان الأول أصبح محمد بن أبي حذيفة الصحابي (٣٢). المتوفي سنة ٣٦هـ/٦٥٧م الذي أخذ يثير مصر ضد الخليفة، وبخاصة بعد عزل ابن العاص وذهابه الى فلسطين، إلى أن استفاد من زيارة قام بها الوالي ابن أبي سرح لعثمان، يريد أن يشرح له فيها الوضع في مصر، فانتزع الولاية انذاك وحضر هذه الضربة التي تتكلم عنها البردية ونصوص أخرى كثيرة بعدها.

ونفس الصحيفة تخبرنا كيف قتل عبد الرحمن بن عديس (٣٣). (ت ٣٦هـ - ٦٥٦م - ٦٥٧م) (راجع س ٢ - ٥) ولا تذكر شيئاً عن ابن أبي حذيفة الذي كان على رأس من تذكرهم بعض النصوص في قضية من أخذهم معاوية «في الرهن فسجنهم بفلسطين بلد».

ولكن هذه العداوة المصرية الأولية كانت فقدت كثيراً من حدتها تجاه الخليفة في الوقت الذي كتب أو روي فيه نص الصحيفة هذه، إذ تعطي الرواة الكلام لعثمان وحده دون محاربيه وناقديه، إذ أنه يستطيع أن يعرض هذا الدفاع الرائع عن نفسه الذي يدور حول النقاط التالية: -

- الرد على نقد عبد الرحمن بن عديس متهما إياه بالكذب.
- عرض فضله في الاسلام: أوليته كرايع في الاسلام، وعلاقة النسب التي تربطه بالرسول صلى الله عليه وسلم، الذي زوجه ابنتين له، وجمع القرآن الكريم في حياة الرسول، (فكرة يعيدها حديث آخر في س ٢٤٦ - ٢٤٧، مع العلم بأن معنى الجمع هنا، وفي هذا العهد

٢١. راجع في ذلك الكندي، ابو عمر محمد بن يوسف المصري (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م): كتاب الولاة القضاة (طبعة ليدن ولندن ١٩١٢) ص ١٠ - ١٤.

٢٢. فيه انظر: نفس المرجع، ص ١٤ - ١٩.

٢٣. راجع فيه كتابي في ابن لهيعة، حاشية رقم ١٢، ص ١١٦.

يدل على الحفظ عن ظهر قلب، كما أشار نولدكه Noldeke إلى ذلك بالتفاصيل (٢٤)، ثم مزايًا تقوى أخرى لها أهميتها في الاسلام.

فكما نرى فمصر الاسلامية تريد، بواسطة ممثلها الفكري ومن ورائه من الشيوخ العلماء أن تعيد النظر في علاقتها بهذه الفترة من التاريخ الاسلامي، وإبراز فضل الخليفة الراشدي كعمدة أساسية في حياة الاسلام بعد النبي، حتى ترجع مصر، نوعا ما الى عثمان بن عفان وتندم على ما عمل بعض أبنائها: والفضل في ذلك يعود إلى الليث بن سعد وصديقه قاضي الديار المصرية ابن لهيعة.

عبد الله بن الزبير (٢٥) (٢ - ٧٣هـ / ٦٢٤ - ٦٩٢ م):

تخصص الصحيفة له بضعة أسطر نسردها حرفيا قبل النظر في بعض نواحيها (س ٥٩ - ٧٤): «ح بن وهب عن يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن مسهر عن (...). يزيد قال: لما أن حصر عبد الله بن الزبير، وغصت أبواب المسجد من أهل الشام سمع مولايين [هكذا] له من خلفه يتكلمان، فالتفت إليهما ثم قال: ما ابتع (ابتاع) أحد من الكتب ما ابتعتكما، لقد قرأت الكتب، وسمعت الأحاديث، فوجدت كل شيء باطل إلا ما كان في كتاب الله، قال: فخرج فأسل الركن، ثم دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر، فقبلها، فقبل ما بين الخمار إلى الوجه فوق الجبهة، فقالت: ما حبيبته من أسماء فقال: يا أمته أهل الشام، فقالت كلهم مسلمون هكذا قال... يزعمون، فقالت: لقد رأيت الاسلام وأهله، ولو اجتمعوا على شاة ما أكلوها، ثم قالت: يا بني مت كريما ولا تستسلم. ح بن وهب قال: أخبرني الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد أنه لما كانت الليلة التي دخل فيها على عبد الله بن الزبير المسجد الحرام ينظرون أن يصيحوا حتى يبلغوه أين المقام فركع ركعتين، ثم اضطجع فهذا وترقوته، فظننا أنه نام فقلنا قائل... لقد بلانا الذين كانوا يزعمون أن هذا الأمر سيتم لنا ويغرونا، قال: وإذا هو مستيقظ، ولو شعر بطايفة تصيح لم يتكلم، قال: فالتفت إلينا فقال: يا هلاه ما انتها الى أحد من الكتب والأنبا والأحاديث إلا دون ما انتهى الي، فوجدت كل شيء باطل إلا كتاب الله. ح بن وهب قال أخبرني الليث بن سعد عن عمر مولى غفرة عن داب بن ربيعة مولى ال الزبير أنه سمع ابن الزبير يقول حين ولي وامن المختار: ما حدثني كعب حديثا إلا صدق فيه إلا هذا، فانه قال لي: يقتلك فتا (فتى) ثقيف، وهذا أراد قال الليث: يتخرص عليه يريد على كعب ولا

٢٤. انظر كتابه في تاريخ القرآن:

Th. Noldeke: Geschichte des Qorans. Ed. Schwally. Leipzig 1909, 1919, II.

ص ٦ (حاشية ٢) و ص ٩ (حاشية ٢) الخ.

٢٥. فيه راجع كتابي في ابن لهيعة حاشية رقم ١٢، ص ١١٩ - ٢١١.

يعلم أنه الحجاج بن يوسف. ح بن وهب قال: أخبرني الليث بن سعد عن عمر مولى غفرة عن داب بن ربيعة قال لما بلغ الزبير أن مروان وخالد بن يزيد بن معاوية تخرصا على كعب قال: هذا ما حدثني كعب حديثاً قط إلا صدق فيه، ولقد أخبرني أن انقلاع ملك بني أمية على رجل ابن يزيد، وهذا ابن يزيد قد هلك، يريد معاوية بن يزيد بن معاوية، وكان قد استخلفه أبوه لثلاثة أربعين ليلة ثم هلك، فقبل لمعاوية بن يزيد: استخلف، فقال لم أصب منها خيراً ولا أصيب منها شراً.

إن معظم الأمور المذكورة معروفة كفاية مثل التطور السياسي الذي أوصل ابن الزبير إلى هذه الحالة المرة التي تصفه فيها البردية: فهو محصور كما حصر عثمان من قبله ولكنه يذكر في نوع من الحسرة ليس فضله في الاسلام، بل لجوءه الى كتاب الله الذي يشده في ساعة المحنة، ويريه بطول ما هو خارج عن صفحاته. فاذا به قبل كل شيء يستند على قراءة الكتب التي كان مولياها يشتريانها له أكثر مما كان يعملها غيره. واذا سألنا المراجع العديدة التي تذكره بالكثير من الاعجاب فلا نجد إشارة الى أنواع هذه الكتب: وبعضها مثل حلية الأولياء لأبي نعيم الاصبهاني وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، تذكر له صفات علمية وأدبية تجعل منه شخصية خارقة للعادة على الاطلاق، فلم يكن قارئاً للقرآن الكريم فحسب، بل كان يتكلم عدة لغات مع خدامه العديدين الذين كانوا ينتمون الى مناطق وحضارات مختلفة غير أن ابن عساكر يشير إلى ما هناك من المبالغة في مثل كتب المناقب هذه، مما يحثنا على أن نستخدم تلك الأوصاف بالكفاية من الحذر، مقتنعين من كلام الصحيفة بأنه كان من أقدر وأبرز الشخصيات الاسلامية في القرن الأول علما وورعا وحماسة (٣٦).

وهذه النقطة الأخيرة مهمة أيضا، ولو أننا نراه يذهب الى أمه كالطفل يرجو منها الحماية في ظل عطفها وحنانها. ولكنه يفعل ذلك بكل وقار وبدون استرضاء فكلماته لها تدل على أنها مرجعه الثاني والأخير بعد كتاب الله وأما هي (٣٧). فتستعمل كلمة الأمومة والمحبة بعد أن قبلها، وتحضه على عدم الاستسلام أمام هذه الطوائف الضعيفة، وعلى الموت كريما (يا بني مت كريما ولا تستسلم).

فالبردية تبرز بوضوح كاف شهامة وبطولة أمه أسماء بجانبه، كما تظهر لنا أيضا في الكتب اللاحقة أثناء الحوادث الفاجعة وبعد مقتل ابنها البطولي.

أما الأسطر المتعلقة بكعب الأحبار (ت ٣٢هـ - ٦٥٢م أو ٣٤هـ / ٦٥٤م) (٣٨) الذي يعد مع عبد الله بن سلام (ت ٦٦٣/٤٣) أهم مسلمة بني اسرائيل، وعمدة الاسلام الأولى في

٢٦. راجع في ذلك خاصة ص ٢٠٥ - ٢٠٨ بنفس المصدر.

٢٧. في امه اسماء انظر نفس المرجع ص ٢٠٨ - ٢١٠.

٢٨. في كعب انظر نفس المصدر ص ٢١٠ - ٢١١، وخاصة الحاشية ٨٧ في ص ٢١٠.

القرن الأول بكل ما يرتبط بالتاريخ اليهودي إلى ذلك الزمن، فهي تزيد في فهم الاطار التاريخي لهذه الاخبار: فأولا ابن الزبير يظن أن فتى ثقيف الذي سيقضي عليه هو المختار الذي انتهى هو منه وارتاح منه، (البردي تستعمل حين ولي وأمن المختار) فلذلك يقوم الليث ابن سعد الذي يروي عبد الله بن وهب عنه: «يتخرص عليه» (أي على كعب) ولا يعلم أنه الحجاج بن يوسف غير أن نفس الرواة يزكون كعبا في آخر الحديث، إذ ان الزبير يبلغه تخرص مروان وخالد بن يزيد بن معاوية على كعب الذي كان يعتبر أكبر داعم لمكانة الشام بين بقية الأمصار العربية والاسلامية، ففي البردية يقول (س ٣٣٢ - ٣٣٤): «ح بن لهيعة قال: حدثني أبو قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال لكعب با أبا اسحق ما يمنعك أن تسكن المدينة وهي هجرة النبي، وهي موضع قبر النبي قال كعب: إني أجد في كتاب الله الشام كنزاً لله من أرضه، وبها كنزه من عباده».

وكعب هو الذي يبرز رأيه مرة أخرى بمستقبل الدنيا بعد «ذهاب بني امية» كأنه يود أن يقول: «الأخير في الدنيا بعدهم» (راجع س ١٠ - ١١)، ومثل هذه الأحاديث في كتاب تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر وغيره).

وعلى الرغم من صعوبة اثبات مثل كل هذه الأقوال بصورة تاريخية، فان رواة البردية يريدون أن ينزهوا كعباً عن الكذب، وهو ما لخصه على أحسن وجه ابن حجر العسقلاني في الاصابة: الكلام هذا ليس معناه كذباً وإنما «عدم وقوع ما يخبر به أنه سيقع لا أنه يكذب».

ولا أريد إنهاء هذا الوصف السريع لأهمية هذه الصحيفة النادرة دون أن ألقى نظرة خاطفة على كلمة «الفتنة» فيها (٢٩)، لفهم تقدمه لنا من المعاني والصور، إذ إنها أقدم ما وصل إلينا في هذا المجال في طابعها الأصلي: بمعنى الفتنة الكبرى، أما بالنسبة لعثمان أو لعلي: س ٣ («لما كانت الفتنة» أي مقتل عثمان، إذ يأخذ معاوية ابن عديس في الرهن).

س ٨٢ - ٨٧: علي يصف الفتن الأربعة (منها فتنة السراء وفتنة الضراء وأخرى تبقى الى خروج «رجل من عترة النبي»).

س ٢٢٣ و ٣٨٧ وايضا ٩٤ تدور حول الدجال. أما س ٩٢ - ٩٣ فالكلام فيها عن فتنة علي ومعاوية وتحريم الجنة على عامل سوء حسب عائشة. س ٩٥ - ٩٦: فيهما إشارة إلى الفتنة الكبرى بين عثمان ومعاوية من جهة وأعدائهما من جهة أخرى، (ولكن دون ذكر أسماء بصورة خاصة). فالإشارة إلى وقوع فتن بعد ٣٥ سنة بعد النبي الخ...

٢٩. راجع في كل ما يتعلق بها كتابي في ابن لهيعة (حاشية ١٢) ص ٢١١-٢١٧.

وهناك أحاديث أخرى تظهر فيها الكلمة بمعنى المحنة والكارثة (س ١٠٠) أو تبدو فيها شناعة أثرها في الناس (س ٢١٧ و ٢٢٥ - ٢٢٦ و ٣٢٥ - ٣٢٦ وفي الحديث الأخير الكلام عن الشيطان وفتنه).

بالإضافة إلى مقاطع كثيرة في البردية لا تذكر الكلمة حرفياً وإنما تشير إلى الساعة وأشراطها، منبئة بيوم البعث وبالجزاء والعقاب، وقد تطرقنا لها في كتابنا في عبد الله بن لهيعة؛ لأنها تذكر مع الفتن وفي الكتب الخاصة بها - وعلى رأسها كتاب الفتن لنعيم بن حماد (ت ٢٢٨ هـ / ٨٤٤ م أو قبلها أو بعدها بسنة) (راجع الأسطر ٣٣، ١٢٩ - ١٣٣، ١٣٤ - ١٣٩، ١٥٧، ١٦١، ١٦٤، ١٩٦ - ١٩٧، ٢٠٠ - ٢٠١، ٢٢١ - ٢٢٢، ٢٥٣ - ٢٥٤، ٣١١). وأما فيما يخص علاقة نعيم بن حماد السابق الذكر بعبد الله بن لهيعة فلها أهمية جلية (٣٠)، إذ حفظ التلميذ أقوالاً كثيرة عن ابن لهيعة وعبد الله بن وهب في كتاب الفتن؛ اشترت إلى أهمها في آخر الفصل المخصص لدراسة كلمة «الفتنة» في كتابي السابق الذكر.

ونتهي هذا العرض والدراسة السريعة لبعض النواحي الأكثر قيمة من الجهة التاريخية في نصنا هذا، مشيرين فيما يخص ابن لهيعة وبقيه الرواة والمؤلفين المصريين من شيوخه وتلامذته وأصحابه إلى دراستنا لهم في كتابنا عبد الله بن لهيعة. وفيما يتعلق بالبردية إلى صفحاتنا حول حوادثها ومحتواها بصورة عامة، وإلى نوع خطها ولغتها بصورة خاصة. وقد نشرنا النص العربي كما هو دون أن نغير ما جاء فيه من بعض الكتابات القديمة المضطربة التي توحدت فيما بعد، وأشرنا إلى شكلها الموحد الفصيح في حواشي النص.

وهناك كلمات وعبارات قليلة عو بصة قد يمتنع على القارئ فهمها، أعطينا لها أقرب شكل بدا لنا من هيئتها الأصلية في الصحيفة، واحتفظنا بهذا الشكل وبخاصة إذا أعيدت هذه الكلمات مرة أخرى في موضع آخر من النص. والصحيفة صعبة القراءة جداً، خاصة في مثل هذه المواضع، فأرجو أن يدعو ذلك القراء الكرام إلى بعض التسامح تجاه هذه القراءات وبخاصة أن جروهمن أشار أكثر من مرة إلى صعوبة قراءة البرديات العربية الهائلة بصورة عامة، مما لا ضرورة إلى التوقف عليه هنا (٣١).

٢٠. فيما يخص ابن حماد وابن لهيعة، انظر نفس المصدر ص ٢١٥ - ٢١٧.

٢١. راجع مثلاً جروهمن: Grohmann: Einführung..., 130

ثم منه مرجعاً آخر: Arabische Papyrskunde, 100

(في هذه المراجع انظر حاشية رقم ٢ فيما سبق)

ولم ينشر أحد شيئا منه قبلي، إلا السطر الأول (وهو الاسناد) نشر كارل هاينريخ بيكر (C.H. Becker) وقرأ فيه نسبة عثمان بن صالح راوي البردية عن شيخه ابن لهيعة، «الدمشقي» أو بدمشق» خطأ إذ عثمان مصري وليس دمشقيا كما أظهرنا ذلك بوضوح من ناحية، ونسبته تقرأ بجلاء كاف في عدد من حروفها كما قرأناها («المصري») من ناحية أخرى (٣٢).

٣٢. في عثمان راجع نفس المصدر ص ١١٨ - ١٢٢، وايضا ص ٢٤٤ س ١ (وحاشيته).

أضواء من الوثائق البريدية على الإدارة الاموية

مصطفى العبادي

الدراسة التي أقدمها اليوم استمرار لدراسات سابقة قمت بها في الوثائق البريدية من عصر صدر الاسلام في كل من مصر وفلسطين* . ولسنا هنا بصدد المقارنة بين قيمة أو أهمية الوثائق البريدية بالنسبة لكتابات المؤرخين المألوفة. فعيوب الوثائق كثيرة معروفة، فهي في أحسن حالاتها جزئية فردية، لا تقدم عرضاً متصلاً أو تصوراً متكاملاً كما هو الحال في كثير من كتابات المؤرخين. فاذا أضفنا إلى ذلك أن الوثائق البريدية في مالوف حالاتها تصل إلينا مبتورة أو مشوهة، يقلل ما تتضمنه من معلومات تبعاً لذلك. ورغم هذه المآخذ وغيرها، فللوثيقة أهمية خاصة في نظر دارسي التاريخ دراسة علمية بمقاييس المنهج التاريخي الحديث. بل هناك من الدارسين المحدثين من يتشددون في نظرتهم العلمية للتاريخ، ويرتابون في أمر تدخل المؤرخين فيما يعرضون من مادة، ويذهبون إلى أنه لا تاريخ بلا وثائق(١). ولهذا كله تزداد أهمية الوثائق البريدية التي وصلت إلينا من فترة صدر الاسلام،

مصطفى العبادي،

* «ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربي» في كتاب دراسات عن ابن عبد الحكم، نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٧٥، ص

مصطفى العبادي،

—«نصتان في ضوء الوثائق البريدية» عالم الفكر، م ١٥، ع ٢، ٢٩٨٥، ص

“Historians and The Papyri on the Finances of Egypt at the Arab Conquest”,
Proceedings of XVI International Congress of Papyrology (Chico 1981).

“Annona Militaris and Rizk of Nessana”, Proc. XVII. Int. Congr. of Papyrology
(Naple 1984).

مصطفى العبادي،

—«وثائق بريدية عن ضرائب نصتان في صدر الاسلام»، (بحث ألقى في المؤتمر الدولي عن تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٨٣، لم ينشر).

١. بدأ هذا الاتجاه بتبلور ; بوضوح في مجال التاريخ العام في القرن التاسع عشر، وبخاصة في ألمانيا، على يد أعظم مؤرخي ذلك القرن Leopold von Ranke (١٧٩٥-١٨٨٦)، الذي دعا إلى ضرورة أن يعتمد المؤرخ في دراسة التاريخ على الوثائق كلما أمكن. كما جاء في الملحق لكتابه الأول عن تاريخ الأمم اللاتينية والتيوتونية. وفي مجال التاريخ الاسلامي على يد:

Ignaz Goldziher, Muhammedanische Studien (Halle, 1888-90), edited and translated into English by S.M. Stern and C.R. Barber, Muslim Studies (London, 1967-71).

J. Wansbrough, The Sectarian Milieu (Oxford 1978),

P. Crone and M. Crone, Hagarism (Cambridge 1978);

P. Crone, Slaves on Horses (Cambridge 1980).

وهي فترة لا تندرف فيها الوثائق فحسب، بل تكاد تنعدم منها كل كتابة أخرى. فأقدم ما وصل إلينا - باستثناء القرآن الكريم - كتب بعد قرن أو قرنين من بداية الدولة الاسلامية (٢).

ونظرا لأن اللغة الرسمية في كل من بلاد الشام ومصر عند الفتح كانت اللغة اليونانية، واستمرت كذلك حتى حركة تعريب الدواوين التي بدأها عبد الملك بن مروان فكان من الطبيعي أن تأتي معظم وثائق القرن الأول من الحكم العربي التي وصلت إلينا من فلسطين ومصر مكتوبة باللغة اليونانية، وبعضها كتب باللغتين اليونانية والعربية، وفي مصر انضافت إليهما أحيانا اللغة القبطية. وما من شك أن هذه الظاهرة تقدم لنا دليلا على أن دراسة تاريخ صدر الاسلام دراسة علمية حديثة معقدة أشد التعقيد. لقد مضى الزمن الذي يركن فيه الدارسون إلى قراءة كتب التاريخ الاسلامي العربية من أمثال الواقدي وابن عبد الحكم والبلاذري والطبري وغيرهم، و يظنونها بذاتها كافية لتقديم المعرفة التاريخية الممكنة عن صدر الاسلام. ويعرف المهتمون بتاريخ العلاقات بين العرب وبيزنطة مقدار ما تقدمه كتابات البيزنطيين باللغات اليونانية والأرمنية والسريانية من معلومات عن المجتمع والتاريخ الاسلامي. ويمكننا أن نضيف إلى هذه المجموعة من اللغات الفارسية في الشرق واللاتينية في الغرب، هذا إلى جانب دراسات العملة والآثار والفنون بشتى أنواعها.

ولعل من الأنسب أن أتوقف عن هذا الحديث العام، وأن أتحوّل إلى تناول الوثائق البريدية وما تقدمه من مادة ذات قيمة تاريخية. ولأبدأ بقضية عامة توضح الفرق بين الصورة التقليدية عن صدر الاسلام المستمدة من كتابات المؤرخين القدامى وبين الصورة التي يخرج بها قارئ الوثائق. فما من شك أن الانطباع العام المتوارث في الأذهان عن منطقة الشرق الأوسط في فترة الفتوح الاسلامية يتمثل في أننا أمام تحول جذري شامل. حكام جدد ولغة جديدة ودين جديد، وصاحب هذا التحول الشامل المفاجيء وأكده، تغير ذو دلالة واضحة، وهو نقل حاضرة الحكم في كل من مصر والشام، من الاسكندرية إلى القسطنطينية في مصر، ومن أنطاكية إلى دمشق في الشام.

ومع ذلك فإن الصورة التي تتجلى من قراءة الوثائق البريدية ليست بهذه القوة ولا بهذا الوضوح من حيث التغيير الشامل. فباستثناء الحكام الجدد والعاصمة الجديدة، كانت التغييرات والتحويلات الأساسية الأخرى تدريجية وبعيدة عن روح الثورة وأسلوبها، ولا تكاد تتضح في وثائقنا إلا بعد قرن أو قرن ونصف من اتمام الفتح، وسوف اتناول في هذه الدراسة الادارة العربية الأولى من جانب واحد أساسي، وهو موقف الادارة العربية من بعض النظم التي كانت قائمة، وكيف تعاملت مع السكان ومشاكلهم.

٢. انظر عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، مكتبة بيروت ١٩٦٠ ص، عبد الحميد العبادي، «كتابة التاريخ عند العرب»، فصل اضافة الى ترجمة كتاب «علم التاريخ» تأليف هونشو (القاهرة ١٩٣٦).

لعل من أوائل الاجراءات التي تمت في مجال الادارة هو نقل عاصمة الحكم، كما سبق أن ذكرنا. وفيما يتعلق باختيار الفسطاط بدلا من الاسكندرية، فهو ينسب للخليفة عمر بن الخطاب، في عبارة مشهورة يغلب عليها روح المحافظة، وهو قوله لعمرو بالآ يجعل بينه وبين المسلمين ماء (يقصدون نهر النيل)، فمتى شاء ركب راحلته، ومضى إليهم (٣). ورغم اشتهار هذه العبارة وتكرار ذكرها، فهي لا تقدم وحدها سببا كافيا ولا مقنعا لتفسير القرار الخطير بشأن التغيير وطبيعته. فان الجيوش العربية تجاوزت نهر النيل غربا في تحركها إلى شمال إفريقيا، وعبرت إلى إسبانيا، كما تحركت شرقا وراء نهري الدجلة والفرات العاتيين، دون أن تشكل تلك العوائق المائية موانع للانتشار والاستقرار وراءها. ما من شك أن الأمر كان أكثر تعقيدا وجديدا من أن يفسر بهذه العبارة المنسوبة للخليفة عمر. إن مثل هذا القرار يستلزم معرفة دقيقة بمصر وأحوالها، ولا بد أنه تم بناء على اقتراح من القائد عمرو بن العاص نفسه. فمن وجهة النظر العسكرية المحضة كان عمرو يعرف أن معركة بابلون - التي كانت الادارة البيزنطية تطلق على موقع حصنها كلمة «فساطن» Fossatum / on لاحاطته بخندق fossa (٤) - هي التي قررت مصير مصر. وهناك اعتبار آخر، كان من حسن السياسة مراعاته، وهو المشاعر الوطنية المصرية. فمنذ أن نقل البطالمة العاصمة من منف الى الاسكندرية، شاع بين المصريين شعور من العداء تجاه الاسكندرية، باعتبارها رمزا لحكم أجنبي. ولقد وجدت هذه المشاعر سبيلها إلى التعبير في مجموعة من النبوءات المعروفة في الأدب الشعبي المصري، والتي بدأت زمن البطالمة، واستمرت رائجة حتى نهاية القرن الثالث بعد الميلاد زمن الرومان. هذه النبوءات نظرت الى الاسكندرية باعتبارها رمزا للحكم الأجنبي، وبشرت الناس «بظهور زعيم منهم من أهناسيا، يقوم بطرد الأيونيين خارج البلاد، ويعيد الآلهة إلى منف، ويترك الاسكندرية لهلاك مدمر» (٥). وبعد أفول الوثنية وسيادة المسيحية في القرن الرابع نرى منافسة حادة وانقساماً مذهبياً يناصر فيه المصريون العداة لمذهب القسطنطينية مما يدل على أن مشاعر السخط والرفض القديمة لا تزال قائمة، وتتخذ أساليب جديدة للتعبير. وهكذا كان اختيار الفسطاط عاصمة يعني بالنسبة للعرب مكانا أكثر صلاحية إداريا وعسكريا إلى جانب كونه خطوة سياسية ماهرة في استرضاء مشاعر المصريين.

ولا يبعد أن وراء اختيار معاوية لدمشق بدلا من أنطاكية أسبابا قوية مشابهة. فأنطاكية مع الاسكندرية وروما، كانت تقوم فيها أسبق وأهم ثلاث كنائس في العالم

٣. ابن عبد الحكم: فتوح مصر، تحقيق توري (لندن ١٩٢٠) ص ٩١.

٤. انظر: العبادي: «ابن عبد الحكم ومصر عند الفتح العربي» في كتاب «دراسات عن ابن عبد الحكم» نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - ١٩٧٥. لاحظ أن البلاذري هو المؤرخ العربي القديم الوحيد الذي يدرك وجود الفسطاط قبل فتح عمر لها، وأنها تنطق فسطاط أو فساط (وهو الأقرب للنطق البيزنطي) - فتوح البلدان، تحقيق دي غوجيه (لبن ١٨٦٦) ص ١١٤ - ١١٦.

٥. W.Spiegelberg, Die Sogennante demotische Chronik, p. 6n.1; P.M. Fraser, .٥ Ptolemaic Alexandria, PP. 680- 7 and notes.

المسيحي قبل قيام القسطنطينية^(٦). كما أن قربها من الحدود البيزنطية قد لا يكفل لها الامن اللازم في مرحلة عدم الاستقرار الأولى، في حين أن دمشق كانت في وسط منطقة استقرار القبائل العربية التي كانت قد خرجت واستقرت في سوريا قبل الاسلام، وكان أكثر استقرارها في فلسطين وجنوب سوريا (المعروف باسم وادي سوريا أو الجوف السوري Coele Syria)، حيث تقع دمشق. ومن المعروف أن معاوية استمد كثيرا من جنوده فيما بعد من تلك القبائل العربية القديمة في بلاد الشام، ومن أشهرها قبيلة جذام^(٧). وما من شك أن معرفة معاوية السابقة ببلاد الشام - كما كان الحال بالنسبة لعمر في مصر - قد أعانتة على حسن اختياره للعاصمة الجديدة.

ومن الأمور الهامة الأخرى التي كان على الإدارة العربية أن تقرها منذ البداية مسألة الضرائب وقيمتها. وتشير المعلومات المتوافرة لدينا أن الإدارة العربية الجديدة سمحت باستمرار العمل بنظام الضرائب البيزنطي وبنفس القيمة. بحيث ان مقدار ميزانية مصر ومقدار فريضتها التي ترسل إلى دار الخلافة استمر بنفس المقدار كما كان زمن البيزنطيين وما كان يرسل إلى القسطنطينية^(٨). ويبدو أن سياسة مماثلة طبقت في فلسطين على الأقل حيث وجدنا وثائق نصتان تشير إلى أن ضريبة «الرزق» العربية (عرفت عند المؤرخين باسم «طعام الجند وأرزاق المقاتلة»)، كانت مماثلة في المقدار لضريبة «طعام الجند» (Annona Militaris) البيزنطية^(٩).

ويتضح من الوثائق أن الإدارة العربية كان يغلب عليها روح المحافظة، وكانت أكثر حرصا على استمرارية الإدارة بأوضاعها السابقة. وتطبيقاً لهذه السياسة وجدنا أن القائمين بالأعمال الإدارية استمروا في كثير من الحالات يأتون من فئات الأهالي المسيحيين حتى بعد مرور أكثر من قرن على الفتح العربي. ففي بلدة كوم أشقوة بمصر الوسطى كان عامل

٦. Cambridge Medieval History, IV PP. 18-19 (Cambridge 1966)

٧. حول استقرار القبائل العربية ببلاد الشام وخبرة معاوية بهم، يلاحظها البلاذري في أكثر من مناسبة - ص ١٨١ فأعطى أبو عبيدة الأمان لأهل بعلبك «ومها وفرسها وعربها»: لما ولي عمر بن الخطاب معاوية الشام حاصر قيسارية حتى فتحها (في شوال سنة ١٩) ... وفتح المسلمون الباب فدخل معاوية ومن معه، كان بها خلق من العرب، وقوله ص ١٩٧: «وكان حاضر قنسرين لتتوخ منذ أول ما تنخوا بالشام، نزلوه وهم في خيم الشعر، ثم ابتنوا به المنازل، فدعاهم أبو عبيدة إلى الاسلام، فأسلم بعضهم...» انظر:

R. Dussaud: La Pénétration des Arabes en Syrie avant L'Islam (Paris, 1955); Cambridge Medieval History, IV. P. 699

M. EL Abbadi, "Historians and the Papyri on the Finances of Egypt at the Arab Conquest", Proceedings of XV Int. Congr. of Papyrology (Chico 1981) 509-516.

٩. Idem. "Annona Militaris and Rizk of Nessana", Proc. XVII Int. Congr. of Papyrology (N ples 1984) 1057-1062.

وللمؤلف أيضاً: «نصتان في ضوء الوثائق البريدية»، عالم الفكر، الكويت، م ١٥ (١٩٨٥)، ع ٣، ص ٧٢٧.

ضرائبها باسيل (١٠٠)، ومثيله في نصتان بأقصى جنوب فلسطين يسمى جرجس (١١١)، كما أن رؤساء القرية المسؤولين عن جباية الضرائب في منطقتهم وارسالها إلى بيت المال كانوا حتى منتصف القرن الثاني من الهجرة من المسيحيين في منطقة أحميم بصعيد مصر (١٢)، ومع ذلك فلا ينبغي التعميم على إطلاقه من هذه الأمثلة الإقليمية، لأن مجموعة الوثائق البردية من خربة المرء الأكثر توطأً بفلسطين، إلى الشرق من القدس، تقدم صورة مختلفة، حيث المسؤولون عن الإدارة المحلية بها يكاد أكثرهم يكون من العرب المسلمين في النصف الثاني من القرن الأول من الهجرة (١٣).

ليس من اليسير تتبع بعض الظواهر الاجتماعية في وثائقنا، ومن بينها موضوع له أهميته وهو ظاهرة اعتناق الإسلام. فليس بين أيدينا وثيقة صريحة باعلان اسلام أحد الأقباط، ولكن وسيلتنا للتعرف على بعض حالات اعتناق الإسلام هي عن طريق تغيير بعض الأفراد لأسمائهم باتخاذ أسماء عربية اسلامية. وهي ظاهرة نادرة حتى الآن بين وثائقنا، نذكر منها على سبيل المثال «حسين بن يوحنيس» من نهاية القرن الثاني للهجرة، حيث يكشف اسم الوالد يوحنيس عن الأصل المسيحي لحسين (١٤). ولكن هذا الأسلوب في الاحتفاظ باسم الوالد المسيحي لا يتكرر كثيراً. ففي بردية من مطلع القرن الثالث للهجرة نجد تغييراً كاملاً للاسم مثل قير (أو قيار) بن حول الذي اتخذ اسم «محمد بن حاتم» (١٥)، ومثال آخر لشخص يكتب اسمه «سيار بن سهل وهو مينا» (١٦). وجدير بالذكر أن هذه النماذج ومثيلاًتها التي تمكنا من العثور عليها يرجع أقدمها إلى نهاية القرن الثاني من الهجرة أو ما بعده، أي أنها من زمن الدولة العباسية، وإذا كان تغير الاسم في هذه الحالات قد ارتبط باعتناق الإسلام، فيبدو فيما بعد أن الموقف تطور، وبدأت بعض الأسر القبطية تتخذ أسماء مزدوجة، قبطية وعربية في وقت واحد. ففي وثيقة عنق جارية من نهاية القرن الرابع الهجري تعلن امرأة قبطية تسمى «استرهيو ابنة سرجة» أنها اعتقت جاريته واسمها «بالعربية صفراء

١٠. أوراق البردي العربية، ج ٣، رقم ١٥٠ (راجع الفهرس لأرقام أخرى).

P. Lond. IV 1343, line 22 note; 1384, line 8 note (all dated from the end I A.H.=beginning A.D. VIII)

P.Nes. nos. 68; 70; 71;74 (c.65A.H =c, A?D?685) ١١

P. Nes. nos. 55; 58;59 (second half I A.H. =end A.D. VIII) ١٢

A.Grohmann, Arabic Papyri From Hirbet El-Mird, Louvain, 1963. ١٣

١٤. أوراق البردي العربية، ج ٢، رقم ١١٧-١١٨ س ٢.

١٥. المصدر السابق نفسه، ج ٤ رقم ٢١٨ س ٣.

١٦. المصدر السابق نفسه، رقم ٢٥٨ س ٦، أنظر أيضاً ج ٣ رقم ١٦٨ س ٧ حيث الاسم الاسلامي «ابن سيار

الهامشي». من الأسماء المزدوجة أيضاً في رقم ٢٨٤ س ٧ ورقم ٢٤٥ س ١٠ «شمام وهو وهو أحمد بن نوار».

وبالقبطية دجاشة ابنة ايرنية» (١٧). ولو أن اطلاق اسم صفة عربي مثل صفراء على جارية يجعلنا نرتاب في أمر انتشار هذه الظاهرة بين الأحرار.

ظاهرة اجتماعية أخرى ما زالت نادرة في وثائقنا، هي الزواج المختلط بين مسلمين ونساء قبطيات. ودليلنا على حدوثها وثيقة بمطالبة بدين من عام ٢٣٠ هـ، تعلن فيها امرأة ذات اسم قبطي صريح «يونة ابنة حليمي» أن زوجها «يزيد بن قاسم» مدين لها بعشرة دنانير، وهو باقي صداقها (١٨). ومن المحتمل أن مبلغ عشرة دنانير المذكورة كان بمثابة مؤخر الصداق. الظاهرة الغربية في هذه الوثيقة أن يونة تستشهد على دين زوجها بتوقيعات ستة وعشرين شاهداً، أكثرهم إن لم يكن جميعهم من المسلمين. ولا نعرف سبباً واضحاً لهذا العدد الكبير من الشهود، لأن المألوف هو توقيع أربعة شهود فقط.

قاعدة اسلامية جديدة وضعت موضع التنفيذ فوراً، هي إلغاء الربا أو الفائدة على القروض المالية. ولم يتوقف إقراض الديون بطبيعة الحال، ولكننا لم نعثر على أية حالة ورد بها ذكر لفائدة على دين (١٩).

ومع ذلك يمكننا أن نتتبع تأثير هذا التشريع في مجال المعاملات المالية في بلدة مثل نصتان بفلسطين. فمن بين وثائقها عشرة قروض مالية، تسعة من العصر البيزنطي (٢٠). وواحد من الدولة العربية (٢١). وأول ما يميز هذه الوثيقة أنها مكتوبة باللغتين العربية واليونانية، ومؤرخة في نصها العربي بسني الهجرة «سنة سبع وستين»، وفي النص اليوناني بالتقويم البيزنطي المحلي الموافق ١٨ يناير/ كانون الثاني ٦٨٧ م. ورغم تهشم بعض أجزاء النص العربي، إلا أنه يبدو أن الصياغة العربية كتبت أولاً ثم صيغ على أساسها النص اليوناني في عبارات أوفى واكمل.

أما موضوع الوثيقة، فهو لا يخلو من تعقيد، في ظاهرها البسيط هو احلال مدين من دينه. فالدائن ويسمى الأسود بن عدي كان قد أقرض الأب قيار خمسين ديناراً، وهو هنا يشهد أن قياراً قد أوفى سداد خمسين ديناراً ليحل ابنه من الأسود، الذي «صدق عليه بعشرين ديناراً، وأتم قيار دفع ثلاثين ديناراً إلى الأسود بن عدي». إلى هنا من الممكن أن نظن أننا أمام عملية سداد دين بسيطة، أظهر فيها الدائن كثيراً من التسامح «بتصدقه» على المدين بعشرين ديناراً، واكتفى باسترداد ثلاثين فقط. ولكن عبارة في أول جملة بالوثيقة تمنعنا من

١٧. المصدر السابق نفسه ج ١، رقم ٢٧ س ٧.

١٨. المصدر السابق نفسه، ج ١، رقم ٤٨، س ٢.

١٩. المصدر السابق نفسه، ج ٢ أرقام ٩٨-١٠١-١٠٥-١٠٦-١١٤، ج ٥ رقم ٣٢٠.

٢٠. P.Nes, nos. 26; 27; 28; 44; 46; 48; 110; 111; 147 (all Byzantine VI-early VII A.D.)

٢١. P. Nes. 56 (67 A.H. =A.D. 687)

هذا الفهم البسيط، وهي قوله «الأب قيار دفع..... ليحل ابنه من الأسود». فانن ثمة علاقة شرطية بين سداد الدين واسترداد الأب لابنه. وليس في البردية نص صريح يحدد هذه العلاقة، ولكن الجزء الأخير من النص اليوناني يساعدنا على تفسير طبيعة هذه العلاقة، إذ يعلن الأسود بن عدي أنه يتعهد للأب قيار وابنه بما يأتي: «إن الأب قيارا وابنه حران يذهبان حيث يشاءان، وأنه ليس للأسود بن عدي أو أي من ورثته ومن يليهم في الميراث، على أي منهما حق في قليل أو كثير».

ندرك من هذه العبارات أننا أمام اتفاق معقد، وليس مجرد قرض مالي عادي. فنظراً لأن الإدارة الإسلامية الجديدة قد أبطلت الربا أو الفائدة على الديون، لجأ الأسود بن عدي إلى حيلة قانونية قديمة تحقق له نفعاً يعوضه عن الفائدة وربما يفوقها قيمة، وبشروط قاسية، ذلك أنه رغب في استئجار ابن الأب قيار ليعمل في خدمته (٢٢). وعلى سبيل اغراء الأب واقناعه قدم له ديناً بمبلغ خمسين ديناراً تسترد عند انقضاء مدة عقد العمل مع الابن، ولكن نظراً لضخامة القرض الأصلي، والمبلغ المتنازل عنه، لابد أنه استمر زمناً طويلاً، يزيد على عشر سنوات على الأقل. اما الشرط القاسي الذي أخذ به الأسود مدينه في العقد الأصلي فهو أنه قيد حرية الأب قيار وابنه طيلة مدة عقد العمل. لذلك نجده يطلق حريتهما بعد سداد الدين وكأنه - فوق عمل الابن - قد قيد مدينه بنوع من الرق لفترة من الزمن.

وهكذا نرى في هذه البردية أن هناك أفراداً من العرب المسلمين الجدد ظهوراً بين أثرياء البلدة، وأن منهم من لجأ في سبيل استثمار أمواله، إلى أساليب فيها شيء غير قليل من التعسف. ونلاحظ أن العقد مستوف جميع الشروط القانونية، فقد استشهد الأسود في نصه العربي بأربعة شهود - كما كان الوضع في عقود الديون البيزنطية - وهم جميعاً في هذه الحالة مسلمون. ومن الطريف أن أول الشهود وهو يزيد بن فايد - ولعله قاضي البلدة الجديد - قد ورد ذكره في بردية أخرى، حيث يعنفه شخص ذو منزلة ومرتبة أعلى (يسمى نبر ابن قيس) وظلمه و بطشه بأهل نصتان «وهم في ذمة الله وحمايته» (٢٣).

هذه التفاصيل لا تتوافر عادة في وثائق القروض التي وصلت إلينا في ظل الإدارة العربية من مصر، ولكن أحياناً نقابل دائنتين يشكون من الصعوبات التي يواجهونها في استرداد ديونهم. وفي وثيقتين من نهاية القرن الأول الهجري نجد الدائن يلجأ إلى الوالي قرّة ابن شريك طالباً تدخله. في الوثيقة الأولى نجد رجلاً يسمى مرقص بن جريج يدعي أن مزارعاً - يصفه بالنبطي - مدينا له بمبلغ $23 \frac{1}{7}$ ديناراً قد مات قبل أن يرد الدين، ولذلك

٢٢. W.L. Westerman, The Paramone as General Service Contract, Journal of Jurisitic Papyrology 2 (1948) 9-50

٢٣. لم ينشر النص الكامل ضمن برديات نصتان واكتفى الناشر بالإشارة إليه في التعليق على النص العربي من بردية الأسود بن عدي (P. Nes. 56 p. 159)

يطلب تدخل الوالي ليحصل على دينه (٢٤). وفي الوثيقة الثانية نجد شخصاً يسمى قطر بن جمول يدعي أن له ١١ ديناراً عند مزارع يصفه بالنبطي أيضاً، ولكن المزارع ينكر عليه هذا الحق (٢٥). ولسوء الحظ لا نعرف تفصيلات أخرى عن ظروف هذين القرضين، ومن المحتمل أنهما قرضان مقابل عمل أو نوع من الأجر المسبق، خاصة، وأن المدين في الحالين فلاح يعمل بالأجر. ولكن يهمننا من وجهة نظر إدارية أن والي مصر قررة بن شريك اهتم للأمر وكتب إلى عامله باسيل يأمره بتحري وجه الحقيقة، وأن يمنح الحق لصاحبه.

ونلاحظ اهتماماً إدارياً مماثلاً ببعض المشاكل الاجتماعية في خربة المرد بوسط فلسطين من النصف الثاني من القرن الأول الهجري. وصل إلينا منها خطاب رسمي يوجهه موظف إلى رئيسه بشأن خلاف نشب بين امرأة وزوجها، ولعل من المناسب أن نستشهد هنا بنص الخطاب (٣٦):

١. بسم الله الرحمن الرحيم
٢. لدرع بن عبد الله بن عمر بن عبيد الله. سلم عليك
٣. فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو
٤. أما بعد أتم الله عليك أفضل عافيته في الدنيا والآخرة.
٥. (فا) نك كتبت إلي عن أم إياس بنت معارك فيما ذكرت لك من أخذ
٦. (ز) وجها متاعها ونفقتها، وإني جمعت بينهما فسألته عن الذي ذكرت.
٧. فاعترف بمتاعها فرددته عليها وأنكر نفقتها. فسألني المرأة
٨. أن أجلبه إليك معها ففعلت، أمرتهما جميعاً أن يلحقياك.
٩. وكتبت تأمرني أن أقيم ما (.....).
١٠. (.....)

وواضح هنا أننا أمام موظفين من المسلمين، وهو ما يدعونا إلى الحذر، فإذا كانت الأسماء الغالبة في وثائق نصتان في أقصى جنوب فلسطين قد استمرت مسيحية، فإن خربة المرد الأكثر توسطاً بفلسطين تشيع فيها الأسماء الإسلامية، ليس في هذه البردية فحسب ولكن في برديات أخرى من النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

٢٤. أوراق البردي العربية، ج ٣، رقم ١٥٤ (صفر ٩١هـ - ٩ ديسمبر ٧٠٩ - يناير ٧١٠م) وانظر أيضاً:

PAF no. 1 (= C.H. Becker, Arabische Papyri des Aphrodito-Fundes, Zeitschrift für Assyriologie 20 (1907).

٢٥. أوراق البردي العربية، ج ٣، رقم ١٥٥ (صفر ٩١هـ - ٩ ديسمبر ٧٠٩ - ٧ يناير ٧١٠م).

٢٦. A. Grohmann, Arabic Papyri from Hirbet El-Mird, no. 18.

إذا كان الأفراد من الأهالي يشعرون أن الإدارة في أعلى درجاتها مسؤولة عن حصولهم على حقوقهم في خلافات يغلب عليها الطابع الشخصي، وكانت الإدارة ممثلة في شخص الوالي نفسه تستجيب لشكواهم، فلنا أن نتساءل ماذا كان موقف الإدارة من الأهالي ومشاكلهم ذات الطابع العام، وكثير من المشاكل التي أفلقت الرومان والبيزنطيين من قبل، استمرت تقلق الإدارة العربية الجديدة، من ذلك فرار الفلاحين من أرضهم هرباً من الضرائب. ولدينا عدة خطابات رسمية أرسلها الوالي قرعة بن شريك إلى عماله يأمرهم بملاحقة الفارين وإعادةهم إلى مواطنهم الأصلية (١٧). ومن أهم مسببات هذه الظاهرة هو أن الإدارة العربية أخذت بالنظام البيزنطي في تحديد مبلغ إجمالي لضريبة كل قرية، أو «جزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية»، حسب عبارة ابن عبد الحكم (٢٨). ونتج عن ذلك أن أي نقص في عدد دافعي الضريبة يؤدي إلى صعوبة جباية المبلغ المفروض على كل قرية. ومما يكشف عن مقدار القلق الذي كان يصيب الإدارة العليا في دار الخلافة أن مؤرخاً مثل ابن عبد الحكم يذكر أن الخليفة عمر بن عبد العزيز «كتب إلى حيان بن سريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم» (٢٩). وهكذا كان الفارون من قراهم يتسبون في مشاكل لكل من دافعي الضرائب وجباتها. وفي مثل هذه الظروف كانت الإدارة تلجأ إلى استخدام القوة. وفي إشارة غامضة، يستفسر قرعة بن شريك في عام ٩٠ هـ عن «ناس من الجند» كانت تدفع لهم أموال من القرى منذ أربعين عاماً (من عام ٤٩ هـ) (٣٠). ويمكننا أن نتصور أن هؤلاء الجند كانوا يعملون في خدمة الإدارة المحلية، يعاونونها في ملاحقة الفارين وجمع الضرائب، ويتقاضون عن خدماتهم مكافأة مالية تؤخذ من القرى (٣١).

ونتيجة لخوف الإدارة من ظاهرة فرار الفلاحين من قراهم، فرضت قيوداً على حرية انتقال الأفراد، دون أن تمنعها تماماً. فكان على الأفراد الذين يريدون اكتساب معيشتهم في

٢٧. المصدر السابق نفسه، ج ٢، أرقام ١٥١ - ١٥٣ (٩٢ هـ = ٧١٠ م).

٢٨. ابن عبد الحكم، ص ١٥٤، أنظر أوراق البردي العربية ج ٢ أرقام ١٦٠ - ١٦٣ (٩١ - ٩٣ هـ = ٧٠٩ - ٧١١)،

P. Nes nos, 60-67 (54-69 A.H. = A.D. 674-681).

٢٩. ابن عبد الحكم ١٥٤. يسرني أن اذكر هنا أن الدكتور عبد العزيز الدوري اقترح أنه ربما كان المقصود بالجزية هنا جزية الأرض وليست جزية الرأس، كما أمدني الزميل الدكتور عبد المنعم أبو قاهوق بنص يذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب «ليس على من مات، ولا من أبق جزية، لا تؤخذ من ورثته، ولا يجعلها بمنزلة الدين، ولا من أهله إذا هرب عنهم منها، لانهم لم يكونوا ضامنين لذلك» أنظر ابن سلام، الأموال ص، ص ٦٩، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة - ١٩٦٨.

٣٠. أوراق البردي العربية، ج ٣ رقم ١٥٠ (٨٩/٩٠ هـ = ٧٠٩ م) ص ٧ حاشية.

٣١. لاحظ ما يذكره الكندي: كتاب الولاة والقضاة ص ٦٩: أن «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أيوب بن شرحبيل بفريضة للجند، فقال الحق ذلك بأهل البيوتات الصالحة، فانما الناس معادن، واقسم للغارمين بخسعة وعشرين ألف دينار». وليس من الواضح سبب هذه الفريضة، ولا من هم هؤلاء الجند.

أماكن أخرى غير قراهم أن يتقدموا بطلب للحصول على إذن رسمي بذلك . وعلى الفرد في هذه الحالة أن يجد له كفيلا أو ضامنا يضمنه أمام الإدارة أثناء غيابه . ولدينا وثيقة قبطية تتضمن مثل هذا الضمان أو الكفالة ، وبها نجد ثلاثة من رؤساء القرية (اثنان منهما كاتبان بالقرية) يكتبان لبیت المال (س ٥ demosios logos) عن طريق عامل الاقليم ابيماخوس (Epimachos pagarchos) ويتعهدان بتقديم الضمان (س ٧ engué) عن شخص يسمى شنودة عند أي استفسار بشأنه (٣٢) .

بعد الحصول على وثيقة الضمان ، يتقدم الفلاح بطلب للحصول على ترخيص بالسفر ، موضحا في طلبه المكان الذي يريد الذهاب إليه والغرض من السفر ومدة اقامته به ، ويقوم عامل الاقليم الذي يتبعه باصدار الأذن بالسفر الذي يكفل لحامله الحماية اللازمة من أجهزة الأمن . ومن حسن الحظ وصلت إلينا عدة نماذج باللغة العربية من مثل هذه الوثيقة (٣٣) ، نستشهد بواحدة منها :

- ١ . باسم الله الرحمن الرحيم
 - ٢ . هذا كتاب من عبد الله بن عبيد الله عامل
 - ٣ . الأمير عبيد الله بن الحبحاب على اعلا اشمون
 - ٤ . لقسطنطين ببطلس (= بابو ستولوس) شاب أبطبخده أثر ، وبعنقه خالان
 - ٥ . سبط (= ناعم الشعر) ، من أهل بسقنون (= بسقلون) باهه من أعلى اشمون أنى
 - ٦ . أذنت له ان يعمل باسفل اشمون ، لوفأ جزيته
 - ٧ . والتماس معيشته ، واجلته شهرين من مستهل ذي الحجة
 - ٨ . الى انسلخ (= انسلخ) المحرم سنة ست عشرة ومائة فمّن لقيه
 - ٩ . من عمال الأمير أو غيرهم فلا يتعرض له في ذلك
 - ١٠ . من الأجل الا بالخير والسلام على من اتبع الهدى
 - ١١ . وكتب طليق ، مستهل ذي الحجة تمام سنة
 - ١٢ . اثنتي عشرة ومائة .
- (الخاتم والتوقيع ، بعد لفظ الجلالة : الله (أ)
عبد الله (٣٤) .

٣٢ . أوراق البردي العربية ، ج ١ رقم ٢ = ج ٣ رقم ١٦٤ (نهاية قرن ١ هـ = نهاية قرن ٧ م) . كان ابيماخوس عامل كوم اشقوة قبل باسيل ، وورد اسمه مرارا في برديات البلدة اليونانية (P. Lond. IV, index) عند التماس الترخيص باجازة انظر : I.A. Schiller, Ten Coptic Legal Texts (N.Y. 1932)

٣٣ . أوراق البردي العربية ، ج ٢ أرقام ١٧٤ (= ١٠٣ هـ = ٧٢٢ م) ، ١٧٥ (= ١١٢ هـ = ٧٣١ م)
PERF 602 (122 A.H. = A.D. 737).

٣٤ . أوراق البردي العربية ، ١٧٥ ، التاريخ المذكورة بالوثيقة تدعولتساؤل فالأذن بالسفر محدد لشهرين من ذي الحجة سنة ١١٦ ، في حين أن الوثيقة وقعت في ذي الحجة سنة ١١٢ . هذا الفارق الزمني لا يتكرر في وثائق أخرى .

جدير أن نلاحظ من هذا الكتاب أن من مبررات منح الاذن بالسفر تمكين حامله من اكتساب ما يكفيه لدفع جزية رأسه. كما أن الاذن يكفل له الحماية من أن يتعرض له رجال الأمن والادارة بسوء. أما عن معاملته ضريبياً، فكان الشخص المصرح له بالسفر مسؤولاً عن دفع جزيته في موطنه الأصلي، وليس في مكان إقامته المؤقت. ولدينا وثيقة مؤرخة في سنة ١١٣ هـ (= ٧٣٢ م) يخاطب فيها عامل اشمون شخصاً يسمى جرجس بن لونجين، من إحدى قرى اشمون، ولكنه مقيم في ذلك الوقت في الفسطاط، و يطلب منه سداد الجزية المستحقة منه ومقدارها ديناران (٣٥).

كانت الضرائب مثار شكوى الأهالي دائماً، هكذا كانت زمن الرومان، وكذلك استمرت زمن العرب. وسوف أتناول فيما يلي بعض الوثائق التي توضح موقف الادارة العربية من شكاوي، الأهالي في هذا الصدد، ففي خطاب باللغة اليونانية أرسله قرة بن شريك إلى عامله باسيل يؤنبه فيه لعدم اهتمامه بشكاوي الأهالي (٣٦). ولربما قال قائل: إن مثل هذه الخطابات التوجيهية من وال إلى عامله قد لا تعني اهتماماً حقيقياً، وأن ما تتضمنه مثل هذه الخطابات لا يزيد على عبارات جوفاء اقتضتها المناسبة. ولكن خطاباً باللغة اليونانية وصل إلينا من فلسطين، ويرجع إلى نهاية القرن الأول من الهجرة، يدل دلالة واضحة على أن السخط العام إذا لم يمكن تداركه قد يؤدي إلى موقف ينذر بالخطر. وما من شك في أن منطقة جنوب فلسطين نظراً لظروفها شبه الصحراوية، واعتمادها الكامل على المطر، كانت معرضة لفترات من الجفاف من وقت إلى آخر. في مثل هذه الأحوال يتقدم الأهالي بظلاماتهم إلى الادارة، طالبين التخفيف أو الاعفاء من الضرائب (٣٧). و يتعلق الخطاب الذي وصل إلينا بموقف من هذا القبيل، وتناقله رؤساء الكنائس في عدد من قرى جنوب فلسطين بهدف تنظيم حركة احتجاج عام، ونظراً لطرافته ودلالته نورد ترجمة له:

نود أن نحيط نبيل عظمتكم المحببة إلى الله علما أننا تسلمنا رسالة من عظمة السيد / صموئيل، وأنه بشخصه يدعوننا وإياكم لنتوجه فوراً إلى سيدنا الوالي المبجل، لعله يخفف عنا، لأنهم يثقلون علينا وعليكم، ولا نستطيع أن نتحمل مثل هذا العبء.

فاعلم، إذن، أننا غداً يوم الاثنين سوف نذهب إلى غرة، وسوف نكون عشرين رجلاً. وعلى ذلك تحسنون صنعا بالحضور فوراً. حتى نكون جميعاً قلباً واحداً ورأياً واحداً.

H.I. Bell. P. Lond IV. introd. p XV

٣٥. المصدر نفسه ج ٣ رقم ١٨٠، أنظر:

P. Lond IV. 1356 (92 A.H. = A.I 710).

٣٦.

F.M. Heichelheim, Roman Syria, An Economic Survey of Ancient Rome, ed.

٣٧.

T. Frank, Vol. IV (Baltimore 1938) 234.

بعد أن تفرغوا من قراءة هذا الخطاب أرسلوه الى نصتان. لقد كتبنا الى سو باطة (= سبيطة) مع أطيب التمنيات والمودة (٣٨).

هذه البريدية تطلعنا عن كثب على القدرة التنظيمية بين القرى المختلفة في جنوب فلسطين، فهناك في الخطاب اشارة إلى خمس قرى، وهي القرى التي منها صموئيل وكتاب الرسالة والمرسلة إليه وسوباطة ونصتان. وواضح أنهم جميعاً على ألفة تامة بالتحرك الجماعي المنظم، فنحن لسنا أمام حركة تمرد سرية، ولكنه تحرك علني لتجميع الوفود من قرى الأقليم ليتوجهوا إلى الوالي في غزة* ليعرضوا عليه ظلامتهم. كما نلاحظ أن رجال الكنيسة كانوا يمثلون الزعامة بين الأهالي في مثل هذه المناسبات، وكل عمل جماعي لا بد له من منظم، ويبدو في بريدتنا أن صموئيل هو العقل المدبر لهذا التحرك، وبمهارة ملحوظة فهو حريص على أمرين: تجميع أكبر قدر من الوفود وتوحيد الرأي بينهم، ليتمكن بذلك الضغط على الوالي حين يرى الاجماع يشمل الاقليم بأسره. أما عن اعداد الوفود، فكتاب الرسالة يذكر أن وفد قريته يتكون من عشرين رجلاً، فاذا افترضنا أن هذا الرقم يمثل متوسط أعداد الوفود فإن مجموع أعضاء الوفود الذين سيتجمعون في غزة عند الوالي يوم الاثنين قد يصل الى مائة رجل.

وما من شك في أن أعضاء هذه الوفود هم كبار أصحاب الأرض في كل قرية، الذين كانت تتكون منهم لجان جباية الضرائب - كما رأينا من قبل - والذين كان يقع على عاتقهم عبء الضرائب أكثر من غيرهم.

ولعله بهدف تجنب حدوث مثل هذه المظاهرات الجماعية، نرى في وثائق كوم أشقوة بمصر أن الوالي قرة بن شريك كان شديد التنبه لتلافي أسباب السخط بين الأهالي. ولم يعتمد الوالي على ما يصله من شكاوي فردية أو جماعية فحسب، بل كانت له مصادر معلوماته الخاصة. ونعرف جميعاً أن صاحب البريد في الادارة العربية كان يتولى مسؤولية المخابرات السرية في الدولة. ويذكر قرة بن شريك في إحدى رسائله أنه علم من صاحب البريد أن غرامة إضافية قد فرضت على القرى التي تأخرت في دفع جزيتها، فكتب في الحال إلى باسيل يأمره بوقف هذا الاجراء فوراً (٣٩). وقد يكشف هذا التدخل الفوري من جانب الوالي لوقف إجراء غير قانوني مقدار ما شعر به من خطورة احتمالات الموقف. ويبدو أن موقفاً مشابهاً نشأ في منطقة أحميم حوالي عام ١٣٧ هـ، أي في السنوات الأخيرة من حكم الدولة الأموية، والموقف في أحميم يأخذنا لآخر وثيقة نتناولها في هذه الدراسة، ولعلها أهمها جميعاً (٤٠). وهي عبارة عن

٣٨. P. Nes. 75 (Last quarter I. A.H. = Late A.D. VII).

* من الملاحظ أن غزة لم تكن من بين عواصم «أجناد» فلسطين التي أقامتها الادارة العربية، ولذلك ربما يوحي نكر وجود الوالي بها في هذه الوثيقة إلى وجود جولة إدارية كان يقوم بها بين مراكز إدارة جنده للنظر في شؤون الأهالي بالقرب من مواطنهم. مثل هذه الجولة الادارية كانت مطبقة بمصر منذ العصر الروماني.

٣٩. أوراق البردي العربية ج ٢ رقم ١٥٣ (٩١ هـ = ٧١٠ م).

٤٠. أوراق البردي العربية رقم ١٦٧ (١٣٧ - ١٤٠ هـ = ٧٥٤ - ٧٥٧ م).

بردية نادرة كتبت بثلاث لغات : القبطية واليونانية والعربية، وتشتمل على ١٠١ سطرا موزعة على النحو التالي : الأسطر ١ - ٨٠ بالقبطية، والأسطر ٨١ - ٩٢ باليونانية، والأسطر ٩٣ - ١٠١ بالعربية. وواضح أن النص القبطي هو الأصل الكامل للوثيقة، وأن النصين اليوناني والعربي عبارة عن مختصرات لأسباب الإدارة والحكام العرب. أما موضوع الوثيقة فيتناول النقاط التالية :

- (أ) إن شكاوي أرسلت للوالي في الفسطاط بشأن مخالفات غير محددة ارتكبتها عامل الخراج عمرو بن عطاس وأعوانه.
- (ب) أصدر الوالي أمره ليزيد بن عبد الله صاحب بيت المال وعامل أخميم وطهطا (س ٢ - ٣، ٩٦) بالتحقيق في الأمر.
- (ج) قام يزيد بدعوة رؤساء القرى وأخميم من الأهالي (س ١٠، ٨٢، ٩٦) وبعد إجراء التحريات اللازمة طلب منهم كتابة إقرار رسمي (س ٩ : Homologia) يعلنون فيه أنهم لم يتعرضوا لظلم أو أذى من جانب عمرو بن عطاس وأعوانه، وأنهم يتحملون دفع الغرامة (س ١٢ : Prostimon) إذا ما ادعى أحدهم عكس ذلك. ومن الجدير بالملاحظة أن رؤساء الأهالي يسجلون أنهم لم يقبلوا التوقيع على الإقرار إلا بعد أن رد إليهم عمرو بن عطاس وأعوانه حقهم (س ٧ : Dikaion). وتدل هذه العبارة على أن عمرو بن عطاس كان قد غالى في جباية الضرائب، وأن يزيد قد أدرك حقيقة الأمر وأرغم عمرا على رد ما أخذه بغير وجه حق، مقابل أن يرفع الأهالي إقرارهم إلى الوالي بعدم الظلم. كما تتضمن العبارة الأخيرة في الإقرار دفع غرامة تهديدا صريحا من يزيد إذا نقض أحدهم الإقرار.

وفي الواقع أن لهذه الوثيقة أهمية خاصة، لما تلقيه من ضوء على أحوال الإدارة العربية بعد مضي نحو قرن وربع قرن على تأسيسها ولقد ذكرنا أن الطابع القبطي غالب على وثيقتنا، ليس فقط لأن النص القبطي يحتل ٨٠٪ من كل وثيقة، ولكنها على الرغم من أنها موجهة للوالي المسلم فإن رؤساء الأهالي يبدؤون إقرارهم بالعبارة المسيحية التقليدية «بسم الأب والابن والروح القدس». كما أن التوقيعات التي تذييل النص القبطي تشمل أربعة وخمسين شاهدا، اثنان منهم فقط يحملان أسماء عربية (س ٣٧). أما الشهود الأقباط فيمكننا أن نتعرف على اثنين وعشرين من رؤساء القرى، وعشرة مندوبين من بلدة أخميم، ثم هناك تسعة من رجال الدين المسيحي على رأسهم أسقف الكنيسة.

إن هذه المظاهر القبطية في اللغة والأفراد تثير أكثر من مشكلة بالنسبة لما نعرفه من مصادرنا الأدبية عما أصاب الإدارة العربية من تطورات. فكتابات المؤرخين تقدم لنا صورة مختلفة تماما عن الصورة التي تقدمها هذه الوثيقة وغيرها. فنحن نعرف أن سياسة تعريب الدواوين بدأها عبد الملك بن مروان في أنحاء الدولة الإسلامية. ويذكر الكندي أن في خلافة ابنه الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) أمر أخوه وواليه على مصر عبد الله «بالدواوين

فنسخت بالعربية، فكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية» (٤١). وهو قول غير صحيح لان لغة الادارة الأولى من قبل كانت اليونانية، ولكن وثيقتنا بعد نصف قرن من اعلان سياسة التعريب، ما زالت اللغة العربية بها بعيدة عن أن تحتل المنزلة الأولى.

وبالنسبة للأفراد، يذكر الكندي أيضاً، أن في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) «نزعت موازيت (= رؤساء القرى) القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم» (٤٢). ولقد أخذ احد الباحثين الحديثين هذه العبارة أخذاً جاداً واستنتج أن قرار عمر بن عبد العزيز هذا، كان وراء إقبال كثيرين من الأقباط على اعتناق الاسلام، حتى يستمروا في مناصبهم كرؤساء للقرى والأهالي (٤٣). ولكن وثيقتنا وأمثالها تنقض مثل هذا الاستنتاج، إذ تدل بعد نحو أربعين عاما من خلافة عمر بن عبد العزيز على استمرار تولي الأقباط مناصب القرى والريف عامة. ولا تدل الوثائق بصفة عامة على إقبال الأهالي على اعتناق الاسلام حتى منتصف القرن الثاني للهجرة على الأقل.

و يجدر بنا أيضاً أن نذكر ملاحظة على النص العربي من الوثيقة فهو يتضمن توقيعات عشرة من الشهود، جميعهم من العرب الذين ينتمون إلى قبائل عربية ذات شأن، فاثنتان منهم أمويان (أحدهما عبيد بن سليم الأموي)، ثم هناك الواليلي والخزاعي والليثي والصدفي والخولاني (س ٩٣ - ٩٥). ولا ريب أن الهدف من اثبات أسماء عدد من أشرف العرب ورؤساء الكنيسة هو منح الاقرار مزيداً من الأهمية، كما أنه يشير إلى خطورة الموقف والرغبة الجادة في تحقيق مصالح شاملة بين الادارة وسائر فئات السكان في أحميم. وليس من المستبعد أن بعض كبار الشخصيات العربية الذين وقعوا الاقرار، كانت لهم اقطاعات من الأرض في إقليم أحميم. ومن ثم حرصهم على إزالة أسباب السخط بين الأهالي.

نقطة أخيرة جديرة بالملاحظة في هذه الوثيقة هي أن اسم البلدة «أحميم» هو المستخدم في النصين القبطي (س ٣ وغيره) والعربي (س ٩٦)، في حين أن النص اليوناني استخدم التسمية اليونانية «بانو بولس» (س ٨١ panopolis). وفي الواقع إن هذا الاتفاق بين اللغتين القبطية والعربية في اسم المدينة واختلاف اليونانية عنهما، يعكس ظاهرة عامة. فمنذ أن أقام الاغريق إدارتهم في مصر والشام، أطلقوا أسماء يونانية على كثير من المدن. فعلى سبيل المثال في مصر أرسنوي للفيوم، وهرمو بولس للأشمونين، وهرقليو بولس لاهناسيا، وأوكسير نخس البهنسا... وغيرها. وفي بلاد الشام هناك فيلادلفيا لعمان وهليو بولس لبعلبك واديسا للرها و بالميرا لتدمر و بطوليماس لعكا.... وغيرها. وطيلة الف عام تقريباً من العصر

٤١. الكندي، كتاب الولاة والقضاة ٥٨ - ٥٩، انظر سيدة اسماعيل كاشف، مصر في فجر الاسلام ١٧٩.

٤٢. الكندي، كتاب الولاة والقضاة، ٦٩، انظر سيدة كاشف، مصر في فجر الاسلام ١٨٠.

٤٣. Daniel C. Dennett, Conversion and Poll-Tax in Early Islam (Harvard 1950) 65 ff, 87 ff.

الهلينستي والروماني من بعده، ورجال الادارة والكتاب على السواء يستخدمون التسميات اليونانية، في حين أن الأهالي في مصر والشام رفضوا ذلك التغيير، واستمروا فيما بينهم يستخدمون الأسماء المحلية القديمة، وكذلك عرف التجار والرحالة العرب في الجاهلية الأسماء المحلية بحكم احتكاكهم بالأهالي وكلنا يذكر قول عمرو بن كلثوم :

وكأس قد شربت ببعلبك وأخرى في دمشق وقاصرينا

وما إن أقام العرب دولتهم وبسطوا سيادتهم في مصر والشام حتى وجدنا الأسماء اليونانية تختفي تماماً، وتسود الأسماء المحلية من جديد. ولكن الطريف في هذه الظاهرة أنها حدثت بطريقة تلقائية، وليست نتيجة لقرار اداري أو سياسي كما حدث في اختيار العاصمة مثلاً. ولعل التفسير الوحيد لهذه الظاهرة أنها جاءت نتيجة للتألف والتعارف الثقافي الذي نشأ بين العرب وشعوب هذه البلاد قبل بدء الفتوح الاسلامية بزمن طويل.

دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في العصر الأموي

عبد الواحد ذنون طه

تمهيد :

يعود اهتمام العرب بالتاريخ إلى العصور التي سبقت ظهور الاسلام، فقد عرفوا نوعاً من التاريخ الشفهي الذي يعتمد على رواية هم أقرب إلى القصص، كانوا يروون أخبار القبائل وأيامها التي تدور حول غزواتهم ومعاركهم. كما كانت كل قبيلة تحفظ نسبها، لتبقى نقية من كل شائبة، ولتفاخر به بقية القبائل الأخرى. وقد استمر اهتمام العرب بالتاريخ إلى ما بعد ظهور الاسلام، وازداد بسبب ظهور عوامل جديدة، منها العناية بدراسة الحديث، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى القضايا السياسية والادارية والاجتماعية الأخرى التي برزت على مسرح الأحداث، لا سيما مسألة الخلافة وإدارة المناطق المحررة، وطرق تنظيمها وحكمها (١).

ونتيجة لهذا، سارت بدايات علم التاريخ عند العرب، كما يرى أحد الباحثين (٢)، في اتجاهين أساسيين، هما الاتجاه الاسلامي، أو الاتجاه الذي ظهر عند أهل الحديث، والاتجاه القبلي، أو اتجاه (الأيام) الذي يعكس التيار القبلي الذي استمر في مجتمع صدر الاسلام. وقد نشأ هذان الاتجاهان في مركزين ثقافيين في الدولة العربية الاسلامية، الأول في المدينة المنورة، التي هي دارسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، والثاني في الكوفة والبصرة، اللتين انشئتاً بعد فتح العراق، ويشير الباحثون عادة إلى مدرستين تاريخيتين تمثل كل منهما أحد هذين الاتجاهين، هما: مدرسة المدينة، ومدرسة العراق (٣).

١. احمد امين، فجر الاسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٨، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٥٦.

٢. عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠، ص ١١٩. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ.

٣. انظر الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ١٩، ٦١، ١١٨. شاکر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج ٢، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٧٩، ج ١، ص ١٤٩، ١٦٩. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: مصطفى، التاريخ العربي؛ وانظر ايضاً:

A.A. DURİ, The Iraq School of History to the Ninth Century-asketch, in: Historians of the Middle East, ed. Bernard Lewis, Oxford Univ. Press, London, 1964., p. 46.

وعلى الرغم من الأهمية البالغة لهاتين المدرستين التاريخيتين في نشأة وتطور علم التاريخ عند العرب، فلا يمكن إغفال دور المراكز الأخرى في الدولة العربية، والتي أثرت بشكل أو بآخر على نشأة علم التاريخ. ومما لا شك فيه أن دور بعض هذه المراكز كان محدوداً، الأمر الذي دعا أحد المؤرخين المحدثين إلى أن يطلق عليه اسم «المدارس الصغرى» تمييزاً لها عن «المدارس الكبرى» في المدينة والعراق^(٤). وتأتي مدرسة اليمن، ومدرسة بلاد الشام في طليعة هذه المراكز التي لم تحظ بدراسات وافية من الباحثين، لتركز الاهتمام على مدرستي المدينة والعراق. وتعد جهود شاکر مصطفى في التعريف بهما، والاشارة إليهما من المحاولات الجادة في هذا المجال^(٥). ولكن دراسته جاءت عامة ضمن اهتمامه الواسع بالتاريخ العربي والمؤرخين عبر العصور، لذا فإن الحاجة ما تزال قائمة إلى القاء المزيد من الضوء على أهمية هذه المدارس وإبراز دورها في نشأة علم التاريخ عند العرب، لا سيما دور بلاد الشام في العصر الأموي.

اهتمام أهل الشام المبكر بالتاريخ :

لقد عني أهل الشام بالأنساب وبتاريخ العرب قبل الإسلام، إضافة إلى دراسة البسيرة ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، والفتوح التي سادت عصر الراشدين. وكان اهتمام هذا البلد بتلقي العلوم كبيراً جداً، حتى قيل إن كل عمود من أعمدة جامع دمشق كان يضم شيخاً، وعنه يكتب الناس العلم^(٦). وقد قيل أيضاً من أراد العلم فلينزل بداريا من عنس وخولان، وهما قريتان قريبتان من دمشق فيهما مسجدان، واحد لعنس، والآخر لخولان «فإذا كان هذا في أهل داريا وهي قرية من قرى دمشق، فما ظنك بأهل البلد الكبير الذي حوى الخلق»^(٧).

وقد عرف أهل الشام بتخصصهم في المغازي ومنافستهم لمدرسة المدينة في هذا المجال. فينقل عن عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ/ ٧٧٣ م) قوله: «... إن مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق، فإنها محدثة فتحا»^(٨). وكان من المعروف لدى الناس في ذلك الوقت تخصص المدارس التاريخية حسب

٤. مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١١٨.

٥. مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١١٩ وما بعدها.

٦. ابن عساکر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ٧ م، تهذيب: الشيخ عبد القادر بدران، دار المسيرة، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩، م ١، ص ٧٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساکر، تهذيب.

٧. ابن عساکر، تهذيب، م ١، ص ٧١.

٨. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م)، الرد على سير الأوزاعي، تحقيق أبو الوفا الافغاني، حيدرآباد، ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م، (مقدمة المحقق، ص ٢-٣ نقلا عن شرح السير الكبير للسرخسي).

الأقاليم المختلفة، فمدرسة المدينة متخصصة بالمغازي، ومدرسة الشام متخصصة بالمغازي والفتوح، ومدرسة العراق متخصصة بالأيام والأنساب. وقد أشار سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ / ٨١٤ م) إلى تخصص أهل الشام بقوله: «من أراد المناسك فعليه بأهل مكة ومن أراد مواقيت الصلاة فعليه بأهل المدينة ومن أراد السير فعليه بأهل الشام...»، وفي رواية أخرى: «وإذا أردت المغازي فعليك بأهل الشام...»، وفي لفظ آخر: «... ومن أراد المقاسم وأمر الغزو فعليه بأهل الشام» (٩).

و يؤكد ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م) هذه الحقيقة بقوله: «إن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ثم أهل الشام ثم أهل العراق، فأهل المدينة أعلم بها لأنها عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد، فكان لهم من العلم بالجهاد والسير مالميس لغيرهم؛ ولهذا عظم الناس كتاب أبي اسحق الفزاري ابراهيم بن محمد الذي صنفه في ذلك وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار» (١٠). وعلى الرغم من أن أبا اسحق الفزاري متأخر عن العصر الأموي (ت ١٨٦ هـ / ٨٠٢ م)، لكنه، كما سنرى، اعتمد هو وغيره من المؤرخين اللاحقين على ما قدمه الرواد الأوائل في بلاد الشام من روايات شفوية، ومصادر مدونة كانت أساساً للمؤلفات التي ظهرت في العصور التالية.

وتشير بعض الدراسات الحديثة إلى احتمال وجود وثائق في دمشق وغيرها من البلدان العربية في العصر الأموي، استخدمت من قبل المصنفين المتأخرين لتحديد الاطار الزمني للأحداث، وقوائم الولاة، وأمراء الحج، وغير ذلك من الأمور، لكل عام من الأعوام (١١). ولا شك ان المؤرخين اللاحقين اعتمدوا عليها، فكانت عاملاً مساعداً من عوامل تطور التدوين التاريخي في هذه الحقبة المتقدمة.

يتبين مما سبق اهتمام بلاد الشام بالدراسات التاريخية، لا سيما عنايتها بأمر الفتوح والمغازي، وأن هذا الاهتمام لم يقتصر على طلبة العلم حسب، بل كان يعبر عن رغبة اجتماعية وثقافية أيضاً (١٢). ولأجل التوصل إلى دور هذه البلاد الحقيقي في نشأة علم التاريخ،

٩. ابن عساکر، تهذيب، م ١، ص ٧١؛ وانظر: مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١١٩ - ١٢٠.

١٠. تقي الدين احمد بن عبد الحلیم، مقدمة في أصول التفسير، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، ط ١، الكويت، ١٩٧١، ص ٦٠.

١١. هاملتون جب، علم التاريخ، ترجمة: ابراهيم خورشيد وفاقه، دار الكتاب اللبناني، ط ٢، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٠ - ٦١؛ ولنفس المؤلف أيضاً: دراسات في حضارة الاسلام، ترجمة احسان عباس وفاقه، دار العلم للملايين، ط ٢، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٥٠ - ١٥١، وانظر أيضاً أدولف جروهمان: أوراق البردي العربية، اشترك مع المؤلف في نقله الى العربية حسن ابراهيم حسن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤، م ١، ص ١١ - ٣٥؛ فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، التدوين التاريخي، نقله الى العربية: محمود فهم حجازي، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، ج ١، ص ٢، ٨، ٢٠، ٢٤. وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: سزكين.

١٢. الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٧٦.

لا بد من التركيز على محورين أساسيين، الأول: هو التعرف إلى أولئك الرواد الأوائل الذين كان لهم دور في خلق هذا التاريخ، وساهموا في أحداثه ورواية وقائعه، ومن تبعهم من الرعيل الثاني، الذين عاشوا في هذه البلاد، وعاصروا الفترة الأموية فيها، والثاني هو موقف الخلفاء الأمويين واهتمامهم بالدراسات التاريخية، وتشجيعهم لها، الأمر الذي أدى إلى انتعاشها في بلاد الشام، فأصبحت دمشق، بحكم وجود مقر الخلافة فيها، مطمح أنظار العديد من المشتغلين بالتاريخ، الذين ساهموا في نشأته في هذه البلاد، على الرغم من انتماء بعضهم إلى المدارس الأخرى في العراق والحجاز.

الرواد الأوائل:

يشير المؤرخون في رواياتهم عن فتوح بلاد الشام خاصة إلى مشايخ عاصروا الأحداث، وعاشوا الوقائع، وتخصصوا في أخبار هذه البلاد، حيث أنهم الرواد الذين ينتهي بهم عدد كبير من أسانيد هؤلاء المؤرخين. وهم يمثلون مناطق متعددة، فهناك على سبيل المثال «مشايخ اهل انطاكية» (١٣)، و«مشايخ من اهل عسقلان» (١٤)، و«مشايخ من اهل حمص» (١٥)، و«شيوخ دمشق» (١٦)، و«اشياخ من غسان وبلقين» (١٧)، و«قدماء مشايخ دمشق» (١٨)، و«مشيخة ساحل دمشق» (١٩)، وغيرها من أماكن بلاد الشام. وتشير إحدى الروايات التي يوردها علي بن الحسن، المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م) للمؤرخ الدمشقي الوليد بن مسلم (ت ١٩٥ هـ / ٨١٠ م)، إن هؤلاء الشيوخ كانوا من قدماء الجند «ممن كان يلزم الجهاد في الزمان الأول» (٢٠). وكذلك فإن بعضهم كان من الصحابة، أو من التابعين، الذين استقروا في بلاد الشام بعد الفتح. ولقد ظهر اهتمام هؤلاء بصورة مبكرة بتاريخ بلاد الشام، ورواية

١٣. البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٢٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح.

١٤. البلاذري، فتوح، ص ١٤٨.

١٥. البلاذري، فتوح، ص ١٢٨.

١٦. ابن عساكر، علي بن الحسن (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)، تاريخ مدينة دمشق، ٢ م، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥١ م، ١ ص ٥٢٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تاريخ.

١٧. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ / ٩٤٥ م)، تاريخ الرسل والملوك، ٣ م، نشر: دي غوية، ليدن، ١٨٧٩ - ١٩٠١ م، ١ ص ٢٣٩١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

١٨. ابن كثير، اسماعيل بن عمر، (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ م، مكتبة المعارف، ط ٢، بيروت، ١٩٧٧ م، ٧ ص ١٠. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن كثير، البداية والنهاية.

١٩. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٨٣٦.

٢٠. ابن عساكر، تاريخ، م ١، ص ٢٦١.

الأحاديث النبوية في فضائلها، وتمييزها عن غيرها من البلدان، وبقاء أهلها ظاهرين على الحق (٢١).

ومن الذين برزوا في هذا المجال، عبد الله بن حوالة الأزدي، وهو صحابي نزل الأردن، وتوفي بالشام سنة ٥٨ هـ / ٦٧٧ م (٢٢). وقد نقل عنه محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ / ٩٤٥ م) بواسطة أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م)، رواية تشير إلى اهتمامه بتتبع أخبار الصراع بين الامام علي بن ابي طالب (ت ٤٠ هـ / ٦٦١ م)، ومعاوية بن ابي سفيان (ت ٦٠ هـ / ٦٨٠ م)، وبيعة اهل الشام للأخير بالخلافة (٢٣). كما اهتم بذكر فضائل الشام وأهلها أيضاً كل من جبير بن نفيير الحضرمي (ت ٨٠ هـ / ٦٩٩ م)، وابنه عبد الرحمن بن جبير (ت ١١٨ هـ / ٧٣٦ م)، وأبي امامة صدي بن عجلان الجاهلي (ت ٨١ أو ٨٦ هـ / ٧٠٠ أو ٧٠٥ م)، وخالد بن معدان الكلاعي (ت ١٠٣ أو ١٠٤ هـ / ٧٢١ أو ٧٢٢ م)، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، والوضيين بن عطاء (ت ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م)، وغيرهم ممن سنشور إلى إسهامهم في نشأة علم التاريخ في بلاد الشام في العصر الأموي.

لقد كانت أحداث الفتوح هي المحور الأساس الذي تركز عليه الاهتمام التاريخي لهؤلاء الرواد الأوائل كما تطرق بعضهم أيضاً إلى السير والمغازي، وبعض أحداث العصر الراشدي والأموي، وفيما يلي نماذج لبعض هؤلاء الرواد واهتماماتهم:

١. عبادة بن الصامت بن قيس، صحابي من نقباء الخزرج، خرج إلى الشام زمن الفتوح، وتوفي بالرملة سنة (٣٤ هـ / ٦٥٤ م) (٢٤). وقد ساهم بشكل فعال في فتوح الشام، وشهد

٢١. ابن عساکر، تاريخ، م ١، ص ٥١ - ٥٢، ١٦٠، ١٨٥، ١٩٢، ٢٢٠، ٢٤٥ - ٢٤٦؛ وانظر أيضاً:

"The Origin and Development of the local Histories of Syria",
in: Historians of the Middle East, P. 108.

٢٢. انظر: ابن سعد، محمد بن منيع البصري (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م)، الطبقات الكبرى، م ٨، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، م ٧، ص ٤١٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، طبقات: ابو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٢٠ هـ / ١٠٢٨ م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، م ١٠، مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة، ط ١، مصر، ١٩٣٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأصبهاني، حلية الأولياء: أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م). تهذيب التهذيب، م ١٢، حيدر آباد الدكن، ١٩٠٧ / ١٣٢٥، م ٥، ص ١٩٤. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حجر، تهذيب التهذيب.

٢٣. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٣٣٩٦.

٢٤. ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٣٨٧. البخاري محمد بن اسماعيل بن إبراهيم الجعفي، (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م)، كتاب التاريخ الكبير، م ٤، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط ١، ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م، ق ٢، ج ٣، ص ٩٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: البخاري، التاريخ الكبير. عبد الله بن مسلم، ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٥٥. ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد، (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م)، جمهرة انساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط ٤، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٣٥٤.

- معركة اليرموك وروى تفاصيلها بدقة متناهية (٢٥). كما اشترك في بعض صوائف معاوية ابن أبي سفيان البرية والبحرية ضد البيزنطيين (٣١).
٢. شراحيل بن مرثد، ويكنى بابي عثمان الصنعاني، ادرك الخليفة ابا بكر الصديق (ت ١٢ هـ / ٦٣٤ م) وشهد اليمامة، وفتح دمشق (٣٧). وقد اورد له المؤرخون وصفه لفتح حمص وحصار دمشق (٢٨)، وارسال الجيوش إلى الشام في عهد ابي بكر (٣٩).
٣. ابو الزهراء القشيري (لم اعثر على اسمه الكامل وتاريخ وفاته). ساهم في فتوح الشام، وقد ارسله يزيد بن ابي سفيان (ت ١٨ هـ / ٦٣٩ م) بعد فتح دمشق الى البثنية وحوران فعقد معهما الصلح على غرار صلح دمشق (٣٠). وقد اورد له الطبري روايات عن فتح حمص، ومغادرة هرقل (Heraclius) بلاد الشام إلى القسطنطينية (٣١). كما ذكر له أيضاً ثلاثة أبيات من الشعر قالها بمناسبة استشهاده ضاربن الأزر سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م (٣٢).
٤. جنادة بن أمية الأزدي (ت ٧٥ هـ / ٦٩٤ م)، وهو من الصحابة الذين سكنوا الاردن، وساهم بشكل فعال بقيادة الحملات البحرية على جزيرة رودس وغيرها من الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط وقد ذكر له الطبري عن طريق سيف بن عمر (ت ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م) روايته لمراسلات الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت ٢٣ هـ / ٦٤٤ م) مع معاوية ابن ابي سفيان بشأن غزو البحر (٣٣).
٥. عبد الله بن قيس الكندي، ويسمى أيضاً بأبي بحرية الكندي (ت ٧٧ هـ / ٦٩٦ م). كان حاضراً لأحداث فتح الشام، وشهد خطبة الخليفة عمر بالجابية، وكان ممن التقى به أثناء قدومه إلى الشام (٣٤). وقد روى محاولة الخليفة عمر لقسمة الارض التي افتتحت عنوة
-
٢٥. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢١٠٠؛ وانظر أيضاً: الواقدي محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) - فتوح الشام، م ٢، مطبعة العلوم الادبية بمصر، (د.ت)، م ١، ص ١١٣ - ١١٤.
٢٦. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٧٢٧، ٢٧٩٨، ٢٨٢٠.
٢٧. ابن عساکر، تهذيب، م ٦، ص ٢٩٨؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٤، ص ٣٢٠.
٢٨. البلاذري، فتوح، ص ١٣٠؛ ابن عساکر، تاريخ، م ١، ص ٥٠١.
٢٩. البداية والنهاية، م ٧، ص ٢٣.
٣٠. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢١٥٤ - ٢١٥٥؛ وانظر: ابن عساکر، تاريخ، م ١، ص ٢١٧ - ٢١٨.
٣١. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٣٩١، ٢٣٩٥، ٢٣٩٦.
٣٢. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٥٧٣.
٣٣. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٨٢١، ٢٨٢٢؛ وانظر عنه أيضاً: م ٢، ص ١٥٧، ١٦٣، ١٧٣، ١٨١، ١٨٨، ١٩٦؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٢، ص ١١٥ - ١١٦.
٣٤. البلاذري، فتوح، ص ١٤٥؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٥، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.

بين المسلمين (٣٥). كما ساهم في اثناء ولاية معاوية بن ابي سفيان على الشام بقيادة إحدى الحملات على البيزنطيين سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ - ٦٤١ م (٣٦).

٦. جبير بن نفيير الحضرمي، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوفي سنة (٨٠ هـ / ٦٩٩ م) (٣٧). سكن الشام، وروى عددا من اخبارها، منها حوادث فتح قبرص سنة ٢٨ هـ / ٦٤٨ م التي ساهم فيها بنفسه (٣٨). كما اهتم أيضاً بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام (٣٩).

٧. أبو إمامة صدي بن عجلان الباهلي (ت ٨١ أو ٨٦ هـ / ٧٠٠ أو ٧٠٥ م)، من الصحابة الذين سكنوا الشام (٤٠)، وشارك في معركة اليرموك، وروى بعض أحداثها (٤١)، كما ساهم في حصار دمشق، وكان له دور فعال في الفتح، ويتبين ذلك من الرواية التالية التي احتفظ لنا بها الطبري:

«قال ابو إمامة فبعثت طليعة من مرج الصفر معي فارسان حتى دخلت الغوطة فجستها بين أبياتها وشجراتها فقال أحد صاحبي قد بلغت حيث أمرت فانصرف لا تهلكننا فقلت قف مكانك حتى تصبح او اتيك فسرت حتى دفعت إلى باب المدينة وليس في الارض احد ظاهر فنزعت لجام فرسي وعلقت عليها مخلاتها وركزت رمحي ثم وضعت رأسي فلم اشعر الا بالمفتاح يحرك عند الباب ليفتح فقممت فصليت الغداة ثم ركبت فرسي فحملت عليه فطعنت البواب فقتلته ثم انكفأت راجعا وخرجوا يطلبوني...» (٤٢).

وقد اهتم أبو إمامة أيضاً بالسيرة، وذكر أخبار الاسلام الأولى، وبعض أخبار الخليفة عمر ابن الخطاب (٤٣).

٨. عبد الرحمن بن غنم الأشعري (ت ٨٧ هـ / ٧٠٥ - ٧٠٦ م)، وهو من التابعين، ويعتبره البعض من الصحابة. بعثه الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه الناس بها (٤٤). وقد

٣٥. البلاذري، فتوح، ص ١٥٦.

٣٦. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٥٩٤.

٣٧. ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤٤٠؛ البخاري، التاريخ الكبير، ق ٢، ج ١، ص ٢٢٢؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٢، ص ٦٤ - ٦٥.

٣٨. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٨٢٦.

٣٩. الطبري، تاريخ، م ١، ص ١١٦٦، م ٣، ص ٢٤٦٨.

٤٠. ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤١١ - ٤١٢؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٠٩؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٤، ص ٤٢٠ - ٤٢١.

٤١. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢١٠٠ - ٢١٠١، ٢١٠٤.

٤٢. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢١٠٤ - ٢١٠٥؛ وانظر أيضاً: ابن عساکر، تاريخ، م ١، ص ٥٥١.

٤٣. الطبري، تاريخ، م ١، ص ١٣٣٤، ١٧٢٢، ٢٥١٥.

٤٤. ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤٤١؛ الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٩٦٠، م ٣، ص ٢٤١٦؛ تهذيب التهذيب، م ٦، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

روى له الطبري رواية عن عام الرمادة (٤٥)، كما أورد له البلاذري أيضاً بعض أحداث فتح قنسرين، التي شارك في المرابطة حولها (٤٦). واشترك أيضاً في معركة اليرموك، وذكر له ابن عساکر رواية عن دور أبي سفيان بن حرب فيها (٣١ هـ/ ٦٥١ م) (٤٧).

٩. خالد بن معدان الكلاعي، كان من وجوه أهل الشام، وقد عمل صاحباً للشرطة في زمن يزيد بن معاوية (ت ٦٤ هـ/ ٦٨٢ م)، سكن في حمص، وتوفي سنة (١٠٣ أو ١٠٤ هـ/ ٧٢١ أو ٧٢٢ م) (٤٨). وقد أشار الطبري إلى مساهمته في حملة مسلمة بن عبد الملك (ت ١٢١ هـ/ ٧٣٩ م) على القسطنطينية سنة (٩٨ هـ/ ٧١٦ م) (٤٩). كما روى له عدة روايات عن محاولات معاوية بن أبي سفيان لغزو البحر في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه (ت ٣٥ هـ/ ٦٥٦ م)، ثم اقرار الأخير لعمال الخليفة عمر على الشام، ومعلومات عن بقية عمال الشام، واستخلاصها أخيراً إلى معاوية بعد سنتين من خلافة عثمان (٥٠). كما أشار الطبري أيضاً إلى عدة روايات معظمها عن طريق سيف بن عمر، تنتهي بخالد بن معدان وعبادة بن نسي الشامي (ت ١١٨ هـ/ ٧٣٦ م)، وهي عن أحداث فتح العرب لبلاد الشام، لا سيما معركة اليرموك، وفتح دمشق، وقيسارية، وبيت المقدس، وصلاح أهل ايليا (٥١).

١٠. علي بن أبي حملة القرشي (ت ١٠٦ هـ/ ٧٢٤ م)، ادرك معاوية بن أبي سفيان، وكان على دار الضرب بدمشق لعمر بن عبد العزيز، وتولى كتابة الخراج لهشام بن عبد الملك بفلسطين (٥٢). وقد أورد له أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) رواية عن موقف عمر بن عبد العزيز من إحدى كنائس دمشق، وردّها إلى أهلها (٥٣).

٤٥. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٥٧٦.

٤٦. البلاذري، فتوح، ص ١٥٠ - ١٥١؛ وانظر: مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١٢٢، الذي يشير إلى هذه الأحداث على أنها في فلسطين.

٤٧. تاريخ مدينة دمشق، م ١، ص ٥٥٠.

٤٨. انظر: ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤٥٥؛ البخاري، التاريخ الكبير، ق ١، ج ٢، ص ١٧٦؛ الطبري، تاريخ، م ٢، ص ٢٤٨٢ - ٢٤٨٣؛ حلية الأولياء، م ١، ص ٢١٠ - ٢٢١؛ ابن عساکر، تهذيب، م ٥، ص ٨٩ - ٩٠؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٢، ص ١١٨ - ١٢٠.

٤٩. الطبري، تاريخ، م ١، ص ١٢١٥.

٥٠. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٨٢٢، ٢٨٢٦، ٢٨٦٧.

٥١. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٠٨٤، ٢٠٨٦، ٢٠٩٠، ٢٠٩٥، ٢١٠٠، ٢١٤٧، ٢١٥٠، ٢٢٩٦، ٢٤٠٣، ٢٤٠٥، ٢٤٠٧؛ وانظر أيضاً: ابن عساکر، تاريخ، م ١، ص ٥١٣، ٥٢٩، ٥٤٨، ٥٥٠.

٥٢. ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٧، ص ٣١٤ - ٣١٥.

٥٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٠.

١١. رجاء بن حيوة الكندي (ت ١١٢ هـ / ٧٣٠ م)، اصله من بيسان، ثم انتقل إلى فلسطين (٥٤). ويذكر محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م) انه كان ينزل الاردن، وهو عالم ثقة، كثير العلم (٥٥). وقد تولى ديوان الخاتم لسليمان بن عبد الملك، كما كتب لعمر ابن عبد العزيز بعد توليه الخلافة (٥٦). وإضافة إلى اشتهاره برواية الحديث، فقد وصفه محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م) بأنه كان «قاصاً» (٥٧). وهذه الاشارة على درجة كبيرة من الأهمية، لأنها تدل صراحة على اهتمامه بالتاريخ، ورواية احداثه. وقد اورد لنا الطبري مجموعة كبيرة من رواياته في هذا المجال، منها على سبيل المثال، زيارة عمر بن الخطاب للجابية (٥٨)، وغزو اهل حمص في البحر (٥٩)، وأحداث عام الرمادة في المدينة المنورة (٦٠)، وطموح معاوية لنيل منصب الخلافة في عهد عثمان بن عفان (٦١). كذلك روى له الطبري بعض الأحداث التي وقعت في أثناء العهد الأموي في بلاد الشام، منها رواية عن طريق محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٣ م) يشير فيها إلى موقف عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) بعد مقتل عمرو بن سعيد بن العاص (ت ٦٨ هـ / ٦٨٧ م) (٦٢)، واخرى عن كيفية تولي عمر بن عبد العزيز للخلافة، ووفاة سليمان بن عبد الملك سنة (٩٩ هـ / ٧١٧ م). وتتميز روايته الاخيرة التي ذكرها الطبري أيضاً عن طريق الواقدي بدقتها، ووصفها التفصيلي للساعات الاخيرة من حياة سليمان ابن عبد الملك، وكيفية استخلافه لعمر بن عبد العزيز (٦٣).

١٢. عبادة بن نسي الشامي الكندي، الذي سكن الأردن وتولى قضاء طبرية، وتوفي في عهد هشام بن عبد الملك سنة (١١٨ هـ / ٧٣٦ م) (٦٤). وقد سبقت الاشارة الى بعض رواياته

٥٤. ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٢، ص ٢٦٦.
٥٥. ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤٥٤ - ٤٥٥؛ وانظر عنه أيضاً: البخاري، التاريخ الكبير، ق ١، ج ٢، ص ٢١٢؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٧٢ - ٤٧٣. الاصبهاني، حلية الاولياء، م ٢، ص ٢٦٥. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٢٩؛ ابن خلكان، احمد بن ابي بكر (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م). وفيات الاعيان وانباء الزمان، م ٨، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ - ١٩٧٢، م ٢، ص ٣٠١ - ٣٠٢.
٥٦. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ٨٢٨.
٥٧. البخاري، التاريخ الكبير، ق ١، ج ٢، ص ٣١٢.
٥٨. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٤٠٨.
٥٩. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٥٠١.
٦٠. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٥٧٦.
٦١. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٩٤٧.
٦٢. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ٨٠٤ - ٨٠٥.
٦٣. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ١٣٤٠ - ١٣٤٥.
٦٤. انظر ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤٥٦؛ البخاري، التاريخ الكبير، ق ٢، ج ٢، ص ٩٥. ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٢٩؛ تهذيب التهذيب، م ٥، ص ١١٣ - ١١٤.

المشتركة مع خالد بن معدان الكلاعي. كما روى له الطبري أيضاً عن طريق سيف بن عمر روايتين عن مراسلات معاوية بن أبي سفيان مع الخليفة عمر بن الخطاب بشأن غزو البحر، رواهما عبادة عن جنادة بن أبي أمية الأزدي (٦٥). ورواية ثالثة عن طريق الواقدي، عن مسير هرقل ببحراً سنة (٣٥ هـ / ٦٥٥ م) لحرب المسلمين (٦٦). ويشير البلاذري إلى رواية تستند إلى «رجل من أهل دمشق يقال له عبد الله بن الوليد» (٦٧)، وتنتهي بعبادة بن نسي، وهي تخص بعض غزوات معاوية بن أبي سفيان للبيزنطيين في سنوات مختلفة. وقد اعتمد عبد الله بن الوليد (لم اعثر على تاريخ وفاته) الذي ربما كان من علماء الشام في أواخر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي (٦٨)، على كتاب يسمى «مغازي معاوية». أن وجود مثل هذا الكتاب الذي يعتمد في أخباره على رواة متقدمين نسبياً، من أمثال عبادة بن نسي، يمثل جهداً ملحوظاً ساهم في نشأة علم التاريخ في بلاد الشام في العصر الأموي.

١٣. عبد الرحمن بن جبير بن نفير (ت ١١٨ هـ / ٧٣٦ م) (٦٩). روى أحداث الفتح عن والده وغيره من شيوخ بلاد الشام، لا سيما تجهيز الجيوش من قبل أبي بكر إلى الشام (٧٠)، واستدعاء خالد بن الوليد (ت ٢١ هـ / ٦٤١ - ٦٤٢ م) لنجدة جيوش المسلمين في الشام (٨١). كما روى أيضاً صلح المسلمين مع أهل دمشق وحمص (٧٢)، ونزول البيزنطيين قرب اليرموك، وفتح مدينة دمشق (٧٣).

١٤. سالم بن عبد الله، ويكنى أبا العلاء (لم اعثر على تاريخ وفاته)، وهو مولى الخليفة هشام ابن عبد الملك، وكتابه. وكان على ديوان الرسائل في عهد هذا الخليفة، وكذلك في عهد الوليد بن يزيد (ت ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م). كما كان صهراً واستاذاً لعبد الحميد بن يحيى الكاتب (ت ١٢٥ هـ / ٧٥٠ م). وهو يعد من الفصحاء والبلغاء في العصر الأموي (٧٤).

٦٥. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٨٢١، ٢٨٢٢.

٦٦. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٣٠٨٧.

٦٧. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٩.

٦٨. انظر: الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٧٤٧؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٦، ص ٧٠. مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١٢٢.

٦٩. انظر عنه: ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤٥٥؛ البخاري، التاريخ الكبير، ق ١، ج ٢، ص ٢٦٧. الأصبهاني، حلية الأولياء، م ٥، ص ١٣٣ - ١٢٨.

٧٠. الطبري، تاريخ، م ١، ص ١١٦٦، م ٣، ص ٢٤٦٨.

٧١. ابن عساکر، تاريخ، م ١، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

٧٢. ابن عساکر، تاريخ، م ١، ص ٥٣١.

٧٣. ابن كثير، البداية والنهاية، م ٧، ص ٦ - ٧، ٢٤.

٧٤. ابن النديم، محمد بن اسحق، (ت ٢٨٥ هـ / ٩٩٥ م)، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٧١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الفهرست. ابن عساکر، تهذيب، م ٦، ص ٥٧.

و يبدو انه كتب تاريخاً لعصر الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد نقل البلاذري عن هذا الكتاب قائلاً: «قرأت في كتب سالم كاتب هشام كتاباً نسخته» تناولت امر هشام بن عبد الملك اخراج زيد بن علي من الكوفة، كما أشار الى رواية اخرى عن مرض هشام بن عبد الملك وغضبه على الوليد بن يزيد (٧٥). و يدل هذا على وجود تأليف تاريخي مبكر في أواخر العصر الأموي في بلاد الشام، وقد استفاد منه المؤرخون اللاحقون كالبلاذري الذي نص صراحة على ذلك.

١٥. ابو بشر مؤذن مسجد دمشق (لم اعثر على اسمه الكامل)، وهو شامي تابعي ثقة (ت ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م) (٧٦)، و يورد البلاذري روايتين عن هذا الرجل، الاولى عن قدوم الجيوش الاسلامية الى بلاد الشام، وتفرقهم في نواحيها المختلفة (٧٧)، والثانية عن افتتاح بصرى صلحا (٧٨). و يبدو أنه كان معروفاً بين الاوساط العلمية في بلاد الشام، فقد روى الحديث عن عمر بن عبد العزيز، وروى عنه معاوية بن صالح الحضرمي (ت ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م) (٧٩).

١٦. الوضين بن عطاء بن كنانة بن عبد الله الخزاعي، روى الحديث عن ابي عثمان الصنعاني، وخالد بن معدان الكلاعي، وتوفي بدمشق سنة (١٤٩ هـ / ٧٦٦ م) (٨٠). أورد له البلاذري روايات عن فتح عدة مدن في بلاد الشام، مثل عكا، وصور، ودمشق، وصيدا، وجبيل، وبيروت (٨١). وأشار ابن عساكر الى رواية اخرى له عن فتح دمشق (٨٢).

١٧. عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، ولد في بعلبك سنة (٨٨ هـ / ٧٠٦ - ٧٠٧ م)، وهو من الأوزاع، بطن من همدان، وكان يسكن بيروت. اشتهر بالحديث، وله مذهب في الفقه انتشر في الاندلس في بداية الوجود العربي الاسلامي فيها، وتوفي في بيروت سنة

٧٥. البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م). انساب الاشراف، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت، ١٩٧٤، م ٢، ص ٢٢٨؛ وانظر: محمد جاسم حمادي، موارد البلاذري عن الاسرة الاموية في كتابه «انساب الاشراف»، م ٢، مكتبة الطالب الجامعي في مكة المكرمة، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م، ج ٢، ص ٥٦٦.

٧٦. ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ١٢، ص ٢١.

٧٧. البلاذري، فتوح، ص ١٢٢.

٧٨. البلاذري، فتوح، ص ١٢٢.

٧٩. ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ١٢، ص ٢١.

٨٠. ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤٦٦؛ وانظر: الطبري، تاريخ، م ٢، ص ٤٠٨ - ٤٠٩؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ١١، ص ١٢٠ - ١٢١.

٨١. البلاذري، فتوح، ص ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤.

٨٢. ابن عساكر، تاريخ، م ١، ص ٥٠٢.

(١٥٧ هـ/ ٧٧٣ م) (٨٣). كان الأوزاعي عارفاً بالسير والمغازي والفتوح، وقد أورد له المؤرخون روايات عديدة في هذه المجالات كافة، منها ما ذكره له الطبري عن زمن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم (٨٤)، وعن صنيع المشركين به (٨٥)، وعن اصحاب بئر معونة (٨٦). كما أورد له روايتين أخريين، الأولى: عن وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٨٧)، والثانية: عن مرض معاوية بن أبي سفيان، وما قاله قبل وفاته (٨٨).

وللأوزاعي أيضاً روايات عن وضع الجزية في بلاد الشام (٨٩)، وعن بعض أحداث الفتوح في هذه البلاد، مثل فتح قنسرين وفلسطين (٩٠). وقد نقل له البلاذري رواية أخرى عن طريق أبي اسحق الفزاري، يشير فيها إلى فتح قبرص، والصلح الذي أعقب ذلك بين أهلها والمسلمين (٩١). وأخيراً يشير ابن عساكر إلى روايتين للأوزاعي، يذكر في الأولى منهما كتاب الصلح الذي عقد بين أهل دمشق والمسلمين، حيث يورد الأوزاعي نصه الكامل استناداً إلى أبي سراققة عثمان بن عبد الأعلى بن سراققة الأزدي (٩٢). ويتحدث في الرواية الثانية عن تاريخ بناء بعض مرافق جامع دمشق (٩٣). إن هذه الروايات تمثل وثائق مهمة ساهمت في حفظ الأحداث، وهيات لمن جاء بعد الأوزاعي وصحبه من المهتمين بالتاريخ، مادة عظيمة القيمة، استفادوا منها في مصنفاتهم المدونة عن المغازي والسير، وتاريخ الأمة وتجاربها في العهود الإسلامية الأولى.

١٨. رجاء بن أبي سلمة (ت ١٦١ هـ/ ٧٧٧ م)، كان يسكن البصرة ثم تحول إلى الشام، وهو من المحدثين الثقات، روى عن عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة وغيرهما (٩٤). وقد

٨٣. انظر: ابن سعد، طبقات، م ٧، ص ٤٨٨؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٦٦ - ٤٩٧؛ الطبري، تاريخ، م ٣، ص ٢٥١٤؛ الأصبهاني، حلية الأولياء، م ٦، ص ١٣٥ - ١٤٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، م ٣، ص ١٢٧؛ مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١٢٧ - ١٢٨.

٨٤. الطبري، تاريخ، م ١، ص ١١٢٩ - ١١٤٠.

٨٥. الطبري، تاريخ، م ١، ص ١١٨٦.

٨٦. الطبري، تاريخ، م ١، ص ١٤٤٧.

٨٧. الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢١٣٠.

٨٨. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ٢٠١.

٨٩. البلاذري، فتوح، ص ١٣٦.

٩٠. البلاذري، فتوح، ص ١٤٥.

٩١. البلاذري، فتوح، ص ١٦٢.

٩٢. ابن عساكر، تاريخ، م ١، ص ٥٠٢، ٥٧٠.

٩٣. ابن عساكر، تاريخ، م ٢، ص ٤٩.

٩٤. البخاري، التاريخ الكبير، ق ١، ج ٢، ص ٢١٣؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٣، ص ٢٦٧.

أورد له البلاذري رواية عن تصرف عمر بن عبد العزيز إزاء إحدى القضايا التي تخص إحدى كنائس دمشق^(٩٥). كما أشار ابن عساكر أيضاً إلى رواية أخرى له عن عمر بن عبد العزيز، يقول فيها: «إنه كان في عهد دمشق خمس عشرة كنيسة»^(٩٦).

١٩. يحيى بن سعيد بن أبان الأموي (ت ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م). على الرغم من تأخر عصر هذا الرجل، الذي يصفه علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٦٤ م) بـ «صاحب السير والتواريخ»^(٩٧)، إلا أنه ذكر هنا بسبب اعتماده على أبيه، سعيد بن أبان ابن سعيد بن العاص في رواية بعض أحداث فتح بلاد الشام، كوقعتي اجنادين وفحل، وافتتاح دمشق^(٩٨). وقد ولد يحيى سنة (١١٤ هـ / ٧٣٢ م)^(٩٩)، وهذا يعني إن والده سعيد بن أبان كان معاصراً للعهد الأموي، وهو أحد الذين رووا أحداث بلاد الشام في أثناء الفتح.

تشجيع الخلفاء الأمويين لنشأة علم التاريخ في بلاد الشام:

كان اهتمام الخلفاء الأمويين بالتاريخ امتداداً لشعور العرب بأهمية العناية بهذه المادة، التي تضم معارف كثيرة كانت موضع تقدير كبير في المجتمع العربي القديم. فقد سبق وكلف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاثة من كبار نسابي قريش، وهم جبير بن مطعم (ت ٥٩ هـ / ٦٧٨ م)، وعقيل بن أبي طالب (ت ٦٠ هـ / ٦٧٩ م)، ومخرمة بن نوفل (ت ٥٤ هـ / ٦٧٣ - ٦٧٤ م) بأن يعدوا له جدولاً بالأنساب^(١٠٠)، للاستفادة منه في إحصاء الناس لعمل الديوان. وكان هذا التوجه ينطوي أيضاً على شعوره بالحاجة إلى التاريخ لخدمة أغراض الدولة، لا سيما وأن هؤلاء الأشخاص الثلاثة كانوا أيضاً على معرفة بالشعر وأخبار العرب^(١٠١). وقد شجع الامام علي رضي الله عنه أيضاً الاهتمام بدراسة تاريخ الاقوام الماضية،

٩٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٠.

٩٦. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٤ م، ج ٢، ق ١، ص ١٢٦.

٩٧. جمهرة انساب العرب، ص ٨٢.

٩٨. ابن عساكر، تاريخ، م ١، ص ٤٩٧، ٤٩٩.

٩٩. انظر: ابن سعد، طبقات، م ٦، ص ٢٩٨؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٥١٤؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ١١، ص ٢١٣ - ٢١٤؛ سزكين، م ١، ج ٢، ص ٩٧.

١٠٠. ابن سعد، طبقات، م ٣، ص ٢٩٥؛ البلاذري، فتوح، ص ٤٣٦؛ الطبري، تاريخ، م ١، ص ٢٧٥٠؛ وانظر أيضاً: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير، جمع وتحقيق محمد مصطفى الأعظمي، منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط ١، الرياض، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م، ص ١٨.

١٠١. قارن: أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٥٧؛ سزكين، م ١، ج ٢، ص ١٤؛ حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، منشورات اقرأ، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٧.

فقد رفع وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ / ٧٣٢ م) كلاماً عنه انه قال: «حدثوا عن حمير فان في احاديثها عبراً» (١٠٣).

ولما جاء الخلفاء الأمويون الى الشام، ساروا بهذا الاتجاه، وكانوا يسألون علماء اهل الشام والمدينة عن الاحداث الماضية (١٠٣). وقد امتدت مساحة اهتمامهم فشملت فروعاً عديدة من المعرفة التاريخية، كالقصص، والأنساب والمغازي والسير. وتشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان أول من اهتم بهذه المعرفة التاريخية من الأمويين، وشجعها، فبذر البذور الاولى لكتابة التاريخ العربي في بلاد الشام (١٠٤).

وقد استعان معاوية ببعض العلماء اليمانيين لتحقيق هذه الغاية، أشهرهم عبيد بن شريفة الجرهمي (ت ٧٠ هـ / ٦٨٩ م) الذي استدعاه ليروي له الاخبار المتقدمة عن الماضين من العرب وغيرهم، لا سيما ملوك اليمن، وتواريخ حكمهم (١٠٥). فحدثه في مجالس كثيرة عن وقائع العرب وأشعارهم وأخبارهم. وقد امر معاوية كتابته بتدوين هذه المعارف وتسجيلها، ونسبها إلى عبيد بن شريفة خوفاً عليها من الضياع (١٠٦). وذلك لينتفع بها الناس مقروءة لا مروية، وليحفظ لصاحبها حقه الادبي فيها، وهذا معنى راق يدل على وعي مبكر بقدر العلماء ورواة الأخبار (١٠٧). وقد دونت هذه المعلومات تحت عنوان: «كتاب الملوك واخبار الماضين» (١٠٨)، وطبع الجزء الذي وجد منه في حيدر اباد الدكن سنة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨.

١٠٢ ابو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٢ م). كتاب التيجان في ملوك حمير واليمن، نشر: كرنكو، حيد اباد الدكن، ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م، أعاد طبعه مركز الدراسات والبحث اليمنية، الجمهورية العربية اليمنية صنعاء، ١٩٧٩، ص ٩١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، التيجان.

١٠٣ ابن عساكر، تهذيب، م ١، ص ٧٠-٧١.

١٠٤ انظر: Sami Dahan, Op. Cit., P. 109.

١٠٥ ابن هشام، التيجان، ص ٣٢٥-٣٢٦؛ السجستاني أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م)، كتاب المعمرين، باعثناء محمد امين الخانجي، مطبعة السعادة، ط ١، القاهرة، ١٩٠٥، ص ٣٩-٤٠؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٢٤؛ السعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٢٤٦ هـ / ٩٥٧ م). مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ م، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٥، القاهرة، ١٩٦٧، م ٢، ص ٨٥. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: السعودي، مروج؛ الفهرست، ص ١٣٢؛ ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م)، معجم الادباء، ٢٠ م، دار المستشرق، بيروت، (د.ت)، م ٢، ص ٧٢-٧٣. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم الادباء؛ كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، نقله الى العربية عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، ١٩٧٤، ج ١، ص ٢٥٠-٢٥١. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ الادب العربي؛ سزكين، م ١، ج ٢، ص ٣٢-٣٣.

١٠٦ ابن هشام، التيجان، ص ٣٢٦، ٣٢٧؛ ابن النديم؛ الفهرست، ص ١٣٢.

١٠٧ انظر: مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب / قسم الأدب، دار العلم للملايين، ط ٢، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥١.

١٠٨ ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٢.

ملحقاً لكتاب «التيجان في ملوك حمير واليمن»، باسم «أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وانسابها».

وعلى الرغم من ان هذا الكتاب ليس كتاباً تاريخياً بالمعنى المصطلح عليه، بل هو مجالس سمر تاريخية مدونة، يشيع فيها الاسلوب الحوارى، فانه كما يقول حسين نصار: «ذو أهمية كبيرة، لا في تطور حركة التأليف التاريخي فحسب، وانما لانه يكشف النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدر الأول من الاسلام، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية وخاصة اليمن...» (١٠٩).

ولم يقتصر دور معاوية الاول على استدعاء عبيد بن شرية وغيره من علماء اليمن للاطلاع على المعرفة التاريخية، وتشجيع تدوينها وشيوعها في بلاد الشام، بل اعتمد على مصدر محلي لا يمكن الجزم في تحديده جذوره تماما. فكان من برنامجه اليومي أن ينام ثلث الليل ثم «يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك واخبار الحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وانواع السياسات...» (١١٠).

إن هذا النص يتضمن عدة حقائق اشار اليها شاكر مصطفى (١١١)، منها وجود معارف تاريخية واسعة بحيث تقرأ كل ليلة، وإن هذه المعارف كانت معلومة ومكتوبة بالعربية، ومصنفة في دفاتر او كتب، يقوم عليها غلمان موكلون بها. وقد استبعد مصطفى ان تكون هذه المعلومات مما يتعلق بالمغازي والسير، أو عن تاريخ العهد الراشدي، أو مطلع العهد الأموي، وإنما كانت في رأيه «كتبا في تواريخ الأمم السالفة»، كتبها له أو ترجمها علماء الروم ليتعرف بها على الأحوال والسياسات السابقة.

والواقع انه لا يمكن انكار وجود حركة علمية ومؤلفات غير عربية سابقة، وعلماء نصارى ساهموا في تأليف أو ترجمة مثل هذه المؤلفات (١١٢). ولكن الجزم باقتصار ما ورد في النص المذكور اعلاه على هذه المعارف فقط، أمر فيه بعض المبالغة، ولا بد ان تلك «الدفاتر» كانت تتضمن أيضاً شيئاً من الأخبار الماضية للعرب، والمغازي والسير، التي اشتهر أهل الشام بتخصصهم فيها، كما اشرنا الى ذلك في بداية هذا البحث.

١٠٩. نصار، نشأة التدوين التاريخي، ص ٣٢.

١١٠. المسعودي، مروج، م ٣، ص ٤١.

١١١. التاريخ العربي والمؤرخون، ج ٢، ص ١٢٤.

١١٢. انظر: بروكلمان، تاريخ، الأدب العربي، ج ١، ص ٢٥٦؛ خليل داود الزرو، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الأفق الجديدة، ط ١، بيروت، ١٩٧١، ص ١٣ - ١٧.

وقد شجع الخلفاء الأمويون دراسات الأنساب، التي خدمت علم التاريخ في المادة وفي خطة الكتابة. وكانت الحاجات الادارية كتنظيم العطاء، وإسكان القبائل في الأمصار، قد أدت إلى وضع سجلات بالانساب، وعززت الاهتمام بها، هذا فضلاً عن الخصومات القبلية، وأثر الأوضاع السياسية والاجتماعية الجديدة على القبائل. فظهر النسابون الأولون في العصر الأموي، وكانت عنايتهم بالأنساب واضحة (١١٣). ومن أشهر النسابين الذين قربهم معاوية دغفل بن حنظلة البكري (ت ٦٥ هـ / ٦٨٥ م) (١١٤)، الذي ضمه لتعليم ابنه يزيد (١١٥).

وسار يزيد الأول على خطى والده فقرب علاقة بن كريم الكلابي، أحد تلامذة عبيد بن شرية الجرهمي، وجعله من سماره. وكان علاقة عالماً بالأنساب والأخبار وأحاديث العرب القديمة، وله كتاب في «الأمثال» رآه محمد بن اسحق بن النديم (١١٦). ومن العلماء الآخرين الذين قربهم يزيد الأول، يزيد بن مفرغ (ت ٦٩ هـ / ٦٨٨ م)، الذي وضع «سيرة تبع وأشعاره» (١١٧).

واهتم الخلفاء الذين جاءوا بعد معاوية ويزيد أيضاً بالأنساب، فيروى ان الوليد بن يزيد بن عبد الملك (ت ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م) أمر بعمل سجل واف بأخبار العرب وأنسابها وشعرها. وقد استعان بدواوين بعض المختصين في هذا الموضوع، ومنهم حماد بن سabor بن المبارك (ت ١٥٦ هـ / ٧٧٢ - ٧٧٣ م)، الذي كان يتردد على خلفاء بني امية، فيسألونه عما يشاؤون من أخبار العرب وأنسابها (١١٨). وقد ظهر من الأمويين أنفسهم من اهتم بالأنساب وأصبح عالماً فيها مثل الوليد بن روح بن الوليد بن عبد الملك، الذي كان اثيراً عند الخليفة عمر بن عبد العزيز (١١٩).

١١٣. انظر: مقدمة صلاح الدين المنجد لكتاب طرفة الاصحاب في معرفة الانساب، تأليف السلطان الملك الأشرف محمد بن يوسف بن رسول (ت ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م)، تحقيق ك. و. سترستين، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٩، ص ٥ - ٦؛ وقارن: جب، علم التاريخ، ص ٥٠؛ سزكين، م ١، ج ٢، ص ١٦؛ الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٣٩ - ٤٠.

١١٤. انظر عنه: ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٢٤؛ ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٦؛ الطبري، تاريخ، م ١، ص ١٨٣٥؛ ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٣١٩؛ بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ج ١، ص ٢٥٣.

١١٥. ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م). كتاب المحبر، رواية ابي سعيد الحسن بن الحسين السكري، باعثناء: د. ايلزة ليختن شتيتير، حيدرآباد الدكن، ١٣٩١ هـ / ١٩٤٢ م، ص ٤٧٨.

١١٦. الفهرست، ص ١٢٢؛ ياقوت، معجم الادباء، م ١٢، ص ١٩٠؛ بروكلمان، تاريخ الادب العربي، م ١، ص ٢٦١.

١١٧. ابو الفرج علي بن الحسين الاصفهاني (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م)، الاغاني، م ٢٤، تحقيق عبد الكريم ابراهيم الغرباوي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٧ - ١٩٧٤، م ١٨، ص ٢٥٥. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الاصفهاني، الاغاني.

١١٨. انظر: ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٤ - ١٣٥؛ الاصفهاني، الاغاني، م ٦، ص ٧٠؛ بروكلمان، تاريخ الادب العربي، م ١، ص ٢٤٥ - ٢٤٦؛ سزكين، م ١، ج ٢، ص ٢٥٨.

١١٩. ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٩٠.

وكانت المثالب تعد جزءاً لا ينفصل من الأنساب، وقد شجع الخليفة هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م) على التأليف فيها. فكلف اثنين من المعروفين بعلمهما في النسب، وهما النضر بن شميل الحميري، وخالد بن سلمة المخزومي (ت ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) بتأليف كتاب يسمى «الواحدة» في مثالب العرب ومناقبتها، «وقال لهما ولن ضم اليهما دعوا قريشا بما لها وعليها، فليس لقرشي في ذلك الكتاب ذكر» (١٢٠). ويشير النص الأخير الى انضمام أشخاص آخرين الى هذا العمل، وتشكيل لجنة برئاسة النضر وخالد، مما يدل على ضخامة الانجاز الذي أراده الخليفة هشام. وقد ظل كتاب «الواحدة» متداولاً بين الناس حتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.

وكان لقبيلة كلب المعروفة بولائها للأمويين، والتي سكنت جنوب الشام، دور كبير في علم الأنساب، حيث اشتهر أفرادها بأنهم «إذا نسي الناس علمهم حفظوه عليهم» (١٢١). وقد مهدت هذه القبيلة لظهور عدد من النسابين، ورواة الأخبار، مثل الأبرش الكلبي، الذي كان مصاحباً للخليفة هشام بن عبد الملك (١٢٢)، ومحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م)، الذي اعتمد في جمع الانساب، إضافة إلى قبيلته، على أفضل النسابين في مختلف القبائل (١٢٣). ويشير الدينوري إلى أن سليمان بن عبد الملك ولي «الكلبي» تأديب ابنه، ولكنه لم يذكر اسمه الكامل، وربما كان هذا «الكلبي» المقصود هو محمد بن السائب، أو الأبرش الكلبي، وكلاهما ينتمي الى كلب في بلاد الشام. وقد الزم الخليفة سليمان هذا المعلم تعليم ابنه القران، والفرائض، والسنن، اضافة الى الشعر، وايام الناس (١٢٤). ويعتمد الطبري في بعض اخباره عن أحداث بلاد الشام على رواية من قبيلة كلب، مثل عبد الملك بن ميناك الكلبي (١٢٥)، وعمرو بن مروان الكلبي (١٢٦)، ويزيد بن مصاد الكلبي. وكان هذا الأخير شاهد عيان اشترك في بعض أحداث الفترة الأخيرة من العصر الاموي (١٢٧).

١٢٠. البكري، ابو عبید عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)، سمط اللالي، ٢ م، باعثناء: عبد العزيز اليميني، مطبعة لجنة النشر والترجمة والتأليف، القاهرة، ١٩٣٦، م ٢، ص ٨٠٧-٨٠٨؛ وانظر: سزكين، م ١، ج ٢، ص ٢٥-٣٦.
١٢١. ياقوت، معجم الادباء، م ١٦، ص ١٢٩.
١٢٢. ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م). البيان والتبيين، ٤ م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، نشر مؤسسة الخانجي، ط ٢، القاهرة، ١٩٤٨، م ١، ص ٢٤٥.
١٢٣. الفهرست، ص ١٢٩-١٤٠؛ وانظر ايضاً: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٤٠-٤١؛ مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١٩٠.
١٢٤. ابو حنيفة احمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م). الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، دار احياء الكتب العربية، ط ١، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣٣٠.
١٢٥. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ٢٠١.
١٢٦. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ١٧٩١، ١٧٩٢، ١٧٩٥، ١٨٠١، ١٨٠٨، ١٨٠١.
١٢٧. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ١٨٢٨-١٨٢٩.

و يعود الفضل الى قبيلة كلب ايضاً في نبوغ احد الاخباريين المشهورين الذين ينتمون اليها بالولاء، وهو عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي (ت ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م). فهو وان كان يعد من الكوفيين، ويحسب على مدرسة اهل العراق، لكن مصادر الكثير من أخباره تعود بالأصل الى بلاد الشام، حيث اخذها من قبيلة كلب التي يفخر بعلمها (١٢٨). ولذلك نجده يقدم الرواية الاموية للحوادث مقابل الرواية العراقية (١٣١). ولن نستطرد في الحديث عن عوانة الذي نال اهتمام الكثير من المؤرخين (١٣٠)، ونكتفي بالقول اننا ندين له بتسمية علم التاريخ، لانه صاحب اول كتاب تاريخي يحمل اسم «كتاب التاريخ» في الاسلام (١٣١).

واهتم الخلفاء الأمويون ايضاً بالمغازي والسير، وشجعوا على دراستها والتعمق فيها في بلاد الشام. وقد استعانوا ببعض علماء المدينة المنورة لاشاعة هذه المعلومات في دمشق وغيرها من مناطق بلاد الشام. ومن اشهر من تعاون معهم في هذا المجال عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤ هـ / ٧١٢ م)، الذي يعد اول من الف كتابا في المغازي (١٣٢). وكان اتصاله بعبد الملك بن مروان، وابنه الوليد الاول (ت ٩٦ هـ / ٧١٥ م) وثيقا، ووفد عليهما في دمشق اكثر من مرة (١٣٣).

١٢٨. ياقوت، معجم الادباء، م ١٦، ص ١٣٩؛ وانظر: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٣٦.

١٢٩. الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٣٦.

١٣٠. الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م)، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، نشر محمد سامي امين الخانجي، ط ١، القاهرة، ١٩٥٤، ص ٢٤٦؛ الفهرست، ص ١٣٤؛ ياقوت، معجم الادباء، م ١٦، ص ١٢٤ - ١٣٩؛ فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح احمد العلي، مكتبة المنى، ط ١، بغداد، ١٩٦٣، ص ١٢٨؛

Salah-El-Ali, "Awana b. Al-Hakam Al-Kalbi, The Encyclopaedia of Islam, New edition."

الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٣٦ - ٣٧؛ مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١٢٨، ١٧٩ - ١٨٠؛ سزكين، م ١، ج ٢، ص ١٢٧؛ عفت محمد الشراوي، أدب التاريخ عند العرب، دار العودة، بيروت، (د.ت)، ص ٢٥٧.

١٣١. ابن النديم، الفهرست، ص ١٣٤؛ وانظر: مصطفى، التاريخ العربي، ج ١، ص ١٢٨.

١٣٢. محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م)، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ، نشر مع كتاب: علم التاريخ عند المسلمين لفرانز روزنتال، ترجمة صالح احمد العلي، بغداد، ١٩٦٣، ص ٣٧١ - ٧٢٥ انظر ص ٥٢٧؛ مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة (ت ١٠٦٨ هـ / ١٦٥٧ م). كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، م ٢، استنبول، ١٩٤١، م ٢، ص ١٧٤٧.

١٣٣. عن صلة عروة بالبلاط الأموي انظر: البلاذري، انساب الاشراف، تحقيق جويتن القدس، ١٩٣٦، م ٥، ص ٢٨٥، ٣٧٠؛ الاصفهاني، الاغانى، م ١٧، ص ٢٤١؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٢٢؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، م ٣، ص ٢٥٥ - ٢٥٨؛ حلية الاولياء، م ٢، ص ١٧٦ - ١٨٣، ١٧٨ - ١٧٩؛ يوسف هوروفتس، المغازي الاولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، شركة ومطبعة البابي الحلبي، ط ١، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٢ - ١٦.

وقد احتفظ لنا الطبري، وبعض المؤرخين المتقدمين الآخرين بنصوص بعض المراسلات التي جرت بين الخليفة عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد الأول، وبين عروة بن الزبير في المدينة المنورة، حيث كانا يسألانه فيها عن مختلف المسائل التاريخية التي تتعلق بأحداث خاصة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد سأله عبد الملك مثلاً عن موقف قريش من الدعوة الإسلامية، واضطهادهم للمسلمين الأوائل، والهجرة إلى الحبشة، وموقف أبي سفيان ابن حرب قبيل معركة بدر، ودور خالد بن الوليد في فتح مكة، وتاريخ وفاة خديجة بنت خويلد زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام، فرد عليه عروة بأجوبة مكتوبة (١٣٤). كذلك أجاب عروة عن أسئلة أخرى أرسلت إليه من البلاط الأموي في عهد الوليد بن عبد الملك، عرف في بعضها بناحية مهمة، وهي هجرة نساء بعد الحديبية من مكة إلى المدينة رغبة في الإسلام، وموقف الرسول منهن (١٣٥).

إن كتابات عروة المشار إليها أنفاً تمثل أقدم المدونات التي حفظت لنا عن حوادث عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، كما تمثل أيضاً أقدم نصوص النثر التاريخي العربي (١٣٦). أما بالنسبة لأهميتها لدور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ، فيمكن القول إن مجرد إشاعة هذا النوع من الحس التاريخي، وتشجيعه من قبل عبد الملك والوليد الأول، ووصول إجابات عروة المكتوبة إلى بلاد الشام، يمثل دفعا قويا لدراسة المغازي والسير في هذه البلاد. ولا شك أن البلاط الأموي احتفظ بهذه المراسلات المكتوبة، التي أصبحت تشكل مادة أولية مهمة عن المغازي. ومن المرجح أن المؤرخين الذين اعقبوا عروة استفادوا منها، لا سيما أولئك الذي ظهروا في بلاد الشام بعد العصر الأموي، من أمثال يحيى بن سعيد الأموي (ت ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م)، وأبو اسحق إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري (ت ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م)، وأبو العباس الوليد بن مسلم الأموي الدمشقي (ت ١٩٥ هـ / ٨١٠ م).

ومن العلماء الآخرين الذين استعان بهم الخلفاء الأمويون لنشر الوعي التاريخي في بلاد الشام، وحث الناس على الاهتمام بالسيرة والمغازي، عاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م)، الذي وفد على الخليفة عمر بن عبد العزيز ففضى دينه، وأمره أن

١٣٤. الطبري، تاريخ، م ١، ص ١١٨٠ - ١١٨١، ١٢٨٤ - ١٢٨٨، ١٦٣٤، ١٧٧٠؛ وقارن: هوروفتس، ص ٢٠ - ٢١؛ سزكين، م ١، ج ٢، ص ٧١؛ نصار، نشأة التدوين التاريخي، ص ٤٤ - ٤٧؛ الملحق الأول لكتاب مغازي رسول الله لعروة بن الزبير، ص ٢٣١ - ٢٣٥.

١٣٥. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ٢٤٥٨؛ أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م). السيرة النبوية، م ٤، تحقيق: مصطفى السقا ورفاقه ٤، دار احياء التراث العربي، ط ٢، بيروت، ١٩٧١، م ٢، ص ٢٤٠ - ٢٤١؛ محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م). كتاب المغازي، م ٢، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٤، م ٢، ص ٦٣٠؛ وقارن: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٧٤.

١٣٦. قارن: هوروفتس، المغازي الأولى، ص ٢٢.

يجلس في مسجد دمشق ليحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة، ففعل (١٣٧). ويبدو أن الدافع الذي شجع الخليفة عمر الثاني على الاستفادة من عاصم بن عمر، هو اهتمامه الشديد بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، ورغبته في أن تشيع دراسة المغازي والسير على أوسع نطاق بين أهل دمشق، على رجل من الثقات، معروف بعلمه وتبحره في هذا الموضوع، فكان لهذه الخطوة أهمية بالغة في تقدم دراسة المغازي، التي هي أحد فروع علم التاريخ في بلاد الشام.

ويعد محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ / ٧٤١ م) من أشهر العلماء الذين بثوا المعرفة التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي. فهو وإن كان من أقطاب مدرسة المدينة المنورة التاريخية، حيث وضعها فوق أساس متين وحدد خطوط دراستها واهتمامها (١٣٨)، فإنه قدم أيضاً خدمة كبيرة لبلاد الشام بترده عليها وإقامته فيها، ونشر علمه بين أهلها. حيث أنه وفد على عبد الملك بن مروان، وأصبح أثيراً عنده، وعند ولديه الوليد وسليمان، وكذلك عند عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك (ت ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م) الذي استقضاه، ثم كان حظياً أيضاً عند هشام بن عبد الملك، وحج معه، وجعله معلماً لأولاده إلى حين وفاته (١٣٩).

لقد استعان الخلفاء الأمويون بمعلومات الزهري التاريخية، فيروى أن الوليد الأول سأله عن أعمار الخلفاء (١٤٠)، وأنه كتب أسنان الخلفاء الأمويين ومدة حكم كل منهم (١٤١)، كما اعتمد الطبري في تحديد حكم الوليد الأول على رواية الزهري (١٤٢). ولقد قدم الزهري خدمة مهمة أخرى للدراسات التاريخية في بلاد الشام، إذ أنه كتب رواياته، وهو يعد أول من

١٣٧. رواية ابن سعد، اقتبسها شمس الدين بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)، تراجم رجال روى عنهم محمد بن اسحق، نشر، فشر، بريل، ١٨٩٠، ص ٢٢؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، م ٥، ص ٥٣ - ٥٤؛ وانظر عن عاصم بن عمر أيضاً: ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٦٦؛ هوروفتس، المغازي الأولى، ص ٤٧ - ٤٩؛ سزكين، م ١، ج ٢، ص ٧٣؛ خالد العسلي «عاصم بن عمر بن قتادة» مستل من مجلة كلية الآداب، ع ٨، بغداد (١٩٦٥)، ص ٣ - ١٩.

١٣٨. A.A. Dury, "Al-ZUHRI, A study on the Beginnings of History writing in Islam", B. SOAS, 19, (1957), P.I.

١٣٩. انظر: ابن سعد، طبقات، م ٧ ص ٤٤٧، ٤٧٤؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٤٧٢؛ الطبري، تاريخ، م ٢، ص ١٨١١؛ الأصبهاني، حلية الأولياء، م ٢، ص ٣٦٧ - ٣٦٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م ٩، ص ٣٤١ - ٣٤٢؛ بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ج ١، ص ٢٥٤؛ وعن علاقته بالأمويين انظر: حارث سليمان الضاري، الامام الزهري واثرة في السنة، منشورات مكتبة بسام، الموصل، ١٩٨٥، ص ٤٤١ - ٤٥٣.

١٤٠. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ١٩٩.

١٤١. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ٤٢٨.

١٤٢. الطبري، تاريخ، م ٢، ص ١٢٦٩؛ وانظر أيضاً: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٩٧ - ٩٨.

فعل ذلك بصورة منظمة (١٤٣). ويبدو انه ابتداءً اولاً بتدوين مواد الحديث بطلب من الخليفة عمر بن عبد العزيز، أو الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد أودعت هذه المواد بعد ذلك في خزانة الكتب في البلاط الأموي، حيث وجدت احمال كثيرة من مؤلفاته، بعد مقتل الوليد بن يزيد (ت ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م) (١٤٤). ولا شك ان لهذه الأحاديث المدونة أهمية كبيرة لا سيما إذا عرفنا أنها كانت أساساً للكتب التي ألفت في المغازي فيما بعد (١٤٥).

ولم تقتصر دراسات الزهري على الأحاديث والمغازي، بل شملت الأنساب، وتاريخ صدر الاسلام (١٤٦). وقد قدمت هذه الدراسات أرضية متينة لعلم التاريخ العربي عامة، وفي بلاد الشام بشكل خاص. يضاف إلى ذلك فضله الكبير على الحركة التاريخية في هذه البلاد، لانه نشر كتبه بين الجمهور، وحث على ذلك، فكان يحذر من «غلول الكتب» أي حبسها عن قرائها، وكان يفتخر بنشر العلم، فيقول: «ما صير احد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري» (١٤٧). ولقد كان للتأييد والدعم الذي لقيه الزهري من لدن عدد كبير من الخلفاء الأمويين أثر في المكانة العلمية التي وصل إليها، وبفضل اهتمامهم وتشجيعهم، انتقلت جهوده في مجال الدراسات التاريخية إلى بلاد الشام، وانتشرت بين أهلها، الأمر الذي ساعد على نشأة علم التاريخ وتطوره في هذه البلاد في العصر الأموي.

١٤٣. قارن: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٢٤.

١٤٤. ابن سعد، طبقات، م ٢، ص ٢٨٨-٢٨٩؛ الاصبهاني، حلية الاولياء، م ٢، ص ٣٦١؛ البداية والنهاية، م ٩، ص ٣٤٤؛ جب، علم التاريخ، ص ٥٤؛ هوروفتس، المغازي الأولى، ص ٦٦. الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٢٤، ١٠٠-١٠١، سركين، م ١، ج ٢، ص ٧٦.

١٤٥. قارن: جب، علم التاريخ، ص ٥٥.

١٤٦. ابن هشام، السيرة النبوية، م ١، ص ٨؛ الاصبهاني، حلية الاولياء، م ٢، ص ٣٦١؛ وانظر: الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ٩٦ و P.9. Duri, Op, Cit.,

١٤٧. انظر: الاصبهاني، حلية الاولياء، م ٢، ص ٣٦٦؛ وقارن: نصار، نشأة التدوين التاريخي، ص ٦٤.

مولد الحزبية السياسية وقضية الحكم نبيه عاقل

بين مولد الحزبية السياسية ومشكلة الحكم التي طرحت للمرة الأولى بعد انتقال الرسول الأمين صلوات الله عليه إلى جوار ربه، صلة وشيجة.

كان السؤال : لمن الأمر بعده صلوات الله عليه؟!، سؤالاً حائراً في ضمائر الفئة الخيرة الكريمة، فئة الصحابة الأبرار من مهاجرين وأنصار. ولم يطرح هذا السؤال ما كان محمد (ص) على رأس الجماعة المسلمة يسير أمور دينها وديناها. على أن انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فتح الباب واسعاً أمام رؤوس الجماعة الإسلامية: أنصارها ومهاجريها، ليعلنوا ما كانوا قد أسروه أو تداولوه همساً في حياة سيدهم: لمن الأمر بعد محمد!!، وواضح أن هذا الأمر كان الشغل الشاغل لهذه الفئة منذ أن سجي الرسول (ص) على فراش الموت في بيت عائشة. وكانت المواقف وردود الفعل تعبر عن مصالح وتطلعات كل فئة من الفئات التي كانت تتمثل في مجتمع المدينة، مستقر السلطة، وفي بقية أرجاء الجزيرة العربية التي جاءت في عام الوفود لمبايعة الرسول والاقرار بالطاعة له. وقبل السير قدماً في الحديث عن قضية الحكم ومولد الحزبية السياسية، لا بد من التذكير بحقيقتين :

أولاهما : أن التيارات والمواقف التي ظهرت في اجتماع سقيفة بني ساعدة لم تكن وليدة ساعتها، وإنما كانت تعبيراً عما يعتل في نفوس الفئات المختلفة التي يتشكل منها مجتمع المدينة المسلم، ومتنفساً لشكاوى لم يتح لها أن تعبر عن نفسها خلال حياة الرسول الكريم.

وثانيتها : ان مبدأ قرشية الخلافة الذي أقر في اجتماع السقيفة لا يفهم إلا من خلال شرح واضح للتركيب السكاني لمجتمع المدينة عند وفاة الرسول واستقصاء لجذور هذا التركيب وهو يته والعوامل الفاعلة فيه منذ الفترة السابقة لهجرة الرسول إلى يثرب، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والبشرية لهذا المجتمع قبل الهجرة، وما طرأ على هذه الأوضاع من تغيرات خلال الفترة المدنية من حياة الرسول.

هذا فضلاً عن الأثر الذي تركه مبدأ قرشية الخلافة في الحياة السياسية للمجتمع المسلم الجديد، وما ترتب عليه من آثار ظهرت واضحة عند مولد الحزبية السياسية، ولا سيما موقف عامة القبائل البدوية التي اعتنقت المذهب الخارجي وبشرت بخلافة الأفضل بقطع النظر عن نسبه واصله (اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة).

ان كل دراسة لمشكلة الحكم في الاسلام وصلتها بنشأة الأحزاب السياسية دون الأخذ بعين الاعتبار البيئة الطبيعية والاقتصاد الرعوي للمجتمع العربي بعامة من جهة، ومجتمع

مكة الاوليفارشي من جهة أخرى هي دراسة ناقصة لأنها لا توضح الخلفيات التي رضع منها الفكر السياسي مقومات وجوده والعناصر التي كان لها الدور الفاعل في مساره.

وإذا كانت الحدود المقررة لهذه الدراسة لا تحتمل التوسع في الحديث عن اقتصاد الجزيرة العربية قبل الاسلام وتركيبها السكاني، فاني أجدني مضطراً لوقفه قصيرة مع الظروف الصعبة التي واجهها صلوات الله عليه بعد هجرته الى المدينة. وقد لخص فرانشسكو غابريلي الصعوبات التي واجهت الرسول في مستهل هجرته بقوله: «لقد كان النصر الذي وصل اليه الرسول، ومركزه كنبى صاحب سلطة دينية ورئيس دولة فتية أنشأها هو، نصراً بطيئاً ومحفوفاً بالمصاعب الكثيرة التي يثيرها ضده أعداء ظاهرون ومستترون. لقد كان المكيون أعداءه الظاهرين. وكان عليه أن يواجه الأعبى سياسية ومؤامرات كثيرة تدبر في الخفاء من قبل الفئات المختلفة التي تسكن المدينة»^(١). وفي هذا شيء من صحة وصدق، إذ إن محمداً لم يكن في الأيام الأولى لهجرته الرجل المطاع الأوحى الذي لا ينازع سلطته منازع. وإذا صحت هذه الصفة (الرجل المطاع الأوحى) على الجزء المتأخر من وجوده في هذه المدينة، فإنها لا تصح على أيامه الأولى فيها. فقد كان أول الأمر لا يملك السيادة الا على الجماعة التي أمنت به من مهاجرين وأنصار، وهم القلة. وكان عليه أن يقوم بجهد كبير في ميدان الدعوة لدينه بين أولئك المدنيين الذين لم يقبلوا الاسلام كدين. وقد أثمرت جهوده في هذا الميدان بسرعة وانضمت أغلب الفئات التي لم تعتق الاسلام الى دين الله في أقل من عام بعد بدء الهجرة، رغم استمرار وجود فئة المنافقين (عبد الله بن أبي)، وفئة أعلنت عداها وجاهرت به وكان على رأسها، كما هو معروف سيد من أشرف الأوس هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن النعمان، الذي اندفع في معاداة الاسلام الى الحد الذي جعله يترك يثرب ويهاجر الى مكة. وحين فتح الله مكة على يد الرسول الكريم تركها وهاجر الى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام حيث مات طريداً غربياً وحيداً^(٢). ولم يكن أبو عامر وحده في هذا الموقف، إذ هاجر معه من المدينة الى مكة بضعة عشر رجلاً مفارقين للاسلام ورسوله، كما هاجر معه الى الشام عدد منهم بعد أن حقق الاسلام نصره الكامل ودانت له الجزيرة العربية.

والى جانب هذه الفئات العربية التي واجهت الرسول بمعارضتها ووسائلها حين قدم الى المدينة، وظهرت بعض من آثارها في اجتماع السقيفة بعد وفاته، كانت هناك الجماعات اليهودية التي أدركت أن قدوم الرسول الى يثرب هو فاتحة عهد جديد، لن تكون لهم فيه الكلمة الأولى أو المكان القيادي، فعملوا ما وسعهم العمل للتخلص منه والايذاء بحياته،

١. Gabrielli, F., Muhammad and the Conquests of Islam, World University Library, ١ London 1968, p. 46.

٢. من أجل تفاصيل أوفى، انظر، سيرة ابن هشام، ط. السقا، القسم الأول، ص ٥٨٤ - ٥٨٦.

ولكن نصر الله لرسوله كان لكيدهم بالمرصاد. وقد استمر كيدهم للإسلام ورسوله بعد أن حقق الدين الجديد نصره الكاسح على كل من حاول الوقوف في وجهه، وذلك عن طريق تسريب بعض من عقائدهم ودسائسهم الى فكر بعض الأحزاب السياسية التي ارتبطت نشأتها بمواقف من قضية الحكم مستمدة من دعاوى دينية لا مجال للخوض في تفصيلاتها، وقد تكون ظاهرة السبائية وشخصية عبد الله بن سبا المزعومة (٣)، إحدى مفرزاتها السامة.

و يوصلنا ذلك الى حقيقة أساسية توضح لنا جانباً هاماً من جوانب الصلة بين مولد الحزبية السياسية وقضية الحكم، الا وهي أن كل معارضة أو موقف سياسي كان يحاول أن يجد له سنداً من الدين الجديد وأن كل تمايز وتفاضل ودعوى في الأحقية بالحكم يجب أن تجد سنداً ومبرراً لا يخرج عن الاطار الاسلامي الذي يثبت وجوده بقوة الاقناع حيناً، والسيف أحياناً.

كما لا بد لنا أن نلاحظ ونحن نقدم بهذه المقدمة لمولد الحزبية السياسية، أن الرسول صلوات الله عليه، بعد أن وطد الأمور وذل الصعاب التي واجهته بعد هجرته الى المدينة، كانت تنتظره مهمة أصعب الا وهي وضع الأسس التي لا بد منها لتنظيم العلاقات بين هذه العناصر السكانية التي لا تجمعها وحدة عصبية أو وحدة عقائدية، أو حتى وحدة المصلحة. وقد عالج الرسول الكريم هذا الوضع في الكتاب الذي كتبه وحدد فيه صورة العلاقات في المجتمع المدني الجديد بفئاته المختلفة وما يترتب من حقوق وواجبات على كل فئة من هذه الفئات. ورغم أنه لا يدخل في نطاق هذا البحث دراسة كتاب الرسول الذي حفظ لنا ابن هشام نصه كما أورده ابن اسحق في سيرته (٤) إلا أنه من المهم أن نقرر أن هذا الكتاب الذي يمكن لنا أن نعتبره أول دستور مكتوب لدولة اسلامية، حرص أشد الحرص على:

١. سيادة الدولة على جميع مواطنيها وضمان ولائهم التام لها.
 ٢. المسؤولية الجماعية لكافة العناصر السكانية للدولة عن أمن الدولة في الداخل والخارج، بقطع النظر عن أصولها العرقية أو معتقداتها.
 ٣. قدسية السلطة، واعتبار صاحبها صاحب الحق الوحيد في القرار.
- وهذه كلها أسس لم يصل الفكر السياسي الحديث الى ما سواها، على طول السنين، واطراد التقدم في ميادين النظرية السياسية.

٣. انظر الدراسة القيمة التي قام بها عبد العزيز صالح الهلابي بعنوان: عبد الله بن سبا، دراسة للروايات التاريخية عن دوره في الفتنة، ونشرتها حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثامنة، الرسالة الخامسة والاربعون ١٩٨٦/١٩٨٧. ويستنتج الهلابي بأن عبد الله بن سبا شخصية «وهمية ولم يكن لها وجود» انظر، ص ٧٣ من الدراسة.

٤. انظر نص الوثيقة في سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص ٥٠١ وما بعدها. وانظر دراسة مفصلة لها في كتابنا: تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ص ٨٦ وما بعدها.

أما عن مشكلة الحكم بعد وفاته صلوات الله عليه، فإن الحديث عنها يقتضينا أن نطوي صفحة السنوات العشر التي كان الرسول فيها رأس الدولة، وان نبداً مع اليوم الذي سجي فيه ميتاً في بيت عائشة، أنذاك طرح السؤال الكبير: من بعد محمد؟ ذلك أن غياب الرسول صلوات الله عليه، لم يكن يعني غياب نبي يوحى اليه فحسب، بل غياب القائد والحاكم والمشرع. أو قل: من كان يجمع في شخصه رسالة السماء ومسؤولية الحكم في الأرض. وإذا كانت رسالة السماء لا تورث، وانتهت كما أعلن الرسول نفسه في حجة الوداع، فإن مسؤولية الحكم في الأرض أمر مفروض ولا بد منه إذا أريد لهذه الرسالة أن تستمر ولتعاليمها أن تكون منارة الهدى للناس في أمور دينهم ودنياهم. ومن هنا فتحت مشكلة الحكم على مصراعها، بعد أن كانت همساً يدور على الأفواه، أو تساؤلات ترتسم في الأذهان. ومن هنا أيضاً كانت نقطة البدء في مولد الحزبية السياسية التي ارتبطت بمولدها ارتباطاً عضوياً مع مشكلة الحكم التي غدت القضية الأولى بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه، لا سيما وأن ضمان استمرار دولة الإسلام الأولى التي أقام الرسول نواتها في المدينة رهين بحل هذه القضية حلاً تراعى فيه مصلحة الجماعة من جهة، والتوفيق بين التناقضات التي بدأت تطفو على السطح منذ فتح مكة وغزوة حنين واقتسام الغنائم في الجعرانة وظهور فئة المؤلفلة قلوبهم، إلى جانب ما ذكرناه أنفاً من تناقضات بين الفئات السكانية في المدينة وتمايز في مصالحها، فرضت بالتالي مواقف من قضية الحكم لا تتصف بالوحدة، أو حتى بالتجانس.

وعلى الرغم من أن تفصيلات ما جرى في اجتماع السقيفة لا تدخل في صلب هذا البحث، فإنه لا بد لنا من رصد بعض الظواهر التي برزت خلال هذا الاجتماع للاستفادة منها في بناء الصورة التي نحاول رسمها للظروف التي واكبت مولد الحزبية السياسية في الإسلام.

وقد يكون في الملاحظات التالية ما يساعد على فهم أوضح للأسس التي قامت عليها أول مؤسسة من مؤسسات الحكم في الإسلام، ألا وهي مؤسسة الخلافة (٥):

١. لا يعقل أن يكون اسراع الأنصار (والخزرج بخاصة) إلى الاجتماع في سقيفة بني ساعدة فور وفاة الرسول حادثاً عفواً. ولا بد أنهم كانوا يخططون لاستلام الأمر بعد الرسول منذ أن اشتكى من المرض الذي توفي بسببه أو قبل ذلك، بدليل أنهم بمجرد وصول الخبر بوفاته سارعوا لعقد اجتماع السقيفة وترشيح سعد بن عبادَةَ لزعامة الجماعة المسلمة، رغم ما كان يشكوه سعد من مرض لا يساعده على الحديث بصوت مرتفع، الأمر الذي جعله يتكلم بصوت منخفض ويقوم ابنه أو بعض بني عمه بنقله إلى الحضور (٦)، كما يذكرنا ذلك ببوادر التكتل الأنصاري الذي حدث منذ حياة الرسول، ونقصد بذلك ما جرى بعد فتح مكة

٥. انظر أخبار اجتماع السقيفة والمناقشات والمناورات وملابس الأحداث التي انتهت بببيعة أبي بكر في، الطبري، ط. محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٣، ص ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٤ - ٢١١، ٢١٨ - ٢٢٢.

٦. الطبري، ج ٣، ص ٢١٨.

وغزوة حنين وإيثار الرسول الكريم بعض حديثي العهد بالاسلام من قريش (المؤلفة قلوبهم) وغيرها بهدايا اضافية (٧)، جعلت الأنصار يشكون في امكانية انصراف الرسول عنهم والتحول الى مكة بعد أن فتحها الله عليه. وكان سعد بن عبادة على رأس هذه الجماعة الأنصارية التي أخذت على الرسول إيثاره قومه (٨).
والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن سعدا كان يقود الجماعة الأنصارية المعارضة، وأنه يصرح بعصبيته لقومه من الأنصار (لا للجماعة الاسلامية ككل) فيقول: «ما أنا الا من قومي». وفي كل ذلك ما يمكن أن يعتبر دليلا على بوادر قيام كتلت أنصاري منذ حياة الرسول الكريم.

٢. لم يكن الصف الأنصاري المجتمع في السقيفة موحد الرأي، كما أنهم كانوا مدركين أن تحركهم غير مضمون النتائج. و يذكر الطبري حديثا طويلا عن النقاش الذي دار بينهم قبل وصول المهاجرين الى السقيفة (٩)، و يتبين من هذا النقاش أنهم كانوا يتخوفون من رد فعل المهاجرين والأسلوب الذي سيتبعونه للرد عليهم. كما يبدو أن اتجاها قويا ظهر بين المجتمعين من الأنصار يحبذ فكرة اقتسام السلطة مع المهاجرين، وأن يقوم نظام تكون فيه السلطة ثنائية يتمثل فيها الأنصار والمهاجرون، دون أن يكون عند المجتمعين صورة واضحة للتطبيق العملي لهذا النوع من النظام. وقد رفض المهاجرون هذا العرض، وقال عمر بن الخطاب في الرد عليه: «هيهات، لا يجتمع اثنان في قرن» (١٠).

٣. لا يمكن الادعاء بأن جميع الأنصار كانوا يعملون لأن تكون السلطة بعد محمد لهم. ويتضح زعمنا هذا من الموقف الذي اتخذه بشير بن سعد، والد النعمان بن بشير الأنصاري، الذي رفض أن يوافق على موقف جماعته، وكانت وجهة نظره التي شرحها في اجتماع السقيفة بحضور أبي بكر وصحبه تتلخص بقوله: «.... الا أن محمدا صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى. وأيم الله لا يراني الله أنزعهم هذا الأمر أبدا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم» (١١) وقام وسبق أبا عبيدة وعمر بن الخطاب في مبايعة أبي بكر، وبشير بن سعد من الخزرج أي من نفس قبيلة سعد بن عبادة، وهو من كبار الصحابة الذين شهدوا العقبة و بدرأ والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله.

٧. انظر جدولاً بهذه الهدايا الاضافية التي قدمها الرسول لفته (المؤلفة قلوبهم) في كتابنا: تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين، ص ١٥٧.

٨. انظر التفاصيل في، الطبري، ج ٣، ص ٩٣.

٩. انظر تفاصيل أوفى، في الطبري، ج ٣، ص ٢١٨ - ٢١٩.

١٠. المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٠.

١١. المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢١.

الى جانب هذا التصدع في الصف الخزرجي، لا بد من الإشارة الى موقف الأوس، اذ يذكر الطبري أنه «لما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد، وما تدعو اليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض، وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء: «والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة... قوموا فبايعوا أبا بكر، فقاموا اليه فبايعوه...» (١٢).

٤. جاء حسم التباين في المواقف من جهة، وتردد بعض الفئات من جهة أخرى، على يد عمر ابن الخطاب حين قال للمجتمعين: «والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي امورهم منهم...» (١٣). وفي هذه الحجة ما يشير الى أن الأمر لا يقتصر على من بالمدينة من العرب، بل لا بد من الأخذ بعين الاعتبار موقف بقية المسلمين من غير عرب المدينة الذين يفضلون قريشا عشيرة الرسول على سواها. كما أظهر المهاجرون للمجتمعين بالسقيفة من الأنصار أنهم لن ينفردوا بالأمر وأنهم لن ينسوا للأنصار فضلهم وجهادهم، وأن الأمور لن تقضى بدونهم وقد تولى تأكيد هذا الجانب من الاتفاق غير المكتوب، أبو بكر بوقاره وجلال قدره، اذ قال للمجتمعين: «... فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم، فنحن الأمراء وانتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور» (١٤).

ان هذا الذي جرى في سقيفة بني ساعدة يفصح بشكل لا يقبل الجدل عن وجود تيارين أساسيين كانا يشكلان بذرة الفرقة التي تنامت فيما بعد داخل الجماعة الاسلامية، وهذان التياران هما:

أ. تيار الأنصار ، ب. تيار المهاجرين.

كما أن ما قلناه عن التصدع في الصف الأنصاري في هذه الفترة يصح أيضا على صف المهاجرين الذي بدأ متماسكا في السقيفة خلال طرحه مبدأ قرشية الخلافة، ولكنه ما لبث بعد أن آل الأمر الى واحد من رجالاته أن ظهر فيه أكثر من تيار، ولا سيما التيار الذي يجذب أن يكون الأمر في آل البيت (وهم قرشيون أيضا)، والتيار الآخر الذي يراه في عامة الصحابة الأول من القرشيين، كما تمثل في شوري عمر.

وبعد أن بويع أبو بكر البيعة العامة في المسجد (ان تمت البيعة الخاصة في السقيفة)، أخذت تطفو على السطح تيارات أخرى كانت بذورها تطل برأسها منذ حياة الرسول، وأهمها

١٢. المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢١ - ٢٢٢. وجاء عند المسعودي: «تخلى الأوس عن معاضدة سعد خوفا أن يفوز بها الخزرج».

١٣. الطبري، ج ٣، ص ٢٢٠.

١٤. المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

التيار البدوي الذي كان يمثل قبائل الجزيرة خارج الحجاز، والذي انفجر يهدر كالسيل العارم بعد أن تولى أبو بكر مقاليد الأمور. ومعروف أنه في العامين التاسع والعاشر للهجرة وحين كانت وفود الجزيرة العزبية تقدم على الرسول مبايعة ومعلنة اسلامها، كان بينها من لا يقنعه الاستسلام لسلطان قريش متمثلاً في شخص محمد. ولعل فيما تذكره المصادر عن النقاش الذي دار بين مسيلمة بن حبيب الحنفي أو مسيلمة بن ثمامة، الذي عرف فيما بعد باسم مسيلمة الكذاب الذي جاء في وفد حنيفة (١٥)، ومحاولته مقاسمة الأمر مع محمد، وارتداده عن الاسلام بعد عودته من المدينة وقبل وفاة الرسول، ما يفصح عن وجود بذور هذا الاتجاه البدوي الذي لا يقبل سلطاناً غير سلطان سيد القبيلة، ولا يعترف بشرعية سوى أعرافه وتقاليده، ولو كانت الشريعة منزلة من السماء. وقد توضح هذا التيار البدوي وعبر عن نفسه بشراسة وقسوة بعد وفاة الرسول، فكانت حركة الردة، التي اعتبرها العديد من المؤرخين المحدثين ردة دينية فحسب، ولكنها في واقعها تعبير حي عن منطلق البداوة الذي حاول الرسول ومن بعده الخلفاء الراشدون أن يستبدلوا به منطلق الجماعة والدولة وما ينتظمهما من قوانين وأعراف، فضلاً عن أوامر الدين الجديد ونواهيها، وكلها تخالف الأسس التي يقوم عليها منطلق البداوة، مما لا مجال للدخول في تفصيلاته.

وإذا كان ما قلناه حتى الآن يفصح عن وجود ثلاثة تيارات كبرى في الجماعة الاسلامية حين طرحت مشكلة الحكم لأول مرة بعد وفاة الرسول، فإن في هذه التيارات تكمن مؤشرات لم تكن واضحة آنذاك، ولكنها تنبئ الباحث عن المسار الذي ستتخذه الأحداث فيما بعد.

فالتيار الذي مثله الأنصار في اجتماع السقيفة والحجج التي برروا بها أحقيتهم بالخلافة هو الأصل والمنطلق الحقيقي لمجموعة الأفكار والمواقف التي تمخضت عنها حركة الزهد التي مثلتها فئة القراء التي اعتزلت السياسة (قسراً) بعد أن يئست أن يكون لها فيها نصيب، واقتنعت بزعامة مدرسة الحديث التي نمت وترعرعت في المدينة وأوجدت بذلك لنفسها وصاية دينية اعتبرت أرفع مكاناً من الممارسة السياسية، ونفست عن حقد هذا فيما بعد كلما أتيت لها ذلك وعبرت عنها بالقول والفعل (١٦). كما يمكن أن نرجع أصول حركة الأرجاء الى هذا التيار، لأن في الأرجاء، الى جانب ما فيه من جانب عقائدي قعوداً تاماً عن المشاركة في العمل السياسي.

١٥. من أجل أخبار الوفود عامة، وما جرى بينها وبين الرسول، وخبر وفد مسيلمة، انظر ابن هشام، القسم الأول، ص ٥٦٠ وما بعدها، والطبري، ج ٢، ص ١٢٧-١٢٨.

١٦. «... عن أبي معشر قال: ... ولما تولى يزيد بن عبد الملك (الخلافة) نزع ابا بكر بن محمد بن عمرو الأنصاري عن المدينة، وولاه عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري، فدخل عليه (أي على يزيد) أبو بكر بن محمد، فلم يعرف (يزيد) حقه، قال أبو بكر: هذا شيء لا تملكه قريش للأنصار، وحسب في منزله». انظر الأزدي، تاريخ الموصل، ط. القاهرة ١٩٦٧، ص ٦٠-٦١.

أما التيار القرشي الذي ضم بين جناحيه عامة الصحابة الأول من قريش، فقد انقسم الى قسمين أصبحا فيما بعد حزبين سياسيين دينيين هما: الحزب العثماني (نسبة الى عثمان بن عفان، ومن بعده بني أمية)، وحزب آل البيت، الذي قامت حوله حركة التشيع. أما التيار البدوي فتمخض عن حركة الخوارج التي حملت لواء المعارضة للحزبين القرشيين: العثماني وآل البيت، وفي هذه البواكير الأولى يجد الباحث أصول الحزبية السياسية في الاسلام.

وإذا سرنا مع دولة الراشدين حتى كانت الفتنة التي أودت بحياة الخليفة عثمان بن عفان، لوجدنا أن هناك اتفاقاً بين أغلب الباحثين على اعتبار مقتل عثمان وما تلاه من اختلاف المسلمين واحترابهم أخطر الأحداث التي وقعت للدولة الوليدة. إذ أن هذا الحادث كان نهاية لعهد كان فيه الجدل بالحجة والدليل والرجوع الى القرآن وسنة الرسول سبيل الناس في تقرير مستقبلهم في جميع مناحيه، وبداية لعهد غدا فيه السيف الفيصل في حل الخلافات وتقرير مستقبل الجماعة. وطبيعي أن يقود هذا التطور الى تحول ما أسميناه في الفقرة السابقة من بحثنا بـ «تيارات» الى «فرق» سياسية تنتشر بأثواب دينية لتثير مسألة الحكم والى من يجب أن يؤول، والشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يندب نفسه لمهمة خلافة رسول الله. كما أخذت تنظر في مسائل كالايمان والكفر والجبر والاختيار. وفي هذا المجال يمكننا أن نذكر أن كلامنا البغدادي، صاحب كتاب: الفرق بين الفرق والشهرستاني، صاحب كتاب: الملل والنحل قد انطلقا في تأليف كتابيهما المذكورين من الحديث المنسوب الى رسول (ص) والذي يقول: «افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة». أو قوله: «... وان بني اسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين، كلهم في النار ااملة واحدة. قال: من هي يا رسول؟! قال: ما أنا عليه وأصحابي» (١٧). والكتابات كما هو واضح، يبحثان موضوع الفرق الدينية التي تسربت بأثواب الدين لتحقيق غايات سياسية، فما هو السر في اهتمام المسلمين بعامة ومؤلفي هذين الكتابين بخاصة بهذا الحديث الذي يتنبأ فيه الرسول بانقسام المسلمين الى ثلاث وسبعين فرقة، حتى أنهم ألفوا العديد من الكتب في موضوع الفرق، وحاولوا أن يبينوا أن الفرق الاسلامية بلغت هذا العدد، علماً بأن الاسلام في جوهرة وسعيه الحديث وتعاليمه المعلنة، كان يهدف على الدوام لأن يجعل من المسلمين «أمة واحدة» تجمعها وحدة العقيدة. أغلب

١٧. أخرج الحديث أبو داود في كتاب السنة من سننه، المجلد الرابع، ص ٢٢٢ و ٢٢٤ من عون المعبود، رواية عن أبي هريرة. كما رواه أحمد في المسند ج ٢، ص ٢٢٢، ط. الحلبي) ورواه عن أبي هريرة أيضاً الترمذي في كتاب الايمان من سننه (مجلد ٢، ص ٢٦٧، ط. تحفة الأحوذى). وهناك نص لهذا الحديث مخالف لذلك: «حدثنا أحمد ابن قاسم... عن عوف ابن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تفرقت أمتي على بضع وسبعين فرقة، أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور برباهم فيحلون الحرام ويحرمون الحلال». ملخص ابطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل، ابن حزم الأندلسي، تحقيق سعيد الأفغاني، ط. مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠، ص ٦٨-٦٩.

الظن أنه باعتبار أن هذا الحديث يتحدث عن فرقة «ناجية»، فقد حاول كل أن يظهر أنه من هذه الفرقة الناجية، وأن من يخالفه الرأي فهو من الفرق الاثنتين والسبعين الهالكة. وفي هذا السبيل حاول مؤلفو كتب الفرق، والبغدادي والشهرستاني منهما، أن يستعينوا بشتى الأساليب حتى يجعلوا عدد «الفرق الهالكة» اثنتين وسبعين، كي تظل هناك «فرقة ناجية» واحدة، هي تلك التي ينتسبون إليها. وغير خاف أن مثل هذا الافتعال قد أخرج العديد من المؤلفات والمؤلفين من اطار الموضوعية والدقة العلمية المطلوبة.

ان هذا الذي ذكرناه عن «الفرق الهالكة» و«الفرقة الناجية» هو في رأينا مظهر من مظاهر الصلة الوشيحة التي كانت تربط العمل السياسي بالدين ولا سيما في بدايات هذا العمل. وطبيعي أن يكون الأمر كذلك لأن الدولة في الاسلام ليست مؤسسة مستقلة بذاتها، وإنما هي إحدى مؤسسات المجتمع المسلم الذي يسير على هدي الاسلام، ورئيس الدولة هو المسؤول الأول عن تطبيق شريعة الله وحدوده في جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة، وفي مجال العلاقات الدولية أيضا. وليس في الاسلام فصل بين الكنيسة والدولة، كما هو الحال في المسيحية.

كما لا بد من التنبيه إلى أن التغييرات الكبرى التي أدخلها عصر الفتوح على المجتمع المسلم، ولا سيما في المجالين البشري والاقتصادي، كان لها دور هام في تلوين الحزبية السياسية بلون يختلف عما كان عليه في السابق، على الرغم من أن الاطر العامة التي انتظمت هذه الحزبية استمرت كما كانت عليه. ولشرح هذا نقول إن الانهيار الذي أحققته الفتوح بالقوتين العظميين: فارس وبيزنطة، ودخول عناصر غير عربية في الاسلام، واتساع رقعة الأرض التي فتحت وكانت تحكم من المدينة، والمواجهة بين العقيدة والفكر الاسلامي من جهة، وعقائد وافكار الشعوب المفتوحة من جهة أخرى، ونشوء طبقة الموالي، والتغير الكبير الذي طرأ على الحياة الاقتصادية للمجتمع المسلم نحو الغنى أو حتى الثراء الفاحش أول الأمر نتيجة تدفق الغنائم على المدينة، ومن ثم توقف أموال الغنائم واقتصار المقاتلة على ما يدفع لهم من عطاء فقط، وتحول هؤلاء المقاتلة من مصدر ثروة للدولة الى عائلة عليها ينتظرون ما تدفعه لهم من عطاء، وسوى ذلك كثير مما لا أنوي الدخول في تفاصيله، كلها أمور كان لها دور في اعادة تشكيل الفكر السياسي للجماعة المسلمة واعطاءه نبضات جديدة ظهرت آثارها الفاعلة في مجال العمل السياسي الحزبي.

ان شرح هذا الذي أوجزناه بسطور قليلة أمر يطول، ولكن تقديم مثل واحد قد يوضح الأثر الذي خلفه عصر الفتوح والتغييرات الاقتصادية والاجتماعية في مجال الفكر السياسي في أواخر أيام الراشدين. ويمكننا أن نجد هذا المثل في بعض أحداث الفتنة التي أودت بحياة الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه: فالناترون على عثمان جاءوا من الأقاليم المفتوحة كمصر والبصرة والكوفة، كما أن كل وفد كان لا يمثل الا بعض قطاعات القبائل المقاتلة التي كانت تقطن تلك الامصار، ورغم اختلاف الأمصار التي قدمت منها هذه الوفود

فقد كان افرادها من سوية اقتصادية واجتماعية متماثلة. و يطرح هذا الوضع تساؤلا هاما هو: هل كان هناك تمايز طبقي أو اجتماعي بين أولئك الذين نقموا على عثمان، وأولئك الذين كانوا يقفون في صفه؟ على أننا نستطيع القول في هذا المجال أن الناقمين على عثمان كانوا في غالبيتهم من الأعراب، وربما لعبت الحزازات القبلية دورا في تقرير من يقف الى جانبه ومن يقف ضده. أما موقف قريش من عثمان فكان يختلف عن موقف هؤلاء الاعراب، فقد كان بين مكبي قريش، من كانت تربطه بعثمان، وبالبن الذي ينتمي اليه وابط من التحالف والود، في حين أنه كانت هناك بطون قرشية أخرى، ولا سيما تلك التي لها صلة ببن مخرم، تميل الى معارضته.

أما الأنصار، فكانوا أكثر أفراد الجماعة الاسلامية شعورا بالظلم لما كانوا يعانون من حيف اقتصادي رغم ما كان لهم من فضل في نصرة الاسلام ونيبه والوقوف معه صفا متراصا حين خذله قومه من قريش مكة. حتى أنهم غدوا في مرتبة أدنى بكثير من العديد من بعض القرشيين الذين ظل سيفهم مشهورا في وجه الرسول حتى فتح الله عليه مكة. وبالرغم من هذا الحال، فإنهم لم ينضموا الى أولئك الناقمين القادمين من الأمصار الرافعين راية الثورة على الصحابي الجليل عثمان. صحيح أن عثمان كان في بعض الأحيان لا يسلم من تقديم وتجريحهم، ولكنهم حين قامت الثورة عليه، وقفوا موقف المحايدين، وكان بين ما أخذ على عثمان وأدى الى الثورة عليه ما ادعي من بذخه وترفه وتصرفه بأموال الدولة واقطاعه بعض اراضيها لأقربائه، وتعيين هؤلاء الأقرباء في أرفع مناصب الدولة، الى غير ما هنالك مما يدعى ومما لا نجد مجالا للدخول في تفاصيله أو دفعه أو القبول به في هذه الدراسة. وقد يكون من الصحيح أن نعتقد أن تحرك الأمصار ضد عثمان، كان تعبيرا عما يجيش في نفوس رجالات القبائل، الذين غدوا بعد الفتوح القوة الرئيسية في الجماعة الاسلامية، من نقمة على الاستقرابية التجارية المكية (وعثمان وبنو أمية على رأسهم) التي كانت تتمتع بالنفوذ والثروة قبل الاسلام، وجاءت الآن لتتهم مرة أخرى على مقدرات الدولة الاقتصادية والسياسية، في ظل الخليفة الجديد الذي سهل لهم السبل لذلك، ولعل من المهم أن نلاحظ قبل المضي قدما في الحديث عن النقد الذي وجه الى عثمان أنه من الجائز أن كثيرا من الأمور التي أثيرت ضده بعد مقتله، لم تكن موضع نقد أو نقاش واسع وهو حي، وانها انما أثيرت الآن لأن الأمر الذي غدا يشغل الناس ويحدد مواقفهم السياسية هو ما اذا كانوا يعتقدون أن عثمان قتل مظلوما، أم كان هناك ما يبرر قتله.

ومن الانصاف القول إن جميع الشكاوي التي أثيرت ضد عثمان بعد مقتله، اذا ما تفحصها المرء بدقة وعناية، تبدو غير متناسبة مع عنف الحركة التي قامت ضده، ومع النهاية المأساوية التي انتهت بها حياته. ولا بد للباحث في هذه الفتنة، أن يجد التفسير لما حدث في التغيير الجزري الذي دخل حياة المقاتلة من الأعراب بعد عصر الفتوح، فأجداد هذه الفئة، وهم أنفسهم، كانوا لسنوات قليلة خلت يعتمدون في معاشهم على الاقتصاد الرعوي، والاغارة على من يجاورهم من قبائل أو مدن. اما بعد قيام الفتوح وتدفق الغنائم، فقد أخذت حياتهم

طابعاً جديداً، ودخلها شيء كثير من رفاه لم يكونوا قد اعتادوه في السابق، ولكن حبيب اليهم وارادوا الاستزادة منه. كما أنه لا بد أن نلاحظ أن هذا التغيير لم يقتصر على حياتهم المادية فقط بل شمل أيضاً الإطار السياسي والاجتماعي لحياتهم، فغدوا يعيشون في ظل نظام بيروقراطي، بعد أن كان النظام القبلي هو قانون حياتهم. ووجدوا أنهم لا بد أن يخضعوا للتنظيم الإداري الجديد للدولة على غير إرادة منهم. وكانت أهم مشكلة واجهتهم أنهم لم يستطيعوا التكيف مع التركيب السياسي والاقتصادي والاجتماعي الجديد، وانتهى بهم إلى ثورة عارمة، كان أول وأبرز ضحاياها عثمان بن عفان. ومقتل عثمان لم يكن إلا نقطة البدء في سلسلة طويلة من الانفجارات إذ ما لبثت أن تبعتها تحركات الخوارج والشيعية، هذه التحركات التي لم تكن إلا حلقات أخرى في سلسلة الانفجارات هذه التي نجمت عن مشكلة عدم التلاؤم مع الظروف الجديدة من جهة، ولما طرأ على جسد المجتمع العربي من تغيرات جذرية بعد عصر الفتوح، من جهة أخرى. وقد توضح المسار الذي ستأخذه مشكلة الحزبية السياسية بعد مقتل عثمان، لأن الصراع بين علي ومعاوية لم يحسم إلا بالنقاش، كما في اجتماع السقيفة، ولا باستخدام السيف، كما في فتنة عثمان، بل باستخدام الجيوش التي لا يمكن استخدامها إلا إذا استطاع كل فريق أن يستقطب ولاء جماعة تتشاطر الرأي وتدفع حياتها في ساحة القتال دفاعاً عن هذا الرأي. ومن هنا كان مولد حركة الخوارج التي مثلت الاتجاه البدوي، وبدايات التشيع الذي لم تتبلور عقيدته وأفكاره حتى فترة متقدمة من خلافة بني أمية. وطبيعي أننا في هذه الدراسة لمولد الحزبية السياسية وقضية الحكم، لن ندخل في تفاصيل الفكر السياسي للخوارج والشيعية وسواهما من مذاهب سياسية ولدت في هذه الفترة من تاريخنا، ولكن نفرد ثورات الخوارج بكونها توجهت ضد علي كما توجهت ضد معاوية، يجعلنا نقف وقفة قصيرة مع بعض الظواهر التي أفرزها مولد هذه الحركة. فإلى جانب ما يمكن أن يلاحظه الباحث المتتبع لأخبار الخوارج من أن جميع زعمائهم كانوا في السابق بدواً وليس سكان مدن الأمر الذي أعطى علاقاتهم وسلوكياتهم سمة البداوة، نجد أن الباحثين يذهبون مذاهب شتى في تفسيرهم لظهور حركة الخوارج. وهذه التفسيرات تستند على أسس سياسية واقتصادية واجتماعية. ولا يشك أحد في أهمية الدوافع الاقتصادية والاجتماعية في نشأة الخوارج، ولكن لا بد من إيلاء العامل الديني في هذه النشأة ما يستحق من اهتمام. وعلى الرغم من أن ظهور حركة الخوارج مرتبط بأحداث سياسية نجمت بعد مقتل عثمان وبما دخل على الدولة الإسلامية من تطور اقتصادي واجتماعي بعد عصر الفتوح، كما أسلفنا، إلا أن ذلك كله كان يجري في إطار إسلامي. وإذا أخذنا بالقول بأن نشأة حركة الخوارج مرتبطة برغبة القبائل من غير قريش، في أقصاء قريش عن الحكم، لحقد قديم عليها، ولما كان لها قبل الإسلام من مكانة استمرت وتعززت بعد ظهور الإسلام أيضاً، تكون الحركة الخارجية من هذه الزاوية حركة سياسية تمثل ثورة ديمقراطية ضد الأرستقراطية القرشية التي تمثلت في جماعة كبار الصحابة القرشيين. وقد دعا هذا إلى تسميتهم بالحزب الجمهوري أو الحزب الدستوري في الإسلام.

أما الذين ينحون المنحى الاقتصادي والاجتماعي في تفسير حركة الخوارج، فقد اعتبروا هذه الحركة تعبيراً عن سخطبدو الردة الذين استوطنوا البصرة والكوفة بعد الفتوح، وكانوا قبلاً يعيشون في فقر مدقع، وتحسنت أحوالهم قليلاً إبان الفتوح بما حصلوا من غنائم. وحين توقفت الفتوح زمن عثمان، عادوا الى ما كانوا عليه من فقر، في حين كانت قريش تنعم بالثراء والجاه. الأمر الذي أدى الى ازدياد غيظهم وثورتهم وتمسكهم بالطبائع والتقاليد البدوية، كالعصبية القبلية وسواها. ووجد حقدهم متنفساً في الثورة على عثمان، وعلى فكرة الدولة التي تتربع قريش على عرشها (علي كان أم معاوية، فكلاهما قرشي)، كما تمردوا على نمط الحياة الاجتماعية التي تمثلت في فوارق طبقية لا تمت إلى الاسلام بصلة، وفي تربع سادة قرشيين في أعلى السلم الاجتماعي وظلوا هم اسفله. ففي ثورتهم، في رأي هؤلاء الباحثين، تمرد على ما لحق بهم من ظلم اقتصادي واجتماعي. وقد تمثلت هذه النقمة بصورة جلية عند بدو تميم الذين تزعموا حركة تعبر عن تطلع البدولعدم الخضوع لقريش.

ولم تكن الحركة الخارجية حكراً على تميم، بالرغم من أن غالبية الخوارج الأول كانوا من هذه القبيلة. وكان من بين القبائل التي راجت فيها هذه الحركة: بكر وهمدان والأزد وغيرها. كما أن بعض بطون تميم وقفت من الخوارج موقفاً عدائياً (١٨). ومعنى ذلك أن نزعة العصبية القبلية عند الخوارج كانت أقل أهمية من عصبية المذهب. والدليل الآخر على هذا الزعم دخول العديد من الموالي في مذمبهم وعلمهم معهم جنباً الى جنب.

فالخوارج على هذا - وفي بداية حركتهم على الأقل - يمكن أن يعتبروا حزباً ثورياً صريحاً، ولكنه يعتصم بالتقوى. ونشأته ليست مرتبطة بعصبية العروبة بل بعصبية الاسلام، وذلك منطلق ما يتطلبه الله من المؤمن من وجوب دفعه لما يراه من منكر يقترف (من رأى منكم منكراً... الخ).

وإذا ما غادرنا الخوارج بعد هذه الوقفة القصيرة معهم، لنثبت بعض الحقائق ونحن نلقى الحزب السياسي الديني الآخر الذي ظهرت بواكير مولده في العصر الأموي، ألا وهو حزب الشيعة، وجب علينا أن نبتدىء بالقول أن استخدام كلمة «شيعة» أو «تشيع» في العصر الاموي، بالمعنى الذي نستخدمه اليوم أمر غير مقبول. والواقع أن استخدام مصطلح «الشيعة» بالمعنى الحزبي الديني لم يكن شائعاً قبل الربع الأخير من القرن التاسع للميلاد. وهكذا فإن التشيع، بالمعنى الذي نقرؤه عند أصحاب كتب الفرق الدينية، لم يوجد قبل الربع الأخير من القرن التاسع للميلاد. كما أن نظرية الامامة الاثنا عشرية، لم تصنع الا بعد وفاة الامام الحادي عشر (كانون الثاني ٨٧٤م) وغيبة الامام الثاني عشر. كما أنه لم يكن للامام الرابع والذين تلوه، والمصنفين وفق النظرية الاثنا عشرية، نفس المقام والأهمية اللتين

١٨. معروف أن بعض رجالات تميم بطش ببعض زعماء الخوارج من بني جلدتهم: فعباد بن علقمة قتل أبا بلال مرداساً الخارجي، وحرموز بن الفجاءة قتل أخاه قطري بن الفجاءة أحد كبار زعماء الأزارقة، ومقل بن قيس الرياحي قضى على حركة المستورد بن علفة وسفك دمه.

تفترضهما النظرية الامامية وتحدثنا عنهما الكتب الدينية الشيعية، ونحن نفضل في الحديث عن الأحزاب السياسية في العصر الأموي أن نستخدم مصطلح «الشيعية الأوائل» عوضاً من «الشيعية». كما علينا أن نتذكر أن العديد من الأحداث السياسية التي جرت زمن خلافة بني أمية ونسبت الى شيعة علي، لم تكن من صنع من صنعوا أئمة (اللهم الا ما كان من أعمال وثورات وأحداث شارك بها الحسن والحسين وعلي زين العابدين)، بل من صنع رجالات من أفراد البيت الهاشمي، أو ممن يدينون بالولاء لهذا البيت (حركة التوابين، المختار... الخ). ولهذا فإن استخدام مصطلح «بني هاشم» في الإشارة الى أحداث جرت في العصر الأموي يجب أن يتم بحذر وحيطة بالغين لانه استخدام منذ ما قبل الاسلام وحتى نهاية العصر العباسي بأشكال ومعان مختلفة لا مجال للدخول في تفصيلاتها (١٩).

وهناك أمر ثالث يجدر تذكره ونحن في صد الحديث عن «الشيعية الأوائل»، ألا وهو أن «التشيع» مرتبط في أذهان العديدين بالهوية الفارسية، وأن الانتصار لآل البيت ولحقهم في الحكم كان موقفاً فارسياً منذ أن دخل الفرس في الاسلام. والحق أن هذه الدعوى غير صحيحة، وأن فحص المادة العلمية الموجودة في المصادر يظهر بوضوح أن ظواهر التشيع الأولى وجدت بين العرب أول ما وجدت، لا سيما اذا قصدنا بـ «مظاهر التشيع الأولى» ما كان يؤمن به البعض من أحقية علي بالخلافة، إذ ظهرت بوادر هذا التيار منذ أن قام عبد الرحمن بن عوف بمشاوراته الأولية بعد أن طعن عمر. وتوضح حين بايع العديد علياً بالخلافة بعد مقتل عثمان. واستمر الحال كذلك بعد مقتل علي، وبيعة ابنه الحسن، وحض الناس ابنه الحسين على القيام بنقضبيعة يزيد والمطالبة بحقه في الخلافة، كما وقف بعضهم الى جانبه في كربلاء هذا فضلاً عن ثورات التوابين والمختار والعديد سواهما زمن خلافة بني أمية. وكان جميع هؤلاء المؤيدين لعلي وأله من سادة العرب، وبيّنهم صحابة وأبناء صحابة وتابعون وخلق كثير سواهم من رجال القبائل. أما الأنصار، فقد وقف العديد منهم الى جانب علي في حياته، وكانوا يشتركون معه في تقديس مبدأ السابقة الى الاسلام الذي يجعلهم أحق بالخلافة من بني أمية مثلاً، الذين تأخر إسلامهم. لا سيما وأن قاعدة السابقة الى الاسلام كانت أحد الأساسيين اللذين قام عليهما التدريب الاجتماعي زمن عمر بن الخطاب حين عرضت قضية الغنائم والعطاء، فاعتمد هذا الخليفة مبدئين في ذلك هما: القرابة من الرسول والسابقة إلى الاسلام، حيث قال قولته المشهورة: لا أسوي في العطاء بين من حارب الاسلام في بدر ومن حارب معه. وكما أن الأنصار وقفوا الى جانب علي في حياته، فإنهم لم ينضموا الى ثورات العلويين أو الشيعة الأوائل، ضد بني أمية، ولعل السبب في ذلك أن الأنصار كسكان حضر لم يتأثروا أو ينفعوا بالأحداث بنفس أسلوب البدو. وهكذا فقد اقتضت حركات الخوارج والشيعة الأوائل على البدو من أصحاب السابقة، لم يشارك فيها سكان مكة والمدينة من الحضر.

١٩. كان بعض بني أمية يعتبرون أنفسهم من الأسرة الهاشمية، لأن بني أمية وبني هاشم يجمعهم جد مشترك هو عبد مناف.

وقد يكون من الجائز أن نفسر نشاطات الشيعة الأوائل، كما كانت الحال بالنسبة للخوارج، بأنها كانت ردود فعل على التحول الذي أصاب حياة البدو حين غدوا طبقة مقاتلة متفوقة، لها مكانة مرموقة في إمبراطورية تتسع مساحتها على الدوام. وقد وجد بعض رجالات هذه الطبقة البدوية التي تعسكرت، في علي بن أبي طالب، الامام والقائد، كما وجدوا فيه الصفات الرفيعة والعلم الديني الغزير، اللذين يؤهلانه لأن يكون القدوة والمرشد.

و يتضح من دراسة قام بها مونتغمري وات (٢٠) لأنساب الرجال الذين ساهموا في الثورات المؤيدة لآل البيت ومثيلاتها المؤيدة للخوارج، أن غالبية مؤيدي الشيعة الأوائل كانوا من رجالات القبائل اليمينية، بينما كان مؤيدو الخوارج من عرب الشمال. وقد حاول وات أن يجد مبرراً لوقوف اليمينية الى جانب آل البيت، وعرب الشمال الى جانب الخوارج، فلم يجد المبرر المقنع، الأمر الذي أضره؛ لتقديم افتراضات لا نظنها مقبولة، وقد يكون أقربها الى القبول ما افترضه من اختلاف في الثقافة الموروثة لكل من عرب الشمال وعرب الجنوب. فعرب الجنوب الذين جاؤوا في الأصل من اليمن، ورثوا ثقافة كان فيها الملك وراثياً والحضارة متواصلة، ولذا قبلوا زعامة آل البيت لأن باني مجد الأمة هو محمد بن عبد الله، وهم أهله ونسله، أما عرب الشمال فكانوا بدأ دونما سابقة في الملك، ولم تساعد علاقتهم بالغساسنة والمناذرة على تاصيل الروح المدنية فيهم، فكانوا أقرب الى فكر الخوارج من أي فكر مطروح آخر (٣١).

أما عن انتشار التشيع بين الفرس فيربطه العديد من الباحثين بثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي التي استقطبت العديد من الموالي وكانت في رأيهم نقطة البدء في تحول الفرس الى نصره آل البيت، وانضوائهم تحت لواء كل ثورة تقف في وجه بني أمية الذين عاملوهم كمواطنين من الدرجة الثانية، على النحو المعروف. وقد سار هؤلاء الباحثون في هذا الزعم على خطى فلها وزن الذي كان أول من أطلق هذا الزعم وشايعه فيه باحثون عرب وغير عرب. وعندنا أن فلها وزن مخطيء في زعمه هذا، لأن العديد من سكان العراق عند الفتح، ولا سيما في جنوبه لم يكونوا فرساً بل آراميين. أما الفرس فكانوا في الغالب من كبار ملاك الأرض والموظفين (الدهاقين). وقد وقف الفلاحون الآراميون الى جانب الفاتحين العرب ضد ملاك الأرض من الفرس (٢٢). كما كان العديد من هؤلاء الفلاحين على النصرانية. وليس يعني هذا أنه لم يكن بين موالي العراق فرس ولكن الذي قصدناه هو عدم المبالغة في الربط بين التشيع، والقومية الفارسية، كما حاول فلها وزن أن يفعل في كتابه «الدولة العربية وسقوطها». كما أننا لم نقصد القول انه لم يكن بين الشيعة الأوائل أو بين من ساند المختار من الموالي عناصر

٢٠. Watt. W., Montgomery, Islamic Political Thought, Edinb., 1968, p.

٢١. المصدر السابق.

٢٢. انظر البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٢-٢٤٣.

فارسية، إذ أن في ذلك مجافاة للحقيقة. فالعنصر الفارسي كان موجوداً في العراق بحكم الصلات الجغرافية والتاريخية مع الجزيرة العربية، وما يستتبع ذلك من علاقات تجارية ونشاط اقتصادي بوجه عام. حتى أن بعضهم يذهب إلى حد القول أن بطوناً من قبيلة عجل العربية تحولت على نحو كامل إلى الفارسية (٣٣). وإذا صح هذا الزعم تتضح لنا حقيقة حار البعض في تفسيرها إلا وهي أنه في نهاية العصر الأموي كان العديد من الرجال والقادة الذين يؤيدون آل البيت من قبيلة عجل. فقد كان المغيرة بن سعيد من عجل على الرغم من أنه كان موالياً لخالد القسري (من بجيلة). كما يقال أيضاً أن أبا منصور (زعيم المنصورية) من قبيلة عجل (و بعضهم يجعله من بني عبد القيس). وكذا أبو مسلم الخراساني، مهندس الثورة على بني أمية ومنفذها لصالح بني العباس، كان مولياً لقبيلة عجل ومن أصل فارسي كما هو متداول ومعروف. والصلة بين عرب الجزيرة والفرس قديمة وتعود للجاهلية، وأثار اللغة الفارسية موجودة في بعض الألفاظ المعربة والواردة في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وسوى ذلك من كلام الناس.

على أن الذي أود أن أؤكد أنه على الرغم من هذه الصلات القديمة مع فارس والفرس وعلى الرغم من الحال المتردية التي كان عليها الموالى زمن بني أمية وشكواهم التي لا تنقطع، فإنه لا يمكن الادعاء أن الموالى الفرس قد أصبحوا في هذه المرحلة من تاريخ الدولة العربية (زمن بني أمية) قوة مؤثرة، وأنهم لن يبلغوا هذه المرحلة بشكل واضح حتى نهاية الدور العباسي الأول.

وبعد ثورة المختار التي قضى عليها الأمويون زمن عبد الملك بن مروان مرت فترة هدأت فيها تحركات «الشيعة الأوائل» وأعمالهم ضد البيت الأموي. وخلال فترة السكون هذه وكذيل من ذيول حركة المختار وارتباطه بمحمد بن الحنفية ظهرت حركات تقع ضمن إطار موالاة آل البيت وأحقيتهم بالخلافة كالكيسانية والكربية والخشبية... الخ، كما ظهرت أفكار تتعلق بغيبة ابن الحنفية في جبل رضوى الذي يبعد مسافة سبعة أيام عن المدينة، وفيه ينابيع الماء والعسل. ويحمي ابن الحنفية أسد ونمر، وأنه سيعود ليملاً الأرض عدلاً بعد أن امتلأت جوراً. وتعتبر هذه الأفكار، البذرة التي انطلقت منها عقيدة الغيبة والرجعة التي تبنتها الشيعة من بعد، وكذا فكرة المهدي وما شابه من أفكار شيعية معروفة (٢٤). واستمر حال الشيعة الأوائل على هذا النحو الساكن لمدة تقارب نصف قرن، ثم ما لبثوا في فترة ضعف الخلافة الأموية التي سبقت سقوطها أن استأنفوا نشاطهم الثوري ضد السلطة، مستغلين النعمة على البيت الأموي من جهة، وضعف هذا البيت وفرقة رجاله من جهة أخرى. فكانت

٢٢. انظر، جولدزيهر في Revue de L'Histoire Des Religions، المجلد ٤٢، ص ٢٢، وانظر أيضاً مجلة S.O.A.S. مجلد ٢٩، ص ٨٠.

٢٤. من أجل تفصيلات أوفى حول هذه الفرق وأرائها ورجالها، انظر، مقالات الإسلاميين للأشعري، وسواه من كتب الفرق.

هناك ثورات عديدة: بعضها صغير وغير فاعل كثورة بيان بن سمعان، تاجر القش الكوفي (٢٥). والمغيرة بن سعد العجلي (٢٦)، وأبو منصور (٢٧) وسواهم، وثورات كبرى كثورة زيد بن علي أخي محمد الباقر، وزعيم طائفة الزيدية، وثورة عبد الله بن معاوية حفيد جعفر بن أبي طالب التي ابتدأت في الكوفة واستمرت ما يزيد على الثلاث سنوات (٢٨)، وانتهت على يد أبي مسلم الخراساني.

ان أهم ما ميز حركات الشيعة الأوائل هو إيمانهم بالحق الشخصي لعلي بن أبي طالب لا بالصفات الخاصة أو الخارقة التي كان يمتلكها والتي تجعله، كما غدا الموقف فيما بعد، متميزاً أصلاً عن سواه من صحابة رسول الله، هذا التميز الذي جاءه، كما رأى المتأخرون، من قربانته للرسول وأبوته لسبطيه. فعملي، في نظر هؤلاء الأوائل، متفوق بفعله وسبقه للإسلام، ودفاعه المستميت عنه، وتقيدته الذي لا يشوبه خلل بمبادئه، ولذا استحق الخلافة واستحق أن يقف الانسان الى جانبه، في حين أن المتأخرين من المتشيعين عولوا على صفات أخرى فيه وبنوا عليها موقفهم من تأييد آل البيت بعامه وحقهم في الخلافة. ولست أريد الدخول في تفصيلات أوسع في هذا المجال، لأنني لا أنوي بحث الفكر والعقيدة الشيعية، ولكنني لن أغفل الأمر الآخر الذي سأنهي به هذه الملاحظات عن التشيع كواحد من مظاهر الحزبية السياسية في العصر الأموي، الا وهو أن العراق، حيث نما الفكر الشيعي وترعرع، كان مهيباً أكثر من سواه لتقبل عقيدة المخلص أو المنقذ التي تبلورت عند الشيعة في الاعتقاد بالمهدي. وأيا كان فان ذلك كله لا يمت بأية صلة الى فترة خلافة بني أمية، التي كان فيها المؤمنون بحق علي وآله في خلافة المسلمين هم الذين حملوا السيف للدفاع عن وجهة النظر هذه.

و يقودنا كل ذلك إلى القول بأنه، إذا كان الخوارج والشيعة أقوى الأحزاب السياسية وأصلبها في العصر الأموي، فان تصلب هاتين الفرقتين وتشدهما كان السبب في فرقة المرجئة التي شهدت بداياتها على يد نفر من الصحابة يزعم أنهم كانوا أول من مال الى اعتزال الفتن، وقال بالارجاء، وأيدوا مواقفهم بأحاديث كثيرة سمعوها من النبي (ص)، و«امتنعوا من الدخول في الصراع السياسي الذي كثر واستطار في آخر عهد عثمان بن عفان ثم انتحوا بأنفسهم عن الفتنة بعد قتله، وفارقوا علياً ومعاوية ولم ينصروا أحدهما» (٢٩).

٢٥. انظر النوبختي، كتاب فرق الشيعة، ط. ريتز، اسطنبول ١٩٣١، ص ٢٥، ٣٠. والبغدادي، الفرق بين الفرق، ط. القاهرة ١٩١٠، ص ٢٢٧-٢٢٨.

٢٦. الأشعري، مقالات الاسلاميين، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط. مصر ١٩٥٠، ص ٦-١٩، والنوبختي، ص ٥٢-٥٥.

٢٧. الأشعري، ص ٩، ١٠، النوبختي، ص ٣٤، البغدادي ص ٢٣٤.

٢٨. انظر، الأشعري، ص ٦، ٢٢، والبغدادي، ص ٢٢٣-٢٢٤-٢٣٥-٢٣٦.

٢٩. حسين عطوان، المرجئة بخراسان في العصر الأموي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٢٨-٢٩، ١٩٨٥، ص ٥٥-٥٦.

ومن بين أوائل رجالات هذه الفتنة : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبي وقاص الزهري، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، وأسامة بن زيد بن حارثة، وعمران بن حصين الخزاعي وسواهم (٣٠). كما كان بينهم من هالهم اقتتال الناس في المدينة إبان فتنة عثمان، فاعتزلوهم، وفضلوا الحياء، وأجلوا أمر الناس إلى يوم القيامة حين يحكم الله على أعمال العباد.

وواضح ان ا.المواقف المتباينة من قضية الخلافة التي أدت الى احتراب الناس وسفك الدماء هي السبب الذي أدى الى قيام حركة الارجاء، لأن هؤلاء الذين وقفوا هذا الموقف اعتقدوا أنهم أعجز من أن يحكموا لفئة دون فئة أو ينحازوا لجانب دون جانب، فأثروا ترك الأمر لله.

و يوضح كل ذلك أن الارجاء، مذهب سياسي في نشأته، ولكنه مالبث القائلون به أن أخذوا يخوضون في أمور تخص العقيدة كالايمان والكفر والجبر والاختيار وسوى ذلك. وقد انتشر فكر المرجئة في العديد من بقاع دولة الاسلام، ورأى فيه البعض منجاة من مهلكة السياسة.

وبعد فهذه أطر عامة لموضوع الحكم والسياسة والحزبية في مولدها ومسيرتها الأولى، وهي أقرب إلى الأفكار منها للدراسة المتخصصة بجانب واحد من جوانب الموضوع.

الخلافة والملك: دراسة في الرؤية الاموية للسلطة

رضوان السيد

ذكر الطبري^(١) في أحداث العام ٣٣هـ عن سيف بن عمر الضبيّ خبر «المسيّرين»، وهم جماعة من شبان الكوفة وكهولها، من «وجوه أهل الأيام، وأهل القادسيّة، وقراء أهل الكوفة، والمتسمّتين»^(٢)، كانوا قد تشاجروا مع والي الكوفة من قبل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان حول ملكية الصوافي (يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الغربي مما يلي الكوفة)^(٣) إذ اتهموا سعيداً وبعض المقرّبين منه بالعمل على أن يستصفوا لأنفسهم الأراضي التي كانت في ملكية التاج الكسروي، ثم صارت لديوان المقاتلة بعد الفتح. فلمّا كثّر اللجاج بين الطرفين، وخشي سعيد بن العاص أن تفلت الأمور من يده، كتب إلى أمير المؤمنين عثمان^(٤) (وفي رواية سيف بن عمر أنّ الذين كتبوا هم أشرف أهل الكوفة وصلحاءهم) فأمر باخراجهم من المدينة، وتسييرهم إلى الشام إلى امارّة معاوية. ويمضي سيف قائلاً إنهم كانوا بضعة عشر رجلاً^(٥)، وأن معاوية أحسن اليهم، ثم وعظهم يوماً

(١) تاريخ الطبري ٢٩٠٧/١-٢٩١٤ (وعنه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١٢٩/٢ وما بعدها، ٢١/٣ وما بعدها، والأشعري: التمهيد والبيان ص ٤٦ وما بعدها). وهناك رواية للشعبي عن المسيّرين في الطبري ٢٩١٥-٢٩٢١، والأغانى ١٤١/١٢-١٤٢ وليس فيها حديث معاوية عن قريش. وفي أنساب الأشراف للبلاذري ٥٢٨/١/٤-٥٣٦، والأغانى ١٤٠/١٢-١٤١ رواية عمر بن شبة عن المدائني عن أبي مخنف. وهناك رواية موجزة عن الموضوع للأموي في طبقات ابن سعد ٢٠/٥-٢١. وانظر تفصيلات أخرى في رسالتي للدكتوراه (بالألمانية): ثورة ابن الأشعث والقراء (فرايبورغ/١٩٧٧) ص ٢٩٣-٢٩٥.

(٢) رواية سيف بن عمر في الطبري ٢٩٠٧/١.

(٣) هذا في رواية سيف في الطبري ٢٩٠٨/١. وفي رواية الشعبي (= الطبري ٢٩١٦/١)، ورواية أبي مخنف (= أنساب الأشراف ٣٩/٥-٤١) أنّ الخلاف كان على السواد كلّ إذ قال سعيد بن العاص لجلسائه، «انما هذا السواد بستان قريش». ويبدو أنّ روايتي الشعبي وأبي مخنف هما الأدق في هذا الموضوع لقول معاوية بعد ذلك في رواية سيف (= الطبري ٢٩١٣/١). «انما همّهم الفتنة وأموال أهل الذمة».

(٤) في رواية السّمي عند الطبري ٢٩١٦/١.

(٥) لا يعدّهم سيف، ويذكر الشعبي أنهم كانوا تسعة (= الطبري ٢٩١٧/١) منهم: مالك الأشتر، وثابت بن قيس، وكميل ابن زياد النخعي، وصعصعة بن صوحان. وفي الأغانى ١٤٢/١٢ من رواية الشعبي إضافة: عمرو بن زرارة، وحرقوق ابن زهير، وشريح بن أوفى، ويزيد بن المكفّف، وزيد بن صوحان، وجندب بن عبدالله.

فقال لهم^(٦): «انكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالاسلام شرفاً، وغلبتم الأمم وحويتهم مراتبهم ومواريتهم^(٧). وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً، وأن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم. ان أئمتكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا^(٨) عن جنتكم. وان أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة..». فلما قاطعه أحدهم حاملاً على قريش غضب معاوية - حسب رواية سيف - وقال موضعاً رؤيته لقريش ودورها في الجاهلية والاسلام: «... ان قريشاً لم تعز في جاهلية ولا اسلام الا بالله عز وجل. لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً وأمحصهم أنساباً وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة. ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً الا بالله الذي لا يستذل من أعز، ولا يوضع من رفع فبؤأهم حرماً آمناً (يتخطف الناس من حولهم)^(٩)، هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً الا قد أصابه الدهر في بلده وحرمة بدولة الا ما كان من قريش، فانه لم يردهم أحد من الناس بكيد الا جعل الله خده الأسفل، حتى أراد الله أن يتنقذ من أكرم وأتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه. ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً، ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك الا عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم افتراه لا يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم؟...». وفي رواية سيف أن معاوية أضاف بغير سبب ظاهر في سياق الرواية -^(١٠): «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معصوماً فولاني، وأدخلني في امره ثم استخلف أبو بكر رضي الله عنه فولاني، ثم استخلف عمر فولاني، ثم استخلف عثمان فولاني، فلم أَلِ لأحد منهم ولاية إلا وهو راضٍ عني...».

إن لإختلاف الروايات في الحادثة أسباباً وتفصيل، وانفراد سيف بن عمر بذكر كلام معاوية عن قريش، وعن نفسه، يجعل من الصعب تصور صدور هذا الكلام عن معاوية بالذات في هذه الفترة قبل أن يقتل عثمان، ويتصدى معاوية للطلب بدمه. لكن هذا

(٦) الطبري ٢٩٠٩/١ - ٢٩١١.

(٧) في احدي نسخ الطبري: وحزمت مواريتهم.

(٨) قرأها محمد ابو الفضل ابراهيم: فلا تشدوا. وهذه القطعة من الحديث في ترجمة صعصعة في تهذيب تاريخ دمشق

٤٢٨،٤٢٦/٦.

(٩) في القرآن الكريم (سورة العنكبوت/٦٧): «اولم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم».

(١٠) الطبري ٢٩١٣/١ في رواية سيف بن عمر. وفي رواية الشعبي في الطبري ٢٩١٩/١ أن صعصعة بن صوحان قال لمعاوية أثناء المحاورة: «أنا نأمرك ان تعتزل علك فإن في المسلمين من هو أحق به منك!». فيبدو أن ما ورد في رواية سيف هورّد من جانب معاوية على قولة صعصعة في رواية الشعبي.

لا يعني أنّ المسائل المتصلة بالسلطة، وحقّ قريش فيها، وضرورتها، ومَنْ من قريش أحقّ بالأمر كلّ ذلك لم يكن موضع اعتبار أو نظر في ثلاثينيات القرن الأول بل قبل ذلك منذ تأسست الخلافة في السقيفة على إثر وفاة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه^(١١). فالصورة التي يعرضها سيف على لسان معاوية للنبوة وقريش والخلافة، وضرورة الامامة، ودور العرب في الحقبة الجديدة، كلّ تلك الأمور، كانت المواضيع الأكثر بحثاً ونقاشاً...

تعرض الكلمة المنسوبة لمعاوية ثلاثة أمور في سياق واحد. الأمر الأول: انفراد قريش بفضائل الأخلاق، وكريم المآثر من بين العرب في الجاهلية، والأمر الثاني: ارادة الله سبحانه اختيار العرب ليورثهم الأرض والسلطة والدعوة، واصطفاه قريشاً لحسن خلالها، ورعايته لها منذ القدم من أجل هذا الدور بالذات، فكان منهم النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي أعزّ الله به قريشاً والعرب أجمعين. والأمر الثالث: ضرورة السلطة في الأمة بعد رسول الله لتحقيق مقتضيات الوراثة في الأرض: متابعةً للدعوة وقيادةً للأمة المصطفاه. ولن يتمّ ذلك، أي لن تستمر الأمة والدعوة أولن تستمر الوراثة العربية الاسلامية ما لم يكن هناك النظام والطاعة.

ولا ينفرد معاوية في الكلمة المنسوبة اليه بمعرفة الفضل لقريش، إذ تتضافر روايات كثيرة أنّ العرب عرفت لهم ذلك مذ جمعهم قصي عند مطلع القرن الخامس الميلادي، ثم إنّ جاههم قوي واستحصد بين العرب بعد وقعة أبرهة عام الفيل، واصطناع الايلاف^(١٢).

ويذكر سفيان الثوري (- ١٦١هـ)، ومالك بن أنس (- ١٧٩هـ) أنّ أبا بكر احتجّ بما يشبه الكلام المنسوب لمعاوية، يوم السقيفة، فقال: ^(١٣): «لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش..» أو قال كما في رواية ابن اسحاق (- ١٥٠هـ): ^(١٤): «إنّ هذا الحيّ من قريش بمنزلةٍ ليس بها غيرهم.. وأنّ العرب لا تجتمع إلاّ على رجل منهم...».

(١١) قارن بكتابي: الأمة والجماعة والسلطة (بيروت/ ١٩٨٤) ص ٦٩ - ٨٧.

(١٢) قارن بسيرة ابن هشام / ١٣٠ وما بعدها، والعسكري: الأوائل / ١٨-٢٢، ومقالة عن حميد الله :- Al-Ilaf, ou les rapports economico-diplomatiques de la Mecque Pre-islamique; in: Mel. L. Massignon II, 1957, pp. 293-311.

(١٣) مسند احمد ٥٦/١.

(١٤) فتح الباري ١٥٢/١٢.

وليس في المصادر التاريخية ما يشير إلى أن أبا بكر أو غيره من الصحابة استخدم آثاراً نبوية للتدليل على أحقية قريش بالأمر^(١٥). لكن سرعان ما انتشرت أحاديث متعددة الروايات والصيغ عن بعض الصحابة مرفوعة للرسول صلوات الله وسلامه عليه تجعل الأمر قصراً على قريش. ويمكن تقسيم هذه الآثار في أربع صيغ. الصيغة الأولى تؤكد ما ورد على لساني أبي بكر ومعوية فيما أوردناه سابقاً إذ تقول^(١٦): «... إنَّ الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم..» والصيغة الثانية تقرّر ما يشبه أن يكون واقعاً فتذكر أن «الأئمة من قريش» تارة^(١٧) وتجعل لذلك شروطاً طوراً فتتابع^(١٨): «ما داموا إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا قسموا أقسطوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين!» والصيغة الثالثة تجعل السلطة في قريش حتى تفنى قريش^(١٩): «لن يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان». والصيغة الرابعة تدخل المجال الأيديولوجي أكثر محاولةً للدفاع عن بني أمية فتذكر أنه^(٢٠): لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيفاً لا يضره من ناواه حتى تقوم الساعة إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش».

إنّ رواية هذه الآثار في دواوين الحديث هم جماعة من الصحابة من بينهم أبو موسى الأشعري (حوالي ٥٠هـ)، وأبو هريرة (٥٧هـ)، وابن عمر (٧٢هـ)، وجابر بن سمرة (٧٤هـ). لكن عمرو بن العاص (٤٣هـ) أسهم في نشر فضل قريش وحققها في السلطة رغم التاريخ المبكر لموته، فعن عبدالله بن أبي الهذيل قال^(٢١): كان ناس من ربيعة عند عمرو بن العاص فقال رجل من بكر بن وائل: لتنتهين قريش أو ليجعلن الله هذا الأمر

(١٥) قارن برضوان السيد، مرجع سابق، ص ٧١ .. ٧٤.

(١٦) عن أبي هريرة في المعرفة والتاريخ للفسوي ١/ ٢٨٤، ومسند أبي عوانة ٤/ ٢٩٢. وعن جابر بن عبدالله في مسند أبي عوانة ٤/ ٣٩٢ ولفظه: الناس تبع لقريش في الخير والشر. وقارن بصحيح مسلم ٦/ ٢ حيث ترد روايات للحديث بالصيغتين.

(١٧) مسند احمد ٤/ ٤٢١ عن أبي برزة الاسلمي.

(١٨) مسند احمد ٤/ ٣٩٦ عن أبي موسى الأشعري، ومسند احمد ٤/ ٤٢١، ٤٢٤ عن أبي برزة الأسلمي.

(١٩) مسند أبي عوانة ٤/ ٣٩٢ بطريقتين عن ابن عمر. وقارن بروايات أخرى للحديث عن ابن عمر وأبي هريرة في صحيح البخاري (ط. Krehl ٤/ ٢٨٥، وصحيح مسلم ٦/ ١٢، ومسند احمد (نشرة احمد شاكر) ٨/ ٣٠، ٢٨٢، ٤٢/ ١٥ - ٤٤.

(٢٠) عن جابر بن سمرة من خمس وعشرين طريقاً في مسند أبي عوانة ٤/ ٣٩٤ - ٤٠١، وصحيح مسلم ٦/ ٣ - ٤، والفتن والملاحم لنعيم بن حماد، ق ١٢١، وسنن الترمذي ٢/ ٣٥.

(٢١) الحديث في سنن الترمذي ٢/ ٣٦. وقال: وفي الباب عن ابن مسعود وابن عمر وجابر، وهذا حديث حسن غريب صحيح.

في جمهور من العرب غيرهم! فقال عمرو بن العاص: كذبت! سمعت رسول الله ﷺ يقول: قريش ولاة الناس في الخير والشر إلى يوم القيامة. وتذكر دواوين الحديث آثاراً رواها معاوية نفسه عن النبي ﷺ في ملك قريش. ففي صحيح البخاري^(٢٢)، ومسنند أحمد^(٢٣) عن محمد بن جبير بن مطعم (حوالي ٩٠هـ) أنه كان عند معاوية في وفد من قريش عندما بلغ معاوية أن عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث أنه سيكون ملك في قحطان أو ملك من قحطان، فغضب معاوية فقام فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنه بلغني أن رجالاً منكم يحدثون أحاديث ليس في كتاب الله، ولا تؤتت عن رسول الله ﷺ، أولئك جهالكم فياكم والأمانى التي تضلل أهلها، فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين». وفي أثر آخر عن رسول الله ﷺ رواه معاوية، جاء^(٢٤): «الناس تبع لقريش في هذا الأمر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا...».

فاذا تابعنا البحث عن صورة معاوية أو أوائل الأمويين عن الخلافة أو الامامة ودورها في الأمة يقابلنا أثر آخر تذكره دواوين الحديث عن معاوية مرفوعاً إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وفيه^(٢٥): «من مات بغير امام مات ميتة جاهلية». وهذه الفكرة فكرة ضرورة الامامة أو السلطة لاستمرار الأمة واستمرار الإسلام ليست غريبة عن بيئات الإسلام الأول أيضاً. فما تردّد المهاجرون والأنصار لحظة في انتخاب امام أو خليفة بعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه^(٢٦). وهناك الكلمة المنسوبة لعمر بن الخطاب^(٢٧): «يا معشر العرب! الأرض الأرض! انه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة...» ثم هناك الكلمة المشهورة عن عليّ رداً على الخوارج الذين

(٢٢) صحيح البخارى ٤/٣٨٤ - ٣٨٥.

(٢٣) مسند احمد ٤/٩٤. وقارن بطبقات ابن سعد ٢/١٢. وفي تاريخ ابي زرعة الدمشقي ١/٤١٥، ٤١٨ ان الوافدين على معاوية كانوا: ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، والمسور بن مخرمة، ومحمد بن جبير بن مطعم.

(٢٤) مسند احمد ٤/١٠١. والحديث مفيد لمعاوية في الرفع من شان عراقة الجاهلية في مواجهة سابقة الاسلام. وفي اثر عن سعد بن ابي وقاص مرفوعاً: من يرد هوان قريش اهانته الله (= المعرفة والتاريخ ١/٤٠١).

(٢٥) مسند احمد ٤/٩٦. وفي تاريخ الطبري ١/٢٩٣٥ ان الصحابي عبدالله بن عمر الاشجعي وقف في مسجد الكوفة عام ٣٤هـ عندما ثار الناس على عثمان وكانت الفتنة، فقال: ايها الناس! اسكتوا! فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من خرج وعلى الناس امام سواه ما قال: عادل - ليشق عصاهم، ويفرق جماعتهم، فاقتلوه كائناً من كان.

(٢٦) رضوان السيد، مرجع سابق، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢٧) سنن الدارمي ١/٧٩.

قالوا انه لا حكم الا لله، إذ أجابهم علي^(٢٨): «... انه لا حكم الا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة! وإنه لا بد للناس من أميرٍ أو فاجر، يعمل في امرته المؤمن، ويستمتع بها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقا تل به العدر وتؤمن به السبل، ويؤخذ فيه للقوي من الضعيف، حتى يستريح برّ ويستراح به من فاجر». وأخيراً هناك الأبيات الشعرية التي قالها الصحابي حنظلة الكاتب عند اضطراب الأمور على عثمان^(٢٩):

عجبت لما يخوضُ الناسُ فيه يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخيرُ عنهم ولاقوا بعدها شراً وبيلا
وكانوا كاليهود والنصارى سواء - كلهم ضلوا السبيلا

إن الحديث السالف الذكر عن معاوية يجعل انعدام الامامة أو البيعة حالة جاهلية، بينما يجعل حنظلة الكاتب ذلك ضلالاً كضلال اليهود والنصارى. وهاتان الحالتان المخوفتان: الجاهلية والضلال، تقتربان بنا من المفردين الأساسيين اللذين استخدمهما الأمويون في الدفاع عن سلطتهم، أعني مفردَي الجماعة والسنة في مواجهة الفتنة والبدعة. وسنعود لذلك فيما بعد.

لقد واجه معاوية تحديات ضخمة من الناحيتين الأيديولوجية والسياسية لا تقارن بها خطورة ومصيرية التحديات التي واجهت عبد الملك بن مروان ومن بعده. ولم يكن ذلك لأنه مؤسس فقط، بل لأن السلطة الاسلامية السابقة عليه، سلطة الراشدين الأربعة، أو الثلاثة في نظره، تأسست على السابقة والقدم: الاسلام المبكر، وحضور معارك الجهاد الأولى فيما بين بدر والحديبية^(٣٠). ومن أجل تجاوز هذه العقبة التي دُكر بها دائماً سلك معاوية عدة سبل. فبعد ثبوت ضرورة الامامة، وضرورتها في قریش، هناك سابقة من نوع ما له فقد تقبل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إسلامه المتأخر بقبول حسن وجعله

(٢٨) كلمة الامام علي مع اختلافات طفيفة في: مصنف عبد الرزاق ١/١٥٠، والكامل للمبرد ٢/٢٠٦، وشرح نهج البلاغة ٣٠٧/٢.

(٢٩) تهذيب الكمال للمزي م١/٣٤٣.

(٣٠) قارن: G. Rotter: Umayyaden 8-11; T. Nagel Staat 81-83. وفي الطبري ١/٢٠٦٦ - ٢٠٦٩ أن الصحابة اتوا علياً عند مقتل عثمان فقالوا له: إن هذا الرجل قتل ولا بد للناس من امام، ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الامر منك، لا اقدم سابقة، ولا اقرب من رسول الله ﷺ

بين كتابه، ومَتَّ إليه بقرابة إذ كان متزوجاً أخته أم حبيبة^(٣١). ثم ولي لأبي بكر وعمر وعثمان فما غشَّ ولا استأثر^(٣٢)، وكانوا جميعاً منذ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وحتى عثمان راضين عنه. لهذا فانه عندما قام للطلب بدم عثمان، لم يقم بذلك لأنه قريبه فقط وولي دمه^(٣٣): (ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لولِيه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً)، بل لأنه صمَّم على الدفاع عن النظام الراشدي الذي أسهم هو في انجازه، والذي جعل منه بدوره شريفاً من أشراف الاسلام، كما كان أبوه وجدّه بين أشراف الجاهلية^(٣٤). إنَّ السبق في الاسلام أعطى السابقين من المهاجرين والأنصار ميزات كثيرة، تقتضي المحافظة عليها الحفاظ على الاسلام، وعلى النظام الراشدي الذي تحققت لهم في ظلّه تلك المكاسب. لكنَّ سلوك كبار أصحاب السابقة في الاضطرابات على عثمان أظهر تخليهم عن هذا النظام بل وأظهر سعي كثير منهم وبخاصة كبار الصحابة، وجمهور الأنصار، لإسقاطه. لهذا فقدوا حقوقهم أو مكاسبهم التي أعطاهم اياها ذلك النظام الذي أسسوه ثم اتتمروا به. لقد أُنذره معاوية في الكلمة المنسوبة اليه والسالفة الذكر بأنَّ الأئمة جُنَّةٌ لهم فعليهم ألا ينزعوا الجُنَّة. وتذكر المصادر كلمة لمعاوية قالها لعليّ وطلحة والزبير إبان تأزم الأمور على عثمان، جاء فيها^(٣٥): «أيها المهاجرون! قد علمتم أنه

(٣١) في ابن سعد ٤٠٦/٧، وتاريخ دمشق الكبير ١٦/١٦ ق ١٣٢٩، وسير اعلام النبلاء ١٢٢/٣ عن ابن سعد عن الواقدي عن أبي بكر بن أبي سبرة عن عمر بن عبدالله العنسي، قال معاوية: لما كان عام الحديبية وصدّوا رسول الله ﷺ عن البيت وكتبوا بينهم القضية، وقع الاسلام في قلبي، فذكرت لامي فقالت: اياك ان تخالف اباك! فأخفيت اسلامي، فوالله لقد رحل رسول الله ﷺ من الحديبية وإني مصدّق به. ودخل مكة عام عمرة القضية وأنا مسلم. وعلم ابوسفيان باسلامي فقال لي يوماً: لكن اخوك خير منك وهو على ديني! فقلت: لم آل نفسي خيراً. وأظهرت اسلامي يوم الفتح فرحب بي النبي ﷺ، وكتبته له. وقارن عن ام حبيبة وزواج النبي ﷺ وسلّم بها: مختصر تاريخ دمشق ٦/٣٩٩. وانظر عن معاوية قبل الفتح وامكان اسلامه: نسب قريش ص ١٢٤.

(٣٢) انساب الاشراف ٨٧/١/٤. وربما كان عرض حديث «الشيخة» من اهل الشام الذي يقول: «من أمر بمعروف ونهى عن منكر فهو خليفة الله في الارض وخليفة كتابه، وخليفة رسول الله ﷺ» (=الفتن لعنيم بن حمّاد، ق ١٢٣) الغاء فضل السابقة والسابقين لصالح معاوية. وقارن بحديث رواه هنا بهذا المعنى في الملاحظة رقم ٢٤.

(٣٣) سورة الاسراء ٢٣/٢٣. وانظر عن طلب معاوية بدم عثمان: الطبري ١/٣٠٨٩ - ٣٠٩٠، ٣٣٥٥ - ٢٣٥٦. وفي كتاب صفين ليحيى بن سليمان الجعفي (-٢٣٢٧هـ) ان ابا مسلم الخولاني جاء الى معاوية فقال له: انت تنازع علياً ام انت مثله؟! فقال: لا والله اني لاعلم انه افضل مني واحقّ بالامر مني، ولكن الست تعلمون ان عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمّه، والطلب بدمه؟! فانتوه فقولوا له فليدفع اليّ قتلة عثمان وأسلّم له. فأتوا علياً فكلموه فلم يدفعهم اليه (قارن بسير اعلام النبلاء ٣/١٤٠، والبداية والنهاية ٨/١٢٩).

(٣٤) كان معاوية شديد الاعتزاز بشرفه في قريش، ففي انساب الاشراف ٤/١/٤٢ أنه قال: «قد علمت قريش اني أشدها ثبات قدم في بَعْطُ البطحاء».

(٣٥) الكلمة بروايتين عن رجاء بن حيوة وموسى بن طلحة في تاريخ الطبري ١/٢٩٤٧ - ٢٩٤٨. ورواية موسى بن طلحة بطريق عمر بن شبة في الاوائل للعسكري ١/٢٦١ - ٢٦٢. وعن الاوائل في شرح نهج البلاغة ١/٣٢٩.

ليس منكم رجل إلا وقد كان قبل الإسلام مغوراً في قومه تُقَطَّعُ الأمور من دونه، حتى بعث الله رسوله فسبقتم إليه، وأبطأ عنه أهل الشرف والرياسة فسُدَّتْكم بالسَّبْقِ لا بغيره... وسيدوم لكم هذا الأمر ما استقمتم! فإن تركتم شيخنا هذا يموت على فراشه والا خرج منكم، ولا ينفعكم سبقكم وهجرتكم...».

ويبدو أن معاوية استخدم هذه الحجّة أيضاً في الردّ على المطالبين بالشورى أو بترك الأمر شورى عندما أراد البيعة لابنه يزيد، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي واجه فيها تحدياً حقيقياً لسلطته طوال أيام خلافته. فقد طالب أثناء التحكيم عام ٣٨هـ عن طريق ممثله عمرو بن العاص بأمرين اثنين: تسليمه قتله عثمان، وجعل الأمر شورى^(٣٦). وكلا الأمرين موجّه ضد الامام عليّ فقتله عثمان في جيشه وبين ولاته ولن يسلمهم للقتل. وجعل الأمر شورى معناه الاعتراف بأنّ خلافته حتى ذلك الحين غير شرعية. فلما قتل الامام عليّ عام ٤٠هـ، بويع لمعاوية بالشام ومصر والحجاز، بخلافة أو امارة المؤمنين، ثم بايعه العراقيون بعد تنازل الحسن بن عليّ عن السلطة. ولم يطالبه أحد حينذاك بالشورى فيما عدا قلة قليلة من الخوارج كانوا حينها ضدّ السلطة القرشية بل ضدّ السلطة بشكل عام. ثم عادت المطالبة بالشورى بعد وفاة الامام الحسن عام ٤٩ أو ٥٠هـ^(٣٧)، وتفكير معاوية بالبيعة لابنه. عندها عاد معاوية لتذكير متهميه بالهرقلية والكسروية^(٣٨) بأنهم هم الذين قضوا على نظام الشورى بالسكوت على قتل عثمان، أو بالمشاركة فيه، ولذلك فقدوا حقهم في الشورى، وورث الأمويون السلطة عن عثمان^(٣٩) لأنهم أولياء دم الامام المظلوم:

(٣٦) تاريخ الطبري ١/٢٣٥٥ - ٢٥٥٦.

(٣٧) في فتح الباري ١٢/٥٦، وسير اعلام النبلاء ٣/١٤٥ عن تاريخ ابن ابي خيثمة، قال ابن شوذب: سار الحسن يطلب الشام، واقبل معاوية في أهل الشام، فالتقوا. ففكر الحسن القتال، وبايع معاوية على أن جعل له العهد بالخلافة من بعده. فكان اصحاب الحسن يقولون له: يا عار المؤمنين! فيقول: العار خير من النار!.

(٣٨) في صحيح البخارى (باب التفسير) رقم ٤٥٠٩، والأوائل للعسكري ١/٢٤٢ - ٢٤٣ (وعنهما في نهاية الأرب ٢٠/٢٥٢) أن الذي دعا الى يزيد بن معاوية على المنبر بالمدينة كان مروان بن الحكم، وكان والي معاوية عليها، فقال: إنّ امر المؤمنين قد كبرت سنّه وِدَقَ عظمه، وخاف أن يأتيه أمر الله فيدع الناس حيارى كالغنم لا راعي لها فأحبّ أن يعلم علماً، ويُقيم إماماً بعده... وفي مسند ابن ابي شيبة ١١/٩٧ (= تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٨) أن مروان قال بالمدينة: سنّه ابي بكر الراشدة المهديّة! فقال عبدالرحمن بن ابي بكر: ليس بسنة ابي بكر وقد ترك ابو بكر الأهل والعشيرة والأصيل، وعمد إلى رجل من بني عدي بن كعب إذ رأى أنه أهل لذلك فبايعه! إنها سنّه الروم كلما مات هرقل قام هرقل! فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه: «والذي قال لوالديه أف لكما اتعداني» (= القرآن الكريم سورة الاحقاف ١٧). والاتهام بالكسروية جاء في بيت شعر منسوب لابن همام السلولي (= انساب الاشراف ٤/١٦٤، وروج الذهب ٥/٧١، وتاريخ الاسلام ٣/٨٦): اذا ما مات كسرى قام كسرى نعد ثلاثة متناسقينا.

(٣٩) تاريخ الطبري ١/٢٣٥٥، والموفقيات ص ٥١١، وتاريخ اليعقوبي ٢/٢٦٦.

عِشُوا وَأَنْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ وَاسْتَصَلِحُوا جَنْدَ أَهْلِ الشَّامِ لِلْبَهْمِ
وَلَا عَنْ سَأَلِكِ الشُّورَى مَشَاوِرَةً إِلَّا بَطْعَنَ وَضْرِبَ صَائِبِ خَدَمِ
الَنْ تَكُونُ لَهُمْ شُورَى وَقَدْ قَتَلُوا عَثْمَانَ ضَحَّوْا بِهِ فِي أَشْهُرِ الْحُرْمِ

يقول الطبري في آخر أحداث العام ٤٠هـ^(٤١): «وفي هذه السنة بويع معاوية بالخلافة بإيلياء، حدّثني بذلك موسى بن عبد الرحمن، حدّثنا عثمان بن عبد الرحمن، قال أخبرنا اسماعيل بن راشد، وكان قبل يُدعى بالشام أميراً». فهل تعمّد ذلك إظهاراً لانتقال مقرّ السلطة من الحجاز إلى الشام، من بقعة مقدسة إلى بقعة مقدّسة أخرى! أم أن ذلك كان لأنه لم يرد آنذاك الذهاب للحجاز لاعتزاه المضي للعراق لقبول تنازل الحسن بن علي، وتقبّل بيعة العراقيين؟! أيا كان الأمر فإن المصادر تحفل بالإشارات إلى الشام باعتبارها الأرض المباركة، والأرض المقدسة المذكورة في القرآن^(٤٢). بل أن هناك آثاراً عن الرسول ﷺ أن الوحي أنزل عليه في ثلاثة أمكنة فقط^(٤٣): مكة والمدينة والشام: «فاذا خرجت من احدهنّ لم ترجع إلى يوم القيامة». وقد خرجت من مكة إلى المدينة أيام الرسول ﷺ، وخرجت من المدينة إلى الشام أيام معاوية، فلن تعود إلى المدينة، كما أنها لم تعد من قبل إلى مكة. إن الخلافة كانت بالمدينة، أمّا ملك هذه الأمة - كما جاء في أثر آخر - فسيستمرّ بالشام^(٤٤). ويروي المدائني عن عوانة أن معاوية اكتشف للشام فضائل أخرى هي بين أسباب بركتها وقد استهتأ وخصوصيتها، إذ قال لخصمه القديم صعصعة

(٤٠) الشعر لعبد الله بن همام السلولي في نسب قريش ص ١٢٢، وطبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٢٠ - ٦٢١. وقارن بديوان الفرزدق ١/ ١٠٨، ٢١٩ حيث يحتج للأمويين بالحجة نفسها.

(٤١) تاريخ الطبري ٢/ ٥. وفي سير أعلام النبلاء ٢/ ١٤٠ عن يونس عن ابن شهاب قال، لما بلغ معاوية هزيمة يوم الجمل وظهور عليّ، دعا أهل الشام للقتال معه على الشورى، والطلب بدم عثمان - فبابعوه على ذلك أميراً غير خليفة.

(٤٢) في سورة الاسراء ١/ : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله...» وفي سورة الاعراف/ ١٢٧: «وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها...» وفي سورة المائدة/ ٢١: يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم...».

(٤٣) كتاب الفتن والملامح لنعيم بن حماد، ق ٢٧ب. وفي رواية عن يونس بن ميسرة بن حليس (وهو محدّث أمويّ الهوي) في الفتن والملامح، ق ٢٧ أب: «هذا الأمر كائن بالمدينة (الراشدون)، ثم بالشام (معاوية والروائيون)، ثم الجزيرة (مروان بن محمد)، ثم بالعراق (العباسيون)، ثم ببيت المقدس.

(٤٤) المصدر السابق، ق ٢٣ أ. لكنّ الرواة احتاطوا للأمر (!) ففي رواية لحمزة عن ابن شوذب عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال: ليس من الخلفاء من لم يملك المسجدين، المسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس. فيُخرج هذا الرأي عبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم من جملة الخلفاء:.. قارن بالفتن والملامح، ق ٢٣ب.

ابن صوحان عندما وفد عليه^(٤٥) «... قَدِمْتُ اَرْضَ المحشر والمنشر...». ثم إِنَّ اَرْضَ الشام هي مناط تطبيق الوراثة الالهية أو خلافة الله بمقتضى ما ورد في القرآن في قوله تعالى^(٤٦): «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم. وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم. وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً...»؛ إذ معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى: «أورث المسلمين أرض المشركين من العرب والعجم فجعلهم ملوكها وساستها كما فعل من قبلهم ذلك ببني اسرائيل إذ أهلك الجبابرة بالشام، وجعلهم ملوكها وسكانها...»^(٤٧). ومن هنا يكون مفهوماً ما يرويه معاوية عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه^(٤٨): «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله عز وجل وهم على ذلك...». قال عمير بن هانيء، فقام مالك بن يخامر السكسكي فقال سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم بالشام! فقال معاوية: هذا مالك بن يخامر - وبه القسمة يزعم أنه سمع معاذاً يقول: وهم بالشام! وإذا كان أهل الشام مخصوصين بنزول الأرض المقدسة، وانفاذ مهمة الوراثة الإلهية، والبقاء على الإسلام والمرابطة والجهاد بعد خراب الأمصار^(٤٩)، فلا شك في نظر معاوية في الأثر الآخر الذي يرويه عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والذي يقول إن أهل الكتابين افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة، والجماعة بالشام^(٥٠).

وتدعم هذا البنيان الأيديولوجي كله أو تجعله بدون فائدة، حسب الوجهة التي ينظر فيها الدارس إلى الأمر، مسألة المشيئة الالهية بل الارادة الالهية. ففي دواوين الحديث أن معاوية كان يكرّر في كلامه وخطبه على المنابر بالشام والمدينة أثرا يرفعه إلى رسول الله ﷺ في صيغة دعاء نصّه^(٥١): «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا

(٤٥) انساب الاشراف ٢٢/١/٤، ولباب الاداب ص ٣٥٠، وتهذيب تاريخ دمشق ٤٢٧/٦. ولصعصعة قصص كثير مع معاوية، قارن: بانساب الاشراف ١٠٢/١/٤ - ١٠٣، وتاريخ الاسلام ٢٢٩/٢، وتهذيب تاريخ دمشق ٤٢٥/٦، ومروج الذهب ١٠٤/٥ - ١٠٥.

(٤٦) سورة النور/٥٥.

(٤٧) تفسير الطبري ١٥٨/١٨ - ١٦٠.

(٤٨) تاريخ دمشق الكبير ٥/١.

(٤٩) رضوان السيد: الجهاد والجماعة - دراسة في دور علماء الشام في تكون مذهب أهل السنة، بمجلة دراسات م ١٢/ع ١/١٩٨٥ ص ١٢ - ١٥.

(٥٠) مسند احمد ١٠٢/٤.

(٥١) مسند احمد ١٠١/٤، ٩٢ - ٩٣. وقارن بتاريخ الطبري ٢١٢/٢.

ينفع ذا الجدّ منك الجد...». وكذا كان يفعل عامله على الكوفة المغيرة بن شعبه الثقفي (٥٠هـ-٥٣). وقد كان معاوية شديد الاقتناع بأنّ الارادة الالهية أو القدر وراء وصوله للسلطة، ففي روايةٍ عنه^(٥٣): «ما تفرقت أمة قطّ إلا أظهر الله أهل الباطل على أهل الحقّ إلا هذه الأمة». فهو ملك أتاه الله إياه كما ورد في كلمة أخرى له^(٥٤). ويبدو أنّ هذا التصرُّو لم يكن غريباً لدى المعاصرين لمعاوية إذ نجده في أثر يرويه عبد الرحمن بن أبي بكرة (وأبو بكرة أخو زياد بن أبيه لأمة) عن أبي بكرة عن رسول الله ﷺ^(٥٥): «...خلافه نبوة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء». وفي رواية أخرى ضد معاوية وللأمويين يقول الأسود تلميذ ابن مسعود لأمّ المؤمنين عائشة^(٥٦): أنّ رجلاً من الطلقاء يبايع له - يعني معاوية! فتقول عائشة: يا بني لا تعجب! هو مُلكُ الله يؤتيه من يشاء.

★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

يقول هشام بن عمّار (٢٤٥هـ-٥٧): نظرت في أحاديث معاوية عنكم فوجدت أكثرها مصنوعاً. ومن قرأ ترجمة معاوية في تاريخ دمشق الكبير^(٥٨)، أو الآثار الواردة لنصرة معاوية أو ادانته في أنساب الأشراف للبلاذري^(٥٩)، أو تاريخ الطبري^(٦٠)، أو كتاب الفتن والملاحم لنعيم بن حماد^(٦١)، أو سير أعلام النبلاء للذهبي^(٦٢)، أو الفوائد المجموعة للشوكاني^(٦٣)، تحقّق صدق قوله هشام بن عمّار. ففي رواية عند ابن أبي شيبة يقول

(٥٢) صحيح البخاري ٢/٣٢٥. وسنن أبي داود ٢/١٧٢، والنسائي ٣/٥٩ وانظر:

J. Van Ess: Zwischen Hadit und Theologie 81-84.

(٥٣) المصنف لابن أبي شيبة ١١/٩٢. وعنه تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٨.

(٥٤) تاريخ الطبري ٢/٢١٢.

(٥٥) سنن أبي داود ٢/٢٦٣.

(٥٦) مصنف ابن أبي شيبة ١١/٩٠ - ٩١، وحلية الأولياء ٤/٢٩٠، والبداية والنهاية ٨/١٢١، وسير أعلام النبلاء ٣/١٤٣. وفي الفتن لنعيم بن حماد، ق ٣٢ ب كلمة لابن مسعود في استحالة مقاومة «ملك مؤجّل». وفي مصنف ابن أبي شيبة ١١/١٣٣ (= كنز العمال ٦/٦٤) كلمة مماثلة لمحمد بن الحنفية في اعتزال الفتن، واستحالة إزالة (مُلك المروانيين) المؤجّل.

(٥٧) أنساب الأشراف ٤/١/٧٤.

(٥٨) تاريخ دمشق الكبير ١١/١٣٣٤ وما بعدها. وقد عجب ابن كثير في البداية والنهاية ٨/١٢٠ من إيراد ابن عساکر لأحاديث كثيرة موضوعة في ترجمته لمعاوية.

(٥٩) أنساب الأشراف ٤/١/١٢٦ - ١٢٩.

(٦٠) تاريخ الطبري ٢/٢٠٥ - ٢١٧.

(٦١) كتاب الفتن والملاحم، ق ٢٨ ب - ٣٢ ب.

(٦٢) سير أعلام النبلاء ٢/١٢٨ - ١٣١. وقارن بالبداية والنهاية لابن كثير ٨/١١٩ - ١٢٣.

(٦٣) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ص ٤٠٢ - ٤٠٧.

معاوية^(١٤): أنا أول الملوك. وفي زهر الآداب يقول معاوية^(٦٥): نحن الزمان من رفعناه ارتفع ومن وضعناه أتضع. وفي رواية للمدائني عن عبدالله بن سلم الفهري، قال، قال معاوية يوماً^(٦٦): لقد أكرم الله الخلفاء أفضل الكرامة، أنقذهم من النار، وأوجب لهم الجنة، وجعل أنصارهم أهل الشام. وعند ابن أبي شيبة أيضاً أن معاوية صَلَّى الجمعة بالنخيلة مقدمه إلى الكوفة من أجل أن يبايع له الناس ثم خطبهم فقال^(٦٧): ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، وقد أعرف أنكم تفعلون ذلك! إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون!.

لكن هناك روايات أخرى يبدو فيها الرجل متواضعاً، كثير الاهتمام بأمر الناس ورأيهم فيه وفي سياسته. ففي رواية عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عن معاوية يقول^(٦٨): ما قاتلتُ علياً إلا في أمر عثمان، وفي رواية أخرى عنه يقول^(٦٩): «إنَّ عمر ولأني ما ولأني من الشام ثم عثمان بعده، فما غششتُ ولا استأثرتُ. ثم ولأني الله الأمر فأحسنْتُ وأسأتُ...». ويقول قبل وفاته بقليل^(٧٠): إني كَزَرع مستحصد. وقد طالبت إمرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني.. ولن يأتيكم بعدي إلا مَنْ أنا خير منه كما أن من كان قبلي كان خيراً مني...». ويقول^(٧١): «اني رمت سيرة أبي بكر وعمر فلم أُطِقها، فسلكْتُ طريقَةً لكم فيها حظٌّ ونفعٌ على بعض الأثرة... ولسْتُ بباسطِ يدي إلا إلى مَنْ بسط يده. فأما القول يشنقي به ذو غمٍّ فهو دبر أذني وتحت قدمي حتى يروم العوجاء». وعندما زاره وفد من كهول قريش بينهم المسور بن مخرمة، وكان يبلغه عنه كلام فيه قال

(٦٤) المصنف ١١/١٤٧. وفي سير أعلام النبلاء ٣/١٥٧ عن الزبير بن بكار، وقارن بنهاية الأرب ٢٠/٣٧٢. وفي أنساب الأشراف ٤/١/٢٤، وشرح النهج ١/٢٠١، وتهذيب تاريخ دمشق ٦/١٠٦ أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية فحيّاه قائلاً: السلام عليك أيها الملك!

(٦٥) زهر الآداب للحصري ١/٢٢٢.

(٦٦) أنساب الأشراف ٤/١١٧. وقارن بمروج الذهب ٥/٩٩.

(٦٧) المصنّف ١١/٩٣.

(٦٨) المصنّف ١١/٩٣. وقارن بالملاحظة رقم ٣٣.

(٦٩) أنساب الأشراف ٤/١١٧. وقارن بمطلع الدراسة عن حديثه مع المسيّرين.

(٧٠) أنساب الأشراف ٤/١/٤٥، وتهذيب تاريخ دمشق ٧/٢١٢، وتاريخ الإسلام ٢/٣٢٣.

(٧١) في تاريخ دمشق الكبير^{١١} ق/٣١٦ الرواية عن الشعبي وفيها أنه خطب بذلك أول مقدمة الى المدينة دعام الجماعة، (= البداية والنهاية ٨/١٣٢). وانظر: سير أعلام النبلاء ٣/١٤٨ - ١٤٩. وقارن بأنساب الأشراف ٤/١/٤٩، والعقد الفريد ٤/٨١ - ٨٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢/٣٢٠ - ٣٢١. وفي أنساب الأشراف ٤/١/٢٠ عن معاوية: «... اني لا احول بين الناس وبين السننهم ان لم يحولوا بيننا وبين ملكنا».

له^(٧٢): ما فعل طعنك علي؟ فماذا نقمت فيه علي؟ هل تعلم أنني أقاتل عدو المسلمين وأجبي فيئهم. وأعنى بأمورهم، وأصل وأقدم، فقال: اللهم نعم! قال: فنشدتك الله أتذنب؟ قال: نعم! قال: فما جعلك أحق برجاء المغفرة مني؟!^(٧٣).

يقول القاضي عبد الجبار بن أحمد في كتابه المغني في أبواب التوحيد والعدل^(٧٤): ذكر شيخنا أبو علي رحمه الله أن أول من قال بالجبر وأظهره معاوية. وأنه أظهر أن ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه، ويوهم أنه مصيب فيه، وأن الله جعله إماماً وولاه الأمر. وفشا ذلك في ملوك بني أمية...» ويحدثنا ابن أبي الحديد، وهو معتزلي شيعي، في شرح نهج البلاغة^(٧٥) عن كفر معاوية عند المعتزلة والشيعة لجبريته وارجائه، وارتكابه الكبائر، والكبائر مخرجة من الايمان عند المعتزلة كما هو معروف، بيد أن أكثر الهجمات على معاوية شراسةً ومن جانب رجل معاصر له، هجمة الحسن البصري (٢٢ - ١١٠هـ). إذ تنسب المصادر للحسن عبارة طويلة عدّد فيها ما ارتكبه معاوية بحق الأمة في نظر الحسن. تقول الكلمة^(٧٦): «أربع خصال كنّ في معاوية لولم تكن فيه إلا واحدةً منهنّ لكانت مريقة: انتزأؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر عن غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة. واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير. وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله ﷺ: الولد للفراش وللعاهر الحجر، وقتله حُجراً وأصحابه فياً ويلاً له من حُجْرٍ وأصحاب حجر!!».

والحق أن أبلغ هذه التهم الاستماتة في استخلاف يزيد^(٧٧). وفيما عدا ذلك فإن المؤرّخين التمسوا له تأويلاتٍ مختلفةً، وبخاصة فيما يتصل بولايته الأمر بعد مقتل

(٧٢) حديث معاوية مع المسور بروايات مختلفة في المصنف لعبد الرزاق ١١/٣٤٤ - ٣٤٥، وأنساب الأشراف ٤/٣٦/١، ٤٦، والاستيعاب ٣/٤٠٢، وسير اعلام النبلاء ٣/١٥١.

(٧٣) في تاريخ دمشق الكبير م^{١١}/٣٦٢، وسير اعلام النبلاء ٣/١٥٠ أن معاوية قال: «اني لست بخيركم، وأن فيكم من هو خير مني: ابن عمر وعبد الله بن عمرو وغيرهما! ولكنني عسيب أن أكون أنكاكم في عدوكم، وأنعمكم لكم ولاية، وأحسنكم خلقاً».

(٧٤) المغني ٨/٤. وقارن بفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٨٧، ١٤٢ - ١٤٥.

(٧٥) شرح نهج البلاغة ١/٢٢٩، ٤/٢٢٥ - ٢٢٦. وانظر عن رأي الشيعة في معاوية والامويين بعامة: E. Kohleg: Some Imami Shii Interpretations of Umayyad History; in G.H.A. Jynboll (ed.), Studies on the First Century of Islamic Society, 1982, pp.152-168

(٧٦) تاريخ الطبري ٢/١٤٦: أبو مخنف عن الصقعب بن زهير عن الحسن.

(٧٧) في أنساب الأشراف ٤/٢٨/١، وعيون الأخبار ٢/٤٦ من كلمة لمعاوية: «... ولولا هواي في يزيد لأبصرتُ قصدي». وقارن بالملاحظة رقم ٢٨. وفي البداية والنهاية ٨/٥٥، وسير اعلام النبلاء ٣/٤٦٦-٤٦٧ عن أحمد أن عائشة سألت معاوية مستنكرة قتل حجر فقال: رجدت في قتله صلاح الناس، وخفت من فسادهم.

الامام عليّ. اذ لم يكن هناك مرشّح غير الامام الحسن بن عليّ وقد تنازل عن ذلك لميل غالبية الناس إلى معاوية^(٧٨). وهكذا فإن تسمية الشاميين والمحدّثين للعام ٤٠هـ - عام الجماعة لم تكن تسميةً أيديولوجيةً فقط، بل وافقت واقعاً تاريخياً^(٧٩). يقول الضحّاك بن قيس الفهري في رثائه^(٨٠): «أن معاوية كان عود العرب، وحدّ العرب، وجدّ العرب. قطع الله به الفتنة، وفتح به البلاد...» فقد كان عهده عهد سلام واستقرار وفتوح ورخاء فيما عدا حركات الخوارج المتفرقة. وكان يعلم أنّ الناس في أكثريتهم الساحقة معه، وهذا هو سبب استمراره في السلطة بعد وصوله إليها عن طريق البيعة^(٨١). يروي هذيل بن شرحبيل عنه قوله في إحدى خطبه^(٨٢): «أيها الناس! إنكم فيما بايعتموني طائعين. ولو بايعتم عبداً حبشياً مجدّعاً لجئتُ حتى أبايعه معكم...». لذلك يقول له الأحنف بن قيس (-٦٨هـ) في إحدى وفاداته عليه^(٨٣): «والله ما أتيناك يا أمير المؤمنين - لتهدينا من ضلالة، ولا لتغنينا من عيلة، ولا لتمنعنا من ذلّة، ولكن للسمع والطاعة..» إنه الولاء للمشروع الواحد، هو الذي دفع الأحنف للسمع والطاعة لعود العرب، وحدّ العرب، وجدّ العرب. وصنيع الأحنف هو صنيع أكثر الصحابة والتابعين الذين عاصروا معاوية. يقول الأوزاعي (-١٥٧هـ)^(٨٤): «أدرت خلافة معاوية عدّة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم: سعد وأسامة وجابر، وابن عمر وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبو سعيد، ورافع بن خديج، وأبو أمامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر ممن سميت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصابيح الهدى، وأوعية العلم، حضروا من الكتاب تنزيله وأخذوا عن رسول الله ﷺ

(٧٨) في الأخبار الطوال للدينوري ص ٢٢٠ عن الحسن بن علي: «... أني رأيت هوى عظم الناس في الصلح وكبرها الحرب، فلم أحبّ أن احملهم على ما يكرهون...».

(٧٩) في تاريخ الطبري ١٩٩/٢: «... ثم صالحه الحسن بن علي، وسلّم له الأمر سنة إحدى وأربعين لخمس بقين من شهر ربيع الأول. فبايع الناس جميعاً معاوية، فقيل: عام الجماعة». وفي سير اعلام النبلاء ١٤٦/٣: «... سمي عام الجماعة لاجتماعهم على امام...». وفي تاريخ أبي زرع ١٨٨/١ عن سعيد بن عبدالعزيز: «... اجتمعت الأمة على معاوية سنة أربعين، وسموها عام الجماعة...» وقارن بالمصنف لابن أبي شيبة ٩٥/١١ - ٩٦.

(٨٠) أنساب الأشراف ١٥٥/٤، والبيان والتبيين ١٣١/٢، وتاريخ الطبري ٢٠٢/٢ - ٢٠٣. (٨١) انظر ثناء سعد بن أبي وقاص عليه في تاريخ دمشق الكبير الكبير م ١١/١٣٦٣، وسير اعلام النبلاء ١٥٠/٣ - وثناء عبدالله بن عباس في أنساب الأشراف ٤٨/١/٤، ومصنّف عبد الرزّاق ٤٥٣/١١، وتاريخ الطبري ٢١٥/٢ - وثناء عبدالله بن الزبير في أنساب الأشراف ٨٣/١/٤، وعيون الأخبار ١١/١ - وثناء عبدالله بن مروان في أنساب الأشراف ١٢٤، ١٢٣/١/٤.

(٨٢) المصنّف لابن أبي شيبة ٩٤/١١ (وعنه تاريخ السيوطي ص ٧٨). وفي تاريخ الطبري ١٧٦/٢ - ١٧٧ أن عبدالله بن عمر قال هذا القول لمعاوية عام ٥٦هـ عندما طالبه بالبيعة ليزيد.

(٨٣) أنساب الأشراف ٢٠/١/٤.

(٨٤) تاريخ أبي زرع الدمشقي ١٨٩/١ - ١٩٠، ٣٠٨ - ٣٠٩.

تأويله. ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وعبد الله بن محيرز، في أشباه لهم لم ينزعوا يداً عن مجامعة في أمة محمد ﷺ

هؤلاء الصحابة والتابعون لم ينسوا معاوية زغم أخطائه التي رددّها على المنابر، أن الله سبحانه قطع به الفتنة، وجمع به كلمة المسلمين، وكانت هذه أهم أسباب شرعيته، يقول سعيد بن عبد العزيز^(٨٥): «لما قُتل عثمان واختلف الناس، لم تكن للناس غازية ولا صائفة حتى اجتمعت الأمة على معاوية سنة أربعين وسمّوها سنة الجماعة... فأغزى معاوية الصوائف وشتّاهم بأرض الروم ست عشرة صائفة تصيف بها وتشتو ثم تقفل وتدخل معقبتها. ثم أغزاهم معاوية ابنه يزيد في سنة خمس وخمسين في جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ في البر والبحر حتى جاز بهم الخليج، وقتلوا أهل القسطنطينية على بابها. ثم قفل...».

عن ابن جريج (- ١٥٠ هـ) عن أبيه^(٨٦) قال: خطبنا عبد الملك بن مروان بالمدينة بعد قتل ابن الزبير في العام الذي حجّ فيه سنة خمس وسبعين فقال بعد حمد الله والتثناء عليه: أما بعد! فلست بالخليفة المستضعف ولا الخليفة المداهن، ولا الخليفة المأفون. ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال. ألا واني لا أدوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لي. إنكم تكلفوننا أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم، فلن تزدادوا الا اجترأحاً، ولن تزدادوا الا عقوبة حتى يحكم السيف بيننا وبينكم. هذا عمرو بن سعيد قرابته قرابته، وموضعه موضعه قال برأسه هكذا فقلنا بأسيافنا هكذا! ألا وأنا نحتل لكم كل شيء الآ وثوباً على منبر أو نصب راية. ألا وإن الجامعة التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي. والله لا يفعل أحد فعله إلا

(٨٥) تاريخ أبي زرع ١٨٨/١. وعنه في سير اعلام النبلاء ١٥٠/٣. وفي الاغانى ٢٥٩/١٤ شعر لعبد الله بن الزبير الاسدي يذكر للامويين والروائيين بخاصة جمعهم للشمل، وترجيدهم للكلمة:

وما زلت مذ فارقت عثمان صادياً وروان ملتحاً عن الماء ازودا
بهم جمع الشمل الشتيت وأصلح الا له، وداوى الصدغ حتى تجبرا
قضى الله لا ينفك منهم خليفة كريم يسوس الناس يركب منبرا

(٨٦) خطبة عبد الملك بهذه الصيغة في الاوائل للعسكري ٣٦٢-٣٦٣. (وعن الاوائل في تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢١٨). وفي الاغانى ١٥/١٦٦، وطبقات ابن سعد ٥/٢٢٣، والعقد الفريد ٤/٤٠١، والبداية والنهاية ٩/٦٢ قطع مختلفة من هذه الخطبة تذكر انه القاها بمكة او بالكوفة. وفي رواية للكبي والهيثم بن عدي في انساب الاشراف ٥/٣٥٢-٣٥٣ قطعة من الخطبة خاصّة بعمر بن سعيد وجماعته يقول الراويان إنه القاها في مسجد الكوفة. وقارن بمحمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر الأموي ص ٢٨٦-٢٩٠.

جعلتها في عنقه ثم لا أُخْرِجُ نَفْسَهُ إِلَّا صَعْدًا. والله لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله مقامي هذا إلا ضربتُ عنقه...».

ويذكر البلاذري^(٨٧) عن أبي إسحاق السبيعي أنّ عبد الملك عندما أراد مغادرة الكوفة عام ٧٢هـ بعد مقتل مصعب بن الزبير، ومبايعة العراقيين له خطب الناس «فعظّم عليهم حقّ السلطان وقال لهم: هو ظلّ الله في الأرض! وحثّهم على الطاعة والجماعة...».

أيّاً تكن قيمة هذه الروايات عن خطابة عبد الملك، وتاريخيتها، فالذي لا شك فيه أن عناصر جديدة في رؤية السلطة والذات والآخر داخلت العالم السياسي والايديولوجي لبني مروان. فالمؤسس مروان بن الحكم بن أبي العاص لم يكن صحابياً فضلاً على أن يكون من «أهل السابقة والفضل». بل إنّ والده الحكم كان مدخول الاسلام، وقد نفاه النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى الطائف لأنه آذاه، وردّه عثمان فكان ذلك من أسباب الثورة عليه^(٨٨). صحيح أنّ بني مروان كانوا أقرب إلى عثمان من معاوية، وكان بوسعهم الاستمرار في حمل راية «الامام المظلوم»^(٨٩)، لكن هذا أيضاً لم يعد سبباً كافياً لقيام سلطة واستمرارها، وقد كان وصول المروانيين للسلطة بعد موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن يزيد، سببه حرص أهل الشام (وبخاصة أهل الأردن وفلسطين وحوارن) من اليمانيين على بقاء الخلافة بين ظهرانيتهم لما ترتّب على ذلك لهم منذ وليهم معاوية من جاه وثراء وسلطان. وكان مروان بن الحكم بن أبي العاص قد صار شيخ الأمويين سنّاً وجاهاً بعد وفاة معاوية، ووفاة سعيد بن العاص، وعبدالله بن عامر قبله. لذلك وقع عليه اختيار زعماء اليمانية بالجابية للخلافة^(٩٠). وتلت تلك البيعة الأولى الضربة التي استطاع مروان توجيهها بواسطة اليمانيين للتحالف القيسي بمرج راهط عام ٦٥هـ، فاستقرّت الشام بيده (باستثناء الجزيرة الفراتية)، ثم مدّ نفوذه إلى مصر بعد ذلك بقليل. وهذا ما كان عليه الوضع عند وفاة مروان أواخر العام نفسه. فقد كان على ابنه عبد الملك أن يستعيد الجزيرة، والعراق، ومشرق العالم الاسلامي ومغاربه من ظلّ النفوذ الزبيري. وقد استغرق ذلك منه زهاء الثماني سنوات^(٩١).

(٨٧) الرواية بطريق ابن سعد في انساب الاشراف ٣٥٤/٥.

(٨٨) تاريخ الطوري ٢٩٥٢/١.

(٨٩) يوليوس فلهاوزن: الدولة العربية وسقوطها (الترجمة العربية) ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٩٠) G. Rotter: Die Umayyaden 37-59

(٩١) Rotter; op. cit. 208ff.

لذلك فإن إصرار عبد الملك على القول في الخطبة المنسوبة إليه بالمدينة أن القوة هي أساس سلطته بل وسياسته له ما يسوّغه من مجريات الأحداث حتى ذلك الحين وبخاصة فيما يتعلق بالحجاز والعراق اللذين استعاد الأمويون السيطرة عليهما أيام يزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان بعد معارك ضارية.

إن توازن القوى القبلية، الذي كان لصالح اليمينيين في داخل الشام هو سبب وصول الأمويين للسلطة أيام معاوية، وأيام مروان بن الحكم، لكنه ليس سبب استمرارهم، كما أنه ليس علة ذلك السلام الطويل الأمد داخل الأسرة الحاكمة، ودخل دار الاسلام بين العامين ٧٢ و١٢٥هـ. فقد حرص عبد الملك بعد أن استقر له الأمر على اشراك الجميع في السلطة من قيسيين ويمينيين بل وقرشيين^(٩٢). فأعطى ذلك الأمويين تأييداً أو مهادنة من جانب الغالبية العظمى من المسلمين. لكنّ قوة الشكيمة، وحسن السياسة، لا تنفردان بالتأسيس والاستقرار. ثم ان ذلك لا يهب السلطة شرعية أو عالمياً أيديولوجياً يمكنها أن تضع نفسها في سياقها، وتعود الآخرين على النظر إليها من خلاله. وهذا هو معنى الكلمة المنسوبة إلى عبد الملك بن مروان في عظم حقّ السلطان، وفي أنه ظلّ الله في الأرض^(٩٣). فاذا كان التأكيد على الوصول للسلطة بالقوة عنصراً جديداً ومهماً في ماهية سلطة بني مروان، فإنّ تعظيم حقّ السلطان، والقول بأنه «سلطان الله»^(٩٤)، وأنه «ظلّ الله في الأرض» ليس بالأمر الجديد عند الأمويين، وعند العرب المسلمين بشكل عامّ، هذا وان يكن المروانيون باعتبارهم أنفسهم «خلفاء الله» المكرّمين بخلافة الله قد جعلوا هذه الرؤية القرآنية للأمة والاسلام والتاريخ الدائرة الأيديولوجية الرئيسية التي يتحركون من خلالها.



جاء في رواية لسيف بن عمر عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصّدّيق برواية عن شيوخه عن عمر بن الخطّاب أنه استحثّ العرب يوماً بالمدينة على اللّحاق بالثنّى بن حارثة لقتال الفرس بالسّواد، فقال^(٩٥): «سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن

(٩٢) رضوان السيد: ثورة ابن الأشعث، مرجع سابق، ص ٣٤٢-٣٤٥، ٢٤٥. Rotter; op. cit. 238ff.

(٩٣) أنظر عن هذه الدعوى وتطوراتها: نصيحة الملوك المنسوب للغزالي (نشرة. م. دمج. بيروت ١٩٨٦) ص ١٢٨-١٢٩.

A.K.S. Lambton: The Theory of Kingship: Theory and Practice in Medieval Persian Government (1980) 47-55.

(٩٤) في مصنف عبدالرزاق ١١/٣٤٤، ومجمع الزوائد (عن أحمد بن حنبل) ٥/٢٢٢ عن حذيفة: ما مشى قوم إلى سلطان الله في الأرض ليذّله إلا أنذلهم الله قبل أن يموتوا.

(٩٥) تاريخ الطبري ١/٢١٦٠.

يورثكموها، فإنه قال (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) ^(٩٦)، والله مُظْهِرُ دِينِهِ، ومَعَزُّ نَاصِرِهِ، ومَوْلَى أَهْلِهِ مَوَارِيثُ الْأُمَمِ... . وفي رواية مقاربة عن الشعبي قبل يوم القادسية أَنَّ الْوَفْدَ الَّذِي أَرْسَلَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ لِلْكَلامِ مَعَ قَادَةِ الْفَرَسِ قَالَ لَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ رِسَالَةِ نَبِيِّ الْعَرَبِ ﷺ ^(٩٧): استخلاف العرب، وتوريثهم الأرض... وان الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه.. وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْرَثَنَا أَرْضَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ^(٩٨). وَأَنْ أَدَاتِنَا الطَّاعَةَ، وَقِتَالِنَا الصَّبْرَ.. وَسَنَضْرِبُ مِثْلَكُمْ، إِنَّمَا مِثْلُكُمْ مِثْلُ رَجُلٍ غَرَسَ أَرْضاً وَاخْتَارَ لَهَا الشَّجَرَ وَالْحَبَّ، وَأَجْرِي إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ، وَزَيْنُهَا بِالْقُصُورِ وَأَقَامَ فِيهَا فَلَاحِينَ يَسْكُنُونَ قُصُورَهَا، وَيَقُومُونَ عَلَى جَنَاتِهَا. فَخَلَا الْفَلَاحُونَ فِي الْقُصُورِ عَلَى مَا لَا يَحِبُّ (صاحب الأرض)، وفي الجنان بمثل ذلك فأطال نظرَتَهُمْ، فلَمَّا لَمْ يَسْتَحْيُوا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ اسْتَعْتَبْتِهِمْ فَكَابَرُوهُ فَدَعَا إِلَيْهِمْ غَيْرَهُمْ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا. فَإِنْ ذَهَبُوا عَنْهَا تَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ، وَإِنْ أَقَامُوا فِيهَا صَارُوا خَوَلاً لِهَوْلَاءَ يَمْلِكُونَهُمْ وَلَا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ، فَيَسُومُونَهُمُ الْخَسْفَ أَبَدًا ^(٩٩). وخطب سعد بن أبي وقاص يوم القادسية فقال ^(١٠٠): «ان الله هو الحق لا شريك له في الملك، وليس لقوله خلف، قال الله جل ثناؤه: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)، إن هذا ميراثكم وموعد ربكم، وقد أباحها لكم...».

ليس من غرضنا هنا التحقق من تاريخية هذه الأقوال في المواطن التي يقول سيف ابن عمر أنها وردت فيها. لكن الواضح منها جميعاً أن هناك تصوراً معيناً ومألوفاً يقوم على أن «العرب المسلمين» أمة النبي ﷺ، ورثوا موارِيثَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ بِمَقْتَضَى كَوْنِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، اتباع آخر الأنبياء، وحملة دعوته. يقول الحسن البصري (-١١٠هـ) ^(١٠١): ..أمتكم آخر الأمم.. فلا أمة بعد أمتكم، ولا نبي بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناس، والساعة تسوقكم... . وترد في العبارات المنسوبة لعمر بن الخطاب

(٩٦) سورة التوبة / ٩، وسورة الفتح / ٢٨، وسورة الصف / ٩. وبالآية نفسها استشهد قتبية بن مسلم عام ٨٦هـ لتشجيع

جنوده على غزو أرض الترك، قارن بتاريخ الطبري ١١٧٩ / ٢.

(٩٧) الطبري ١ / ٢٢٣٦-٢٢٤٥.

(٩٨) الطبري ١ / ٢٢٧١-٢٢٧٢.

(٩٩) إلبطري ١ / ٢٢٨٤-٢٢٨٥.

(١٠٠) الطبري ١ / ٢٢٨٩.

(١٠١) عيون الأخبار ٢ / ٣٤٤.

والفاتحين المسلمين مفردات ثلاث لتحديد التصور المذكور كلها قرآنية: الاستخلاف، والتوريث، والموعود. أما المفرد الأول فيرد في القرآن زهاء أربع عشرة مرة^(١٠٦) بصيغ مختلفة يتصل منها بموضوعنا هنا مباشرة ثلاث آيات، أولها، قوله تعالى^(١٠٦): (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون). وثانيها قوله تعالى^(١٠٤): (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً. ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون). وثالثها قوله تعالى^(١٠٥): (يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق...).

أما الآية الأولى، وهي مكية فتتضمن التصور كما فهمه المسلمون الأوائل، فالله سبحانه يتدخل في التاريخ والأحداث فيهزم أو يبني عمار الأرض أو المتسلطين فيها، ويستخلف فيها سكناً وعماراً وإصلاحاً وسلطاً أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعبدوا الله سبحانه دون أن يشركوا به شيئاً كما ورد في الآية الثانية. وما ورد في الآية الثالثة عن داود عليه السلام، وأن الله سبحانه جعله خليفة يربط الجانب الاجتماعي للاستخلاف بالجانب السياسي؛ إذ هناك آيات أخرى تذكر عن داود أنه كان ملكاً^(١٠٦). والصورة الكامنة وراء هذا كله أن الله سبحانه وتعالى استخلف قوم داود في الأرض اجتماعياً وسياسياً بعد أن هزم عدوهم، واستبدلهم به^(١٠٧)، لينظر كيف يعملون. فلما بدلوا وغيروا كما هو مذكور في عدة مواطن من القرآن، وفي مطلع سورة الاسراء على الخصوص^(١٠٨)، كانت رسالة عيسى الإصلاحية التي أباهها بنو اسرائيل، وأتبعها الروم، حتى اذا غيرت الروم وبدلت، أورث الله سبحانه وتعالى العرب المسلمين النبوة والكتاب والأرض^(١٠٩): (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة. فإن يكفروا بها هؤلاء فقد وكلنا قوماً ليسوا بها بكافرين)، وهو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم

(١٠٢) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ص ٢٣٩-٢٤٠.

(١٠٣) سورة الاعراف / ١٢٩.

(١٠٤) سورة النور / ٥٥.

(١٠٥) سورة ص/ ٢٦. وفي سورة البقرة / ٣٠ عن آدم: «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...».

(١٠٦) سورة ص/ ٢٥: «قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي».

(١٠٧) يرد مفرد «الاستبدال» بالصيغة الفعلية التي تعني إزالة قوم لصالح آخرين خمس مرات في القرآن، سورة الانسان/ ٢٨، وسورة الواقعة/ ٦١، وسورة المعارج/ ٤١، وسورة التوبة/ ٢٩، وسورة محمد/ ٣٨ - وهو يتضمن دائماً معنى الانتقام.

(١٠٨) سورة الاسراء / ١-٧.

(١٠٩) سورة الانعام / ٨٩.

الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم^(١١٠). إن هذه الصورة عن دور المسلمين في حقبة آخر النبيين وآخر الأمم هي التي توضح معنى اللقب المشهور خليفة الله. فالأمة الاسلامية هي المستخلفة والوارثة، وأمامها الذي يقودها لتحقيق الوراثة، ونشر الدعوة هو خليفة الله في الأرض، استثناساً بلقب النبيين آدم وداود اللذين حملا هذا اللقب ليس بسبب نبوتهما فقط، بل بسبب سيطرتهم أو ملكهما أيضاً، كما هو واضح من الآيات القرآنية التي تتحدث عن ذلك.

وأما مفرد التورث^(١١١). فيرد مرات كثيرة جداً في القرآن، ويرتبط في عدد من الآيات بالاستخلاف، لكن الوراثة في أكثر الآيات التي يرد فيها المفرد بالصيغ الفعلية تتعلق باليوم الآخر ووراثة الجنة التي وعدا المتقون. وكذا الأمر في مفرد الوعد، فانه يرد كثيراً في سياق الحديث عن جزاء المؤمنين والشهداء والصديقين والصالحين. فاذا تعلق الأمر بالاستخلاف والتورث والتمكين في الأرض أتى مفرد الوعد متوجاً لذلك ومؤكداً له كما هو واضح من الآية المشهورة في سورة النور، والتي يرد فيها المفردان، ثم يفسرها الطبري فلا يستغني عن مفرد التورث. في الآية^(١١٢): (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض...) وفي تفسير الطبري للآية^(١١٣) «ليورثنهم أرض المشركين من العرب والعجم فيجعلهم ملوكها وساستها كما فعل من قبلهم ذلك...».

وصف أمير المؤمنين عثمان نفسه في رسالته إلى الحجيج مع ابن عباس بأنه خليفة الله، فقال^(١١٤): «... وأما أن أتبرأ من الامارة فلأن يكلبوني أحب الي من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل وخلافته...». وبمقتضى هذا التصور الذي يجعل امام المسلمين خليفة الله، وسلطان الله، وحبل الله، رأى عثمان في الرسالة المذكورة وجوب الطاعة والسمع والجماعة ما دامت الأمة قد بايعته. وحذر من أنه اذا عصي، ونقض عهده، والايامن التي أعطيت

(١١٠) سورة الجمعة / ٣.

(١١١) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ص ٧٤٨-٧٤٩.

(١١٢) سورة النور / ٥٥.

(١١٣) تفسير الطبري ١٥٨/١٨ - ١٦٠.

(١١٤) تاريخ الطبري ٣٠٤٤/١. وفي الطبري ٢٩٩٧/١، وانشاب الأشراف ٦٦/٥، وفتوح ابن اعثم ٢١٧/٢ أن عثمان قال للذين طلبوه بأن يخلع نفسه: لا أنزع سربالاً (أو قميصاً) سربلني (أو قمصنيه أو كسانيه) الله تعالى. وقارن بتاريخ خليفة ١٤٧/١، وطبقات ابن سعد ٤٦-٤٥/١/٣. وفي طبقات ابن سعد ٤٥/١/٣، وانشاب الأشراف ٧٦/٥ نسبة القول إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب قاله لعثمان.

له، فإن الأمة ستهلك^(١١٥): «..ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا الصلاة جميعاً، وسلط عليكم عدوكم، ويستحل بعضكم حرم بعض..» إنهم مستخفون وهو خليفتهم الذي بايعوه، ليقودهم في الجهاد، ويؤمهم في الصلاة، ويقسم بينهم فيهم، فان عصوه واختلفوا عليه، وافترقت كلمتهم باءوا بغضب من الله، وكانوا حقيقين بأن يُستبدلوا بعصاةٍ أخرى تعتصم بحبل الله، وتطيع سلطان الله، وترث الأرض.

أما أمير المؤمنين عليّ فيذكر المبايعين بالمدينة في أول خطبة له بقوله تعالى^(١١٦): (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض..) ويتابع قائلاً في خطبة أخرى إنه سبحانه اختار الاسلام والأمة ليسود دينه الأرض، ولن يكون ذلك إلا بالاجتماع، والسمع والطاعة لائمة الله^(١١٧). وهو ما أوصى به المصريين في كتابه مع واليه قيس بن سعد ابن عباد^(١١٨). وقال في آخر خطبه بالمدينة قبل مضيّه إلى الكوفة^(١١٩): «إن في سلطان الله عصمة أمركم فأعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها. والله لتفعلنّ أولينقلنّ الله عنكم سلطان الاسلام، ثم لا ينقله اليكم أبداً حتى يأرر الأمر إليها..». إن الأمة الوارثة في نظر أمير المؤمنين عليّ والصحابة تتكون من جماعة ودار وإمام. وأنّ اختلال أحد هذه العناصر كفيل بتفرقة الكلمة، وغضب الله، وفقد الاستخلاف، أو الاستبدال، كما حدث للأئم السالفة. وفي المصادر والخطب والأشعار يرد اللقب في عهدي معاوية ويزيد ابنه^(١٢٠). ويصبح واضحاً الفرق بين لقب أمير المؤمنين، ولقب الخليفة أو خليفة الله. فالأول داخليّ أو داخل أمة الاجابة ينادي ويخاطب به المسلمون إمامهم أو أميرهم. والثاني يتصل بالدعوى العالمية للاسلام، وبوظيفة الأمة الجديدة في العالم. وقد أفلح عبد الملك بن مروان في ايضاح الفرق بين اللقبين أو تكاملهما عندما ذكرهما معاً على نقوده التي عزبها وسكها بعد العام ٧٥هـ. فالنقد يصور على أحد وجهيه الخليفة واقفاً

(١١٥) تاريخ الطبري ١/٢٠٤٤-٢٠٤٥. وترد فكرة نزع الخلافة والجماعة من اهل المدينة لانتهاكهم حرمة عثمان في شعر لخميد بن ثور (في الاستيعاب ٨٢/٣ بهامش الاصابة لابن حجر):

صارت إلى اهلها منهم ووارثها
من اهل يثرب إذ غير الهدى سلكوا
لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا
لما اظعننت ظعننت

(١١٦) سورة الأنفال /٢٦. وانظر: تاريخ الطبري ١/٣٠٧٩.

(١١٧) تاريخ الطبري ١/٣٠٨٠.

(١١٨) تاريخ الطبري ١/٣٢٣٦-٣٢٣٧.

(١١٩) تاريخ الطبري ١/٢٠٩٣.

(١٢٠) انظر الآن الشواهد التي جمعها: P. Crone, M. Hinds: God's Caliph pp.6-7.

واضعاً يده على مقبض سيفه المتدلي باتجاه لقب «خليفة الله» وعلى الجانب الآخر: «أمير المؤمنين»، فما دام لقب الخليفة والخلافة يتعلّق بالاستخلاف في الأرض، ووراثتها، فإن الدعوة إلى الجهاد هي وسيلة التمكين في الأرض، واستيعاب «أمة الاجابة» التي تشمل العالم كله^(١٢١). لهذا فإن تسميات الشعراء لعبد الملك ومن بعده: خليفة الله، وقدر الله، وأمين الله، وعمود الدين^(١٢٢)، كل ذلك لم يكن مبالغاً شعرية، بل يتصل باللقب الرسمي لمنصب متوّلّي الخلافة في الأمة المستخلفة في العالم، والوارثة للأرض. وصف يزيد بن معاوية والده في أول خطبة له بعد وفاة معاوية بأنه كان حبل الله الممدود^(١٢٣). وقال عبد الملك أنه ظلّ الله في الأرض^(١٢٤). وأنّ الله سبحانه اختاره وأسرته للخلافة، وهو سبحانه المدافع عنه^(١٢٥). وسَمَى الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) والده عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ): وليّ هذه الأمة، وقال انه «صائر إلى منازل الأبرار»: «.. لما أقام منار الاسلام وأعلامه، وحج البيت، وغزو هذه الثغور، وشنّ الغارات على أعداء الله...»^(١٢٦). ودعاهم بعد ذلك إلى السمع والطاعة له. وخطب خالد بن عبد الله القسري والي الوليد بن عبد الملك بمكة فقال^(١٢٧): «.. عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة... فاني والله ما أوتى بأحد طعن على إمامه إلاّ صلبته في الحرم. ان الله جعل الخلافة منه بالموضع التي جعلها فسلموا وأطيعوا ولا تقولوا كيت وكيت... والله لو أعلم أن الوحش التي تأمن في الحرم لو نطقت لم تقر بالطاعة لأخرجتها من الحرم...». ويقول رجل لعمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)^(١٢٨). لا والذي أكرمك بالخلافة!.

وما دامت الخلافة بهذا المعنى، فلا عجب أن تعتبر اصطفاً، وكرامة، وقدرًا من الله سبحانه. وتروى عن الوليد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك في ذلك طرائف، مثل

(١٢١) Walker: Catalogue II, 27-28, 30 ff; Gaube: Numismatik 62-63.

(١٢٢) قارن عن ذلك: البيان والتبيين ٣/٣٦١، والأغاني ١٦/١٨٢، ١٢/١٧، وانشاب الاشراف م ٢/٥٧. وانظر مجموعة الشواهد التي أوردها في: ثورة ابن الأشعث ٣٤٤-٣٤٥، والآن المجموعة الكبيرة من الشواهد الواردة عند M. Hinds. p. Crone مرجع سابق، ص ٧-١١.

(١٢٣) عيون الاخبار ٢/٢٢٨.

(١٢٤) انساب الاشراف للبلاذري ٥/٣٥٤ عن ابن سعد. وقارن بالبداية والنهاية ٩/٦٣-٦٤.

(١٢٥) انساب الاشراف م ٢/٥٢، والكامل للمبرد ٣/٣٢٢.

(١٢٦) البداية والنهاية ٩/٧٠.

(١٢٧) تاريخ الطبري ٢/١٢٣١، ١٢٢٢. وهناك طُرْفَةٌ تُنسب للحجاج ولخالد القسري، وتجري أيام الوليد بن عبد الملك أو هشام، وفيها مقارنة بين «خليفة الله» و«رسول الله» وإيهما افضل!! (قارن بتاريخ الطبري ٢/١٨١٨، والأغاني ٢٢/١٨، والبداية والنهاية ٩/١٣١، والعقد ٥/٥١).

(١٢٨) تاريخ أبي زرة الدمشقي ١/٤٤٧ وفيه أنّ عمر استتر بيده من السماء وقال للقائل: ويحك! تدري ما تقول!؟

أَنَّ الله سبحانه لا يعاقب من ولّاه الخلافة ثلاثة أيام^(١٢٩). وأن الخليفة إذا أذنب فإن الله عزَّ وجلَّ يعذب مكانه يهودياً أو نصرانياً!!^(١٣٠) وهذا الفهم الديني للاكرام بالخلافة يناظره الفهم الديني للبيعة، الذي وردت فيه آثار كثيرة مرفوعة للرسول صلوات الله وسلامه عليه يبدو أنها انتشرت أواخر القرن الأول الهجري^(١٣١). كل ذلك جعل من الطاعة واجباً دينياً، لأن المعارضة: حث بيمين البيعة، وتفارقة للكلمة، وسفك للدم، وتعطيل للجهاز الذي يوجَّهه ويقوده خليفة الله. يقول مروان بن محمد في رسالة منه للوليد ابن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ) بشأن الذين تكلموا فيه أيام هشام^(١٣٢): «فمن أقام منهم على الخطيئة أوبق نفسه وأسخط ربّه. ومن عدلت به التوبة نازعاً عن الباطل إلى الحق وجد الله تواباً رحيماً. وواضح من هذا التصوّر للعالم وللأمة والخليفة، والذي يقوم على الطاعة والجماعة من أجل تحقيق الاستخلاف والتوريث، أنه لا يتصل مباشرة بالجبر، وليس دعوة إليه. صحيح أنه يتضمن تقديساً للخليفة، لكنه في الحقيقة تبجيل للمنصب أو للخلافة، وبالتالي للأمة ودعوتها ورسالتها التي يقوم عليها الخليفة. ومع ذلك فإن المعارضين من القدرية والخوارج اعتبروا الصورة الأموية عن الخلافة والطاعة جبرية وطاقوتاً^(١٣٣). ففي المصادر الحديثية^(١٣٤). أن معبدا الجهني وبعض رفاقه كانوا يأتون

(١٢٩) انساب الاشراف م^٢/ق/١٢١. وقارن بابن سعد ٢٥٥/١/٣، والعقد الفريد ٤/٦٠، ١٥٨، والنجوم الزاهرة ٢١٨/١.

(١٣٠) مسند احمد ٤/٢٩١، وكتاب المجالسة وجواهر العلم لأحمد بن مروان المالكي ص ٣٧٢.

(١٣١) مثل: «... عليكم بالجماعة واياكم والفرقة فإنّ الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد...» (= الجامع الصحيح للترمذي ٢٥/٢، ومصنف عبدالرزاق ١١/٣٤١)، ومثل: «... يد الله مع الجماعة» (= الجامع الصحيح للترمذي ٢/٢٥)، ومثل: «... من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية. ومن نكث العهد فمات ناكثاً لعهد جاء يوم القيامة لأحجّة له» (= مصنف عبدالرزاق ٢/٣٧٩، ومسند احمد ٢/٤٤٥)، ومثل قول النبي ﷺ لأبي نرّ من حديث: «... اسمع وأطع وإن كان عبداً أسود...» (= مصنف عبدالرزاق ٢/٣٨١-٣٨٢)، ومثل ما ورد عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً من حديث: «... ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع...» (= مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٦٠-٦٠)، ومثل ما ورد عن حذيفة مرفوعاً من حديث: «... إن رأيت خليفة فالزمه وإن نهك ظهره ضرباً، وأخذ مالك...» (= مصنف ابن أبي شيبة ١٥/٨)، ومثل الحديث الذي يتكرر لدي فيما بعد: «... فوا ببيعة الأول فالأول. اعطوهم حقهم، وسلوا الله حقكم...» (= مسند أبي عوانة ٤/٤٥٨، وصحيح مسلم ٤/٤٥٨ - ٤٦٠)، ومثل: «عليك السمع والطاعة في منشطك ومكرهك واثرة عليك...» (= مسند أبي عوانة ٤/٤٤٩، ٤٥٥).

(١٣٢) انساب الاشراف م^٢/ق/٣١٨، وتاريخ الطبري ٢/١٧٥٢ - ١٧٥٣. وفي تاريخ الطبري ١/١٢٣١ - ١٢٣٢ قول أبي حبيبة لخالد بن عبدالله القسري والي مكة أيام الوليد بن عبدالمك: «... أنا ممن يعظّم امر الخلافة، وأزعم أنّ من جحدها فقد هلك».

(١٣٣) طبقات ابن سعد ٦/١٨٥، وتاريخ الطبري ٢/١٠٨٦-١٠٨٧.

(١٣٤) J. Van Ess: Mabad al-Guhani; in: Islamwissenschaftliche Abhandlungen, 1974, 50-77.

٨٢ هـ الذي يقال إنه أول نفاة القدر^(١٣٥). لكنه قتله اثر ثورته مع عبد الرحمن بن الأشعث (٨٢-٨٤ هـ) وليس قبل ذلك. ورسالة الحسن البصري إلى عبد الملك بن مروان في القدر بناء على سؤال الخليفة له، ليست ذات طابع سياسي، بل تتصل بمسؤولية الفرد عن أفعاله^(١٣٦). وكذا رسالة الحسن بن محمد بن الحنفية في الردّ على القدرية هي رسالة ذات طابع كلامي، وليست لها علاقة واضحة بالاتجاهات السياسية الموالية أو المعارضة للأمويين^(١٣٧). وكان هشام بن عبد الملك قد أمر بقتل غيلان الدمشقي ورفيقين له يقول المعتزلة أنهم كانوا قدرية^(١٣٨). ولهؤلاء نقاشات مع عمر بن عبد العزيز قبل ولاية هشام ذات طابع كلامي بحت، مما يدل على أنّ قتلهم كان بسبب الاعتقاد بأنّ رأيهم المستجدّ هذا إحد في الدين^(١٣٩). بل يبدو أنّ هشاماً فعل ذلك بضغط من علماء الشام آنذاك^(١٤٠). وقد يؤيد ما ذهبنا إليه هنا إقدام والي هشام بالعراق خالد بن عبدالله القسري على قتل الجعد بن درهم، وهو جبري، لم يكن يعارض الأمويين، بل إنه كان معلماً لآخر خلفائهم: مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢ هـ) في شبابه. فلا شك أنّ قتله أيضاً كان بسبب ديني لا لسبب سياسي، هو اعتقادهم أنه أحدث بدعة في الدين بقوله بالجبر والتأويل وخلق القرآن^(١٤١).

إنّ الجانب السياسي لمسألة القدر هو أحد جوانب المسألة، ولم يصبح أبداً جانباً رئيسياً أيام الأمويين أو بعدهم بل ظلّت مسألة القدر في الأعم مسألة دينية اعتقادية تثير نقاشات واسعة حتى مطلع القرن الرابع الهجري. وما يهمننا هنا في مجال إيضاح الرؤية الأموية للخلافة ما ترتب على هذه الرؤية من ردود فعل تتصل بفكرة القدر، من ذلك فكرة «الملك المؤجل» التي عبّر عنها محمد بن الحنفية (-٨٠ هـ) في مجال بيان عبث الثورة على

(١٣٥) التاريخ الكبير للبخاري ١/٤ / ٢٠-٢١.

(١٣٦) انظر عن رسالة الحسن إلى عبد الملك: Ritter; in: Der Islam XXI, 1933, 67ff. - Schwarz; in: OriensXX, 1967, 154ff. - J. Van Ess: Anfaenge muslimischer Theologie 18,27-29,

واحسان عباس: الحسن البصري، سيرته وتعاليمه وأراؤه، دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٥٢، ص ١٦٤ وما بعدها.

(١٣٧) وهذا خلاف اتجاه الأستاذ يوسف فان أس الذي نشر كتابي الحسن بن محمد بن الحنفية: الارزاء، والردّ على

القدرية، قارن له J. Van Ess: Anfänge muslimischer Theologie, Beirut 1977; Das K. al-Irga; in: Arabica 21 (1974)

(١٣٨) جمع الأستاذ يوسف فان أس سيرة غيلان وأخبار مقتله في كتابه السالف الذكر في الملاحظة رقم ١٣٧ إلى جانب رسالة الحسن بن محمد بن الحنفية في الردّ على القدرية، والرسالة المنسوبة لعمر بن عبد العزيز في الموضوع نفسه.

(١٣٩) تاريخ أبي زرعّة الدمشقي ١/٣٧١ - ٣٧٢، وأنساب الأشراف م/٢٦٠ - ٢٦١.

(١٤٠) تاريخ أبي زرعّة الدمشقي ١/٣٧٠ (عبادة بن نسيّ ورجاء بن حيوة)، ٣٧٢ (نمير بن أوس قاضي دمشق).

(١٤١) قارن بالردّ على الجهمية للدلامي ص ١٨١-١٧٩ (1937) in RSO, XVII (1937) 179-181. G. Vajda: Les zindiqs en pays d'Islam;

الحسن البصريّ فيقولون له: يا أبا سعيد! ان هؤلاء الملوك يأكلون أموال المسلمين، ويسفكون دماءهم، ويقولون: «انما تجري أعمالنا على قدر الله! فكان الحسن يجيبهم كذب أعداء الله!». والمعروف أن عبد الملك بن مروان قتل أو أمر بقتل معبد الجهني عام الأمويين. هم يقولون إنهم جاءوا بقدر من الله، للقيام على خلافة الله، والثوار الخائبون يعلّون ذلك بتعليلات مشابهة. يقول محمد بن الحنفية في رواية يحيى بن آدم بسنده عنه^(١٤٣): «اتقوا هذه الفتنة فإنه لا يستشرف إليها أحد إلا انتسفته! الا أن هؤلاء القوم لهم أجل ومدة لو أجمع من في الأرض أن يزيلوا ملكهم لم يقدروا على ذلك حتى يكون الله هو الذي يأذن فيه. أتستطيعون أن تزيلوا هذه الجبال؟! وقد نجح الأمويون في ربط مبدأ الطاعة بمسألة الجماعة (أي الاجتماع على إمام)، والجهاد لحماية دار الاسلام، ونشر الدعوة، وحقق دماء المسلمين. فصارت المعارضة المسلحة خروجاً على ذلك كله، وارتداء في الفتنة التي قاسى المسلمون من شرورها أيام الصراع المسلح بين عليّ ومعاوية، ثم بين عبد الملك والزبيريين. فالشاميون يترددون في الرواية عن محمد بن راشد لأنه «كان يرى الخروج على الأئمة»^(١٤٣). والبصريون يروون عن عقبة بن عبد الغافر العوذلي الذي قتل في الثورة مع ابن الأشعث أنه قال قبل الموت^(١٤٤): أضعنا الدنيا والآخرة. كما يروون عن طلحة بن مصرف^(-١١٣هـ) الذي شارك في ثورة ابن الأشعث قوله^(١٤٥): «شهدت دير الجماجم فما ضربت بسيف ولا طعنت برمح ولوددت أن يديّ قطعنا وأنني لم أخرج مع من خرج». ويقول مسلم بن يسار^(-١٠٠هـ) الذي شارك في الثورة أيضاً ما قاله طلحة بن مصرف^(١٤٦). ولا شك أن رجالاً معارضين من مثل معبد الجهني^(-٨٣هـ)، ومطرف بن عبدالله بن الشخير^(-٨٦هـ) ارتبطت لديهم المعارضة السياسية بنفي القدر بشكل ما^(١٤٧). لكن آخرين ممن شاركوا في ثورات على الأمويين من مثل مسلم بن يسار كانوا يحملون على القدرية، ويعتبرون آراء هؤلاء مشابهة لآراء المجوس أو المسيحيين^(١٤٨)

(١٤٢) مصنف ابن أبي شيبة ١١/١٢٣. وعنه في كنز العمال ٦/٦٤.

(١٤٣) تاريخ أبي زرعة ١/٤٠١.

(١٤٤) طبقات ابن سعد ٧/١٦٤، وتاريخ الاسلام ٣/٣٨٤.

(١٤٥) تاريخ أبي زرعة ١/٥٤٨، وتاريخ خليفة ١/٢٨٧.

(١٤٦) المصنف لعبد الرزاق ١١/٣٦١، والثقات لابن حبان ص ٢٤٣.

(١٤٧) المصنف لعبد الرزاق ١١/١٢١، ١٢٥.

(١٤٨) العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل ١/١٧٥.

لدينا من الحقبة الأموية الثانية (٩٦ - ١٣٢هـ) نصوص موثقة تمثل الرؤية الأموية المتكاملة لخلافة الله وإمارة المؤمنين لكن الملاحظ أن التأكيد على أحد الجانبين كان يؤثر على الجانب الآخر أو يؤدي الى تجاهله تماماً مما دفع بعض الباحثين إلى اعتبارهما رؤيتين متباينتين وليس رؤية واحدة متكاملة. ولكي يكون واضحاً ما نعنيه نذكر أن رؤية أو تصوّر «خلافة الله» يرد في نصين أولهما للوليد بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان، الذي ولي الخلافة عام ١٢٥هـ، وقتل في تمرد لابن عمه عليه عام ١٢٦هـ ونصّه الذي احتفظ لنا به من بين المؤرخين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (-٣١٠هـ) فقط^(١٤٩)، عبارة عن رسالة وجهها إلى الأمصار تتضمن استخلافه لابنيه الحكم وعثمان على التوالي بعد وفاته. وثاني النصين رسالة لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم والي الجزيرة والثغور أيام الوليد بن يزيد، والذي بويع بالخلافة عام ١٢٧هـ، وسقطت في عهده الدولة الأموية على يد العباسيين عام ١٣٢هـ. والرسالة موجّهة من مروان بن محمد للوليد بن يزيد وتتضمن مبايعته له، وتصوره للموقف السياسي بعد أن بدأ الكلام على سلوك الوليد بن يزيد داخل دمشق وخارجها^(١٥٠). أما النصان اللذان يمثلان رؤية «إمارة المؤمنين» فهما خطبتان أحدهما لعمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ)، والأخرى ليزيد بن الوليد (-١٢٦هـ) ألقاها بعد مقتل الوليد بن يزيد ومبايعه الناس له بالخلافة^(١٥١).

يقول الوليد بن يزيد في مطلع رسالته أو في قسمها الأول إن الله سبحانه^(١٥٢):
«اختار الإسلام ديناً لنفسه.. ثم اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس فبعثهم به..». وامتدّ خطّ النور والهداية عبر التاريخ من خلال الأنبياء وأمهم حتى «انتهت كرامة الله في نبوته إلى محمد صلوات الله عليه..». وهنا يتوقّف الوليد طويلاً عند مهمة النبي مؤكداً على استيعابه لكلّ الرسالات السابقة وهيمنته عليها، أي أنه ورث النبوة والكتاب

(١٤٩) تاريخ الطبري ١٧٥٦/٢-١٧٦٥. وعنه أحمد زكي صفوت: جبهة رسائل العرب ٤٤٨/٢ - ٤٥٣، ومحمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ص ٤٩٦-٥٠٠، وحسين عطوان: الأمويون والخلافة ص ٢١١-٢١٤.

(١٥٠) أنساب الأشراف م ٢/٣١٨ وتاريخ الطبري ١٧٥٢/٢ - ١٧٥٣. وهناك نص آخر هو رسالة من مروان بن محمد إلى القمربن يزيد بن عبد الملك (=الطبري ١٨٥٠/٢-١٨٥١) يستحثه فيها على الطلب بدم أخيه بعد أن قتله الثوار.
(١٥١) خطبة عمر بن عبد العزيز في سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤١-٤٢، وأخبار عمر للأجري ص ٦٣. وخطبة يزيد بن الوليد في تاريخ الطبري ١٨٣٤/٢-١٨٣٦، والعقد الفريد ٩٥/٤-٩٦، وأنساب الأشراف م ٢/٣٣٨.

(١٥٢) للرسالة ترجمة انجليزية مع تعليقات في. Crone and Hinds: God's Caliph 116-126.

والأرض، وأورثها أمته من بعده لأنه آخر الأنبياء، وأمته آخر الأمم. وهنا يبدأ دور «خلفاء الله» الذين تزعموا الأمة في استخلافها في الأرض: «لانفاذ حكمه واقامة سننه وحدوده، والأخذ بفرائضه وحقوقه: تأييداً بهم للاسلام... ودفعاً بهم عن حريمه، وعدلاً بهم بين عباده، واصلاحاً بهم لبلاده...». لكن قبل الانصراف لتحديد ماهية الخلافة ومهماتها يحسن أن نتوقف قليلاً عند استطراد ذكره الوليد في القسم الثاني من الرسالة، وهو يختص في الحقيقة بالقسم الأول لأنه يتعلّق بالصورة عن الكون، وموقع الاسلام منه. يقوم نظام الكون في نظر الوليد على الانتظام والتسليم والطاعة لله الخالق سبحانه (١٥٣):

(ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين). وما دامت العناصر الطبيعية قد صارت «الطاعة» وصار «التسليم» وصار «الاسلام» لله سبحانه تعالى جزءاً من طبيعتها، فإن المطلوب أن ينتظم الانسان في هذا «الانتظام» الكوني باسلام وجهه لله سبحانه عن طريق التسليم والطاعة له. وهذا معنى رسالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فقد حدّد بوحى من الله عزّ وجلّ كيفية انصواء الانسان في هذه الطاعة الكونية، وعهد لأمته من بعده بانفاذ ذلك، والخلافة هي قادة الأمة في هذا الشأن، وبذلك تقف على رأس العالم الانساني تقوده بالوسائل التي حدّدتها رسالة الرسول إلى الانصواء التام في ظلال الطاعة الكونية لله عزّ وجلّ.

إن معنى ذلك أن الطاعة للخلافة (وليس للخليفة!) هي في الحقيقة طاعة لله عزّ وجلّ. فالله عزّ وجلّ هو الذي استخلف «خلفاءه» على منهاج نبوته من أجل تحقيق هذه المهمة الكونية التي شرحها في مفهومه للكون. فمن أطاع الخلفاء الذين ينفذون شرع الله وشرعته في الدفع عن الحريم، والعدل بين العباد، واصلاح البلاد، انما اطاع في الحقيقة الله سبحانه. أما من عصاهم فقد «أضاع نصيبه» من هذا الانتظام الكوني، والأجر الالهي: «وعصى ربّه، وخسر دنياه وآخرته. وكان ممن غلبت عليهم الشقوة...». ذلك أن الله سبحانه «أبقى بالخلافة من أبقى في الأرض عباده...»، والخلافة لا تصلح إلا «بالطاعة التي يحفظ بها الله حقّه، ويمضي بها أمره...». والواضح أن الوليد بن يزيد هنا يعتمد على الاشتراك بين «الاستخلاف» الالهي للبشر في الأرض كما هو وارد في القرآن، والخلافة التي تعني الزعامة السياسية للمسلمين. ويمكن فهم الأمر على أحد الوجهين، أما أنه يعتبر نفسه خليفة الله على البشرية المستخلفة في الأرض، لأن الرسول وأمته التي تزعمها الوليد ورثوا الأرض. أو أنه يقتصر على المماثلة، فكما أن الله سبحانه طلب إلى الملائكة

الطاعة والتسليم له عندما اعترضوا على استخلاف البشر في الأرض قائلاً سبحانه^(١٥٤): (اني أعلم ما لا تعلمون)، فكذاك الوليد باعتباره الخليفة المبايع الواجب الطاعة في الأمة يطلب إليها أن تطيعه فيما هو بسبيله من تولية لأبنيه من بعده رغم صغر سنّيهما. ويبدو أنّ الأمرين مقصودان مع الاستمرار في الإيهام بالخلط بين الخلافة والطاعة، والطاعة والطاعة. لكنه عندما اضطرّ للايضاح في عبارة طويلة في القسم الثاني صرّح بأن المقصود بالطاعة الطاعة لله سبحانه وتعالى، فالدين كلّهُ يمكن تلخيصه بكلمتين كما قال: كلمة الاخلاص (لا اله الا الله)، والطاعة لله سبحانه.

ثم يأتي القسم الثالث الخاصّ بولاية العهد أو كما يقول الوليد: العهد. فالخلافة هي نظام الأمة، وقوام أمرها. لكنّ هذا النظام يتهدّد إن لم يستمرّ لتبقى دماء الأمة محقونة، وألفتها ملتئمة، وكلمتها مجتمعة، وعمودها معتدل. ومن هنا كان عهد الخليفة لمن يلي الأمر من بعده محققاً لهذه الأغراض كلّها، ففي استمرار السلطة استمرار الاستقرار والوحدة وبقاء كلمة الاسلام بالتالي عالية خفاقة. لكنّ الملاحظ أن المبدأ هنا لا يصبح ملكياً. فولاية العهد أمر من اختصاص الخليفة، وكونه خليفة هو الذي يعطيه هذا الحقّ بل يرتّب عليه هذا الواجب للأمة في نظر الوليد. فليس من حقّ أحد أن يرث السلطة أو يورثها انما الخليفة هو الذي يحدّد من بعده، وقد يكون ابنه أو أخاه أو أيّ رجل آخر من الأمة كما يقول الوليد. ثم إنّ الملاحظ أن البيعة لا تلعب أي دور في الاستخلاف أو حتى في تحقيقه في نظر الوليد. بل أنّ هذا الاستخلاف هو واجب على الخليفة وعلى الأمة على حدّ سواء من ضمن التصور الشامل السالف الذكر.

تأتي رؤية الوليد بن يزيد المتكاملة هذه مفاجئة بعد أن كانت الرؤى السابقة للخلافة والأمة مجزأة في أبيات شعرية أو مسكوك نقديّ أو عبارة مهدّدة في خطاب عامّ. والمفاجيء فيها ليس غربتها بل غرابتها. فقد أوضحنا من قبل اعتقاد المسلمين استناداً لنصوص قرآنية، ومأثورات وراثتهم للنبوّة والكتاب والامامة والأرض. لكنّ الغريب هنا أنّ هذه «الوراثة» تتحول عند الوليد إلى «استخلاف» كونيّ تذوّب فيه الأمة بل والعالم في شخص الخليفة، ويتحول الأمر كلّهُ إلى اسلام واستسلام وطاعة باعتبارها جميعاً من مستلزمات النظام الكوني في طاعة الله. لكنّ الوليد بن يزيد على غرابة تصوّره لم يكن متفرداً على ما يبدو بذلك ففي رسالة لمروان بن محمد إلى الوليد بن يزيد يبايعه فيها يقول له^(١٥٥): «بارك الله لأمير المؤمنين فيما أصاره اليه من ولاية عبادته، ووراثة بلاده...»، ثم

(١٥٤) سورة البقرة / ٢٠: «وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك

الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: اني اعلم ما لا تعلمون».

(١٥٥) انساب الاشراف م^١ ق ٢١٨، وتاريخ الطبري ١٧٥٢-١٧٥٣.

يتابع: «.. وكان أمير المؤمنين بمكان من الله حاطه فيه حتى أزره بأكرم مناطق الخلافة فقام بما أراده الله له أهلاً، ونهض مستقلاً بما حمل منها..». لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد فولاية الوليد للخلافة في نظر مروان بن محمد: «.. مثبتة في الزبر بالأجل المسمّى، خصّه الله بها على خلقه..» وما دام الأمر كذلك فإنّ الذين وقفوا مع هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤هـ) مطالبين بعزله عاصين لمخالفتهم ما قدره الله، وما جاء في زبره: «فمن أقام على تلك الخسيصة من الأمور أوبق نفسه، وأسخط ربّه. ومن عدلته التوبة نازعاً عن الباطل إلى حقّ وجد الله تواباً رحيماً...».



... وتأتي رؤية امارة المؤمنين «لدى عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد متجاهلة بشكل يكاد يكون تاماً لأول وهلة: «خلافة الله». يقول عمر بن عبد العزيز في أول خطبة له بعد البيعة: «أيها الناس! انه ليس بعد نبيكم نبيّ. وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب. فما أحلّ الله على لسان نبيّه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرّم الله على لسان نبيّه فهو حرام إلى يوم القيامة. (سنن^(١٥٦) رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالقها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتّبع غير سبيل المؤمنين وآله الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً). ألا اني لست بقاض وانما أنا منفّذ لله. ولست بمبتدع ولكني متبع. ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عزّ وجلّ لست بخيركم وانما أنا رجل منكم، ألا واني أثقلكم حملاً. يا أيها الناس! إن أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم. أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم».

لكنّ البداية عند عمر الثاني مثل البداية عند الوليد الثاني: النبوة والكتاب وضرورة اتّباعهما. ثم هناك القناعة الكامنة أنّ ما أحلّه الاسلام فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرّمه الاسلام فهو حرام إلى يوم القيامة، ويعني هذا ضمناً أن الاسلام أوّل الأديان وآخرها، وأنّ أمته آخر الأمم. ومن هنا كان الأتباع هو المطلوب وليس الابتداع. مكان الطاعة عند الوليد الثاني يأتي الأتباع عند عمر الثاني. لكنه اتّباع يشمل هو أيضاً بل هو بالدرجة الأولى: انما أنا منفّذ! لست بمبتدع ولكني متبع. ثم هو في مصالحة مع النفس والأخر وتاريخ الأمة. انه جزء من السلطة الاسلامية التاريخية: «سنن رسول الله وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله...». فالسنة ليست اتّباع

(١٥٦) ما بين الحاصرين فقرة وردت قبل الخطبة في ابن عبد الحكم ص ٤١ فقط، وقد رايت انها جزء من الخطبة.

الكتاب والرسول فقط، بل هي في الماضي على ما مضت عليه السلطة الإسلامية قبل عمر الثاني. وإذا كان عمر بن عبد العزيز متبعاً لسنن من قبله أو ساعياً لذلك، فإن هذه السنن معروفة، ويمكن لمن شاء أن يتحقق من مدى اتباعه. فهو ليس أفضل الناس، وهو مسؤول أمامهم. فإذا تأملنا نص «امارة المؤمنين» هذا وجدنا أنه نص داخلي أو أنه موجّه للجماعة الإسلامية، ويتضمن برنامجاً داخلياً أو فلسفة للنهج الذي سيسير عليه عمر في الداخل. والمؤمنون الذين يتوجّه اليهم عمر يريدون وضوحاً في الخطوط العامة لسياسته وهو يقدّمها لهم بلغة واضحة، وأن تجاهلت المسؤوليات العالمية للإسلام والمسلمين، وموقعهم في خط النبوة والكتاب والمواريث الإلهية، فإنها لا تتناقض معها، لكنها تقدّم عليها المشكلات الداخلية للمسلمين التي يبدو أنها كانت قد تفاقمت مع انصراف ولاة الأمور السابقين إلى فرض الاستقرار، ومحاولة حفظ هذا الاستقرار الداخلي بالتركيز على الواجبات العالمية أو الإسلامية للمسلمين وخلافتهم. فالمصطلحات / المفاتيح عند عمر الثاني هي: السنن، والكتاب، والحلال والحرام، والاتباع والابتداع. وهي مصطلحات لا تتناقض ومصطلحات الوليد الثاني: الإسلام والنبوة، والطاعة والمعصية، وخلافة الله، والعهد. صحيح أن عمر بن عبد العزيز لم يذكر العهد والخلافة لكنه اعتبر سلوك ولاة الأمر السابقين سنناً حقيقية بالاتباع. بل قبل هو نفسه أن يكون خليفة أو أميراً للمؤمنين بعهد من سليمان بن عبد الملك. ولم يكن بحاجة للحديث عن العهد لمن بعده لأن سليمان نفسه عهد لعمر ومن بعده ليزيد بن عبد الملك^(١٥٧). وقد اعترف عمر بالعهد ليزيد بدليل أنه لم يتعرّض له، وقد وصل يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ) للسلطة بعد عمر الثاني فعلاً. وقد تجاهل عمر الثاني في خطبته الأولى الواجبات العالمية للمسلمين تجاه الإسلام بالدعوة والجهاد، لكنه لم يكن يريد تحويل الأمة إلى جماعة دينية صغيرة، بدليل أنه أكد مسألة الوراثية والاستخلاف والتمكين في خطب أخرى له. لكنه اعتبر الاستخلاف وعداً غير أبدي ولا أزلي كما فعل الوليد الثاني. أن الله سبحانه أنجز ما وعد به المسلمين، فإن لم يقم المسلمون من جانبهم بما عليهم من رعاية حقوق الله في أنفسهم، وفي عباد الله، فإن الله سبحانه سيغيّر ما بهم أو أن وعيده سيتلو وعده^(١٥٨): (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون)^(١٥٩). لقد انصرف

(١٥٧) في رواية في مناقب عمر لابن الجوزي ص ١٥٤ أن عمر الثاني قال إنه كان سيستخلف اسماعيل بن عمرو بن سعيد

ابن العاص أو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق لو لم يستخلف سليمان بعد عمر ثم يزيد بن عبد الملك!!.

(١٥٨) سورة فصلت / ١٧.

(١٥٩) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص ٧٥.

عمر للقيام بمهام إمارة المؤمنين، مؤجلاً الواجبات الخارجية أو المهام الخارجية إلى حين، فأقفل الجند المحاصرين للقسطنطينية بعد أن منوا بعدة هزائم، وأجرى مصالحات داخلية مع الخوارج والشيعية، وضبط موارد ومصارف الأسرة الأموية بعد أن استفحلت الخصومة بينهم وبين الناس، وأعاد النظر في مسائل الخراج والفيء لتنظيم موارد الدولة، واهتم بمسائل العدالة في الأمصار والولايات. فالفروق موجودة وواضحة بين خلافة الله المجاهدة، التي تعتبر نفسها هي الأمة، وهي المسؤولة بالتالي عن العالم كله، وبين إمارة المؤمنين التي تعتبر المسؤولية مشتركة بين الأمة والامام، والتي ترى أن الأمة لا تستطيع أن تقوم بمهام الوراثة العالمية أن لم تكن أمورها الداخلية منتظمة وموحدة. لكن هذه الفروق لا تصل إلى حد التناقض، بل تنطلق من رؤية واحدة^(١١٠). إنما الخلاف أو الفروق تكمن في الأولويات السياسية أو السلوكية أو في الفهم لضرورات هذه الأولويات. يتحدث الوليد بن عبد الملك عن والده «خليفة الله» عبد الملك بن مروان فيقول انه حظي برضا ربه ولا شك^(١١١): «... لما أقام من منار الاسلام وأعلامه، وحج البيت، وغزو هذه الثغور، وشن الغارات على أعداء الله...». لقد أشاد الوليد بن عبد الملك بواجب طقس واحد قام به عبد الملك هو حج البيت. وحتى هذا الواجب الطقسي له معنى سياسي. أما بقية انجازات عبد الملك فتقع في جانب «خلافة الله» وليس في جانب «إمارة المؤمنين»، هذا مع العلم بأن قيادة المؤمنين في الجهاد، واستعمار الأرض، عمل من أعمال «إمارة المؤمنين» أيضاً بقدر ما هي مهمة من مهام خليفة الله أو خلافة الله. فاذا رجعنا إلى عمر بن عبد العزيز من خلال السير التي كتبت له نجد أن الغالبية العظمى من أعماله ورسائله تنصب على محاولة اجراء العدالة التفصيلية بين المسلمين، لذلك فعندما رثاه مسلمة بن عبد الملك لم يجد غير القول^(١١٢): «يرحمك الله يا أمير المؤمنين! لقد ألت منا قلوباً قاسية، وزرعت في قلوب الناس لنا مودة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً».

أما يزيد بن الوليد فقد وصل للسلطة في ظروف غير عادية على اثر ثورة قام بها انتهت بقتل «خليفة الله» الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ)، ومبايعته هو بالسلطة. لقد دعا للشورى في مواجهة الوليد بن يزيد، كما قال في رسالته إلى أهل العراق^(١١٣)، لكنه قبل

(١١٠) في ابن عبد الحكم ص ٥٤ أن عمر لم يكن يريد ان يسميه احد خليفة الله. كما أن عمر لم يكن يعتقد أن الخلافة تعصم أو تنجي من الذنوب، قارن بأنساب الأشراف م^٢/ ق ٢٥٣.

(١١١) قارن بالملاحظة ١٢٦.

(١١٢) مناقب عمر لابن الجوزي ص ١٥٥.

(١١٣) انظر عن رسالته إلى أهل العراق: أنساب الأشراف م^٢/ ق ٣٣٩-٣٤٠، وتاريخ الطبري ١٨٤٣/٢-١٨٤٥. وللرسالة

ترجمة في: Crone, Hinds: God's caliph 126-128

البيعة له عند مقتل الوليد بن يزيد وتجاهل دعوته السابقة، شأنه في ذلك شأن عبد الله بن الزبير (٦٥-٧٢هـ) قبل سبعين عاماً. ولأنه جاء بعد ثورة، ولم يكن الجميع راضين، فإنَّ منطقتَه في خطبته الأولى كان منطق الاسترضاء، والتواضع، والتقرب إلى الناس. وهناك من يقول إنه كان قديراً أو غيلانياً^(١٦٤)، وأن ما قاله هو مقتضى العقيدة السياسية للقدرية. قال يزيد بن الوليد أنه ما ثار من أجل السلطة والملك والمال والدنيا: «ولكنني خرجت غضبا لله ورسوله ودينه، داعياً إلى الله وكتابه وسنة نبيه ﷺ، لما هُدمت معالم الهدى. وأطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة والراكب لكل بدعة...». ما أرادَه اذن اعادة الأمور إلى نصابها، باتباع الكتاب والسنة. ومقتضى ذلك تجاه الأمة في نظره: عدم الاسراف في البنيان، وانفاق موارد الناحية المعنية فيها. وعدم تجمير الجند في الثغور، واجراء العدالة للضعفاء، وعدم ظلم أهل ذمة المسلمين، ودفع أعطيات الجند وارزاقهم في اوقاتها المحددة. وكل هذه الالتزامات هي جزء من صيغة العقد بينه وبين الناس. فان لم يف بذلك فلهم ان يستتبيوه، فان لم يتب فان العقد يعتبر لاغياً لمخالفة «امير المؤمنين» لشروطه، وعندها لا طاعة له لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

كان عمر بن عبدالعزيز قد احتفظ لنفسه بحق الفتوى والقضاء ان لم تكن هناك سابقة من قرآن أو سنة^(١٦٥): «أما ما حدث من الأمور التي تبطل الأئمة بها مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبي ﷺ فان والي المسلمين وامام عامتهم، لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضى فيها دونه، وعلى من دونه رفع ذلك إليه، والتسليم لما قضى». أما يزيد بن الوليد فانه لم يدع لنفسه شيئاً، وذكرنا بالخطبة المنسوبة لأبي بكر الصديق عندما بويع بالخلافة: ^(١٦٦) «إني وليت عليكم ولست بخيركم. فان احسنت فأعينوني، وان أسأت فقوموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم...» ولا شك أن مضامين هذه الخطبة تتجاوز الفروق، والتأكيد على الأولويات بين خلافة الله وامارة المؤمنين. ان مفهوم امارة المؤمنين لدى يزيد بن الوليد هو مفهوم تعاقدي خالص بدليل تأكيده على حق الأمة في عزله أن خالف شروط العقد. وهذا ما لا يتفق ومقتضيات خليفة الله، وخلافة الله. انها خطبة ثورية حقاً تريد العودة للأصول، إلى عهد

(١٦٤) قارن بأنسب الاشراف م^٢/ق٢٢٦، ٣٢٩، ٣٢٠-٣٢١، وتاريخ الطبري ١٨٢٨/٢ - ١٨٣٢.

J. van Ess: La Qadariya et la Gaïlaniya de Yazid III; in: Studia Islamica XXXI, 1970, 269ff.

وانظر قراءة مختلفة للقدرية في بلاد الشام في العصر الأموي، احسان عباس، في مجلة الأبحاث بالجامعة الأمريكية ببيروت م ١٩٥٦/٩ ص ٣٤٢-٣٢٦.

(١٦٥) ابن عبدالحكم ص ٧٤-٧٥.

(١٦٦) تاريخ الطبري ١٨٢٩/١، وسيرة ابن هشام ٢/٣٧٤.

أبي بكر بالذات. وهي المحاولة الإصلاحية الثانية في الحقبة الأموية الثانية بعد محاولة عمر بن عبدالعزيز. لكنها كانت تدعى لنفسها جذرية أشد وأعمق. ففي رواية للمدائني أن قيس بن هانيء العبسي قال للخليفة الجديد بعد طلبه إلى الناس تجديد البيعة له^(١٦٧):
يا أمير المؤمنين! اتق الله ودم على ما أنت عليه، فما قام احد مقامك من أهل بيتك، وأن قالوا: عمر بن عبدالعزيز! فأنت أخذتها بحبل صالح، وأن عمر أخذها بحبل سوء! ويعني هذا أن يزيد بن الوليد وصل للسلطة عن طريق «ثورة شعبية» بلغتنا اليوم، بينما وصل عمر بن عبدالعزيز بتولية من سبقه له. أن يزيد بن الوليد في نظر أنصاره من الغيلانية فريد بين أهل بيته من هذه الناحية، بل هو فريد في التاريخ الاسلامي السابق عليه كلاً ما عدا حالة أبي بكر الصديق. فأبو بكر فقط ولآه الناس مباشرة دونما تعيين من أحد. لكن محاولة يزيد ابن الوليد شأن سائر المحاولات الجذرية - سرعان ما فقدت حماسها وبراعتها، وعين يزيد بن الوليد أخاه ابراهيم ولياً للعهد مخالفاً بذلك مبادئه، ثم ما لبث هو نفسه أن توفي بعد مرض لم يمهل غير ايام فكانت ولايته ستة أشهر تقريباً. لكن يزيد ابن الوليد لم يتخل عن الصورة الأموية التقليدية للخلافة تماماً، يتبين ذلك من استخلافه لأخيه، ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بن مروان^(١٦٨) مثلما فعل خصمه الوليد بن يزيد تماماً عندما استخلف ابنه الحكم وعثمان من بعده. كما يتبين ذلك من الكتاب الذي وجهه يزيد بن الوليد إلى العراق مع واليه منصور بن جمهور^(١٦٩): «إن الله اختار الاسلام ديناً وطهره وارتضاه... فكان له حافظاً ولأهله المقيمين حدوده ولياً... فلم يكرم الله بالخلافة احداً يأخذ بأمر الله وينتهي اليه فيناوئه أحد... أو يحاول صرف ما حباه الله به إلا كان كيده الأوهن... فتناسخت خلفاء الله ولاة دينه، قاضين فيه بحكمه، متبعين فيه لكتابه، فكانت لهم بذلك من ولايته ونصرته ما تمت به النعم عليهم، قد رضي الله بهم لها حتى توفي هشام. ثم أفضى الأمر إلى عدو الله الوليد، المنتهك للمحارم التي لا يأتي مثلها مسلم... الخ». هنا يقبل يزيد بن الوليد كل شيء من جديد: الخلافة كرامة من الله، والخلفاء خلفاء الله. والدليل على انحراف الوليد أن الله نصر يزيد عليه، ولو كان يزيد غير محق لما انتصر. والدليل على أن الأمور كانت رائحة قبل الوليد بن يزيد هو استمرار خلافة الله منتصرة على الخصوم حتى وفاة هشام. والحق أن هذه المحاولة الإصلاحية كانت ضيقة الحلقة، أنصارها أهل المرة فقط. أما الآخرون فمشوا مع يزيد بن الوليد

(١٦٧) تاريخ الطبري ٢/ ١٨٣٥ - ١٨٣٦.

(١٦٨) تاريخ الطبري ٢/ ١٨٦٩ - ١٨٧٠.

(١٦٩) أنساب الاشراف ٢/ق ٣٣٩ - ٣٤٠، وتاريخ الطبري ٢/ ١٨٤٣ - ١٨٤٥.

لأسباب شخصية أو قبلية. فلما قتل الوليد بن يزيد تحقق الغرض لثوار المصالح فانفضوا عن الثائر العقائدي يزيد بن الوليد فماتت ثورته قبل ان يموت شخصه. ويبدو أنه أحسّ بالغرابة، وعدم التأييد بعد قتل الوليد، فحاول العودة إلى ما تعوده الناس، إذ استخلف كما استخلف السابقون، واعترف بكل خلفاء الله السابقين حتى وفاة هشام. لكن الاضطراب القبلي الذي أحدثه بالشام مقتل الوليد بن يزيد ظلّ يتفاعل ايام مروان بن محمد، ويحدث انقسامات رهيبة بين القيسية واليمانية حتى انتهى الأمر بانحياز اليمانيين بالشام والعراق وخراسان إلى العباسيين فسقط الأمويون. يذكر عمر بن شبة في رواية عن معاوية أنه قال لكبار بني أمية أواخر أيامه^(١٧٠): «.. لأخبرنكم عني يا بني أمية! لن يبرح هذا الأمر فيكم ما عظمت ملوكنكم. فاذا تمنأها كل امرئ منكم لنفسه وثب بنو عبدالمطلب في أقطارها وقال الناس: آل رسول الله! فكانت الخلافة فيكم كحجر المنجنيق يذهب امامه ولا يرجع وراءه...».

اتهم أبو حمزة الخارجي^(١٧١) في خطبته المشهورة بني أمية بالتجبر والفسق، وأكل أموال المسلمين، والسلوك فيهم سلوك الكفار. وعدّ خلفاءهم ومساوئهم فلم يوفّر غير عمر ابن عبد العزيز. لكنه لم يكن الوحيد بين معارضي بني أمية في اتهام هؤلاء في دينهم وسياستهم. فمنذ الصراع بين عليّ ومعاوية قبل حوالي المائة عام شاع القول القائل أنّ معاوية يقاتل للدنيا وعليها. واتهم القراء الذين ثاروا مع ابن الأشعث (٨٢ - ٨٤هـ) الأمويين بالابتداع والاحداث، والتجبر في الدين، واغتصاب السلطة، وسفك دماء المسلمين بغير حق، وامانة الصلاة، والاستئثار بالفيء^(١٧٢). ولم تكن حال الأمويين مع الدارسين المحدثين خيراً من ذلك. وان اختلفت الأسباب. افتتح ذلك يوليوس فلها وزن معتبراً «الدولة الأموية» دولة عربية، والأمويين سلاطين قوة وسياسة ودنيا^(١٧٣). وهذه الدنيوية بالذات، بالاضافة إلى العصبية العربية، هما ما أشاد به لامنس H. Lammens في دراساته جميعاً عن الأمويين، والعهد الاسلامي الأول. رأى لامنس أنّ الأسرة الأموية كانت أشدّ الأسر القرشية عداً للنبي والاسلام، ولم يسلموا إلا بعد أن اضطروا لذلك عند فتح مكة. وعندما وصلوا للسلطة بمساعدة العرب الشاميين (وبخاصة المسيحيين من

(١٧٠) الأوائل لأبي هلال العسكري ١/٣٤٤.

(١٧١) انظر عن خطبة أبي حمزة الخارجي: انساب الأشراف م^٢/ق ٣٧٥-٣٧٧، والبيان والتبيين ٢/١٢٢-١٢٤، والأغاني ٢٣/٢٤١-٢٤٣. وبين المصادر اختلافات في الرواية، وغلط بين كلامه بمكة وكلامه بالمدينة. وقران بالأغاني ٢٠/١٠٥-١٠٨. وهناك ترجمة انجليزية لها في: Crone, Hinds; God's Caliph 129-132.

(١٧٢) رضوان السيد: ثورة ابن الأشعث، مرجع سابق، ص ٣٤٠-٣٤٥.

(١٧٣) J. Wellhausen: Das arabische Reich und sein Sturz 123ff.

بينهم)، وكانت ما تزال تحركهم العصبية القبلية العربية، والعداء للقرشيين الآخرين الذين أسلموا مبكراً، وقاتلوا الأمويين مع النبي ﷺ، وقتلوا بعض وجهائهم، لذلك سلكوا سلوكاً انتقامياً (باعتبارهم ضعفاء الاسلام) ضد المهاجرين والأنصار الأولين، وأسسوا دولة عربية شامية إن لم تصرح بالعداء للاسلام جهراً، فقد عادت سرّاً على أي حال^(١٧٤).

والاهتمام بلقب «خليفة الله» قديم أيضاً لدى الدارسين، قدم الاهتمام بالدولة الأموية نفسها. وكان غولدزيهر Goldziher أول من بحث المسألة في مقالة مختصة، فتوصل إلى النتيجة التي توصل إليها المؤرخون المسلمون قديماً. إذ قال إن معنى اللقب: خليفة رسول الله المثبت من الله^(١٧٥) لكن الدارسين بعده توصلوا إلى أن معنى اللقب: المستخلف من الله أو المعين من الله^(١٧٦). والحق أن اللقب كما يظهر في النصوص التي عرضناها منذ أيام عبد الملك بن مروان على الأقل، لا يسمح بغير هذا التأويل. وفي النصوص ما يشير إلى استعمال اللقب أو إلى معرفته منذ أيام أبي بكر وعمر^(١٧٧) لكننا لا نملك ما يشير إلى معناه آنذاك، وإن كنت أرجح كما عرضت سابقاً أن معناه الاستخلاف في الأرض حسب الرؤية القرآنية لوراثة النبوة والكتاب والسلطة والأرض من جانب العرب المسلمين. وهناك ما يشير على أي حال إلى أن لقبى أمير المؤمنين، وخليفة رسول الله قديمان أيضاً^(١٧٨). بل يبدو أنهما أقدم من لقب خليفة الله لأنهما بقيا إلى جانبه، ولو كان اللقب بمعناه الذي ذكرناه قد استعمل أولاً لما كانت هناك حاجة للقبين الآخرين. ولهذا بقي الآخران، وبخاصة لقب: أمير المؤمنين، مع التأكيد على استخدامه في مخاطبة «خليفة الله» من جانب رعايا المسلمين. فقد جاء في بعض النصوص القول^(١٧٩). خليفة لله في خليقته، ولرسوله في أمته.

H. Lammens: Etudes sur le regne du Calife Omaiade Moawia Ier: Beyrouth 1906; ders. L'Avènement des Marwanides et le Califat de Marwan Ier. Beyrouth 1927. (١٧٤)

I. Goldziher: Du sens propre des expressions Ombre de Dieu, Khalife de Dieu; in: Revue de l'Histoire des Religions 35 (1897). (١٧٥)

D.S. Margoliouth: The Sense of the title: Khalifah; in: Volume of Oriental Studies: وقارن بمقالة ذات طابع لغوي: Presented to E.G. Browne 1922. (١٧٦)

W.M. Watt: God's Caliph-Qurani: Interpretations and Umayyad Claims; in: Iran and Islam. 1971; R. انظر: Paret: Halifat Allah-Vicarius Dei; in: Melanges d'Islamologie 1974; ders. Signification coranique du Halifa et d'autre derives de la racine Halafa; in: Studia Islamica 31 (1970) P.Crone and M.Hinds: God's Caliph-Religious authority in the first centuries of Islam 1986. (١٧٧)

قارن بمسند أبي بكر للأموي ص ٦٢، والبداية والنهاية ٢٤٨/٥.

(١٧٨) تاريخ الطبري ٢٧٤٨/١، والأوائل للمسكري ٢٢٢/١ - ٢٢٣.

(١٧٩) Crone and Hinds; op. cit. 17

لكن الدارسين حاولوا أيضاً معرفة مصدر هذا اللقب، ومصدر مضامينه، وبخاصة أنّ محمداً ﷺ هو خاتم النبيين، وأنّ فكرة الشورى والطابع التعاقدى للسلطة، كلاهما، وهما مسألتان قديمتان في الاسلام الأول، تتناقضان ظاهراً مع ما يوحيه لقب «خليفة الله». فذهب تيان^(١٨٠) إلى أنّ اللقب ذو أصول بيزنطية وفارسية، ووافقه في ذلك Rudi Paret مع التأكيد على العناصر البيزنطية^(١٨١) بينما ذهب كلٌّ من P. Crone, M. Cook إلى أنّ اللقب ذو أصول سامرية يهودية، وبخاصة أنّ المسلمين يرجعون في ذلك إلى داود كما يرجع السامرة التي يرد لديها لقب: حليفت يهوه^(١٨٢). لكن فكرة الاستخلاف في الأرض والنبوة والسلطة تنتشر في القرآن كلّها، ولا تقتصر على داود، بل إنّ المقصود بالخليفة في قوله تعالى: (اني جاعل في الأرض خليفة) في نظر المفسرين المسلمين آدم نفسه، لذلك قال النووي إنّ اللقب قصر على آدم وداود، ولا يجوز اطلاقه على أحد غيرهما^(١٨٣). إنّ هذه الرؤية القرآنية لمسألة الخلافة تهبطها معنى دينياً، ومهمة رسالية في العالم. ولعلّ هذا هو معنى فكرة المهديّة، والسبب الكامن وراء انتصار «خلفاء الله» من العباسيين الذين حملوا ألقاباً أخرى أيضاً يضيف إلى الطابع الديني للقب أبعاداً مهديّة ونشورية مثل المنصور والمهدي والهادي والرشيدي... الخ. وهناك ما يدلّ على هذا المعنى للقب خليفة الله في عهد عثمان بن عفان، ففي الطبري وتهذيب الكمال للمزّي أنّ الصحابي حنظلة الكاتب أنشد عندما رأى الثوار على عثمان بالمدينة:

عجبت لما يخوض الناس فيه يرجون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بعده شراً وبيلا
وكانوا كاليهود وكالنصارى سواء، كلّهم ضلّوا السبيلا

ومع هذا كلّها، فإن تصوّر الوليد بن يزيد للخلافة كما عرضه بتلك اللغة الجدلية اللاهوتية الباردة، يبقى غريباً في البيئة العربية الاسلامية. لكن ليس هذا هو ما يهمننا الآن. ما يهمن هو بحث غرض الأمويين بالذات من وراء اللقب. لقد فهمته باعتباره تصوراً ايديولوجياً كانت لدى المسلمين اكثر عناصره. فاستخدمه الأمويون لتثبيت سلطتهم، وتحويلها إلى مؤسسة. لكنّ هناك من يريد المقابلة بين «خليفة الله» و«رسول الله». ذاهباً

(١٨٠) E. Tyan: Institutions du droit public musulman, vol. I. le califat, Paris 1954, pp. 202, 439 ff.

(١٨١) انظر المرجعين السابقين في الملاحظة رقم ١٧٦.

(١٨٢) المرجع السابق لهما، ص ١١٤ - ١١٥.

(١٨٣) فتاوى النووي ص ٢٨.

(١٨٤) تاريخ الطبري ١/٣١٠ - ٣٠١١، وتهذيب الكمال للمزّي م/١ ق ٣٤٣.

إلى أن الأمويين كانوا يتحدّون بذلك رسالة الرسول، ويحاولون تأسيس «سنة خلافة» تواجه «سنة رسول الله»^(١٨٥). وإذا كان الباحثون السابقون قد استندوا في تقليدهم من شأن اسلام الأمويين على سلوك بعض خلفائهم المناقض لأحكام الدين، فإن هذه الدعوى الأخيرة تستند إلى رؤية شاملة لتاريخ الاسلام الأول كلّه ليس من شأننا هنا الخوض في تفاصيلها^(١٨٦). لكن مؤداها فيما يتصل بموضوعنا أن الاسلام منذ دعوة الرسول «إليه ذوطابع تبشيري خلاصي غلاب. لذلك فإن الذين تولّوا الأمر بعد رسول الله ﷺ - باستثناء أبي بكر الصديق (ولم أستطع أن أفهم استثناءهم له رغم جهدي البالغ) كان كلّ منهم يضع نفسه في موضع المخلص أو المنقذ، أي يعتبر نفسه بداية لحقبة جديدة للمهدية والخلص والرحمة والامن، وهذا هو معنى التأكيد على خلافة الله في نظرهم. وما دام الأمر كذلك فانهم كانوا بالضرورة يصطدمون بالاتجاهات الأخرى التي بدأت تظهر وتسدود في أوساط العامة عن أحكام كتاب الله وتطبيقها، وعن «سنة رسول الله» الواجبة الاتباع. لكن ليس فيما بين أيدينا من نصوص المصادر ما يؤيد هذه الدعوى، إذ لم نجد ما يشير إلى أن الأمويين أو بعض خلفائهم حاولوا أو حاول خلق «تقليد أموي خاص» أو دين بديل!!.

جاء في رواية عن أبي الدرداء (٥٣٣هـ - ١٨٧): ما رأيت أشبه برسول الله ﷺ من أميركم هذا - يعني معاوية. وفي رواية عند ابن عساكر أن معاوية كان يحرص على استدعاء سكان القرى المحيطة بدمشق لاقامة الجمعة داخل مصر، إذ كان من مذهبه أنه لا صلاة لمن يسمع إلا في مصر^(١٨٨). وعندما جرت محاولة ثانية لاغتياله أثناء صلاته بالناس ببيت المقدس حرص على أن يتم الناس صلاتهم^(١٨٩). وروى الشافعي^(١٩٠) بسنده عن ابن عباس أنه رأى معاوية صلّى العشاء ثم أوتر بركة واحدة لم يزد فقال كريب مولي ابن عباس له، فقال ابن عباس، أصاب أي بني!. ليس أحد منا أعلم من معاوية! هي واحدة أو خمس أو سبع أو أكثر. وفي ابن عساكر بسنده إلى ابن سعد عن علقمة بن أبي علقمة عن أمه قالت^(١٩١): قدم معاوية فارساً إلى عائشة أن أرسلني إليّ بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره. فأرسلت به معي أحمله حتى دخلت عليه. فأخذ الأنبجانية فلبسها، ودعا

(١٨٥) Crone, Hinds,; op. cit. 43ff. - 97ff.

(١٨٦) P.Crone, and M. Cook: Hagarism: The Making of the Islamic World. Cambridge 1977.

(١٨٧) سير اعلام النبلاء للذهبي ١٣٥/٣.

(١٨٨) تاريخ دمشق الكبير ١/١٢٤ - ١٢٥.

(١٨٩) المعرفة والتاريخ للفسوي ١/٤١٣.

(١٩٠) مسند الشافعي ١/١٠٨.

(١٩١) تاريخ دمشق الكبير ١٦/٣٦١.

بماء فغسل الشعر فشربه، وأفاض على جلده. وفي الصحاح عن معاوية بطريق ابن عباس أن معاوية لما احتضر قال^(١٩٢): أني كنت مع رسول الله ﷺ على الصفا، واني دعوت بمقص فأخذت من شعره. وهو في موضع كذا وكذا. فإذا أنا مت فخذوا ذلك الشعر فاحشوا به فمي ومنخري. والمعروف عن معاوية أنه كان شديد الاعتزاز باستقبال رسول الله ﷺ له. واستعماله كاتباً عنده.

وفي ابن عساكر عن الليث عن بكير عن بسر بن سعيد^(١٩٣) أن سعد بن أبي وقاص قال: ما رأيت أحداً بعد عثمان أفضى بحق من صاحب هذا الباب، يعني معاوية. ولكنه لم يكن يقضي بنفسه في العادة، بل كان حريصاً على أن يكون قضاة بالشام بالذات من الصحابة، فبعد أبي الدرداء (-٣٢هـ) الذي يقال إن عمر عينه، عين أو استقضى الصحابي الشامي الأنصاري المعروف (-٥٣هـ) فضالة بن عبيد وقال له^(١٩٤): والله ما حابيتك بها، ولكنني استترت بك من النار، وكان يستخلف فضالة^(١٩٥) على دمشق عندما يخرج منها. وقد شجع معاوية أبا الدرداء وفضالة بن عبيد على اقراء القرآن بالشام^(١٩٦)، وعنهما انتشرت القراءة. ويقال أن معاوية استعمل بعد فضالة أنصارياً آخر هو النعمان ابن بشير الأنصاري (-٦٥هـ) وهو صحابي أيضاً^(١٩٧). واستعمل أخيراً قبل وفاته بلال ابن أبن الدرداء^(١٩٨). الذي ظل قاضياً حتى استقرار الأمور لعبد الملك بن مروان. ويذكر أبو زرعة الدمشقي^(١٩٩) بسنده عن مالك بن أنس (-١٧٩هـ)، سئل مالك بن أنس من أول من استقضى، فقال معاوية! فقيل له. فعمراً فقال: لا! فقال له رجل من أهل العراق: أفرأيت شريح! فقال: كذلك يقولون!. ثم قال: كيف يكون هذا يستقضى بالعراق، ولا يستقضى بغيره؟ ليس كما تقولون!. كان معاوية اذن حريصاً على مراعاة الشعائر بدقة، كما كان حريصاً على ربط نفسه في كل مناسبة برسول الله ﷺ. ومن هذا الباب استعماله لقضاة من الصحابة، ومن أهل المدينة أو من المهاجرين إليها باعتبارهم أعلم الناس بأقضية رسول الله ﷺ وأصحابه الأوائل من الخلفاء الراشدين. وليس هناك في سيرته ما

(١٩٢) صحيح البخاري ٤٤٩/٣، وصحيح مسلم رقم ١٢٤٦.

(١٩٣) تاريخ دمشق الكبير ١٦/١٦٦٣

(١٩٤) تاريخ أبي زرعة ١/١٩٩، وقضاة دمشق لابن طولون ص ٢.

(١٩٥) تاريخ أبي زرعة ١/١٩٩، ٢٢٢.

(١٩٦) سير أعلام النبلاء ٣/١١٦.

(١٩٧) أبو زرعة ١/١٩٩.

(١٩٨) أبو زرعة ١/١٩٩ - ٢٠٠. وابن عساكر ١٠/٣٩٥.

(١٩٩) أبو زرعة ١/٢٠٥.

يشير إلى تقليد خاص به أو سنة خاصة به، فيما عدا ما يقال عنه وعن باقي الأمويين من امانتهم للصلاة بتأخيرهم لها، لكن اصرارهم على ذلك، وعلى تقديم الخطبة على الصلاة في العيدين تقليد أخذوه عن عثمان كما كانوا يقولون^(٢٠٠). وعمر بن عبد العزيز الذي غير كثيراً مما اعتبره ابتداءً من جانب السابقين عليه من خلفاء بني أمية، أصر على الإبراد بالصلاة، وعلى بعض التفاصيل الأخرى مثل التكبير قبل الركوع، واعتبار بسم الله الرحمن الرحيم «آية» من كل سورة وكل ذلك مأخوذ في نظر عمر الثاني وأسلافه عن عثمان، ويوافقه عليه المدنيون أو أكثر فقهاءهم^(٢٠١) فقد كان الأمويون يتجنبون الفقه والقضاء العراقيين لأسباب سياسية، ويتمسكون بالتقاليد المدنية، وبخاصة أن المدينة كانت «دار الهجرة والسنة»^(٢٠٢). وقد شاعت بينهم قولة أحدهم^(٢٠٣): إذا كان عقل الرجل حجازياً، وخلقه عراقياً. وطاعته شامية فقد كمل. وإذا كان معاوية قد اعتمد على الأنصار وتلامذتهم في القضاء بالشام، فإن عبد الملك بن مروان تربى بالمدينة، ويقال إنه كان أحد فقهاء الواعدين^(٢٠٤). وقال في إحدى خطبه بالمدينة بعد مقتل ابن الزبير^(٢٠٥): أن أحق الناس أن يلزم الأمر الأول لأنتم... فالزموا ما في مصحفكم الذي جمعكم عليه الامام المظلوم رحمه الله، وعليكم بالفرائض التي جمعكم عليها إمامكم المظلوم، فانه استشار في ذلك زيد بن ثابت - ونعم المشير كان للإسلام رحمه الله. فاحكما ما أحكما، وأسقطا ما شدَّ عنهما. وزيد بن ثابت أنصاري مدني أسهم في جمع القرآن أيام عثمان، كما أسهم - كما يقول عبد الملك في الافتاء بشأن المواريث. والمعروف أن بداية علاقة محمد بن شهاب

(٢٠٠) يرد اتهام الأمويين بذلك في الموقفيات ص ١٠٤، وتاريخ الاسلام ٢٢٩/٣، وتاريخ أبي زرعة ٣٤١/١ - ٣٤٢. ولذلك آثار في الأحاديث ودواوينها في كيفية السلوك عند تأخير الصلاة عن وقتها فهناك من يرى أن يصلي الصلاة لوقتها في منزله، ثم يأتي فيصلي مع الأمير أو الخليفة في المسجد الجامع. وهناك من يرى ضرورة انتظار صلاة الأمير مهما تأخر، قارن بالمصنف لعبد الرزاق ٣٧٩/٢ - ٣٨٧، ومسنند احمد ٤٤٥/٣. وفي البداية ١٦٦/٩ أن رجلاً انكر على الوليد بن عبد الملك تأخيره للصلاة فقتله. وكان من عادة الأمويين أيضاً الجلوس على المنبر أثناء خطبة الجمعة: طبقات ابن سعد ١١٧/١/٤، والطبري ١٢٣٣/٢ - ١٢٣٤، والموقفيات ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢٠١) أبو زرعة ١/٥٠٨، ٥٠٩، ٥٢٠. وقد ضرب عطية بن قيس أخاه لأنه رفع يديه في التكبير فعزله الأمويون: أبو زرعة ٣٤٦/١ - ٣٤٧. وعزل عبد الملك أبا ادريس الخولاني عن الإمامة لأنه رفض رفع يديه في الصلاة: أبو زرعة ١/٦٠٤.

(٢٠٢) المعرفة والتاريخ للفسوي ٣٥١/١.

(٢٠٣) أبو زرعة ٣١٦/١.

(٢٠٤) احسان عباس: عبد الملك بن مروان ودوره في ثقافة عصره، في مجلة دراسات بالجامعة الأردنية م ١٣/١ع/١٩٨٦/١ ص ١٠٦.

(٢٠٥) طبقات ابن سعد ٢٣٣/٥.

الزهري (-١٢٤هـ) بعبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) كان سؤال عبد الملك له عن قضاء عمر بن الخطاب في أمهات الاولاد، فقد قال قبيصة بن ذؤيب كاتب عبد الملك، وأمين سرّه، وهو حجازي خزاعي^(٢٠٦)، ايضاً للزهري^(٢٠٧): لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله منذ استخلفه الله! ثمّ قاده إلى عبد الملك فقصّ عليه الزهريّ قضاء عمر في أمهات الأولاد^(٢٠٨). ولو كان عبد الملك يريد احداث «سنة» ملكية أو شامية خاصة لما اهتم لمسألة كهذه، ولما بحث عن قضاء عمر، وقضاء المدينة فيها. وهناك أقوال عنه في عدم استحسانه جمع السيرة النبوية بروح ثأرية ضد الأمويين الذين تأخّر اسلامهم^(٢٠٩)، لكن المعروف أنّ الزهريّ جمعها أيامه وأيام الوليد وهشام، وعلمها الخلفاء الأمويين واولادهم. كما دون لهم الحديث^(٢١٠) وفي مسند أحمد بسنده إلى غضيف بن الحارث الثمالي (-٨٠هـ) أنّ عبد الملك قال له مستشيراً^(٢١١): قد جمعنا الناس على أمرين، رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة! والقصاص بعد الصبح والعصر! قال غضيف: اما انهما أمثل بدعتكم عندي، ولست مجيبك اليهما! قال: ولم؟ قال لأن النبي ﷺ قال: «ما أحدث قومٌ بدعة إلا رفع مثلها من السنة». وقد ذكرنا من قبل خطبة لعبد الملك أراد فيها من أهل المدينة أن يقتصروا على قراءة القرآن، وقد فعل هو ذلك بدمشق إذ تابع تشجيع المحاولة التي بدأها معاوية حتى تحوّلت القراءة إلى مجالس دراسة منتظمة بالمسجد الجامع على يد هشام ابن اسماعيل المخزومي بدمشق، وعلى يد الوليد بن عبدالرحمن الجرشي بفلسطين^(٢١٢). وقد احتفظ الامام مالك في موطنه لعبد الملك ووالده مروان ببعض الفتاوي والأقضية باعتبارهما من فقهاء أهل المدينة^(٢١٣) وتعرف المصادر عن الوليد بن عبد الملك اقبالاً على قراءة القرآن. ثم انه حاول للمرة الأولى ان يوحد أقضية القضاة بجمعهم على قضاء قاضيه خالد بن معدان (١٠٤هـ)^(٢١٤) لكنه لم يفلح في ذلك على ما يبدو أو أنّ عمر بن

(٢٠٦) المعرفة والتاريخ ١/٥٥٧، وتاريخ الاسلام ٣/٢٩١.

(٢٠٧) ترجمة الزهري من تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر (نشرة ش. ن. القوجاني) ص ١٨، ٢٤، وتاريخ أبي زرعة

١/٤٠٨، والمعرفة والتاريخ ١/٤٢٤.

(٢٠٨) انظر عن قضاء عمر بن الخطاب في أمهات الاولاد: الأوائل للعسكري ١/٢٣٩ - ٢٤٠، والمعرفة والتاريخ ١/٤٤٢،

والفقيه والمتفقه ٢/٦٤، وتاريخ أبي زرعة ١/٤٠٨.

(٢٠٩) الاخبار الموفقيات للزبير بن بكار، ص ٣٢١ - ٣٢٣.

(٢١٠) ترجمة الزهري، مرجع سابق، ص ٢٨ - ٣٦، وأبوزرعة ١/٤١٣.

(٢١١) مسند احمد ٤/١٠٥.

(٢١٢) أبوزرعة ٢/٧١٣.

(٢١٣) احسان عباس، مقالة سابقة، ص ١٠٦ - ١٠٨.

(٢١٤) أبوزرعة ١/٦٠١.

عبد العزيز نقض ذلك، إذ نقرأ في تاريخ أبي زرعة الدمشقي بسنده عن سليمان بن حبيب الذي ظلّ قاضياً حتى خلافة الوليد بن يزيد^(٢١٥): «أراد عمر بن عبد العزيز أن يجعل أحكام الناس والاجناد حكماً واحداً ثم قال انه قد كان في كلّ مصر من أمصار المسلمين، وجند من أجناده، ناس من أصحاب رسول الله ﷺ وكانت فيهم قضاة قضاة بأقضية أجازها أصحاب رسول الله ﷺ، ورضوا بها وأمضاها أهل المصر، كالصلح بينهم، فهم على ما كانوا عليه من ذلك...». أما سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ) فنقرأ في خطبة بيعته^(٢١٦): «اتخذوا كتاب الله اماماً. وارضوا به حكماً. واجعلوه لكم هادياً ودليلاً. فانه ناسخ لما قبله ولا ينسخه ما بعده. وأعلموا عباد الله أنه ينفي عنكم كيد الشيطان ومطامعه كما يجلو ضوء الشمس الصبح إذا اسفر، وادبار الليل إذا عسعس». أما أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٤هـ) فكانت طبقة من الفقهاء قد تكونت بالشام. وسيطرت على أكثر المناصب الادارية بالإضافة للقضاء والقصاص وتعليم أولاد الخليفة واخوته^(٢١٧). فبطانة هشام تذكر أنّ علماء الناس الذين كانوا يفتون أيام هشام هم^(٢١٨): الزهري بالحجاز، ومكحول بالشام، وميمون بالجزيرة، والحسن بالعراق. وهشام يغار من الكنديين لأن كل فقهاء الشام منهم تقريباً^(٢١٩): رجاء بن حيوة بفسطين، وعبادة بن نسيّ بالأردن، ويحيى ابن يحيى بدمشق، وعدي بن عدي بالجزيرة. ومسلمة بن عبد الملك اخو الخليفة يقول^(٢٢٠): أنّ في كندة ثلاثة أنّ الله عزّ وجلّ ينزل بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء: رجاء بن حيوة، وعبادة بن نسي وعدي بن عدي. فالصالحون من الفقهاء والزهاد هم اولو البركة، وليس خليفة الله.

أما عمر بن عبد العزيز فقد درس بالمدينة على يد كبار علمائها من مثل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسعيد بن المسيّب، وعروة بن أذينة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وسالم بن عبد الله بن عمر، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، والزهري^(٢٢١). ولما ولي الخلافة استقدم منهم من رضي المجيء اليه، كما استعان بعلماء

(٢١٥) أبو زرعة ٢٠٢/١.

(٢١٦) عيون الاخبار ٢٤٧/٢، والعقد الفريد ٩١/٤.

(٢١٧) أبو زرعة ٦٠٧/١، وتاريخ دمشق الكبير ١٧٧/١٠ (بلال بن سعد بن تميم)، وأبو زرعة ٢٨٦/١ (وابصة بن معبد)، وأبو زرعة ٧٠١-٧٠٠/٢ (سليمان بن حبيب)، وأبو زرعة ٧١٣/٢، ٧١٥-٧١٦ (الوليد بن عبد الرحمن الجرشى، وشعيب بن أبي حمزة)، وأبو زرعة ٢٤٢/١ (علي بن أبي حملة)، وأبو زرعة ٢٣٩/١ (اسحاق بن قبيصة)... الخ.

(٢١٨) أبو زرعة ٣١٥/١.

(٢١٩) أبو زرعة ٧١١/٢.

(٢٢٠) أبو زرعة ٣٣٧/١.

(٢٢١) أبو زرعة ٧١٤/٢.

آخرين من مثل عراك بن مالك، وبسر بن سعيد، وابن أبي الزناد^(٢٢٢). ويعدّه أصحاب طبقات الفقهاء، ورجال علوم الحديث والسنة بين فقهاء التابعين^(٢٢٣). وقد احتفظت كتب القضاة، ومصنّفات ومسانيد الحديث ببعض فتاويه واجتهاداته. ويبدو من رسائله العديدة إلى ولاته، وأمره لواليه على المدينة أبي بكر بن محمد بن حزم بجمع السنن أنه كان يملك مفهوماً للسنة أوسع مما كان متعارفاً عليه^(٢٢٤). ففي خطبته التي أشرنا إليها من قبل، يقول: ^(٢٢٥) «سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله. وقوة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها...». فاعتبر السنة أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وسيرة الراشدين الأوائل أيضاً: ويبدو أنّ هذا المفهوم مدنيّ أيضاً بدليل، اننا نراه عند سعيد بن المسيّب والزهري^(٢٢٦) وقد أكدّ من جانبه على أنّ السنة مصدر تشريعي بعد الكتاب مباشرة، لذلك طلب من واليه على المدينة أن يدوّن السنن عن كبار التابعين وبخاصة عن عمرة بنت عبد الرحمن التي سمعت من عائشة أم المؤمنين، لتكون مصدراً تشريعياً كالقرآن لا يتطرق إليها الشكّ في الرواية وبالتالي في الحجية. وفي الوقت نفسه كتب إلى المصريين، وسائر الأمصار كتباً طويلة يخبرهم فيها بأهم السنن، والسوابق القضائية بالمدينة. بل أرسل إلى بعض الأمصار من يعلم أهلها السنن^(٢٢٧). وأمر لكل شاب يقبل على تعلّم القرآن والسنة بالمسجد الجامع بحمص بمائة دينار لكي يظّلوا متفرغين لذلك^(٢٢٨). وحدّد للمرة الأولى بوضوح موقع امام المسلمين من مصادر التشريع فقال^(٢٢٩): .. ليس لأحد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ أمر ولا رأي الآ انفاذه والمجاهدة عليه. وأمّا ما حدث من الأمر التي تبتلي الأئمة بها مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبي ﷺ، فإنّ والي المسلمين وامام عامتهم لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضي فيها دونه. وعلى من دونه رفع ذلك اليه، والتسليم لما قضى». وهذا بعد مراعاة الكتاب، وسنة النبي ﷺ، وما جرى عليه العمل في الأمصار من أقضية وافق عليها الصحابة النازلون

(٢٢٢) أبو زرعة ١/٤١٩ - ٤٢١.

(٢٢٣) طبقات الفقهاء للشرازي ص ٣٦ وما بعدها.

(٢٢٤) المعرفة والتاريخ ١/٤٤٢ - ٤٤٣، وتقييد العلم ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢٢٥) ابن عبد الحكم ٤١.

(٢٢٦) الفقيه والمتفقه ١/١٧٤، والمعرفة والتاريخ ١/٤٧٥، وأبو زرعة ١/٤١١.

(٢٢٧) أبو زرعة ١/٦٢٨.

(٢٢٨) أبو زرعة ١/١١٨، والمعرفة والتاريخ ١/٦٢٤.

(٢٢٩) ابن عبد الحكم ٤٢.

هناك. مغزى تصرفات عمر بن عبد العزيز كلها هو الاتباع لا الابتداع. والاتباع معنيّ به القرآن وسنة النبي والراشدين، وما جرى عليه العمل في الأمصار المختلفة. وطبيعيّ بعد هذا كله أن لا يكون هناك مكان لسنة الخلافة أو لسنة أموية. ثم أنّ الوليد بن يزيد على كثرة ما ابتلي به من اتهامات في دينه وشرفه، وجد من يدافع عنه في شخص الخليفة العباسي المهدي (١٥٩-١٦٩هـ) الذي قال إنّ الله سبحانه أرحم بالمسلمين من أن يوليّ خلافتهم زنديقاً^(٢٣٠)! أمّا يزيد بن الوليد فأراد العودة بالناس إلى سيرة أبي بكر وعمر. وهكذا فإنّ الأمويين الذين ما كانوا من أولياء الله الصالحين، لم يكونوا أيضاً مخترعي أديان أو تقاليد دينية جديدة. أمّا الخصوصيات التشريعية التفصيلية في بعض الشعائر والأقضية فهي خصوصيات شامية كان للعراقيين والمدنيين مثلها بل أكثر منها، ولا ينفرد الأمويون - كما أوضح عمر بن عبد العزيز - بالمسؤولية عنها.

لكنّ هناك أمراً آخر يتعلق بتطور علاقة الدين بالدولة. فقد فشل الأمويون، كما فشل من بعدهم العباسيون في إبقاء المؤسسة السياسية مهيمنة تماماً على الدين، وظهرت فئات الفقهاء والمحدثين التي استطاعت في النهاية أن تنتزع «الحجية الإسلامية» من يد الدولة رغم استمرار النزاع، وعدم اعتراف أيّ من الطرفين للآخر بذلك نهائياً. لكنّ هذا التطور التاريخي شيء، والزعم بأنّ الخلافة حاولت دائماً ابتداء «سنة» خليفية تنافس الرسالة والرسول، شيء آخر.

تحدّد عبارة الحسن البصري التي اقتبسناها سابقاً^(٢٣١) وصول معاوية للسلطة باعتباره نقطة تحول في طبيعة النظام السياسي الإسلامي. ويقول المحدثون المسلمون أنّ الخلافة تحوّلت إلى ملك. وترد في المصادر نصوص عن أول من استنتج ذلك، أو أطلق هذه التسمية على الأمويين. ففي بعض المصادر أنّ عبد الرحمن بن أبي بكر (-٥٧هـ) هو الذي استنتج هذا التغيّر، لكن ليس من مطلع عهد معاوية، بل عندما حاول معاوية بعد العام ٥١هـ أو ٥٦هـ مبايعة يزيد ابنه خليفة من بعده، إذ رفض عبد الرحمن ذلك مع من رفضوا من أبناء كبار الصحابة، وقال: إنما تريدون أن تكون هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل!^(٢٣٢). ومعنى هذا أنّ أهمّ خصائص النظام الملكي أو القيصري في نظر ابن أبي بكر: توارث السلطة؛ وإن يكن معاوية يتحدّث عن البيعة لا عن الوراثة. لكن في رواية أخرى أنّ

(٢٣٠) انساب الاشراف م٢/ق ٢١٤، ٢٣٥.

(٢٣١) قارن بالملاحظة رقم ٧٦.

(٢٣٢) قارن بالملاحظة رقم ٢٨.

معاوية نفسه هو أول من أطلق هذه التسمية على عهده عندما قال^(٢٣٣): «أنا أول الملوك». وذلك دون أن يذكر السبب أو الخصيصة التي ميّزته عن الخلفاء السابقين. لكننا نعلم أن معاوية كان حريصاً على الانتظام في سلك الخلفاء الثلاثة الأوائل، فمن المستبعد أن يكون هو نفسه قد سمى نظامه ملكياً. وما يهّمنا هنا أيضاً أصول هذا التصور ومعناه وتطوراتها لدى المحدثين بغض النظر عن مغزاه السلبي بالنسبة لرؤية سلطة الأمويين:

(أ) جاء في دواوين الحديث بإسناد متشابهة عن أبي هريرة بطريق أبي حازم مرفوعاً^(٢٣٤): «... قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعتة يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلف نبي. وأنه لا نبي بعدي. انه سيكون (أو ستكون) خلفاء فتكثر. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم...»

(ب) وتذكر المصادر عن عتبة بن غزوان (-١٧هـ) الصحابي ومؤسس مدينة البصرة قوله^(٢٣٥): «... لقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا ورق، الشجر.. فما أصبح منا اليوم واحد إلا وهو أمير على مصر من الأمصار... فانها لم تكن نبوة إلا تناسخت حتى تكون عاقبتها ملكا...».

(ج) حدّثنا ابن عليّة^(٢٣٦): «... عن أيوب عن أبي قلابة أن رجلاً من قريش يقال له ثمامة - كان على صنعاء - فلما قتل عثمان بكى فأطال البكاء فلما أفاق قال: اليوم أنتزعت النبوة وخلافة النبوة من أمة محمد ﷺ، وصارت ملكاً وجبرية من غلب على شيء أكله...» وعن أبي موسى الأشعري (حوالي ٥٠هـ) أنه قال بعد التحكيم^(٢٣٧): «إنما الامرة ما أوتمر فيه، والملك ما غلب عليه بالسيف...».

(٢٣٣) قارن بالملاحظة رقم ٦٤.

(٢٣٤) الأثر في مسند احمد ٢٩٧/١٢، وصحيح البخاري ٢٠٦/٤، وصحيح مسلم ١٠٧١/٣ رقم ١٨٤٢، وسنن ابن ماجه ٩٥٩/٢ رقم ٢٨٧١، ومسند أبي عوانة ٤٥٨/٤.

(٢٣٥) كتاب الفتن لتعيم ق ٢٣ ب ، والبيان والتبيين ٥٧/٢ - ٥٨ ، والاستيعاب ١٠٢٩/٣ ، والعقد الفريد ١٢١/٤ ، والبصائر والذخائر ١١/٢ - ١٢ ، والمعرفه والتاريخ ١/٣٤٠ بالفاظ مختلفة والرواية هنا عن الاستيعاب .

(٢٣٦) مصنف عبد الرزاق ٤٤٧/١١ - ٤٤٨ ، وطبقات ابن سعد ٥٦٩١/٣ ، ومصنف ابن ابي شيبة ٩١/١١ ، وتاريخ البخاري ١٧٦/٢/١ ، وتاريخ أبي زرعة ١/٦٣٠ ، والاستيعاب ٢١٣/١ ، والاصابة ١/٢٠٥

(٢٣٧) طبقات ابن سعد ٩٤/١/٤ ، وتاريخ الاسلام ٧٥/٢ .

(د) حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ حَدَّثَنَا شَرِيحُ بْنُ النُّعْمَانِ حَدَّثَنَا حِشْرَجُ بْنُ نَبَاتَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَمَهَانَ، قَالَ، حَدَّثَنِي سَفِينَةُ قَالَ^(٢٣٨)، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، الْخِلاَفَةُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ لِي سَفِينَةُ: أَمَسَكَ خِلاَفَةُ أَبِي بَكْرٍ وَخِلاَفَةُ عُمَرَ وَخِلاَفَةُ عَثْمَانَ! ثُمَّ قَالَ لِي: أَمَسَكَ خِلاَفَةُ عَلِيٍّ! قَالَ، فَوَجَدْنَاهَا ثَلَاثِينَ سَنَةً. قَالَ سَعِيدٌ، فَقُلْتُ: لَهْ إِنَّ بَنِي أُمِيَّةَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْخِلاَفَةَ فِيهِمْ (أَوْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا لَيْسَ بِخَلِيفَةٍ!) قَالَ: كَذَبَ بَنُو الزَّرْقَاءِ بَلْ هُمْ مَلُوكٌ مِنْ شَرِّ الْمُلُوكِ.

لقد رتبت هذه الآثار الواردة في الخلافة والملك ترتيباً يظهر بدايات ظهورها وانتشارها، وقدمها. وأحسب أن أقدمها الأثر رقم (أ) الذي يحدّد الفروق بين بني إسرائيل، وبين المسلمين. فالسلطة عند أولئك نبوية أي ثيوقراطية خالصة، في نظر المسلمين على الأقل. أما عند المسلمين فإنّ محمداً ﷺ خاتم النبيين، لذلك لا بدّ من خلفاء أو ملوك. والأثر يطلب من المسلمين أن يراعوا أنهم لا يستطيعون أن يطلبوا في ملوكهم ما وجدوه في نبيهم، فلا بدّ من الاقتناع بأنّ هناك تغيّراً، وأنه لا يستطيع أحد بعد النبي ﷺ المطابقة الكاملة بين المثال والواقع. أمّا الخطبة الواردة عن عتبة بن غزوان فتبدو أكثر تشاؤماً إذ تجعل من تحول «النظام النبوي» إلى «نظام ملكي» سنة عامة لا مهرب منها. وعتبة بن غزوان مقتنع أنّ ذلك آت لدى المسلمين بدون شكّ، لذا يدعو الله أن يموت قبل ذلك. لكنّ معنى هذا أنه لا يعتبر عهدي أبي بكر وعمر ملكيين. ويتضح ذلك تماماً في قولي ثمامة وأبي موسى الأشعري. إذ تبدأ الملكية عندهما بعد عثمان. بل أنّ ثمامة يعتبر مقتل عثمان نهاية لعهدي النبوة، وخلافة النبوة، وبداية لعهد الملك والجبريّة. أمّا أبو موسى الأشعري فيحدّد الفرق بين الامارة (أو الخلافة؟) والملك بأنّ الإمارة نتيجة للشورى، والملك يتوصّل اليه بالقوة. وهذا ما قاله الحسن البصريّ عن معاوية. ونصل إلى حديث سفينة المشهور فيبدو الأمر كلّه موجّهاً ضدّ الأمويين. ولا يكتفى سعيد بن جمهان (الزبيري الهوى) بتحديد الثلاثين عاماً للخلافة والباقي للملك، بل يريد هجوماً مباشراً على الأمويين فيبدو ذلك في العبارة الأخيرة في الأثر رقم (د) المنسوبة إلى سفينة راوى

(٢٣٨) مسند احمد ٥/٢٢٠، ٢٢١. ومسند الطيالسي ١٦٢/٢، وسنن ابي داود رقم ٤٦٤٦، ٤٦٤٧. وسنن الترمذي رقم ٢٢٢٦، وروايد ابن حبان رقم ١٥٣٤، ١٥٣٥، وللسندرك للحاكم ٧١/٢، ١٤٥. وفي سنن الترمذي ٢٥/٢ (ط- مصر ١٢٩٢هـ): «وهذا حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جمهان، ولا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جمهان». وفي تاريخ ابي زرع ١/٤٥٦ - ٤٥٧: سألت احمد بن حنبل عن حديث سفينة: الخلافة بعدي ثلاثون سنة يثبت؟ قال: نعم! قد رواه بهز عن حماد بن سلمة عن سعيد بن جمهان عن سفينة. وحسبت أنه قال: ورفع من ذكر بهز. وفي مصنف ابن ابي شيبة بسنده عن الوليد بن عقبة ١١/٩١: لم تكن نبوة إلا كان بعدها ملك. وقارن بتحفة الاشراف للمزي ٤/١٩٩.

الحديث: بنو الزرقاء^(٢٣٨) (المروانيون): ملوك من شرّ الملوك!! ولا يكتفي خصوم الأمويين بذلك بل يروون آثاراً في ذمّ معاوية، ومروان بن الحكم، بل والوليد بن عبد الملك، والوليد بن يزيد^(٢٤٠). ويثبت من ذلك كلّ لدى المحدثين، بل وفي بعض كتب عقائد أهل السنة^(٢٤١) الأثر عن سفينة الذي يجعل الأمويين ملوكاً في مقابل خلافة النبوة التي كان مقدراً لها أن لا تستمرّ أكثر من ثلاثين عاماً!!.

أن الواضح أنّ محاولات الأمويين لتأصيل سلطتهم وتثبيتها لا يمكن أن تفهم على أنها ببساطة احساس من جانبهم بالافتقار إلى الشرعية. فالبحث عن الشرعية كان همّاً واحداً من هموم متعددة، أو أنه كان جزءاً من تصوّر عامّ، وصورة شاملة عن الذات والآخر. إنّ خلافة الله «كانت رؤية شاملة لتنظيم اجتماعي وسياسي عالمي متصل بمفهوم وراثته الأمر والأرض. لقد رأى الطبري مثلاً في تاريخه أنّ النبوة والكتاب كانا في أعقاب نوح وإبراهيم، بينما كان الملك والسلطان في فارس منذ بيوراسب والضحّاك وحتى الساسانيين. والتقى هذان الخطان في النبي محمد ﷺ فورث وأمته النبوة والكتاب والأمر والأرض^(٢٤٢). لقد رأى أحد علماء السياسة المعاصرين^(٢٤٣) أنّ أهم أسباب استمرار السلطة ليس قدرتها على القمع، بل استعداد الناس للخضوع والطاعة. وقد كانت هناك مسألتان تحدّدان بالنسبة للعرب المسلمين موقفهم من سلطتهم في القرن الهجريّ الأول: مدى اقتناع السلطة بالمشروع الشامل للأمة في الرسالة والوراثة، وهذه هي الشرعية التأسيسية، ومدى قدرة السلطة على تحقيق الأمن والعدالة والتوازن في الداخل، وهذه هي شرعية المصالح. وقد طرأ الخلل بشكل أساسي على شرعية المصالح في العراق والحجاز وخراسان، فلمّا وصل الشام سقطت الدولة. لكنّ تمرد الحارث بن سريج في خراسان (١١٦ - ١٢٨هـ)، وظهور الدعوة العباسية يشير إلى بعض الخلل في الشرعية التأسيسية

(٢٣٩) في جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٨٧ في نسب الحكم بن أبي العاص) كان عثمان الأكبر ومروان وعبد الرحمن والحارث أشقاء أمهم اسمها أرنب، وهي من بني مالك بن كنانة، وهي الزرقاء التي كان يعبر بها عبد الملك وغيره من بني مروان، وهي بنت علقمة بن صفوان الكنانية..

(٢٤٠) قارن عن هذه الآثار: الفتن لنعيم بن حماد ق ١٢٦ - ٢٦، ق ١٣٠، وأنساب الأشراف ٥٨/١/٤، ومسند أحمد ٨٠/٣، والمستدرک ٤/٧٩، وتاريخ الإسلام ٣/٧٢. ويبدو أنّ بعض المحدثين أراد التخفيف عن بني أمية قليلاً فروي أثرًا عن أنس بن مالك (= مسند ابن أبي شيبة ١١/٩٧) جاء فيه: «ستكون ملوك ثم الجبابرة ثم الطواغيت».

(٢٤١) قارن بالأثر في مقدمة ابن خلدون ٢/١٣٨ - ١٣٩، والعقائد النفسية ص ٢١٤-٢١٥.

(٢٤٢) انظر عن ذلك الآن، H. Busse: Arabische Historiographie und Geographie; in: Grundrisse der arabischen

Philologie II, 271 (1987).

(٢٤٣) M. Godelier: Infrastructures, Societies and History; in NLR, 112, 1978, 84-96.

أيضاً. قد كان هناك من رأى أن الخلل كامن في طبيعة النظام السياسي الاسلامي نفسه مما حال ويحول بينه وبين التحول إلى مؤسسة^(٢٤٤). ويرجع ذلك إلى أن المسلمين كانوا يبحثون كل الوقت عن «مؤسسة بديلة» أو «تعويضية» عن مؤسسة النبوة!! لذلك بدت كل أشكال السلطة بعد موت النبي ﷺ مخيبة للآمال، وناقصة الشرعية، ومقضية عليها بالسقوط. لكن هذا غير صحيح، وهو يعود بنا ولو بشكل آخر لمسألة الصراع المزعوم بين «سنة النبوة» و«سنة الخلافة». ففي نص القرآن أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه هو خاتم النبيين، وأن الأمة هي الوارثة. وفي الأثر القديم الذي أوردته أن المسألة في الاسلام غيرها عند بني اسرائيل^(٢٤٥).

لقد كان «أهل الشورى» وأصحاب «الكتاب والسنة»، وأنصار «إمارة المؤمنين» أعلى الناس صوتاً في معارضة الأمويين، والمطالبة بإزالة ملكهم. لكنهم عندما سقطوا لم يسقطوا لصالح هذا التيار، بل لصالح تيار القرابة وخلافة الله. فقد تمكنت جماعة صغيرة في الأصل، حسنة التنظيم، أيديولوجيتها خلافة الله، والقرابة بالنبي ﷺ أن تقطف ثمار الصراع بين أهل الملك وأهل الشورى. لكن سقوط الأمويين لم يمهزبه النزاع بين كتاب الله وسلطان الله - كما جاء في بعض الآثار^(٢٤٦). كما أن سقوط الأمويين لم يمهزبه ذكراهم في أخلاق الناس وأوهامهم، وأحلامهم المهدية والنشورية^(٢٤٧). ففي المصادر أن هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) سأل المحدث المعمر، وقارئ القرآن المعروف أبا بكر بن عيَّاش (٩٧-١٩٣هـ) عن رأيه في الأمويين والعباسيين وقد أدرك الدولتين، فأجاب^(٢٤٨): أنتم أقوم بالصلاة، وأولئك كانوا أنفع للناس.

(٢٤٤) T. Nagel: Rechtleitung und Kalifat 63ff

(٢٤٥) انظر الأثر عند الحاشية رقم ٢٣٤.

(٢٤٦) انظر آثاراً في مواقف الأفراد إذا نشب الصراع بين القرآن والسلطان: مصنف ابن أبي شيبة ١١٧/١، ١١٩، والأموال لابن زنجويه ١٢٨-١٢٩، والمستدرک ٤٥٨/٤.

(٢٤٧) انظر عن ذلك: الفتن لنعيم بن حماد ق ١٦٢ (بدو فتنة الشام)، وق ٦٥ (المعقل من الفتن)، وق ١٧٤ (صفة السفيناني)، وق ٧٥ (بدو خروج السفيناني) ... الخ.

(٢٤٨) سير اعلام النبلاء ٤٩٨/٨.

مؤتمر الجابية ابراهيم بيضون

يرتبط ذكر الجابية في المصادر العربية بالأزديين وأمرائهم بني غسان ، إذ أقام هؤلاء أول المستقرات العربية في بلاد الشام ، وشكلوا ما سمي بالدولة « الحاجزة » التي استخدمت رأس حربة للدولة البيزنطية ضد اعدائها الفرس الساسانيين ، فضلاً عن وقوفها في وجه « الزحف » القبلي الصاعد نحو الشمال ، نتيجة الاضطرابات السياسية والاقتصادية التي عانتها اليمن منذ القرن الرابع الميلادي^(١). ولكن ثمة رواية لا تخلو من الغموض ، تشير إلى ان مجموعة تنتسب إلى قضاة سبقت الأزديين بقيادة بني ضجعم^(٢) الذين وصفهم ابن حبيب بانهم « الملوك بالشام قبل قدوم غسان »^(٣)، « التي أقبلت في جمع عظيم »^(٤) بعد ذلك وانتزعت منهم الملك، بدعم من الدولة البيزنطية ، التي لم تشأ إطالة هذا الصراع ، خشية التدخل الفارسي لمصلحة أحد الطرفين ، فأدى ذلك إلى نشوء الحاجز « القبلي الشامي لحماية المصالح البيزنطية »^(٥).

وتكاد الأخبار تتفق على أن الحارث بن جبلة (٥٢٩ - ٥٦٩ م) ، كان من أشهر «ملوك» بني غسان في الشام ، حيث برزت في عهده الجابية كحاضرة^(٦) لهم أو مقر لنفوذهم

١ - الغزو الحبشي الاول... وما قيل عن انهيارات السد أو السدود التي رافقت ضعف النفوذ الحميري في اليمن، والتدخل الخارجي (السياسي والديني) وصولاً إلى الغزو الحبشي الثاني في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي.

٢ - بنو ضجعم بن حماسة بن سعد بن سليم بن عمرو بن الحاف بن قضاة. ابن حبيب أبي جعفر محمد بن حبيب بن امية عمر الهاشمي البغدادي «ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م»، المحبر اعنت بتصحيحه ايلزه ليختن شتيتز، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت، ص ٣٧٠، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن حبيب. المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، «ت ٢٤٦هـ/ ٩٥٧م» مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ ج، وضع فهارسه يوسف اسعد داغر، دار الاندلس، بيروت، ١٩٦٥م، ج ٢، ص ٨٢، سيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، المسعودي، مروج.

٣ - ابن حبيب، ص ٢٧٠.

٤ - كانت غسان بقيادة ثعلبة بن عمرو بن المجالد بن عمرو بن عدي بن عمرو بن ملازن بن الازد، المحبر، ص ٢٧١، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١٠ ج، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت ومكتبة النهضة بغداد، ج ٢، ص ٣٩٢، وسيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا، جواد علي.

٥ - المسعودي، مروج، ج ٢، ص ٨٢.

٦ - جواد علي، ج ٣، ص ٤٢٢.

الذي تركز في اليرموك والجلولان ، امتداداً إلى غوطة دمشق^(٧). على أن الجابية لا تترادف دائماً مع أخبار « الملوك الغسانيين » كما هو الحال بالنسبة للحيرة التي نشأت في ظروف مشابهة في العراق « الفارسي » ، وتحولت إلى حاضرة فعلية للمناذرة ، تحمل سماتهم ومعها ملامح الحضارة اللخمية الساطعة . فقد بدت حاضرة الغساسنة خلافاً لذلك حائرة ما بين الجابية التي وُصفت بأنها مقر الحارث بن جبلة^(٨) وما بين جلق التي كانت على ما يبدو مقر آخر « ملوك » الغساسنة (جبلة بن الأيهم) ، استناداً إلى رواية المدائني التي أشارت إلى زيارة الشاعر حسان بن ثابت لجبلة في جلق^(٩). ولكن ثمة من يرتاب بوجود مدينة تحمل اسم الأخيرة ، ويعتبرها مرادفة لدمشق^(١٠)، التي ورد في « بلدان » اليعقوبي أنها « كانت منازل ملوك غسان »^(١١)، كما وصف دمشق في « تاريخه » بأنها مقر جبلة معقباً بأبيات لحسان تحمل تأكيداً على هذا الترادف بين الاسمين^(١٢)، فضلاً عن مراكز أخرى وُصفت بأنها من ديارهم مثل : جاسم ومرج عذراء وبصرى^(١٣)، وغيرها من الأماكن التي تردت في قصائد عدة منسوبة للشاعر السالف الذكر^(١٤). ولكن على الرغم من هذا الغموض ، فقد ظلت الجابية المقر الأكثر تلازماً مع تاريخ الغساسنة وحضارتهم ، وربما اعتبرت حيناً مقرهم الرئيسي إذا ما توقفنا عند وصف بعض المؤرخين لها بأنها « جابية الملوك »^(١٥). وقد

- ٧ - المسعودي، مروج، ج٣، ص ٨٥، اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن واضح «ت٢٨٤هـ/٨٩٧م» البلدان، ط٢، النجف، المطبعة الحيدرية، ١٩٥٧م، ص٢٤٦، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، اليعقوبي، بلدان.
- ٨ - جواد علي، ج٣، ص٤٢٢.
- ٩ - البلاذري، أحمد بن يحيى «ت٢٨٦هـ/٨٩٩م» انساب الاشراف، ج٤، ق١ تحقيق احسان عباس، دار النشر فرانكس شتاينر بفسبادن، بيروت، ١٩٧٩/٤٠٠، ج٥ نشر غويتين، القدس، ١٩٢٦م، سيشار لهذا المصدر فيما بعد، عند وروده هكذا، البلاذري، انساب.
- ١٠ - جواد علي، ج٣، ص٤٢٧، عبدالمنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج٢، ط٢، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ج١، ص٨٨. وسيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا، عبدالمنعم.
- ١١ - اليعقوبي، بلدان ص٢٢٦ راجع أيضاً Dussaud, Topographie. pp.332-333
- ١٢ - ش در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الاول يسقون من ورد البريص عليهم بردي يصفق بالرميق السلسل اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠، ج١، ص٢٠٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا، اليعقوبي، تاريخ.
- ١٣ - جواد علي، ج٣، ص٤٣٦، ٤٣٧.
- ١٤ - المسعودي، مروج، ج٢، ص٨٤-٨٥، الفصل، ج٣، ص٤٢٧-٤٢٨، تولدك، ثيبور، امراء غسان من آل جفنة، نقلها إلى العربية وأضاف إليها تصحيحات مؤلفها الأخيرة، بندلي جوزي وقسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٣ ص٤٢، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد، هكذا، تولدك.
- ١٥ - جواد علي، ج٢، ص٤٢٠.

بلغت من الأهمية في ذلك الحين ، أن العرب المسلمين بعد فتحهم للشام ، كانوا ينظرون إليها كعاصمة لهذه الأخيرة ، حسب تعبير المستشرق نولدكه^(١٦).

ومن هذا المنظور، تتخذ الجابية موقعها البارز في الإمارة «الغسانية التي قامت إلى الجنوب الشرقي من دمشق، حيث لا يزال باب شهير من أبوابها في الاتجاه نفسه، يحمل اسم الجابية حتى اليوم. ويبدو أن تعدد هذه «المنازل» مرتبط بالمزاج «البدوي» لدى الغساسنة، الذين كانوا يؤثرون التنقل بين مكان وآخر في البادية وأطرافها، فضلاً عن التحرك الدائم لمواجهة غزوات القبائل الكبيرة وتهديداتها المستمرة لمنطقة النفوذ الغساني. ولعل هذا الأمر يفسر التذبذب المستمر أيضاً في حدود هذه المنطقة^(١٧) ما بين الاتساع والضمور، تبعاً لتقلبات الأحوال وتطوراتها، الحكومة أساساً بالدور البيزنطي والحوؤل دون تجاوز الخط السياسي والجغرافي المرسوم لهذه «الدولة» الدائرة في فلكه، مما كان يؤدي أحياناً إلى تهديد العلاقة بين البيزنطيين والغساسنة، على نحو ما جرى في عهد المنذر بن الحارث (٥٦٩ - ٥٨٢م)، الذي فرضت عليه الإقامة حيناً في القسطنطينية، في الوقت الذي قام ابنائه بحركة تمرد في البادية^(١٨)، دون أن تقتصر دوافعها على الأزمة المذهبية الشائعة، بقدر ما كان لها ارتباط بقوة الغساسنة التي كانت تنمو في ظل التناقضات السياسية والمذهبية والقبلية المتعددة. وكان ذلك يدفع البيزنطيين إلى تحجيم دولتهم إذا ما دعت الحاجة. ويدفع «ملوك» الغساسنة في المقابل إلى مغادرة «عاصمتهم» أحياناً، والنزول في أماكن مختلفة نسبت لهم في البادية.

ولعل الجابية، التي لم يعد لها على الأرض ما يذكر بها، سوى الباب الدمشقي الشهير^(١٩)، فقدت أهميتها كحاضرة من حواضر الشام، وذلك في أعقاب المتغيرات الكبيرة التي أصابت المنطقة بدءاً بالأزمة أو الأزمات المشار إليها، وانتهاء بالحرب الفارسية - البيزنطية التي كان من نتائجها على الصعيد الشامي، سقوط «الحاجز» أمام القبائل المتحركة التي أخذت تتنامى حضوراً وقوة على حساب الغساسنة.

١٦ - نولدكه، ص ٥٢.

١٧ - جواد علي، ج ٣، ص ٤٤٠.

١٨ - المرجع نفسه، ج ٣، ص ٤١٦.

١٩ - باب الجابية.

ولذلك نسمع عن نشوء مستقرات جديدة في البلقاء - المتداخلة مع منطقة نفوذهم عشية الفتح العربي الاسلامي لبلاد الشام - اقامتها القبائل المنتصرة من امثال لخم^(٢٠) وجذام^(٢١) وبهراء^(٢٢) وبلي^(٢٣) وكتب^(٢٤)، التي تُمَّت في معظمها بصلة قرابة للأخيرة، ومجهزة على البقية الباقية من «الحاجز» الغساني، ومساهمة بتأثير من متغيرات الحجاز في ضرب المعادلة الشامية التي دفع البيزنطيون ثمنها الباهظ، ومعهم حلفاؤهم الغساسنة. ويصح الافتراض هنا، أن الجابية تراجعت أهميتها مع تراجع نفوذ أصحابها الذين عانوا أوضاعاً متقلبة، كان أشدها خطورة، قيام الدولة الاسلامية في المدينة، وإدراجها الشام في اولويات سياستها الخارجية^(٢٥). كما يصح الافتراض ايضاً، أنها تحولت إلى معسكر بيزنطي كبير إبان الحرب الفارسية، وذلك استناداً إلى عدة مؤشرات، منها اتخاذ آخر «ملوك» الغساسنة مقره في جلق كما سبقت الاشارة، ومنها أن الجابية لم ترد في مرويات الفترة الأولى من الاسلام، التي حفلت بأخبار كثيرة عن أمراء المنطقة وقبائلها ومعتقداتها وعلاقاتها التجارية، وكذلك لم ترد في الأحداث التي سبقت حملة مؤتة، لا سيما الكتب النبوية التي كان بينها كتاب لـ «ملك بصرى»^(٢٦)، حيث قتل حليفه الأمير الغساني^(٢٧) حامل كتاب النبي ورسوله اليه.

٢٠ - قبيلة من كهلان القحطانية، القلقشندي، ابو العباس احد القلقشندي ٧٥٦-٨٢١هـ / ١٣٥٥-١٤١٨م نهاية الارب في معرفة انساب العرب، تحقيق ابراهيم الابياري ط١، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٢٦٧، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا، القلقشندي.

٢١ - من كهلان القحطانية، المصدر نفسه، ص١٩١.

٢٢ - بطن من قضاة القحطانية، المصدر نفسه، ص١٧٢.

٢٣ - بطن من قضاة القحطانية، المصدر نفسه، ص١٧٠.

٢٤ - بطن من قضاة المصدر نفسه، ص٣٦٥، الواقدي، محمد بن عمر بن واقد «٢٠٧هـ / ٨٢٢م»، المغازي، ج٣، تحقيق مارسدن جونز، مطبعة جامعة اكسفورد، ج٢، ص٦١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، الواقدي، ابن كثير الحافظ أبي الفداء، اسماعيل بن كثير «٧٧٤هـ / ١٣٧٢م» الفصول في سيرة الرسول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص١٧٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد، هكذا، ابن كثير.

٢٥ - ابراهيم بيضون، «حملة مؤتة مقاربة للمشروع السياسي للدولة الاسلامية في بلاد الشام في صدر الاسلام»، المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام ٢٠٢٤-٢٠٢٤ جمادى الآخرة ١٤٠٥ / ١٦-٢٢ آذار ١٩٨٥م. من أوراق الندوة الثانية، المجلد الثالث، تحرير محمد عدنان البخت، الجامعة الاردنية / جامعة اليرموك، عمان ١٩٨٧، وسيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا، بيضون، حملة مؤتة.

٢٦ - الواقدي، ج٢، ص٧٥٥، ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري «٢٣٠هـ / ٨٤٤م». غزوات الرسول وسراياه، تقديم أحمد عبدالغفور، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص١٢٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن سعد، غزوات.

٢٧ - شرحبيل بن عمرو الغساني.

ومن هذا المنظور، يرجح تساؤل شأن الجابية كحاضرة لبني غسان، بعد انحسار نفوذهم في ذلك الحين، لتصبح المدينة العريقة (بصرى)، الواقعة إلى الجنوب من دمشق حاضرة المنطقة وسوقها الكبيرة، ومقرأً لأمرأء غسان^(٢٨)، دون أن يتعارض ذلك مع الرواية التي أوردها اليعقوبي، عن أخذ جبلتة بن الأيهم مقره في دمشق، كما سبقت الإشارة^(٢٩).

وهكذا في الوقت الذي برز فيه الحضور الغساني في بصرى، التي ربما قصدتها الإمبراطور البيزنطي (هرقل) نتيجة لذلك، عندما تلقى عبر «عظيمها»^(٣٠) الكتاب النبوي من دحية الكلبي، كانت قبيلة الأخير على ما يبدو، آخذة في «الزحف» نحو الشمال، ونزلت في الجابية أو جوارها، حيث تشير مروية ابن سعد إلى وجود زعيم الكلبيين حسان بن مالك ابن بحدل فيها، والتحاق ابني أخته (خالد وعبدالله) به^(٣١) عشية المؤتمر الشهير. ويبدو أن تحرك الكلبيين في هذا الاتجاه تم في إطار هجرة يمنية واسعة، كان من أركانها أيضاً بنو لخم وبنو جذام بصورة خاصة وذلك على حساب النفوذ الغساني المتراجع، حيث رأى الخليفة عمر بن الخطاب في هذا التحرك، مجرد هجرة قبلية، مما يفسر التعريض بإسلام القبيلتين السابقتين وحرمانهما من الفيء في خطبة الخليفة بالجابية^(٣٢).

والواقع أن الحرب الفارسية - البيزنطية، قضت عملياً على إمارة بني غسان، وأعدت ملكها إلى حجه السابق، رئيساً لقبيلة يطرق أبوابه الشعراء ويجزل لهم الأموال والهبات، بينما يعود في المقابل الحكم البيزنطي المباشر إلى المنطقة، ويهتم الإمبراطور (هرقل) بإعادة ترتيب أوضاعها في هذا الاتجاه، مما يفسر بقاءه في الشام بعيد انتصاره على الفرس، وربما تزامن قضاؤه وقتاً في بصرى مع الكتاب النبوي السالف الذكر، وما تبعه من استدعاء أبي سفيان الذي تصادف وجوده في الشام، للوقوف منه على أخبار النبي ودعوته، حسب رواية الزهري^(٣٣).

٢٨ - الواقدي، ج ٢، ص ١٠١٨.

٢٩ - اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٢٠٧.

٣٠ - الزهري، أبو بكر محمد بن مسلم بن عبدالله شهاب الزهري (ت ٢٠٤ هـ / م)، المغازي النبوية، حققه وقدم له سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠، ص ٥٨، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، الزهري.

٣١ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٩، دار صادر، بيروت ج ٥، ص ٤١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن سعد، الطبقات.

٣٢ - أبو عبيد، القاسم بن سلام الهروي، دت - ٢٢٤ هـ / ٨٢٨ م، الأموال، تحقيق خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، ١٩٦٨ م، ص ١١٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، أبو عبيد.

٣٣ - المغازي النبوية، ص ٥٩.

وهكذا تغيب أخبار الجابية عشية الفتح الإسلامي للشام، فلا يمر لها ذكر في مرويات مؤتة أو تبوك، خلافاً لبُصرى التي تترافق والأحداث الكبيرة، بدءاً برحلة النبي شاباً إليها بصحبة عمه أبي طالب^(٣٤) وانتهاء بفتحها على يد المسلمين^(٣٥)، ذلك الفتح الذي كان باكورة الأعمال العسكرية الناجحة في الشام، ومنطلق السيطرة عليها. ولكن الجابية تعود إلى الضوء وترددها مرويات الفتح الشامية التي اشارت إلى نزول أبي عبيدة بن الجراح فيها^(٣٦)، واتخاذها مقرّاً له^(٣٧)، حيث التقاه خالد بن الوليد قبل أن يمضي القائدان معاً إلى بصرى حسب رواية البلاذري^(٣٨). وفي أثناء ذلك، تتضح سمة الجابية في الاسلام، كمعسكر رئيسي في المنطقة الشامية^(٣٩)، ومكان جُمعت فيه غنائم اليرموك^(٤٠)، لتتكس هذه السمة بعد نزول عمر بن الخطاب فيها، وهو في طريقه إلى بيت المقدس^(٤١).

ولعل قدوم عمر إلى الجابية لم يكن حدثاً عادياً في حينه، أو مجرد استجابة لشروط المدينة التي أبت الاستسلام لغير الخليفة، ولكنه مرتبط بسياسة الدولة الإسلامية وأمنها بعد مواجهتها وضعاً جديداً في اعقاب متغيرات الفتوح. فلم يكن الخطر البيزنطي قد زال حينذاك تماماً من الشام، حيث اشارت الروايات إلى محاولة قام بها «الروم» بتحريض من أهل الجزيرة لإخراج المسلمين من حمص^(٤٢)، مما كان دافعاً على الأرجح لقدوم الخليفة إلى الشام واغاثته أبا عبيدة في معسكره بالجابية^(٤٣)، التي بقي الأخير فيها حتى وفاته، كما ورد في إحدى الروايات التاريخية^(٤٤).

- ٢٤ - كان عمره تسع سنوات، وهي رحلته الأولى إلى الشام، ابن حبيب، ص ٩، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤.
- ٢٥ - البلاذري أحمد بن يحيى (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م)، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩م، ص ١٢٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا البلاذري، فتوح.
- ٢٦ - ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن بن علي بن أبي المكرم «ت ٦٣٠هـ / ١٢٢٢م»، الكامل في التاريخ، ١٣ ج، دارصادر، بيروت، ١٩٨٢م، ج ٢، ص ٤٠٦، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن الأثير.
- ٢٧ - الأزدي، محمد بن عبدالله (ت هـ / م)، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبدالمنعم عبدالله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٢٩-٤٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، الأزدي.
- ٢٨ - البلاذري، فتوح، ص ١٢٠.
- ٢٩ - لامنس «الجابية» دائرة المعارف الإسلامية، ١٥ ج، ترجمة أحمد الشينناوي، ابراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، حافظ جلال، مراجعة احمد المولى بك، م ٦، ص ٢٢٢، وسيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا، لامنس، الجابية.
- ٤٠ - اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٤٢.
- ٤١ - ابن الأثير، ج ٢، ص ٥٠١.
- ٤٢ - ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٣٠.
- ٤٣ - ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٣١.
- ٤٤ - ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٥٩.

ولذلك يأتي قرار الخلافة في مستوى خطورة المرحلة التي اقتضت مناقشة الموقف عن كثب، وتنظيم الخطوات اللاحقة ووضع حلول سريعة للمشكلات الإدارية والاقتصادية والعسكرية. فقد أشارت الرواية إلى أن عمر استدعى امرأه الأخبار لموافاته في الجابية^(٤٥)، «وقسم الارزاق وسمى الشواتي والصوائف وسد فروج الشام ومسالحها وأخذ بذرقتها وسمى ذلك في كل كورة، واستعمل عبدالله بن قيس على السواحل من كل كورة وعزل شرحبيل واستعمل معاوية وأمراً أبا عبيدة وخالداً تحته... وأمراً عمرو بن عبسة على الأهراء وسمى كل شيء ثم قام في الناس بالوداع»^(٤٦)، حسب الرواية التي أوردها الطبري.

لقد أعطى قدوم عمر للجابية الأهمية العسكرية التي استمرت فترة طويلة، حيث وجد فيه المؤرخون تكريساً لهذا الدور الذي اتخذته على ما يبدو أجنادين في العهد البيزنطي. ولعل العمليات الحربية التي جرت في أعقاب اجتماع الخليفة إلى قادة أجناد الشام، كانت تنفيذاً لما اتفق عليه في مؤتمر الجابية الأول، استناداً إلى النص السالف الذكر الذي تضمن خطة شاملة للإدارة الشامية ومسؤوليات القادة، سواء ما تعلّق بتصعيد حركة الفتوح أو بالدفاع عن الثغور، أو بتوزيع العطاء على المقاتلين، فضلاً عن تنظيم مسألة التموين، وغير ذلك مما احتاجت إليه ولاية من أبرز ولايات الدولة وأكثرها خطورة، كولاية الشام.

توازنات

على أن الجابية أخذت تفقد أهميتها، بما في ذلك الأهمية العسكرية، بعد استقرار العرب المسلمين في الشام وتأسيس معسكرات (أجناد) جديدة، اقتضتها طبيعة المرحلة التي مرت بها الدولة الإسلامية في ذلك الحين، وقد ظلت أسيرة طابعها البدوي الذي ترسخ بعد تولي معاوية بن أبي سفيان أمر الشام، في الوقت الذي تألقت فيه دمشق كعاصمة حضرية، تعج بالحركة وتزدحم بالسكان، وتوازي المدن العريقة في العمران والنظم وطرائق العيش. ولكن دمشق الأموية، لم تُشع بأنظارتها عن البادية، بل كانت وثيقة العلاقة معها، في مرحلة تكون الدولة التي دانت في قيامها لمساندة القبائل الشامية، لا سيما قبيلة كلب،

٤٥ - ابن الأثير، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠٠.

٤٦ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري «٢٢٤-٢٣١هـ / ٨٢٨-٩٢٢م» تاريخ الرسل والملوك، ج ١٥، طبعة أوفست عن طبعة ليدن، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٦٥م، ج ٤، ص ٢٠٢-٢٠٤، وسيسار لهذا المصدر عند وروده هكذا، الطبري.

الأكثر قوة والأدنى موقعاً إليها^(٤٧). وإذا كانت الأسرة الأموية ذات الصلة القديمة بالمراكز الحضارية قبل الاسلام قد بدت متأثرة كدولة بالنظم السياسية والاجتماعية في الأخيرة، فإنها لم تدخر جهداً في استرضاء القبائل ومصاهرة بعضها وايثاره بالامتيازات، على نحو ما حظيت به كلب خلال العهدين السفياني والمرواني من هذه الدولة.

وهكذا برز الكلبيون في مرحلة تغيرات سياسية هامة في بلاد الشام تتمثل في الصراع البيزنطي - الفارسي والبيزنطي - الاسلامي، وما رافق ذلك من تقلص نفوذ الإمارة الغسانية حتى مساحة القبيلة، في وقت شهد أيضاً سقوط «الحاجز» اللخمي في العراق، تحت ضغط المواجهة السافرة بين القوتين الكبريين في ذلك الحين. ولقد انعكس قيام الدولة الاسلامية في المدينة على اوضاع الشام، وطرح العلاقة مع القبائل العربية المنتصرة فيها في وقت مبكر^(٤٨). وشهدت تلك الفترة في الواقع حضوراً لافتاً للكلبيين في سياسة النبي الشامية، تجلّى في قيادة زيد بن حارثة المتحدر أساساً منهم بعض السرايا في هذا الاتجاه، وفي إقامة أول «معاهدة» بين المسلمين وبين الأصبغ بن عمرو الكلبي زعيم دومة الجندل^(٤٩)، فضلاً عن المهمة التي قام بها دحية الكلبي الذي تولى حمل الرسالة النبوية إلى هرقل، حسب الرواية التاريخية^(٥٠). وإذا عرفنا أن النبي كان يولي أهمية كبيرة للعلاقات الاجتماعية وتوظيفها في خدمة الأهداف السياسية للدولة (زيد بالنسبة لكلب وعمرو بن العاص بالنسبة لبني^(٥١)) أثناء غزوة ذات السلاسل، وعثمان بن عفان بالنسبة لقريش في غزوة الحديبية)، أدركنا خطورة الموقع الذي أخذت تمثله القبيلة الكلبية في منطقة نفوذ الغساسنة، بالمقارنة مع القبائل العربية الأخرى التي تأخر انتشارها الفعلي في المنطقة حتى الفتح الإسلامي لبلاد الشام.

٤٧ - H. Lammens, Etudes Sur le régime du Calife Omayyade. Mo'awia Ier. p.288

وسيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا. Lammens, Etudes.

٤٨ - بيزون، حملة مؤتة، ص ٨، ١٥.

٤٩ - جرت بين الأصبغ وعبدالرحمن بن عوف، الواقدي، ج ٢، ص ٥٦١، ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٨٩.

٥٠ - الزهري، ص ٥٨.

٥١ - كان عمرو بن العاص يمت بقرابة ليل عن طريق امه إلى إحدى القبائل التي استهدفتها غزوة ذات السلاسل، الواقدي، ج ٢، ص ٧٧٠، ابن هشام ابو محمد عبدالله بن هشام بن ايوب الحميري وت ٢١٣هـ أو ٢١٤هـ، السيرة النبوية، جزئين، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبدالحفيظ شلبي ط ٢، ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي واولاده بمصر، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، ج ٢ ص ٦٢٣، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن هشام.

ولم تكن مصادفة تلك العلاقة المميزة بين والي الشام في العهد الراشدي (معاوية)، وبين هذه القبيلة التي قاتلت معه كوحدة كاملة في صفين^(٥٢)، واعتمد عليها بعد قيام دولته في تنفيذ اهدافه السياسية والعسكرية. ولم تكن مصادفة كذلك أن يدين الأمويون مرة أخرى للدعم الكلبلي، الذي أسهم فعلياً في إنقاذ خلافتهم من السقوط، وبالتالي الدفاع عن نفوذهم المرتبط مصيرياً بهذه الأخيرة، مما جعل الكلبيين يغلبون في اللحظة الحاسمة مصالحهم السياسية والاقتصادية على ما عداها من علاقات شخصية، أو عائلية، ويتحولون حتى آخر سنوات الدولة الأموية إلى قوة مدافعة عن النظام، ليس في الشام فقط، ولكن حيث يكون تهديد ما له في مختلف الولايات القريبة أو البعيدة (سفيان بن الأبرد الكلبلي في توليه ضرب حركتي الخوارج الصفرية وابن الأشعث في العراق، وحنظلة ابن صفوان الكلبلي في القضاء على حركة البربر في المغرب، وأبو الخطار حسام بن ضرار الكلبلي في محاولته إخماد الصراعات القبلية في الأندلس)^(٥٣). ولعل بيعة يزيد بولاية العهد، وثقت علاقات الكلبيين - وهم أخواله - بالنظام الذي أصبح وراثياً، بما يعنيه ذلك من ضمانة واستقرار لمصالحهم وامتيازاتهم في البلاط الأموي^(٥٤). وقد بلغت مكانة زعيمهم حسان بن مالك في العهد السفياني، درجةً أصبح معها «رئيس قحطان وسيدها في الشام»^(٥٥)، حسب رواية السعودي، وأصبح من القوة ما جعله يمثل تياراً سياسياً في الأخيرة، مقابل التيار الزبيري في الحجاز^(٥٦). ولذلك يشترط الزعيم الكلبلي مقايضة تأييده لمروان بن الحكم باستمرار هذا الموقع البارز لقبيلته وانتقاله لابنائها ما بقيت الدولة الأموية قائمة^(٥٧).

٥٢ - نصر بن مزاحم المقرئ، «ت ٢١٢هـ / ٨٢٧م»، وقعة صفين، تحقيق عبدالسلام هارون، ط ٢، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، ١٣٨٢هـ، ص ٢١٧، ويشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، وقعة صفين.

٥٣ - الطبري، ج ٧، ص ٢٥١، ج ٨، ص ١٢، ابن عبدالحكم، عبدالرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠م) فتح مصر وأخبارها، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٢٠م، ص ٢٢٢-٢٢٣، ويشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن عبدالحكم، السعودي، مروج، ص ١٣٩، ابن عذاري، أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٤، تحقيق ومراجعة ح. س. كولان، إيفاريس ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ج ٢، ص ٣٣، ويشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن عذاري.

٥٤ - السعودي، مروج، ج ٢، ص ٨٦-٨٧.

٥٥ - السعودي، المصدر نفسه، ص ٣٩، ص ٨٦.

٥٦ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٣٢.

٥٧ - اشترط حسان بن مالك على مروان بن الحكم ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد، منها ان يفرض لالتي رجل الفين الفين، وان مات قام ابنه او ابن عمه مكانه، وعلى ان يكون لهم الامر والنهي وصدر المجلس ما كان من حل وعقد فعن رأي منهم ومشورة، السعودي، مروج، ج ٣، ص ٨٦.

وعلى الرغم من نفوذ الكلبيين في الدولة الأموية، فإن المعادلة لم تكن قائمة على التحالف الأموي - الكلبي، ولكنها اتخذت في عهد معاوية منحى متوازياً ما بين كلب وفهر بصورة خاصة، وقحطان وقيس بصورة عامة. فإذا كان الكلبيون قد حملوا عبء الدفاع المسلح عن الدولة مؤثرين الإقامة في جنوبي الشام (جند الأردن)، فإن الفهريين كان لهم دورهم السياسي والاداري البارز، حيث شارك زعيمهم الضحاک بن قيس^(٥٨) في صفين، وقاد «رجال الناس كلها»^(٥٩) حسب الرواية التاريخية، كما تولى أمر الكوفة^(٦٠) إحدى أخطر ولايات الدولة، بعد وفاة الوالي الشهير زياد بن أبيه^(٦١)، وكان بالإضافة إلى ذلك في طليعة الذين اعتمد عليهم معاوية في «حضّ الناس على البيعة ليزيد»^(٦٢). وقد عظم شأن الضحاک في السياسة الأموية، في أعقاب الدور الأمني الذي شغله في عهد معاوية، كقائد على شرطته^(٦٣)، والدور السياسي في عهد يزيد، كعامل له على دمشق^(٦٤)، مما هيأه من خلال هذا الموقع الهام، لدور أكثر خطورة بعد وفاة معاوية الثاني الذي أوصى أن «يصلي الضحاک بالناس بدمشق»^(٦٥) حسب الرواية التاريخية.

وإلى جانب الضحاک، احتفظ معاوية بعلاقة جيدة مع الكلابيين^(٦٦) بزعامة زفر بن الحارث الذي كان عثمانياً متشدداً^(٦٧) وقاتل «أهل قنسرين»^(٦٨) مع معاوية في صفين، وظل

٥٨ - الضحاک بن قيس... بن محارب بن فهر من قريش الظواهر، ابن الكلبي، أبوالمنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م) جمهرة النسب، رواية أبي سعيد السكري عن ابن حبيب عنه، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣، ج ١، ص ٤٧١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن الكلبي.

٥٩ - الطبري، ج ٦، ص ٦.

٦٠ - خليفة بن خياط، (ت ٢٤٠هـ / ٨٤٥م)، تاريخ خليفة، رواية بقي بن مخلد، ج ٢، تحقيق سهل زكار، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٧م، ج ١، ص ٢٦٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا خليفة بن خياط، ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢٢.

٦١ - المسعودي، مروج، ج ٣، ص ٢٧.

٦٢ - ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٢٢.

٦٣ - جمهرة النسب، ج ١، ص ٤٧١.

٦٤ - الأصفهاني، أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسن (ت ٣٥٦هـ / ٩٧٦م)، الأغاني، ج ٢٥، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٥-١٩٦٢م، ج ١٩، ص ١٣٩، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، الأصفهاني.

٦٥ - ابن سعد، الطبقات، ج ٦، ص ٣٩، ثمة رواية ثانية تشير إلى أن خالد بن يزيد هو الذي صل بالناس بعيد وفاة اخيه، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٤.

٦٦ - من كلاب، وهي بطن من عامر بن صعصعة القيسية، نهاية الارب، ص ٣٦٥.

٦٧ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٨.

٦٨ - الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م)، الاخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر وجمال الدين الشيال، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٧٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا الدينوري.

محتفظاً بالولاء للأمويين حتى بيعته لابن الزبير في أعقاب وفاة معاوية الثاني^(٦٦). ويبدو أنه لم يكن معنياً كثيراً بالحركة الزبيرية، لولا التحدي المتمثل حينذاك بتعيين سعيد بن بحدل الكلبي - أخي حسان - على قنشرين^(٧٠) التي كانت أحد المعاقل القيسية في ذلك الوقت، مما دفعه إلى الثورة^(٧١) - وهو التعبير المتداول في الرواية التاريخية - على الوالي الكلبي وإخراجه من المدينة. وهكذا نجح مؤسس الدولة الأموية في الإمساك بزمام الأمور، من خلال الموازنة بين القبائل الشامية الكبرى، دون أن يدع مجالاً لأي منها بأن تتجاوز حدودها المرسومة لها في الدولة بما في ذلك القبيلة الكلبية الأثرية وقد اتسعت دائرة هذه السياسة لتصبح ظاهرة العهد السفيفاني الأول، حيث نجح معاوية في تحقيق التوازن المنشود داخل قريش (المهاجرة وغير المهاجرة)، فضلاً عن التوازن داخل الأسرة الأموية (بنو حرب وبنو العاص)، واحتواء الثقفيين بعد منحهم إدارة العراق الذي ارتبط تاريخه الأموي أو كاد بهذه الأسرة، إلى آخر هذه التوازنات المتقنة التي ضبطها معاوية طوال عهده.

اختلال المعادلة:

لم يكن الاضطراب السياسي في الشام، نتيجة لوفاة يزيد المفاجئة، بقدر ما كان محصلة لاضطراب التوازنات بعد غياب مؤسس الدولة الأموية. فقد أدى مقتل الحسين إلى ضرب التوازن النسبي مع بني هاشم، وأثارت موقعة الحرة ومعها استباحة المدينة وانتهاك الكعبة، نقمة المهاجرين والأنصار على الخليفة (يزيد). كما أدى تعاطفه الجامح مع الكلبيين^(٧٢) إلى خلل المعادلة التي أرساها معاوية، سواء على مستوى «الحزبين» القيسي واليميني، أو على مستوى القبيلة الواحدة التي شهدت انقسامات داخلية، على غرار ما تعرضت له جذام من انشقاق بعيد وفاته^(٧٣). ومن ناحية أخرى، فإن الصراع بين الأمويين من جهة وبين الهاشميين والزبيريين من جهة أخرى، قد أربك الحكم الأموي وفتح أبواب الأزمة مع أبناء الصحابة، الذين وفروا الغطاء الشرعي لخلافة معاوية بمعنى ما، ذلك الغطاء الذي تعرّت منه تماماً خلافة يزيد، مما سيؤدي إلى طرح مسألة السلطة بصورة حتمية.

٦٩ - الطبري، ج ٧، ص ٣٤.

٧٠ - الأصفهاني، ج ١٩، ص ١٣٩.

٧١ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٢، الطبري، ج ٧، ص ٣٤.

٧٢ - اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٢، الأصفهاني ج ١٩، ص ١٣٩.

٧٣ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٢، الطبري، ج ٧، ص ٣٢-٣٥.

ويبدو أن الخليفة يزيد - ودون التوقف عند كفاءته التي كانت موضع طعن حتى المبالغة في معظم الروايات التاريخية - ذهب ضحية اختلاف هذه التوازنات - لا سيما التوازن الأموي - الأموي، الذي أودى اضطرابه بالحكم السفلياني - محترقاً بنار الأخطاء الفادحة التي ارتكبها خلال مدة وجيزة من الزمن. فلعله - أي الخليفة - أراد بوحى من قناعاته أوبتأثير من مستشاريه، الضرب بالقبضة الحديدية على رؤوس المعارضة، مبتدئاً بالأخطر بينها، لحمل الجميع على الطاعة والسكينة. هذه السياسة المقترنة بالتحدي (حملة مسلم بن عقبة ومواكبتها مسافاً ما بعيد تحركها نحو الحجاز)^(٧٤)؛ أوقعت الخليفة في التطرف الذي بلغ حداً لم تستسغه الأسرة الأموية ذاتها في ذلك الوقت. وإذا كنا لا نملك معطيات عن علاقة هذه التطورات الخطيرة بوفاة يزيد، فإن التوقيت قد لا يكون خاضعاً للمصادفة وحدها، لا سيما أن الروايات التاريخية، لم تلمح حينذاك إلى أية متاعب مرضية كان يعانيها الخليفة. ولكن الروايات التاريخية أشارت إلى اضطراب العلاقة مع جناح بني العاص من الأسرة الأموية، حيث جرى التقليد بأن يتولى شؤون الحجاز في عهد معاوية، بينما لجأ يزيد إلى خرق هذه المعادلة، بعزل عمرو بن سعيد بن العاص وتعيين اثنين من الجناح السفلياني تباعاً هما: الوليد بن عتبة وعثمان بن محمد^(٧٦)، كما أشارت إلى استيائه من تخاذل أمويي الحجاز (بني العاص)، بعد إخراجهم من المدينة وعجزهم عن القتال «ساعة من نهار»^(٧٧)، معبراً عن ذلك بما نسب إليه: «ليس هؤلاء بأهل أن يُنصروا حتى يُجهدوا أنفسهم في جهاد عدوهم وعز سلطانهم»^(٧٨).

وثمة دلالة أخرى كشفت عنها وفاة يزيد، هي أن البيت السفلياني كان يدين لشخصية معاوية القوية وقدرته على توظيف الموروث الأموي في الشام والحجاز لمصلحة أهدافه السياسية، دون أن يكون للسفليانيين ذلك الحضور البارز في دولته. ولعل العودة إلى الروايات توضح هذه المسألة، حيث لم يتردد في ثناياها سوى القليل جداً من أبناء الأسرة السفليانية، مما كان له على الأرجح علاقة بضعفها من الناحية العددية. فلم يُعرف من أنبائها بعد أبي سفيان غير ما ورد عن حفيدين له توليا لمدة وجيزة أمر الحجاز، كما

٧٤ - الطبري، ج ٧، ص ٥.

٧٥ - أشارت إحدى الروايات إلى إصابته بمرض النقرس أثناء توديعه لحملة الحجاز، الطبري ج ٧، ص ٥.

٧٦ - خليفة بن خياط، ج ١، ص ٣٠٩.

٧٧ - الطبري، ج ٧، ص ٦.

٧٨ - الطبري، ج ٧، ص ٦.

سبقت الإشارة، بينما انقطعت أخبار يزيد ابنه بعد وفاته في طاعون عمّاس، في حين أنجب معاوية ثلاثة فقط من الأبناء وهم: يزيد وعبد الله الذي وصف بالأحمق وعبد الرحمن الذي تُوفي صغيراً حسب الرواية التاريخية^(٧٩).

وعلى عكس ذلك كان جناح بني العاص يمثل أغلبية ظاهرة في البيت الأموي فهو ينطوي على ثلاثة فروع بني عثمان بن عفان وبني سعيد بن العاص وبني مروان بن الحكم، حيث تولى الأول الخلافة وتداول الثاني والثالث ولاية الحجاز في عهد معاوية. وإذا كان طموح سعيد وأسرته قد انحصر في الولاية باستثناء أحد أبنائه (عمرو) الذي ورد اسمه كمرشح للخلافة في مؤتمر الجابية^(٨٠)، فإن بني مروان كانوا أكثر تهيئة للسلطة الأولى، منذ أن تولى مروان شؤونها الفعلية في عهد الخليفة عثمان، ممهداً لدوره المرتقب بعد غياب يزيد وتضعف الحكم السفيناني. ولقد استطاع مروان - بعد مقتل عثمان وانزواء أبنائه، وموت سعيد بن العاص^(٨١) الذي حدث عقبه موت معاوية - توحيد أسرة بني العاص القوية تحت زعامته، ليصبح رجل بني أمية في ذلك الحين. ولعل تطورات الأحداث التي رافقت مجيء يزيد إلى الخلافة، ومحاولته حمل الحسين بن علي على البيعة له بالقوة، دون أن يكون متولياً حينذاك أمور الولاية في الحجاز، تعبّر عما بلغه مروان من علو شأن في أسرته التي بلغ تعدادها أكثر من الف رجل مع موالِيهم، عندما أخرجهم أهل المدينة إلى الشام^(٨٢).

وهكذا يمكن القول إن البيت السفيناني استمد قوته من قوة معاوية وتحالفه مع الكلبيين، ومن ثم إضعافه لخصومه والتفريق بينهم، حتى إذا توفّي بعد سلطة مديدة في الشام، بدا واضحاً أن هذا البيت لم يعد قادراً على الاحتفاظ بالزعامة، وذلك لافتقاره إلى الأركان الثلاثة التي قامت عليها دولة معاوية وهي القيادة والعصبية والتوازن، مما كان له على الأرجح تأثير على موقف حفيده (معاوية الثاني) بعد اصطدامه بهذه المستجدات التي ساقته إلى الفشل. ففي الوقت الذي بلغت فيه الأزمة السياسية ذروتها في الشام، وارتفعت وتيرة العصبية إلى أقصاها لدى القبائل المتشاحنة، كان الموقف السفيناني يزداد حرجاً بعد انصراف الأنظار نحو شخصيات جديدة، أسهمت بصور متفاوتة في تحريك

٧٩ - ابن الاثير، ج ٤، ص ١٠.

٨٠ - البلاذري، انساب، ج ٤، ص ١٣٠، وما بعدها.

٨١ - توفي في العام التاسع والخمسين للهجرة، خليفة بن خياط، ج ١، ص ٢٧٢.

٨٢ - الطبري، ج ٧، ص ٥.

الأحداث، دون أن يكون بينها سفياني له ذلك الألق الذي تمتع به الضحاك بن قيس أو حسان بن مالك أو مروان بن الحكم، أو حتى عمرو بن سعيد، الذين تجاذبوا اطراف الموقف السياسي في ذلك الحين. فقد بدت العصبية السفيانية باهتة أمام هذه العصبيات الكبيرة ويعبر عن هذا الواقع، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، بعد أن زجَّ به الضحاك في السجن مع سفيان بن الأبرد الكلبى ويزيد بن أبي النمى الغساني لتعاطفهم مع حسان ابن مالك، حيث «جاءت كلب فأخرجوا سفيان بن الأبرد وجاءت غسان فأخرجوا يزيد بن ابي النمى. فقال الوليد بن عتبة: لو كنتُ من كلب أو غسان أخرجت!»^(٨٣). لقد حدث ذلك في وقت قدم فيه مروان إلى دمشق، بعد اخراجه للمرة الثانية من المدينة^(٨٤)، ومعه عصبية التي تمكن من خلالها أن يحاور الاتجاهات القبلية المتصارعة واجتذاب العصبية الأقوى (كلب) في الشام. وقد جسدت مقولة مالك بن هبيرة السكوني^(٨٥)، المؤيدة لخالد بن يزيد، خطورة العصبية المروانية الجديدة في سياق تحذيره لقريبه الحصين بن نمير المؤيد لمروان «والله لئن استخلف مروان وآل مروان ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها، إن مروان أبو عشيرة وأخو عشيرة وعم عشيرة، فإن بايعتموه كنتم عبيداً لهم»^(٨٦). كما نسب لمالك في السياق نفسه قول آخر لقريبه: «ويحك يا حصين، اتبايع لمروان وآل مروان وأنت تعلم أنهم أهل بيت من قيس»^(٨٧)، بحيث لا يدع ذلك مجالاً للشك بقدرة مروان عبر هذه العصبية القوية على الامساك بزمام العصبيات الشامية، وتحقيق توازنات جديدة، مهّدت له الطريق إلى الخلافة.

الموقف في دمشق

كان تطور الأحداث مفاجئاً وغامضاً في عاصمة الامويين، على نحو أربك جميع الأطراف السياسية، التي شاب بعضها التردد أو عدم الحسم أو انتظار نضج المواقف. فقد اشارت الروايات إلى ثلاثة اتجاهات في الشام بعيد وفاة يزيد: «فرقة زبيرية وفرقة

٨٣ - المصدر نفسه، ج٧، ص٢٦.

٨٤ - البلاذري، انساب، ج٥، ص١٢٦، الطبري، ج٧، ص٢٤.

٨٥ - السكون بنطن من كنده اليمنية، القلقشندي، ص٦٥.

٨٦ - الطبري، ج٧، ص٢٨.

٨٧ - المصدر نفسه، ص٢٨، ورد هذا القول منسوباً لمالك أيضاً في شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، ابن ابي الحديد،

شرح نهج البلاغة، ج٢٠، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية القاهرة، ١٩٦٠، ج٦،

ص١٦٠، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ابن ابي الحديد، ولحسان بن مالك في الطبقات لابن سعد، ج٥،

ص٤١.

بحدلية هَوَاهم لبني حرب، والباقون لا يبالون لمن كَانَ الأمر من بني أمية»^(٨٨). ولذلك كان من الصعوبة إيجاد حلٍّ لمشكلة السلطة في دولة الأمويين، من دون معادلة قبلية جديدة، بعد أن أصبحت الكرة في أيدي شيوخ القبائل الشامية المعنيين أساساً بهذه التطورات التي أدت لأول مرة في الإسلام، إلى فرز حاد بين القبائل، قيسيةا ويمنيةا، كانت ترهص به الأقوال المنسوبة إلى هذا الفريق أو ذاك في تلك المرحلة الانتقالية الدقيقة. ولعل الموقف الزبيري قد أسهم في تعقيد المشكلة، حيث كان خُلُو مشروع - إذا كان ثمة مشروع سياسي لديه - من الأفكار الواعدة على الأقل، قد جعله بطيء الحركة والتأثير في المواقف، على الرغم من توفّر الفرص الهامة للدخول في الوقت المناسب إلى معقل الأمويين في الشام، التي أثبتت قدرتها مرة أخرى على أن تكون مقرّاً للدولة، بينما أخفق ابن الزبير في توحيد الحجاز، ولم يُحْكَم السيطرة تماماً على العراق، نتيجة فقدانه التقدير الموضوعي للتحوّلات التي أسفرت عنها حركة الفتوح، وما تبعها من خروج الخلافة الراشدة أو بقاياها إلى الكوفة، ومن ثمّ قيام الدولة الأموية في الشام، في الوقت الذي بات فيه الحجاز - المقرّ الأثير لابن الزبير - عاجزاً عن استيعاب هذه المتغيرات ونتائجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وكان المستفيد الأول من مأزق الحركة الزبيرية، الضحاك بن قيس الفهري الذي بدا أكثر من حليف للأخيرة، وربما صاحب مشروع خاص، معتمداً على قوته الذاتية في الشام وانتماؤه لقريش (الظواهر)، حيث رُوي «أنه دعا قيساً وغيرها إلى البيعة لنفسه، فبايعهم يومئذ على الخلافة»^(٨٩). وقد أصبح الضحاك نتيجة لذلك، رجل الشام القوي، سواء من منظور ابن الزبير الذي «بعث إليه بعهد»^(٩٠) حسب الرواية التاريخية، أو من منظور الأمويين وحلفائهم، انطلاقاً من الثقة الفائقة التي وضعها فيه معاوية ويزيد. ولكن الحذر من الكلبيين - الأكثر قوة في الشام واعتراضاً على تقدم القيسيين عليهم - جعل موقفه يتسم بالتردد، أو كما وصفه صاحب الأغاني بأنه كان «يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، إذا جاءت اليمانية وشيعة بني أمية أخبرهم بأنه أموي، وإذا جاءت القيسية أخبرهم أنه

٨٨ - ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (٥٧١هـ / ١١٧٥م)، تهذيب تاريخ مدينة دمشق، ج ٧، هذبه ورتبه عبدالقادر بدران، (ت١٩٢٧هـ، ط٢)، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٧، ص ١٠، وسيسار لهذا

المصدر عند رويده، ابن عساکر.

٨٩ - ابن عساکر، ج ٧، ص ٩.

٩٠ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٧.

يدعو إلى ابن الزبير^(١١). والواقع أن هذا التردد كان باعته - عدا قوة خصومه - عدم وضوح الموقف القيسي، المتأرجح بين ابن الزبير والأمويين، فضلاً عن ضعف ثقته بقيس التي كان لها هوى عثمانى في الغالب، وانقطاع العلاقة مع القيسيين في الحجاز والعراق، وغموض موقف الكلابيين بزعامة زفر بن الحارث، الذي لم يكن قد تبلور بعد تماماً إزاء هذه المسألة.

وكان تردد الضحاك من جهة، وتباعد المواقف بين القبائل الشامية من جهة أخرى، قد أوجد فرصة جديدة لابن الزبير الذي سارع إلى بيعته - ربما بتأثير من الفرز السياسي والواقع المستجد - جند حمص بقيادة النعمان بن بشير، وهو واحد من قلة من «الأنصار» المواليين للبيت الأموي، وكذلك بايعه تائل بن قيس الجذامي الذي سبق له أن التقى ابن الزبير على ما يبدو في مكة حيث عهد إليه بجند فلسطين بعد انتزاعه من نفوذ الكلبيين^(١٢) وحليفهم الجذامي الآخر زُوح بن زنباع، أحد أركان مؤتمر الجابية فيما بعد. وقد أضعف انضمام تائل بن قيس إلى الزبيريين موقف حسان بن مالك، واضطره إلى الخروج من مقره (الأردن) إلى طبرية، قبل أن يتوجه إلى الجابية إثر اتصالات دؤوبة مع حلفائه ومؤيدي البيت الأموي^(١٣). وفي الوقت نفسه حملت الأخبار «ثورة» زفر بن الحارث الكلابي في قنسرين وبيعته لابن الزبير^(١٤)، كما سبقت الإشارة. أما في دمشق فقد «أخذ له الضحاك بيعة أهلها وفرّق عماله فيها»، حسب الرواية التاريخية، مما يعني أن الشام واجنادها باستثناء الأردن أو بعضه^(١٥)، أصبحت تابعة لابن الزبير، الذي مدّ سيطرته أيضاً إلى مصر، ربما عبر الضحاك، حيث تولى حينذاك أمرها أحد أقاربه، وهو عبد الرحمن بن جحدم الفهري^(١٦).

وفي تلك الاثناء، كان ابن الزبير قد ارتكب خطأ آخر، بنفيه أمويي المدينة^(١٧)، حيث خرجوا للمرة الثانية إلى الشام، دون أن يعدموا تعاطفاً معهم من جانب حلفائهم والمتعصبين لهم في الأخيرة. وكان حسان بن مالك من جانبه دائباً على استنهاض جماعته

٩١ - الاصفهاني، ج ١٩، ص ١٢٩-١٤٠.

٩٢ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٧-١٢٨.

٩٣ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٨.

٩٤ - الطبري، ج ٧، ص ٧٤.

٩٥ - قيل أن بعض اهل الاردن كانوا مائلين إلى ناتل ومنحرفين عن حسان بن مالك، البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٨.

٩٦ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٨.

٩٧ - الطبري، ج ٧، ص ٣٥.

واستثارة العصبية الشامية ضد ابن الزبير، متهماً إياه بالنفاق، ومعتبراً قتلى الحرّة من أهل المدينة في النار^(٩٨)، في محاولة لتسوية التورط السفيناني في الأحداث الحجازية، وما ينطوي عليه ذلك من تبرئة الخليفة يزيد وتكريس لشرعيته واستمرارها مع ابنه ووليّ عهده (خالد). ويبدو أن الزعيم الكلبّي الذي أعلن موقفه المؤيد للأخير، قد سارع حينذاك إلى التحرك فيما يشبه محاولة انقلابية بدمشق^(٩٩)، شارك فيها أحد أشهر القادة الكلبيين وأخلصهم لبني أمية (سفيان بن الأبرد)، ومعه قائد من غسان (يزيد بن أبي النمس)، فضلاً عن سفيناني معروف هو الوليد بن عتبة^(١٠٠)، مكرساً وجوده التحالف الأموي - اليمني في الشام. ولكن هذه الحركة التي لم يكتب لها النجاح كان لها أكثر من دلالة هامة، حيث اصطدمت بقوة الضحّاك الذي سبق له أن تولى أمر العاصمة الأموية في عهد يزيد وجانباً من العهد السابق، مما يعني أن المعادلة السابقة لم تعد ممكنة في ظل المتغيرات المستجدة، بما في ذلك الخلافة التي أخذت في الابتعاد عن البيت السفيناني الحاكم.

والواقع أن الضحّاك كان على جانب من الذكاء والمرونة، وتجنّب بشكل عام المجاهرة بخصومته للأمويين على الرغم من سيطرته على دمشق، وإعلان ولائه للحركة الزبيرية، حيث العلاقة القديمة مع البيت الأموي أعاقته ذلك، وحال عدم اقتناعه التام بقضية ابن الزبير، دون اتخاذ موقف حاسم لمصلحته. ومن هنا لم يشأ الضحّاك فضّ التحالف مع الأمويين، بينما أثار هؤلاء تحقيق تسوية يكون الزعيم الفهري من أركانها، وذلك لحاجة كل من الطرفين إلى الآخر. وكان مروان الذي أخذ يتعزز موقعه في دمشق، وراء هذه السياسة الهادئة، بغية الوصول إلى تكتيل القوى الحليفة للبيت الأموي تحت قيادته، على أن يكون مرشح هذه التسوية^(١٠١) التي تحظى بتأييد مختلف المحاور في العاصمة الأموية والأجناد الموالية لها. ولعل الضحّاك اسهم بصورة ما في تهيئة الأجواء لذلك، عندما استدعى الأمويين إلى دار الأمانة، «فاعتذر اليهم وذكر حسن بلائهم... وأنه ليس يريد شيئاً يكرهونه»^(١٠٢)، مقترحاً - حسب الرواية التاريخية - دعوة حسان من الأردن والنزول في الجابية ومبايعة رجل منهم^(١٠٣). وثمة ما يمكن استنتاجه من ذلك، أن

٩٨ - الطبري، ج ٧، ص ٣٥.

٩٩ - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٦.

١٠٠ - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٥-٣٦.

١٠١ - محمد عبدالحّي شعيبان (ت ١٣٢٢هـ/٧٤٩م)، صدر الاسلام والدولة الاموية، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢م، ص ١٠٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، محمد عبدالحّي.

١٠٢ - الطبري، ج ٧، ص ٣٦.

١٠٣ - المكان نفسه. أورد ابن عسّاكر في هذا السياق أن الضحّاك أرسل إلى بني أمية فاتاه مروان بن الحكم وخالد وعبدالله أبناء يزيد... أي رؤساء الاسرة الاموية، ابن عسّاكر، ج ٧، ص ١٠.

الضحك كان لا يزال مسيطراً على الموقف في دمشق، متخذاً مقرّه كـ«خليفة» مؤقت في دار الإمارة^(١٠٤)، وفي الوقت نفسه يؤكد ولاءه للبيت الأموي ويدين له بالفضل، ويقدر بالتالي صعوبة اختراق الجبهة الشامية لغير مصلحته بعد التماسك الذي أظهره أبناؤه للاحتفاظ بالخلافة. وأخيراً فإن اختيار الجابية كان جزءاً من التسوية التي جرى الاتفاق عليها في «دار الإمارة»، حيث تم ذلك على الأرجح في ضوء اعتبارات جغرافية وسياسية معاً لإرضاء الكليبيين، باتخاذ احد مستقراتهم القديمة مكاناً لحسم موضوع الخلافة، ذلك القرار الذي ربما انطوى حينذاك على محاولة مبكرة لإبعاد مرشحهم خالد بن يزيد والبيعة لمروان بن الحكم الذي حاز تأييد الأغلبية في البيت الأموي وأطراف أساسية في الشام.

وكان ثمة حرص لدى الأمويين على استمرار العلاقة مع الضحك، وأصرار على مشاركته في «المؤتمر» الذي تقرر عقده في الجابية، لبحث مسألة السلطة ومواجهة الزبيريين في العراق والحجاز، ولكن مؤتمر الجابية الذي اقترحه الضحك، انعقد من دونه بعد تدخل معطيات مفاجئة، أسهمت في شحن الاجواء مجدداً وأعادت الضحك إلى مواقعه القيسية، راضخاً لموقفها غير المتعاطف مع مشروع التسوية في الجابية. والواقع أن بوادر الانفجار كانت قد شهدتها دمشق، عندما قامت غسان وكلب اليمينيتين، بحركة مضادة لإخراج سفيان بن الأبرد ويزيد بن ابي النمس من سجن السلطة القيسية المؤقتة كما سبقت الإشارة، منذرة باشتعال حرب القبائل التي أخذت تحدّد موقفها في ضوء مصالحها السياسية والاقتصادية. ولذلك بات من الصعب جداً التحكم في قرار القبيلة وكبح عصبيتها الجامحة في ذلك الحين. ومن هذا المنظور، فإن حسناً زعيم كلب، يسارع إلى عرقلة مشروع الضحك زعيم قيس للحيلولة دون استثثاره بالسلطة الفعلية أو الوصاية عليها، بحيث يتحول الصراع السياسي، إلى صراع قبلي بين قطبي الشام وركني الدولة الأموية الأولى. فقد اشارت الروايات إلى تراجع الضحك عن التزامه بمؤتمر الجابية، بتأثير من حليفه ثور بن معن السلمي^(١٠٥) الذي عاتبه بقوله: دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك، وانت تسير إلى هذا الاعرابي من كلب ليستخلف ابن اخته...^(١٠٦) محرّضاً الزعيم الفهري على اعلان ما كان يستتره من بيعة لابن الزبير -

١٠٤ - الطبري، ج٧، ص٣٦.

١٠٥ - من سليم وهي بطن من الازد القحطانية، القلقشندي، ص٦٦.

١٠٦ - البلاذري، انساب، ج٥، ص١٢٢، الطبري، ج٧، ص٣٦.

أوالنظواهر بها - والقتال على طاعته، مما حوّل نظاره إلى مرج راهط^(١٠٧) التي اخذ يتجمع فيها القيسيون من انصار ابن الزبير^(١٠٨). ويبدو أن تراجع الضحاك، وما سبقه من تردد بين الموقفين الأموي والزبيري، لم يتأثر فقط بتعاطف قيسية الشام مع الموقف الأخير، ولكنه تأثر أيضاً بأصداء المتغيرات في المنطقة وما حولها، حيث بدت كفة ابن الزبير أكثر رجحاناً، دون أن يعدم ذلك تأثيراً في صفوف الأمويين، وإذا ما توقفنا عند الرواية التي أشارت إلى عزم مروان بن الحكم على الذهاب إلى مكة ومبايعة ابن الزبير وأخذ الأمان منه لبني أمية^(١٠٩). وقد ترددت هذه الرواية في أكثر من مكان^(١١٠)، ولكن مع اختلاف في السياق الزمني، مما يرجح اتخاذ مروان هذا القرار قبيل انقاز الجبهة الأموية المتداعية، والاستنفار اليمني لمصلحة الأخيرة. وكان لعبيد الله بن زياد دور بارز في شحن المواقف وتأجيج العصبية، على نحو تلاشت معها الآمال بالتسوية بين الطرفين. فقد نُسب إليه الحيلولة دونبيعة مروان لابن الزبير، واصفاً الأول بأنه «سيد بني عبد مناف^(١١١)، ودافعاً به إلى خوض معركة الخلافة في الشام، على أن يكفيه «قريشاً ومواليها»^(١١٢) حسب تعبيره. وفي الوقت ذاته، لم يُسقط ابن زياد قوة الضحاك من حساباته فحرضه أيضاً على البيعة لنفسه، ملامساً عصبية القيسية ومحركاً فيه الانتماء القرشي بما نسب إليه قوله: قد بويع صاحبك (ويقصد حسان بن مالك) واستقامت له النواحي وانت حصرت نفسك بدمشق، فأخرج فعسكر ناحية يأتك الناس من كل صوب فإنك كبير قريش والمنظور إليه منها»^(١١٣). فكان ذلك حسب الرواية نفسها، من الأسباب المباشرة لخروج الضحاك من دمشق إلى مرج راهط، مكرساً الانقسام والمواجهة بين الاتجاهين الرئيسيين في الشام. وقد أوردت الروايات هذه الحادثة منطوية على خطة، يبدو أنها أعدت مسبقاً بالاتفاق مع

١٠٧ - تقع في ضواحي دمشق، على اميال منها، السعودي، مروج، ج ٢، ص ٨٧، ياقوت، شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، (ت هـ / م)، معجم البلدان، ج ٥، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج ٥، ص ١٠١، وسيشار لهذا المصدر عند وروده هكذا، ياقوت.

١٠٨ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٤، الطبري، ج ٧، ص ٣٦.

١٠٩ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٠.

١١٠ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٤، الطبري، ج ٧، ص ٣٤.

١١١ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٠.

١١٢ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٠.

١١٣ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٣١.

مروان^(١١٤)، وذلك لإخراج الضحاك من دمشق، تمهيداً لاستيلاء الأمويين عليها^(١١٥)، حيث كان لهذه الصفقة المبكرة أهميتها في تعزيز موقع جماعة الجابية وترجيح المعركة لمصلحتهم، لما قدمته العاصمة الأموية من دعم مادي ومعنوي في المعركة الفاصلة.

وهكذا خسر الضحاك أبرز أوراقه، بعد الخروج من دمشق، دون أن يجد ما يعوض عن ذلك في مرج راهط التي اختارها القيسيون معسكراً لهم بعد فشل مشروع التسوية مع التحالف المرواني - الكلبي الجديد. وقد ساد التردد الذي سيطر على موقف الضحاك في دمشق، على أجواء الجبهة القيسية التي عانت الارتباك وعدم التجانس السياسي، دون أن تكون القضية الأساسية وهي البيعة، قد حسمت تماماً في ذلك الوقت.

فثمة التباس حول مشاركة القيادات القيسية البارزة أو بعضها بصورة مباشرة في مرج راهط، والتباس أيضاً حول علاقة الضحاك، الذي تركز حينذاك زعيماً لقيسية الشام، مع ابن الزبير، ومدى اقتناعه بخلافته، وهو المرتبط بعلاقة جذرية مع الأسرة الأموية. ومن هنا تصبح موضع شك بيعة الضحاك لابن الزبير، حيث وجد نفسه متراوفاً بين ثلاثة مواقف: الأول أموي أملاه عليه موقعه البارز كوال على دمشق مقرب من الأسرة الحاكمة والثاني زبيري، فرضه التعاطف القيسي معه، ولكن بالقليل من الحماسة نتيجة لابتعاد ابن الزبير عن مسرح الحوادث، وتثاقله في اتخاذ القرار السياسي، والثالث ذاتي، انطلاقاً من الشعور بأنه نذ لابن الزبير مثل مروان ومتكافئ معهما في انتمائه القرشي، مع تفوق في العصبية التي يفتقر إلى قوتها كل من الاثنين. ومن هذا المنظور قد نفسر العلاقة الغامضة بين الضحاك وابن الزبير الذي لم يمنحه على ما يبدو ثقته التامة لارتباطه العضوي بالأمويين من جهة، وخشيته من نفوذه القوي من جهة ثانية، مؤكداً هذا الارتياح بـ«حليفه» بما نسب إليه من القول بعد تلقيه خبر مقتله الذي لم يزعجه كثيراً على الرغم من نتائجه السلبية على حركته: «كان يرعى - أي الضحاك - في جبال مكة، فيأتي بالضربة من اللبن فيتبعها بالقبضة من الدقيق، فيرى ذلك سداداً من عيش، ثم أنشأ يطلب الخلافة وورثة النبوة^(١١٦)».

وقد يحمل هذا النصّ في ثناياه، المفهوم السياسي أو ملامحه عند ابن الزبير، الذي انطوى على عزلته في الحجاز، متجاهلاً الدور الحيوي للأمصاري في مسألة السلطة منذ اغتيال الخليفة عثمان. فقد رضي بالتوكؤ على موروث الشورى الراشدي^(١١٧)، وحاول

١١٤ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٦.

١١٥ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣١.

١١٦ - ابن عساکر، ج ٧، ص ١٢.

١١٧ - خليفة بن خياط، ج ١، ص ٢٢٤.

التساوي بقدر ما مع نموذج الخليفة عمر بن الخطاب، ولكن دون ان تكون لديه ألعيته وسعة أفقه، فضلاً عن موازنته الدقيقة التي تراقق اختلالها مع اختلال المركزية الحجازية وانهارها حتى أمد بعيد. وفي غمرة هذه التحولات التي انعكست ايجابياتها على حركته في بادىء الأمر... من فراغ في زعامة المعارضة إلى فراغ في السلطة أيضاً، دون أن يكون له يد في ذلك أو قرار، مما جعله إلى حين محطّ الآمال بتوحيد الجماعة الإسلامية واستعادة الشورى الراشدية المفقودة. ولكن ابن الزبير، ألف الانتصارات السهلة وظلّ قابلاً في مكة، منتظراً ثمار صراع الآخرين^(١١٨)، لتوظيفه أنتصاراً سياسياً أو عسكرياً جديداً بالقليل من الجهد ومن المبادرة. ولم تختلف سياسته الشامية عبر هذا المنظور عن سياسته الحجازية التي أخفقت في السيطرة التامة على الحجاز، وحتى عن سياسته العراقية الحافلة بالأخطاء^(١١٩) التي بلغت ذروتها في استعداد أهل الكوفة وآخرين من زعماء القبائل^(١٢٠)، فضلاً عن تضارب الرأي أحياناً بينه وبين أخيه مصعب^(١٢١)، الاكثر كفاءة ومقدرة بين رجالات الحركة الزبيرية. ولذلك فإن إخفاق ابن الزبير في الشام، كان إخفاقاً لمشروعه السياسي بكامله، حيث موقف القيسيين لم يكن بثقله معه، وتأييد رجلهم الضحاك بقي خجولاً حتى اللحظات الأخيرة، ولم يمنحه على الأرجح بيعته الفعلية. ذلك ما تدعّمه الروايات التاريخية التي أوردت هذه البيعة مقترنة بالسرية بالنسبة للضحاك، وبالعلنية بالنسبة للآخرين (النعمان بن بشير ونائل بن قيس على سبيل المثال) الذين حدّدوا موقفهم في أول الطريق^(١٢٢)، بينما كان الضحاك يحسب بدقة لآخره ويحرص على إبقاء الجسور قائمة مع البيت الأموي.

- ١١٨ - ابراهيم بيضون، الاتجاهات السياسية في الاسلام من دولة عمر إلى عبد الملك، دار قرار، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٦٩، وسيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا، بيضون، الاتجاهات.
- ١١٩ - وصفه اليعقوبي بأنه لم يصلح أن يكون سائساً اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٧٤.
- ١٢٠ - ابن قتيبة، أبو محمد بن عبدالله بن مسلم (٢١٣-٢٧٦هـ / ٨٢٨-٨٨٩م)، الامامة والسياسة، ج ٢، مصطفى الباني الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ج ٢، ص ٢٢. وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا، ابن قتيبة.
- ١٢١ - ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٧٩، بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية دراسة في اشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٢٨، وسيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا، بيضون، الحجاز والدولة الاسلامية.
- ١٢٢ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٣٢، الطبري، ج ٧، ص ٣٥. أبو الفداء، اسماعيل بن علي بن محمود (٦٧٢-٧٢٢هـ / ١٢٧٣-١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر، ج ٤، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ج ١، ص ١٩٢، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا، أبو الفداء.

الموقف في الجابية

اتخذت الأزمة منحى تصاعدياً، منذ فشل الاتفاق بين الأطراف المتنافسة، وترافق هذا المنحى مع تشدد الكلبيين من جهة وضغط القيسيين على الضحاك من جهة ثانية، فضلاً عن الدور المزدوج الذي مارسه عبيد الله بن زياد في توسيع شقة الخلاف بينهما، مما حوّل الجابية التي اقترحت مكاناً لتسوية الأزمة بمشاركة مختلف القبائل الشامية، إلى مقرّ يلتئم فيه المتحزبون لبني أمية من كلب وحليفاتها اليمينية. وثمة أبيات^(١٢٣) منسوبة لمروان بن الحكم بعيد انتصاره في مرج راهط، تشير إلى هذه القبائل التي شاركت في مؤتمر الجابية، وهي: كلب وغسان والسكاسك^(١٢٤) والسكون وطبي^(١٢٥) والقين^(١٢٦) وتنوخ^(١٢٧)، حيث ورد بعض هذه القبائل في رواية أخرى أوردها الطبري^(١٢٨)، فضلاً عن قبائل جذام «جماعة روح بن زباج» وعُدرة^(١٢٩) وفزارة^(١٣٠) ومذحج^(١٣١) التي وردت في أنساب البلاذري^(١٣٢).

وكان أبرز المشاركين في «المؤتمر»، حسان بن مالك الذي انعقدت له «الرئاسة» وبقي أربعين ليلة يُسلّم عليه بالخلافة، فيما يرويّه ابن الكلبي^(١٣٣). ذلك أنّ حساناً كان يحظى بتأييد مطلق من جانب القبائل اليمينية^(١٣٤) التي رأت فيه الضمانة لمصالحها المرتبطة بالبيت الأموي. كما يعني ذلك انتهاء مسألة الخلافة وتكريس شرعية الأخير،

سريت غسان لهم وكلبا
وطبناً تاباه الا ضربا
ومن تنوخ مشمخرا صعبا
وان دنت قيس فقل لا قربى

١٢٣ - لا رأيت الامر امرا نهبا
والسكسكيين رجالاً غلبا
والقين كمشي في الحديد نكبا
لا يأخذون الملك إلا غصباً
- الطبري، ج ٧، ص ٣٩.

- ١٢٤ - بطن من حمير القحطانية، القلقشندي، ص ٦٥.
١٢٥ - قبيلة من كهلان القحطانية، المصدر نفسه، ص ٧٥.
١٢٦ - بطن من قضاة القحطانية، المصدر نفسه، ص ٧٥.
١٢٧ - حي من اليمن، المصدر نفسه، ص ١٧٩.
١٢٨ - الطبري، ج ٧، ص ٢٨.
١٢٩ - من كهلان القحطانية، القلقشندي، ص ١٩١.
١٣٠ - بطن من كلب من قضاة القحطانية، المصدر نفسه، ص ٣٢٦.
١٣١ - بطن من ذبيان من غطفان القحطانية، المصدر نفسه، ص ٣٥٢.
١٣٢ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٢٨.
١٣٣ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣٥.
١٣٤ - L'ammens. L'aremmement des Marwanides. p.60.

ولكن دون الخليفة الذي بقي مثار خلاف وجدل خلال هذه الفترة. فقد كان حسان يميلُ بداهةً إلى قريبه خالد بن يزيد الأكثر تجسيدا للشرعية الأموية واستمراريتها، من غير أن يجنح به التعصب إلى حد إهمال مصالح قبيلته والقبائل الحليفة، حيث كان على استعداد لمناقشة ترتيبات جديدة في ظل الاعتراف بهذه المصالح.

والواقع أن مرواناً بدأ الأوفر حظاً حين قدومه إلى الجابية، بعدما نجح في توحيد بني العاص الذين تفوقوا عدداً وقوة على بني سفيان في قريش، كما توصل إلى إقناع عمرو ابن سعيد الذي ورث زعامة الجناح الآخر من بني العاص بعد وفاة أبيه، حيث نسب له القول لمروان: «أنت سيد قريش وقرمها، وأنت أحق الناس بالقيام بهذا الأمر»^(١٣٥) فيما يرويه الطبري. كذلك يبرز هنا الدور الذي شغله عبيد الله بن زياد لمصلحة مروان، ربما لأن علاقته ساءت مع السفينانيين بعد أحداث العراق واضطلاعه فيها، أو لإعتقاده أن مرواناً الذي تولى إمرة المدينة جانباً من عهد معاوية الأول، كان له أنصار في الحجاز، بينما اقتصر تأييد خالد على قبيلة كلب وفرع من السكون بقيادة مالك بن هبيرة^(١٣٦). وهكذا ضمن مروان في الجابية تأييد بني العاص والقبائل الشامية الأخرى، باستثناء قلة قليلة، وقفت كما يبدو على الحياد ولم تتورط في هذا الصراع العربي - العربي، مثل أيمن ابن خريم بن فاتك زعيم أسد، الذي رفض دعوة مروان إلى القتال، حيث وجد فيه صراعاً قرشياً^(١٣٧) على السلطة لا يعنيه كثيراً.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن مروان بن الحكم كان له تراثه الأموي، كمقرَّب من الخليفة عثمان الذي أصهر له^(١٣٨) واطلق يده في كافة شؤون الدولة. وبعد اغتيال الخليفة كاد مروان أن يتزعم بني أمية، لولا أن خطف معاوية هذا الدور وانتزع منه القضية التي قاتل من أجلها في موقعة الجمل، وهي الثأر للخليفة عثمان، مما جعله يفسح المجال لمعاوية بعد اظهاره كفاءة عالية في قيادة الأسرة الأموية. وأخيراً فإن بروز مروان، كمرشح مرجح

١٣٥ - الطبري، ج٧، ص٤١.

١٣٦ - البلاذري في أنساب، ج٥، ص١٣٥.

١٣٧ - راجع الأبيات المنسوبة لايمن في هذا المعنى:

ولست مقاتلاً رجلاً يصلي
له سلطانه وعلي اثمى
اقتل مسلماً في غير ذنب
على سلطان آخر من قريش
معاذ الله من سفه وطيش
فليس بنافعى ما عشت عيشى

- البلاذري أنساب، ج٥، ص١٣١.

١٣٨ - تزوج من عائشة بنت عثمان، الطبري، ج٧، ص٧.

في الجابية ربما كان المقصود منه أيضاً، إعادة النظر في العلاقة مع المعارضة، أو تخفيف عدائها للحكم الأموي، بعد أن بلغ الذروة في عهد يزيد. فثمة رواية أوردها الطبري تشير إلى «صداقة قديمة»^(١٣٩) مع علي بن الحسين، دفعته إلى إيفاد حرمه إلى داره خلال محنة الأمويين في المدينة. ومن هذا المنظور، فإن ترشيح مروان في الجابية، كان يعني اختيار الأقل إثارة للمعارضة بين مرشحي الأسرة الأموية، لا سيما المعارضة العلوية التي كان لها نفوذ معنوي واسع في الحجاز والعراق.

وهكذا فإن رجحان كفة مروان في مؤتمر الجابية، كان محصلة لهذه المعطيات التي يمكن أن نضيف إليها أيضاً عنصر السن بما يعنيه من تجربة غنية يفتقر إليها المرشحان الآخران، خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد. ولكن هذه المسألة على ما يبدو لم تلعب الدور الرئيس في معايير المؤتمرين في الجابية، خلافاً للروايات التاريخية التي توليها أهمية خاصة، وتجعل من حداثة خالد، العائق الأساسي في اختياره مرشحاً إجماعياً في المؤتمر. ولعل هذه المسألة تحتاج إلى إعادة تقويم في ضوء المعطيات المتوافرة في هذا السبيل، حيث أجواء المؤتمر لا تعبر عن توقف المجتمعين طويلاً عندها، كما أن الروايات التاريخية ليست خالية من الالتباس، على نحو ما أوردهت رواية عوانة ووصفها خالداً بأنه غلام^(١٤٠)، في الوقت الذي رقي المنبر وتكلم «بكلام اوجز فيه لم يُسمع مثله»^(١٤١) حسب الرواية نفسها. فقد تردد اسمه - أي خالد - في سياق الجدل على الخلافة، وكان حاضراً إلى جانب المعنيين بأمرها في دمشق والجابية ومرج راهط، مما يفترض أنه تجاوز هذه المرحلة من العمر. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرواية لدى البلاذري، سقطت منها هذه الصفة، حيث «قام خالد بن يزيد بن معاوية على مرقاتين من المنبر فتكلم وسكن الناس»^(١٤٢). وفي ضوء هذه الإشكالية، فإن خالداً حسب الرواية السابقة، تمتع بحضور سياسي ومقدرة خطابية، كان لهما تأثير في تهدئة الوضع الذي اخذ يميل إلى التفجر في العاصمة الأموية.

والواقع أن هذه المسألة لم تُثر للمرة الأولى في الجابية، ولكنها أثرت بصورة ما في العهد الإسلامي المبكر. فقد طرحت مسألة السن في معرض الجدل الذي أثارته بيعة السقيفة، حيث كان بين المواصفات التي تداولها مؤيد وأبي بكر، بأنه متقدم سناً على علي، بما يعنيه ذلك من تجربة راجحة. كما أثرت هذه المسألة قبيل بيعة عثمان، وأثرت أيضاً

١٣٩ - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٧.

١٤٠ - المكان نفسه، ج ٧، ص ٣٦.

١٤١ - المصدر نفسه.

١٤٢ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٢٣.

في عهد معاوية، عندما عزم على البيعة لابنه بولاية العهد، مما أدى إلى تلك الموجة من الانتقاد التي صبّت في معظمها على نزق يزيد وخفته واهتماماته غير الجادة، وغير ذلك مما اعتبر محصلة لحدائثه سنة. وكان من ابرز المنتقدين حينذاك، مروان بن الحكم الذي اعترض على قرار معاوية بما نُسب اليه قوله: «اعدل عن تأميرك الصبيان واعلم أن لك من قومك نظراء»^(١٤٣). وقد كان العرب قبل الاسلام، يؤثرون على ما يبدو المسنّين على الفتيان في القيادة، وتلازمت الرئاسة عندهم في الغالب مع الشيخوخة، كما اكتسب زعيم القبيلة أو العشيرة عادةً صفة الشيخ ولقبه، على غرار أبي سفيان الذي عرف بشيخ قريش^(١٤٤)، بعد ان آلت اليه الزعامة الفعلية في مكة. وكان لهذه الصفة وقعها ايضاً في المداولات التي جرت ما بين دمشق والجابية، حيث وصف ابن زياد، الضحاك بن قيس بأنه «كبير قريش»^(١٤٥) ووصف الحصين بن نمير مرواناً في المقابل بأنه «شيخ قريش»^(١٤٦)، واعتبره حسان بن مالك «كبير قريش وسنّها»^(١٤٧) ونُسب إلى روح بن زبناع القول في السياق نفسه «افنبايح الصغير وندع الكبير»^(١٤٨)، إلى آخر ما أشارت اليه الروايات في معرض المفاضلة بين مروان وخالد في هذا المجال.

وهكذا فإن مسألة السن كانت عنصراً بارزاً في ترشيح الخليفة في الجابية، ولكنها لم تكن العنصر الأساسي فيه، حيث كان الفارق كبيراً بين الاثنين، دون أن يعني تقدم مروان في السن أن خالداً كان لا يزال غلاماً حدثاً، مما اقتضى إبعاده نتيجة لهذا الأمر. والواقع أن جماعة الجابية، إذا كانوا قد حسموا باكراً مسألة الخلافة، بعد اتفاقهم على إبقائها في البيت الأموي، فإنهم تأخروا كثيراً في الاتفاق على الخليفة الذي بقي اسمه «اربعين ليلة»^(١٤٩) موضع تشاور بين الناس^(١٥٠)، بما لذلك من دلالة على تباعد المواقف بينهم، في وقت كان على الخليفة المرشح، مراعاة التطورات السياسية والتوازنات المستجدة، بعد اختلالها في عهد يزيد وانهارها تماماً بعد وفاته، واتخاذ كل فريق معسكراً

١٤٣ - المسعودي، مروج، ج ٢، ص ٢٩.

١٤٤ - Lammens, La République marchande de la mécque vers L'ans 600 de note ère;...

١٤٥ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٣١.

١٤٦ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٤.

١٤٧ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٩.

١٤٨ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣٥.

١٤٩ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٤-١٣٥.

١٥٠ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٤.

له في مواجهة الآخر. ومن هذا المنظور تجاوز الموقف في الجابية مسألة السن، كما تجاوز اعتبارات لا تقل أهمية عنها، مثل القرابة بين حسان وخالد، حيث تنازل الأول عن «حق» الثاني، بعد أن أدرك خطورة المرحلة وحاجتها إلى منقذ تتوافر فيه عناصر القيادة والقوة والتجربة، دون أن يكون المرشح السفيناني حائزاً على عنصر منها في ذلك الحين.

وفي ضوء ما آلت إليه المواقف في الجابية، يمكن تفسير هذا التحول لمصلحة مروان الذي كرّس المعادلة الأموية - الكلبية، واستجاب لشروط بعض حلفائه^(١٥١)، حيث بات هاجس القيادات القبلية في الجابية، إنقاذ الخلافة الأموية من السقوط، ومن ثم البيعة للشخصية الأكثر قدرة على حماية نفوذها ومصالحها، قبل أي اعتبار آخر. ومن هذا المنطلق أيضاً، يمكن تفسير الموقف الكلبي الجديد ومعه البيعة لمروان التي سوّغها حسان فيما نُسب إليه من القول لخالد: «إنّ الناس قد أبوك لحدائثة سنك وإني والله ما أريد هذا الأمر إلّا لك ولأهل بيتك، وما أبايع مروان إلّا نظراً لكم»^(١٥٢). ولكن خالداً، الذي فقد الأمل بالخلافة، بعد انصراف «خاله» عنه لم يقتنع بما تبرّع به حسان من حدائثة السن لتغيير موقفه، الذي فرضته في الواقع أسباب أكثر موضوعية، وأعجزته^(١٥٣) بالتالي عن المضي في دعم ترشيحه، دون أن يخفي انتقاده لهذه «المؤامرة» التي دُبرت بليل، مستهدفة البيت السفيناني، حسب تعبيره^(١٥٤).

وإذا كان مروان قد برز كمرشح له حظه الأوفر في الخلافة منذ قدومه إلى الشام، متمتعاً بشروط لم يتمتع بها خالد بن يزيد، بما في ذلك شرط السن، فإن المرشح السفيناني تجاوز على الأرجح مرحلة الحدائثة إلى الشباب، انطلاقاً من حضوره البارز في مختلف أطوار الأزمة ما بين دمشق والجابية. وعلى الرغم من الافتقاد إلى معلومات دقيقة عن عمر خالد في تلك الفترة، فإن ثمة مؤشرات ترجّح بلوغه العشرين أو دونها بقليل، مما يفترض التكافؤ مع الدور الذي قام به في «تسكين»^(١٥٥) الناس بعد خطبته في دمشق، أو في الهجوم على السجن مع أخيه عبدالله و«أخوالهما من كلب»^(١٥٦) لإخراج الوليد بن عتبة منه أو

١٥١ - الطبري، ج ٧، ص ٤٣.

١٥٢ - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٨.

١٥٣ - راجع رواية عوانة حول اتهام خال لحسان بقوله: «بل عجزت عنه، المكان نفسه.

١٥٤ - ابن عبدبر، أحمد بن محمد بن عبدبر الاندلسي، هـ ٢٢٨ - ٢٢٩ / ٩٢٩ م، العقد الفريد، ج ٨، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، ج ٥، ص ١٢٤، ويشير لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عبدبر.

١٥٥ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٢٧.

١٥٦ - الطبري، ج ٧، ص ٣٦.

الاحتجاج على موقف خاله في أعقاب البيعة لمروان في الجابية، وغير ذلك من مؤشرات تحمل على الاعتقاد بأنه لم يكن حينذاك «غلاماً» على هوامش الحوادث كما وصفته الروايات التاريخية. فقد ذكر ابن طولون أن يزيد ولد «بعد العشرين للهجرة»^(١٥٧)، وهو ما يرجحه لامنس الذي يعتقد أن ولادة يزيد كانت بين الاثنتين والعشرين والسابعة والعشرين للهجرة^(١٥٨). على أن عمره يبدو أقل من ذلك لدى البلاذري والطبري، حيث أورد الأول أنه توفي عن تسع وثلاثين سنة^(١٥٩)، وذكر الثاني أنه توفي وهو ابن ثمان وثلاثين أو تسع وثلاثين سنة^(١٦٠)، بينما تراوح عمره حين وفاته لدى ابن خياط بين «ثمان وثلاثين وبضع وأربعين سنة»^(١٦١).

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول إن يزيد عاش نحو الأربعين من السنين، أي أنه ولد في منتصف عشرينات القرن الأول، ويُرجح زواجه في الأربعينات منه، حيث كان متزوجاً على ما يبدو عند زهابه إلى مكة واقامته الحج في السنة الواحدة والخمسين للهجرة^(١٦٢). أما ابنه معاوية، فإن عمره قد تجاوز العشرين حين وفاته، كما أجمعت على ذلك الروايات، التي رجّحت في معظمها وفاته عن ثلاث وعشرين سنة، استناداً إلى البلاذري^(١٦٣) والطبري^(١٦٤) واليعقوبي الذي أشار في الوقت نفسه إلى قيام أخيه خالد بالصلاة عليه^(١٦٥)، مما يعني أن الفارق كان ضئيلاً بين عمري الأخوين. ولعل ما يهمنا في هذا السياق، أن خالد كان قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره على الأرجح، إبان انعقاد مؤتمر الجابية، أي أن عمره حينذاك لم يكن عائناً أمام ترشيحه للخلافة. ولكن ما حدث في تلك الظروف الصعبة، أن المؤتمر بعد أربعين يوماً من الجدل، لم يربداً من استبعاد الأضعف عصبية ونفوذاً وسياسة، وتبني الأقوى والأقدر على التصدي للمرحلة وتحدياتها

١٥٧ - قيد الشريد من اخبار يزيد، مخطوطة ورقة ٦/٢.

١٥٨ - Lammens, Etudes sur le règne du Calife Omiyade Mo'awia Ier. p.325.

١٥٩ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٦١.

١٦٠ - الطبري، ج ٧، ص ١٥.

١٦١ - خليفة بن خياط، ج ١، ص ٣٢١.

١٦٢ - اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢٣٩. Lammens, Etudes sur le règne du calife Mo'awia Ier p.410.

١٦٣ - أورد البلاذري أنه توفي «وهو ابن تسع عشر سنة... ويقال ابن عشرين... ويقال ابن احدى وعشرين سنة وثمانية عشر يوماً» البلاذري، أنساب، ج ٤، ص ٦٣.

١٦٤ - الطبري، ج ٧، ص ١٧، ذكر ابن خياط أنه توفي عن احدى وعشرين سنة، خليفة بن خياط، ج ١، ص ٣٢١، وذكر

المسعودي أنه توفي عن اثنتين وعشرين سنة، المسعودي، مروج، ج ٢، ص ٧٢.

١٦٥ - اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٤.

و«مقاومة» ابن الزبير بصورة خاصة^(١٦٦) بحيث لا يصبح السن هو الامتياز، ولكنها عصبية بني العاص الأقوى في قريش التي انهزمت أمامها العصبية السفينانية الضعيفة.

ولعل بني العاص، بعد «هجرتهم» القسرية إلى الشام ونجاح مروان في توحيد اتجاهاتهم الثلاثة، باتوا يمثلون أقوى العصبيات القرشية بوجه عام والأموية بوجه خاص. فهناك أبناء عثمان الذين لم يستسيغوا كثيراً خلافة السفينانيين التي قامت على أنقاض خلافة عثمان وفي ظل شعار الثأر له. وقد أورد البلاذري أسماء عشرة منهم، وكانت ثلاث من امهاتهم قرشيات، وهم عبدالله الأكبر الذي توفي في وقت مبكر وعبدالله الأصغر وعمرو وأبان الذي تولى امر المدينة في عهد عبد الملك^(١٦٧) وخالد وعمر وسعيد الذي قلده معاوية ولاية خراسان^(١٦٨) والوليد والمغيرة وعبد الملك^(١٦٩)، حيث كان لمعظمهم أبناء كثر عاصروا مؤتمر الجابية أو شاركوا فيه، وتقلد بعضهم فيما بعد مناصب في الدولة المروانية^(١٧٠).

ويبدو أن الجناح الأقوى في بني العاص، مثله حينذاك بنو سعيد بن العاص المعروف بأبي أحبحة، تيمناً بابنه البكر صاحب هذا الاسم، والمعروف أيضاً بـ«ذي التاج»^(١٧١) حسب رواية ابن الكلبي مما له دلالة على ثرائه ونفوذه التجاري في مكة قبل الاسلام. وقد عُرف من أبنائه - عدا ابنه البكر الذي قُتل يوم الفجار -^(١٧٢) العاص الذي قتل في موقعة بدر، وعبيدة وعبدالله وسعيد الذي قتل مع النبي في غزوة الطائف^(١٧٣)، وخالد وأبان وعمرو الذي قتل في معركة أجنادين^(١٧٤). ومن أشهر ابناء هؤلاء، سعيد بن العاص^(١٧٥) الذي برز اسمه في أحداث الكوفة وبدائيات التمرد على سياسة الخليفة عثمان حيث كان والياً عليها وأثار بمقولته الشهيرة^(١٧٦) حفيظة أهلها الذين حملوا الخليفة على

١٦٦ - المسعودي، التنبيه والاشراف، دار التراث، بيروت، ص ٢٦٦، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا المسعودي، التنبيه.

١٦٧ - ابن الكلبي، ج ١، ص ١٦٦.

١٦٨ - المكان نفسه.

١٦٩ - البلاذري، انساب، ق ١، ص ٦٠٠-٦٠١.

١٧٠ - ابن الكلبي، ج ١، ص ١٦١، البلاذري، انساب، ق ١، ص ٦٢، وما بعدها.

١٧١ - وكان إذا اعتم بمكة لم يعتم احد بلون عمامته اعظماً له، وكان يقال له ذو التاج، ابن الكلبي، ج ١، ص ١٦٣.

١٧٢ - البلاذري، انساب، ج ٤، ص ١٢٤.

١٧٣ - ابن الكلبي، ج ١، ص ١٦٣، البلاذري، انساب، ج ٤، ص ١٢٤-١٢٥.

١٧٤ - البلاذري، انساب، ج ٤، ص ١٢٨.

١٧٥ - سعيد بن العاص بن سعيد العاص بن امية، ابن الكلبي، ج ١، ص ١٦٥.

١٧٦ - إنما السواد بستان قريش، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٥-١٦٦.

عزله، بما كان مؤشراً للاضطرابات الخطيرة التي أودت بالخليفة عثمان بعد سنتين فقط من هذه الحادثة.

وقد كان سعيد نداءً لمروان بن الحكم إبان خلافة معاوية بن ابي سفيان، الذي عهد للاتنين بولاية الحجاز، حيث كان يعزل أحدهما ليولي الآخر، اضعافاً لهما وتحقيقاً للتوازن في بني العاص، فضلاً عن التوازن بين هؤلاء وبني سفيان أصحاب الخلافة. ومن أبرز أبناء سعيد: عمرو المعروف بالأشدق^(١٧٧)، وهو أحد أقطاب الجابية وثالث المرشحين بعد خالد ومروان، معتمداً على تأييد اخوته السبعة وهم: يحيى ومحمد وعبد الله وعنبسة وأبان وعبد الرحمن وعثمان^(١٧٨)، الذين دافعوا مع أبنائهم عن خلافة الأمويين بعد اخراجهم من الحجاز.

أما بنو مروان فهم الذين ينتسبون إلى الحكم بن العاص بن امية. وقد اوردت كتب الأنساب إلى جانب مروان اسماء عشرين من الأبناء وهم: عثمان المعروف بالازرق^(١٧٩) وعبد الرحمن والحارث الذي شارك في حملة افريقية بقيادة والي مصر في عهد عثمان^(١٨٠)، وصالح وعثمان الأصغر ويحيى الذي تولى أمر المدينة في عهد عبد الملك بن مروان^(١٨١)، وأبان وعمر وحبيب ويوسف والنعمان وأوس وعمرو وأمارة وسهيل وعبيد الله وعبد الله والحكم وخالد وعبد الله الأصغر^(١٨٢). كما اوردت عشرة من الأبناء لمروان وهم: عبد الملك كبيرهم ووليّ عهده، وعبد العزيز (ولي عهده الثاني) ومعاوية (والي فلسطين في عهد عبد الملك) وبشر وقد كان صاحب راية في مرج راهط^(١٨٣) ثم والياً على الكوفة بعد القضاء على الحكم الزبيري في العراق، وأبان وعبيد الله وداوود وأبو عثمان وعمر ومحمد (والي الجزيرة في عهد عبد الملك)^(١٨٤). وقد شارك هؤلاء مع بعض ابنائهم في مؤتمر الجابية، وقاتلوا تحت راية مروان في مرج راهط ودافعوا عن الدولة^(١٨٥) التي انتسبت للأخير كما انتسب إليه هذا الفرع من بني العاص الأمويين.

١٧٧ - البلاذري، أنساب، ج ٤، ص ١٣٦.

١٧٨ - ابن الكلبي، ج ١، ص ١٦٧-١٦٩، البلاذري، أنساب، ج ٤، ص ١٤٦ وما بعدها.

١٧٩ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٦٠.

١٨٠ - عبد الله بن سعد بن ابي سرح، ابن عبد الحكم، ص ٢٤٦.

١٨١ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٦٠.

١٨٢ - المكان نفسه.

١٨٣ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٣٩.

١٨٤ - ابن الكلبي، ج ١، ص ١٥١، والبلاذري الذي اكتفى بإيراد ثمانية فقط، البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٦٤ وما بعدها.

١٨٥ - الطبري، ج ٧، ص ٤٠.

وفي ضوء ما كانت تمثله الأسرة المروانية في تلك المرحلة الحاسمة، مستمدة ذلك من عدد أبنائها ووحدهم وتراث شيخها (مروان)، رأى المتحزبون لبني امية في الأخير، واحداً من رموز هذه الأسرة، لا سيما زعيم جذام (روح بن زنباع) الذي سوَّغ تأييده لمروان انه: «قاتل عن امير المؤمنين عثمان يوم الدار وقاتل علي بن ابي طالب يوم الجمل ورمى طلحة بسهم فاستقاد منه لعثمان»^(١٨٦). ومن هذا المنطلق لم يكن لبني عثمان اعتراض على مروان بن الحكم، بل كانوا خلافاً لذلك، يؤثرونه على معاوية والسفيانيين، الذي تولوا الأمر تحت راية الخليفة الأسبق (عثمان) وعلى حساب أبنائه والمقربين، لا سيما الأكثر قرباً طوال عهده (مروان) الذي كان اولى حسب رأيهم بوراثة عثمان من معاوية. أما بنو سعيد بن العاص، فقد كانوا على الرغم من قوتهم غير قادرين على المضي بعيداً في المنافسة مع المروانيين حيث تفوق زعيمهم على عمرو بن سعيد بحنكته وتجربته وتراثه الأموي، مما جعل هذه الاتجاهات الثلاثة تقرر بزعامة مروان وتلتئم تحت قيادته في تلك الظروف الصعبة. وفي المقابل كانت العصبية السفيانية واهية، وكان ممثلها في الجابية (خالد بن يزيد) يفتقد أوراقه تبعاً، ومعها حقه الشرعي كولي للعهد، دون ان يجد إلى جانبه تكتلاً أسروياً يتكافأ مع ذلك الذي توافر لمروان أو عمرو. فلم يكن لشيخ السفيانيين^(١٨٧) من ابناء سوى معاوية (الأول) ويزيد (أول ولاة الشام) الذي لم يعقب^(١٨٨) وعتبة الذي لم ينجب ايضاً^(١٨٩) ومحمد وعمرو وعنيسة الذي ولي الطائف في عهد معاوية، وحنظلة الذي قتل يوم بدر^(١٩٠). ولم يكن كذلك لمعاوية ابناء، سوى يزيد (ولي العهد) وعبدالله^(١٩١) الذي نُسب إليه القتال مع الضحاك في مرج راهط ووقوعه أسيراً في يد عمرو بن سعيد^(١٩٢). أما يزيد فقد اقتصر على ثلاثة أبناء أو أربعة وهم: معاوية الذي تولى الخلافة مدة وجيزة واختفى في ظروف غامضة، وخالد الذي أخفق في الاحتفاظ بزعامته اسرته السفيانية^(١٩٣)، فضلاً عن اثنين غير معروفين وهما: عبدالله وأبو سفيان^(١٩٤).

- ١٨٦ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٣٥.
 ١٨٧ - صخر بن حرب المعروف بأبي سفيان.
 ١٨٨ - ابن الكلبي، ج ١، ص ١٧٨.
 ١٨٩ - ابن حبيب، ص ٣٧٩.
 ١٩٠ - ابن الكلبي، ج ١، ص ١٧٧-١٧٨، البلاذري، انساب، ق ١، ص ٦٥.
 ١٩١ - وصفه ابن الكلبي بأنه «كان احق الناس» ابن الكلبي، ج ١، ص ١٨٢.
 ١٩٢ - روى البلاذري أن عمراً قال له: «نقاتل لنشد ملككم وانت تقاقل لتضعفه» البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١.
 ١٩٣ - المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤.
 ١٩٤ - المكان نفسه.

وهكذا كانت معاناة خالد بن يزيد، في افتقاره إلى عصبية قوية لم تتوافر في البيت السفيناني المترنح، مما اضطره إلى الاعتماد على عصبية أخواله الكلبيين لدعم حقه في الجابية. ولكن هؤلاء برغم إيثارهم له وميلهم إلى استمرار الشرعية السفينانية في السلطة، ما لبثوا أن تراجعوا عن موقفهم بعد تحوّل الأثرية في الجابية، بمن فيهم مالك بن هبيرة (من زعماء السكون) إلى جانب مروان^(١٩٥)، الذي تمّت بيعته أخيراً بعد مداوات طويلة، وكان أول الداعين إليها زعيم كلب مالك بن حسان^(١٩٦). ولكن التسوية التي انتهى إليها أقطاب يمنية الشام في المؤتمر راعت مشاعر الكلبيين ومصالحهم في الدولة «الجديدة»، دون أن تكون تسمية خالد ولياً للعهد^(١٩٧) سوى ترضية معنوية لبني سفينان، أكثر منها لبني كلب الذين أدركوا حينذاك خروج الخلافة نهائياً من بيت معاوية، وقرروا في ضوء ذلك ربط مصيرهم بالأسرة الحاكمة الجديدة.

ولعل هذه التسوية التي عبّرت عما تمتع به مروان وأركانها في الجابية من نكاه وحنكة، قد وضعت حداً لصراعات الجبهة الأموية وحلفائها، حيث كان الانجاز البارز فيها، توحيد فروعها الأربعة^(١٩٨) على الصعيد الأسروي، وتكريس التحالف مع بني كلب على الصعيد القبلي، مع اختلاف في التوازنات التي كان على المروانيين إعادة صياغتها بعد الشرخ العميق الذي أحدثه انتقال السلطة اليهم بين القبائل الشامية. بيد أن مؤتمر الجابية حقق من منظور آخر نتائج في غاية الأهمية، كان في طليعتها حلّ النزاع في الأسرة الأموية وتوحيد أنصارها في الشام حول مروان، مؤدياً ذلك إلى ضرب السفينانيين وبني سعيد بن العاص. كما أولى المؤتمر اهتماماً بالمشكلة الزبيرية، مقررأ حينذاك عدم المواجهة المباشرة معها، والتركيز في تلك المرحلة على مصر وتخوم العراق. ولكن المؤتمرين عجزوا عن معالجة المشكلة القيسية المعقدة مما أدى إلى إنهاء السلام القيسي - الكلبي وإلى تفجير الصراع القبلي في الشام ومن ثمّ امتداده إلى مناطق أخرى بعد ذلك، لأول مرة في التاريخ العربي الاسلامي. وأخيراً، فإن مؤتمر الجابية، على الرغم من انعكاساته السلبية على بنية المجتمع الأموي، لم يعدم بعض الإيجابيات على المدى القريب، حيث كان السبب المباشر في إنهاء السيطرة الزبيرية على الحجاز والعراق وإعادة الدولة موحدة في ظل سلطة بني مروان، وذلك بعد أقل من سنوات عشر على المؤتمر.

١٩٥ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٣٤-٦٣٥.

١٩٦ - تمت البيعة لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين، المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣٩، الطبري، ج ٧، ص ٢٨.

١٩٧ - اتفق على تسمية خالد بن يزيد ولياً لعهد مروان وتعيينه على اماره حمص، وعمرو بن سعيد ولياً لعهد خالد وتعيينه على اماره دمشق الوظيفة التي تولاهما الضحاك سابقاً، الطبري، ج ٧، ص ٢٨٧.

١٩٨ - بنو عثمان ومروان وسعيد بن العاص وسفينان.

مرج راهط

ثمة غموض يكتنف الوضع في مرج راهط، التي اختارها الضحاك معسكراً لجماعته من القبائل القيسية، حيث الروايات لم تعبأ بأخبار ما قبل الموقعة، خلافاً لأخبار الجابية التي أوردتها بشيء من التفصيل. فقد ظل الموقف غير محسوم على ما يبدو في مرج راهط - كما كان الحال في دمشق - بالنسبة للضحاك الذي تردد بين البيعة لابن الزبير والبيعة لنفسه، أو بالنسبة لحلفائه الذين لم تكن لديهم قضية محورية شأن القبائل اليمنية التي اجتمعت منذ البداية على إبقاء الخلافة في البيت الأموي، مما حال دون إلقاء ثقلهم كله في المعركة، على الرغم من تفوقهم على جماعة الجابية^(١٩٩). ولعل واحداً من الأركان الثلاثة البارزين في الجبهة القيسية، لم تحسم المصادر مشاركته الفعلية إلى جانب الضحاك في مرج راهط. فالنعمان بن بشير الانصاري بلغه خبر هزيمة القيسيين وهو في حمص، فخرج «ليلاً» هارباً منها يريد المدينة «فلحقه أهل حمص وقتلوه»^(٢٠٠). واختلفت المصادر أيضاً في امر زفر بن الحارث الكلابي، إذا كان قد شارك فعلاً في المعركة، أم أنه كان لا يزال في قنسرين، وهرب منها إلى قرقيسيا، حسب الرواية التاريخية^(٢٠١)، وكذلك ناتل بن قيس الجذامي الذي ربما انسحب من المعركة، بعد تهيب جماعته خطورتها، وقولهم فيما يرويه الواقدي «لا طاقة لنا بمروان فالحق بابن الزبير لتأمن ونأمن، فشحص إلى ابن الزبير»^(٢٠٢).

ومما يقرب هذا الشك إلى اليقين ويحمل على الظن باختلاف هؤلاء، الذين حسموا بيعتهم لابن الزبير، مع الضحاك الذي تمسك على ما يبدو بالدعوة لنفسه، هو غياب الثلاثة عن صدارة المعركة وأنعقاد الألوية لآخرين من زعماء القيسية، ربما نابوا عنهم أو عن بعضهم في هذه المهمة فقد ذكرت الروايات^(٢٠٣) أن الضحاك اتخذ قائداً لميمنته زياد بن عمرو بن معاوية العقيلي^(٢٠٤) وليسرته زحربن أبي شمر الهلالي^(٢٠٥)، حيث ناب الأخير عن النعمان بقيادة أهل حمص^(٢٠٦) في مرج راهط. ولعل اليعقوبي يعزز الشك بغياب زفر

١٩٩ - المسعودي، التنبيه، ص ٢٦٦.

٢٠٠ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٤٧، أبو الفداء، ج ١، ص ١٩٤.

٢٠١ - الطبري، ج ٧، ص ٤٠، راجع أيضاً البلاذري الذي شكك في إحدى رواياته بحضور زفر وقعة المرج، البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٤٠.

٢٠٢ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٤٠.

٢٠٣ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٢٦؛ الطبري اكتفى بذكر صاحب الميمة فقط، ج ٧، ص ٣٨-٣٩.

٢٠٤ - من عقيل وهي بطن من عامرين صعصعة العدنانية، القلقشندي، ص ٣٣١.

٢٠٥ - من هلال وهي بطن من عامرين صعصعة، المصدر نفسه، ص ٣٩٢.

٢٠٦ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٣٦.

والنعمان عن المعركة، ولكن مع اختلاف في الأسماء، أصبح معه قيس بن طريف الهلالي موفداً للاول^(٢٠٧) شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري موفداً للثاني في أهل حمص^(٢٠٨) وذلك قبل إدراج الرواية المعروفة عن «هرب زفر والخيل تتبعه حتى اتى قرقيسياً^(٢٠٩)، مما يتناقض مع الرواية السالفة. ولم يحسم البلاذري هذه المسألة^(٢١٠) أيضاً وكذلك الطبري الذي أشارت إحدى رواياته إلى هرب زفر من قنسرين إلى قرقيسيا^(٢١١) وفي رواية ثانية من مرج راهط إلى الأخيرة^(٢١٢). أما المسعودي فيكاد يقطع بمشاركة زفر إلى جانب الضحاك وفراره بعد مدهامة خيل اليمانية له مع رجلين من بني سليم، لم ينجوا من القتل بينما تمكن هو من النجاة والالتحاق بقرقيسيا^(٢١٣)، حيث نسبت له أبيات^(٢١٤) يعتذر فيها من فراره ذلك اليوم^(٢١٥).

ولعل ما يمكن استنتاجه من ذلك، هو أن الجبهة القيسية في مرج راهط كانت مضطربة وغير متماسكة، بينما ظل التردد مسيطراً على قيادتها العريقة في ولائها الأموي، لاسيما الضحاك بين قيس الذي خاض حرب تسوية أكثر منها حرب حسم مع مروان، وترك حيناً للمساومة حتى الساعات الأخيرة من المعركة^(٢١٦). ولا شك أن غياب القيادات الكبيرة - ان صحَّ ذلك - كان له تأثير سلبي على الوضع العسكري في مرج راهط، برغم ما قيل عن تفوق الجبهة القيسية وصمودها - على ما سادها من ارتباك - عشرين يوماً^(٢١٧) في وجه التحالف المرواني - اليماني الجديد. فقد كانت دمشق في الواقع محور الصراع بين الطرفين، حيث كان الضحاك من جانبه حريصاً على إقامة معسكره على مسافة قريبة منها، لما توفره من دعم وتعزيز لوضعه السياسي والعسكري من جهة، وللحيلولة دون

٢٠٧ - يعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٦.

٢٠٨ - المكان نفسه ابن عبد ربه، ج ٥، ص ١٣٦.

٢٠٩ - المكان نفسه.

٢١٠ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٣٦.

٢١١ - الطبري، ج ٧، ص ٤٠.

٢١٢ - المصدر نفسه، ج ٧، ص ٤٤.

٢١٣ - المسعودي، مروج، ج ٣، ص ٨٧، ص ٢٦٨.

٢١٤ - تولم تر مني نبوة غير هذه

عشية اجري بالصعيد ولا ارى

فراري وتركي صاحبي ورائيا

من القوم الا من علي وماليا

ابو تمام، حبيب بن اوس الطائي، نقائض جرير والاخلط، تحقيق، انطون صالحاني اليسوعي، دار الكتب العلمية، بيروت،

١٩٢٢، ص ٢٥، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا ابو تمام، الطبري، ج ٧، ص ٤٢.

٢١٥ - المسعودي، تنبيه، ص ٢٦٨.

٢١٦ - ابن عبد ربه، ج ٥، ص ١٣٦، المسعودي، تنبيه، ص ٢٦٧.

٢١٧ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٣٦، الطبري، ج ٧، ص ٣٩.

سيطرة الكلبيين وحلفائهم عليها من جهة ثانية. وثمة من يعتقد من المؤرخين، بأن الضحاك اتخذ معسكره في ضواحي دمشق لحماية المدينة، بينما المعركة جرت في مرج راهط بعد تقدّم اليمنين نحوها وتصدّى الضحاك لهم في هذا الموقع^(٢١٨). ومن هنا كان وضع الجبهة القيسية، المفتوحة على جندي دمشق وحمص متفوقاً على جبهة اليمنين التي اعتمدت أساساً على جند الاردن، حيث اشارت رواية لعوانة إلى ان ستين الفا قاتلوا مع الضحاك في مرج راهط^(٢١٩)، بينما انخفض هذا الرقم إلى ثلاثين الفاً اكثرهم من الفرسان^(٢٢٠)، فيما يرويهِ السعدي.

أما الجبهة الثانية، فقد حسمت موقفها في الجابية، واتخذت قراراً بالقتال والتقدم إلى دمشق بقيادة الخليفة المرشح مروان بن الحكم. وانعقدت الميمنة للحصين بن نمير السكوني والميسرة لعبد الرحمن بن ام الحكم الثقفي، وقيادة الفرسان لحسان بن مالك الكلبي ومالك ابن هبيرة السكوني، والرجالة لعبيد الله بن زياد، حسب رواية ابي مخنف^(٢٢١) التي تعارضت مع رواية مقتضبة لعوانة، اقتصرت على عمرو بن سعيد كقائد للميمنة وعبيدالله بن زياد كقائد للميسرة^(٢٢٢) ولعل تشكيل القيادة من أركان الجابية واقطاب الموالات للبيت الأموي من امثال: ابن مالك وابن زياد وابن نمير وابن هبيرة ممن شاركوا في حروب صفين وموقعتي الحرة وكربلاء، فضلاً عن حصار مكة، يعبر عن تماسك هذه الجبهة التي خاضت مواجهة مصيرية للدفاع عن مصالحها وامتيازاتها المرتبطة بالنفوذ الأموي.

أما عدد المقاتلين تحت القيادة المروانية، فقد كانت نواتهم في الجابية ستة آلاف فيما يرويهِ ابن سعد^(٢٢٣)، أو خمسة آلاف معظمهم من الكلبيين فضلاً عن السكاسك وطيء فيما يرويهِ ابن عبدربه^(٢٢٤)، بالإضافة إلى أربعمئة من جذام انضموا اليهم بقيادة روح بن زنباع بعد اخراجه من فلسطين^(٢٢٥). وبعد البيعة لمروان التحق بهم سبعة آلاف من الموالين له في دمشق والأجناد^(٢٢٦)، كان بينهم الفان من موالي عبّاد بن زياد الذي قدم

٢١٨ - Lammens, L'avènement des marwanides et le califat de Marwan Ier, p371

٢١٩ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٣٦. خليفة بن خياط، ج ١، ص ٣٢٦، ابن عبد ربه، ج ٥، ص ١٣٦.

٢٢٠ - السعدي، تنبيه، ص ٢٢٦، راجع أيضاً ابن سعد، الطبقات، ص ٥، ز ص ١٤٢.

٢٢١ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٣٨.

٢٢٢ - المكان نفسه، الطبري، ج ٧، ص ٣٨.

٢٢٣ - ابن عبد ربه، ج ٥، ص ١٣٦.

٢٢٤ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤١.

٢٢٥ - ابن قتيبة، ج ٢، ص ١٥.

٢٢٦ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤١.

من حوارين^(٢٢٧)، وأربعة آلاف جلهم من مذحج وبعضهم من القين، حسب الرواية التاريخية^(٢٢٨)، بحيث يتجاوز ذلك ما أورده ابن سعد والمسعودي من أن عدد قوات الجابية بلغ «ثلاثة عشر ألفاً أكثرهم رجالة»^(٢٢٩) وقد قام عبد الرحمن بن أم الحكم وعبيد الله بن زياد، بدور كبير في تعبئة المقاتلين وتمويل الجبهة مروانية حسب رواية أبي مخنف، حيث نسب لأول قوله لمروان: اجمع اليك موالي بني أمية فأنا أسلحهم لك أجمعين^(٢٣٠)، كما نسب للثاني قوله له: «وأنا أبذل لك من المال والقوة على عدوك ما شئت»^(٢٣١).

ولعل ابن زياد قام بالدور الأكثر خطورة في تلك التطورات، واستطاع بما أوتي من دهاء وخبرة وسعة علاقة مع القبائل الشامية، إنقاذ الجبهة الأموية من التفكك والانقسام، وحمل مروان على الصمود بعد أن غلبه اليأس وكاد أن يبيع لابن الزبير، ممهداً له الطريق إلى الخلافة عبر اقناع الكلبيين بتأييده والاسهام في تمويل المعركة والقتال إلى جانبه في مرج راهط. ولذلك أثبت ابن زياد بأنه أكثر أموية من الأمويين^(٢٣٢)، وأصبح برأي المستشرق لامنس، الرئيس الروحي والمؤسس الحقيقي للأسرة الجديدة في الدولة الأموية^(٢٣٣).

وهكذا فإن المعادلة السفيانية كادت تكون هي نفسها التي تركزت في الجابية، وقوامها بنو كلب وبنو ثقيف، فضلاً عن بني أمية وبعض القبائل اليمنية الأخرى، ولكنها افتقدت من رموز العهد السابق، الضحاك بن قيس الذي شكل خروجه من هذه المعادلة اختلالاً كبيراً في التوازنات السياسية ولم يعد ممكناً تقويمه أو إعادة صياغته على نحو ما كانت عليه، برغم الجهود التي بذلها عبد الملك بن مروان في هذا السبيل. فقد أصبحت دولة الأمويين، منذ فشل التسوية اليمنية - القيسية في الجابية، طرفاً في المواجهة الساخنة بين القبائل الشامية التي باتت على شفير الحرب، بعيد خروج الضحاك من دمشق وتحرك مروان وحلفائه باتجاه الأخيرة. فقد اشتبك الطرفان في مرج راهط (معسكر

٢٢٧ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٤١، ابن عبدربه، ج ٥، ص ١٢٦.

٢٢٨ - أبو تمام، ص ١٧.

٢٢٩ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤١، ابن عبدربه، ج ٥، ص ١٢٦، المسعودي، تنبيه، ص ٢٦٧.

٢٣٠ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٢٨.

٢٣١ - المكان نفسه.

٢٣٢ - Lammens, L' Avènement des Marwanides p.58 Ibid.

الضحاك)، تلك الموقعة الشهيرة التي عادت بالذاكرة إلى «أيام» العرب قبل الاسلام، مثيرة في النفوس أحقادها القديمة ورواسبها المتراكمة.

وعلى الرغم مما قيل عن تفوق عدد المقاتلين على الجبهة القيسية كما سبقت الإشارة، فإن الموازين كانت على ما يبدو متكافئة، حيث الأرقام تعوزها الدقة في الغالب، لا سيما الرقم الذي قدرته الروايات عن مقاتلي هذه الجبهة، الذين أخفقوا في السيطرة على الوضع خلال عشرين يوماً من القتال العنيف والمستمر^(٢٢٤)، ولم يستطيعوا منع خصومهم من السيطرة على دمشق، التي شكل سقوطها ضربة كبيرة للجبهة القيسية. وقد نُسبت هذه العملية الجريئة إلى زعيم غسان يزيد بن ابي النمس، الذي كان «مختبئاً»^(٢٢٥) في المدينة ابان مؤتمر الجابية على نحو ما اشارت إليه الرواية التاريخية، بأن يزيد بعد ان تنهى إليه نزول مروان في «مرج راهط ثارباهل دمشق في عبيدها، فغلب عليها وأخرج عامل الضحاك منها وغلب على الخزائن وبيت المال وبيع مروان وامدّه بالأموال والرجال والسلاح»^(٢٢٦).

وإذا صحّ تفوق القوة القيسية في مرج راهط، فإن الانقلاب الغساني في دمشق: قد أخل بالتوازن العسكري لمصلحة اليمينين، لما كانت تمثله الحاضرة الأموية من عمق للجبهة القيسية التي عانت حينذاك انقطاع الامدادات من الأجناد الموالية لها، وباتت محاصرة بين قوات الجابية من الجنوب وقوات دمشق من الشمال. وكان ضغط الموقف الصعب قد دفع الضحاك إلى الاستجابة للتفاوض مع مروان على إيقاف الحرب وتحقيق السلام القيسي - الأموي مرة أخرى ولكن الحوار المرواني كان مجرد مناورة أو «مكيدة»، لم يكن عبيد الله بن زياد بعيداً عنها، حيث أشار على مروان بعد أن طال أمد الحرب، أن يبعث السفراء إلى الضحاك للكف عن القتال، حتى إذا مال القيسيون إلى المودعة «شدّ عليهم مروان في الخيل ففزعوا إلى رايتهم من غير تعبئة»^(٢٢٧).

ومرة أخرى يطلّ ابن زياد في الوقت الملائم، في سياق تكوّن الدولة المروانية، متخذاً ذلك الدور الإنقاذي حيث تشتدّ المواقف وتتعدد الحلول. فمن ترشيح مروان بعد استنفاد علاقته مع السفينانيين واجدا فيه مواصفات الرجل المناسب في الاسرة الأموية، إلى استدراج الضحاك وارباك الجبهة القيسية، إلى اقناع الزعامة الكلبية بتأييد مرشحه...

٢٢٤ - خليفة بن خياط، ج ١، ص ٢٢٦، الطبري، ج ٧، ص ٤١.

٢٢٥ - الطبري، ج ٧، ص ٣٩.

٢٢٦ - المكان نفسه.

٢٢٧ - خليفة بن خياط، ج ١، ص ٢٢٦.

وأخيراً إلى تمويل المعركة وقيادة لواء الميمنة فيها، كان عبيد الله لصيقاً بهذه التطورات حتى ليصح القول بأنه صانع تلك المرحلة الانتقالية التي شهدت انتقال الخلافة إلى البيت مرواني. ولم يكن غريباً أن يترادف اسمه مع الانتصار، وما انتهى إليه من تدمير لقوة القيسيين في مرج راهط^(٢٣٨)، ومقتل شيخهم الضحاك وعدد آخر من قياداتهم في «مقتلة عظيمة» لأهل الشام، كما وصفها الطبري^(٢٣٩).

وبعد أن حلت الهزيمة بالقيسين، أمر مروان بوقف القتال و«أن لا يتبع احد»^(٢٤٠)، وأن يلتحق الناس بأجنادهم^(٢٤١) التي أصبحت ثلاثة منها موالية له بعد السيطرة على دمشق وقنسرين فضلاً عن الأردن، بينما سارع اليمينيون في حمص إلى السيطرة على الجند الرابع في إطار عملية انتقامية مريعة، أطاحت بالنعمان بن بشير، دون أن تشفع له امرأته الكلبية^(٢٤٢). وقد عبّرت هذه الحادثة عما آلت إليه العلاقات الاجتماعية من تدهور، لم ينج منه حليف قديم للبيت الأموي، كان لا يزال محتفظاً بولائه الشديد له أكثر من عشرين عاماً، مما يعني أن الاحقاد لم تنبت في ظل العصبية القبلية فقط، ولكنها نفّذت من مصادر أخرى، بعد أن تصادمت المصالح وتضاربت الأهداف بين الأطراف المتصارعة، دون أن تكون هذه العصبية وحدها وراء تناقضات المرحلة، ولكن ثمة عصبيات تداخلت أيضاً في تلك المواجهة الضارية.

وقد انصرفت جهود الخليفة الجديد حينذاك، إلى ترسيخ وحدة الأسرة الأموية، متخذاً في هذا السبيل بعض الخطوات الهامة، منها نزوله في دار معاوية، ودعوته إلى البيعة فيها^(٢٤٣). وارساله العمال على الأجناد منها^(٢٤٤)، بما لذلك من دلالة على استمرارية الدولة والاعتراف بدور مؤسسها السفيناني، والمبادرة إلى دعوة الأمويين من الأردن^(٢٤٥)، حيث كانوا على ما يبدو نازحين إليه بعد سيطرة القيسيين على دمشق، ومعهم أرملة يزيد ابن معاوية^(٢٤٦)، التي أقدم على الزواج منها، بغية احتواء ابنها خالد والمطالبين بالشرعية

٢٣٨ - قيل أن تسعة آلاف من قيس مقابل الف وثلاثمائة من اليمين قتلوا في المعركة، أبو تمام، ص ١٧.

٢٣٩ - الطبري، ج ٧، ص ٣٩.

٢٤٠ - ابن عبد ربه، ج ٥، ص ١٣٧، أبو الفداء، ج ١، ص ١٩٤.

٢٤١ - المسعودي، مروج، ج ٢، ص ٨٨.

٢٤٢ - نائلة بنت عمارة الكلبي، البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٤٧.

٢٤٣ - ابن عبد ربه، ج ٥، ص ١٣٧.

٢٤٤ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٤.

٢٤٥ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٤٤.

٢٤٦ - فاخنة بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٤٢.

السفانية. على أنه في المقابل لم يدخر وسعاً في الاهتمام بمشكلة ولاية العهد، والتحلل السريع من اتفاق الجابية، بعد أن أصبح زمام الأمور في يده. فاستخلف ابنه عبد الملك على دمشق^(٢٤٧)، قبل خروجه منها في حملته إلى مصر، وعرج في عودته على الأردن - مقر حليفه الكلبي - آخذاً البيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز^(٢٤٨). ولعل هذه المسألة اسهمت بصورة ما في وفاة مروان المبكرة التي اتفقت الروايات على أنها كانت نتيجة لمؤامرة دبرتها امرأته^(٢٤٩) - أم خالد - بعد ارتيابها بما يبنيه لإبعاد ابنها عن ولاية العهد. وقد أوجت إحدى الروايات بان ثمة علاقة مباشرة بين موته وبيعته لابنيه، حيث لم يبرح - أي مروان - الصنبرة - مقر حسان - بعد استجابة الأخير لرغبته حتى توفي^(٢٥٢)، فيما يرويهِ اليعقوبي.

وفي سياق هذه السياسة الاحتوائية توّدد مروان لمنافسه الآخر ورأس بني العاص (عمرو بن سعيد)، الذي كان أكثر معرفة بأوضاع الشام منه، حيث سبق له الإقامة فيها بعد عزله من إمارة المدينة في عهد يزيد^(٢٥١). وقد عهد إليه بمهمات خطيرة منها هزيمة الوالي الزبيري في مصر^(٢٥٢)، والتصدّي لحملة مصعب بن الزبير في فلسطين^(٢٥٣)، تلك الحملة التي أعدت على ما يبدو بالتنسيق مع نائل بن قيس الجذامي بعد هروبه من مرج راهط. والواقع أن مروان سار على الخطة ذاتها التي نفذها معاوية بعيد حرب صفين وأدّت إلى السيطرة على مصر بما تمثله من عمق جغرافي للشام، وما يتبع ذلك من إضعاف للموقع الحجازي وحصص المواجاة الفعلية مع العراق. كما كان واضحاً التأثير بسلفه السفاني في التشديد على المركزية السياسية واعطائها الأولوية في الدولة الجديدة، فضلاً عن التأثير به في مجال الإدارة والنظم الاقتصادية^(٢٥٤). وفي الشأن الداخلي، لم يشأ مروان، على الرغم من بيعته في غمرة مواجاة قبلية طاحنة، مجازاة الجامحين في عصبياتهم أو أن تتسم خلافته بالطابع اليمني البحت، ولكنه حاول التمسك بالمعادلة الصعبة، واحتواء

٢٤٧ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٤٨.

٢٤٨ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٤٩.

٢٤٩ - اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٧، البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٤٥.

٢٥٠ - اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٧.

٢٥١ - Lammens, L'Avènement des Marwanides. p.62.

٢٥٢ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٤٩.

٢٥٣ - المكان نفسه.

٢٥٤ - ظل الروائيون حتى منتصف خلافة عبد الملك يعتمدون على بني سرجون في الإدارة

Lammens, L'Avènement des Marwanides. p.118

المعارضة القيسية، من خلال قراره بالكف عن الملاحقة ومهادنة أبرز زعمائها (زفر بن الحارث)، الذي اعتصم في قرقيسيا نحو ستة أعوام دون اعتراف بالخلافة الرواندية، وذلك حتى بيعته في إطار اتفاق سلمي مع عبد الملك وهو في طريقه لاستعادة العراق من الحكم الزبيري^(٢٥٥).

على أن مرج راهط، برغم ما حققته من استمرارية الدولة الأموية وأستعادة وحدتها السياسية، ودفن حركة الفتوح التي كانت لا تزال راكدة أو بطيئة منذ العهد الراشدي الأول، فضلاً عن بناء شخصية أكثر مركزية واستقلالية، من خلال تعريب الإدارة وإصدار النقد على «طرزاه الإسلامي الخاص»^(٢٥٦)... برغم هذه المنجزات الهامة التي بدأها مروان ورَسَخ جذورها عبد الملك، فإن الخلافة الرواندية، التي ولدت في ظل تسوية مع الكلبيين في الجابية، وتكرست معمدة بالدم في مرج راهط، قد زرعت بذرة العصبية في الشام وسائر بقاع الدولة، مما سيؤدي بعد وقت غير بعيد إلى الاحتراق بناها التي شبت أيضاً داخل الأسرة الحاكمة نفسها. فقد بقيت الجهود ضائعة لتحقيق السلام القبلي بعيد مرج راهط، ولم يستطع عبد الملك إيجاد حل جذري لهذه المسألة أو تضييد تلك الجراح النازفة، حيث الشعراء بدورهم أسهموا في إبقاء صفحتها الدامية مفتوحة، وكان بينهم من احتل مقاماً رفيعاً في بلاط عبد الملك مثل الأخطل التغلبي الذي ما انفك يشحن النفوس ويؤجج العواطف، كما جاء في إحدى مدائحه للخليفة:

عَتَبْتُمْ عَلَيْنَا آلَ عِيْلَانَ كَلِّكُمْ وَأَيَّ عَدُوٍّ لَمْ نُبَيِّنْهُ عَلَى عَتَبِ
وَقَدْ كَانَ يَوْمًا رَاهِطٌ مِنْ ضَلَالِكُمْ فَنَاءً لِأَقْوَامٍ وَخَطْبًا مِنَ الْخَطْبِ^(٢٥٧)

ولم يكن الأخطل سوى أداة تحريضية، جابقتها أدوات أخرى في تلك المرحلة التي اتسم فيها النتاج الشعري بالتوتر، وكان من أقطابها الشاعران المعروفان جرير والفرزدق، وغيرهما من الشعراء الذين لم تتعد آفاقهم هذه المجابهة العاصفة بين القبائل العربية في الشام والجزيرة.

ولا ينفك شاعر آخر من كلب (عمرو بن مخلد) مذكياً تلك الجراح العميقة، ومستعيداً أجواء المعركة التي دمّرت طاقات القيسيين وقضت على آمالهم، كما جاء في قوله:

٢٥٥ - المسعودي، مروج، ج ٣، ص ١٠٥.

٢٥٦ - ناصر محمد النقشبندى، الدرهم الإسلامي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٩م، ص ١٠.

٢٥٧ - أبو تمام، ص ٩٧-٩٨.

فمن يك قد لاقى من «المرج» غبطة
فلن ينصب القيسي للناس راية
فكان لقيس فيه خاصٍ وجادع
من الدهر الا وهو خزيان خاشع^(٢٥٨)

على أن زفر بن الحارث شاعر القيسية وقطبها البارز بعد مقتل الضحاك، لم يكثر
لحملة الكلبى، لافتاً برغم ما حدث إلى ما يجمع بين قيس وقريش - السلطة، وعائباً على
الأخيراً التفاخر بما ليس فيه:

فان نك نازعنا قريشاً فإنهم
فاي قبيلينا وأمك ما يكن
أخونا ومولانا اللذان ننازع
له الملك تتبعه وخدك ضارع^(٢٥٩)

وثمة شاعر كلبى آخر، ينساق في هذا الجدل، مذكراً بفضل قومه على الأمويين، منذ
أن قام لدولتهم منبر وارتفعت لها راية في الشام:

كم من أمير قبل مروان وابنه
.. ضربنا لكم عن منبر الملك أهله
وايام صدق كلها قد علمتم
كشفنا غطاء الموت عنه فأبصرا
بجيرون^(٢٦٠) إذ لا تستطيعون منبرا
نصرنا ويوم «المرج» نصرأ مؤزرا

فلا تكفروا حسنى مضت من بلاننا
ولا تمنحونا بعد لين تجبرا^(٢٦١)

ولعل هذا السجال الشعري الذي دارت رحاه بعد مرج راهط، إنما يعبر عن
التشنج الذي بلغته العلاقات العربية - العربية، وصعوبة اندراج القبائل الشامية بعد
ذلك في جبهة واحدة، كما كان الأمر في العهد السفيناني. كما يعبر عن تعاظم القوة الكلبية
ومصادرتها ليس فقط الدور القيسي الزائل، ولكن الدور اليميني بكامله، بعد اهتزاز
الشخصية المستقلة للقبائل اليمينية في الشام واندراجها تحت قيادة الكلبيين الذين شكلوا
الاداة الامنية والدفاعية في العهد المرواني.

وفي المقابل كان القيسيون، برغم المكابرة والعض على الجراح، قد اصابوا بضربة
قاصمة كان من الصعب الخروج منها في ظل المعادلة الجديدة. ولذلك لم يجدوا بداً من
المهادنة، المقترنة بالتربص الشديد والمنطوية على تراكمات الحقد. وقد جسّد هذه المعاناة
بكل مرارتها، زفر بن الحارث في قصيدته الشهيرة التي جاء فيها:

٢٥٨ - المصدر نفسه، ص ١٩.

٢٥٩ - المكان نفسه.

٢٦٠ - وهو اليوم الذي اخرجت فيه كلب سفينان بن الابرذ وغسان يزيد بن ابي النمس من سجن الضحاك، الطبري، ج ٧، ص ٣٦.

٢٦١ - ابوتمام، ص ١٩-٢٠.

اريني سلاحي لا ابالك انني
 ففي العيس منجاة وفي الارض مهرب
 فلا تحسبوني إذ تغيبت غافلاً
 فقد ينبت المرعى على دمن الثرى
 ... اتذهب كلب لم تنلها رماحنا
 لعمرى لقد ابقت وقية راهط
 ارى الحرب لا تزداد إلا تماديا
 إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
 ولا تفرحوا ان جئتم بلقائيا
 وتبقى حزازات النفوس كما هيا
 وتترك قتلى راهط هي ماهيا
 لمروان صدعا بيننا متنائيا^(٢٦٢)

كانت تلك حقيقة واقعة عبّر عنها زفر بن الحارث، وقد شرب مرارة الهزيمة القاسية، وترأى له الموقف خطيراً بعد ذلك الصدع الكبير ما بين قومه والسلطة. فقد أصبح السيف الكلبى حدّاً فاصلاً بين الطرفين، دون ان تثير الدماء التي اريقت في يوم المرج حفيظة القيسيين الذين دفعوا الثمن الباهظ في المعركة فقط، لكنها اثارت ايضاً حقد اليمينين، مصحوباً بملامة اهل الحكم الذين القوا بدورهم على القيسيين تبعة تلك الدماء التي كان من الاولى اهراقها في الدفاع عن الثغور، طاعنين بالقدرة القتالية لديهم، حيث عبّر عن ذلك الموقف اخو الخليفة عبدالرحمن بن الحكم بقوله:

أتذهب كلب قد حمتها رماحها
 لحا الله قيساً قيساً عيلان إنها
 فباه بقيس في الرخاء ولا تكن
 وتترك قتلى راهط ما أجنت
 اضاعت ثغور المسلمين وولت
 اخاها إذا ما المشرفية سلّت^(٢٦٣)

واذا كانت الدولة الاموية الاولى، قد ترافق قيامها مع انكفاء العصبية الاقليمية بين اهل الشام وأهل العراق، فإن الدولة الثانية ترافقت مع حرب القبائل في الشام والجزيرة. ومن هذا المنظور فان كلاً من الدولتين كانت تنسج خيوط البداية والنهاية معاً، حيث هبت رياح السقوط على الدولة السفينانية من العراق، بينما غرقت الدولة المروانية في مستنقع العصبيات التي مزّقت أوصالها ودفعت بها إلى النهاية غير البعيدة.

محصلات

إن مؤتمر الجابية الذي دعا إليه الضحاك بن قيس، للخروج بتسوية كبيرة تعيد صياغة المعادلة القبلية تحت راية الامويين، لم يحقق سوى تسوية صغيرة بين بني العاص (مروان) وبني كلب، كان عرابها عبيد الله بن زياد، ولكن دون ان يتاح للاخير

٢٦٢ - المصدر نفسه، ص ٢٤-٢٥، الطبري، ج ٧، ص ٤١.

٢٦٣ - الطبري، ج ٧، ص ٤٢.

التمتع بثمراتها^(٢٦٤)، حيث قتل بعد بضعة شهور في معركة الخازر^(٢٦٥) مع آخرين من أركان الجابية^(٢٦٦)، في أول محاولة لاستعادة العراق الذي كان موزع الولاء حينذاك ما بين المختار الثقفي (الكوفة) ومصعب بن الزبير (البصرة). فقد كان اختيار الجابية مقراً لاجتماع أركان الدولة الأموية ينطوي على اعتراف بأهمية الدور الكلبية في الاتفاق على مرشح للخلافة، وذلك لوقوعها على تخوم جند الأردن الذي يسيطر عليه الكلبيون. على أن هذا المؤتمر فشل في إعادة ترتيب التوازنات التي استطاع من خلالها معاوية بناء دولته وإحكام السيطرة التامة عليها طوال حياته. ولكن غيابه أدى إلى اضطرابها ومن ثم سقوطها بعد موت يزيد المفاجيء واختفاء ابنه الغامض، مما يؤكد ان الازمة لم تكن نابعة من الأحداث الأخيرة ولكن جذورها ارتبطت بالمتغيرات المتزامنة مع غياب معاوية الاول والفراغ الكبير الذي تركه بعد وفاته.

ولعل الإخفاق الواضح الذي وقع فيه يزيد في مطلع عهده، هو الدخول إلى الصراع المسلح مع أبناء الصحابة والأنصار، حيث مسّ بذلك شرعيته كخليفة وأثار موجة واسعة من الاستياء ضد شخصيته وليس من المستبعد ان يكون لهذا الفشل الذي ارتكبه «فتى العرب»^(٢٦٧) والسفليانيون تأثير في عزوف الناس عن هذه التجربة، والتوجه نحو الشيوخ الأكثر نضجاً وحكمة، مما جعل مروان يحوز السبق على منافسيه الشبابين (خالد وعمرو)، ويُرشح خليفة بالاجماع في الجابية. بالإضافة إلى ذلك، فقد انحازت لمروان عصبية قوية بفضل تأييد بني العاص له، عجزت عن الوقوف أمامها عصبية السفليانيين الضعيفة، بحيث أن اجتماع هذه الخاصة إلى جانب فاروق السنن، قد جعل مروان في موقع متقدم منذ البداية على منافسه الرئيسي، ولكن دون أن تكون الخاصة الثانية السبب المباشر في ذلك، أو أن يكون خالد بالضرورة غلاماً أو حدثاً كما وصفته الروايات التاريخية.

لقد جاء اختيار المرشح للخلافة الاموية مترامناً مع قرار الحرب، الذي تزامن بدوره مع الفرز القبلي في الشام، حيث اصبح مروان فريقاً في المواجهة المرتقبة، بما يترتب على ذلك من تعميق الصراع بين الأطراف المتناحرة. وقد يصحّ التساؤل هنا عن مسؤولية

٢٦٤ - روي أن مروان بن الحكم قال لابن زياد بعيد موقعة «المرج»: أنت امير كل بلد امله على غير طاعتي تفتحه، البلاذري، انساب، ج ٥، ص ٣٠١.

٢٦٥ - جزت بينه وبين ابراهيم الاثتر، حليف المختار الثقفي، ثم مصعب بن الزبير، البلاذري، انساب، ج ٥، ص ٢٤٨.

٢٦٦ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٥٠.

٢٦٧ - اللقب الذي اطلق على يزيد اثناء توليه قيادة الحملة إلى القسطنطينية، ابن الاثير، ج ٣، ص ٤٥٩.

Lammens, Etudes Sur le règne du calife Omayya de Mo'awiya Ier, 446.

مروان في تدهور الوضع السياسي وتباعد المواقف القبلية، وإذا كان ثمن البيعة الكلبية باهظاً إلى هذا الحد أي أنها كانت مشروطة باخراج القيسيين من المعادلة الجديدة

ولعل هذا الموقف المتطرف، دفع الضحاك إلى مأزقه الصعب، حيث وجد نفسه متردداً إزاء ابن الزبير، دون ان يلجأ إلى قطع الخطوط بكاملها مع الأمويين. وقد يصحّ التساؤل أيضاً إذا كان مروان يملك تقويماً لهذا الموقف ام ان الضغط الكلبي دفعه إلى تجاهله، والاطاحة بالفرصة الأخيرة لإعادة تركيب العلاقات السياسية على أسس متوازنة في الشام، التي كان من غير الممكن صياغتها مجدداً بمعزل عن الضحاك بن قيس وجماعته.

وهكذا فإن منطق القوة الذي قامت في ظلّه الدولة السفيانية، تركز بصورة اكثر جذرية في الدولة مروانية، التي تكونت كمشروع في مؤتمر فئوي في الجابية، كان القرار الفاعل فيه لبني كلب، وحازت على الشرعية بعد معركة ضارية في مرج راهط. ولم يكن ما نسب للشاعر الفزاري بعد موت معاوية الثاني، سوى تجسيد لهذا المنطق في الفكر السياسي الاموي، حيث قال:

إنّي ارى فتناً تغلي مراجلها والملك بعد ابي ليلى^(٢٦٨) لمن غلبا^(٢٦٩)

ولقد اعترف خالد بن يزيد بهذا الأمر الواقع، وابتعد إلى شؤونه الخاصة، متخلياً عن شجون السياسة، بينما كان عمرو بن سعيد أولى ضحايا عبد الملك بعد محاولته الفاشلة لمناوأة الخليفة الجديد. كما اتسمت الفترات التالية بالعنف الذي تنقل ما بين الحجاز والعراق، فضلاً عن اماكن أخرى من الدولة، سواء في مشرقها أو مغربها البعيدين، دون ان تكون الأسرة الأموية بمنجى من هذه الدائرة من العنف التي جرفت في طريقها كل الاعتبارات والمواثيق وحوّلت الأخوة إلى اعداء، يأكلون بعضهم ويسودون بالقوة، تلك التي أطاحت أخيراً بهذه الدولة في ظل موجة أكثر حدة من العنف.

وكان للجابية أيضاً دور في تعميق الصراعات الحزبية بين العرب في الدولة، تلك الصراعات التي أسهم فيها بصورة عفوية أو مدبرة معظم الخلفاء المروانيين، من خلال احاطة اتجاه ما بالرعاية وحرمان اتجاه آخر، مما دفع الكثيرين إلى الهجرة نحو الولايات البعيدة، وانضمامهم إلى التيارات المعارضة للدولة، ومن ثم تشكيلهم كتلات خضعت لاعتبارات جغرافية اكثر من خضوعها للاعتبار القبلي. وقد بدأت ملامح هذا الصراع

٢٦٨ - اللقب الذي عرف به معاوية الثاني.

٢٦٩ - ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٩.

تتكوّن منذ وقت مبكر في الشام، حيث اوجد غياب السلطة المتوازنة، نوعاً من المجابهة بين القبائل القديمة في المنطقة، التي كانت في غالبيتها المطلقة يمنية، وبين تلك التي وفدت مع الفتوح وفي اعقابها، مما ادى إلى ما يمكن تسميته بالعصبية الاقليمية التي كانت من المحصلات البارزة لتلك المرحلة. فثمة رواية في هذا السياق، تشير إلى تحفظ القبائل الاولى ازاء الضحاك ورفضها أي مشروع سياسي برعايته المباشرة أو غير المباشرة، تحت تأثير هذا الشعور المتجسّد في القول المنسوب لبعض قياداتها: «أن الملك فينا أهل الشام، أفينتنقل إلى أهل الحجاز... لا نرضى بذلك»^(٢٧٠). ولم يستطع مؤتمر الجابية الذي انعقد في ظل هيمنة قبائل كان لها حضورها في المنطقة قبل الاسلام، كبح هذه النزعة الاقليمية التي تركت اثاراً سيئة على المجتمع الاموي، سرعان ما اخذت الدولة المروانية في قطف ثمارها صراعات داخلية خطيرة منذ حلول القرن الثاني الهجري.

ومن هنا جاء قيام التجمعات السكانية في الأمصار الوسيطة والطرفية احياناً على هذا الأساس الاقليمي، فكان يقال أهل الشام وأهل العراق وأهل الحجاز وأهل افريقية وأهل الاندلس، إلى آخر ذلك على امتداد الدولة المروانية. ولعل ابرز الامثلة على ذلك، دخول ما يسميه المؤرخون طالعة بلج بن بشر القشيري، من أهل الشام إلى الأندلس^(٢٧١)، بعيد هزيمته في وادي سبو في المغرب الأقصى^(٢٧٢). فلم يشأ واليها عبد الملك بن قطن الفهري (من أهل الحجاز) السماح الا مرغماً بلج بالدخول إلى الاندلس، وذلك بعد استفحال خطر الثورة التي قام بها البربر في ولايته. وقد جرّ دخول الشاميين إلى صراعات دموية ضارية بينهم وبين أهل الاندلس^(٢٧٣)، بعد أن تصدى هؤلاء لهم، بدافع من العصبية الاقليمية التي وحدت مواقفهم واحتوت التناقضات الأخرى بما فيها العصبية القبلية.

وتبقى المحصلة الأخيرة والأكثر أهمية من محصلات مؤتمر الجابية، وهي العصبية القبلية التي ارتفعت وتيرتها بشكل لافت منذ الموقعة الشهيرة التي يسميها المؤرخون «يوم المرج»^(٢٧٤) تماهيا مع «أيام العرب» قبل الاسلام، حيث دار القتال عنيفاً تحت الرايات

٢٧٠ - ابن قتيبة، ج ٢، ص ١٤.

٢٧١ - ابن عذاري، ج ٢، ص ٢٢.

٢٧٢ - ابن عبد الحكم، ص ٢٢٠.

٢٧٣ - ابراهيم بيضون، الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، ٩٢-٢٢٤هـ / ٧١١ - ٣١٠م، ط ١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٩٨ وما بعدها، وسيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا فيما بعد بيضون، الدولة العربية.

٢٧٤ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ١٤٤.

القبلية، والشعراء اذكوا ناره وتفاخروا بفرسانهم، بالطريقة ذاتها التي كانت تصاحب مواقع «الايام» الغابرة. وإذا كان القول جائزاً، بأن حرب صفين قد احييت بشكل ما هذه العصبية القبلية، مع شيء من التفاوت على الجبهتين الشامية والعراقية، بعد ان قاتلت القبائل كوحدات مستقلة أو شبه مستقلة تحت هذه الراية أو تلك، فإن مؤتمر الجابية قد رسخ هذه النزعة التي تعمقت في مرج راهط، وتفشّت بعد ذلك في مسام المجتمع واستولت على عقول الخلفاء والقادة والولاة. فقد ظلّ السلام القبلي مترنحاً في اعقاب هذه الواقعة، حيث تمكن أحد أقطاب القيسية، وهو زفر بن الحارث، من فتح ثغرة مناوئة للحكم الجديد، عندما استولى على قرقيسيا وأخذ «يغير منها على بلاد كلب» في الجزيرة^(٢٧٥)، متحالفاً مع عمير بن الحباب السلمي الذي اغار من جانبه ببني تغلب على قضاة وكلب «واهل اليمن»^(٢٧٦)، وذلك بعد انشقاقه على الروانيين في أعقاب معركة الخازر التي قاتل فيها تحت راية ابن زياد^(٢٧٧).

وكانت الدولة الروانية في الواقع عاجزة عن لأم هذه الجراح وحسم الموقف في الجزيرة - حيث دارت رحى هذه الحرب - بالسرعة ذاتها التي تحققت في مرج راهط. فقد اتسعت رقعة الصراع وتشعبت أطرافه، ما بين قيس وتغلب، وبين كلب وقضاة حيناً، وما بين قيس وتغلب حيناً آخر بعد انحياز الأخيرة إلى جانب السلطة وحلفائها. وشهدت تلك الفترة «أياماً» دامية كانت قد بدأت في «بنات قين»^(٢٧٨)، عندما اغارت فزارة على كلب (البوادي)^(٢٧٩)، ثم استعرت ناراها بين قيس وتغلب، حيث كان المحرّض عليها من الأولى عمير بن الحباب الذي ارتبط اسمه بـ«ايام» الجزيرة، ولم تتراجع حدّتها الا بعد مقتله في العام السابع للهجرة^(٢٨٠). وكان في طليعتها يوم «ماكسين»^(٢٨١) الذي لقيت فيه تغلب هزيمة قاسية^(٢٨٢)، ثم يوماً «الثرثال»^(٢٨٣)، عندما حشّدت تغلب قواتها للثأر، محققة ذلك في الأول، ولكنها عادت فانهزمت في الثاني بعد انضمام بني عامر إلى قيس^(٢٨٤). ويوم

٢٧٥ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٠٨.

٢٧٦ - الاصفهاني، ج ١٩، ص ١٤٢.

٢٧٧ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ٣٠٨.

٢٧٨ - اسم موضع بالشام في بادية كلب بالسماوة. ياقوت، ج ١، ص ٤٩٥.

٢٧٩ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ٣١.

٢٨٠ - ابن الاثير، ج ٤، ص ٣١٧.

٢٨١ - بلد بالخابور، ياقوت، ج ٥، ص ٤٢.

٢٨٢ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ٣١٧.

٢٨٣ - وصفه ياقوت،. بأنه واد عظيم بالجزيرة بين سنجار وتكريت، ياقوت، ج ٢، ص ٧٥.

٢٨٤ - البلاذري، انساب، ج ٥، ص ٣١٨-٣٢٠.

«الغديين»^(٢٨٥)، إثر اغارة عمير على هذه الأخيرة، واكتساح «ما فيها وقتل عامة أهلها» من بني تغلب^(٢٨٦)، ويم «السكرين»^(٢٨٧)، حيث هزمت تغلب^(٢٨٨) كما هزمت أيضاً في يوم «المعارك»^(٢٨٩) خلافاً ليوم «الشرعية»^(٢٩٠) الذي ثارت فيه من قيس^(٢٩١). ولكن الأخيرة استعادت وتيرة النصر وانتقمت بشدة^(٢٩٢) من تغلب في يوم «البليخ»^(٢٩٣)، قبل ان تعود إلى الانكفاء، فالهزيمة في يوم «الحشاك»^(٢٩٤)، برغم التعبئة التي قامت بها واشتراك رؤسائها في هذه الموقعة العنيفة، حيث قتل قائدها الشهير عمير بن الحباب وأنسحب زفر بن الحارث إلى مقره في قرقيسيا، بعدما «بلغه أن عبدالمك قد عزم على الحركة اليه»^(٢٩٥)، حسب الرواية التاريخية. وقد أثبت زفر انه يحسن التوقيت في الخروج المناسب من دائرة الخطر، تاركاً من المسافة مع السلطة ما يجعله قادراً على إعادة الجسور قبل انقطاعها التام، متذرعاً - كما يرى البلاذري -^(٢٩٦) بهجوم عبدالمك على قرقيسيا، ومتمثلاً في ذلك بيوم المرج - ان صحَّ اشتراكه الفعلي فيه حين آثر الفرار والتخلي عن حليفه الضحاك بن قيس بعد احتدام القتال واقتراب وميض السيوف.

وقد أدى مقتل عمير وارسال بني تغلب برأسه إلى عبدالمك في دمشق^(٢٩٧)، إلى استرخاء الحرب القبلية في الجزيرة، في وقت كان الخليفة المرواني قد سار شوطاً في إعادة ترتيب الوضع السياسي في دولته، بعد القضاء على حركة منافسه الخطير عمرو بن سعيد^(٢٩٨)، رابطاً على ما يبدو بين مشكلة «الأيام» وبين المشكلة الزبيرية في العراق، دون

-
- ٢٨٥ - قرية على شاطئ الخابور ما بين ماكسين وقرقيسيا، البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢١، ياقوت، ج ٤، ص ٢٤٠.
 ٢٨٦ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢١.
 ٢٨٧ - بليدة صغيرة بالخابور ومنها ناحية تشرف على الفرات، البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢١، ياقوت، ج ٣، ص ٣١.
 ٢٨٨ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢١.
 ٢٨٩ - بين الخضرة والعتيق من أرض الموصل، المكان نفسه.
 ٢٩٠ - من بلاد تغلب، أنساب، ج ٥، ص ٢٢٢.
 ٢٩١ - المكان نفسه.
 ٢٩٢ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢٢، ابن الاثير، ج ٤، ص ٣١٥.
 ٢٩٣ - نهر بالرقية، ياقوت، ج ١، ص ٤٩٣.
 ٢٩٤ - واد أو نهر بأرض الجزيرة يأخذ منها من الهرماس ويصب في دجلة، ياقوت، ج ٢، ص ٢٦٢.
 ٢٩٥ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢٤-٢٢٥، ابن الاثير، ج ٤، ص ٣١٦.
 ٢٩٦ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢٤.
 ٢٩٧ - المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢٥، ابن الاثير، ج ٤، ص ٣١٧.
 ٢٩٨ - قام عمرو بن سعيد (الاشدق) بالسيطرة على دمشق اثر خروج عبد الملك، نحو العراق ولكن الخليفة عاد ادراجه وقضى عليه. ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٩٧، وما بعدها.

أن تكون الدولة غائبة تماماً عن هذه الحرب التي دارت بين حلفائها من كلب وتغلب، وبين خصومها الألداء من القبائل القيسية. وقد يفسر ذلك ابتعاد ساحة المواجهة إلى الموصل في يوم «الكحيل»^(٢٩٩) الذي حرض عليه الهذيل بن زفر بن الحارث، وجرّ معه أباه إلى الاشتراك فيه، انتقاماً لعمير، ودفعاً للعار عنهم، حسب القول المنسوب للهذيل^(٣٠٠)، وقد نجح الكلابيون في استعادة زمام المبادرة، وتحقيق الثأر لبني سليم^(٣٠١)، واستعادة الثقة للقيسين التي اهتزت يوم الحشاك. وكان يوم الكحيل آخر أيام الجزيرة الدامية التي انتهت مع تسوية العلاقة بين عبد الملك وزفر بن الحارث في العام التالي لمقتل عامر، باستثناء ما جرى في يوم البشر^(٣٠٢)، بعيد خلاف شخصي جرى في بلاط الخليفة بين شاعر بني تغلب الأخطل وبين قريب لعامر، هو الجحاف بن حكيم السلمي. وكان النصر في هذه الموقعة، شأن غالبية المواقع، حليفاً لقيس التي قتلت من بني تغلب «مقتلة عظيمة»^(٣٠٣)، دفعت الأخطل^(٣٠٤) إلى الاستغاثة بعبد الملك، بينما «استخفى» الجحاف «ومضى حتى دخل بلاد الروم مما يلي ارمينية»^(٣٠٥)، حيث بقي هناك وقتاً، منحه الخليفة بعده الأمان وأجاز له العودة إلى دياره^(٣٠٦).

كانت تلك أبرز «أيام» القبائل في الجزيرة، التي كانت محصلة لـ«يوم المرج» الكبير وما تبعه من تعميق الصراع العربي - العربي المتزامن مع قيام الخلافة الروانية. هذه الحرب التي فجرتها معادلة الجابية وما انطوت عليه من ازدياد النفوذ الكلبى في الدولة الجديدة، بعد مناصرة ما أسماه البلاذري «كلب المدر»^(٣٠٧) المتحضرين، لكلب البوادي في الجزيرة، ضد زفر بن الحارث وعمير بن الحباب^(٣٠٨). ولم يكن للكلبيين في الواقع نفوذ بارز

٢٩٩ - من ارض الموصل في جانب دجلة الغربي، ابن الاثير، ج ٤، ص ٢١٨، ياقوت ج ٥، ص ٤٣٩.

٣٠٠ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢٦، ابن الاثير، ج ٤، ص ٣١٨.

٣٠١ - حي عامر بن الحباب.

٣٠٢ - جبل يمتد من عرض إلى الفرات وهو من منازل بني تغلب، ياقوت، ج ١، ص ٤٢٦.

٣٠٣ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٢٩.

٣٠٤ - قيل ان الاخطل اسر في هذه الموقعة وكان يلبس عباءة قدرة فظن أخذوه انه عبد فخلي سبيله، المكان نفسه، ابن الاثير، ج ٤، ص ٢٢٠-٢٢١.

٣٠٥ - المكان نفسه في المصدرين السابقين.

٣٠٦ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٣٠، ابن الاثير، ج ٥، ص ٢٢١.

٣٠٧ - المدر يقصد به المدن أو الحضرة لان مبانيتها بالمدر أي بالطين المتماسك، بينما ابنية البادية بالوبر، ومن هنا جاء قول احدثهم للثبي (ص)لنا الوبر ولكم المدر، كما جاء في لسان العرب، ابن منظور، الامام العلامة ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري، لسان العرب، ج ١٥، دار صادر، بيروت، ج ٣٥، ص ١٦، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد، هكذا ابن منظور.

٣٠٨ - البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٠٩.

في هذه المنطقة^(٣٠٩)، يؤكد ذلك غيابهم عن المواقع العديدة التي مرّ ذكرها، باستثناء «بنات قين» التي جرت بينهم وبين فزارة، وأدت إلى استنزاف القبائل في حرب ضروس طويل.

ومن هذا المنظور، فإن حروب الجزيرة لا تندرج في سياق الصراع السياسي على النفوذ في الدولة المروانية فقط، ولكنها تحمل سمة اجتماعية كصراع بين نمطين مختلفين بمعنى ما في التكسب وطرائق العيش. وقد حدا ذلك بالاصفهاني إلى القول، بان هذه الحرب جعلت «أهل البادية ينتصفون من أهل القرار^(٣١٠) كلهم»^(٣١١)، الأسبق إقامةً في الشام، مؤكداً على الخلفية الاجتماعية لهذا الصراع القبلي، حيث تكتلت القبائل المستقرة في الجابية ضد القبائل البدوية أو شبه البدوية في مرج راهط، وقامت الأخيرة بعد هزيمتها في التصدي للموجة «الحضرية» التي حاولت من خلالها كلب المدر» اختراق معاقل القيسيين في الجزيرة. وقد وردت هذه العبارة (القرار) في السياق القرآني، مترادفةً مع الاستقرار وذلك في تسع من الآيات^(٣١٢) كما جاء في سورة المرسلات (فجعلناه في قرار مكين)^(٣١٣) وسورة النمل (أمن جعل الأرض قراراً)^(٣١٤) وسورة غافر (والله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً..)^(٣١٥) على سبيل المثال.

وهكذا فإن مؤتمر الجابية، لم يحسم فقط مشكلة الخلافة وما رافقها من إعادة تركيب التوازنات السياسية في الدولة، ولكنه حسم أيضاً أو كاد النمط الحضري للأخيرة الذي فرض نفسه منذ تأسيسها وتأثر معاوية الأول بأباطرة الدولة البيزنطية، حيث بنى أول القصور^(٣١٦) في الإسلام، وأحاط نفسه بمظاهر العظمة والفخامة والترف. وبدأت دمشق حاضرة «ملكية» تضاهي القسطنطينية في العهد المرواني، متخليّة عن البساطة التي الفتها كلّ من المدينة والكوفة في العهد الراشدي ولم تنفك البداوة أو بقاياها متراجعةً في العاصمة الأموية، دونما تدخّل من الخلفاء المروانيين الذين تحالفوا جذرياً مع «أهل القرار»، على الرغم من رواسب البداوة لدى المتحالفين المتجلبية في اتخاذ الخلفاء منازل لهم في الصحراء، وأصرار بني كلب - ربما حين - على الإقامة في معاقلهم البعيدة عن العاصمة.

٣٠٩ - المكان نفسه.

٣١٠ - القرار ماقرهيه الماء، والقرار من الأرض: المطنن المستقر، ابن منظور، ج ٥، ص ٨٦.

٣١١ - الاصفهاني، ج ١٩، ص ١٤٢-١٤٣.

٣١٢ - سورة ابراهيم، الايتان ٢٦ و٢٩، المؤمنون، الايات ١٢ و١٥ و٦٠. غافر الايتان ٣٩، ٦٤ المرسلات الآية ٢١، النمل، الآية ٦١.

٣١٣ - المرسلات، الآية ٢١.

٣١٤ - النمل، الآية ٦١.

٣١٥ - غافر، الآية ٦٤.

٣١٦ - قصر الخضراء في دمشق.

دور غسان في الحياة العامة

محمد خريسات

مقدمة: -

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على الدور الذي قامت به قبيلة غسان منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية. لقد وقف الغساسنة من الدعوة الإسلامية موقف المعارض، ولم يكتفوا بذلك بل حاولوا التدخل في شؤون المسلمين الداخلية.

وعند قيام الفتوحات الإسلامية، وقف الغساسنة إلى جانب الروم، ولا سيما بعد أن أصبح جيلة ملكاً على جميع عرب الشام. وبعد انتصار المسلمين في فتوحاتهم خرج عدد قليل من الغساسنة برفقة جيلة بن الأيهم إلى بيزنطة، وبقي الآخرون في مواقعهم في جندي دمشق والأردن يشكلون مع كلب الأكثرية فيها.

ولم يظهر دور للغساسنة خاصة أو لأهل الشام الأصليين في الأحداث العامة خلال الفترة الراشدية، ويعود ذلك إلى اعتماد الخلفاء الراشدين في تلك الفترة على الصحابة في تسيير شؤون الدولة. لكن ذلك لم يكن يمنع من الاستعانة ببعض الخبرات، إذا احتاجت الدولة إلى ذلك.

وبدأ دور الغساسنة يظهر بوضوح بعد وقوفهم مع أهل الشام إلى جانب معاوية في نزاعه مع علي بن أبي طالب. ويمكن ملاحظة هذا الدور في الأشعار الكثيرة التي رددت ذكر غسان في موقعة صفين. وبعد أن استتب الأمر لمعاوية اعتمد على بعض رجالات غسان في تسيير شؤون الدولة، كما أوكل إلى أحد أفرادها وهو حسان بن النعمان مهمة التوجه إلى فتح إفريقيا، لكن تطور الأحداث الداخلية ربما جعله يعود إلى دمشق.

ووقفت غسان ومعها كلب إلى جانب الأمويين بعد وفاة معاوية الثاني، حيث شكلت معها جبهة تدعو للأمويين في جندي الأردن ودمشق. فكان أن استولى الغساسنة بسهولة على دمشق بعد أن خرج صاحب شرطتها، الضحاك بن قيس الفهري إلى مرج راهط.

وبعد ذلك بدأ اعتماد الروائيين على الغساسنة يظهر في المجالات الإدارية والعسكرية، ففي المجالات الإدارية أسند إلى بعض رجالاتها وظيفة صاحب الشرطة، وكتابة الرسائل، وهذه من الوظائف المهمة في الدولة التي لا تسند إلا إلى أولئك الذين يتمتعون بثقة الخليفة. كما أوكل إلى حسان بن النعمان مرة ثانية مهمة التوجه إلى إفريقيا، بعد أن لحقت بالمسلمين

هزيمة منكرة في تلك المنطقة. ومن الطبيعي أن يشكل أفراد قبيلته غالبية كبيرة من جيشه وفقاً للتقاليد التي كانت سائدة في ذلك الوقت، المتمثلة بخروج القبائل مع أبناء جلدتها من القادة.

وكما كان الغساسنة ومعهم اليمانية سبباً في تثبيت الأمويين، كانوا أيضاً سبباً في اسقاطهم، عندما اشتركوا في الثورة على الوليد بن يزيد، الذي أدى مقتله الى تسارع الأحداث في بلاد الشام مما سهل دخول العباسيين دمشق. وقد حاول أهل الشام الثورة على العباسيين، لكن العباسيين كانوا أقوى منهم.

ولم يقتصر دور الغساسنة على المجالات السياسية والعسكرية والادارية، بل امتد الى جوانب الحياة الفكرية الأخرى، فبرز منهم الفقهاء والقضاة والمحدثون، كما كان لبعضهم دور في حركة القدرية.

الغساسنة قبيل ظهور الاسلام :

بلغ الغساسنة أوج مجدهم السياسي قبل الاسلام في عهد الحارث بن جبلة الذي جعله جوستينيان يبسط سلطته على القبائل العربية في الشام سنة ٥٢٩ م. وقد هدف جوستينيان من وراء ذلك الى اقامة خصم قوي في وجه المناذرة في العراق (١).

وفي أواخر القرن السادس الميلادي ضعفت إمارة الغساسنة، وانقسمت الى خمس عشرة فرقة، وأدى اجتياح الفرس لبلاد الشام بين سنة ٦١١ - ٦١٤ م الى القضاء على ملك الغساسنة مما دفع بعضهم الى الفرار الى بلاد الروم وبعضهم الآخر الى داخل الصحراء (٢). ولا تشير المصادر إلى أن هرقل أعاد للغساسنة ملكهم الموحد بعد استعادته سوريا من الفرس عام ٦٢٩ م، مما جعل الحدود السورية الجنوبية مفتوحة (٣).

١. انظر: نولدكه، ثيودور، أمراء غسان، ترجمة بندلي الجوزي، وقسطنطين زريق، الطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٧. ص ١١ وما بعدها، وسيشار اليه نولدكه، أمراء غسان. صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت)، ص ٦١ - ٦٢. وسيشار اليه، صالح العلي، محاضرات.

Lewis, Bernard: The Arabs in History. Harrpar and Row, Publishers New York 1966. P. 32.

جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين بيروت، والنهضة، بغداد، ١٩٦٨ ج ٣ ص ٤٠٣. وسيشار اليه جواد علي، المفصل.

٢. نولدكه، أمراء غسان، ص ٣٤، جواد علي، ج ٣، ص ٤١٧. وانظر بيرنيا، حسن: تاريخ ايران القديم، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، ومحمد السباعي، الأنجلومصرية، القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٧٢ - ٢٧٤. وسيشار اليه بيرنيا، تاريخ ايران.

٣. بيرنيا، تاريخ ايران، ص ٢٧٤، صالح العلي، محاضرات ص ٦٢، جواد علي، المفصل، ج ٣، ص ٤١٨. لمزيد من التفاصيل عن وضع الغساسنة بعد الغزو الفارسي. انظر: بيغوليفسكيا، نينا فكتورفنا، العرب على حدود بيزنطة وايران (من القرن الرابع الى القرن السادس الميلادي)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (١٩٨٥) ص ٢٥٢ - ٢٥٣، ص ٢٧٤.

ومما يدل على تمزق الغساسنة في مطلع القرن السادس الميلادي أن المصادر اختلفت في أسماء الأمراء الذين بعث إليهم الرسول «ص» رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام، كما اختلفت في أسماء المناطق التي كانوا يقيمون فيها.

فقد ذكر ابن هشام أن الرسول «ص» أرسل شجاع بن وهب الأسدي إلى جيلة بن الأيهم الذي كان يقيم في الجولان (٤) بينما ذكر ابن اسحق أن الرسول «ص» أرسل شجاعاً إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق (٥). وجاء في الرسالة الموجهة إليه: سلام على من اتبع الهدى وأمن به، إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له، يبقى لك ملكك. فلما قرأه عليه قال المنذر: من ينزع مني ملكي أنا سائر إليه (٦).

ويذكر المسعودي أن شجاعاً أرسل إلى الحارث بن أبي شمر الذي كان عاملاً على دمشق وأعمالها، وكان ينزل الجولان ومرج الصفر (٧). وفي رواية أخرى يذكر المسعودي أنه كان ينزل في بلاد مؤاب من أرض البلقاء ومدائن لوط من أرض الأردن وفلسطين (٨).

٤. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٢ - ٢١٨ هـ / ٨٢٨ - ٨٣٢ م)، السيرة النبوية، حققه وضبطه مصطفى السقا وزملاؤه، البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م، ج ٢ ص ٦٠٧ وسيشار إليه ابن هشام، السيرة النبوية. وانظر ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م). الطبقات الكبرى، عني بتصحيحه سترستين، ليدن ١٣٢٥ هـ، ج ١ ق ٢ ص ٢٠ وسيشار إليه ابن سعد، الطبقات. ابن حبيب البغدادي، أبو جعفر محمد (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م)، المحبر تحقيق ايلزه ليختن شتير، المكتب التجاري، بيروت (د. ت. ص ٧٦ وسيشار إليه ابن حبيب، المحبر. ابن خلدون عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ / ٤٠٦ م) تاريخ، ضبط خليل شحادة راجعه سهيل زكار. دار الفكر، بيروت، ١٩٨١ م، ج ٢ ص ٣٢٧ وسيشار إليه ابن خلدون، تاريخ ابن منظور محمد بن مكرم (٦٣٠ - ٧١١ هـ / ١٣١١ م)، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر دار الفكر، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ج ٥ ص ٣٨٦. وسيشار إليه ابن منظور، المختصر.

٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير «ت ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م». تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧، ج ٢، ص ٦٥٢. وسيشار إليه الطبري، تاريخ.

٦. الطبري، تاريخ ج ٢، ص ٦٥٢، وانظر: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ - ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م)، نهاية الأرب في فنون العرب، نسخة مصورة عن دار الكتب، ج ١٨، ص ١٦٥ وسيشار إليه، النويري، نهاية الأرب. العيني، بدر الدين (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد «شيخ المحمدي» تحقيق فهم محمد شلتوت، دار الكاتب العربي القاهرة، ١٩٦٦ - ١٩٦٧، ص ٢٢١ - ٢٢٣.

٧. المسعودي، علي بن الحسن بن علي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)، التنبيه والإشراف، مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١ م، ص ١٧٤ - ١٧٥ وسيشار إليه المسعودي، التنبيه والإشراف. وانظر ابن خياط أبو عمر خليفة، (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) تاريخ ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الآداب، النجف ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م، ج ١، ص ٦٣، الطبري، تاريخ ج ٢ ص ٦٤٤. وسيشار إليه ابن خياط، تاريخ.

٨. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨، ج ٢، ص ١٠٩، وسيشار إليه، المسعودي، مروج الذهب. وانظر: البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، أنساب الأشراف ج ١ تحقيق محمد حميد الله دار المعارف، مصر، ١٩٥٩، ج ١ ص ٥٣١. وسيشار إليه البلاذري، أنساب الأشراف.

أما ابن خياط فلم يحدد الجهة التي أرسل الرسول «ص» شجاعاً إليها، فقال: أرسل إلى الحارث بن أبي شمر و يقال إلى جبلة (٩) بن الأيهم، وكانا ملكين على البلقاء (١٠).

وتشير مصادر أخرى إلى أن الرسول «ص» أرسل الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى دون أن تذكر اسم الأمير الغساني، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني. فقال: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد قال: نعم، أنا رسول رسول الله فأوثق رباطه ثم قدم وضرب عنقه صبراً (١١).

ويضيف اليعقوبي أن الرسول «ص» أرسل عمار بن ياسر إلى الأيهم بن النعمان الغساني (١٢). إن هذا الاختلاف البين في هذه المصادر يدل دلالة واضحة على حالة التمزق التي وصلت إليها مملكة الغساسنة، وزاد من تفككها وانقسامها في مطلع الاسلام ما ذكره ابن خلدون من أن الأيهم بن جبلة كان له رأي من الافساد بين القبائل حتى أفنى بعضهم بعضاً وبخاصة ما حدث بين بني جسر وعاملة وغيرهم (١٣). كما وصفوا «بالتيه والكبر» (١٤).

وقد أدى ضعف الغساسنة إلى ضعف ولاء القبائل التي كانت تسكن فلسطين والأردن وأطراف الشام، تلك القبائل التي كانت سلطة الغساسنة تقوم عليها، فوصل نفوذهم بها إلى أطراف الشام والحجاز الشمالي (١٥). ومما يدل على اعتماد الغساسنة على هذه القبائل عدم ذكر المصادر للحصون أو المدن التي كان يتخذها الغساسنة مراكز للجيش (١٦). واكتفت بدلا

٩. ابن خياط تاريخ ج ١، ص ٦٣.
١٠. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ - ١٠٦٣م)، جوامع السيرة النبوية، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٠.
١١. الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م)، المغازي، تحقيق مارسدن جونسون، اكسفورد ١٩٦٦ ج ٢ ص ٧٥٥ وانظر: ابن منظور، المختصر، ج ١ ص ١٥٢، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) الاصابة في تمييز الصحابة، وبهامشه. الاستيعاب لابن عبد البر المطبعة المصرية ١٣٢٨هـ، ج ١ ص ٢٨٦، وسيشار اليه ابن حجر العسقلاني، الاصابة. النويري، نهاية الأرب ج ١٨ ص ١٥٦ العيني، السيف المهند ٢٢١ - ٢٢٣.
١٢. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، (ت ٢٩٢هـ / ٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، قدم له محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف ١٣٨٤ - ١٩٦٤م، ج ٢، ص ٦٧، وسيشار اليه، اليعقوبي، تاريخ.
١٣. ابن خلدون، تاريخ، م ٢، ص ٣٣٧. وانظر ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك، (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقمى، عمان، ١٩٨٢ ج ١، ص ٢٠٤. وسيشار اليه ابن سعيد، نشوة الطرب.
١٤. ابن منظور، المختصر، ج ٦، ص ٣٠١.
١٥. ابن سعيد: نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٤٦.
١٦. انظر: صالح العلي، محاضرات، ص ٦٣.

منها بجمع الضرائب من هذه القبائل مما جعلت الغساسنة أقدر على الذهب والفضة من آل نصر وأظهر منهم سعة (١٧).

وقد امتدت منطقة الغساسنة قبل الفتح الإسلامي إلى ما بعد جبل عامل إلى دمشق وحمص وما يليها، فكانت هذه المناطق ديار غسان من آل جفنة وغيرهم كما يقول الهمداني (١٨). ووصف الغساسنة في هذه المناطق بأنهم أهل مدر وليس بأهل عمد يتنقلون (١٩). ومن أبرز حواضر الغساسنة مؤتة، وشراف، وحساء (٢٠) ومعان (٢١)، والشراة (٢٢)، وحسمى (٢٣) ومآب وأرض لوط من الأردن وفلسطين (٢٤) وعمان في البلقاء (٢٥)، واليرموك، وكانت من أكبر تجمعاتهم (٢٦)، وبيت راس (٢٧)، والأردن (٢٨)، وبادية الشام

١٧. أبو البقاء هبة الله الحلي، (القرن السادس الهجري) المناقب الزيدية في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق صالح درانكه ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة، عمان، ١٩٨٤ ج ٢ ص ٥٢٥. وانظر على سبيل المثال: مجلس جبلة ابن الأيهم. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م)، الأغاني، ج اعداد لجنة نشر كتاب الأغاني، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠ ج ١٧ ص ١٦٦. وسيشار إليه الأصفهاني، الأغاني.
١٨. الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٦٠هـ - ٩٧٠م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوغ، دار اليمامة، الرياض ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص ٢٧٤. وسيشار إليه الهمداني، صفة جزيرة العرب.
١٩. ابن منظور، المختصر، ج ٦، ص ٢٩٧.
٢٠. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق تراجم حرف العين عبد الله بن جابر عبد الله بن زيد، تحقيق شكري فيصل وزملائه، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ص ٥٣٤. وسيشار إليه، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق.
٢١. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ١٥، ص ١٦٦، ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠١.
٢٢. ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي (ت ٥٠٠-٤٦٦ ق هـ)، تحقيق عادل سليمان جمال، مطبعة المدني، (د. ت) ص ١١٨. نصرت عبد الرحمن، «في أيام غسان مع الأحليف في الشعر الجاهلي»، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ع ٣٠ ص ١٢٩.
٢٣. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٩٥.
٢٤. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٠٩.
٢٥. اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٧٧-٧٨، ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٠، ٢٠٨، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف/ مصر ١٣٩١ - ١٩٧١ ص ٤٨٨. وسيشار إليه، ابن حزم، جمهرة أنساب العرب.
٢٦. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٠٩، الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب) ج ١٥، ص ١٦٦، ابن منظور، المختصر، ج ٥، ص ٢٧٢، ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩ مادة «يرموك» وسيشار إليه، ياقوت، معجم البلدان. القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/١٤٢٨م). نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، تراثنا العربي، القاهرة ١٩٥٩، ص ٣٨٨.
٢٧. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب) ج ١٥، ص ١٦٦.
٢٨. الكلبي، محمد بن السائب (ت ١٤٦هـ/٧٦٣)، النسب الكبير، مخطوطة مصورة لوحة ٢٦٤. اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ١٧٩ - ١٨٠. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٠٩.

والسماوة (٢٩)، وصفين (٣٠)، وهوران (٣١) والبثنية (٣٢)، والسويداء (٣٣)، وبصرى (٣٤)، وخولان وتقع على بعد عشرين ميلا من دمشق (٣٥)، والجولان (٣٦)، والجابية (٣٧)، وفي أكناف دمشق في البريص (٣٨) والكسوة (٣٩)، وعقر باء، من كور دمشق يزلها ملوك غسان (٤٠)، ومحبل (٤١)، والمروت (٤٢)، والخربة والمخيرقة (٤٣) وأبرق النعار وهي ماء لطىء وغسان قرب طريق الحج (٤٤)، وتدمر (٤٥)، ومرج راهط (٤٦)، والصمان (٤٧)، وحمى جاسم (٤٨)، ومرج الصقر (٤٩)، والقريات (٥٠)، وكان للغساسنة في دمشق وغوطتها عشرون قرية منها داريا وسكاء، وجلق

٢٩. الأصفهاني، «الهيئة» ج ١٧ ص ٣٦٠.
٣٠. ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٢، ابن خلدون، تاريخ، م ٢، ص ٣٣٧.
٣١. ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٤.
٣٢. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب) ج ١٥، ص ١٦٦، ابن عساكر، تاريخ دمشق (عاصم، عايد)، ص ٣٩٨.
٣٣. ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٢، ابن خلدون، تاريخ، م ٢، ص ٣٣٧.
٣٤. الأصفهاني، الأغاني (الهيئة)، ج ١٧، ص ٣٦٠، ج ٢٢، ص ١١٠.
٣٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، تراجم حرف العين المتلوه بالألف (عاصم - عايد)، تحقيق شكري فيصل، مجمع اللغة العربية - دمشق ص ٤٠٨، ٤١٧.
٣٦. اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ١٧٩، المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٠٩، الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ١٥، ص ١٦٦، ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٤، ابن منظور، المختصر، ج ٨ ص ٢٨٨ ابن خلدون، تاريخ، م ٢، ص ٣٣٧.
٣٧. الأصفهاني، الأغاني، ج ١٧، ص ٣٦٠.
٣٨. قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة (ت ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد حسن الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١، ص ٢٣٩ وسيشار اليه، قدامة، الخراج. ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٨، ابن منظور، المختصر، ج ٦، ص ٣٠٠.
٣٩. ياقوت، معجم البلدان، مادة «الكسوة».
٤٠. ياقوت، معجم البلدان، مادة عقرباء.
٤١. ياقوت، معجم البلدان، مادة محبل.
٤٢. ياقوت، معجم البلدان، مادة المروت.
٤٣. البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب - عن طبعة القاهرة ١٩٤٥ م ١ ص ٩٠، ص ٤٩٠، ٤٩٧.
٤٤. ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد، (ت القرن الخامس الهجري)، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢ هـ، ص ١٠٧، ياقوت، معجم البلدان، مادة أبرق النعار.
٤٥. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب) ج ١٥، ص ١٤٦، ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٤.
٤٦. الأزدي، محمد بن عبد الله، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، سجل العرب القاهرة، ص ٨٢ وسيشار اليه، الأزدي، فتوح الشام. قدامة، الخراج، ص ٢٨٧، البلاذري، فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨، ص ١١٩. وسيشار اليه البلاذري، فتوح البلدان.
٤٧. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ١٥، ص ١٦٦، ابن منظور، المختصر، ج ٥، ص ٣٧٢.
٤٨. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ١٥، ص ١٦٦، ابن منظور، المختصر، ج ٥، ص ٣٧٢.
٤٩. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ١٥، ص ١٦٦، ابن منظور، المختصر، ج ٥، ص ٣٧٢.
٥٠. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ١٥، ص ١٦٦، ابن منظور، المختصر، ج ٥، ص ٣٧٢.

والحواشي (٥١). وفي الحفير (٥٢) وجبلية (٥٣)، وصيدا وحارب (٥٤)، والبقاع (٥٥)، وحمص (٥٦)، وكان لهم نفوذ في دومة الجندل (٥٧)، وأطراف الشام وشمالى الحجاز (٥٨)، كما سكن بعض منهم في الحيرة (٥٩).

وقد أدى هذا الامتداد والنفوذ الواسع الى سيطرة الغساسنة على معظم القبائل العربية في بلاد الشام في القرن السادس الميلادي لكن هذا النفوذ قد تراجع أمام قبيلة أخرى أصبح لها امتداد أوسع، وسيطرة على الطريق التجاري وهي قبيلة جذام. وقد مكنتها موقعها الهام من التعامل على قدم المساواة مع كندة وبعدها غسان، وعندما شرع العرب المسلمون بالزحف نحو بلاد الشام اعتبرهم البيزنطيون منطقة مقاومة (٦٠).

وفي أول لقاء عسكري بين المسلمين والبيزنطيين في مؤتة ٦٢٩هـ/ ٦٢٩ م، حاول الغساسنة الوقوف أمام تقدم المسلمين، حيث جمع شرحبيل بن عمرو الغساني الناس وقدم الطلائع وبعث أخاه سدوساً إلا أنه قتل فعاد الى حصنه وتحصن به (٦١). ولما علم الروم بذلك نزل هرقل مآب من أرض البلقاء، وانضم اليه لحم وجذام والقين و بهراء و بلي في مئة ألف، وعليهم رجل من بلي ثم أحد إراشة (٦٢). ولم يرد ذكر للغساسنة ضمن القبائل التي حاربت المسلمين في موقعة مؤتة (٦٢).

٥١. انظر: الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب) ج ١٥، ص ١٦٦، ابن منظور، المختصر، ج ٢ ص ٣٠٥، ج ٥، ص ٣٧٢، ج ٦، ص ١٢٧، النويري، نهاية الأرب، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٤٧٨.
- اليقوبي، تاريخ ج ١، ص ١٧٩ - ١٨٠، ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٠، ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٢، ص ٤٠٧.
٥٢. الأصفهاني، الأغاني (الهيئة) ج ١٧، ص ٣٦٠.
٥٣. ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٥.
٥٤. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٩٥، ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٢، ابن خلدون، تاريخ، ج ٢، ص ٣٢٧.
٥٥. ياقوت، معجم البلدان، مادة «البقاع».
٥٦. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٤.
٥٧. ابن حبيب البغدادي، المحبر، ص ٢٥٣، ابن منظور، المختصر، ج ٦، ص ٣٠١.
٥٨. ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٤٦.
٥٩. ابن زنجوية، حميد (ت ٢٥١هـ/ ٨٦٥ م)، الأموال، تحقيق شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦)، ج ١، ص ١٢٩، قدامة، الخراج، ص ٢٢٤.
٦٠. J. Spencer Trimingham, Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times. Longman, London 1971 PP 118-120.
٦١. الواقي، المغازي، ج ٢، ص ٧٥٥، ٧٦٠، وانظر ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ١٢٩.
٦٢. الواقي، المغازي، ج ٢، ص ٧٥٥، ٧٦٠.
٦٣. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٢٧٥، الواقي، المغازي، ج ٢، ص ٧٦، ابن منظور، المختصر ج ١ ص ١٥٢.

وبعد مؤتة بدأ دور غسان في مقاومة المسلمين يظهر جلياً، ففي تبوك جاءت الأخبار أن الروم قد جمعت الجموع الكثيرة بالشام، وأن هرقل رزق أصحابه سنة، وأجلبت معه لحم وجذام وغسان وعاملة وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها (٦٤). وفي دومة الجندل تجمعت قضاة وغسان لغزو الحجاز (٦٥).

ولم يكتف الغساسنة بذلك بل قاموا بمحاولة التدخل في شؤون المدينة، فقد ذكر الواقدي أن الحارث بن أبي شمر أو جبلة بن الأيهم استغل فرصة هجر المسلمين لكعب بن مالك لأنه تخلف عن تبوك فأرسل له كتاباً نصه: أما بعد فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك (٦٦). وإذا كان كعب قد رفض عرض الغساسنة فإن علقمة بن علاثة لما ارتد ذهب إلى الشام (٦٧)، وقبله ذهب إلى الشام عدي بن حاتم الطائي.

ويبدو أن الروم قد اضطروا أمام غزوات المسلمين لأطراف الشام إلى الاستعانة بالغساسنة من جديد، فأسندوا إليهم دور زعامة القبائل المنتصرة في الشام عامة، وأصبح جبلة بن الأيهم ملك العرب بالشام (٦٨). وذكر الأصمعي: أن جبلة نزل ملكاً مطاعاً في قومه غسان، يجبي إليه خراج الشام ويطيعه قبائل العرب فيها (٦٩)، وذلك بعد موت الحارث بن أبي شمر (٧٠).

أخذ هذا الدور الجديد للغساسنة يثير الرعب في المدينة، يذكر ابن سعد دليلاً على ذلك: «من أن أهل المدينة قد تحدثوا أن غسان تنعل الخيل لتغزوهم، واتخذوا الاحتياطات اللازمة لذلك، فجاء رجل من الأنصار يوم نوبته في وقت العشاء وضرب باب عمر ضرباً شديداً وقال: أنائم هو، ففرز عمر فخرج إليه فقال: قد حدث اليوم أمر عظيم قال: قلت ما هو أجهت غسان؟ قال لا بل أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول الله نساءه (٧١). كما أن غسان لم يدخلها الاسلام كما دخل غيرها من القبائل المنتصرة في الشام كجذام مثلاً، فلم يفد منهم على الرسول «ص» سوى ثلاثة نفر سنة عشر أنزلهم الرسول «ص» دار رملة (٧٢). منهم الحارث بن

٦٤. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٨٨٩ - ٩٩٠.
 ٦٥. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٤١.
 ٦٦. الواقدي، المغازي، ج ٣، ص ١٠٥٢.
 ٦٧. ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ٢، ص ٥٠٤.
 ٦٨. أبو البقاء هبة الله، المناقب، ج ٢، ص ٥٦٦.
 ٦٩. الأصمعي، عبد الملك بن قريظ (ت ٢١٧هـ/٨٣٢م)، تاريخ العرب قبل الاسلام، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، المعارف بغداد ١٣٥٩هـ/١٩٥٩م، ص ١١١ - ١١٢.
 ٧٠. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٢.
 ٧١. ابن سعد، الطبقات، ج ٨، ص ١٣٢.
 ٧٢. ابن سعد، الطبقات، ج ١، ق ٢، ص ٧١.

قيس بن الحارث بن أسماء بن مر بن شهاب بن أبي شمر الغساني (٧٣)، وأسلم من الغساسنة أبو مريم الغساني، واشترك في بعض الغزوات (٧٤)، وكعب بن جماعة بن ثعلبة الغساني حليف جهينة، وشهد بدرأ (٧٥).

موقف الغساسنة من الفتح الإسلامي : -

لقد أدرك الرسول «ص» المبادأة بالحرب، فأخذ يشن الغزوات والسرايا على أطراف الشام، وكان آخرها حملة أسامة بن زيد لغزو شرحبيل بن عمرو الغساني (٧٦)، لكن هذه الحملة لم تنفذ في حياته، ونفذت في عهد أبي بكر. وعندما اتجه المسلمون الى الشام في عهد أبي بكر ضرب الروم على العرب الضاحية البعوث بالشام فنفر اليهم بهراء وكلب وتنوخ ولخم وجذام وغسان فأقاموا في اللقاء من دون زيزاء بثلاث (٧٧).

وقد تمكنت الجيوش الإسلامية من اجتياح اللقاء وأرض السواد من الأردن دون مقاومة كبيرة (٧٨). وهذا يشير الى أن موقف القبائل العربية المنتصرة في الشام لم يتبلور بعد، بل يلاحظ من تتبع الفتوحات أن خالد بن الوليد قد تمكن من هزيمة بهراء وغسان وتنوخ والضجاعم في دومة الجندل (٧٩). كما أغار على الغساسنة في مرج راهط، ووجه بسر بن أرطاة وحبيب بن مسلمة الفهري الى غوطة دمشق فأغاروا على قرى من قراها (٨٠).

وقد تغير موقف القبائل العربية المنتصرة من المسلمين بعد أن أخذ الروم يجمعون الجيوش، وكان الغساسنة في طليعة القبائل التي قاومت المسلمين فقد قاتلوا في مرج الصفر تحت قيادة الحارث بن الأيهم (٨١). وقاتلوا في بصرى (٨٢)، وفي أجنادين تحت قيادة جبلة بن الأيهم (٨٣). وكان أكبر تجمع للعرب المنتصرة في اليرموك، فقد ذكر الواقدي أنهم كانوا في

٧٣. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ١، ص ٢٨٧.
٧٤. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٣، ص ٥٥٢.
٧٥. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٣، ص ٢٩٤.
٧٦. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٤٧٣.
٧٧. الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ١١٢٤، الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٢٨٩ - ٢٩٠، ابن منظور، المختصر، ج ١، ص ١٨٧.
٧٨. الواقدي، فتوح الشام، (منسوب اليه) مكتبة المحتسب عمان، د. ت، ج ١، ص ٤٠. سيشار اليه، الواقدي، فتوح الشام.
٧٩. البلاذري، فتوح البلدان ص ٧٤، النويري، نهاية الأرب ج ١٩، ص ١١٤.
٨٠. انظر: ابن خياط، تاريخ ج ١، ص ٧٨. البلاذري، فتوح البلدان ص ١١٩. قدامة، الخراج ص ٢٨٧. ابن عساكر، تراجم النساء ص ٢٢٥. ابن منظور، المختصر ج ١، ص ٢١٢.
٨١. الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٤١٠، ٤١٧. ياقوت، معجم البلدان، مادة اليرموك.
٨٢. ياقوت، معجم البلدان، مادة اليرموك.
٨٣. الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ١٦٨.

ستين ألفاً (٨٤)، أما ابن أعثم فقال نزل جبلة بن الأيهم الغوطة ومعه أربعمائة ألفاً (٨٥). أما ابن عساکر فذكر أنهم كانوا في اثني عشر ألفاً من المستعربة الغساسنة (٨٦). فجعله الروم على مقدمة هرقل في مستعربة الشام من لحم وجذام وغيرها (٨٧).

وقد جرت مفاوضات بين المسلمين والغساسنة قبيل اليرموك إلا أن جبلة بن الأيهم أصر على قتال المسلمين (٨٨). ويذكر الواقدي أن موقف جبلة كان نابغاً من خوفه من انتصار الروم حيث قال: أخشى إن تركت حربكم وقتالكم وكانت الدائرة للقوم لا أمن أن يتقوا على بلدي، لأن الروم لا ترضى مني إلا أن أكون مقاتلاً لكم وقد رأسوني على جميع العرب (٨٩). وبعد اليرموك قاتل الغساسنة ومعهم بلقين المسلمين في حمص (٩٠)، وفي درب بغراس ومعها تنوخ وإباد حيث وقع بهم ميسرة بن مسروق العبسي، وقتل منهم مقتلة عظيمة (٩١)، وكذلك في درب تفليس (٩٢). ولما سار هرقل إلى أنطاكية كان معه من غسان بشر كثير بالإضافة إلى المستعربة من لحم وجذام وبلقين وبلي وعاملة وقضاعة (٩٣).

و بالمقابل تشير بعض المصادر إلى وقوف بعض الغساسنة إلى جانب المسلمين في فحل ومعها بنو القين ولحم وجذام وعاملة وقضاعة، وكان من هذه القبائل جمع عظيم كثير قوي بها المسلمون على عدوهم (٩٤). كما قاتلوا في ميسرة المسلمين في اليرموك ومعهم كنانة وقيس وخنعم وجذام وعاملة فكشفهم الروم (٩٥). كما اعتمد أبو عبيدة على بعضهم كأدلاء له

٨٤. الواقدي، فتوح الشام، ص ١٦٩.
٨٥. ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي «ت ٣١٤هـ/٩٢٦»، كتاب الفتح، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٠٢، وسيشار إليه، ابن أعثم، الفتح.
٨٦. ابن منظور، المختصر، ج ١، ص ٢١٣.
٨٧. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٢١. البلاذري، فتوح، ص ١١٤، ابن عساکر، تراجم النساء، ص ٥٠٦.
٨٨. انظر المفاوضات، ابن أعثم، الفتح، م ١، ص ١٠٢-١٠٣، ابن الفقيه الهمداني، مختصر البلدان ص ١٤٠-١٤١.
٨٩. الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ١٧٠-١٧١.
٩٠. الطبري، تاريخ ج ٢، ص ٦٠٠.
٩١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٦. النويري، نهاية الأرب، ج ١٩، ص ١٦٧.
٩٢. ابن خلدون، تاريخ، م ٢، ص ٥٤٤.
٩٣. الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٧٠. ابن منظور، المختصر، ج ١، ص ٢١٢.
٩٤. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٣٠. ولزيد من التفاصيل عن دور العرب المنتصرة في الفتوحات انظر محمد خريسات، «دور العرب المنتصرة في الفتوحات»، المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام، عمان ١٩٨٧م، م ٢، ص ١٣٥-١٦٤. وسيشار إليه محمد خريسات، دور العرب المنتصرة.
٩٥. الأزدي، فتوح الشام ص ٢٢٦، ٢٢٨. ولم يذكر ابن أعثم وقوف الغساسنة إلى جانب المسلمين انظر: الفتح، م ١، ص ١٩٨ وكذلك ابن عساکر، انظر ابن منظور المختصر، ج ١، ص ٢١٤.

كيونس بن عمرو الغساني، وكان بصيراً بالشام وجباله ومدنه وجميع أرضه في مسيره نحو حلب (٩٦). كما اعتمد عليهم كعيون له على الروم (٩٧).

أما مصير جبلة بن الأيهم فقد اختلفت المصادر في اسلامه وخروجه الى الروم (٩٨). ويذكر ابن زنجويه أن عمر بن الخطاب خير جبلة بين ثلاثة أمور هي: إما أن يسلم فيكون له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وإما أن يؤدي الخراج، وإما أن يلحق بالروم، فلحق بالروم (٩٩). ومما يؤكد عدم اسلام جبلة بن الأيهم ما ذكره الأصفهاني من أن عمر بعث جثامة بن مساحق الكناني الى جبلة، فلما انتهى إليه بكتاب عمر أجابه جبلة إلى كل شيء سوى الاسلام (١٠٠).

واختلفت المصادر أيضاً في عدد الغساسنة الذين لحقوا بجبلة فالبكري ذكر بأنه دخل بلاد الروم ومعه إياد وقضاعة ولخم وجذام في نحو أربعين ألفاً (١٠١)، أما البلاذري فقد ذكر بأن جبلة دخل بلاد الروم في ثلاثين ألفاً (١٠٢). وذكر الواقدي (١٠٣)، وابن عساكر (١٠٤)، والعيني (١٠٥) أنه خرج في خمسمية رجل من قومه من عرب غسان. أما ابن الكلبي فلم يذكر عدد الذين خرجوا الى الروم، بل أشار الى عودة بعضهم كأبي النمى يزيد بن الأسود الغساني الذي رجع مسلماً ومعه جماعة من غسان كان لهم شرف بالشام (١٠٦).

وبعد انتهاء الفتوحات استوطنت القبائل الفاتحة في المناطق التي هاجر منها أهلها، فشارك الغساسنة في مواطنهم كل من كان في تدمر وحمص والجولان والسلمية والعاصمية

-
٩٦. الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ٢٥٥.
٩٧. الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ٢٥٩ وبالمقابل عمل بعض الغساسنة كعيون للروم على المسلمين، انظر: ابن عساكر، م ١، ص ٤٧٦.
٩٨. انظر: محمد خريسات، دور العرب المنتصرة في الفتوحات، ص ١٦١ - ١٦٢.
٩٩. ابن زنجويه، الأموال، ج ١، ص ١٣٥.
١٠٠. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ١٥، ص ١٦٤.
١٠١. البكري، معجم ما استعجم، م ١، ص ٧٥.
١٠٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٦.
١٠٣. الواقدي، فتوح الشام، ج ١، ص ٣٠٨.
١٠٤. ابن منظور، المختصر، ج ٥، ص ٣٧٠، وذكر بأنه خرج في خمسمية أهل بيت من عك وجفنة.
١٠٥. العيني، السيف المهند، ص ٢٨.
١٠٦. الكلبي النسب الكبير، ص ٢٩٥ وانظر: ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ٣، ص ٦٧٣. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٧٢. ابن سعيد، نشوة الطرب، ج ١، ص ٢٠٨.

والغوطة (١٠٧) والسويداء (١٠٨)، والمزة (١٠٩). وفي دمشق (١١٠) حمير وقريش (١١١) وكندة (١١٢) وكان ربع كندة يأتي بعد ربع قريش في جند دمشق. وفي داريا خولان (١١٣) ومعها رهط من كنانة (١١٤)، وفي الجولان الرباب (١١٥)، وفي عقرباء لحم (١١٦). وفي حوران وبصرى وأذرعات والبثنية والغوطة قيس (١١٧)، وفي الغوطة ربعة (١١٨) ولحم والسكاسك (١١٩)، ومعها عك وهمدان، ومذحج في الفلجة من أرض دمشق (١٢٠)، وآل معيوف من بني مالك بن يزيد بن كهلان في عين الجر (١٢١). وفي غرندل قيس وبلقين (١٢٢)، وفي زغر أخلاط من الناس (١٢٣)، وفي الشراة نبيان (١٢٤)، وفي الحميمة موالى بني هاشم (١٢٥) ثم بنو هاشم فيما بعد. وفي البلقاء بنو مرة وفزارة (١٢٦)، وثقيف (١٢٧)، وطىء منتقلة في البوادي (١٢٨).

١٠٧. انظر: الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٢، ٢٧٤، ٣٦٩.
١٠٨. اليعقوبي، البلدان، مطبعة النجف، ص ٨٢-٨٣.
١٠٩. الكلبي، النسب الكبير، ص ٤٢٠.
١١٠. الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥) الاكليل، تحقيق محمد بن علي الاكوع دمشق ١٩٧٩، ج ٢، ص ١٥٥.
١١١. ابن منظور، المختصر، ج ١، ص ١٠٧.
١١٢. ابن منظور، المختصر، ج ١، ص ١٠٧.
١١٣. ابن منظور، المختصر، ج ٥، ص ٢٩٥.
١١٤. الكلبي، النسب الكبير، ص ٤٢٢.
١١٥. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٦٩.
١١٦. ابن حجر العسقلاني، الاصابة، ج ١، ص ٥٧٠.
١١٧. اليعقوبي، البلدان، ص ٨٢-٨٣.
١١٨. اليعقوبي، البلدان، ص ٨٢-٨٣.
١١٩. الثوري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٤٧٨-٤٧٩.
١٢٠. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٢، ٢٧٤.
١٢١. الكلبي، النسب الكبير، ص ٣٤٥.
١٢٢. اليعقوبي، البلدان، ص ٨٢-٨٣.
١٢٣. اليعقوبي، البلدان، ص ٨٢-٨٣.
١٢٤. الكلبي، النسب الكبير، ص ٢٣٨.
١٢٥. اليعقوبي، البلدان، ص ٨٢-٨٣.
١٢٦. اليعقوبي، البلدان (مع الأعلام النفيسة) ليدن ١٨٩١، ص ٣٢٦، أبو عبد الله الادريس محمد بن محمد بن عبد الله، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، نابولي، روما، ج ٤، ص ٢٧٥.
١٢٧. ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٣٠١.
١٢٨. مجهول، أخبار الدولة العباسية، وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار المطلبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص ١٥٧. البيهقي، الشيخ ابراهيم بن محمد (ت ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م)، المحاسن والنسب، بيروت، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٠ م ص ٢٨٩-٣٩٠ وعن استقرار القبائل في البلقاء: انظر، محمد خريسات، «البلقاء من الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري» «دراسة ادارية»، مجلة دراسات تاريخية (دمشق) م ٧، العددان ٢١، ٢٢، ص ٤٩-٨٥.
- لمزيد من التفاصيل عن استقرار القبائل العربية في بلاد الشام بعد الفتح الاسلامي انظر: عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (١٩٧٤) ص ٢٥-٣٨.
- صالح العلي، «القبائل العربية في بلاد الشام في زمن الخلفاء الراشدين». مجلة دراسات، (الجامعة الأردنية) م ١٤، (١٩٨٧)، ع ٤، ص ٦٨-٩.

الغساسنة في العهد الأموي : -

من خلال تتبع الأحداث في عصر الخلفاء الراشدين لا يجد الباحث دوراً للغساسنة في أحداث بلاد الشام أو فتوحاتها على الرغم من أن عامتهم كانوا بالشام، ولم أقف على دور غسان إلا ما روي عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني قوله : عندما قدم عثمان إلى أهل الشام في القراءة، قالوا (أهل الشام) سمعنا وأطعنا، وما اختلف في ذلك اثنان، انتهوا إلى ما اجتمعت عليه الأمة وعرفوا فضله (١٢٩). و يعود ذلك إلى أن الخلفاء الراشدين كانوا يعتمدون في إدارة شؤون الدولة على الصحابة ولم يولوا أهل الأمصار المفتوحة شيئاً.

وبدأ دور الغساسنة بالظهور خلال الأحداث التي حدثت بين علي ومعاوية، فعندما بايع أهل الشام معاوية على الوقوف معه قال معاوية لجريبر بن عبد الله الذي حمل رسالة علي إليه : الحق بصاحبك، وكتب إليه بالحرب (١٣٠).

وخلال تنظيم معاوية لجيشه يظهر غساسنة الأردن بصورة مستقلة، فقد جعل معاوية لواءه إلى عبد الرحمن بن خالد، وعلى خيله، عبيد الله بن عمرو، وعلى الرجالة، مسلم ابن عقبة المري، وعلي الميسرة، حبيب بن مسلمة الفهري، وعلى رجالة دمشق، بسر بن أبي أرطأة، وعلى رجالة أهل الأردن، عبد الرحمن بن قيس القيني، وعلى رجالة فلسطين، الحارث ابن عبد الأزدي، وعلي قيس دمشق، حسان بن بحدل الكلبي، وعلى كندة دمشق، ابن حوي السكسكي، وقضاة الأردن، حبيش بن دلجة القيني، وكنانة فلسطين، شريك الكناني، ومذحج الأردن، مخارق بن الحارث الزبيدي، وجذام فلسطين ولخمها، ناتل بن قيس الجذامي، وهمدان الأردن، حمزة بن مالك، وعلي خثعم ولفها حمل بن عبد الله الخثعمي، وعلي غسان الأردن، يزيد بن أبي النميس الغساني (١٣١).

ومن استعراض هذه الأسماء يلاحظ أن معظم القادة من اليمانيين، وهذا يعود إلى موقف معاوية في بداية صفين من هذه القبائل إذ يذكر ابن مزاحم أن معاوية عقد لرجال من مضر، قصد بذلك إكرامهم ورفع منازلهم فغم ذلك رجالات اليمن، وأرادوا ألا يتأمر عليهم أحد منهم، فقام رجل من كندة يقال له عبد الله بن الحارث السكوني وقال :

معاوي أحييت فينا الأحسن
عقدت لسر وأصحابه
فلا تخلصن بنا غيرنا
وأحدثت في الشام ما لم يكن
وما الناس حولك إلا اليمن
كما شيب بالماء محض اللبن (١٣٢)

١٢٩. ابن منظور، المختصر، ج ١، ص ١٢١.

١٣٠. ابن مزاحم، نصر (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٧م) وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ص ٥٦ وسيشار إليه، نصر بن مزاحم، وقعة صفين. انظر عن اجتماع معاوية برؤساء الشام: نصر بن مزاحم المصدر السابق نفسه، ص ٤٤، ابن أعم، الفتوح، م ١، ص ٥٣٠.

١٣١. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٠٦-٢٠٧، ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ١٧٨-١٧٩.

١٣٢. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٤٢٤-٤٢٥.

ومع أن اليمانية استنكروا قول السكوني، إلا أن معاوية أدرك أهمية اسناد رئاسة تشكيلاته لبعض رجالاتهم.

وكان لغسان في صفين دور بارز في القتال، فقد ذكر المسعودي أن علياً نظر الى غسان في مصافهم لا يزولون، فحرض عليهم وقال: إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن يخرج منه النسيم، وضرب يفلق الهام، ويطيح العظام، وتسقط منه الأعاصم والأماكن، وحتى تشدخ جباههم بعمد الحديد، وتنتشر لحومهم على الصدور والأنقان (١٣٣).

ويضيف النووي أن علياً قال: أين أهل النصر والصبر وطلاب الأجر، فأتاه عصابة من المسلمين فدعا ابنه محمداً فقال: تقدم نحو هذه الراية مشياً روياً، على هينتك حتى إذا شرعت في صدورهم الرماح فأمسك حتى يأتيك أمري (١٣٤). واقتتل الناس بعد المغرب قتالاً شديداً فما صلى أكثر الناس إعياء (١٣٥).

والتقت غسان في صفين بجماعة القراء من جيش علي، فقال شاب من الغساسنة:

أنا ابن أرباب الملوك غسان والدائن اليوم بدين عثمان
أنبأنا أقوامنا بما كان أن علياً قتل ابن عفان

فقال له هاشم بن عتبة إن هذا الكلام بعده الخصام، وإن هذا القتال بعده الحساب، فاتق الله فانك راجع الى ربك فسائلك عن هذا الموقف وما أردت به. فقال الغساني: فاني أقاتلكم لأن صاحبكم لا يصلي كما ذكر لي، وأنكم لا تصلون، وأقاتلكم أن صاحبكم قتل خليفتنا وأنتم وازرتموه على قتله (١٣٦).

والتقت غسان ومعها جذام باحدى القبائل الكبيرة في جيش علي، وهي قبيلة تميم (١٣٧)، كما قتلت جعفي (١٣٨).

وتردد ذكرها في الأشعار التي قيلت في صفين يؤكد دورها البارز في القتال. فقد قال سماك بن خرشة الجعفي من قبل علي (١٣٩):

١٣٣. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٩٨.
١٣٤. النووي أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب، ج ٢٠، تحقيق محمد رفعت فتح الله. الهيئة المصرية، ١٩٧٥، ج ٢٠، ص ١٤١.
١٣٥. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٤٥.
١٣٦. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٣٥٤ - ٣٥٥، وانظر: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٤٣، ابن الأثير علي بن أبي الكرم بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، ج ١٢، دار صادر، ١٩٦٥، ج ٣، ص ٣١٤. وسيسار اليه، ابن الأثير، الكامل في التاريخ.
١٣٧. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.
١٣٨. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٧٥ - ٢٩٢.
١٣٩. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٧٥.

لقد علمت غسان عند اعتزامها
مقاويل أيسار لهاميم سادة
بأننا لدى الهيجاء مثل السعائر
إذا سال بالجريال شعر البياطر

وقال شبت بن ربعي (١٤٠):

نجالد غساناً وتشقى بحربنا
فلم أرفرساناً أشد حفيظة
جذام ووتر العبد غير طلوب
إذا غشي الأفاق نفع جنوب

وقال العدلي بن ناتل العجلي (١٤١):

لست أنسى مقام غسان بالت
سادة قادة إذا اعصوب القو
ولهم أنديات ناد كرام
فهم الغر في ذرى الأعلام
ل ولو عشت ما أظل شمام
م ليوم القراع عند الكرام

وفي صفين فقدت غسان أحد قادتها وهو رباح بن عتيك الغساني، قتله الأشتر النخعي
مبارزة مع عدد من رجالات معاوية (١٤٢). ومع وضوح دور غسان في القتال في صفين فاننا لا
نجد تويقاً لأحد رجالاتها على كتاب التحكيم (١٤٣).

وبعد أن تسلم معاوية الخلافة أسند إحدى الوظائف الهامة إلى أحد رجالات غسان
وهو عبيد (١٤٤) بن أوس الغساني، سيد أهل الشام على حد قول ابن حبيب البغدادي (١٤٥). وقد
بدأ عبيد حياته الوظيفية مسؤولاً عن صوافي كسرى، وأل كسرى في العراق (١٤٦). ثم أسند إليه
بعد ذلك كتابة الرسائل (١٤٧) و يذكر السيوطي: أن معاوية عندما أحدث ديوان الخاتم سلم

١٤٠. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٩٥.

١٤١. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٣٩٢، وانظر ص ٣٧٦.

١٤٢. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ١٧٤، أبو البقاء، المناقب المزيديّة، ج ١، ص ٢١٤.

١٤٣. نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٥٠٧.

١٤٤. ورد اسمه في المصادر بأشكال مختلفة، كعبيد الله، وعبيد، انظر: ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢١٨،
الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت ٢٣١هـ/٩٤٣م)، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا
وزملائه، البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨، ص ٢٤. المسعودي علي بن الحسين بن علي
(ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، التنبيه والإشراف، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٧٧. مجهول، تاريخ الخلفاء،
ص ١٥٩.

١٤٥. ابن حبيب البغدادي، المحبر، ص ٣٧٧، وانظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٢٢٣.

١٤٦. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٩.

١٤٧. ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢١٦، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٤.

الى عبيد الخاتم وعلى فصحه مكتوب ولكل عمل ثواب (١٤٨). ولم يقتصر معاوية على عبيد في الكتابة، بل كتب له أيضاً سعيد بن أنس الغساني (١٤٩).

واسناد هذه الوظائف الى بعض رجال الغساسنة يؤكد على موضع الثقة التي كان يحظى بها هؤلاء الرجال، ومن المعلوم أن مهمة كتابة الرسائل، وهي التي تعني تحبير الرسائل الصادرة من الخليفة، وارسالها الى الأمصار المختلفة، لا تسند الى أحد، الا أن يكون صاحبها محل ثقة عالية عند الخليفة (١٥٠).

وفي سنة ٥٧هـ أسند معاوية مهمة الفتح في افريقيا الى حسان بن النعمان الغساني، فصالحه من يليه من البربر، ووضع عليها الخراج، فلم يزل عليها حتى مات معاوية (١٥١). ولكي يوطد معاوية علاقته مع غسان أصهر اليهم، اذ زوج ابنه يزيد امرأة منهم فولدت له رملة (١٥٢).

ويستدل على نفوذ الغساسنة القوي زمن معاوية بما أورده الهمداني من أن معاوية استخف يوماً بالضحك بن المنذر الحميري، فوقف عروة بن المنذر الغساني وقال له: اعرف لكهلنا حقه، واحتمل من كريمنا قوله، فان خطرنا فينا عظيم، وعهده بالملك حديث، فان أبيت ألا تعدو طورك، وتجاوز قدرك، مشينا إليك بأسيافنا وضربناك بأيماننا، حتى تنيب الى الحق، وتترك الباطل بكرهك لا بطوعك. وأزر عروة رجالاً أخرى من اليمن فراع معاوية ذلك (١٥٣).

وفي عهد يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤) استمر في اعتماده على اليمانية لوصاية والده له قبل موته حيث قال له: «انظر أهل الشام فليكونوا عيبتك وحصنك فمن رابك أمره فارمه بهم، فاذا فرغوا فأقلهم فاني لا أمن من الناس على أفسادهم» (١٥٤) ولذلك فإنه لم يجر تغييراً في أمر كتابه وأبقى على عبيد بن أوس الغساني في تولي ديوان الرسائل (١٥٥).

١٤٨. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م، ص ٢٠٠. وقارن: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٤.

١٤٩. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٢١٨.

١٥٠. عن أهمية ديوان الرسائل انظر: الدواوين، من كتاب الخراج وصناعة الكتابة لقدامية بن جعفر، دراسة وتحقيق، مصطفى الحياوي، عمان، ١٩٨٦م، ص ٣١، وما بعدها.

١٥١. ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢١٣. وانظر الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م). تاريخ الاسلام، مطبعة السعادة / مصر (١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م)، ج ١، ص ١٥١، وقارن بوخالفة نور الهدى، «الاسلام والتعريب، في الشمال الافريقي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة»، رسالة ماجستير، مخطوطة - الجامعة الأردنية، ١٩٨٦، ص ١٤٤.

١٥٢. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤، ق ٢، ص ٤ (القدس).

١٥٣. الهمداني، الاكليل، ج ٢، ص ١٩٩.

١٥٤. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤، ق ١، ص ١٠٠.

١٥٥. الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٣١. المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ٢٧٧. مجهول، تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٥.

أما دور الغساسنة في الحياة العامة فلا يظهر له أثر مستقل في عهد يزيد، فالوفد الذي أرسله يزيد إلى المدينة قبل توجيه جيش الحرة لم يضم أحداً من غسان، بل كان فيه من الأنصار وكنانة، وعذرة والسكون والأشعريين وجذام والسكاسك، وهمدان وفزارة (١٥٦) ولم تفصح المصادر عن اشتراك الغساسنة ضمن أهل الأردن الذين أرسلهم يزيد إلى المدينة وجعل عليهم حبيش بن دلجة القيني الذي تمركز في زيزاء وهي قرية من قرى البلقاء حتى يتكامل الجيش (١٥٧). ومن تتبع أسماء القبائل التي شاركت في جيش الحرة لا يعثر على اسم لغسان أيضاً من ضمن هذه القبائل التي شاركت في الجيش وهي: حمير وكلب وجذام وكندة وغطفان والسكون والقين وفزارة (١٥٨)، وربما يعود ذلك إلى أن الغساسنة قد خرجت منهم أعداد كبيرة ضمن جيش حسان بن النعمان الذي خرج إلى أفريقيا في عهد معاوية سنة ٥٧ هـ.

وبعد وفاة معاوية الثاني (٦٤ هـ) بقيت غسان ومعها كلب وبعض جذام على ولائها للأمويين، فقد بايع معظم أهل الشام ابن الزبير إلا أهل الأردن، وبعض أشرف الشام ووجههم (١٥٩)، وطائفة من أهل دمشق (١٦٠). ويستدل من تطور الأحداث التي تلت أن الغساسنة كانوا ضمن الذين لم يبايعوا لابن الزبير.

لقد وقف حسان بن مالك بن بحدل الكلبي على رأس المؤيدين لبني أمية، وأيدته غسان في ذلك، فعندما أرسل حسان بن مالك رسالة إلى الضحاک بن قيس الفهري يعظم فيه حق بني أمية وحسن بلائهم، ويذم ابن الزبير وخلعه لخليفتين، رفض الضحاک قراءة الرسالة على الناس، فقام حامل الرسالة فقرأها بدلا منه. وكان أحد رجالات الغساسنة أول المؤيدين لحسان، وهو يزيد بن أبي النمس الغساني. وقام من بعده سفيان بن الأبرد الكلبي، وتلاه الوليد بن عتبة. وقام عمرو بن يزيد الحكمي فأنى على ابن الزبير فوثبت كلب عليه فضربوه وخرقوا ثيابه وحرقوه بالنار، فأمر الضحاک بسجن الوليد بن عتبة، ويزيد بن أبي النمس وسفيان بن الأبرد. فجاءت كلب فأخرجوا سفيان بن الأبرد، وجاءت غسان فأخرجوا يزيد بن أبي النمس. فقال الوليد بن عتبة: لو كنت من كلب أو غسان أخرجت. فجاء ابنا

١٥٦. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، م ٣، ص ١٧٢.

١٥٧. انظر ابن منظور، المختصر، ج ٦، ص ١٩٣.

١٥٨. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤، ق ١، ص ٣٢٧ - ٣٣٠.

١٥٩. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٩٢، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١٣٥، ابن منظور، المختصر، ج ٨، ص ٣٤١.

١٦٠. أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله «ت ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م»، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق شكر الله بن نعمة القوجاني، مجمع اللغة العربية دمشق ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م، ج ١، ص ١٩١. وانظر ابن عساکر، تراجم حرف العين، تحقيق شكري فيصل وزملائه، ص ٤٥١.

يزيد بن معاوية : خالد وعبد الله ومعهما أخوالهما من كلب فأخرجوه من السجن . وقد أطلق على هذا اليوم ، يوم جيرون الأول (١٦١) وهذا يدل على قوة كلب وغسان في دمشق .

وبعد جيرون تميز دور غسان في اتجاهين : -

الأول : أن غسان ومعها أهل الأردن من كلب والسكاسك والسكون خرجت مع مروان ابن الحكم الى الجابية ونزلوا مرج راهط (١٦٢) . وانضم اليهم فيما بعد قبائل طيء والمقيين وتنوخ ، حتى اجتمع لمروان ثلاثة عشر ألفاً (١٦٢) .

الثاني : أن يزيد بن أبي النمس لم يخرج الى الجابية بل بقي مختفياً بدمشق . فغلب على دمشق ، وأخرج عنها عامل الضحاك بن قيس ، واستولى على الخزائن وبيوت الأموال ، وباع بها لمروان وأمه بالأموال والرجال والسلاح (١٦٤) . وكان عمله هذا أول نصر للأمويين في الشام و يدل نجاح يزيد في مهمته على أن عدد المؤيدين للأمويين من الغساسنة كان كبيراً ، مما أدى الى استيلائه على دمشق .

ويظهر أن الضحاك قد حاول العودة الى دمشق بعد استيلاء أبي النمس عليها الا أن عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) دخلها قبله مما اضطر الضحاك الى التوجه الى حوران والبثنية ، وأظهر الدعوة لابن الزبير (١٦٥) .

١٦١ . انظر مع بعض الاختلاف : -

البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ (القدس - المثنى) ، الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .
- النويري ، نهاية الأرب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الهيئة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ج ٢١ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

١٦٢ . الطبري ، تاريخ ، ج ٥ ، ص ٥٧ .

١٦٣ . انظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٢٨ ، ابن أعثم ، الفتوح ، م ٣ ، ص ١٩٣ ، المسعودي ، التنبيه ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

١٦٤ . البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٢٦ ، عبد القادر بدران ، تهذيب ابن عساكر ، دمشق ١٢٣١ هـ ، ج ٧ ، ص ١١ . وقارن ابن حجر العسقلاني ، الأصابة ، ج ٣ ، ص ٧٣٠ .

١٦٥ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٩٤ .

وقالت غسان في مرج راهط، وأشاد بها مروان بن الحكم وقال (١٦٦) :

لما رأيت الناس مالوا جنبا والملك لا يؤخذ الا غصبا
أعددت غسان لهم وكلبا والسكسكين رجالا غلبا
وطيئناً يابون الا ضرباً والقين تمشي في الحديد نكبا

وكان أن فقدت غسان من أشرافها يحيى بن قيس، وأخوه سليمان بن قيس (١٦٧).

وهكذا نرى أن موقف غسان لا يقل عن موقف كلب في تثبيت الحكم الأموي، إلا أن المثل سار بقلب حتى قيل لم يؤيد بمثل كلب (١٦٨)، ولم يرد مثل ذلك لغسان.

وقد كافأ مروان بن الحكم الغساسنة على موقفهم هذا بأن أبقى على عبيد بن أوس الغساني في كتابة الرسائل (١٦٩)، وأسند وظيفة صاحب الشرطة الى يحيى بن قيس بن حارثة الغساني (١٧٠). وهذان المنصبان من أهم المناصب التي كانت في صدر الاسلام بل أكثرها خطورة وبخاصة في وقت كانت فيه الانقسامات والأخطار محدقة بالدولة من كل جانب.

وبعد وفاة مروان بن الحكم عام ٦٥ هـ، استمر اعتماد عبد الملك على بعض رجالات غسان، فقد أسند منصب صاحب شرطته الى أبي نائل رباح بن عبدة الغساني، و يبدو أنه لم يستمر طويلا، إذ ذكرت المصادر اسناد هذا المنصب الى كل من عبد الله بن زيد الحكمي، وكعب بن حامد العبيسي (١٧١).

وأسند عبد الملك الى أحد رجالات غسان مهمة جليلة وصعبة هي فتح افريقية، واختار لهذه المهمة حسان بن النعمان الغساني، وذكر ابن الأثير أن عبد الملك لما علم بمقتل زهير بن قيس البلوي «عظم عليه وعلى المسلمين وأهمه ذلك، وشغله عن افريقية ما كان بينه وبين ابن الزبير، فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه جهز جيشاً كبيراً، واستعمل عليهم وعلى افريقية حسان بن النعمان الغساني، وسيرهم اليها في هذه السنة (٧٤ هـ) فلم يدخل افريقية قط جيش مثله» (١٧٢).

١٦٦. انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٢٨، السعودي، التنبيه، ص ٢٨٢ - ٢٨٣، الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٢٧، ابن أعم، الفتوح م ٣، ص ١٩٢.

١٦٧. الكلبي، النسب الكبير، ص ٢٩٥.

١٦٨. ابن منظور، المختصر، ج ٦، ص ٣٠٩، ج ٧، ص ٢٧٣.

١٦٩. السعودي، التنبيه، ص ٢٨٥، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٩٧.

١٧٠. ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢٥٩، ابن حبيب البغدادي، المحبر ص ٣٧٣، البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤، ق ١، ص ١٢١ (القدس).

١٧١. انظر: ابن خياط، تاريخ، ج ٢، ص ٣٠٢، ابن حبيب البغدادي، المحبر، ص ٣٧٣، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١٢٩، ابن عساکر، تاريخ دمشق، ج ٣٩، ص ٣٤٦ - ٣٤٧، تراجم حرف العين، ص ٥٧٥.

١٧٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٦٩، وقارن، ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م)، فتوح مصر وأخبارها، مكتبة المثنى، بغداد، نسخة مصورة عن مطبعة ليدن، ١٩٢٠ م، ص ٢٠٠.

و يذكر ابن عذارى أن حساناً خرج الى مصر ومعه أربعون ألفاً، وأمره عبد الملك أن يقيم بمصر عدة لما يحدث (١٧٣). وقد تكون معظم هذا الجيش من القبائل اليمانية بالدرجة الأولى. ولما كانت غسان من أكثر قبائل جند دمشق، ومعها قضاة وكندة وقيس (١٧٤) فلا بد أن تكون مشاركة الغساسنة كبيرة في هذا الجيش، سيما أن قائدة غساني، وكانت العادة في ذلك الوقت أن تخرج القبائل مع قادتها.

ولم يكن اختيار حسان لهذه المهمة أمراً سهلاً، فقد عقد عبد الملك اجتماعاً ضم خاصته والمقربين اليه، وفاتهم في أمر ارسال قائد الى افريقية «كي يسد ثغرها، ويصلح أمرها» فقال لهم عبد الملك: ما أعرف أحداً كفراً لأفريقية كحسان بن النعمان الغساني (١٧٥).

وهذا الاختيار يدل على أن حساناً قد أثبت جدارة عندما أرسله معاوية بن أبي سفيان الى افريقية، الا أن تطور الأحداث في الدولة الأموية أدت الى ايقاف مهمة استمرار الفتوحات، فلما قتل زهير بن قيس، واستتب الأمر لعبد الملك عاد التفكير فيه مرة ثانية كقائد لفتح افريقية. يؤكد ذلك ما قاله المالكي: «وهو أول من دخلها من أهل الشام في زمن بني أمية» (١٧٦).

وقد منح عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان ثقة تامة عندما سيره الى مصر وقال له: اني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فاعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس، واخرج الى بلاد افريقية على بركة الله وعونه (١٧٧). ولا غرابة في ذلك فقد كان حسان يسمى «بالشيخ الأمين» (١٧٨).

ولست هنا في مجال تتبع فتح حسان لافريقية، لكن من الواضح أنه لعب دوراً بارزاً في فتحها واستقرار العرب فيها، وإشراك أهلها البربر في فتوحاتها، وبخاصة بعد القضاء على

١٧٣. ابن عذارى أبو عبد الله المراكشي (ت ٦١٥ هـ / ١٢٩٥ م)، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج. س. كولان، ١. ليفي بروفنسال. دار الثقافة بيروت عن طبعة باريس ١٩٤٨ م، ج ١، ص ٣٤. وانظر:

Marçais, G: La Berb'erie Musulmane et L orient an Moyen-Age Aubier, paris (1946) PP.33-43.

صالح بن قربة، «حسان بن النعمان ودوره في نشر الاسلام بالمغرب»، مجلة الأصاله، ع ٦٤، ١٩٧٨، ص ٦٨.

١٧٤. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٣٢، ١٣٨. الدوري، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام، ص ٢٦.

١٧٥. الرقيق القيرواني، أبو اسحق ابراهيم بن القاسم (ت ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م)، تاريخ افريقية والمغرب، تحقيق المنجي بن الكعبي، تونس ١٩٦٨، ص ٥٤، وسيشار اليه، الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية.

١٧٦. المالكي، عبد الله بن أبي بكر (ت ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م)، رياض النفوس. نشر حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (١٩٥١)، ج ١، ص ٢٦. صالح بن قربة، «حسان بن النعمان»، ص ٦٧.

١٧٧. ابن عذارى، البيان المغرب، ص ٣٤.

١٧٨. ابن عذارى، البيان المغرب، ص ٣٩.

حركة الكاهنة عام ٨١هـ. ويمكن القول إن الفتح الحقيقي للمغرب لم يتم إلا بعد أن خضع سكان أوراس للسياسة الإسلامية واستقرار النفوذ الإسلامي على الساحل بفضل المنجزات التي قام بها حسان بن النعمان (١٧٩).

لقد قام حسان بعد أن استتب له أمر الفتح بأعمال عسكرية وإدارية في إفريقية، ففي المجال العسكري أقام أول قاعدة بحرية إسلامية في المغرب جنوب قرطاجنة، فكان أن أصبحت تونس محرساً بحرياً هاماً (١٨٠). ولم يقف حسان عند هذا الحد، بل كتب إلى عبد الملك ابن مروان كي يرسل إليه أناساً ممن لهم دراية وخبرة في إنشاء دور الصناعة وبناء السفن، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز وهو على مصر أن يوجه إلى تونس ألف قبضي، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس. وكتب عبد الملك بدوره إلى حسان أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر، وأن يجعل على البربر جر الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جارياً عليهم إلى آخر الدهر... فوصل القبط إلى حسان وهو يقيم بتونس فأجرى البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة، وجر البربر الخشب، وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارته (١٨١).

وفي المجال الإداري اهتم حسان بتدوين الدواوين، وصالح على الخراج، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية (١٨٢). كما اهتم بالقيروان وجدد بناء مسجدها، فأصبح أحسن مما كان عليه أيام عقبة بن نافع. ويبدو أن تجديد جامع القيروان وتوسيعه يرجع إلى المعاملة الحسنة التي عامل بها حسان أهل إفريقية، وكثرة من أسلم منهم، ومن استقر من العرب بها بعد الفتوحات (١٨٣).

١٧٩. صالح بن قربة، «حسان بن النعمان»، ص ٩١ - ٩٢. وانظر:

Pellegrin, A: Histoire de La Tunisie, (1944), P. 91
Essai Sur les Noms de lieux d'Algerie et de Tunisie P. 145.

١٨٠. ابن أبي دينار القيرواني، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني (ت ١٠٩٢هـ/١٧٧٨م)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧، ص ٨، ١٠، صالح بن قربة، «حسان بن النعمان»، ص ٨٦ - ٨٧. بوخالفة، نور الهدى، الإسلام والتعريب في الشمال الإفريقي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية ١٩٨٦، ص ١٦٣.

١٨١. البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧/١٠٩٤م)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مطبعة الولاية العامة الجزائر، ١٩٦٥، ص ٣٧ - ٣٨. صالح بن قربة، «حسان بن النعمان»، ص ٨٧ - ٨٨، بوخالفة، الإسلام والتعريب، ص ١٦٢ - ١٦٤.

١٨٢. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية، ص ٦٤. ابن عذاري، البيان المغرب، ص ٣٨.

١٨٣. انظر: المالكي، رياض النفوس، ج ١، ص ٣٧ - ٣٨، بوخالفة، الإسلام والتعريب، ص ١٦٢.

وبتجديد القيروان، وبناء تونس أصبح للمسلمين قاعدتان عسكريتان في افريقية، الاولى البحرية، وهي تونس لمراقبة البحر وحماية القيروان، والثانية الداخلية وهي القيروان.

ويذكر ابن الأثير أن حسان بن النعمان بعد أن قضى على حركة الكاهنة عاد من فوره الى عبد الملك، واستخلف رجلا اسمه أبو صالح (١٨٤). وبعد أن أعاده عبد الملك حصل خلاف بينه وبين عبد العزيز بن مروان والي مصر، إذ يذكر ابن عبد الحكم أنه لما عاد حسان قال لوالي مصر: اكتب الى عبدك بالاعراض عن أنطابلس. فقال له عبد العزيز: ما كنت لأفعل بعد إذ ضيعتها فاستولت عليها الروم. فقال حسان إذا أرجع الى أمير المؤمنين. فقال عبد العزيز: أرجع (١٨٥) فقدم حسان على عبد الملك فأمره بلزوم بيته (١٨٦).

وعندما تسلم الوليد بن عبد الملك الخلافة (٨٦هـ) عهد الى أبي نائل رياح بن عبدة، أن يكون صاحب شرطته، الا أنه عزله وأوكل هذه المهمة الى كعب بن حامد العبسي (١٨٧). وفي عهده أيضاً شارك كثير من الغساسنة ضمن جندي دمشق والأردن في فتح الأندلس، ويستدل على ذلك من استقرار الغساسنة في كثير من مدن الأندلس كغرناطة وقرطبة والمرية وبجاية والبييرة وغيرها (١٨٨).

ولما تسلم سليمان بن عبد الملك الخلافة (٩٦هـ) قرب اليه يحيى الغساني، وولاه على الجزيرة وقضاء الموصل (١٨٩). وقد أثبت يحيى جدارة في هذه المهمة، ويذكر ابن الجوزي أن يحيى جاء الى الموصل فوجدها من أكثر البلاد سرقة ونقبا، فما خرج منها حتى كانت من أصلح البلاد، وأقلها سرقة ونقبا (١٩٠).

١٨٤. ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٧٢.
١٨٥. ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٦٨.
١٨٦. ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٢٦٢، ٢٧٦، وقد اختلفت المصادر في شأن عزل حسان لمزيد من التفاصيل انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٠٠-٢٠٣. ابن عذاري، البيان المغرب، ص ٣٨-٣٩. صالح بن قرابة، «حسابن بن النعمان»، ص ٨٦، وما بعدها.
١٨٧. ابن خياط، تاريخ، ج ١، ص ٣١٧، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ١٣١، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص ١٥٩.
١٨٨. انظر على سبيل المثال: ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ/١١٨٤م)، كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦١، ج ١، ص ٦١، ص ٦٤، ص ٧٢، ص ٩٦، ص ١٤٢، ج ٢، ص ٥٢٤، ٥٨٤، ص ٦٢٢، ص ٦٤٢، ص ٦٦٨.
١٨٩. أبو زرع، تاريخ، ج ١، ص ٢٠٣، ٣٢٩. وانظر: وكيع محمد بن خلف بن حيان (ت ٢٠٦هـ/٩١٨م)، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، (د. ت) ج ١، ص ٢٦٤. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار صادر بيروت، عن طبعة دائرة المعارف، حيدرآباد الدكن، ١٣٢٧هـ، ج ١١، ص ٢٩٩.
١٩٠. ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، بيروت ١٩٨٤، ص ٩٥-٩٦، وانظر السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٨.

واستمر يحيى الغساني في ولايته على الموصل في عهد عمر بن عبد العزيز، وتولى قتال الخوارج بعد أن رفضوا ما وجهه لهم عمر بن عبد العزيز من تحذير يقول فيه: «واني أقسم لكم بالله لو كنتم أبكارى من ولدى فوليتم عما أدعوكم إليه من الحق، لأرقت دماءكم التمس بذلك وجه الله والدار الآخرة، فهذا النصح فان استغششتموني فقديماً ما استغش الناصحون(١٩١). وقام يحيى بمهمته على خير وجه حتى أوقع بهم (١٩٢). وقرب عمر إليه أيضاً رباح بن عبيدة الغساني(١٩٣)، إذ يذكر الأزدي أنه عمل كاتباً لوالي الجزيرة بوادي الموصل(١٩٤).

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) كان يحيى بن يحيى الغساني من المقربين إليه أيضاً، ويذكر أبو زرعة الدمشقي أن هشام بن عبد الملك قال يوماً: من لقضاء الجند؟ قالوا: يزيد بن يزيد بن جابر. قال ليس إليه من سبيل.. قالوا يحيى بن يحيى الغساني، قال ذاك صاحب منبر(١٩٥). وفي رواية أخرى قال: ذاك أرفع من القضاء(١٩٦). وهذا يدل على المنزلة الرفيعة التي وصل إليها يحيى الغساني في عهد هشام حتى أنه أصبح من سادات الشام، فقد سأل هشام أيضاً عن سادات الشام فقيل له: رجاء بن حيوة بفسطين، وعبادة بن نسي بالأردن، يحيى بن يحيى الغساني بدمشق، وعمرو بن قيس الكندي بجمص، وعدي بن عدي الكندي بالجزيرة(١٩٧). وقد كان يحيى من فقهاء الشام وقرائها(١٩٨). ولقي ابنه حظوة لدى هشام أيضاً(١٩٩).

وفي عهد الوليد بن يزيد (١٢٦ - ١٢٧هـ) شارك الغساسنة القبائل اليمانية في التحريض عليه وقتله. فقد جاء حريث وشبيب بن مالك الغساني ومعهما رجالات من كلب ولخم وغيرهما إلى خالد بن يزيد القسري ودعوه إلى الثورة على الوليد بن زيد، فلم يجبهم(٢٠٠).

١٩١. ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٥ - ٩٦.
١٩٢. انظر الأزدي، أبو بكر يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم «ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م» تاريخ الموصل تحقيق علي حبيبة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧، ص ٢، ١٠، ١٠١، وسيشار إليه، الأزدي، تاريخ الموصل، ابن عبد الحكم، أبو محمد عبد الله «ت ٢١٤/ ٨٢٩م هـ» سيرة عمر بن عبد العزيز، نسخها وصحها أحمد عبيد، مكتبة وهبة، القاهرة د. ت. ص ٧٥.
١٩٣. ابن منظور، المختصر، ج ٦، ص ٢٢٩.
١٩٤. الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٥٤.
١٩٥. أبو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ٢٠٢.
١٩٦. وكيع، أخبار القضاة، ج ٢، ص ٢٠٦.
١٩٧. أبو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ٢٤٩، ج ٢، ص ٧١١، وانظر ابن حجر العسقلاني، تهذيب، ج ١١، ص ٣٠٠.
١٩٨. ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٣٢.
١٩٩. ابن حجر العسقلاني، تهذيب، ج ١١، ص ٣٠٠.
٢٠٠. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٨١، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٤٧٣، وانظر عن موقف اليمانية، الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٥٧.

و بعد ذلك جاءت اليمانية إلى يزيد بن الوليد، و بايع له أهل داريا من غوطة دمشق (٢٠١). ومن الجدير بالذكر أن معظم سكان هذه المناطق من غسان و كلب و تتابع الناس عندما توجه يزيد الى دمشق، فجاءت السكاسك، و أقبل أهل داريا و يعقوب بن عمير بن هانئ الغساني، و أقبل عيسى بن شبيب التغلبي و أهل دومة و حرستا، و أقبل حميد بن حبيب اللخمي في أهل ديرمران و الأرزة و سطرة، و هي من قرى دمشق، و أقبل أهل جرش و أهل الحديثة من قرى الغوطة و ديرزكي بالرقعة قرب الفرات (٢٠٢). كما شاركت عبس بقيادة يعقوب بن محمد بن هانئ العبسي بالثورة على الوليد أيضاً (٢٠٣). و أقبل ربعي بن هاشم الحارثي في الجماعة من بني عذرة و سلامان فدخلوا من باب توما، و دخلت جهينة و من و الأهم مع طلحة بن سعيد فقال بعض شعرائهم (٢٠٤):

فجاءتهم أنصارهم حين أصبحوا	سكاسكها أهل البيوت الصنادد
و كلب فجاءهم بخيل و عدة	من البيض و الأبدان ثم السواعد
و جاءتهم شعبان و الأزد شرعاً	و عبس و لخم بين حام و ذائد
و غسان و الحيان قيس و تغلب	و أحجم عنها كل وان و زاهد

ولما توجه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك لقتال الوليد بن يزيد وهو مقيم بالأغدق من عمان (٢٠٥) كان شبيب بن مالك الغساني و معه منصور بن جمهور الكلبي، و يعقوب بن عبد الرحمن السلمي، و الأصعب بن ذؤالة، و حميد بن نصر اللخمي على رأس القوة التي توجهت لقتال الوليد بن يزيد (٢٠٦) و تم لهم ما أرادوا، فأدى قتل الوليد الى اضطراب حبل بني أمية و انقسام قبائل بلاد الشام التي كانت حتى ذلك الوقت تقف متحدة وراء بني أمية و ترسيخ حكمهم. كما أدى مقتله الى تلاحق الثورات في كل مكان، و اعتزت اليمانية بقوتها، و أصبحت تفرض نفسها على الأحداث (٢٠٧).

لقد ثار سليمان بن هشام بعمان، و كان محبوساً بها، فأخذ الأموال و اتجه الى دمشق (٢٠٨)، و خرج العباس بن الوليد بجمص و شايعة أهلها، و بشر بن الوليد بقنسرين، و عمر بن الوليد بالأردن، و يزيد بن سليمان بن عبد الملك بفلسطين (٢٠٩).

٢٠١. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٢٩، الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ٨، ص ٧٣، ٧٥.
٢٠٢. النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٤٧٨ - ٤٧٩.
٢٠٣. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٤١، ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٨٥.
٢٠٤. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٤٢، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٤٧٩.
٢٠٥. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٤٣، ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٨٦، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٤٧٩.
٢٠٦. الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب)، ج ٨، ص ٧٨.
٢٠٧. محمد خريسات، العصبية القبلية و أثرها على مجرى التاريخ الاسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، رسالة دكتوراة، غير منشورة، جامعة الأزهر، ١٩٧٥، ص ٤٧٨.
٢٠٨. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٦٢، ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٩٢.
٢٠٩. يعقوب بن، تاريخ، ج ٢، ص ٣٦، ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٩٢ و ما بعدها.

وعجل موت يزيد بن الوليد في اشتداد الثورات والانقسامات، وتحرك مروان بن محمد نحو الشام، وحاول ابراهيم بن الوليد دعوة أهل دمشق لمحاربتة الا أنهم خذلوه، وخرج وجهاء دمشق للقاء مروان بن محمد، وبعث مروان الى أهل دمشق رسالة يعدهم فيها بتوفير العطاء وتأييد الحقوق وقال: «... وقد أمر لكم بعطائكم وعطاء عيالكم، فخذوا ذلك هنيئاً مريئاً والسلام عليكم فعدهم وعد عيالهم في مسجد دمشق وأمر لهم بالعطاء (٢١٠).

ولكن أهل دمشق عادوا وخلعوا مروان بن محمد (٢١١) و يذكر الأزدي أن السبب وراء ذلك كان ميل مروان الى القيسية، فكان يعزل اليمى ويولي قيساً ويقدمهم في الأعطيات (٢١٢). فثار أهل الغوطة وأكثرهم من كلب وغسان السكاسك وولوا عليهم يزيد بن خالد القسري، وحاصروا دمشق وأميرها زامل بن عمرو، فوجه اليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر ابن زفر بن الحارث وعمرو بن الوضاح في عشرة آلاف فاستباح جيش مروان عسكرهم، وأحرقوا المزة وقرى من قرى اليمانية، وقتلوا يزيد بن خالد القسري (٢١٣). ويدل على اشتراك في الثورة على مروان أن زياد بن أبي ليلى الغساني الذي كان قاضياً بدمشق قد قتل في هذه الأحداث (٢١٤).

ونتيجة لما حل باليمانية من مروان بن محمد أظهر بعضهم تعاطفاً نحو دعاة بني هاشم، ومنهم الغساسنة فعندما ألقى القبض على ابراهيم الامام، وحبس في دمشق، أقام أهله ومواليه بدمشق، فأتاهم أت من دمشق فقال لهم: ان عبدة بن رباح الغساني يقول لكم: اني لست آمن أن يكتب بعض نصحاء مروان جميعاً، وليس لصاحبكم في اقامتكم ها هنا نفع ولعل ذلك يضره، فانصرفوا عنه. فلأن يصاب واحد منكم خير من أن تهلكوا جميعاً، فأرسلوا بذلك الى ابراهيم، فأرسل اليهم قد نصحكم الرجل فانصرفوا (٢١٥). وبعد هزيمة مروان بن محمد في الزاب، حاول مروان العودة الى دمشق، لكن أهلها ثاروا به تحت قيادة الحارث بن عبد الرحمن الحرشي، ثم أتى الأردن فوثب به هاشم بن عمرو القيسي والمذحجيون جميعاً، ثم مرفلسطين فوثب به الحكم بن ضبعان الجذامي لما رأوا إندبار الأمر عنه (٢١٦).

٢١٠. انظر: ابن خياط، تاريخ، ج ٢، ص ٣٩٢. الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٦٢ - ٦٣، ٦٥.

٢١١. ابن خياط، تاريخ، ج ٢، ص ٣٩٣.

٢١٢. الأزدي، تاريخ الموصل، ص ١٢٦.

٢١٣. الطبري، ج ٧، ص ٣٠٣ - ٣١٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٣٢٩، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ٥٢١.

٢١٤. وكيع، أخبار القضاة، ج ٣، ص ٢٠٧.

٢١٥. مجهول، أخبار الدولة العباسية وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري، وعبد الجبار المطليبي،

بيروت، دار الطليعة، ١٩٧١، ص ٤٠٠ - ٤٠١.

٢١٦. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

ولما تقدم العباسيون نحو دمشق سودت اليمانية في دمشق، ووثبوا على من بها من مضر فقتلوهم مقتلة عظيمة، وفتحوا الأبواب، ووثبوا بالوليد بن معاوية فقتلوه ولم يستطع جيشه المكون من خمسين ألف مقاتل من أهل دمشق وسائر كور أهل الشام من المقاومة فهدم العباسيون سور دمشق ودخلوها (٢١٧).

ويظهر أن أهل دمشق قد ندموا على فعلهم، فخرجوا بعد فترة قصيرة على العباسيين بثمانين ألف جندي، وعسكروا لقتال عبد الله بن علي، فلما بلغه ذلك كتب إلى رؤساء اليمن كتاباً يقول فيه: إنكم وإخوتكم ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا، وأنتم دفعتم إلينا مدينة دمشق، وقتلتم الوليد بن معاوية وأنتم منا، وبكم قوام أمرنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر، فانفسح القوم عن حربه. فلما رأت مضر ذلك رحلت عن دمشق بذرايرهم وأموالهم إلى حبيب بن مرة الذي بيض في البلقاء (٢١٨).

ولم يقف دور الغساسنة عند الحياة السياسية العامة والعسكرية فحسب، بل امتد إلى مناحي الحياة الفكرية حيث برز رجالات منهم أشهرهم: -

حجر بن الحارث الغساني (٢١٩)، وأبو مريم الغساني (٢٢٠)، والنعمان بن المنذر الغساني وقد توفي سنة ١٢٢ هـ في أول خلافة بني هاشم (٢٢١). يحيى بن يحيى الغساني، وكان عالماً بالفتاوي والقضاء، وله أحاديث (٢٢٢) حتى وصفه ابن حجر العسقلاني بالمتقن الفصيح البليغ (٢٢٣)، وقد عمل مؤدباً لعبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان (٢٢٤). وأبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني (ت ١٥٦ هـ)، وكان كثير الحديث ضعيفاً (٢٢٥). وعبد الأعلى بن مسهر أبو درامة الغساني، قتل يوم دخل عبد الله بن علي دمشق سنة ١٢٢ هـ (٢٢٦). والنعمان ابن المنذر الغساني، ويقال للخي، كان كثير الحديث، ثقة، إلا أنه رمي بالقدر (٢٢٧). ويحيى ابن الحارث الذماري الغساني، وكان عالماً بالقراءة في دهره، يقرأ عليهم القرآن، وكان قليل

-
٢١٧. الأزدي، تاريخ الموصل، ص ١٢٥.
 ٢١٨. الأزدي، تاريخ الموصل، ص ١٤٤.
 ٢١٩. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ق ٧، ص ١٤٤.
 ٢٢٠. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ق ٢، ص ١٤٩، ابن خياط، طبقات، ص ٢١٣.
 ٢٢١. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ق ٢، ص ١٦٧، ابن خياط، طبقات، ص ٢١٤.
 ٢٢٢. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ق ٧، ص ١٦٩، ابن خياط، طبقات، ص ٢١٤، أبو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ٦٢، ٣٠٣، ٢٥٤، ٢٠٢، ج ٢، ص ٦٩٢، البخاري، تاريخ، ج ٤، ق ٢، ص ٢١٠.
 ٢٢٣. ابن حجر العسقلاني، تهذيب، ج ١١، ص ٣٠٠.
 ٢٢٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢٤، ص ٥٥.
 ٢٢٥. ابن سعد، الطبقات، ج ٧، ق ٧، ص ١٧٠، أبو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ٢٢٣، ابن حجر العسقلاني، تهذيب، ج ١٢، ص ٢٨.
 ٢٢٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٩، ص ٣٧٩ - ٣٨٠.
 ٢٢٧. ابن حجر، تهذيب، ج ١٠، ص ٤٥٧.

الحديث، قال عنه ابن معين: ثقة ليس به بأس وتوفي سنة ١٤٥ هـ (٢٢٨). وعبد بن رباح الغساني (٢٢٩)، وأبو زياد يحيى بن عبيد الغساني (٢٣٠)، وروح بن الهيثم الغساني (٢٣١) ورفدة ابن قضاة الغساني (٢٣٢)، والهيثم بن حميد الغساني، وقد اتهم بالضعف والميل الى القدريّة (٢٣٣).

ومما تقدم يمكن القول: ان الأمويين قد اعتمدوا منذ بداية حكمهم على الغساسنة في ادارة شؤون الدولة لما كان يتمتع به هؤلاء من خبرات ادارية منذ العهد البيزنطي، واستمر خلفاء بني أمية يعتمدون عليهم، فلما مال الخلفاء عنهم مالوا الى غيرهم، وهذا ما عبر عنه مروان بن محمد حيث قال: «والله إنا أقصينا من به عزنا وقدمنا من لم يكن لذلك بأهل» (٢٣٤)، يقصد بذلك تقريب قيس وإبعاد اليمانية.

٢٢٨. انظر: البخاري، تاريخ، ج ٤، ق ٢، ص ٣١٠، ابن معين، يحيى، تاريخ، تحقيق أحمد محمد نور يوسف، مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي، مكة المكرمة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩، ج ٤، ص ٤١٦، أبو زرعة، تاريخ، ج ١، ص ٦٢٨، ٣٢٠، ج ٢، ص ٧١٢.
٢٢٩. أبو زرعة، ج ١، ص ٢٨١.
٢٣٠. أبو زرعة، تاريخ ج ١، ص ٣٨٨.
٢٣١. ابن منظور، المختصر، ج ٨، ص ٢٤٨.
٢٣٢. ابن منظور، المختصر، ج ٨، ص ٣٢٥.
٢٣٣. ابن حجر العسقلاني، تهذيب، ج ١١، ص ٩٢.
٢٣٤. الأزدي، تاريخ الموصل ص ١٣٧.

الصقالبة ببلاد الشام في زمن الامويين مع القاء
نظرة على الدراسات الاسلامية عن الدولة الاموية
صلاح الدين عثمان هاشم

١ - من هم الصقالبة؟

الهدف من بحثنا هذا هو أن نثبت أن العرب كانوا على معرفة جيدة بالصقالبة في العهد الأموي، وأن جماعات من الصقالبة استقروا ببلاد الشام آنذاك ثم لم يلبثوا أن اندمجوا في بقية السكان. هؤلاء الصقالبة الذين قدموا إلى بلاد الشام من أراضي الدولة البيزنطية هم أجداد الشعوب السلافية التي تقطن حالياً بأوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى وشبه جزيرة البلقان، مثل الروس والأوكرانيين والروس البيض (وهم الصقالبة الشرقيون)، ومثل البولنديين والسلافك والتشيك (وهم الصقالبة الغربيون)، ومثل الصرب والكروات والسلوفين والبلغار والمقدونيين (وهم الصقالبة الجنوبيون). على أن الصقالبة أجمع ينتمون إلى مجموعة الشعوب الهندية الأوروبية التي استقرت بالقارة الأوروبية منذ أقدم العصور، شأنهم شأن الكلت والجرمان واليونان واللاتين الخ^(١).

وتطلق عليهم المصادر العربية اسم الصقالبة، والصقلب والصقلاب، وواحدتها صقلبي. ولا شك أن العرب أخذوا التسمية من البيزنطيين الذين عرفهم باسم اسكلابوى $\xi\chi\lambda\alpha\beta\sigma\iota$ واسكلابينوى $\xi\chi\lambda\alpha\beta\eta\upsilon\alpha$. كذلك أخذت التسمية أيضاً الشعوب الأوروبية الأخرى فعرفتهم باسم السلاف «Slaves». ونظراً لأن شطراً كبيراً منهم جرى استرقاقه بالتالي على يد البيزنطيين وغيرهم فقد أصبح الاسم يعني العبد الرقيق، وهو بالانجليزية «Slave» وبالفرنسية «esclave». وفي العصر العباسي كان لفظ «الخادم» يعني الصقلبي بصورة خاصة، لأن عدداً كبيراً منهم جلب كعبيد إلى حواضر العالم الاسلامي، فاشتغلوا خدماً وحرساً بمنازل الأعيان وجنوداً مرتزقة بجيوش الدولة، بل تشكلت منهم إلى حد كبير طبقة الخصيان بقصور الخلفاء والأمراء.

(١) لا تزال أفضل دراسة عن الصقالبة في مجموعهم كتاب F. Dornik, the Slavs: Their early history and Civilization 1956.

وعن الصقالبة القدماء بصورة خاصة راجع: G. Vernadsky, The Origins of Russia, 1959. والمقال الذي ظهر تحت لفظ «الصقالبة» بالمعجم التاريخي السوفييتي.

موطن القبائل الصقلبية في القديم منطقة السهوب والغابات الواقعة إلى الشمال الغربي من البحر الأسود، وذلك بضفاف الأنهار التي تصب فيه مثل الدون والدينير والدينسير، ومن هناك شمالاً على سفوح جبال الكربات وحوض الفستولا إلى سواحل بحر البلطيق.

والسبب الأساسي لانتشارهم من هذه المنطقة في منتصف الالف الاول للميلاد هو هجرة القبائل الجرمانية الكبرى إلى اراضي الدولة الرومانية حينما اقتحموا حدودها الغربية وكونوا مملكات لهم باراضيها، فافسح هذا المجال للقبائل الصقلبية لتنتشر شرقاً في السهول الروسية وغرباً إلى اواسط اوربا وجنوباً لتشغل شبه جزيرة البلقان. وفيما بعد فصلت هجرة المجر «(الهنغارين) والجرمان الصقالبة الجنوبيين عن اخوتهم الصقالبة الشرقيين والغربيين، كما وان تعرض الروس لاثر الحضارة البيزنطية واعتناقهم للمسيحية الشرقية (الارثوذكسية) فصلهم عن الصقالبة الغربيين الذين اعتنقوا المسيحية اللاتينية (الكاثوليكية). وقلة معرفة المؤلفين الاوائل من اليونان والرومان بالصقالبة ترجع إلى أنه قد فصلهم عنهم شعوب أخرى، مثل الاشكوزيين «Scythians» والسرماطين «Sarmatians» في الشرق، ومثل الكلت والجرمان في الغرب.

وأقدم مجموعة من الصقالبة يرد الكلام عنها في المصادر التاريخية هم الفنديون «Venedi» الذين نزلوا إلى الشرق من الجرمان ببولنדה الحالية. وقد جاء ذكرهم في القرن الأول الميلادي لدى بلييني الاكبر وتاسيتوس وفي القرن الثاني لدى الجغرافي بطليموس. أما الآنتى «Antae» الذين عاشوا بالمناطق الواقعة إلى الشمال من البحر الاسود فيرد ذكرهم لأول مرة في نقش عثر عليه بكيرش عند بحر آزوف (آزاق) يرتفع إلى القرن الثالث الميلادي. وابتداء من القرن السادس حمل الصقالبة الذين اغاروا على شبه جزيرة البلقان اسم الاسكوفينيين «Sclaveni» وهو الاسم الذي نلتقي به لدى المؤرخين البيزنطيين ابتداء من بروقوبيوس معاصر يوسطنيان، ثم لدى التالين له مثل ميناندر واغاثياس وثيوفيلاقط وغيرهم. وهو الاسم الذي غلب بالتالي على هذه الشعوب.

وكان الصقالبة الاول شعباً مسالماً يعمل بالزراعة وتربية الماشية، إلى أن اضطرتهم الشعوب الرعوية وشبه الرعوية القادمة من جوف آسيا إلى الانخراط في صفوفهم والتحرك معهم صوب حدود الدولة البيزنطية على نهر الدانوب. غير انه بالنسبة لتزايد عدد الصقالبة وميلهم إلى الاستقرار فان غاراتهم على اراضي الدولة البيزنطية بالبلقان

واستيطانهم بها هو الذي ترك أكبر الأثر على مصير شبه الجزيرة الذي نبصره اليوم، حيث غلب العنصر السلافي على سكانها القدماء^(٢).

٢ - الصقالبة بالبلقان:

ظهر الصقالبة بأراضي الدولة البيزنطية في البلقان منذ بداية القرن السادس، ولكنهم وجدوا قبل ذلك بأعداد كبيرة بالمجرى الأسفل للدانوب. وعلى طوال القرن السادس اجتاز الصقالبة مراراً نهر الدانوب الذي كان يمثل الحدود الشمالية للدولة البيزنطية لقرون عديدة فقاموا بغارات متوالية على شبه جزيرة البلقان، ولكنهم كانوا يعودون إلى مواطن سكناهم وراء النهر. ولم يستقر الصقالبة بصورة نهائية بشبه الجزيرة إلا ابتداء من القرن السابع، مما ساق بالتالي إلى صقلية البلقان واختفاء العنصر اللاتيني منها. وفي مقابل ذلك اعتنق معظم صقالبة البلقان المسيحية الشرقية (الارثوذكسية) بطقوسها البيزنطية، ودونوا لغاتهم بالأبجدية اليونانية، مع إضافة أحرف جديدة للأصوات التي لا تعرفها اليونانية.

ويتفق معظم علماء البيزنطيات (فاسيلييف واستروجورسكي ولومرل) على أن المسؤولية الكبرى لنجاح الصقالبة في اجتياح شبه جزيرة البلقان إنما تقع على عاتق الإمبراطور يوسطنيان الأول أو الأكبر «Justinian I» (٥٢٧ - ٥٦٥)، الذي كان بمقدوره تركيز جهد الدولة في مقاومة الصقالبة، ومنعهم من اجتياح شبه الجزيرة. غير أن يوسطنيان كانت تراوده أحلام كبرى ترمي إلى إحياء الامبراطورية الرومانية القديمة، واستعادة أراضيها الغربية التي استولى عليها الجرمان. ذلك أن فكرة استمرار وحدة الامبراطورية كانت لا تزال قائمة بالشرق. وكان الإمبراطور لا يزال يعد راس العالم الروماني «orbis romanus» ورأس العالم النصراني «oikoumene» على حد قول استروجورسكي «G. Ostrogorsky»، وأن الأراضي التي كانت جزءاً من الامبراطورية ستبقى في يدها إلى الأبد حتى وإن وجدت تحت السيطرة الفعلية للملوك الجرمان^(٣) لذا فقد رأى يوسطنيان أن من واجبه أن يعمل لاستعادة وحدة الامبراطورية بتحرير الأراضي الرومانية من سيطرة الغزاة البرابرة، وقمع الهراقة من اتباع الأريوسية.

(٢) راجع بحث بيغوليفسكا N.V. Piguleevskia «بيزنطة والصقالبة» الذي ظهر ضمن مقالاتها التي طبعت بعد وفاتها تحت عنوان «الشرق الأدنى - بيزنطة - الصقالبة»، 1976، Blijny Yostok, Vizantia - slaviane الصفحات ١٢٦-١٤٨.

(٣) راجع الترجمة الانجليزية لكتاب استروجورسكي «تاريخ الدولة البيزنطية» G. Ostrogorsky, History of the Byzantine

اعتلى يوستنطيان العرش عام ٥٢٧، ولكنه كان في واقع الأمر يدير شؤون الدولة في الأعوام الأخيرة، من حكم خاله يوستنطيان الأول (٥١١-٥٢٧). وكان يوستنطيان من أكثر أهل عصره ثقافة ومعرفة، وانعكس كل هذا في اطماعه السياسية العريضة ومنجزاته الشخصية. فقد نظم جيشاً كبيراً وضع على راسه قادة مهرة مثل بليزارئوس «Belisarius» وأرسل به لاستعادة أراضي الامبراطورية القديمة بالشمال الافريقي من الوندال وبإيطاليا من القوط الشرقيين وبايبيريا من القوط الغربيين، فأصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية «mare nostrum» من جديد. وبخلاف هذا تمكن يوستنطيان من اصلاح ادارة الدولة وتجميع القوانين الرومانية، ونشطت التجارة في فترة حكمه فبلغت اقطاراً بعيدة مثل الحبشة والهند بطريق البحر واواسط آسيا والصين بطريق البر، كذلك عرفت الفنون والآداب انتعاشاً غير معهود خلال فترة حكمه.

ورغم أن هذا فقد ارتكب بوسطنطيان خطأين فادحين تركا اكبر الاثر على مصير الدولة البيزنطية بالتالي. ذلك انه خلال مغامراته بالغرب اهمل الدفاع عن حدود الدولة بالشرق من ناحية، كما اهمل تدعيم حدودها بالبلقان من ناحية اخرى. وبذلك اعطى الفرصة للفرس لهزم قواته وتخريب ولايات الدولة بالشرق الادنى، كما اعطى الفرصة للصقالبة لاجتياح أراضي الدولة بالبلقان.

وقد بدأ الصقالبة غاراتهم على شبه الجزيرة حتى من قبل ان يعتلي يوستنطيان العرش، وذلك في عهد سلفيه انسطاس الاول «Anastadius I» (٤٩١-٥١٨) ويستنطيان الاول (٥١٨-٥٢٧)، كما بين فاسيليف «A.A. Vasiliev» في دراسته عن يوستنطيان^(٤). ومنذ سني يوستنطيان الاولى شرع الصقالبة يغيرون بصورة متواصلة على البلقان، وذلك في حلف مع البلغار. ولم يكن بوسع الامبراطور ان يضع حداً لغاراتهم لانشغال قواته بالغرب وفي القتال مع الفرس. لذا فقد اكتفى يوستنطيان بتشييد التحصينات بالبلقان حول العاصمة القسطنطينية، وان لم يوجد لديه الجند لشغلها، فاجتاح الصقالبة كل البلقان حتى بلغوا سواحل الادرياتيک وساحل بحر ايجيه وخليج كورنث في نهاية القرن السادس^(٥). غير ان جميع هذه كانت غارات للسلب والنهب. اجتاح فيها الصقالبة وحلفاؤهم الريف والقرى وعادوا محملين بالغنائم إلى مستقرهم وراء الدانوب.

(٤) عن نشاط الصقالبة. عهد يوستنطيان الاول راجع كتاب فاسيليف: A.A. Vasilier. Justin I. An Introduction to The Epoch of Justinian the Great, 1950 (pp. 302-312)

(٥) عن غزو الصقالبة للبلقان راجع مقال بول لومرل P. Lemerle «الغزوات والهجرات التي حدثت بالبلقان منذ نهاية العهد الروماني إلى القرن الثامن الميلادي».

Invasions et Migrations dans les Balkans depuis la fin de l'époque romaine Jusqu'au VIII siècle, revue historique, t CCXI, 1951

وفي فترة الخمسين عاماً التي انقضت بين وفاة يوسطنيان واستقامة الامور لهرقل بالقسطنطينية، دخل خلفاء يوسطنيان الاربعة وهم يوسطين الثاني «Justin II» (٥٦٥-٥٧٨) وطيبيريوس الثاني «Tiberius II» (٥٧٨-٥٨٢) وموريقي «Mauricius» (٥٨٢-٦٠٢) وفوقاس «Phocas» (٦٠٢-٦١٠) في كفاح مرير ضد الفرس من جهة والصقالبة من جهة اخرى للحفاظ على كيان الامبراطورية. وكان الصقالبة آنذاك قد شرعوا في الاستقرار بشبه جزيرة البلقان، وذلك في مناطق معينة عرفها المؤرخون البيزنطيون باسم الاسكلافينيات «Sclavinias» .

وعاون الصقالبة في هذه المرة شعب من أصل تركي هم الآفار، الذين كانوا عكس الصقالبة، إذ كانت تهمهم الغنائم فقط، فلم يعبأوا بالاستقرار في شبه الجزيرة، وابتعدوا منها بالتالي. وكان من أثر هذه الغارات الأخيرة أن بلغ الصقالبة والآفار أسوار القسطنطينية نفسها، وحاصروا سالونيك مرتين. بل اقتحموا برزخ كورنث فدخلوا البيلوبونيز ثم ركب الصقالبة البحر فأغاروا على جزر بحر ايجة.

والسر في غلبة العنصر الصقلبي بالبلقان عقب ذلك هو أنهم كانوا أكثر عدداً من حلفائهم من العنصر التركي كالهون والآفار والبلغار، فضلاً عن أنهم كانوا أميل إلى الاستقرار؛ لأنهم مزارعون في الأصل لا رعاة كحلفائهم. أخيراً لقبولهم الأثر الطيب للحضارة البيزنطية وانخراطهم كجند في جيوشها.

وعلى زمن هرقل وآل بيته (٦١٠-٧١٧) استفحل الخطر من جانب الصقالبة والبلغار وعلى الرغم من انشغال هرقل «Heraclius» (٦١٠-٦٤١) بالكفاح مع الفرس، فقد استطاع أن يهزم محاولة للصقالبة والبلغار للاستيلاء على القسطنطينية عام ٦٢٦. كذلك اضطلع ابنه وخلفه قسطنس الثاني «Constans II» (٦٤١-٦٦٨) بحملة عام ٦٥٨ على الصقالبة بتراقيا، أسر فيها عدداً كبيراً منهم نقله إلى آسيا الصغرى. كما قاد يوسطنيان الثاني «Justinian II» (٦٨٥-٧١١) بضع حملات ضدهم، بلغ معها مدينة سالونيك وأسّر أعداداً كبيرة من الصقالبة نقلهم إلى آسيا الصغرى، وجنّدهم في جيشه. وبهذه الطريقة، كما سنرى، وجدت اعداد غفيرة من الصقالبة طريقها إلى آسيا الصغرى وانخرطت جنوداً في الجيش البيزنطي.

على أي حال فإن شبه جزيرة البلقان وقعت بأجمعها، باستثناء البانيا واليونان، في قبضة الصقالبة الذين لم يلبثوا أن قضوا على العنصر المتحدث باللاتينية مثل الليريين والتراقيين الذين انقضوا أو اضطروا إلى مغادرة البلاد أو ربما التجأوا إلى المناطق الجبلية حيث عاشوا قروناً طويلة لم يحس بهم أحد، كالألبانيين مثلاً.

ولقد أثارَت مسألة استيطان الصقالبة ببلاد البلقان عواطف متضاربة لدى المؤرخين المحدثين. فأولئك الذين ينتمون إلى شعوب سلافية جهدوا في التدليل على أن الصقالبة نزلوا بشبه جزيرة البلقان منذ عصور ضاربة في القدم، وأن سكانها الحاليين ينحدرون جميعهم دون استثناء من أولئك الصقالبة. وفي القرن التاسع عشر انبعثت بكثير من الحدة مسألة أصل الشعب اليوناني الحالي، وهل ينحدر من صلب الهلنيين «Hellenes» السكان الأصليين لبلاد اليونان أم من صلب أولئك الصقالبة الذي اجتاحوا تساليا والبيلوبونيز في القرنين السادس والسابع ثم «تهلينوا» بالتالي أي أصبحوا يونانيين.

غير أن هذه المسائل لا تمس في قليل أو كثير موضوع بحثنا الذي يعالج فترة قصيرة من تاريخ الصقالبة بالشرق الأدنى على عهد الدولة الأموية ويتعرض لفحص الشواهد التاريخية التي تثبت ذلك.

٣ - الصقالبة بآسيا الصغرى:

إن تهجير الدولة البيزنطية للعناصر المشاكسة من رعاياها من موضع إلى موضع آخر بالامبراطورية بعيداً عن موطن سكانها الأول، إنما يرجع إلى تقليد قديم ورثته بيزنطة من رومة وسارت على منواله إلى آخر أيام حياتها. ونعلم من بروقوبيوس القيساري «Pro-copius of Caesrea» مؤرخ عهد يوسطنيان الكبير أن ذلك الامبراطور أنزل مجموعة من الوندال بآسيا الصغرى، كما أنزل مجموعة من القوط بولاية بثينيا «Bithynia» بشمال غربي الأناضول، وأنه نقل الأرمن إلى مواضع مختلفة من الامبراطورية. وحذا خلفاؤه حذوه فقد نقل الامبراطور طيبيريوس الثاني عشرة آلاف من الأرمن إلى جزيرة قبرص، وكان موريقي يعترم نقل ثلاثين ألفاً منهم إلى تراقيا لولا مقتله.

وتؤكد المصادر البيزنطية نقل جماعات كبيرة من الصقالبة من البلقان إلى آسيا الصغرى خلال القرنين السابع والثامن^(٦). ويرى علماء البيزنطيات أن هذا أسهم كثيراً

(٦) ما زالت بحوث عالم البيزنطيات الأمريكي خرانيس P.Charanis (وهو من أصل يوناني) خير ما دون حول وجود الصقالبة بآسيا الصغرى راجع:

1- The Transfer of Population as a Policy in the Byzantine Empire, 1961.

2- Studies in the Demography of the Byzantine Empire, 1962.

3- The Slavic Element in Byzantine Asia Minor in the Thirteenth Century, 1948.

في تغيير التركيب العرقي لسكانها. ومن الممكن إجمال الأسباب التي أدت إلى تهجير الصقالبة إلى آسيا الصغرى بما يلي:

- ١ - التخفيف من ضغطهم على منطقتي مقدونيا وتراقيا القريبتين من العاصمة القسطنطينية.
- ٢ - الاستعانة بهم في تعمير المناطق التي خربت أو هجرها سكانها.
- ٣ - تجنيدهم في جيوش الدولة للقتال ضد أعدائها بالشرق.
- ٤ - استرقاقهم ليعملوا بالخدمة في المنازل والمزارع، أو حتى بيعهم في أسواق الرقيق الخارجية.

ومعلوم لنا أن الجيش البيزنطي الضخم على عهد يوسطنيان، بل على عهد من سبقوه ومن خلفوه، لم يقتصر البتة على سكان آسيا الصغرى، بل دخلت فيه عناصر شرقية من الأرمن والعرب (أو كما تدعوهم المصادر الإسلامية «المستعربة») وعناصر غربية من الجرمان كمثّل الجبيدي والهيرولي والوندال واللفنغوبارديين. وفيما بعد شرع البيزنطيون في تجنيد الصقالبة بأعداد كبيرة واستعملوهم في قتالهم ضد المسلمين العرب في القرنين السابع والثامن.

وأول مجموعة من الصقالبة يرد الكلام حول اسكانها بآسيا الصغرى، كان ذلك على عهد الامبراطور قسطنس الثاني (٦٤٠ - ٦٦٧) الذي قاد كما هو معلوم حملة ضد الصقالبة بتراقيا وأسر عدداً منهم نقله إلى آسيا الصغرى وأنزلهم بمقاطعة بثينيا «Bithynia». وقد عثر بتلك المنطقة على ختم من الرصاص يرجع إلى عام ٦٥٠ يؤكد ذلك. ويقول الحولي البيزنطي ثيوفان «Theophanes» إن خمسة آلاف من هؤلاء الصقالبة انضموا إلى المسلمين عند حملة لهؤلاء على آسيا الصغرى عام ٦٦٥، فأسكنهم المسلمون بالشام.

وأهم من ذلك مجموعة الصقالبة التي أنزلها في بثينيا أيضاً الامبراطور يوسطنيان الثاني (٦٨٥-٧١١) عقب حملته الموفقة على الصقالبة بمقدونيا. ويتراوح عددهم في رأي الباحثين بين عشرات ومئات الألوف. ومن المؤكد أن عددهم كان بالقدر الذي سمح للامبراطور أن يجند جيشاً بلغ تعداده الثلاثين ألفاً حسب قول ثيوفان. وفي حربه مع المسلمين عام ٦٩٢، انحاز منهم عشرون ألفاً إلى جيش المسلمين، مما تسبب في هزيمة البيزنطيين، وحنق الامبراطور الذي ذبح العشرة آلاف الباقيين بنسائهم وأطفالهم. هذه الفعلة الشنيعة لم يسجلها من المؤرخين البيزنطيين غير ثيوفان، فالبطريك نقفور لا يذكر

شياً بصددها في تاريخه، وإن كان يفهم من روايته أن الصقالبة برمتهم انضموا إلى العرب آنذاك^(٧).

وعلى عهد الامبراطور قسطنطين الخامس «Constantine V» (٧٤١-٧٥٧) تم تهجير مجموعة كبرى من الصقالبة بلغ تعدادها في قول نقفور ٢٠٨ آلاف نزلوا قريباً من البوسفور.

من هذا يتضح لنا أن الصقالبة قدموا الى آسيا الصغرى منذ منتصف القرن السابع، في البداية بأعداد لا تتجاوز عشرات الآلاف، ثم خلال قرن من ذلك قدموا بأعداد تجاوزت مئات الألوف. ومثل هذه الأعداد الأخيرة تعد كبيرة بالنسبة لتلك العصور، وبخاصة مع تجنيد كل من يصلح منها للقتال في قوات الامبراطورية.

لهذا كله علينا أن نفترض أن القوات البيزنطية بالشرق الأدنى، وذلك بولاية الشام البيزنطية، وعلى حدود الدولة مع الفرس والعرب، كانت تضم عدداً لا بأس به من الجند الصقالبة ممن التقى بهم العرب قبل بداية الفتوح الاسلامية بقليل ثم بصورة مؤكدة اثناء المعارك العديدة، من أجل تقرير مصير الشام وخلال الكفاح المرير داخل أراضي الدولة البيزنطية نفسها.

٤ - الصقالبة ببلاد الشام:

يرى المستعرب البولندي الكبير تادويش ليفيتسكي «T. Lewicki»^(٨) ان معرفة العرب بالصقالبة في الشام تعود إلى ما قبل عهد النبي ﷺ. ولعل المستعرب الكبير إنما يريد الإشارة إلى العلاقات بين البيزنطيين والقبائل العربية التي وجدت طريقها إلى مشارف الشام في القرون الثلاثة السابقة للاسلام. ولعله من الأفضل في هذا الصدد مراجعة كتاب المستشرقة السوفييتية بيغوليفسكيا «N.V. Piguleevskia» الذي يعالج

P. Charanis, «The Slavic Element in Byzantine Asia Minor.» BYZANTION, T. XVIII, 1948, p.47. (٧)

(٨) راجع مقاله الأساسي:

Tadeusz Lewicki, Osadnictwo Słowiańskie i niwolnicy słowiańscy w krajach muzułmańskich według średniowiecznych pisarzy arabskich, przegląd Historyczny, t. XLIII, 1952.

ومقاله الموجز بالفرنسية:

la colonisation slave en pays musulmans à la lueur de ce que nous ont transmis les auteurs medieviaux byzantins et arabes. Centre Culluel Arabe de Geneve, 1969.

علاقة العرب بالبيزنطيين والفرس من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي؛ لأنه يلقي ضوءاً ساطعاً على ذلك الموضوع (الترجمة العربية، الكويت ١٩٨٥)^(٩).

وكانت مجموعة من القبائل العربية قد نزلت منذ تلك الآونة بمشارف الشام فرأى الأباطرة الاستعانة بهم لصد غارات أبناء جلدتهم من بدو الصحراء وللمشاركة في حروبهم ضد الفرس. وكان أن برز من بين هذه القبائل إمارة الغساسنة. وقد توثقت العلاقة بين البيزنطيين والغساسنة، فاعتنق عدد من هؤلاء الأخيرين النصرانية الشرقية (في اهابها المونوفيزي)، بل وتحدث بعضهم باليونانية وزاروا العاصمة القسطنطينية. وهذا يدعو إلى الافتراض بأن أمراء الغساسنة لا بد أن التقوا ببعض الصقالبة كمقاتلة في الجيوش البيزنطية أو كحرس وخدم بقصور الأباطرة. على أن هذا الرأي لا يخرج عن كونه مجرد فرض يحتاج إلى إثبات. وعلينا أن ننتظر العثور بقرميص أو نقش كتابي يؤكد ذلك بصورة قاطعة.

ونفس القول يصدق على زيارة الشاعر الطريد امرئ القيس الكندي لبلاد الدولة البيزنطية عندما قدم إليها يطلب عون الامبراطور يوستينيان لاستعادة عرش آبائه ملوك كندة، وذلك بعد أن خاب أمله في عون الدويلات العربية مثل الغساسنة وحمير. وينعكس هذا في قوله:

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ولكنّه عمداً إلى الروم انفرّوه

وفي قوله:

إنني ساملكم بالروم إذ كرهت غسان نصري وكان الملك أسبابا
أو ترجعون كما كنتم لنا خولا حتى تدينوا لنا طوعاً وأتعبا

ويزعم أهل الأخبار أن امرأ القيس هلك في الطريق بأنقرة في عودته من بلاد الإمبراطور، وذلك بفعل حلة مسمومة أهداها إليه الامبراطور لأنه شَبَّ باحدى أميرات البيت المالك. وعلى الرغم من انه يرد في شعره وصف لرحلته ببلاد الدولة البيزنطية، إلا أنه يخلو من أي ذكر للصقالبة.

أما فيما يتعلق بعرب الحجاز فمن المعلوم أنه كان لتجار قريش تجارة نشيطة مع الشام قبل الاسلام، وبخاصة بنو هاشم وبنو عبد شمس. ويرد في سيرة النبي ﷺ أنه

(٩) نينا فتور فنايغوليفسكيا، «العرب على حدود بيزنطة وایران من القرن الرابع إلى القرن السادس»، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم وأشرف على طبعه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت - الكويت ١٩٨٥.

زار الشام مراراً في صباه وشبابه بغرض التجارة، وقصته مع رهبان بصرى (أو بصطرى) عاصمة ولاية عرابيا «Arabia» البيزنطية اقرب ولايات الدولة إلى صحراء العرب معروفة لنا، وكانت بصرى ملتقى الطرق القادمة من الجنوب والشرق والشمال، وابتنى بها البيزنطيون قلعة حصينة ووجدت بها حامية ذات بال. لذا لا يستبعد ان وجد بين جنود هذه الحامية بعض الصقالبة.

وفيما يتعلق ببني عبد شمس يحكي لنا البلاذري في فتوحه أنه كان لأبي سفيان ابن حرب سيد قريش قبل النبي ﷺ ضيعة بالبلقاء^(١٠) (في الانحاء الشمالية من الأردن الحالية) ليس بعيداً من دمشق. وفيما بعد نجد ولديه يزيد ومعاوية يشاركان مشاركة فعالة في فتح الشام، لمعرفة الجيدة بتلك البلاد منذ صباهما واصطحابهما لأبيهما في أعماله التجارية. فلعلهما أبصرا هناك بعض الصقالبة كجند وكخدم للمسؤولين والأعيان من البيزنطيين.

أما الأمر المؤكد فهو أن العرب المسلمين التقوا بالصقالبة كجند في القوات البيزنطية التي واجهتهم عند فتح فلسطين وسورية. ولقد بدأ القتال بين العرب المسلمين والروم منذ الأيام الأخيرة من حياة النبي ﷺ، وكان المسلمون يتهيأون لغزو الروم عندما توفي النبي عام ٦٣٢. غير أن الغزو تأخر عامين هما خلافة أبي بكر التي انشغل فيها المسلمون بحروب الردة، وما كادت تنتهي حروب الردة وتتحذ كلمة العرب تحت راية الاسلام حتى انفجروا كسيل جارف على ولايتي فلسطين وسورية البيزنطيتين، فهزموا جيوش هرقل بأجنادين ثم باليرموك (٦٣٤) واحتلوا سريعاً مدن الشام وانسحب البيزنطيون إلى آسيا الصغرى.

ومما لا شك فيه أن عدداً كبيراً من جند العدو وحاميات المدن وقع في أسر العرب، وأنه وجدت بينهم أعداد كبيرة من الصقالبة. ويذكر البلاذري في فتوحه أنه لما فتح معاوية قيسارية فلسطين وجد بها من المرتزقة سبعمئة ألف، وإن كان الواقدي يحدّد سبي قيسارية بأربعة آلاف^(١١). ومن الجلي أن عدداً كبيراً من ذلك السبي ومن سبي المدن الأخرى كان من الصقالبة.

(١٠) البلاذري، فتوح البلدان؛ الطبعة الأوروبية ص ١٢٩ ونصه كالآتي: «وجدتني عدة من أهل العلم منهم جار لهشام ابن عمار أنه كانت لأبي سفيان بن حرب أيام تجارته إلى الشام في الجاهلية ضيعة بالبلقاء تدعى بقبش فصارت لمعاوية وولده».

(١١) انظر فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٤١-١٤٢.

ولعل تعيين عمر معاوية والياً على الشام لم يكن لثقته في شخصيته القيادية بقدر ثقته في معرفته الجيدة ببلاد الشام وأحوالها قبل الفتوح. وتشير أقوال مؤرخي الاسلام إلى أن معاوية أثناء ولايته الطويلة على الشام أيام خلافة عمر وعثمان، قد تأسى خطى البيزنطيين في ادارة البلاد. ويقول الطبري إن كاتب معاوية وصاحب أمره كان سرجون ابن منصور الرومي. ثم يضيف إن معاوية هو أول من اتخذ الحرس وأنه كان على رأس حرسه رجل من الموالي يقال له المختار^(١٢).

وإنني أميل إلى الاعتقاد بأن حرس معاوية وخدمه كان من سبي الصقالبة، ولعل رئيس حرسه كان واحداً منهم. وثمة رواية تاريخية تؤكد استعمال معاوية للصقالبة. فالمسعودي عند كلامه عن الأزمة التي استعرت بين الخليفة عثمان وأبي ذر الغفاري وما كان من إبعاده إياه إلى الشام في البداية، يقول: إن معاوية شكاً إليه من أن أبا ذر «تجتمع إليه الجموع ولا آمن من أن يفسدهم عليك، فأن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك. فكتب إليه عثمان بحمله، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة يطردون به، حتى ابواب المدينة، وقد تسلخت بواطن أفخاذهم وكاد يتلف»^(١٣). وفيما بعد نفاه عثمان إلى الربذة وبها مات.

غير أن رواية الطبري لما حدث بين عثمان وأبي ذر لا ذكر فيها لصقالبة ما، وهذا يدفع إلى التشكك في صحة رواية المسعودي. غير أنه يجب القول: إن كثيراً من روايات المسعودي التي لم ترد لدى الطبري أو ابن الأثير قد ثبتت صحتها فيما بعد. على أية حال فإن واقعة استعمال معاوية للصقالبة كحرس وخدم تتمتع بالكثير من الاحتمال.

وثمة رواية أخرى تتعلق بمعاوية وبأيام خلافته. فالبلادري^(١٤)، يحكى أنه كانت لعبدالله بن الزبير أرض إلى جانب أرض معاوية فاقتتل غلمان معاوية وغلمان ابن الزبير، فكتب ابن الزبير إلى معاوية بن أبي سفيان: «أما بعد فقد غلبتنا بحمرانك وسودانك» يعيب بذلك على الأمويين التجاءهم إلى استعمال المرتزقة الأجانب ضد العرب الأقحاح. وقوله «سودانك» إنما يشير إلى استعانة بني أمية بالمرتزقة من الأحباش الذين وجدوا آنذاك بالحجاز. ومن المعلوم أن رماة الرماح من الحبش الذين استجاشهم أبو سفيان لعبوا دوراً رئيسياً في هزيمة المسلمين بأحد. ومن الجلي أن النبي ﷺ لم ينس هذا، ففرق

(١٢) الطبري الطبعة الأوروبية، ٣٠٥/٢.

(١٣) مروج الذهب، الطبعة الأوروبية، الجزء الرابع، ص ٢٦٩.

(١٤) البلادري، أنساب الأشراف، الجزء الرابع (١)، طبعة القدس، (١٩٧١) ص ٤٢.

جماعات الأحباش بعد استيلائه على مكة. وثمة أحاديث صحاح وردت في مثالبهم، مثال ذلك «أتركوا الحبش ما تركوكم»، و«لا خير في الحبش إن جاعوا سرقوا، وإن شبعوا زنوا» فلما آل الأمر إلى بني أمية من جديد استعملوا الحبش بأرض الحجاز، كما استعملوهم في الماضي. هذا في رأيي ما عناه ابن الزبير «بسودانك».

أما إشارته إلى «حمرانك» فليس لدي أدنى شك في أنه يقصد بها عبدة معاوية من الصقالبة الذين سباهم بالشام أو اشتراهم كرقيق، فقاموا بالخدمة في ضياعه وفي حراسة أملاكه.

وبطبيعة الحال فليس هنا مجال تفصيل القول عن الحروب الدامية بين الأمويين والبيزنطيين التي امتدت ما يقرب من قرن من الزمان^(١٥)، ولم تخف حدتها إلا في فترة الفتنة الأولى التي امتدت من مقتل عثمان إلى مقتل علي (٦٥٦-٦٦٠) حين آلت الأمور إلى معاوية في عام ٤١هـ / ٦٦١ المعروف «بعام الجماعة». ثم في فترة الفتنة الثانية (٦٨٠-٦٩٢) التي شغلتها حركة ابن الزبير، والتي لم تنته إلا بمقتل مصعب بالعراق وعبدالله بمكة في خلافة عبدالملك بن مروان. وبخلاف هاتين الفترتين فإن القتال بين الأمويين والبيزنطيين لم يتوقف في البر والبحر إلى سقوط الدولة الأموية عام ٧٥٠.

وكان المسلمون يخرجون في حملتين في العام هما: الصوائف والشواتي، فيخربون أرض العدو، وينسفون الزرع، ويهدمون التحصينات، ويسوقون السبي. وكان هدفهم الأساسي هو الاستيلاء على القسطنطينية، ونشر الإسلام بأرض الكفار، لم يتنهم عن ذلك عظم التضحيات، ولم يثبط من عزمهم ما لقوه فيها من شدائد.

وسنكتفي هنا بالإشارة إلى اللحظات التي شارك فيها الصقالبة في كفاح الجبايرة هذا، ووجدوا طريقهم إلى بلاد الشام كأسرى أو باختيارهم. ونبدأ فنقول إن أول ذكر لمجيء الصقالبة إلى الشام على عهد الأمويين نجده عند المؤرخ البيزنطي ثيوفان^(١٦) الذي يروي ضمن أحداث عام ٦٦٤ أن مجموعة من مقاتلة الصقالبة هربوا من صفوف

(١٥) عن حروب العرب مع البيزنطيين راجع البحر، التالية:

J. Wellhausen, Die kämpfe der Araber mit den Römern in der Zeit der Umayyiden, Nachrichten der kongl.

Gesellschaft der Wissenschaften, Göttingen, phil. - hist. Klasse Heft 4, 1901, p.414-447.

M. Canard, les expéditions des Arabes contre Constantinople dans L'histoire et la L'égende, Journal Asiatique, t.CVIII, 1926.

Hélène Ahrweiler, L'Asie Mineure et les invasions arabes (VII-IX siècles), Revue Historique, CCXXVII, 1962.

(١٦) ثيوفان، في أخبار عام ٦٦٤.

البيزنطيين وانضموا إلى قوات المسلمين التي اقتحمت أراضي الدولة البيزنطية فأنزلهم الخليفة قريباً من مدينة أفامية بشمالي سورية، وذلك بقرية حملت على أغلب الظن اسم «الصقلبية». ولعل الأمر يتعلق بقرية صقلبية الحديثة بشمالي سورية قريباً من موقع أفامية القديمة^(١٧).

ووفقاً لألفاظ ثيوفان فإن القائد العربي الذي ساق هؤلاء الصقالبة من آسيا الصغرى إلى سورية حمل اسم عبدالرحمن بن خالد: (Αβδὲρ ἄρχων τοῦ Χαλδῶν)، الذي يجب أن نبصر فيه دون صعوبة عبدالرحمن بن خالد بن الوليد. وهو الابن الوحيد الذي عاش لبطل الاسلام خالد بن الوليد المخزومي، واشترك في واقعة اليرموك، ثم عينه معاوية حاكماً لحمص فقاد عدداً من الحملات على بلاد الروم كانت إحداها تلك التي وردت لدى ثيوفان. وفي أيام الفتنة الأولى انضم عبدالرحمن إلى معاوية وحضر معه واقعة صفين. ويقول الطبري بصده^(١٨): «إن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد كان قد عظم شأنه بالشام، ومال إليه أهلها لما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد ولغناؤه عن المسلمين في أرض الروم وبأسه حتى خافه معاوية وخشي على نفسه منه لميل الناس إليه»، فدبر تسميمه على يد طبيب نصراني عند منصرفه إلى حمص من بلاد الروم، وكان ذلك في عام ٤٦ للهجرة = ٦٦٦ م.

وبعد سبعة وعشرين عاماً من وصول المجموعة الأولى من الصقالبة إلى الشام ونزولهم بنواحي أفامية، وصلت مجموعة أخرى من الصقالبة كثيرة العدد هم أولئك العشرون ألفاً الذين انفصلوا من جيش يوسطيان الثاني وانضموا إلى العرب وانتقلوا معهم عام ٦٩٢ إلى بلاد الشام. فأنزلهم الخليفة عبدالملك بن مروان بنواحي أنطاكية وقورس^(١٩) إلى الشمال بقليل من أفامية التي نزلت بها المجموعة الأولى.

ويؤكد البلاذري وجود مستوطنات للصقالبة بنواحي قورس أثناء كلامه عن حصن سلمان القريب منها، فيقول: «وسلمان وزيايد من الصقالبة الذين رتبهم مروان بن محمد في الثغور، وسمعت من يذكر أن سلمان هذا رجل من الصقالبة نسب إليه الحصن والله اعلم»^(٢٠). ومن ألفاظ البلاذري هذه يتضح لنا أن عدداً من الصقالبة أخلصوا في خدمة الدولة الأموية فنالوا مناصب رفيعة بها.

(١٧) انظر لفيستكي، شرحه (الحاشية ٨).

(١٨) الطبري، الطبعة الأوروبية، ٨٢/٢.

(١٩) قورس يقول عنها ياقوت «مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب وهي الآن خراب».

(٢٠) البلاذري، فتوح البلدان، الطبعة الأوروبية، ص ١٤٩.

ومما لا شك فيه أن حملة مسلمة بن عبد الملك على بلاد الروم وحصاره للقسطنطينية عام ٧١٦-٧١٨ كانت أكبر محاولة للأمويين للقضاء على الدولة البيزنطية ونشر الإسلام في ربوعها. وكما هو معلوم فإن تلك الحملة باءت بالفشل الذريع في البر والبحر، وانسحب المسلمون بخسائر جمة بحيث لم يعد في مقدور الدولة الأموية القيام بمحاولة شبيهة إلى آخر أيام حياتها. ولعله ليس من المبالغة في شيء لو قلنا: إن تلك الحملة قد استنفدت طاقة الأمويين وفتت في عضدهم، مما ساعد على انهيار الدولة عقب ذلك بقليل على الرغم من الجهودات اليائسة التي بذلها آخر خلفائهم مروان الثاني (٧٤٤-٧٥٠).

وتشير أقوال المؤرخين إلى أن مسلمة بن عبد الملك اصطدم بالصقالبة أثناء الحملة. ويذكر كل من اليعقوبي^(٢١) والطبري^(٢٢) أن الحملة استولت على موضع يقال له «مدينة الصقالبة» وإن كان من العسير تحديد موضعها. بيد أن الموضع كان دون شك مستوطنة للصقالبة. ويبدو أن العرب سبوا خلال ذلك أعداداً كبيرة من الصقالبة، بين رجال ونساء وأطفال أخذوهم معهم أثناء تفهقرهم وأسكنوهم في أغلب الظن، بشمال الشام أسوة ببني جلدتهم الأولين.

أخيراً علينا أن نذكر أن عدداً كبيراً من الصقالبة تم أسرهم في العهد الأموي أثناء القتال المرير بأرمينيا والقوقاز مع جيوش خاقان الخزر، التي ضمت جنوداً من الصقالبة، وإلى جانب هذا وصل إلى العالم الإسلامي في أواخر العهد الأموي وبداية العباسي أعداد كبيرة من رقيق الصقالبة عن طريق الخزر الذين اعتادوا بيعهم بأسواق الرقيق في الشرق الأدنى، ومما يؤكد وجود الصقالبة بأعداد كبيرة في دولة الخزر، ويجب ألا يدهشنا هذا في شيء لأن دولة الخزر شغلت مناطق من روسيا الجنوبية، قول البلاذري إن مروان بن محمد لما ولي الثغور الخزرية (٧٣٣-٧٤٤) «دخل أرض الخزر مما يلي باب اللان... فأغار مروان على صقالبة كانوا بأرض الخزر فسبى منهم عشرين ألف أهل بيت فأسكنهم خاخيطة (بجمهورية جورجيا السوفيتية حالياً)، ثم انهم قتلوا أميرهم وهربوا فلحقهم وقتلهم»^(٢٣).

ويحكى لنا البلاذري نفسه أنه في عام ١٢٩هـ، ٧٥٦-٧٥٥ أمر الخليفة العباسي «بعمران مدينة المصيصة... ثم نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط ونصاري،

(٢١) اليعقوبي، تاريخ، طبعة أوروبا، الجزء الثاني ص ٣٥٩.

(٢٢) الطبري، ١٣١٧/٢.

(٢٣) البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٠٧.

وكان مروان قد اسكنهم إياها، وأعطاهم خطأً في المدينة عوضاً عن منازلهم»^(٢٤). وكانت الخصوص هذه تقع في أغلب الظن بمنطقة الثغور الشامية.

من كل هذا يتضح لنا أن بلاد الشام عرفت الصقالبة جيداً في العهد الأموي، وأنهم اضطلعوا بمختلف ضروب الخدمة كجنود وحرس وخدم بالقصور، ثم اندمجوا في السكان حتى نسوا بالتالي لغتهم واتخذوا العربية لغة لهم والاسلام ديناً.

٥ - ذكر الصقالبة في الأدب العربي على العهد الأموي:

يتضح مما أوردناه قبل قليل أن مادة المؤرخين عن الصقالبة ببلاد الشام في العصر الأموي شحيحة بعض الشيء. ولعل الأمر يتعلق بطبيعة تدوين التاريخ في العصور الوسيطة حين انصرف المؤرخون إلى تسجيل أخبار الملوك والخلفاء والسلاطين، صارفين النظر عن سواد الشعب، وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى اقلية عرقية أو عقائدية مختلفة.

إزاء هذا نجد أنفسنا مضطرين إلى الخوض في مصادر ذات طابع آخر قد تعاوننا في العثور على مادة عن الصقالبة في العصر الأموي، أقصد بذلك المؤلفات في مجال الأدب بمعناه العريض والتي تفوق بكثير المؤلفات التاريخية والجغرافية عدداً. وقد استطاع المستشرقون استخلاص مادة تاريخية غزيرة من دواوين الأدب الكبرى، مثل كتاب الأغاني ومؤلفات الجاحظ ومن كتب «الأمالي» العديدة ومن العقد الفريد ومن شروح دواوين الشعراء والمعاجم.

ونبدأ فنقول: إن أقدم ذكر للصقالبة في الأدب العربي جاء في بيت شعر للأخطل في مدح بشر بن مروان. وكان أول من لفت النظر إلى ذلك المستشرق الروسي إلبرت هرکبي «A. Garkavi» (١٨٣٥-١٩١٩) الذي وضع منذ أكثر من قرن كتاباً بالروسية بعنوان «روايات المؤلفين المسلمين عن الصقالبة والروس» «Skazania musulmanskikh Pisatelei» Slavianakhi Russkikh. Petersburg, 1870 هذا الكتاب تمتع بقيمة كبرى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية حين شغل مكانه الآن كتاب المستعرب البولندي المعاصر تادويش ليفيتسكي T. Lewicki بعنوان المصادر العربية في تاريخ الصقالبة في مجلدين (Zrodla arabskie do dziejow slowianszyzny. Krakow, 1956 - 1969) والاخلط ثالث ثلاثة اقتسموا إمارة الشعر في العصر الأموي، وهم الأخلط والفرزدق وجبرير، ودخل الأخلط في

(٢٤) البلاذري، شرحه ص ١٦٦.

نقائض مع جرير، وانحاز الفرزدق إلى الأخطل ضد جرير، على الرغم من أن جريراً والفرزدق من تميم، وأن الأخطل نصراني من تغلب، ظل إلى وفاته يقاوم محاولات كبار الأمويين لإدخاله في الاسلام. واسم الأخطل غياث (أو غويث) بن غوث بن الصلت ولد عام ٢٠هـ (٦٤٠م) وتوفي في الغالب عام ٩٢هـ (٧١٠م).

وقد ارتبطت حياته بالأمويين منذ أيام معاوية، وكان مقرباً إلى ابنه يزيد، ومدحه في قصائده، كما مدح الشخصيات الكبرى في العهد الأموي مثل زياد والحجاج. وعلى عهد عبد الملك بن مروان أصبح أشبه بالشاعر الرسمي للبلاد، لكل هذا فقد أمضى رداً كبيراً من عمره بدمشق يمدح بني أمية وينال من أعدائهم، كما زار أيضاً حواضر العراق.

والبيت الذي يرد فيه ذكر الصقالبة من قصيدة طويلة له في مدح بشر بن مروان مطلعها:

لعمري لقد أسريت لاليل عاجز بساهمة الخدين طاوية القرب
أما البيت منها الذي يرد فيه ذكر الصقالبة فهو^(٢٥):

عوادل عوجا عن أناس كأنما ترى بهم جمع الصقالبة الصهب

والصهب جمع أصهب، والصهبة الحمرة في الشعر. وينقل زكريا القزويني^(٢٦) عن ابن الكلبي «صقالبة قوم كثيرون صهب الشعور حمر الألوان». وفي المعاجم أن الصهبة تختص بالشعر. وجاء لدى ياقوت «الصقالبة حمر الألوان صهب الشعور»^(٢٧).

أما ممدوحه بشر بن مروان فهو ثالث أولاد الخليفة مروان بن الحكم، وحمل اللواء في حادثته في واقعة مرج راهط وبعد القضاء على ابن الزبير عينه عبد الملك عاملاً على العراق. ووصفه المسعودي بأنه كان «أديباً ظريفاً يحب الشعر والسمر والسماع والمعاقرة»^(٢٨). ويقول فيه البلاذري «وكان بشر لين الولاية، سهل الحجاب طلق الوجه، كريماً، وكان صاحب شراب ينادم عليه». وقد مدحه الشعراء لكرمه وبشاشته، مثل الأخطل والفرزدق وجرير. وهو الذي أرسل المهلب لقتال الأزارقة عندما أمره عبد الملك بذلك ففعل على الرغم من بغضه للمهلب. غير أنه بعد أسابيع من خروج المهلب مات بشر فجأة في عمر فتى وذلك عام ٧٥هـ - ٦٩٤م. فأرسل عبد الملك الحجاج إلى العراق.

(٢٥) ديوان الأخطل، طبعة الأب أنطون صالحاني، الطبعة الأولى ص ١٨ بيروت.

(٢٦) زكريا القزويني، الكوموغرافيا، طبعة فستندك الجزء الثاني ص ٤١٢.

(٢٧) انظر ياقوت مادة «الصقالبة».

(٢٨) المسعودي، مروج الذهب، الجزء الخامس ص ٢٥٤.

أما الشاهد الثاني الذي يرد فيه ذكر الصقالبة فهو أيضاً بيت شعر قيل في مدح بشر بن مروان. يقول ابن قتيبة في مصنفه الكبير «عيون الأخبار»^(٢٩): «وقال بعض الشعراء في بشر بن مروان:

ولو شاء بشر كان من دون بابه طماطم سود أو صقالبة حمر

غير أن البلاذري يقول في أنساب الأشراف^(٣٠):

وقال جرير أو غيره يذكر لين حجاب:

بعيد مرد الطرف لم يثن طرف حذار الغواشي باب دار ولا ستر

ولو شاء بشر حل من دون بابه طماطم سود أو صقالبة حمر

ولكن بشراً سهّل الباب للتي يكون له في غبها الحمد والأجر

أما صاحب الاغانى^(٣١) فينسب البيت هذا إلى أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي، ولنصف أن الطمطم أو الطمطماني هو الرجل الذي في لسانه عجمة فلا يفصح.

ومنذ أعوام عثر لفيتسكي بشاهد آخر عن الصقالبة في العصر الأموي لم يفتن إليه أحد قبله^(٣٢) رغم وجوده في كتاب تمتع بالرواج، وطبع لمرات منذ القرن التاسع عشر بالقاهرة أقصد العقد لابن عبد ربه. ففي القسم من كتابه الذي يحمل عنوان «كتاب الوسطة في الخطب» يورد خطبة ليزيد بن المهلب الأزدي يرد فيها ذكر الصقالبة، ويرجع بها لفيتسكي إلى عام ٧٢٠.

ويزيد بن المهلب من مواليد عام ٥٣ للهجرة، ٦٧٢-٦٧٢. وعند وفاة أبيه قلده الحجاج ولاية خراسان (٨٢-٨٥هـ)، ثم عزله وولى مكانه قتيبة الباهلي. وقد عامل الحجاج يزيد وإخوته شرمعاملة فحبسهم وعذبهم، فهرب يزيد ولاذ بسليمان بن عبد الملك الذي شفع له لدى أخيه الوليد. فلما ولي الخلافة سليمان بن عبد الملك (٧١٥) عين يزيد والياً على العراق، وضم إليه في العام التالي خراسان. فغزا يزيد جرجان وطبرستان. وعندما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧) قبض عليه بتهمة استحلاله لغنائم جرجان

(٢٩) ابن قتيبة، عيون الأخبار، طبعة دار الكتب، القاهرة ٨٨/١.

(٣٠) البلاذري، أنساب الأشراف، الجزء الخامس، طبعة القدس (١٩٣٦) ص ١٦٨.

(٣١) كتاب الاغانى، طبعة بولاق، ٨/٢١.

(٣٢) راجع مقال لفيتسكي «رواية عربية غير معروفة عن الصقالبة ترتفع إلى عام ٧٢٠» T. Lewicki, «Un Temoigrage arabe»

inconnu sur les slaves, de l'an 720», Folia Orientalia, t. IV, Krakow, 1993.

وطبرستان ثم أراد نفيه إلى دهلك فصاح يزيد «مالي يذهب بي إلى دهلك، إنما يذهب إلى دهلك بالفاسق المريب الخارب»^(٢٣). فخشي عمر ثورة أهله فرده إلى محبسه.

يقول الطبري في تاريخه «وقد كان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول هؤلاء جبابرة ولا احد مثلهم. وكان يزيد بن المهلب يبغض عمر ويقول: اني لأظنه مرأثياً». ولما علم يزيد بمرض عمر وخاف أن يفتك به يزيد بن عبد الملك للعداء بينهما هرب من محبسه، وبعد قليل توفي عمر. فكتب الخليفة الجديد يزيد الثاني إلى والي البصرة عدي بن أرطاة بأن يلقي القبض على من بالبصرة من آل المهلب، غير أن يزيد بن المهلب وصل إلى البصرة وهزم قوات عدي وأسرته. ويستترد الطبري في قوله «وأتى بعدي بن أرطاة فجيء به وهو يبتسم فقال له يزيد لم تضحك... فقال عدي أما أنت فقد قدرت علي، ولكنني أعلم أن بقائي بقاؤك وأن هلاكني مطلوب به من جرته يده. إنك قد رأيت جنود الله بالمغرب، وعلمت بلاء الله عندهم في كل موطن من مواطن الغدر والنكث، فتدارك فلنتك وزلتك بالتوبة، واستقالة العثرة قبل أن يرمي إليك البحر بأواجه».

وفعلاً رماه الوليد بجيش الشام، أولاً قدم العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس، وتلاه مسلمة بن عبد الملك ومعه جند الشام، وكان كلا الأمرين الأمويين من أهل المراس في الحرب. واكتسبا خبرة كبرى في القتال مع البيزنطيين. وخرج يزيد بن المهلب لقتالهم فلما بلغ واسط نصحه بعض أنصاره بأن يحتمي بشعاب ايران وجبالها، فأبى إلا المناجزة أهل الشام الذين التقى بهم عند العقرب قبل الكوفة، فهزم وقتل في المعركة. وتتبع الدولة آل المهلب في أقاصي البلاد حتى فنوا.

أما خطبته الواردة في العقد فقد ألقاها على أنصاره قبل المعركة مع جيش أهل الشام، عندما أحس بهبوط روحهم المعنوية، فأراد تشجيعهم. «فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ قال:

أيها الناس إنني أسمع قول الرعاع قد جاء العباس قد جاء مسلمة قد جاء أهل الشام. وما أهل الشام إلا تسعة أسياف منها سبعة معي واثنان علي. وما مسلمة إلا جرادة صفراء، وأما العباس فبسطوس بن بسطوس أتاكم في برابرة وصقالبة وجرامقة وأقباط وأنباط وأخلاق. أقبل إليكم الفلاحون والأوباش كأشلاء اللحم. والله ما لقوا حداً كحدهم ولا حديداً كحديدهم. أعيروني سواعدكم ساعة تصفقوا بها خراطيمهم، فإنما هي غدوة أو روحة حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين».

(٢٣) الطبري ٢/١٢٨٥.

هذه الخطبة تختلف عما جاء بالطبري. يقول محمد بن جرير الطبري «قال^(٣٤) هشام قال أبو مخنف ثم إنه قام ذات يوم فحرضنا ورغبنا في القتال ثم قال لنا فيما يقوله إن هؤلاء القوم لن يردهم عن غيهم إلا الطعن في عيونهم والضرب بالمشرفية على هامهم، ثم قال إنه قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء يعني مسلمة بن عبد الملك وعافر ناقة ثمود يعني العباس بن الوليد وكان العباس أزرق أحمر كانت أمه رومية. والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه حتى كلمته فيه فأقره على نسبه، فبلغني أنه ليس همهما إلا التماسي في الأرض. والله لو جاء بأهل الأرض جميعاً وليس إلا أنا ما برحت العرصة حتى تكون لي أولهم». وبهذا لا يوجد فيها ذكر للصقالبة.

يقول لفيتسكي إن أطرف ما في الخطبة إشارته إلى العباس بن الوليد التي تحمل طابع الاحتقار الشديد^(٣٥)، وإن ليس مفهوماً لنا كل الفهم نعته إياه بسطوس بن بسطوس (ولدى المسعودي بسطوس بن نسطوس) فهل يريد بذلك اسماً بيزنطياً مثل نسطاس الكثير الاستعمال بين نصارى الشام؟ وهو من اليونانية انسطاس Awabtaβios ولعل الناشر الفرنسي مصيب في ترجمته لمتن «مروج الذهب» «un Grec fils de Gree» (اليوناني ابن اليوناني)، يغمز يزيد بن المهلب في نسب العباس لأن أمه بيزنطية. على أية حال فإن العباس لم يكن عربياً في سحنته، فقد كان أزرق العينين أحمر الوجه كما يشهد المؤرخون. أما قوله «عافر ناقة ثمود» فتلمح كما يقول بارتولد «Bartold» إلى القصة الواردة بالقرآن عن عقر ناقة النبي صالح، فقد ورد في بعض الأحاديث الموضوعية إن النبي تنبأ بظهور «صبي أشقر الشعر أزرق العينين» يخرج من ثمود فيقترب تلك الجريمة الوارد ذكرها في القرآن.

ويضيف بارتولد انه لما طالب زعماء الفتنة في السنوات الأخيرة من حياة الدولة الأموية من العباس أن يبايع أخاه يزيد بعد قتل الوليد تهدده أحدهم بقوله: «يا بن قسطنطين لئن أبيت لأضربن الذي فيه عيناك»، تعبيراً بأمه التي يبصر فيها بارتولد أميرة بيزنطية من البيت المالكة.

ومن المؤكد أن جيش مسلمة كان يمثل القوات النظامية لأهل الشام بينما كان جيش العباس بن الوليد يضم المرتزقة أي خليطاً من مختلف الأمم التي نزلت الشام من غير العرب المسلمين، وكان من بينهم الصقالبة كما جاء في خطبة يزيد بن المهلب، وهؤلاء

(٣٤) الطبري ١٣٩٨/٢.

(٣٥) انظر مقال لفيتسكي اعلاه (٣٢).

الأخرون هم دون شك من نسل سكان المستوطنات الصقلبية بشمالي الشام التي تشكلت من الاسرى والهاريين من الدولة البيزنطية.

أما دور الصقالبة بالتالي في الدولة العباسية فلا يدخل في اطار بحثنا هذا. وقد قدموا في معظمهم عن طريق القوقاز وآسيا الوسطى بصفة رقيق أو تجار أو حتى غزاة. ونزل معظمهم بحواضر العراق، وكانوا أكثر اتصالاً بالسكان المسلمين، يقول الجاحظ «وزعم لي رجال من الصقالبة خصيان وفحول»؛ ويقول ابن خرداذبه بصدد تجار الروس القادمين إلى بغداد بسلع المناطق الشمالية «ويترجم عنهم الخدم الصقالبة».

٦ - بحوث المستشرقين الروس في تاريخ الشام زمن الأمويين:

لم يول الجيل الأول من المستشرقين الأوروبيين اهتماماً خاصاً بتاريخ الدولة الأموية بل عالجه في الاطار العام لتاريخ الاسلام، مكتفين بعرض آراء المؤرخين المسلمين عن تلك الحقبة من تاريخ العرب. غير أنه في عام ١٩٠٢ ظهر سفر جليل عن الأمويين لعالم الساميات الألماني يوليوس فلهاوزن «Wellhausen» (١٨٤٤-١٩١٨) بعنوان «الدولة العربية وسقوطها» Das Arabische Reich und sein Sturz (وتوجد له ترجمة جيدة بعنوان «تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية» ندين بها للعالم المصري الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة، وظهرت بالقاهرة بعد الحرب العالمية الثانية). وتلا كتاب فلهاوزن بحوث عديدة في تاريخ الأمويين دونها بالفرنسية المستعرب هنري لامنس «Lammens» (١٨٦٢-١٩٣٧)، الراهب الجزويتي الذي عاش بلبنان وعرف بعدائه للاسلام^(٣٦).

إزاء هذا يجب ألا يدهشنا في شيء انعدام الدراسات عن الأمويين باللغة الروسية، هذا مع استثناء فريد هو بضع مقالات للمستشرق والمؤرخ الروسي الكبير فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد «V.V. Bartold» (١٨٦٩-١٩٣٠) وكما هو معلوم فان بارتولد هو المؤرخ الأكبر لآسيا الوسطى الاسلامية ولدور الترك والمغول في تاريخ آسيا. وبخلاف ذلك مسّ قلم بارتولد تاريخ الأمم التي دخلت في علاقات مع سكان آسيا الوسطى مثل الايرانيين والعرب، كما عالج الكتابة أيضاً في تاريخ الاسلام بصورة عامة. وقد وليج بارتولد موضوعات بحثه بالكثير من الجدّة، فقد أجاد لغات العالم الاسلامي الثلاث وهي

(٣٦) عن بحوث لامنس في الدولة الاموية راجع بحث K.S. Salibi, «Islam and Syria in the writings of Henri Lammens».

الذي ظهر في كتاب Historians of the Middle East, London, 1962

أما عن ثبوت مؤلفاته فراجع: Melanges de l'universite de Saint Joseph, t.XXI (1937-1938)

العربية والفارسية والتركية، وكانت له معرفة عميقة بلغتي العالم الكلاسيكي وهما اليونانية واللاتينية وبعده من اللغات الأوروبية الحية مثل الألمانية التي كانت لغته الثانية إلى جانب الروسية.

وليس هنا بطبيعة الحال مجال الحديث عن شخص بارتولد وتراثه العلمي الثر، ويكفي في هذا الصدد أن نحيل من يريد التعرف على ذلك إلى المقدمات العديدة التي زوّدها المستشرقون السوفييت طبعتهم الجديدة لمؤلفه الرئيسي «تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي» *Turkestan Vo epokhu mongolskogo nashestvia. Petersburg, 1900*، الذي توجد له ترجمة عربية جيدة ظهرت بالكويت عام ١٩٨١^(٣٧).

وفي الأعوام التالية للحرب العالمية الثانية أخرج المستشرقون السوفييت من تلامذة بارتولد وتلامذة تلامذته طبعة علمية محققة في عشرة مجلدات للآثار الكاملة لبارتولد *Sochinenia akademika Bartolda (Moskva, 1963—1977)*، أفرد الجزء السادس من بينها لبحوثه ومقالاته في تاريخ الاسلام عامة والعرب بصورة خاصة: *Akademik Bartold, Sochinenia Tom VI, Paboty po istori Islama Arabskogo khalifata. Moskva, 1966.*

ويوجد من بينها هذه المقالات التي تعالج الكلام على الأمويين.

أولها مقال موجز ظهر عام ١٩٢٢ بعنوان «بحوث جديدة في عصر الأمويين». *Epokha omeiadov po noveishim issledoraniyam*. في هذا المقال يلقي بارتولد نظرة عاجلة على تاريخ الأمويين منذ بداية دولتهم إلى سقوطها، كأنما يريد بذلك أن يسد النقص في معرفة القارئ الروسي بهذا الموضوع، وأن يبين للدارسين ما حدث من تعديل جذري في النظرة إلى تاريخ الأمويين بعد ظهور سفر فلهاوزن ومقالات لامنس.

ويبدأ بارتولد مقاله بالإشارة إلى الاختلاف بين منهج المدرسة القديمة للمستشرقين متمثلة في دوزي *R. Dozy (١٨٢٠-١٨٨٢)* وأتباعه وجولد زمير *I. Goldziher (١٨٥٠-١٩٢٠)* وتلامذته، وبين المنهج الجديد الذي لجأ إليه فلهاوزن ولامنس في دراسة تاريخ الأمويين. فبحوث هذين الأخيرين تبين بجلاء أن الأمويين لم يتخذوا موقف الرجعية والعداء للإسلام الذي قال به من سبقهما من العلماء، بل استندت دولتهم على تعاليم

(٣٧) ق.ق. بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم. طبعة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ١٩٨١.

الاسلام وجاهدوا خير جهاد في سبيل نشره، بحيث كانوا أقرب في هذا إلى الخلفاء الراشدين من العباسيين الذين عدّوا أنفسهم آل البيت. ويرى بارتولد أن هذه النظرة تعد خطوة إلى الأمام في دراسة الأمويين، وإن احتاجت إلى الاستكمال في بعض جوانبها على ضوء المنشرات العلمية الحديثة لتاريخ الطبري وطبقات ابن سعد وأنساب الأشراف للبلاذري الخ.

ومن رأي بارتولد أن الحركة الأموية تبدأ بمبايعة عثمان بن عفان الأموي خليفة المسلمين، مما حفز بني أمية للقيام بمحاولة لاستعادة رئاستهم على قريش والعرب. بعد هذا يتطرق إلى الكلام عن خلفائهم مفرداً أسطراً لكل واحد منهم، كاشفاً من خلال ذلك عن اعجابه بالوليد الأول (٧٠٥-٧١٥) الذي امتدت الدولة على عهده من اسبانيا إلى الهند وآسيا الوسطى، كما يشير إلى أبنيته الكبرى بالحجاز والشام وبخاصة الجامع الأموي بدمشق الذي ظل إلى العهد العباسي أفخم مساجد العالم الاسلامي قاطبة. ثم يختم مقاله بتحليل لشخصية مروان الثاني (ابن محمد بن مروان) ويصفه بأنه كان جندياً متمرساً وقائداً محنكاً ومصلاً كبيراً. من هذا يتضح لنا أن المقال لا يتميز بأي ضرب من الأصالة، وإن هدف بارتولد من تدوينه كما ذكرنا هو تعريف القارئ الروسي بهذه الحقبة من تاريخ الدولة الاسلامية على ضوء البحوث الجديدة التي ظهرت بأوروبا الغربية.

أما مقاله في تاريخ الأمويين الذي يتمتع حقاً بالأصالة فهو بحثه الطويل في أكثر من ثلاثين صفحة عن عمر بن عبد العزيز، والذي يعدّ في رأيي خير تحليل لشخصية ذلك الخليفة الذي تضاربت حوله أحكام المؤرخين. ويقيني أن المقال السابق له في تاريخ الأمويين العام إنما كان أشبه بتوطئة أو قاعدة لمقاله عن عمر بن عبد العزيز، وكأنما أراد قبل أن يقدم بحثه العميق عن شخص عمر أن يعرف القارئ الروسي بالخلفية التي ينزع عنها ذلك الخليفة. وقد ظهر مقال بارتولد عن عمر بن عبد العزيز أيضاً في نفس عام ١٩٢٢، تحت عنوان «الخليفة عمر بن عبد العزيز وتضارب الأخبار حول شخصه» Khalif Omar II; Protivorechiyye izvestia o ego lichnosti. في هذا المقال تنكشف لنا مقدرة بارتولد الرائعة في الغوص في المصادر واعتصار كل ما يمكن أن تجود به. ويكفي أن يقارن القارئ بين مقاله هذا وبين مقال المستعرب السويدي سترستين K.V. Zettersteen عن عمر بن عبد العزيز الذي ظهر بدائرة المعارف الاسلامية، ليتحقق من أن مقال بارتولد يفوقه كثيراً، ويستكمل بجدارة الفصل الرائع الذي عقده له فلهاوزن في سفره عن الدولة الأموية.

يبدأ بارتولد مقاله فيذكرنا بأن العلماء عدوا العامين أو الثلاثة التي تولى فيها عمر ابن عبدالعزيز خلافة المسلمين (٧١٧-٧٢٠) حدثاً استثنائياً في تاريخ الدولة الأموية، بل في تاريخ الخلافة الإسلامية بكاملها، ذلك أن المؤرخين حملوا الأمويين مسألة قلب الجماعة الدينية الإسلامية إلى دولة زمنية حكموها حكم الملوك على غرار الدولة البيزنطية، أما عمر بن عبدالعزيز فعلى نقيض أهل بيته كان المثل الأعلى لدى الأجيال التالية للخليفة التقي حتى عدوه خامس الخلفاء الراشدين. ثم ينتقل إلى الكلام عن آراء المستشرقين فيقول: إنهم اتفقوا في حكمهم عليه بأنه كان مخلصاً في ما اعتقده، ولكنه كان ضيق الأفق فعرض مصالح الدولة للخطر من أجل أحلامه الدينية ويضيف أن فلهاوزن جهد في تحليل شخصية عمر ليدل على أنه لم ينصرف تماماً لاكتساب مرضاة الله، بل عمل أيضاً على اسعاد الرعية وحمايتها من المظالم، فأسهم في تغيير فكرة المسلمين عن بني أمية دون أن يحدث تغييراً جذرياً في تركيب الدولة. ويقول بارتولد: إن محاولة فلهاوزن هذه لتصوير عمر في صورة السياسي الماهر إلى جانب شخصيته المثالية لم يكتب لها التوفيق لأنه نسب إلى عمر صفات «قل أن تجتمع في شخص واحد».

بعد هذا يشرع بارتولد في تحليل شخصية عمر ليخرج بالاستقراء الذي يريده، وهو ان عدداً من الروايات التاريخية تشير إلى أن شخصيته حافلة بالمتناقضات وبخاصة إذا ما قارنا سلوكه كوال على المدينة بسلوكه بعد أن ولي الخلافة. ويبدأ فيقول: إن حكم فلهاوزن يعتمد في الأساس على مادة الطبري التي ترتفع بدورها إلى الواقدي غير أن بارتولد يشير إلى مادة أخرى ترتفع إلى المدائني معاصر الواقدي، مؤداها أن عمر قبل أن تؤول إليه الخلافة كانت شخصيته تختلف تمام الاختلاف عن شخصية الخليفة الوري الذي عرفته الأجيال التالية. مثال ذلك أنه أثناء ولايته المدينة للوليد كان المسؤول عن مقتل خبيب بن عبدالله بن الزبير فقد جلده بأمر الوليد خمسين سوطاً، وأمر برش ماء بارد عليه مما أدى إلى وفاته (وحدث ذلك في أيام الشتاء). ويعلق بارتولد على هذا بقوله: إن عقابه الصارم لحفيد الزبير يدل على أن أثر فقهاء المدينة عليه شيء مبالغ فيه. كما يشير إلى خبر ورد لدى الواقدي مؤداه أن عمر لما عينه الوليد والياً على المدينة حمل متاعه على ثلاثين بعيراً، مما يدل على أن عمر لم يكن غريباً عن حياة المتعة التي شاطر فيها غيره من أفراد أسرته الأمويين. ويؤكد هذا بإشارته إلى قول المؤرخين إن عمر صرف أموالاً طائلة على العطور والملابس والخيل، وأن زهده في الملابس لم يظهر إلى بعد توليه الخلافة. ويستشهد في هذا الصدد بقول ابن سعد في طبقاته: إنه كان آنذاك «أحسن الناس لباساً ومن أطيب الناس ريحاً ومن أخيل الناس مشية». كذلك يشير بارتولد إلى أن عمر جمع ألفين من سكان المدينة أرسل بهم لمشاركة الوحدات العربية في الحرب مع البيزنطيين.

وعلى الرغم من أن الحجاج هو المسؤول عن تنحية الوليد لعمر عن المدينة، فإن بارتولد يرجع العداء بين عمر وأسرّة الحجاج إلى أسباب سياسية لا دينية. على أي فقد تمتع عمر في بلاد الخليفة بدمشق بمكانة خاصة وبنفوذ كبير، ليس فقط لأن أخته أم البنين كانت الزوج المحببة إلى الخليفة، وأن عمر نفسه تزوج من بنت لعبد الملك بن مروان. ولما مات الوليد صلى عليه عمر ودعا أهل دمشق إلى مبايعة سليمان بن عبد الملك النازل آنذاك بالرملة بفلسطين.

وكان سليمان أكلوا ومولعاً بالنساء فتابعه المقربون إليه، ويزعم بارتولد أن عمر في أغلب الظن عاش تلك الحياة في تلك الأعوام، مدعماً رأيه برواية لدى ابن سعد، ومؤداها أن شخصاً أبصره ببلاط سليمان «وهو كأشد الرجال وأغلظهم عنقا، وهذا نقيض قول شخص آخر قال له وهو خليفة «يا أمير المؤمنين عهدي بك حسن الجسم وأراك وقد اصفر لونك، ونحل جسمك، وذهب شعرك. ويعترض بارتولد على قول فلهاوزن إن أسلوب حياة عمر كان مناقضاً لأسلوب حياة سليمان المعروف بنهمه وشهوته للنساء على حين كان عمر أقرب إلى النساك، فيتساءل كيف يكون ناسكاً من شهد المؤرخون بأن عدد أطفاله قارب الستة عشر على حين لم يتجاوز عمره الأربعين عاماً عندما فارق الحياة الدنيا.

وكما هو معلوم فإن اختيار سليمان بن عبد الملك عمر ليخلفه قد لعب فيه دوراً كبيراً الفقيه رجاء بن حيوة، الذي نصح الخليفة عند موته بأن يستخلف رجلاً صالحاً، وأشار عليه بعمر. وبارتولد يقول إن المدائني يرى في استخلافه عمر أمراً طبيعياً بوصفه أول بني أمية بعد الخليفة، وقد فهم رجاء بن حيوة ذلك تماماً إذ يرد في ألفاظه: «لما ثقل سليمان ابن عبد الملك رأني عمر في الدار أخرج وأدخل وأتردد فدعاني فقال لي يا رجاء أذكرك الله والاسلام ان تذكرني لأمير المؤمنين أو تشير بي عليه إن استشارك فوالله ما أقوى على هذا الأمر فأنشدك الله إلا صرفت أمير المؤمنين عني، فانتهرته وقلت إنك لحريص على الخلافة لتطمع أن أشير عليه بك فاستحيا».

ومن الجلي أن عمر دخله روع شديد من ثقل المسؤولية التي وقعت على عاتقه، فأثر عليها الآخرة. فقد خرج عن تقاليد أسرته، وبدأ بأن أوقف القتال مع العدو الخارجي كوسيلة لنشر الاسلام، وفضل على ذلك الدعوة. ثم ألغى الجزية والضرائب على الأرض واشتكى الشعراء من اختفاء المكافآت السخية التي عهدوها في زمن اسلافه وصادر أملاك الأمويين وأوقف عطاياهم وأبدى الكثير من العطف نحو العلويين وردّ إليهم عطاياهم، ويعقد بارتولد مقارنة بينه وبين هشام بن عبد الملك ليبين أن هشاماً كان أكثر جدية كحاكم لدولة كبرى، ويسوق في هذا الصدد شهادة مؤرخ أرمني مفادها أن هشاماً لام عمر على تبديد أموال الدولة التي كدّ أسلافه في جمعها. أما فكرة بارتولد من أن سلوك عمر كان

نتيجة لانتشار فكرة مؤداها أن العالم سينتهي عام مائة للهجرة، وذلك على غرار الفكرة التي اعتقد بها الناس في أوروبا العصور الوسطى بأن نهاية العالم ستحدث في العام الألف للميلاد فهي في رأيي تحتاج إلى دراسة أعمق.

ولا يتسع المجال هنا لتحليل مقال بارتولد عن عمر بن عبد العزيز بصورة أكثر تفصيلاً. وإن وجب الاعتراف بأنه فتح باباً جديداً للحكم على شخصيته من زاوية أخرى. ولعله أن الأوان لنقل هذا المقال الرائع إلى اللغة العربية حتى لا يحرم القراء العرب من الاطلاع عليه. لذا فقد رأينا تقديم ترجمة عاجلة له كملحق لبحثنا هذا.

ولننتقل الآن إلى تحليل مقاله الثالث عن الأمويين الذي ظهر في عام ١٩٢٦ بعنوان «أمير أموي من سلالة مسيحية» Christianskoe Proiskhozdenie omiiadskogo Isrevicha. ولحسن الحظ فإن المقال وجد منذ عهد طويل في ترجمة عربية قام بها العلامة الفلسطيني الأصل بندي صليبا الجوزي وظهرت عام ١٩٣١ على صفحات مجلة المقتطف (ويبدو أن الناشرين السوفييت لا علم لهم بوجود هذه الترجمة العربية للمقال).

في هذا المقال الظريف يتعرض بارتولد للكلام عن الأمير الأموي العباس بن الوليد، أحد كبار القادة العسكريين من البيت الأموي في العشرات الأخيرة من حياة الدولة. ويبدأ مقاله بالتعجب من أن المستشرقين المحدثين الذين أشاروا إلى فتك العباس بن الوليد بالنصارى في حروبه، غرّب عن بالهم أن هذا الأمير الأموي كانت أمه نصرانية من الدولة البيزنطية. بعد هذا يجهد بارتولد بمهارته التي لا تدانى في تحليل المصادر بمختلف اللغات ليثبت أن هذه المرأه البيزنطية لا بد أن كانت أميره بيزنطية من البيت المالك زوجها عبد الملك بن مروان من ابنه الوليد تدعيماً لمعاهدة ٦٨٥ التي عقدها مع البيزنطيين عندما كان يقاتل ابن الزبير.

وكان العباس هذا أكبر أولاد الوليد، ويستنتج بارتولد أنه ولد قبل عام ٦٩٠ في زمن الهدنة بين العرب والروم. وقد نشأ العباس نشأة عسكرية وعرف بشجاعته ورباطة جأشه في القتال، ولعب دوراً كبيراً في الحروب بين العرب والبيزنطيين إلى جانب عمه مسلمة بن عبد الملك، وكانت زوجته ابنة زعيم الخوارج الشهير قطري بن الفجاءة المازني الذي قتل في الحرب ضد الأمويين عم ٦٩٧.

وبعد وفاة الوليد لم يأخذ العباس طرفاً في حرب ما سواء بالداخل أو الخارج، ولكنه يظهر مرة أخرى في خلافة يزيد (الثاني) بن الوليد (٧٢٠-٧٢٤) عندما اشترك مع عمه مسلمة في اخماد فتنة يزيد بن المهلب ويقول بارتولد: إن العباس تولى بعد ذلك في أغلب

الظن إمارة قنسرين بشمالي الشام. ولما توفي يزيد الثاني اعتزل العباس أعمال الدولة، وظل مقيماً بمنزله طول خلافة هشام، فلما جاءت خلافة الوليد بن يزيد (٧٤٣-٧٤٤) ناصره العباس في الخلاف الذي نشب بينه وبين بعض الأمويين، وجهد في أن يثني هؤلاء حتى لا تقود الفتنة إلى هلاك بني أمية. وتنسب إليه في هذا الصدد الأبيات التالية:

إنني أعيذكُم بالله. من فتن
 إن البرية قد ملت سياستكم
 لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم
 لا تبقرن بأيديكم بطونكم
 مثل الجبال تسامى ثم تندفع
 فاستمسكوا بعمود الدين وارتمعوا
 إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
 فثم لا حسرة تغني ولا جزع

فأحاط المتآمرون بقصره واضطروه إلى الاعتراف بالخليفة الجديد يزيد الثالث وقد اختلفت الأخبار حول موته، فالبعض يقول: إنه مات من جراحه أيام تلك الفتنة. وثمة رواية تزعم أنه عاش وبعث بأمر يزيد الذي لم تتجاوز خلافته الخمسة أشهر بكتاب إلى مروان بن محمد آخر الخلفاء لبني أمية، عندما سمع بأن مروان عازم على الانتقام من قتلة الوليد بن يزيد.

ويختتم بارتولد مقاله بقوله: إن العباس لم يكن له يد في الفتن التي حفلت بها خلافة مروان الثاني (٧٤٤-٧٥٠)، ولكنه اكتوى بنيرانها، وهلك في غضونها، وهو معتقل بسجن حران. ثم يستشهد برأي لفلهاوزن مفاده أن العباس أشعل نار ثورة بمدينة حمص، فلما أخمدها مروان أرسل به وبغيره إلى سجن حران وبه مات عام ٧٥٠ أي قبل سقوط الدولة الأموية بقليل. فيقال إن رأسه دُسّ في كيس ملء كلسا في درجة الغليان فمات لساعته، كما أن المسعودي يقول: إن القتل وضعوا الوسائد على وجهه، وقعدوا عليها حتى فاضت روحه.

هذا ما دونه يراع بارتولد عن الأمويين، غير أنه ثمة كلام عليهم في مقال له ظهر منذ عام ١٩١٥ بعنوان «طائفة الروانية» Musulmanskia sekta mervanitov. ويبدأ بارتولد هذا المقال بأن باحثاً روسياً هو أ.أ. سميونوف A.A. Semenov كتب عام ١٩١٢ يقول: إنه كشف عن أتباع لطائفة تطلق على نفسها اسم الروانية، وتزعم أن الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين هو مروان بن الحكم لقربته الشديدة من الخليفة الثالث عثمان. وتعيش طائفة الروانية حالياً بشترال Chitral وكنجوت Kandjut بالشمال الغربي من شبه الجزيرة الهندية، (باكستان الحالية) ومن الممكن الالتقاء بهم في أفغانستان، وقد يقدمون بأغراض التجارة إلى شغنان (بتركستان الروسية). ويعلق بارتولد على بحث سميونوف فيقول: إن وجود هذه الطائفة لم يرد ذكره بمبلغ علمه في أي موضع.

ويقول بارتولد: إنه وجدت طائفة في تاريخ الاسلام تدين عليا بالاشتراك في قتل عثمان فتجعل من الأمويين الخلفاء الشرعيين لعثمان، ومن هنا انبعثت التسميات «العثمانية» و«السفيلية» و«المروانية» وإن وجب الاعتراف أن فرع السفيليين كان أقرب إلى قلوب الجماهير ببلاد الشام من الفرع المرواني. ثم يستشهد بقول للطبري فحواه ان الطبقات الشعبية قبل سقوط الأمويين وذلك على عهد المروانيين، كانت تنتظر ظهور «السفيليين» المنتظر وأن هذا المعتقد ظل حياً إلى ما بعد قرنين من قيام الدولة العباسية.

وبآسيا الوسطى الاسلامية دُعي انصار الأمويين في الكثير من الأحيان بالخوارج، ويشير بارتولد إلى رواية شعبية باللغة التركية تدعو أعداء أبي مسلم الخراساني باسم «المروانية» ويروي المسعودي أقوالاً تتعلق بوجود أدب يميل إلى الأمويين، ويعضد حقهم في الخلافة. أما عن وجود أتباع «المروانية خارج الشام ومصر فانه لا توجد معلومات البتة بل إن ذكرى مروان الثاني لا توجد حتى بوطنه كردستان (لأن امه كانت كردية) على الرغم من أنه تولى حكم أرض الجزيرة العليا وأرمينيا وأذربيجان لمدة أحد عشر عاماً حيث عمل هو وأبوه من قبله الكثير من أجل تدعيم كلمة الاسلام هناك.

وأسرة المروانيين التي حكمت بكردستان في القرن الحادي عشر الميلادي تنحدر من مروان آخر عاش في القرن العاشر. كذلك فإن الطائفة المعادية للاسلام بكردستان والتي تحمل اسم اليزيدية تربط نفسها باسم الخليفة يزيد (الأول) بن معاوية (٦٨٠-٦٨٣) وفقاً لاشتقاق شعبي مغلوط. أما أنصار الأمويين الذين أبصرهم الجغرافي المقدسي في القرن العاشر بأصفهان، فكانوا يميلون إلى الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان ولم تكن لهم علاقة بمروان أو بنسله.

ولنختم كلامنا عن بارتولد بأن نذكر أن مقاله «الصقالبة» الذي ظهر بدائرة المعارف الاسلامية، والآخر الأطول منه بعنوان «معرفة العرب بالروس» Arabskie izvestia orusakh والذي ظهر عام ١٩٤٠ بعد وفاته يعالجان الكلام عن العصر العباسي، لذا يمسان موضوع بحثنا مسأً طفيفاً.

وننتقل الآن إلى الكلام عن مستعرب روسي ترك لنا مؤلفاً جليلاً عن فلسطين الاسلامية. ففي أواخر القرن التاسع عشر كلفت الجمعية الروسية الأرتوذكسية لفلسطين المستعرب الروسي ن.أ. مدنكوف N.A. Mednikov (١٨٥٥ - ١٩١٨)^(٢٨) بوضع كتاب عن فلسطين يحوي بين دفتيه جميع ما دونه العرب بصدها من الفتح العربي إلى الحملات

(٢٨) عن حياة مدنكوف راجع مقال كراتشكوفسكي الذي دونه عند وفاته: I.Iu. Krachkovski, Izbr. Sochinenie. t. v.,

Moskva, 1958.

الصليبية. فأمضى خمسة عشر عاماً يعمل في موضوع بحثه حتى أخرج لنا سفرأ ضخماً في أربعة مجلدات تضم ألفين وثمانمائة صفحة، بعنوان «فلسطين من الفتح العربي إلى الحملات الصليبية وفقاً للمصادر العربية». - *Palestina ot zavoevania ee arabami do kres- tovykh pokhodov po arabskim istochnikam* وهو في قسمين، يحتوي الأول منهما فحصاً دقيقاً للمصادر، ويقدم تحليلاً عميقاً عن المؤلفين ويقارن بين مادتهم. وقد ظهر هذا القسم الأول في مجلد عام ١٩٠٢. وسبقه في الظهور القسم الأول في ثلاثة مجلدات عام ١٨٩٧، يحوى الترجمة الروسية لمادة المؤلفين العرب عن فلسطين، ويفصل القول في جغرافيتها التاريخية ووضع النصارى بها.

ويقول بارتولد في تقریظة للقسم الأول الذي يعالج الكلام عن مصادر البحث: إنه يمثل ظاهرة بارزة في أدب النقد التاريخي بين المستشرقين، ويصفه بأنه نموذج يحتذى في الدراسات من هذا الضرب. أما كراتشكوفسكي I.Iu. Krachkovski (١٨٨٣-١٩٥١) فيقول: إن الكتاب مصدر فخر لا للجمعية الروسية الأرثوذكسية لفلسطين وحدها، بل وللعلم الروسي كافة، ويضيف بأنه ليس بمقدور أوروبا الغربية أن تشير إلى شيء مماثل له من حيث القيمة، وإن كل ما استطاع أن يقدمه علماء أوروبا الغربية هو كتاب جي لي استرانج G. le Strange الهزيل عن فلسطين والذي ظهر في وقت واحد مع مصنف مدنيكوف، وأنه لا يبلغ مستواه سواء من حيث المادة أو التحليل التاريخي لها.

هذا وقد تعرف العلم الأوروبي الغربي على مصنف مدنيكوف بعد أعوام من ظهوره ونال لديهم ما يستحقه من التقدير. ويرجع الفضل في ذلك إلى المستعرب الإيطالي الأمير ليوني كايثاني L. Caetani والذي ترسم خطاه في تحليله للمصادر العربية في مؤلفه الضخم «الحواليات الإسلامية». *Annale dell' Islam*.

ولا أدري هل للعلماء العرب المعاصرين معرفة بكتاب مدنيكوف، وهل فكر أحد أو هيئة في نقله، إلى العربية؟ والكتاب وإن كان لا يمس كثيراً موضوع بحثنا، إلا أننا رأينا أن نشير إليه لأنه مؤلف فريد في بابه يشهد بما بلغته الدراسات العربية من شوط بعيد في روسيا القيصرية.

وليس بمقدورنا في هذه العجالة أن نتجاهل اسم المؤرخ الروسي الكبير الكسندروفتش فاسيليف A.A. Vasiliev (١٨٦٧ - ١٩٥٣)^(٢٩)، أكبر عالم للبيزنطيات في

(٢٩) عن فاسيليف وثبت مؤلفاته راجع: *Dumbarton Oaks Papers*, Vol.9-10, 1955-1956.

زمنه ولم يقاسمه هذا الشرف سوى الفرنسي شارل ديل Ch. Diehl (١٨٥٩-١٩٤٤). وإذا حدث أن تميز ديل برشاقة الأسلوب وجمال العرض فقد تميز فاسيليف بطول النفس وسعة المادة. ولا يزال سفره «تاريخ الدولة البيزنطية» خير مدخل للتعريف بتاريخ تلك الدولة، وكان قد وضعه بالروسية عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٧ - ١٩٢٥) ثم نقل إلى عدد من اللغات من بينها التركية واليونانية. وعندما هاجر فاسيليف إلى الولايات المتحدة في منتصف العشرينات واستقر بها نهائياً جهد في توسيع الترجمة الانجليزية للكتاب، وأدخل عليها الكثير من الزيادات والتحسينات. ويجب الاعتراف بأن خيرة التواريخ العامة للدولة البيزنطية هي التي دونها الروسي او سيبينسكي F.I. Uspenski (١٨٤٥ - ١٩٢٨) قبل فاسيليف، واستروجورسكي G. Ostrogorski (١٩٠٢ - ١٩٧٧) بعده.

أجاد فاسيليف اليونانية واللاتينية منذ سني دراسته الأولى، ثم ضم إليها العربية فنصح أستاذه المستعرب الروسي الكبير فكتور روزن: (١٨٤٩ - ١٩٠٨) بأن يتخصص في الدراسات البيزنطية، فشرع منذ ذلك الوقت يجمع المادة من أجل مصنفه الأساسي «بيزنطة والعرب» Vizantia I Araby الذي ظهر بالروسية عام ١٩٠٠ - ١٩٠١ وتوجد له ترجمه فرنسية رفيعة تحت عنوان Byzance et les Arabes ... (خرج الجزء الأول منه عام ١٩٣٥ والثاني عام ١٩٥٠). وبما أن الكتاب يعالج علاقات الدولة البيزنطية مع الدولة العباسية، فاننا لم نر حاجة إلى الكلام عنه ها هنا.

ترك فاسيليف عدداً كبيراً من الكتب والمقالات والنقود في تاريخ الدولة البيزنطية وجيرانها، نذكر من بينها بحثه عن الامبراطور يوسطين الأول، Justin I (بالانجليزية ١٩٥٠) «والقوط بشبه جزيرة القريم»: The Goth in the Crimea (بالانجليزية ١٩٣٦). ومقالته المشهورة «شارلمان وهارون الرشيد» التي نازعه في استقرائها معاصره بارتولد الذي لم يكن اقل شهرة منه، فنفي وجود أي اتصال بين العباسيين والكارولنجيين ويقال: إن بارتولد هو الذي خرج بصفقة المغبون. وبخلاف ذلك نشر فاسيليف متن المؤرخ المسيحي العربي للقرن العاشر محبوب (اغابوس) المنبجي مع ترجمة فرنسية (١٩١٠ - ١٩١٥) كما نشر بالاشتراك مع كراتشكوفسكي تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي باللغة العربية مع ترجمة فرنسية (١٩٢٤ - ١٩٣٢).

ومقاله الوحيد الذي يمس الأمويين ظهر عقب وفاته على صفحات منشورات دمبارتون أوكس بواشنطن، ويحمل «قرار الخليفة يزيد الثاني بإزالة الصور من كنائس النصارى عام ٧٢١م». The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid II, A.D. 721 (Dum-

barton Oaks Papers, Vol. 9-10, 1955-1956) ويبدأ فاسيليف بأن يذكر أن الاسلام يقف موقفاً متشدداً من الصور، وبخاصة التماثيل وأشكال البشر المتعلقة بالديانة، ويحرم إدخالها في المساجد ثم يتفرغ للكلام عن القرار الذي اتخذه الخليفة يزيد الثاني بأن تُحطَّم الصور والتماثيل، وتُخرج من كنائس النصارى ومن منازلهم بالعالم الاسلامي، ويقارن بين هذه الفعلة وحركة تحطيم الصور التي انبعثت عقب ذلك بالدولة البيزنطية على زمن معاصره الامبراطور ليون الثالث (717 - 741)، وهي التي عرفت في التاريخ باسم اللايقونية Iconoclasm. ويضيف فاسيليف قوله: إن قرار ليون الثالث لعام 726 قد تأثر بقرار يزيد الثاني لعام 721.

ثم يقدم تحليلاً للمصادر التي تحدثت عن ذلك بمختلف اللغات، فيبدأ بالمصادر اليونانية مثل أقوال البطاركة، وتاريخ ثيوفان، وحوليات نقفور، ويستخرج منها القصة المتعلقة باثنين من السحرة اليهود تمكّنوا من أن يخدعا يزيد الثاني ليصدر أمره بتحطيم صور الكنيسة، على زعم أنهما سيسفياه من مرض عضال ألمّ به. فلما مات عقب قليل من ذلك أمر ابنه الوليد بارجاع الصور إلى الكنائس، وقتل اليهوديين المحتالين. وثمة مصادر أخرى لا تذكر اليهود وتحمل المسلمين مسؤولية ظهور اللايقونية بأراضي الدولة البيزنطية. كذلك يحلل فاسيليف المصادر السريانية التي تضيف إلى القصة أن يزيد كلف أخاه مسلمة بتنفيذ القرار وتزيد على ذلك أن ليون الثالث اقتدى بيزيد في سياسة اللايقونية.

بعد هذا ينتقل إلى المصادر العربية، وكلها مصرية ومتأخرة بعض الشيء مثل الكندي والمقرئزي وابن تغري بردي، ويبين أنهم جميعاً ينسبون تحطيم الصور إلى يزيد، ويضيف إليهم المؤرخ القبطي سويرس بن المقفع الذي يتهم جميع المروانيين باضطهاد النصارى. ويخرج فاسيليف آخر الأمر باستقراء مفاده أن جميع المصادر تتفق على واقعة تحطيم يزيد الثاني لصور النصارى، ولكنها لا تقطع بأثر هذا على ليون الثالث في موقف العداء الذي اتخذه من الصور (الايقونات) ببلاد الدولة البيزنطية.

وقبل أن نختم بحثنا هذا يجدر بنا أن نشير إلى شخصية عالم فلسطيني ذهب إلى روسيا في أواخر القرن الماضي طلباً للعلم، فأقام هناك وتزوج ومات وكان أستاذاً للادب العربي باحدى جامعاتها أثناء الحرب العالمية الثانية. هو بندي صليبا الجوزي (1871 - 1942) الذي ولد بالقدس ثم وقع الاختيار عليه من بين تلامذة المدارس الروسية بفلسطين ليكمل دراسته بروسيا. وقد تخرج في هذه المدارس الروسية بفلسطين وبخاصة من دار المعلمين (السمنار) بالناصرية شخصيات لعبت دوراً بارزاً في تطوير الأدب العربي الحديث، ونقلت إلى العربية حصة طيبة من آثار كبار الكتاب الروس أمثال بوشكين

وتورجينييف وتشيوخوف ودستيفيسكى وتلستوى وجوركى الخ كما لعبوا دوراً مهماً في نمو الصحافة العربية الحديثة، واكتسب بعضهم شهرة عريضة مثل ميخائيل نعيمة وخليل بيدس وسليم قبعين. ولما اشتدت وطأة الطغيان العثماني هاجر معظمهم إلى مصر وإلى العالم الجديد.

ويختلف عنهم جوزي في أنه من القلائل الذين وقع عليهم الاختيار كما قلنا لإكمال الدراسة العليا بروسيا فوجد طريقه إلى قازان قسبة منطقة التتار على نهر الفولجا إلى الشرق من موسكو حيث وُجد معهد للدراسات الشرقية مهمته إعداد الميشرين الارثوذكس غير أن ميول جوزي كانت أكاديمية فأكمل جامعة قازان ونال إجازتي الماجستير والدكتوراه ثم انتهى به الأمر أستاذاً للدراسات العربية بجامعة باكو عاصمة جمهورية أذربيجان السوفيتية. ولقد تأثر جوزي بقيام الثورة البولشفية وتشرب بالتالي تعاليم الماركسية اللينينية مما انعكس في محاولته لتطبيق مذهب المادية التاريخية في ما دونه بالعربية.

ذلك أن جوزي لم يقطع علاقته بوطنه فلسطين، فقد زارها ثلاث مرات ألقى فيها محاضرات في تاريخ الحركات الأيديولوجية في الاسلام وطبع كتابه المشهور «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام» عام ١٩٢٨ بمدينة القدس. كما زار القاهرة برفقة صديقه خليل سكاكيني. وإلى جانب بحوثه ومقالاته باللغة الروسية ظهر له عديد من المقالات بكبريات الصحف العربية مثل المقتطف والهلال والنفائس العصرية. بعضها ترجمات من الروسية والبعض الآخر من تأليفه، ومما تحدث فيه عن تاريخ الأمويين:

١ - مقال بعنوان «حنين العرب إلى بني أمية» (المقتطف ١٩٣١).

٢ - مقال بعنوان «السفياي» (المقتطف ١٩٣٣).

٣ - ترجمته العربية لمقال بارتولد عن العباس بن الوليد، (المقتطف ١٩٣١).

ولم تكن ترجمته لمقال بارتولد عن العباس بن الوليد هي المحاولة الوحيدة من طرفه لتعريف القارئ العربي بآثار ذلك المستشرق والمؤرخ الروسي الجليل فقد ترجم له «مسيلم الكذاب» و«القرآن والبحر». كذلك يذكر له الدارسون بالكثير من الخير ترجمته لكتاب المستشرق الألماني تيودور نولدكه Th. Nöldke «آل غسان» من الألمانية بالاشتراك مع الأستاذ قسطنطين زريق، وقد نشرت ببيروت عام ١٩٣٣.

وبحوث جوزي في التاريخ تتميز بالكثير من الأصالة، وإن أمكن أن نلاحظ فيها الأثر العميق لبعض كبار المستشرقين مثل بارتولد وكر اتشكوفسكى من جهة ومثل نولدكه وفلهاوزن ولامنس من جهة أخرى. ولنذكر أن الدوائر الفلسطينية والسوفيتية احتفلت

بذكره عام ١٩٧٧. فتم بهذه المناسبة جمع مقالاته التي ظهرت بالعربية في كتاب صدر بعنوان «بندلي صليبا جوزي: دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب» (دار الطليعة بيروت ١٩٧٧). كما طبع كتابه الاصيل في تاريخ الحركات الأيديولوجية في الاسلام طبعة جديدة عام ١٩٨١ وذلك ضمن سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني بعد أن أصبحت الطبعة الأولى عزيزة المنال.

ولنشرع الآن في تحليل مقاله المهم عن بني أمية «حنين العرب إلى بني أمية» الذي ظهر عام ١٩٣١ وهو يبدأه بالاستشهاد ببيت لشاعر عربي:

وإنهم معدن الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب

ويعقب ذلك بقوله: «لم تكد الخلافة تنتقل من بني أمية إلى بني العباس حتى اندفع هؤلاء ومن مالأهم ووالاهم أو من اشتروه بأموالهم وأصطنعوه بعطاياهم من المؤرخين والشعراء والفقهاء والمحدثين ونقله الأخبار أو من اضطروه إلى ذلك بطرق الارهاب والتنكيل من الوزراء والكتبة وسائر طبقة المتوظفين في الطعن على الأسرة المغلوبة وتصوير أعضائها وحكمهم في أقبح صورة فلم تبق رذيلة إلا نسيوها إليهم أو مثلبة إلا ألحقوها بهم أو القاب قبيحة إلا نبزوهم بها... وياليتهم اكتفوا بذلك لكنهم حاولوا أن يكفروهم ويخرجوهم عن دين السنة والجماعة ليقضوا عليهم في نظر الشعب البسيط، فأخذوا يؤولون الآيات القرآنية حسبما شاءت أهواؤهم وأغراضهم السياسية إلى غير ذلك من الأحاديث الملقفة، والتهم الكاذبة التي نجدها مذكورة في رسالة المأمون أو المعتضد بالله التي أمر بانشائها وقراءتها على المنابر يوم رأى الناس في عاصمته وبالقرب من قصره يقضون الليالي في استماع الأخبار لبني أمية والتحدث بمآثرهم وعزم الغابر، ويوم شاهد بنفسه حنينهم إليهم وانتظار خروج السفيناني».

ثم ينبري جوزي للدفاع عن بني أمية فيقول: «على أن كل ذلك لم يكن ليقوى على محو آثار بني أمية والحط من قدرهم وتنفير الأمة العربية منهم» مضيفاً: «وإنه يسرنا أن نرى بعض مؤرخي الغرب ممن اشتغل بتاريخ العرب قد انتبه أخيراً إلى ما أدخله أعداء بني أمية على تاريخهم من التزوير فأخذ يعمل على كشف الحقيقة واعطاء كل ذي حق حقه».

ويشير في هذا الصدد إلى آثار فلهاوزن وكايتاني ولانمس وبارتولد. ثم يقول: إن اللحظة مواتية لينصف العرب المحدثون بني أمية، وإن مقاله هذا ليس سوى اسهام بسيط في هذا المجال.

بعد هذا يتطرق إلى حقيقتين يقول: إنه لا سبيل إلى الشك فيهما أحدهما أن العرب كانوا دائماً يحنون إلى بني أمية ويودون لو عاد الحكم إليهم كما كانوا يفضلونهم وسياستهم على بني العباس وسياستهم. ويضرب مثلاً لذلك المحاولات التي جرت في العصر العباسي لانتزاع الحكم «من أيدي المغتصبين الذين استعانوا في أخذه بالأعاجم» ورده إلى بني أمية، ويسوق أمثلة لهذه المحاولات ويتبع هذا بالكلام على «السفياي» فيقول: إن الناس كانت تنتظر مجيئه، شأنهم شأن اليهود والنصارى في المسيح ثم يعد بأنه سيفرد «للسفياي» مقالة خاصة، وقد برّ بوعده بالتالي كما سنرى.

ثم يقول: «وقد تبين لي... أن حنين العرب إلى بني أمية وانتظارهم ظهور أحدهم كانا يشندان ويقويان كلما كانت الأمة تشعر بضعف الدولة العباسية وتراجعها أمام أعدائها في الخارج والداخل». بعد هذا يتعرض لتحليل طويل لرسالة المعتضد العباسي ودعوته إلى لعن الأمويين على المنابر رداً على ميل العامة إليهم، والذي انعكس في أشعار ذلك الزمان مثل قول بشار:

بني أمية هبوا طال نومكم
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا

إن الخليفة يعقوب بن داود
خليفة الله بين الدف والعود

أو قول آخر:

لا أحسب الجور ينقضي وعلى
الأمة وال من آل عباس

أو قول ثالث:

فليت جور بني مروان عاد لنا
وليت عدل بني العباس في النار

أما الحقيقة الثانية التي يشير إليها جوزي فهي أن بني العباس وأتباعهم أقروا لخصومهم بني أمية بالتفوق عليهم وأخذوا يتمثلون بهم أحياناً في تصرفاتهم وسياستهم ويقدرون عمالهم حق قدرهم مثل زياد والحجاج. ثم يسوق الشواهد التاريخية على ذلك، مثل رواية لابن الطقطقى في كتابه «الفخري في الآداب السلطانية» عن الخليفة العباسي الواثق أنه كان يقول: «إني أستحي أن يكون في بني أمية مثل عمر، ولا يكون مثله في بني العباس».

أما مقاله الآخر عن الأمويين فظهر عام ١٩٣٢ بعنوان «السفياي» ويبدأه بتحليل فلسفي للعوامل المؤثرة في حياة الأمم فيقول: إن الأمم عندما تقهر وتغلب على أمرها ولا تستطيع مناهضة عدوها تحلم بالنجاة في المستقبل على يد شخص ينبعث من أمته المقهورة ليرد إليها اعتبارها «وعن هذا الأمل نشأ كما يظهر لي اعتقاد الناس بالخلص

والمهدي والإمام وما أشبه ذلك من الألفاظ المختلفة لفظاً والمتفقة معنى، وبأن الله يبعثه في فترة من الزمن أو في آخر الأزمان ليعيد السلام إلى نصابه، ويملا الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً».

ويتتبع جوزي تطور الفكرة منذ أقدم العصور، أولاً لدى الفرس الهخامنشيين ثم لدى اليهود والنصارى في شخص المسيح، وأخيراً لدى العرب في شخص المهدي المنتظر. ويضيف إلى هذا أن فكرة المخلص ظهرت في بادئ الأمر بين الطبقات المقهورة مثل الفلاحين والأجراء، وأن أساسها اقتصادي بحت، لذا فليس من شأنها أن تظهر وسط المجتمعات البدوية بل بعد نمو الحضارة وقيام السلطة المركزية، وتطور العلاقات الاقتصادية التي تسوق إلى ظهور الطبقات وإلى الصراع الطبقي في نهاية الأمر.

ثم يضرب مثلاً بتاريخ اليهود ليفسر ظهور فكرة المسيح لديهم والاختلاف حول زمن مجيئه وينتقل بعد هذا إلى الكلام عن الفكرة في الإسلام فيقول: إن فكرة المهدي أو الإمام المحتجب جلبها إلى المسلمين اليهود الذين أظهروا الإسلام مثل عبدالله بن سبأ وغيره، وذلك بعد مقتل علي. فغالوا في علي وأولاده حتى نسبوا إلى علي صفات إلهية، وأنه سيصعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ثم يرجع، (وهذا ما يسمى القول بالرجعة) لينتقم من أعدائه ويمتلك الأرض وأتباع هذه الفرقة يزعمون أن المهدي هو علي دون غيره وتبعهم في ذلك أكثر الروافض وسائر الغلاة مع اختلاف بينهم في شخص المهدي واسمه أو الإمام المنتظر بين أن يكون علياً نفسه أو أحد أبنائه أو أحفاده على أنهم قد أجمعوا على أن المهدي لا بد أن يخرج من بيت علي أو بيت النبي وعترته. وظهرت في هذا الصدد أحاديث ملفقة لا يكاد يحصرها العد، وبهذا انتشرت الفكرة عن المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

وكانت الفكرة في البداية أن المنقذ سيكون من العلويين غير أن الاعتقاد لم يلبث أن انتقل من الشيعة إلى غيرهم حينما انحصر الأمر في إعادة الحكم إلى جماعة بعينها.

يركز جوزي في الصفحتين الأخيرتين من مقاله كلامه عن السفيناني فينقل عن كتاب الاغانى أن أول من صنع خبر «السفيناني» هو خالد بن يزيد بن معاوية حين غلبه مروان ابن الحكم على الملك. من هذا يتضح لنا أن فكرة السفيناني بطل آل سفينان كانت فكرة سياسية هدفها إعادة الحكم إلى بني سفينان ثم بالتالي إلى بني أمية عندما غلبهم العباسيون على الحكم. وقد اقتصر في البداية على عرب الشام وبعض الناقمين على بني العباس من العرب. ولقد شق عرب الشام عصا الطاعة مراراً على بني العباس باسم السفيناني، ويورد جوزي خبراً لدى الطبري في أحداث عام ١٩٥هـ (٨١٠م) مفاده أن

شخصاً «دعا لنفسه بالخلافة مدعياً أنه السفيناني المنتظر، وقوي على سليمان بن (أبي جعفر) المنصور عامل دمشق، فأخرجه عنها بعد حصره إياه وأعانه على ذلك الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية، وكان أكثر أصحابه من كلب». ثم يشير جوزي إلى عدد من الأشخاص ادعوا أنهم السفيناني بمواضع مختلفة من الشام.

ويختتم جوزي مقاله هذا بالألفاظ ذات مغزى، وذلك بقوله: «ولم ينته أمر السفيناني إلا بعد أن سقطت دولة بني العباس بأيدي السلاجقة ثم المغول حين لم يبق داع إلى النزاع بين الأحزاب العربية السياسية القديمة وحين عمّ الاعتقاد بوجوب ظهور مهدي عام، يملأ الارض قسطاً وعدلاً ويحيي الأمة العربية جميعها، ويرد إليها عزها السالف، ويوحد كلمتها. فهل يكون ذلك يا ترى ومتى؟ وهل يكون على يد السفيناني أم على يد شخص آخر؟».

إن هذه الألفاظ محملة بالمعاني وذات مغزى عميق يجعلنا نبحث عن الدوافع التي تقف وراء بحوث بندي عن العرب عامة وعن بني أمية خاصة. ومن الجلي أن طالب اللاهوت السابق قد تحوّل إلى أممي تحت تأثير الماركسية اللينينية، وجهد في تفسير التاريخ الاسلامي وفقاً لمبادئ المادية التاريخية. غير أنه ظل مواطناً عربياً يؤمن بالقومية العربية شأنه شأن عدد كبير من أبناء المسيحيين العرب بجميع بلاد الشام في ذلك العصر، وانضم إلى ذلك اعتقاده بوحدة سوريا الكبرى وقيادتها للعالم العربي كما حدث في زمن الأمويين، وكان مما قوى هذه الفكرة في نفسه كونه فلسطينياً أبصر منذ ذلك الوقت تغول الصهاينة على وطنه فلسطين.

ويتضح لنا من متابعة الفكر العربي في القرن العشرين، وبخاصة في النصف الثاني الذي اتصف بعدد من الضربات الشديدة التي وجهت إلى الوطن العربي أن جوزي لم يكن الوحيد الذي تدبر ماضي العرب ليستخرج الحلول لمستقبلهم، فقد عالج عدد من المفكرين والمؤرخين المحدثين بالأقطار العربية الكلام على الأمويين بوصفهم النموذج الذي يجب أن يحتذى لدولة عربية محضة شملت العالم العربي اجمع، وحققت الكثير من الانجازات في جميع الميادين. وقد استند هذا المفهوم إلى حد كبير على ضرورة جمع كلمة العرب عقب الحرب العالمية الثانية خاصة في وجه الامتداد الصهيوني الذي هدد كيانه في الصميم^(٤٠).

(٤٠) ظهر منذ اعوام بحث بالامانية يعالج هذا الموضوع بالذات:

Werner Ende, Arabische Nation und Islamische Geschichte. Die Umayyaden im Urteil arabischer Autoren des 20. Jahrhunderts, 1977.

ملحق

عمر بن عبد العزيز وتضارب الأخبار حول شخصه

بقلم

فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد

نقله عن الروسية

صلاح الدين عثمان هاشم

كانت فترة الأعوام الثلاثة التي تولى فيها عمر بن العزيز (٧١٧-٧٢٠) خلافة المسلمين حدثاً استثنائياً من جميع الأوجه، لا في تاريخ الدولة الأموية وحدها بل في تاريخ دولة الاسلام بكاملها. ذلك أن الأمويين في رأي المؤرخين قلبوا الجماعة الدينية الاسلامية إلى دولة زمنية حكموها حكم «الملوك» على نقيض ما كان عليه الحال في عهد «الخلفاء الراشدين»^(١)، أما عمر بن عبد العزيز فقد دُعي أحياناً خامس الخلفاء الراشدين جنباً إلى جنب مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وظل بالنسبة للأجيال التالية من المسلمين مثال الحاكم الاسلامي التقى الذي لم يستطع أن يأتي بمثله «آل البيت» الذين تولوا السلطة بعد سقوط الدولة الأموية. والمؤرخ ابن الأثير في ثنائه على الحكم القصير الأمد لواحد من أواخر بني العباس وهو الخليفة الظاهر (١٢٢٥-١٢٢٦) قال في حقه إنه ذكّر المسلمين بأيام عمر بن عبد العزيز^(٢).

أما المؤرخون المستشرقون من الأوروبيين ممن كتبوا عن عمر بن عبد العزيز فإنهم يصورونه في العادة بأنه كان صادقاً في عقيدته، ولكنه لم يكن شخصاً عملياً بل كان مثالياً محدود الأفق وعلى استعداد للتضحية من أجل أهدافه الدينية بجميع مصالح الدولة التي شيدها أسلافه. وعلى نقيض هذا فإن فلهاوزن J. Wellhausen في مصنفه المعروف «الدولة العربية وسقوطها» الذي رأى النور عام ١٩٠٢^(٣)، يبصر في عمر مثلاً المصلح

(١) Goldziher, Muhammedanische Studien, T. II, s. 34. أما عبارة «هو أحد الخلفاء الراشدين، فتوجد لدى النووي، ص ٤٦٤، راجع الإشارة إلى سفيان في نفس ذلك المصدر، ص ٤٦٥.

(٢) ابن الأثير، طبعة تورنبرج الجزء الثاني عشر، ص ٢٨٧، قارن بارتولد، «الخليفة والسلطان»، الآثار الكاملة بالروسية، الجزء السادس، ص ٣٤.

(٣) 1900. s. خاصة Wellhausen, Das Arabische Reich, S. 166 sq. «وعلى الرغم من أن أشياء كثيرة لا تزال غامضة فإن ثمة شيئاً واحداً واضحاً إلى حد كبير، وهو أن المؤرخ يجلب لنفسه السخرية إذا نظر إلى عمر بن عبد العزيز نظرة استهزاء مقصود، وهذا هو ما بدأه دوزي، فأعطى بذلك الإشارة لغيره». وهنا يوجه فلهاوزن نقده قبل كل شيء إلى كريمر Kremer أو موللر A. Muller ولا يذكر عبارة نولدكه des ausserst braven, aber beschränkten Idealisten Omar II (عمر الثاني الذي تميز بشجاعته الكبرى، ولكن بأفق محدود). (Noldeke Orientalische Skizzen, s. 87 sq.

الذي وضع لنفسه أهدافاً معقولة للغاية، وإن تجاوزت في كثير من الأحيان حدود طاقته. ويجهد فلهاوزن في التدليل على أن الخليفة التقي لم يكن شغله الشاغل ابتغاء الآخرة فحسب، بل اسعاد رعيته أيضاً، وأن جهوده لحمايتهم من المظالم ومصالحته لجميع العناصر المعادية للأسرة الحاكمة وذلك دون اضرار كبير بمصالح الدولة أو بيت المال، أبعاد من أن يشهد بضيق في الأفق أو قصر في النظر السياسي. غير أن رأي فلهاوزن هذا لم يحظ بتعصيد كبير. ففي كتاب نال الرواج بين جمهوره القراء (وإن خرج من يد متخصص) ورأى النور عام ١٩١٤ ينعت عمر بأنه «ظاهرة مثالية لشخص بلغ به التهوس الروحي حداً لا يتفق مع مفهوم الرجولة»^(٤). Idealerscheinung eines unmännlichen Schwär-
mers

وواقع الحال أن فلهاوزن ينسب إلى عمر صفات قل أن تجتمع في شخص واحد؛ فهو يصور الخليفة على أنه سياسي ماهر، وفي ذات الوقت شخصية لا تتهاون في مبادئها، ورضع تلك المبادئ الدينية منذ أيام الصبا، وسار عليها في الأعوام التالية لذلك، ثم أسلمها القيادة أيام توليه الخلافة. وقد ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة وفقاً لقول فلهاوزن، وأمضى الشطر الأكبر من حياته بها، فتغذى بلبان التراث الروحي «لمدينة الرسول»^(٥). وبعد وفاة والده عبد العزيز بن مروان استدعاه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دمشق وزوجه من ابنته، وفي عهد خلافة الوليد الأول (٧٠٥-٧١٥) عاد عمر إلى المدينة والياً عليها، لأن الخليفة أراد أن يجتذب إليه فقهاءها. غير أن الخليفة الوليد بعد أعوام من ذلك اضطر إلى استدعائه، استجابة لشكوى الحجاج بن يوسف الثقفي من أن الحجاز في ولاية عمر أضحت ملاذاً لجميع عناصر الاضطراب بالعراق التي هربت من يد الحجاج. وكان عمر أثناء ولايته بالمدينة على اتصال بالفقهاء ورجال الدين بوجه عام، دون أن يهتم كثيراً بموقف العداء الذي اتخذوه ضد الدولة الأموية، ولما تحير الخليفة سليمان ابن عبد الملك وهو على فراش الموت حول من يخلفه أقنعه فقيه البلاط رجاء بن حيوة بأن يقوم بعمل صالح فيعهد بالخلافة لابن أخيه التقي^(٦). (هذه هي صورة عمر بن عبد العزيز كما يقدمها لنا فلهاوزن).

(٤) راجع أيضاً الفاظ قريمسي «عمر الثاني المتعصب الديني»

Mann, Der Islam, S. 86. Krymski, Istorja Arabov, ch. 2, 1912, s. 128.

(٥) الذي تغذى على تقاليد «مدينة الرسول» S.166 Wellhausen, Das Arabische Reich,

(٦) نفسه ، S. 165

وفلها وزن يردّد في العادة رواية الطبري التي ترتفع إلى الواقدي (المتوفى عام ٨٢٣)، ولكنه لا يشير إلى وجود رواية أخرى يمكن أن يفهم منها أن عمر بمجرد توليه الخلافة تحول إلى شخصية مخالفة لشخصيته السابقة. هذه الرواية الثانية التي ترتفع فيما يبدو^(٧) إلى المدائني معاصر الواقدي^(٨) تتفق أكثر مع الواقع، بحيث لم يستطع الواقدي نفسه أن يتجاهل بعض تفاصيلها. وهناك رواية تسترعي الانتباه أكثر من غيرها وهي ما ألحقه عمر من عقوبة صارمة بخبيب بن عبد الله بن الزبير، حسب قول اليعقوبي^(٩) فقد أمر الخليفة الوليد عمر بتوسيع مسجد الرسول، وهدم المنازل التي حوله وأضافها إليه، بما في ذلك حجرات أزواج الرسول الملاصقة للمسجد. فلما بدأ هدم الحجرات ناشده خبيب بألا يمس أبنية ورد ذكرها في القرآن^(١٠). فأمر عمر بضربه مائة سوط ونضحه بالماء البارد فمات، وحدث ذلك في يوم بارد. ويستمر اليعقوبي في قوله: «فكان عمر لما ولي الخلافة وصار إلى ما صار إليه من الزهد يقول من لي بخبيب» (أي يوم الحساب عندما يسأله الله عما فعل به). كذلك يحدثنا الواقدي عما أجراه عمر من تعديل في مسجد المدينة تنفيذاً لأوامر الوليد (وتوشك ألفاظ الطبري واليعقوبي أن تتطابق في هذا الصدد)، كما يذكر أيضاً موت خبيب. غير أن الواقدي لا يربط بين الحادثتين، ويعود بهما إلى عامين مختلفين. وحسب روايته فإن العمل بالمسجد قد بدأ عام ٧٠٧^(١١) وأكمل عام ٧٠٩^(١٢)، بينما حدث مقتل خبيب عام ٩٣هـ أي ٧١١ أو ٧١٢ للميلاد. وفيما يتعلق بهذه الحادثة الأخيرة لا يزيد الواقدي على أن يذكر أن خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حكم عليه بهذه العقوبة بأمر الوليد، ولكنه لا يوضّح السبب في سخط الخليفة عليه^(١٣). أما التفاصيل الواردة بصدد عقوبته فإن الواقدي يصفها لنا بنفس الألفاظ التي يستعملها تقريباً مصدر اليعقوبي. غير أنه يعتمد في روايته لها على قول شخص أخذ من شاهد عيان^(١٤).

(٧) راجع الاهتمام بالإشارة إلى المدائني (علي بن محمد) لدى كل من ابن سعد محمد بن سعد الزهري ت ٢٢٠هـ/٨٤٥م (الطبعة الأوروبية، الجزء الخامس، ص ٢٤٦ و ٢٤٩ و ٢٥٤) ولدى المسعودي (الطبعة الأوروبية، الجزء الخامس، ص ٤٢٤).

(٨) تختلف الأقوال في عام وفاة المدائني، فبياقوت (الارشاد، الجزء الخامس، ص ٢٠٩) يجعله ٢٢٥هـ - ٨٤٠م، والطبري (القسم الثالث، ص ١٣٢٠) ٢٢٨هـ - ٨٤٣م.

(٩) تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني، ص ٣٢٩ وما بعدها.

(١٠) القرآن، ٤٩ سورة الحجرات، الآية ٤ «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون».

(١١) وفقاً للطبري في ربيع الأول (القسم الثاني ص ١١٩٢) أو في صفر (القسم الثاني، ص ١١٩٤) من عام ٨٨هـ.

(١٢) عام ٩٠هـ - لدى اليعقوبي (التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٤٠).

(١٣) راجع القصة الواردة في ١,4 Fragmenta حيث يقول: إن «صاحب البريد أفاد الخليفة باحتجاج خبيب فيما يتعلق بهدم الحجرات، فأمر الوليد عمر بأن يضربه مائة سوط وينضحه بالماء البارد. ووفق هذه القصة فإن عمر تأسف على أنه لم يقتصر على الجلد وحده».

(١٤) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢٥٥.

بيد أن عمر بن عبد العزيز لم يكن «مدنياً» إلا في عين شخص من أركان السنة كالبخاري^(١٥). حقاً إن ثمة دليلاً في الأخبار المرتبطة بسيرة حياته على أن والدته أم عاصم أوليلي حفيدة عمر بن الخطاب عاشت بالمدينة، غير أنه ينضح من معجم السير للنووي^(١٦) أنها سكنت دمشق، وهناك بنى بها والد عمر وهو عبد العزيز بن مروان بن الحكم أخو الخليفة عبد الملك. ويقال: إن عبد العزيز قدّر هذه المصاهرة مع آل الخطاب حق قدرها، فلما أراد الزواج من أم عمر أمر «قيمه» بأن يجهز لعرسه أربعمائة دينار^(١٧). ويقول النووي نفسه: (١٨) إن عمر ولد بمصر، في عام ٦١ للهجرة، ٦٨٠/٦٨١ وفقاً لأحدى الروايات أو في عام ٦٢ هـ ٦٨٢/٦٨٣ وفقاً لرواية أخرى (ابن سعد بالذات). وفي كلا الحالتين فإن هذا الحادث من شأنه أن يقع قبل تعيين والده والياً لمصر. غير أنه يوجد لدى مؤرخي مصر الإسلامية^(١٩) رواية تقول: إن عبد العزيز زار مصر قبل ذلك على زمن ولاية مسلمة بن مخلد (٦٦٧-٦٨٢). ويمكن أن يستنتج من رواية الطبري^(٢٠) أن عبد العزيز كان في عام ٦١ هـ مع أبيه بالمدينة، وأنه أخذ طرفاً مع أخيه عبد الملك في سفارة إلى عبد الله ابن الزبير بمكة. ولكن في حكاية أحداث عام ٦٣ هـ عندما حوّر مروان ومعه عبد الملك وغيرهما من الأمويين «بدار مروان» بالمدينة وقسروا بالتالي على مغادرتها^(٢١) لا يرد ذكر لعبد العزيز بينهم، فلعله كان آنذاك بمصر. وفي الأعوام التالية لذلك كان عبد العزيز مع أبيه، وشارك مشاركة فعلية في المعارك التي أنقذت الأمويين من التلف. ففي واقعة مرج راهط عام ٦٨٤ التي ضمنت سيادة الأمويين على الشام صرع عبد العزيز من حصانه^(٢٢). وأثناء فتح مروانيين لمصر كان على رأس القوات التي دخلتها من أيلة^(٢٣). ولما غادر مروان مصر في فبراير ٦٨٥^(٢٤) عين ابنه عبد العزيز والياً عليها، فشغل هذا المنصب إلى وفاته

(١٥) ترد الإشارة إليه لدى النووي، ص ٤٠٦.

(١٦) نفسه، ص ٤٦٤.

(١٧) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٤٣ وما يليها، النووي، ص ٤٦٦.

(١٨) النووي، ص ٤٦٥ وما يليها، عام ٦٢ هـ، وأيضاً ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٤٣، عام ٦٢ هـ - ولدى الطبري، القسم الثاني، ص ١١٨٢.

(١٩) الكندي، ص ٥٤.

(٢٠) الطبري، القسم الثاني، ص ٣٩٧.

(٢١) نفسه، ص ٤٠٥ وما يليها.

(٢٢) نفسه، ص ٤٧٩ في أسفلها.

(٢٣) الكندي، ص ٤٢ و٤٣.

(٢٤) رجب عام ٦٥ هـ لدى الكندي، ص ٤٨.

التي حدثت وفقاً للكندي عام ٧٠٥^(٢٥)، بينما يجعلها الطبري^(٢٦) ومصادر أخرى^(٢٧) في عام ٧٠٤. وعلى مدى ولايته لمصر لم يزر الشام إلا مرتين، إحداهما في الثمانينات والأخرى في التسعينات من القرن السابع حينما وفد على أخيه عبد الملك، وحضر اخماد ثورة أحد الأمويين، حيث تركه عبد الملك ممثلاً له بدمشق^(٢٨) (عند خروجه لقتال مصعب بن الزبير؛ وهو عمرو بن سعيد الأشدق). وكان عبد العزيز يحكم مصر حكم المستقل، ويتصرف في خارجها حسب ما يهوى؛ كذلك ضُمَّت إلى ولايته أفريقيا الشمالية^(٢٩). وبما وجد تحت تصرفه من الأموال بنى «الدار المذهبة» بالفسطاط، وذلك إلى الغرب من مسجد عمرو الذي اهتم بتوسيعه وترميمه. كذلك بنى عدداً من الدور والمساجد وغرس الكروم والنخيل بخلوان المجاورة للفسطاط، وسكن بها عام ٦٨٩ وبها توفي^(٣٠). غير أن أسلوب حياته لم يتميز بالترف، فقد خلف وراءه ثياباً مرقوعة^(٣١)، ولم يعثر في خزائنه على أكثر من سبعة آلاف دينار عند وفاته^(٣٢). وقد عرف عبد العزيز بأنه كان أرقّ خلقاً من أخيه عبد الملك، وكثيراً ما جهد في رده عن القسوة مع الأعداء^(٣٣). كذلك لم يكن غريباً على الورع. فلما حضره الموت قال: «ألا ليتني لم أكن شيئاً مذكوراً، ألا ليتني كنت كناسة من الأرض أو كراعبي ابل في طرف الحجان»^(٣٤).

وكان عمر تجاوز العشرين عند وفاة أبيه وأغلب الظن أنه أمضى شطراً كبيراً من شبابه ببلاط أبيه بمصر، فقد ورث عن أبيه أشياء وقعت له، وفقاً للأسطورة، من أموال فرعون^(٣٥). وفي الروايات المتعلقة بأخبار مصر في ذلك الوقت لا يرد سوى ذكر واحد فقط من أولاد عبد العزيز وهو الأصبغ^(٣٦). الذي كان محبباً إلى أبيه حتى أراد أن يعينه خلفاً

(٢٥) نفسه، ص ٥٥ (جمادي الأولى عام ٨٦هـ).

(٢٦) الطبري، القسم الثاني، ص ١١٦٥ (جمادي الأولى عام ٨٥هـ).

(٢٧) اليعقوبي، التاريخ الجزء الثاني، ص ٣٣٥، عام ٨٥هـ.

(٢٨) الطبري، القسم الثاني، ص ٧٨٢ وما يليها، وعن عبد العزيز، نفسه ص ٧٨٩-والكندي، ص ٤٩.

(٢٩) راجع عن عبد العزيز مقال سترستين K.V. Zettersteen بدائرة المعارف الإسلامية، وأيضاً مقال بيكر Becker عن مصر بدائرة المعارف الإسلامية.

(٣٠) عن هذه المباني راجع الكندي، ص ٥٥.

(٣١) نفسه، ص ٥٥.

(٣٢) نفسه، ص ٥٥.

(٣٣) القصة لدى الطبري، القسم الثاني، ص ٧٨٩ وما يليها. راجع قول الشعبي الوارد لدى اليعقوبي (التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٣٤ في أسفل: «فأتيت عبد العزيز فما رايت ملكاً كان أسمح أخلاقاً منه».

(٣٤) الكندي، ص ٥٥.

(٣٥) الطبري، القسم الأول، ص ٤٨٥.

(٣٦) راجع عنه الكندي، ص ٥١ و٥٤، وسويرس، ص ١٢٢ في أسفلها.

له^(٢٧)، ولكنه فقدته قبل وفاته بقليل ويقول ابن قتيبة بصدد الأصبح إنه كان عالماً وبإمكانه أن يتكهن بالغيب، ويزعم أنه تنبأ بالمصير الذي سيصير إليه أخوه عمر عندما أصابه حافر دابة في وجهه ترك أثره عليه مدى حياته^(٢٨). وينسب المؤرخون إلى عمر بن الخطاب نبوءة فحواها أن أحد خلفه الذي سيحمل علامة على وجهه سيملاً العالم عدلاً. وثمة أسطورة تقول: كان «الأشج» سيكون أحد بني أموية^(٢٩). ويعتقد العلماء أن نبوءة كهذه وجدت بسفر دانيال^(٤٠). ويقول الطبري: إن الحادث وقع لعمر بدمشق^(٤١)، وبخلاف هذا لا يرد لدى الطبري شيء فيما يتعلق بصباه^(٤٢). وجميع أولاد عبد العزيز بلغ عددهم العشرة، سبعة بنون وثلاث بنات^(٤٣) تزوجت إحداهن من ابن عبد الملك وخلفه الوليد.

وبعد موت عبد العزيز عين عبد الملك والياً على مصر ابنه عبد الله بن عبد الملك، وأمره أن يزيل ما أمكنه من آثار عبد العزيز بها^(٤٤). وبطبيعة الحال لم يعد بمقدور أولاد عبد العزيز البقاء بمصر؛ ويبدو أنهم انتقلوا إلى دمشق. وقد زوّج عبد الملك عمر من ابنته فاطمة، التي قدّر لها أن تعيش بعد زوجها وأن تكون إلى جانبه عندما لفظ أنفاسه الأخيرة. ولم تكن بطبيعة الحال زوجه الوحيدة^(٤٥). ولقد حاز عمر على رضى صهره؛ وثمة ما يشير إلى أنه كان يجلس في مكان أرفع من جميع أولاد الخليفة إلا ولي العهد الوليد^(٤٦). وأرفع مكانة من هذه حازها عمر في خلافة الوليد (٧٠٥-٧١٥) الذي عينه عام ٧٠٦ والياً على المدينة حيث نزل بدارجده مروان بن الحكم. وقد وصلت أمتعة الوالي الشاب محملة على ثلاثين بعيراً، الأمر الذي نوّه به الواقدي^(٤٧).

يبدو واضحاً من هذا أن عمر تميّز حتى من بين أفراد الأسرة الأموية بأسلوب حياته الفاخر. هذه الواقعة يؤكدّها عدد من روايات المؤرخين فيقال مثلاً: إنه لم يحدث أن

(٢٧) يقول الطبري (القسم الثاني، ص ١١٦٧)، الشيء نفسه عن ابنه الآخر أبي بكر.

(٢٨) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٨٤.

(٢٩) «أشج بني مروان» نجدها في كتاب الأغاني، الجزء الثامن، ص ١٥١.

(٤٠) ترد لدى ابن قتيبة (كتاب المعارف، ص ١٨٤) الالفاظ «الدردوق هو في كتاب دانيال الأشج»، مع الإشارة إلى الأصمعي.

(٤١) الطبري القسم الثاني، ص ١٦٣٢. ووفقاً لكتاب Fragmenta, I, 39 بمصر.

(٤٢) القصة حول أن عمر أذن له والده بالدراسة في المدينة توجد في Fragmenta, I, 40.

(٤٣) تعدادهم لدى ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٨٤.

(٤٤) الكندي، ص ٥٨.

(٤٥) راجع تعداد نساء عمر وأطفاله لدى ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٤٢ وما يليها.

(٤٦) كتاب الأغاني، الجزء الثامن، ص ١٥١.

(٤٧) الطبري، القسم الثاني، ص ١١٨٢، راجع اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٣٩.

بذل أحد من الأموال على عطره وملبسه وخيله كما فعل عمر^(٤٨). ومن كثرة الطيب في ملابسه كان الناس يعطون الغسّال دراهم أكثر حتى يغسل ثيابهم في أثر ثياب عمر بن عبد العزيز لتكتسب رائحة طيبة^(٤٩). وحكى تاجر للأصواف أن عمر أمره وهو وال على المدينة أن يشتري له ثياباً كان فيها ثوب بأربعمائة درهم فوجده غليظاً، ثم أمر بشراء ثوب له وهو خليفة فاشتروه بأربعة عشر درهما فوجده لينا رقيقاً^(٥٠). ويحكي المسعودي القصة نفسها فيقول: «كان يُشترى لعمر قبل خلافته الحلة بألف دينار فإذا لبسها استخسنتها ولم يستحسنها، فلما أتته الخلافة كان يُشترى له قميص بعشرة دراهم فإذا لبسه استلانه»^(٥١). وبالمدينة كان عمر يجود بسخاء على من مدحه من الشعراء، وفي ذات مرة جاد على واحد منهم بخمس عشرة ناقة لقصيدة مدحه فيها^(٥٢).

وكان سلف عمر في ولاية المدينة هو هشام بن اسماعيل المخزومي صهر الخليفة عبد الملك بن مروان وجدّ ابنه هشام الذي ولي الخلافة فيما بعد^(٥٣). غير أن عمر لم يعبأ بمنزلته الرفيعة فأوقفه أمام الناس بأمر الخليفة الوليد ليتظلم منه من يريد. وكان هشام هذا أثناء ولايته المدينة قد أساء السيرة وجرّ في الأحكام وتحامل على آل رسول الله وعلى الفقهاء الذي كان على رأسهم سعيد بن المسيّب، وعلى العلويين وعلى رأسهم علي بن الحسين، أما الآن فقد حرّج سعيد وعلي فيما يبدو على أتباعهما ألا يتعرض أحد له ولا يؤذيه بكلمة^(٥٤).

ووفقاً لقول الواقدي^(٥٥) فإن عمر بمجرد وصوله إلى المدينة جمع إليه فقهاءها ووعدهم بأنه لن يقطع أمراً إلاّ برأيهم. ويرد من بينهم ذكر اثنين من أحفاد عمر بن الخطاب، وحفيد لأبي بكر عرف بتقواه وهو القاسم، وأخ لعبدالله بن الزبير هو المؤرخ عروة بن الزبير. ولا يرد ذكر لسعيد بن المسيّب بين هؤلاء. ويبدو من القصة المتعلقة بزيارة

(٤٨) اكملها جميعاً لدى ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٢٤: «وهو من أحسن الناس لباساً ومن أطيب الناس ريحاً ومن

أخيل الناس في مشيته» (يلوح لي أن المستشرق الكبير خلط بين الخيلاء والخيل - المترجم).

(٤٩) كتاب الأغاني، الجزء الثامن، ص ١٥٥.

(٥٠) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٤٦.

(٥١) المسعودي، المروج، الجزء الخامس، ص ٤٢٤. وفي Fragmenta, I, 40. يرد القول عن حلة ثمنها مائة دينار، وأخرى ثمنها أقل من دينار.

(٥٢) كتاب الأغاني، الجزء الثامن، ص ١٥٥.

(٥٣) الطبري، القسم الثاني، ص ١١٧٤.

(٥٤) نفسه، ص ١١٨٢. اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٣٩.

(٥٥) الطبري، القسم الثاني، ص ١١٨٢ في أسفلها وما بعده. وكثيراً ما يرد ذكر القاسم لدى ابن سعد. وفي فهرست تاريخ

الطبري يرد الفصل خطأ بين الفقيه القاسم وبين حفيد أبي بكر.

الخليفة الوليد بن عبد الملك للمدينة عام ٧٠١^(٥٦) أن سعيداً ظل بعيداً عن السلطان أيام ولاية عمر بالمدينة، كما كان عليه حاله من قبل. ولربط بين سعيد وعمر لم يبق للأسطورة سوى أن تنسب إلى سعيد المقدرة على التكهّن بالمستقبل، فيقال: إن سعيداً أرسل أحد مريديه إلى دار مروان ليرى المهدي فرجع المريد وقال له: إنه لم ير بدار مروان شخصاً يمكن أن يكون المهدي؛ عند ذلك بين له سعيد أن عمر بن عبد العزيز النازل بدار مروان هو المهدي^(٥٧). غير أن قصة معاملته القاسية لابن عبد الله بن الزبير تقف دليلاً على أن أثر فقهاء المدينة على عمر قد بلغت فيه الأسطورة كثيراً.

وبطبيعة الحال لم يكن عمر بالمدينة سوى المنفذ المطيع لأوامر الخليفة الوليد. وبأمر هذا الأخير بعث ألفي رجل من أهل المدينة إلى الشام للمشاركة في غزو الروم (ولم يخرج منهم في الواقع سوى ألف وخمسمائة)^(٥٨). وفيما بعد عندما أصبح عمر خليفة لم يستحسن فخامة «المسجد الأموي» المشهور الذي بناه الوليد بدمشق؛ غير أنه وهو وال على المدينة هدم مسجد النبي البسيط تنفيذاً لرغبة الوليد وبنى مكانه بناية فاخرة. وثمة رواية تقول إن الإمبراطور البيزنطي استجاب لطلب الخليفة الوليد فأرسل من أجل البناء مائة عامل ومائة ألف مثقال من الذهب وأربعين حملاً من الفسيفساء التي استخرجت من خرائب المدن القديمة^(٥٩). وعلى جدار المسجد كتب اسم الوليد بالفسيفساء، ولكن فيما بعد أمر الخليفة المهدي العباسي بمحو اسم الوليد وكتابة اسمه محله^(٦٠)، وذلك بنفس الطريقة التي محا بها المأمون في القرن التاسع اسم عبد الملك في مسجد بيت المقدس ووضع اسمه محله^(٦١). والتغييرات التي جرت بمسجد المدينة على عهد المهدي استلزمت بدورها كمية كبيرة من الذهب والرخام والفسيفساء. وكان من سخرية الأقدار أن رجلاً من أحفاد عمر بن عبد العزيز أخذ طرفاً في هذا العمل^(٦٢) كما فعل الخليفة التقي عدوكل ضرب من الفخامة في المسائل الدينية، أيام شبابه حينما حوّل مسجد النبي البسيط إلى بناية فخمة.

(٥٦) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢٢٢ في أسفلها وما يليه. اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني ص ٣٤٠.

(٥٧) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٤٥.

(٥٨) الفان حسب ما ذكره اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٣٩، وألف خمسمائة حسب ما ذكره الطبري، القسم الثاني، ص ١١٩٢.

(٥٩) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٠، الطبري، القسم الثاني ص ١١٩٢.

(٦٠) الطبري، القسم الثالث، ص ٥٣٥. والاشارة إلى هذا يجب اضافتها إلى الطبعة الاوروبية تحت: الوليد بن عبد الملك، ص ٦٢٨.

(٦١) بارتولد، «الخليفة والسلطان»، انظر الجزء السادس من الطبعة الكاملة لأثاره باللغة الروسية، ص ١٧.

(٦٢) البلاذري، ص ٧.

ولم يغادر عمر الحجاز ألْبَتة أيام ولايته، وظل على مرّ سنين متتالية ابتداء من عام ٧٠٦ يتراًس الحج. ولكن حج بالناس عام ٧١٠ الخليفة الوليد نفسه، الذي قدم إلى مكة والمدينة ليرى بأَم عينيه الأعمال التي أمر بإجرائها فلما قرب من المدينة خرج عمر فتلّقاه بأشرف البلد^(٦٣). وفي عام ٧١١ حجّ عمر بالناس من جديد. وتختلف الأقوال حول عام استدعائه من المدينة، فالبعض يذكر عام ٩٣هـ والبعض الآخر عام ٩٤هـ، أي ٧١٢م أو ٧١٣م^(٦٤). وبمجرد رجوعه خرج عمر غازياً إلى بلاد الروم، وكانت على ما يظهر المرة الوحيدة في حياته. أما فيما يتعلق بسبب استدعائه فيقال: إن الحجاج اشتكى إلى الخليفة الوليد من أن جميع الهاربين من العراق وجدوا الملاذ بالحجاز؛ وبالذات بمكة والمدينة، فطلب منه الخليفة أن يرشح اسمين، فاقترح الحجاج اسم خالد بن عبدالله القسري وعثمان بن حيان المرّي، فعين الوليد خالداً حاكماً لمكة وعثمان حاكماً للمدينة وعزل عمر. ووفقاً لرواية أخرى يوردها الطبري نفسه أن خالداً كان حاكماً لمكة منذ عام ٧٠٨^(٦٥). ومن المؤكد أنه وُجِد في تلك الآونة بالحجاز لاجئون من العراق ووفقاً لرواية اليعقوبي فقد كتب الخليفة الوليد إلى خالد بن عبدالله القسري عامله على الحجاز يأمره باخراج من بالحجاز من أهل العراق وإرسالهم إلى الحجاج، فبعث خالد إلى المدينة عثمان ابن حيان لاجراً من بها من أهل العراق^(٦٦). على أي فان عمر غادر المدينة قبل وصول الوالي الجديد، لأنه ترك بها نائباً عنه هو القاضي أبو بكر بن حزم^(٦٧). وكان عمر هو الذي نصبه قاضياً. وكان القاضي أبو بكر يعد من أتقياء الفقهاء، وأصله من الأنصار. وواقعة تعيينه توشك أن تكون الدليل الوحيد لعلاقة عمر بفقهاء المدينة أثناء ولايته عليها. غير أن أبا بكر لم يربط مصيره بمصير عمر وظل قاضياً على عهد خلفه بالمدينة.

وموقف العداء الذي اتخذه عمر وأسرته من الحجاج لا يعود إلى أسباب دينية فحسب. فعمر بآرائه وأسلوب حياته لا بد أنه استشعر القرب أكثر مع الكلبيين المتحضرين دون القيسيين الجفاة الذين يمثلهم الحجاج. وقد شارك عمر موقفه هذا تمام المشاركة أخته أم البنين زوج الخليفة الوليد. ويحكي ابن قتيبة أن الحجاج قدم ذات يوم

(٦٣) رواية الواقدي، وتوجد بالطبري، القسم الثاني، ص ١٢٢٢، وباليعقوبي التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٤٠.

(٦٤) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢٥٥. وقد وصل عمر إلى المدينة في ربيع الأول عام ٨٧هـ (نفسه، ص ١١٨٢، وابن سعد (الجزء الخامس ص ٢٤٤). حسب ما ذكر ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٨٢، فقد أقام بالمدينة سبعة أعوام وخمسة أشهر، أي حتى شعبان عام ٩٤هـ.

(٦٥) الطبري، القسم الثاني، ص ١١٩٩.

(٦٦) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٤٧.

(٦٧) هذه التفاصيل لدى الطبري، القسم الثاني، ص ١٢٥٥.

على الوليد فدخل وعليه درع وعمامة وقوس عربية وكنانة. فبعثت أم البنين إلى الوليد تسأله «من الأعرابي الذي قدم على الخليفة شاكياً السلاح وأنت في غلالة؟». فلما علمت أنه الحجاج أرسلت إليه الرسول مرة ثانية ليقول: «والله لأن يخلو بك ملك الموت أحياناً أحب إليّ من أن يخلو بك الحجاج». وتسير القصة قدماً فتحكي كيف حذر الحجاج الخليفة من خطر النساء، وكيف استدعت أم البنين الحجاج عندما بلغها ذلك وأسمعته قوارص الكلم^(٦٨).

وفي الأعوام الأخيرة من حياة الوليد فيما يبدو جرت مصالحة بين أولاد عبد العزيز ابن مروان والحجاج. ذلك أن عبد الملك بن مروان كان أوصى بأن يخلف الوليد بعد وفاته أخوه سليمان بن عبد الملك، ولكن الوليد أراد أن يحمل سليمان على التنازل لابنه عبد العزيز الذي كانت والدته أم البنين. وكان الحجاج يساند هذا الرأي لأن اعتلاء سليمان العرش كان أقل قبولاً لديه من انتقال السلطة إلى ابن أم البنين وابن أخت عمر. ولكن سليمان أبى بعناد شديد النزول على رغبة الخليفة، ومات الوليد دون أن يحقق رغبته، وأن كان ترشيح عبد العزيز جرت به الألسن وطلب من الشعراء أن يهينوا الرأي العام للتغيير القادم. ويسوق الطبري شعراً لجريير جاء فيه:

إذا قيل: أيّ الناس خير خليفة أشارت إلى عبد العزيز الأصابع
رأوه أحق الناس كلهم بها وما ظلموا فبايعوه وسارعوا^(٦٩)

غير أن وصية عبد الملك ظلت قائمة وجرى تنفيذها فور وفاة الوليد التي حدثت في آخر يناير^(٧٠) أو آخر فبراير من عام ٧١٥. وكان عمر آنذاك بدمشق وعُدّ فيما يظهر الشخص الأول بعد الخليفة. لذا فقد قام بالصلاة على جثمان الخليفة الراحل ودعا أهل دمشق إلى مبايعة الوريث الشرعي سليمان الذي كان مقيماً آنذاك بفلسطين^(٧١). وقد احتفظ عمر بوضعه الأثير على عهد سليمان، ولكنه ظل في ذات الوقت على علاقة ودية مع ابن أخته عبد العزيز. وعند موت سليمان لم يكن الجيش على علم بوصيته فبايع عبد العزيز ابن الوليد، وأعرب عمر عن استعداده للتنازل لابن أخته عن الخلافة، ولكن هذا الأخير

(٦٨) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ص ٢٠٦.

(٦٩) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢٨٢.

(٧٠) منتصف جمادى الأولى لدى اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٩ و ٢٥١، جمادى الثانية لدى الطبري، القسم

الثاني، ص ١٢٦٩.

(٧١) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٢٤٩ و ٢٥١.

صرّح بأنه يستحسن كل الاستحسان مبايعة عمر خليفة للمسلمين^(٧٢). أما الحجاج فمات عام ٧١٤، ولم يعيش لحسن حظه ليبرر اعتلاء عدوه سليمان عرش الأمويين^(٧٣).

وكان سليمان على غرار الوليد مهتماً بالبناء، ويرتبط باسمه بتأسيس مدينة الرملة بفلسطين التي أصبحت فيما بعد قسبة لها. غير أنه كان أكثر ولعاً من ذلك بالنساء والطعام، وقلّده في هذا أهل بطانته^(٧٤). ومن المؤكد أن عمر لم يكن غريباً على أسلوب الحياة ذاك في تلك الأعوام. ويورد ابن سعد حديثاً لشخص أبصر عمر ببلاط سليمان، مفاده أنه لم يختلف عن الآخرين في ملبسه وأحدث في نفسه انطباعاً بأنه رجل قوي البنية. غليظ العنق محب للحياة فيما يظهر^(٧٥). ويفترض فلهاوزن أن أسلوب حياة عمر كان على طرف نقيض مع أسلوب حياة سليمان، فهذا الأخير «كان منصرفاً إلى ارضاء شهواته بينما كان عمر أقرب إلى النساك»^(٧٦) Sulaiman war ein uppiger Wustling, Umar fast ein Ascet. وواقع الحال أن عمر الذي لم يعيش ليلبغ الأربعين من حياته ترك وراءه أربعة عشر ابناً وفقاً لابن قتيبة^(٧٧)، وستة عشر وفقاً لابن سعد^(٧٨) تسعة منهم من سراريه. وهذا يشهد بأسلوب حياة لا يتفق والنسك بحال من الأحوال.

وعلى ما يروي اليعقوبي^(٧٩) فقد حج الخليفة سليمان بن عبد الملك بالناس عام ٩٧هـ، ٧١٦، وصحبه عمر. وكان سليمان قد استبدل ولاة مكة والمدينة الذين عينهم الحجاج، فأصبح والي المدينة الجديد ذلك الذي كان تم تعيينه في منصب القضاء زمن ولاية عمر. وكان من المفروض على الوالي الجديد أن يبني من أجل سليمان قصرًا بالجُرف، وهو موضع على ثلاثة أميال إلى الشمال من المدينة^(٨٠). ولكن البناء لم يعجب الخليفة. وفي الطريق من المدينة إلى مكة أفزعت الصواعق سليمان فذكّره عمر بقوله «هذه الرحمة فكيف العذاب؟». من هذا يتضح لنا أن نزعة عمر إلى التقوى والورع بدأت منذ ذلك الوقت. وترد تفاصيل بصدد هذه الحجة وعن محادثات جرت للخليفة مع الفقهاء. وفي طريق العودة

(٧٢) نفسه، ص ٣٦١، الطبري، القسم الثاني، ص ١٣٤٥.

(٧٣) يلقي ضوءاً على هذا العداء الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول ص ١٤٩ ومايليها.

(٧٤) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢٧٢ من أعلى.

(٧٥) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٩٧.

(٧٦) Wellhausen, Das Arabische Reich, S. 167.

(٧٧) كتاب المعارف، ص ١٨٤.

(٧٨) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٤٢ ومايليها.

(٧٩) اليعقوبي، التاريخ الجزء الثاني، ص ٣٥٨.

(٨٠) عن موقعها: ياقوت، المعجم، الجزء الثاني، ص ٦٢.

توقف سليمان ببیت المقدس وهناك منعه صوت أجراس المجدّمين النوم ففكر في احراقهم قائلاً «لو كان في هؤلاء خير ما ابتلاهم الله بهذا البلاء». فكلّمه عمر في ذلك فأمسك عنهم وأمر بنقلهم إلى موضع منعزل حتى لا يخالطوا الناس.

ويرد الكلام عن حجة سليمان لعام ٩٧هـ - ٧١٦م ومصاحبة عمر له لدى الطبري أيضاً^(٨١). ويقال إنه حج معه أيضاً الشعراء. وفي طريق العودة وذلك بالمدينة أحضر أربعمئة أسير من الروم، فشرع الخليفة وحرصه في ضرب أعناقهم وأعطى شرف الابتداء بالضربة الأولى لحفيد علي وهو عبد الله بن الحسن الذي كان أقرب مجلساً للخليفة وطلب من الحاضرين الاشتراك في قتلهم، وقد أثار ضحك الخليفة فشل الشاعر الفرزدق في ضرب عنق أحد الأسرى^(٨٢). ولا علم لنا بما تركه ذلك المنظر من أثر على نفس عمر، وهل شارك هو أيضاً في تلك المذبحة. ومثل هذه الفعلة لم تحل بين سليمان وبين أن يبصر في نفسه رجلاً تقياً أو يضطلع بالمواعظ الدينية. ويسوق لنا المدائني خطبته في القرآن التي يحض فيها الناس بأن يتخذوا كتاب الله تعالى إماماً ويرضوا به حكماً ويجعلوه لهم قائداً، فإنه ناسخ لما قبله ولن ينسخه كتاب بعده^(٨٣).

وبخلاف اليعقوبي فإن المصادر لا تورد الكثير من التفاصيل عن رحلة سليمان وعمر إلى فلسطين، ومن المعلوم أن أعمال البناء بالرملة استمرت إلى ما بعد اعتلاء سليمان العرش^(٨٤) ولكن لا علم لنا بمدة سكناه بها. وفي طريقه إلى بيت المقدس مرّ بالخليل ولكن لم يدخلها، لأنه ارتبطت بهذه المدينة دعوة مشؤومة^(٨٥). ومن بيت المقدس أخذ الخليفة الطريق الذي اعتادته العرب من قبل وهو المار بشرق الأردن، ونزل بدير للنصارى. وهناك أمر بجمع مذاكير رجل شَبَّبَ بأحدى جواريه، ومن هنا أخذ الدير فيما بعد اسم «دير الخصيان»^(٨٦). وفي خريف عام ٧١٦^(٨٧) وصل الخليفة إلى معسكره بدابق بشمالي الشام غير بعيد عن حلب. وهناك تم اعداد الجيش لفتح القسطنطينية تحت قيادة أخيه مسلمة، وقد تميّز مسلمة من بين أولاد عبد الملك بن مروان بصفاته الحربية. وحوصرت عاصمة

(٨١) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢١٢.

(٨٢) نفسه، ص ١٢٢٨ وما يليها.

(٨٣) Fragmenta, I, 35 (وفقاً للمدائني).

(٨٤) راجع مثلاً قول البلاذري، ص ١٤٣.

(٨٥) البلاذري، ص ١٢٩.

(٨٦) ياقوت، المعجم، الجزء الثاني، ص ٦٥٧ وما يليها.

(٨٧) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢١٥ عن وصوله إلى دابق في عام ٩٨هـ (أي بعد اغسطس ٧١٦)، و Fragmenta, I, 25.

عن خروج مسلمة في الحملة قبل بداية الشتاء.

الدولة البيزنطية من البر والبحر، ولم يحدث أن تعرضت لخطر مماثل لهذا من قبل. فقد اجتاز العرب الدردنيل إلى شبه جزيرة البلقان وحازوا انتصارات بتراقيا. أما سليمان فظل بدابق وارسل باسطول لتدعيم مسلمة (وكان الاسطول البيزنطي قد قام قبل قليل من ذلك بغارة ناجحة على ميناء اللاذقية بالشام)^(٨٨)، وبالامداد عن طريق البر، ووجد على رأس هذه الأخيرة عمرو بن قيس الذي برز اسمه منذ عهد سليمان^(٨٩). ولقد حاصر جيش مسلمة القسطنطينية عاماً كاملاً دون توفيق، وأنقذ المدينة المقدرة العسكرية وبصورة خاصة الدبلوماسية للإمبراطور ليون الثالث. غير أن ما فتت في عضد العرب أيضاً افتقارهم الأغذية بتراقيا، وهي بلاد عدت بوجه عام خصبة، ولكن خربتها في تلك الآونة العمليات العسكرية^(٩٠).

وكان سليمان عند اعتلائه العرش قد جعل وريثه ابنه أيوب، وتغنى بهذا، كما كان الحال في وقته بعبد العزيز بن الوليد، أيضاً الشاعر جرير^(٩١). ولكن الفتى مات قبل أبيه. وفي خريف عام ٧١٧ أصيب سليمان بدابق «بذات الجنب» (الشلل الارتجافي)^(٩٢)، فعهد بالخلافة قبل موته إلى عمر بن عبدالعزيز عملاً بمشورة مستشاره رجاء بن حيوة. ويرى فلهاوزن أن تعيينه عمر خلفاً له لم يتوقعه أحد من الناس، وبالذات عمر^(٩٣). ومثل هذا الانطباع يمكن استكناها في واقع الأمر من رواية الواقدي. ولكن يتضح من قول المدائني أن ترشيح عمر للخلافة كان شيئاً طبيعياً بوصفه أول بني أمية بعد الخليفة، حتى أنه اتجه إلى رجاء بن حيوة بالألا يرشح اسمه لدى الخليفة أو يساند ترشيح الخليفة لاسمه. وقد فهم رجاء هذه الألفاظ على حقيقتها فردّ على عمر «إنك لحريص على الخلافة لتطمع أن أشير عليه بك». ويضيف المؤرخ «فاستحيا عمر»^(٩٤). ولدى اعلانه خليفة امتنع عمر عن استعمال مراكب الخلافة وركب بغلته، كذلك أبى النزول بقصر الخليفة وعاد إلى فسطاطه^(٩٥). بهذا بين على الفور أنه سيعيش ويحكم بطريقة مخالفة لسابقة من الخلفاء

(٨٨) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٥٩.

(٨٩) هكذا يقول اليعقوبي. ومن العسير القول إن عمر قد عاد إلى الشام من بلاد الدولة البيزنطية قبل ذلك.

(٩٠) يرد هذا في Fragmenta, I, 27. وكما هو معلوم فإن هذا المصنف حفظ أطول وصف في الأدب العربي لقصة حصار القسطنطينية على زمن سليمان.

(٩١) البيت في Fragmenta, I, 34.

(٩٢) نفسه، ٣٣ في أسفل «وكانت علته ذات الجنب».

(٩٣) Wellhausen, Das Arabische Reich, S. 166.

(٩٤) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٤٩.

(٩٥) نفسه، ص ٢٤٩. حسب ما ذكره ابن سعد والطبري (القسم الثاني، ص ١٣٤٥ من أعلى) فإن عمر رجع إلى فسطاطه إلى أن تخلي أسرة سليمان القصر.

الأمويين. وشعار «كتاب الله وسنة نبيه» الذي أصبح فيما بعد شعار الثوار بالعالم الإسلامي، كان على عهد عمر رمزاً للدولة نفسها. وكانت هذه خير سياسة لاجتذاب العناصر المعارضة للأسرة الأموية، وبخاصة أن سكان العالم الإسلامي كانوا عشية العام المائة للهجرة فريسة لحال من التعصب الديني يشابه تماماً ما حدث بالتالي مع سكان أوروبا الكاثوليكية عشية العام الألف للميلاد. وذلك أن الاعتقاد بأن دولة العرب لن يقدر لها أن تعيش لأكثر من مائة عام انتشر آنذاك بصورة بلغ بها مسامع أمير سمرقند، كما يلحظ من مكتوبه إلى امبراطور الصين الذي يذكر فيه هذه النبوءة ويقول فيه إن اللحظة مواتية للهجوم على بلاد الإسلام^(٩٦). ولعل ما دعم النزعة إلى مرضاة الله وابتغاء مغفرته كان ما أصاب حملة المسلمين على القسطنطينية من اخفاق مرير، بعد أن أعدت لها الدولة تلك القوات الكبيرة.

هذه اللحظة من حياة الخلافة الإسلامية تجاربت كل التجارب مع ظهور خليفة للمسلمين ذكر الناس بأيام عمر بن الخطاب، سواء باسمه أو بصلته رحمه أو بأسلوب حياته. وأولئك الذي ابصروا عمر من قبل بالمدينة أو ببلاط سليمان كان من العسير عليهم أن يتعرفوا عليه في ذلك الرجل الشاحب الوجه النحيل الجسم^(٩٧) الذي تشبه مشيته مشية الرهبان^(٩٨) والذي صار خليفة على المسلمين يتصرف في امكانيات امبراطورية عالمية، ولكنه امتنع عن جميع ضروب المتعة الدنيوية ابتغاء وجه الله. وقد رد عمر نفسه على أمثال هؤلاء بقوله: «إن نفسي لم تنل شيئاً إلا تأقت لما هو فوقه، وقد نلت غاية الدنيا فنفسى تتوق إلى الآخرة»^(٩٩).

والأخبار عن حياة عمر بن العزيز اليومية وعاداته الشخصية، مثل الكلام عن كيف كان يقضي حاجته^(١٠٠) تحظى بتفصيل أكثر من أخباره الأخرى، ونجد مثل هذا في أخبار جده عمر بن الخطاب. وأصحاب هذه الأخبار على علم دقيق بما كان يلبسه ببيته^(١٠١)

(٩٦) راجع في صدد هذا مقالى Bartold, K istorii arabskikh Zavoevanii V Srednei Azii, 1907. Sochinenia, T.II, ch 2, ts. 172-195

(من تاريخ الفتوحات العربية بآسيا الوسطى).

(٩٧) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٩٧: قد نحل ودقت عنقه.

(٩٨) نفسه، ص ٢٤٤: يمشي مشية الرهبان.

(٩٩) نفسه، ص ٢٩٦، وأيضاً كتاب الاغانى، المجلد الثامن، ص ١٥٥.

(١٠٠) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٦٥.

(١٠١) نفسه، ص ٢٩٧.

وكيف كان لون ملابسه الداخلية والخارجية^(١٠٢)، وكم كان طول وعرض رداءه^(١٠٣)، وما هو سعر ملابسه الكامل المصنوع من نسيج مصر، (والذي لم يتجاوز الاثنى عشر درهما): كمّه وعمامته وقميصه وقبائمه وقرطقه وخفاه ورداؤه^(١٠٤). وأقل من ذلك بكثير كان اهتمامهم بالأخبار المتعلقة بحكمه. وتقدم لنا الأخبار المتواترة إلى جانب هذا صورة للخليفة وهو ينادي بأعلى صوته من منبر المسجد الجامع بدمشق: «لا طاعة لنا في معصية الله»^(١٠٥). هذه الأخبار وما يشبهها تتعارض مع أخبار أخرى أجدر بالثقة، يظهر فيها عمر أمام أعيننا حاكماً أكثر حذراً واتزاناً مما يفترض فلها وزن.

كان وضع حد للحرب غير الموفقة مع بيزنطة أحد الاجراءات المبكرة للخليفة. فقد أرسل عمر بقوات إلى القسطنطينية، لا لدعم الجيش المحاصر لها، بل لتزويده بالأغذية والملبس والخيل، ولعاونته في عملية الانسحاب. وقد كان على رأس هذه القوات الأخيرة عمرو بن قيس حسب قول اليعقوبي^(١٠٦)، والطبري واليعقوبي نفسه يقولان: إن عمرو بن قيس كان على رأس القوات التي قاتلت بتراقيا على عهد سليمان بن عبد الملك^(١٠٧) ووفق أكثر الروايات العربية تفصيلاً بصدد حصار القسطنطينية فإن مهمة إفادة مسلمة برفع الحصار عن القسطنطينية ومعاونته على الانسحاب قد أقيمت على عاتق رئيس ملطية. ويؤكد المؤلف العربي أن مسلمة كان آنذاك على قاب قوسين أو أدنى من النجاح، فرجا الرسول أن يمهل لينتهي من حصار القسطنطينية، ولكن الرسول الذي كان يتصرف وفق التعليمات التي أعطيت له رفض أن يمهل ولو ساعة^(١٠٨)، ووفق الرواية البيزنطية فإن انسحاب مسلمة بدأ منذ اغسطس عام ٧١٨^(١٠٩)، أي عندما كان سليمان على قيد الحياة. وبهذا فإن القوات التي أرسل بها عمر كانت مهمتها مقابلة جيش مسلمة وهو منسحب إلى الشام وتسهيل عملية انسحابه.

ويقول البلاذري^(١١٠): إن ملطية آنذاك لم تكن لها أهمية عسكرية، لأن حصون الثغور نقلت منذ عام ٧٠٢ على ثلاث مراحل صوب الغرب، إلى موضع يعرف باسم طرندة

(١٠٢) نفسه، ص ٢٩٨.

(١٠٣) نفسه، ص ٢٩٧.

(١٠٤) نفسه، ص ٢٩٧.

(١٠٥) نفسه، ص ٢٥٣.

(١٠٦) انظر الحاشية ٨٩ من هذا المقال.

(١٠٧) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢١٧، قارن اليعقوبي التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٥٩.

(١٠٨) Fragmenta, I, 33

(١٠٩) Ocherki po istorii Vizantii, Byp. I, str. 63 (راجع ببليوغرافيا الجزء السادس من آثار بارتولد - المترجم).

(١١٠) البلاذري، ١٨٥ ومايليها.

(درتده الحالية)، ولم يبق بملطية سوى عدد ضئيل من الأرمن كانت تأتيهم في الصيف فقط طليعة جند الجزيرة. وقد أمر عمر بهجر طراندة ضد رغبة حاميتها وارجاع الحصون مرة أخرى إلى ملطية^(١١١)، وبهذا اتخذ انسحاب قوات الخلافة من ذلك الموضع صورة نهائية. كذلك تقول رواية: إن عمر فكر في نقل الحدود من ساحل البحر المتوسط إلى أنطاكية، ولم يحل بينه وبين تنفيذ ذلك سوى موته المبكر^(١١٢). ووفق رواية أخرى^(١١٣) فقد حذر أهل المصيصة عمر عند زيارته لها بأن هدم حصون الثغور سيعرض أنطاكية للخطر، فأقلع عمر عن فكرته تلك، بل بنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية كفر بيا على الشط العربي لجيحان زوده بحوض نقش اسمه عليه.

ووفق الرواية المتواترة فقد كان عمر ضد فكرة الحرب كوسيلة لنشر الاسلام (الجهاد)، وكان من رأيه أن يكفي المسلمون بما «قد فتح الله عليهم»^(١١٤). بل إنه على خلاف العادة المتبعة لدى المسلمين بالمناطق المفتوحة لم يحمل السيف بالمنبر قط^(١١٥). وعلى الرغم من ذلك فمن المعروف أنه تمت في عهده حملة مظفرة على الترك من خراسان^(١١٦). كذلك تم الاستيلاء على نربونه بفرنسا وتحصينها^(١١٧)، كما أغزى أهل حمص الصائفة^(١١٨). ومما يجلب الانتباه أن أقرب شخص للخليفة من أولاد عبد الملك لم يكن سعيداً الذي عرف بتدينه حتى لقب «سعيد الخير»^(١١٩)، بل مسلمة الذي اشتهر ببسالته في الحرب^(١٢٠). ولم يأخذ مسلمة طرفاً أثناء خلافة عمر في الحروب الخارجية، ولكن خبرته العسكرية استعملت ضد العدو الداخلي، أي الخوارج^(١٢١).

ولأن عمر لم يحسّ بالميل لمتابعة الحرب ضد الكفار، فقد جهد في نشر الاسلام عن طريق الدعوة السلمية، فكتب إلى بعض الحكام يدعوهم إلى الاسلام - ونجح في هذا

(١١١) وفقاً ل-Fragmenta, I, 63 فان عمر «اشترى ملطية من الروم بمائة ألف أسير».

(١١٢) البلاذري، ص ١٦٧.

(١١٣) نفسه، ص ١٦٥. وايضاً ابن الفقيه، ص ١١٢.

(١١٤) الطبري، القسم الثاني ص ١٢٦٥ في اسفل.

(١١٥) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٩٨.

(١١٦) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٦٢.

(١١٧) يلاحظ فلهاوزن هذه الواقعة في كتابه (Das Arabische Reich, S. 167, Anm).

(١١٨) الطبري، القسم الثاني، ص ١٣٤٩.

(١١٩) البلاذري، ص ١٧٩.

(١٢٠) عن مكانة مسلمة لدى عمر راجع بصورة خاصة كتاب الاغانى، الجزء الثاني ص ١٥٢. وقد عدّ «شريك الخليفة في الخلافة».

(١٢١) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٦٢ ومايلها.

أحياناً، كما تؤكد الرواية المتواترة^(١٢٢). ويتحدث المؤلفون النصارى^(١٢٣) عن مكاتبات حول مسائل العقيدة جرت بين عمر والامبراطور ليون الثالث، بل إن المؤرخ الأرمني ليفوند Ghevond حفظ لنا متن مكتوبين، أحدهما مكتوب الخليفة الموجز والمتحفظ وردّ الامبراطور المطول والمفعم باللجاج والخصومة^(١٢٤). ولقد سنحت الفرصة لليون الثالث قبل اعتلائه العرش بالتعرف على الاسلام. وثمة ما يشهد بأنه في الأصل من مدينة مرعش، وأنه إلى جانب معرفته باليونانية أجاد أيضاً العربية^(١٢٥). وطريف في مكتوب الخليفة الاشارة إلى رؤيا النبي اشعيا (الاصحاح الحادي والعشرون ٧) التي يرد فيها الكلام عن الراكين الحمير والراكين الجمال، كأنما يريد التذليل على مساواة محمد بالمسيح. كما لا يخلو ردّ الامبراطور بدوره من أمر طريف، هو أن ليون الثالث الذي قدّر له بعد أعوام من ذلك أن يبدأ الحركة للايقونية بشروعه في تحطيم التماثيل والصور، وجد آنذاك من الضروري أن يقف المدافع عن تبجيل النصارى للصليب والأيقون (الصورة) ضد حجج الخليفة.

أما داخل أراضى الخليفة فلم يتمتع بعدل الخليفة وانصافه رعاياه المسلمون وحدهم. فالنصارى وأهل الملل الأخرى، وإن ضربت عليهم الجزية وفق تعاليم القرآن، إلا أنه اشترط أن يتم ذلك دون حيف يلحق بهم^(١٢٦) أو خرق للاتفاقيات القائمة. وفي مصر عمل عمر خلاف ما عمله والده عبد العزيز وأخوه الأصمغ بن عبد العزيز فأسقط الجزية عن البيع وعن رجال الدين، ولم تتجدد هذه الضريبة إلا على عهد خلفه يزيد^(١٢٧). كذلك أجاز للنصارى وللإهود الحق في ايقاف أموالهم الشخصية على مؤسساتهم الدينية^(١٢٨). غير أنه من جهة أخرى قد حلّ العمال المسلمون على عهد عمر محل العمال القبط في عمل الدولة، بل إن رواية تتمتع بالقليل من الثقة تزعم أن عمر عرض على جميع رعاياه غير المسلمين إما اعتناق الاسلام أو مغادرة البلاد^(١٢٩). ولكن ليفوند يقول: إن عمر على

(١٢٢) Wellhausen, Das Arabische Reich, S.184 عن البلاذري، ص ٤٢٦ و ٤٤١.

(١٢٣) إلى جانب ليفوند (راجع أسفله) أيضاً اغابويس المنجي، ص ٢٤٣.

(١٢٤) ليفوند، ص ٢٩ ومايلي (بين آرثر جفري A.Jeffery بالتالي أن مكتوب ليون الثالث إلى عمر بن عبد العزيز صحيح ودرّنه

ليون نفسه حوالي عام ٩٠٠، راجع أيضاً Von Gmnetaum, Medieval Islam, p.17.

(١٢٥) Vasiliev, Leksii po istorii Vizantii, قارن 219. str. I, 25 T.1, Fragmenta.

(١٢٦) مثلاً الطبري، الجزء الثاني، ص ١٣٦٦ (لغير ظم).

(١٢٧) سويرس، ص ١٤٣ وما يليها.

(١٢٨) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٦٢.

(١٢٩) سويرس، ص ١٤٣ ومايليها.

العكس من ذلك تصرف مع النصارى بصورة أفضل في أواخر أيام حياته، فقد قرر ارجاع الأسرى الذين سيقوا في نهاية خلافة عبد الملك أو بداية خلافة الوليد إلى وطنهم أرمينيا، وذلك بعدما تعرض له النخاريون Nakharars (أي أعيان الأرمن) من فتك غادر على يد محمد بن مروان^(١٣٠). وثمة دليل^(١٣١) على أن عمر عندما أصبح خليفة على المسلمين أم الصلاة بإحدى كنائس النصارى^(١٣٢).

وعين عمر والياً على مصر أيوب بن شرجبيل في ديسمبر ٧١٤، وعزل عبد الملك بن رفاعة^(١٣٣). ويسترعى النظر أنه من بين مجموعة البردي التي يمتلكها الارشيدوق راينر Erzherzog Rainer توجد وثيقة تدين بشدة الوالي الذي عينه الخليفة عمر وتمتدح سلفه^(١٣٤). وقد اعترف عمر نفسه بأنه ارتكب الخطأ أحياناً عند تعيينه والياً وأخر. ويقول ابن قتيبة^(١٣٥): «إن والي البصرة عدي بن أرطاة تسلم مكتوباً من عمر جاء فيه «غزني منك مجالستك القراء وعمامتك السوداء فلماً بلونك وجدناك على خلاف ما أملناك». والعمامة السوداء التي حدث وأن أدانت عليها بشدة ذات مرة أخت عمر الحجاج بن يوسف الثقفي، يلوح أنها نالت الاستحسان الآن لأن فيها إشارة إلى أسلوب الحياة البدوية لصاحبها التي تشبه أسلوب حياة الخليفة نفسه، وإن وجب الاعتراف أن المظهر كثيراً ما خالف المخبر. ولقد ظل عدي بن أرطاة والياً على البصرة إلى وفاة عمر^(١٣٦). ولم يعزل عمر من جميع ولايته إلا والي خراسان الجراح بن عبد الله الذي أجحف بحق الأهالي، ولم يسقط الجزية عن أسلم إلا بالكثير من عدم الرضى، بل كتب إلى الخليفة أن خراسان لا تحكم إلا بالسيف والسوط. والجراح الذي دعى للولاية فيما بعد مرة أخرى كان يُعدّ سيفاً من سيوف الحجاج وترسّم خطاه في عدم الجري وراء مصلحته الشخصية، ولكنه تفهّم مهمة الحاكم فيما يبدو بصورة مخالفة لفهم الخليفة^(١٣٧).

(١٣٠) ليفوند، ص ٢٢ ومايليها، ص ٢٩ و ٧٠.

(١٣١) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٨٤.

(١٣٢) أو بمعبد لليهود (؟ المترجم).

(١٣٣) الكندي، ص ٦٦ ومايليها.

(١٣٤) Papyrus Erzherzog Rainer, No 596.

(١٣٥) عيون الأخبار، ص ٧٨.

(١٣٦) حسب ما ذكر ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٨٩ فقد ضمت اليه أيضاً فارس.

(١٣٧) الطبري، القسم الثاني، ص ١٣٥٤ ومايليها.

ويجهد رواية الأخبار في التدليل على أن عمر كان على استعداد للتضحية بكل مصالح الدولة والأسرة الحاكمة في تطبيقه لفكرة العدل. ومن المؤكد أن عمر لم يهتم ببیت المال فوّسّع في إعطاءات الجند، ومدّ يد العون إلى أهل الحاجة، ولم يتردد في إلغاء الضرائب إذا ما اقتنع أنها غير مشروعة. وفي هذا يختلف عمر اختلافاً بئناً عن أحد خلفائه المباشرين وهو هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣) الذي عدّ بدوره أيضاً رجلاً يخاف الله^(١٣٨) وعاش أسلوب الحياة المتزمت نفسه الذي عاشه عمر، فلم يصرف أموال الدولة على مطالبه الشخصية^(١٣٩). ولكنه (على خلاف عمر) أولى اهتماماً كبيراً لتدبير أموال الدولة التي بلغت في عهده حالاً لم تعرفها في زمن أي خليفه أموي^(١٤٠)، كما اهتم أيضاً باستثمار أموال الأسرة الحاكمة^(١٤١). ويقول ليفوند Ghevond : إن هشاماً «لم يتبع سياسة عمر المتسامحة في أموال الدولة، وأدانه بتبديد الثروة التي جمعها أسلافه بدون وجه حق»^(١٤٢)، غير أن الأحداث تدفعنا إلى الاعتراف بأن سياسة عمر هي الأصح فعمر بأسلوب حكمه رفع مكانة الخليفة في نفوس الناس إلى درجة لم تُعهد من قبل. ونادراً ما تلقى في الأدب مثل ذلك الإجماع على تمجيد حاكم كما نجده لدى الذين دونوا سيرة عمر من المؤلفين الشرقيين، سواء المسلمون منهم والنصارى، ومن جهة أخرى فإن الحاكم الذي يضع مصلحة بيت المال في المكان الأول، ليس بمقدوره أن يتمتع بتقدير الناس مهما كان أسلوب حياته الشخصية. وفي خلافة هشام كانت الدعوة إلى «كتاب الله وسنة نبيه» حركة ضد الخليفة، بحيث لم تفلح سياسته المالية المثلى في انقاذ أسرته. والقول بأن دعوة عمر إلى التمسك «بكتاب الله وسنة نبيه» كانت ظاهرة غير عادية انبعثت من صدر شخص مثله، قول يدحضه قبل كل شيء الأحداث التالية. وفي عهد الخليفة التالي لعمر مباشرة كانت نفس هذه الصيحة هي التي جعلها شعاره الوالي الثائر يزيد بن المهلب^(١٤٣)، الذي ليس من شك في أنه لم يكن من المهتمين كثيراً بالدين في واقع الأمر. وبعد عشرين عاماً من هذا وذلك عند قتل الوليد الثاني واعتلاء يزيد الثالث عرش الخلافة نسمع هذه الصيحة من فم رجل على قمة السلطة يدعو إلى الديمقراطية ودعم الروابط بين الحاكم والمحكوم، على الرغم من أنه ينحدر من بني أمية وفخر في ذات الوقت بانحداره من الأكاسرة

(١٣٨) راجع على الأخص ألفاظ سويريس (١٤٤): رجل خائف من الله على طريق الإسلام.

(١٣٩) الطبري، القسم الثاني، ص ١٧٣٠ ومايليها.

(١٤٠) نفسه، ص ١٧٣٢.

(١٤١) راجع ألفاظ أمجابيوس (محبوب) المنبجي (ص ٢٤٥) عن نمو عقاراتهم.

(١٤٢) ليفوند، ص ٧١.

(١٤٣) الطبري، القسم الثاني، ص ١٣٩١.

والقياصرة وخاقانات الترك^(١٤٤). واحد ممن ردوا على خطبة يزيد الثالث عند توليه الخلافة، كان على استعداد ليضعه فوق عمر بن عبد العزيز وذلك بقوله: «فما قام مقامك أحد من أهل بيتك وإن قالوا عمر بن عبد العزيز فأنت أخذتها بحبل صالح وعمر أخذها بحبل سوء»^(١٤٥)، يريد بذلك أن يزيد الثالث وصل إلى السلطة عن طريق حركة شعبية ضد خليفة عبث بتعاليم الدين، بينما آلت إلى عمر بن عبد العزيز بطريقة ملتوية. بيد أن يزيد رأى من الضرورة أن يستغل اسم عمر بن عبد العزيز الذي قدره الناس من أجل أهدافه، فعين أحد أولاد عمر والياً على مكة والمدينة، وآخر والياً على العراق^(١٤٦). وعلى الرغم من ذلك فإن يزيد لم يشاطر عمر سياسته المالية فسارع بإلغاء الزيادات التي أدخلها سلفه على عطاءات الجند^(١٤٧). ولقب «الناقص» الذي أطلق على يزيد الثالث يقف دليلاً على أن انقاصه لهذه الزيادات هو الأثر الذي تركه طابعاً عن حكمه أكثر بكثير من حماسه الديني، وجرمه من عطف الناس عليه.

من هذا يتضح لنا أن منجزات عمر كانت محدودة في أهدافها، وبخاصة أن الاجراءات المتطرفة التي تنسبها إليه الأخبار المتواترة تتعارض مع أخبار أخرى يبدو من الجلي أنها أجدر منها بالثقة. وتقول الرواية المتواترة: إن عمر لم يعترف للأمويين بأية حقوق، وانتزع منهم جميع ما امتلكوه بوضع اليد، مما أدى إلى احتجاج شديد من طرفهم، رد عليه عمر بالتهديد بأنه سيغادر الشام إلى المدينة أو يجعل السلطة شورى بين المسلمين^(١٤٨). ويقال: إن عمر أراد أن يرضي الخوارج الذين دخل معهم في مناظرات بأن يعدل في وصية سليمان بن عبد الملك فيحرم يزيد بن عبد الملك حقه في أن يتولى الخلافة بعده، ويعلم خلفه أحد الناس الاتقياء ممن لا تربطهم صلة رحم بالأسرة الحاكمة. فعاجل الأمويون بدس السم له فمات بعد ثلاثة أيام من ذلك^(١٤٩). ويعترض على هذه الأسطورة أن عمر مرض عشرين يوماً قبل وفاته^(١٥٠) وفوق ذلك يسوق الطبري رواية ثبتت على عهد الخليفة المهدي العباسي، مؤداها أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز كان أقل الأمويين شأناً يتسلم من بيت المال ألفي درهم، بينما لم يتجاوز ما يتسلمه الشيخ من الهاشميين من

(١٤٤) نفسه، ص ١٨٧٤.

(١٤٥) نفسه، ص ١٨٣٥.

(١٤٦) نفسه، ص ١٨٧٠ و ١٨٧٥ و ١٨٥٤.

(١٤٧) نفسه، ص ١٨٧٤.

(١٤٨) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٥٢.

(١٤٩) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٧٠ في أعلاما. والطبري، القسم الثاني، ص ١٣٤٩. راجع أيضاً القصة

المفصلة عن الجدل بين عمر والخوارج في Fragmenta, 1, 41-47

(١٥٠) الطبري، القسم الثاني، ص ١٣٦٢.

أهل البيت الستين درهماً في مجموعته^(١٥١). ولقد زاد عمر في جميع ولايات الدولة بما في ذلك مصر أرزاق الجند^(١٥٢)، وهي تلك الزيادات التي ألغيت على زمن خلفه. ويقول اليعقوبي: إن عمر زاد أهل الشام خاصة في أعطياتهم حتى بلغ ذلك العشرة دنانير للفرد، مما لم ينسحب على الجند النازلين بالأقطار الأخرى^(١٥٣). من هذا يُلاحظ أن عمر لم يخطط للقضاء على النظم التي سارت عليها الأسرة.

ونفس القدر من التناقضات يحيط عدداً كبيراً من الروايات الأخرى. ولدى الواقدي قصة يرويها والي العراق يقول فيها هذا الأخير: إن جميع أموال ولايته صرفت في رد المظالم إلى من لحقهم الجور على عهد السابقين له، حتى اضطر الخليفة إلى ارسال الأموال من الشام إلى العراق^(١٥٤). بيد أنه توجد إلى جانب هذا أخبار أخرى تثبت أن العراق بفضل حكومة عمر العادلة أعطي خراجاً أكبر بكثير مما كان عليه الحال في زمن الحجاج^(١٥٥). ولقد كان عمر نفسه من المعجبين بمقدرة زياد والي العراق في خلافة معاوية، الذي عرف كيف يحكم العراق بشيء من الهدوء والرفاه باستعانتة بالعناصر المحلية دونما حاجة إلى مساندة أهل الشام. ورفع خراج المنطقة إلى مائة وثمانية عشر ألف ألف درهم^(١٥٦).

ومشكلة الضرائب في الاسلام واحدة من أصعب المسائل التي جابهت الدولة. وكان رأي النبي ﷺ أن الدولة إنما تعتمد فقط على الغنائم وعلى الجزية المأخوذة من الكفار، أما ما يجمع من المسلمين فهو مال الصدقة الذي يذهب إلى الفقراء والمساكين. والشريعة الاسلامية واجماع الرأي يقفان بصورة جازمة ضد أي نوع آخر من الضرائب، وبخاصة ضد الضرائب على التجارة والصناعة. غير أن حكومة الخلفاء ظلت في واقع الأمر تجبي، في بعض الأقطار المفتوحة، الضرائب التي جبتها الحكومات السابقة لها، وإن تضاربت

(١٥١) نفسه، القسم الثالث، ص ٥٢٤. عن معنى «شرف العطاء»، راجع مثلاً ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٥٥.

(١٥٢) الكندي، ص ٦٨ و ٧٠.

(١٥٣) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٦٧ في اعلامه.

(١٥٤) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٥٢.

(١٥٥) هذه الواقعة ينوه بها فلهاوزن *Das Arabische Reich*, S. 191.

ويحيط شك كبير بالأرقام التي يوردها ابن خرداذبه (المتن، ص ٤ ومايليهها). واقرب إلى الصحة رواية البلاذري ص ٢٧٠ أن دخل السواد نقص على زمن الحجاج إلى ٤ ملايين درهم. ويورد في *Fragmenta*, I, 33، «ولم يزل خراج العراق على حاله في الانتكسار في ولاية الوليد وسليمان»، ويضيف في ص ٤٧ أنه على عهد عمر «رجع الخراج إلى ستين ألف». (مليون؟)، وأغلب الظن أن هذا الرقم يتعلق بالعراق وحده وليس بجميع الدولة.

(١٥٦) المبرد، الكامل، ص ٥٩٥.

مع الشريعة. غير أنها كانت تلغى بصورة شكلية عندما تعلن الحكومة تمسكها بأحكام الدين، وإن ظلت في واقع الحال تجبى كما كان عليه الأمر من قبل. مثل هذا حدث على زمن عمر. فبرد بايران ذكر عدد من الضرائب، حملت في معظمها تسميات إيرانية^(١٥٧). الضرائب العادية (آيين)^(١٥٨)، والجبايات من أجل السكّة (أجور الضرائب)^(١٥٩)، والهدايا بمناسبة العيدين الكبيرين - النوروز والمهرجان، والضرائب على الوثائق الرسمية (ثمن الصحف)^(١٦٠)، وأجور الفيوج (رسل الدولة)^(١٦١)، والضريبة على المنازل (أجور البيوت)، والضريبة على الزواج (دراهم النكاح).

ولا علم لنا في ما إذا توقف جبي هذه الضرائب بجميع مدن ايران، ولعله قد حدث بالذات ما حدث في القرن الثاني عشر بمصر على عهد صلاح الدين الأيوبي عندما كان المسافرون الداخلون على حد قول ابن جبیر بلاد ذلك السلطان، الذي اشتهر بالعدل والذي ألغى جميع أنواع الضرائب غير المشروعة، يضطرون إلى دفع الضريبة كما كان عليه الحال من قبل، وكان ابن جبیر على ثقة من أن السلطان لم يكن له علم بمقاصد عمال الدولة^(١٦٢).

ولما كانت الجماعة التي تدفع الضرائب هم الكفار وحدهم فإن انتشار الاسلام بدأ عبئاً ثقيلاً على بيت المال، وبخاصة أنه ثبت الآن أن الشريعة لم تفرّق في البداية بين الجزية - أي ضريبة الرأس التي تجبى من الكفار وحدهم وبين الخراج الذي خضعت له جميع الأراضي التي امتلكها الكفار ولو أصبحت الآن في حوزة المسلمين. وفي العهد الأموي أستعمل اللفظان «جزية» و«خراج» بمعنى واحد، وعدّ جمع الخراج من ملاك الأرض الذين دخلوا في الاسلام أمراً مخالفاً للشريعة. لذا فإن هذا «الخراج» يرد ذكره بين الضرائب التي ألغاهها عمر بن عبد العزيز^(١٦٣). وكان مما ساق العلماء الاوروبيين لعهد

(١٥٧) متن الطبري، القسم الثاني، ص ١٣٦٧ في أعلى، ومحاولة تفسيره لدى كريم (Culturgeschichte, II, S. 178, Anm. 1)

ولدى فلهاوزن (Das Arabische Reich, s. 189)

(١٥٨) يسقط كريم ذلك، أما فلهاوزن فيفسرها بقوله «Moglicher Weise Zoll, wie das englische Custom» (أنواع

الضرائب اشبه بما تعنيه الكلمة الانجليزية Custom)، وهو ابعد من ان يكون مقتنعاً في رأبي.

(١٥٩) أجور الضرائب يتجمها كريم «Taxen zur Bezahlung der Messbeamten» اما فلهاوزن فيسقطها.

(١٦٠) ثمن الصحف، لدى كريم «Papiersteuer» ولدى فلهاوزن «Aktentempel»

(١٦١) أجور الفيوج، لدى كريم «Aufspengelder»، ولدى فلهاوزن «Gebühren für Unterbeamte»

(١٦٢) ابن جبیر، ص ٤٠.

(١٦٣) الطبري، القسم الثاني، ص ١٣٦٧.

طويل في الخطأ هو قانون عمر بن الخطاب الذي استخرجه كريمر Kremer من تاريخ دمشق لابن عساكر. فيقال: إن عمر بن الخطاب منع العرب من امتلاك العقار بالأراضي المفتوحة، وإن حدث أن اعتنق مالك الأرض الاسلام فعليه أن يبيع أرضه ومزرعته إلى إخوته الذين بقوا على دينهم وينتقل إلى مدينة اسلامية.

غير أنه في العهد الأموي لم يجر تطبيق لقانون ابن الخطاب هذا فانتقل عدد كبير من الأرضين من أيدي أهل البلاد إلى أيدي المسلمين. ولم يبلغ عمر البيعات التي حدثت قبل توليه الخلافة، بل أمر فقط بأخذ العشر منها بدلاً من الخراج. ولكن جرى من عام ١٠٠هـ (٧١٨-٧١٩) حظر هذه البيعات من جديد، وظل هذا القرار معمولاً به في عهد خلفيه يزيد الثاني (٧٢٠-٧٢٤) وهشام (٧٢٤-٧٤٣). هذا ما يحكيه ابن عساكر. ويدل فلهاوزن^(١٦٤) بالكثير من الدقة على أنه لم يحدث اطلاقاً أن حرج على العرب امتلاك الأرض في أي وقت من الأوقات. وكثيراً ما يرد القول حتى على عهد خلافة عمر بن عبد العزيز^(١٦٥) بأنه جرى توزيع «القطائع»، التي أصبحت أملاكاً موروثية^(١٦٦) (طعمة) ثم انتقلت من شخص إلى آخر عن طريق البيع.

غير أن فلهاوزن^(١٦٧) في موضع آخر يتخذ موقفاً مخالفاً من حكاية ابن عساكر بصدد قانون عمر بن عبد العزيز، فهو يعتبرها جديرة بالثقة ويعتمد عليها في الخروج باستقراء مؤداه أن عمر بن عبد العزيز اتخذ اجراءات ضد أي انتقال آنف لأملك الدولة إلى أيدي الأفراد عندما حظر بيع الأرض التي ضرب عليها الخراج، وبايقافه، أيضاً، لتوزيع الاقطاع. ويؤكد يحيى بن آدم الذي عاش في بداية العصر العباسي أنه على زمن خلافة عمر بن عبد العزيز انتقلت أرض من دخلوا الاسلام حديثاً إلى أهل قراهم ممن بقوا على ديانة أجدادهم، وذلك في حال انتقال المالك إلى العيش مع المسلمين بالمدينة. ولكنه لو نزل قريباً من قناته، أي أرضه المحروثة، فإن الخراج يجبي منه كما كان سابقاً. ويعتقد فلهاوزن أن الفاظ يحيى بن آدم تتناقض تماماً مع ما هو وارد لدى المؤرخين الذين قالوا:

Das Arabische Reich, S.172 sq (١٦٤)

(١٦٥) ان المؤلفين العرب المبكرين لم يروا في هذا الصدد اختلافاً بين عمر بن الخطاب وخلفه عثمان، كما يتضح من الفاظ البلاذري (١٤٤):

«قطائع اقطعت بأمر عمر وعثمان». غير ان ثمة خبراً (البلاذري ص ٣٦٦ في اسفلها) يقول: «ولم يقطع عمر أحداً على النهرين، أي دجلة والفرات. انظر أيضاً البلاذري ص ٣٥٠ ومايليها.

(١٦٦) انظر قول الخوارزمي (مفاتيح العلوم، ص ٦٠) عن الاختلاف بين «قطيعة»، و«طعمة».

Das Arabische Reich, S. 182 sq. (١٦٧)

إن عمر بن عبد العزيز حظر على الدوام جبي الخراج ممن دخل حديثاً في الإسلام، ولكنه يرى أن هذا التناقض يزول لو افترضنا أن من دخلوا في الإسلام حديثاً وظلوا يعملون بأرضهم قد عدوا مستأجرين لأملاك الدولة، وأن ما دفعوه لا يعدّ ضريبة على الأرض بل أجراً على استعمالها. ولتوكيد هذا يسوق ألفاظاً ليحيى بن آدم نفسه بصدد تصرف مشابه لهذا من طرف الخليفة علي. ولعله لا توجد ثمة حاجة للالتجاء إلى مثل هذه الافتراضات المتعسفة. فحكاية ابن عساكر الذي عاش كما هو معروف في القرن الثاني عشر بصدد قانون عمر بن العزيز، ومغزى العام المائة للهجرة حالة فريدة في الأدب الإسلامي، كما هو الحال مع الحكاية المتعلقة بقانون عمر بن الخطاب وتتناقض بنفس القدر مع أقوال من سبقه من المؤرخين. وفلهاوزن نفسه^(١٦٨) يسوق قصة مكمل تاريخ ايزيدور الاشبيلي التي يقول فيها: إنه على زمن عمر بن عبد العزيز جرى توزيع الأرض بالأندلس التي لم تكن قسمت من قبل بالقرعة، وهي تلك الأرض التي عدت من قبل ملكاً لجماعة المسلمين، ولم يحظ بيت المال بأكثر من الخمس. ووفق قول ابن سعد فإن عمر ابن عبد العزيز كتب إلى عامله: «أما بعد فخل بين أهل الأرض وبين بيع ما في أيديهم من أرض الخراج فإنهم إنما يبيعون فيء المسلمين، والجزية الراتب»^(١٦٩) (على أن تبقى الجزية على ما هي عليه).

والمؤلفون الذين دونوا في القرن التاسع بأراضي الخلافة الأسيوية لم يبصروا استحالة ما في توزيع الاقطاع على زمن عمر بن عبد العزيز فالبلاندي يتحدث عن قناة قرب الرقة على الفرات ارتبطت باسم سعيد بن عبد الملك فعرفت باسم نهر سعيد، فيقول: إنه وفقاً لبعض الأخبار كانت هذه الأرض قد أقطعها سعيداً أخوه الوليد ووفقاً لأخرى عمر بن عبد العزيز^(١٧٠). أما اليعقوبي فيحكي فقط أن عمر ثبت القطائع التي منحها السابقون له من الخلفاء^(١٧١)، وإن كان ابن سعد يورد حكاية بصدد انتزاعه القطائع من أيدي قرابته^(١٧٢). ويلوح أن عمر لم يمنع امتلاك الأرض حتى على شخصه. فاليعقوبي يقول: إن إقامته في شمال الشام قد فسرتها بعض المصادر بأنه كان لديه هناك أرض ورثها عن أمه حفيدة عمر بن الخطاب^(١٧٣). ومساندة فلهاوزن لرواية ابن عساكر بحجة أنها

(١٦٨) نفسه، ص ١٨٤ وما يليها.

(١٦٩) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٧٧.

(١٧٠) البلاذري، ص ١٧٩.

(١٧١) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٦٧ في أعلاها.

(١٧٢) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٧٥.

(١٧٣) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٦٨ في وسطها.

مفصلة بصورة تبعتها عن التلفيق والاختراع^(١٧٤) «aus den Fingern Gesogen» أبعد من أن يقتنع بها المؤرخون. ونفس الحجة بطبيعة الحال يمكن سوقها عن الحكاية حول قاتون عمر بن الخطاب الذي لا يفصل ابن عساكر عن زمنه سوى فترة قليلة مما يفصله عن زمن عمر بن عبد العزيز.

وجرت العادة باحتكام المختلفين إلى ما اتخذه عمر بن عبد العزيز من قرارات للدفاع عن حقوقهم. ففي القرن التاسع كانت واحدة فدك الواقعة على يمينين أو ثلاثة من المدينة^(١٧٥) والتي كانت قبل الاسلام ملكاً لليهود، تعدّ الأوساط الشيعية ملكاً خالصاً للنبي، ونزعت بغير وجه حق من ابنته فاطمة وورثتها. هذه الدعوى تم الاعتراف بها عام ٨٢٦ على عهد المأمون العباسي، فلما تولى المتوكل (٨٤٧-٨٦١)^(١٧٦) المعروف بعذائه للعلويين أمر بردها إلى ما كانت عليه قبل المأمون. أما ما حدث في الأزمنة السابقة لهذا، بما في ذلك موقف عمر بن عبد العزيز من المسألة فقد وصلت إلينا بصد: أخبار متناقضة. فثمة أخبار تقول إن عمر أمر بإرجاع فدك إلى أولاد فاطمة، وأنها انتزعت من جديد بعد موته على يد خلفه يزيد^(١٧٧). غير أنه توجد حكاية أخرى مفادها أن فاطمة رجعت الرسول أن يمنحها فدك ولكنه أبى عليها ذلك، لذا فإن دخل فدك على عهد النبي والخلفاء الراشدين كان يذهب إلى أبناء السبيل. ثم أقطعها معاوية مروان بن الحكم الذي أورثها ولديه عبد الملك وعبد العزيز ونسلهما. وقد تنازل الوليد وسليمان عن حقهما في فدك استجابة لرجاء عمر بن عبد العزيز، الذي لما أصبح مالكاً لها استعمل خرجها من أجل هدفه الأول وهو أبناء السبيل^(١٧٨)، وظلت فدك على هذا الحال إلى زمن المتوكل الذي سار على منوال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز^(١٧٩). وعلى زمن ولاية مروان بن الحكم المدينة بلغ خرج فدك ما قيمته عشرة آلاف دينار في العام^(١٨٠).

وعلى وجه العموم فقد انتشرت بالدوائر الشيعية حكايات واضحة في مبالغاتها^(١٨١) فيما يتعلق بعطف عمر على العلويين وتوقيره لجدهم علي. والمؤكد من بينها هو أن عمر ومن

(١٧٤) Weilhausen, Das Arabische Reich, S.182

(١٧٥) عن موقعها راجع ياقوت، المعجم، الجزء الثالث، ص ٨٥٥.

(١٧٦) البلاذري، ص ٣٢ ومايلها.

(١٧٧) ياقوت، المعجم، الجزء الثاني، ص ٨٥٦، وأيضاً اليعقوبي، التاريخ الجزء الثاني، ص ٣٦٦ في أسفلها. ويرى

فلهاوزن Das Arabische Reich, S.185 أن الخبر جدير بالثقة ولا يكلف نفسه ذكر الأخبار المناقضة. راجع أيضاً

Goldziher, Muhammedanische Studien, T.II, S.103, Anm.1

(١٧٨) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٨٦.

(١٧٩) ياقوت، المعجم، الجزء الثالث، ص ٨٥٨.

(١٨٠) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٨٦.

(١٨١) هذه المبالغة تنبئ لها فلهاوزن (Das Arabische Reich, S. 193, Anm.2)

بعده هشام^(١٨٢) تركا لعن عليّ على المنابر كما جرت العادة منذ زمن معاوية، ولهذا أثنى عليه أشاعر الشيعة كثير عزة الخزاعي بقوله^(١٨٣):

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف بذيها ولم تتبع مقالة مجرم
ويسوق المسعودي رواية نصها^(١٨٤): «وترك لعن عليّ (رضه) على المنابر وجعل مكانه
«ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان» الآية وقيل: بل جعل مكان ذلك «إن الله
يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء» الآية، وقيل: بل جعلهما
جميعاً فاستعمل الناس ذلك في الخطبة إلى الغاية». فإن قصر عمر نفسه حقاً على تلاوة
الآية الثانية، فمن الواضح أنه اطرح فقط بغض علي ولكن لم يصبح من أنصاره. ويبدو
أن اتجاه عمر قد أعرب عنه إعراباً صحيحاً قصة للنووي^(١٨٥) ورد فيها أن عمر أجاب
على من سأله رأيه في «يوم الجمل» وواقعة صفين: «تلك دماء كفّ الله يدي عنها وأنا أكره
أن أغمس لساني فيها». وجوابه مشابه بالتقريب للجواب الذي أعطاه لتيمورلنك عام
١٤٠١ عالم من أهل دمشق «تلك أمة قد خلت، وغيوم غيومها انجلت، وبما جرعت
انقضت، وبما ذاقت مرّت أو حلت، وفتن أراحنا الله منها إذ أراحنا عنها، ودماء طهر الله
سيوفنا منها»^(١٨٦).

والفاظ الطبري بصدد العطاءات العالية التي منحت للامويين، لدى مقارنتها بما
منح للهاشميين، تبين إلى أي درجة جرت المبالغة في الحكايات بصدد العطاءات التي قيل:
إن عمر منحها للهاشميين. ولما تسلم عمر كتاب نفر من بني هاشم يشكرونه على إنصافهم
مما تعرضوا له من جور منذ زمن معاوية صرح لهم بأن هذا كان رأيه من قبل، وأنه كَلَّم
في ذلك الوليد وسليمان فأبيا عليه^(١٨٧). وإلى هذا الضرب من المبالغات تنتمي الأخبار
بصدد المساواة التامة أمام القانون بين العرب والموالي. فيقال: «إن عمر بن عبد العزيز
جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى
المعتق خمسة وعشرين ديناراً^(١٨٨)». أما أرزاق الجند فدفعت إلى كل من بلغ الخامسة
عشرة واستطاع حمل السلاح^(١٨٩). وبخلاف ذلك منح الجند أرزاقاً تكفي أسرهم بعدد

(١٨٢) الطبري، القسم الثاني، ص ١٤٨٢. راجع عن هذا بارتولد «الخليفة والسلطان بالروسية» (الجزء السادس، آثاره الكاملة، ص ٢١).

(١٨٣) لدى اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٦٦، وفي Fragmental، 62 في أسفل الصفحة. أما لدى ياقوت (المعجم الجزء الثاني، ص ٦٧١) فمرد في نفس الموضوع أبيات الامام الشيعي علي الرضا.

(١٨٤) المسعودي المروج، الجزء الخامس، ص ٤١٩.

(١٨٥) النووي، ص ٤٧١.

(١٨٦) ابن عريشاه، عجائب المقدور، طبعة القاهرة، ص ١١٠.

(١٨٧) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٨٩.

(١٨٨) نفسه، ص ٢٧٧.

(١٨٩) نفسه، ص ٢٥٨.

رؤوس الأسرة ولكن اتخذت الاجراءات للحيلولة دون تسلّم عطاءات عن موتاهم^(١٩٠). ويبدو أن هذه المسألة الأخيرة تتعلق بحق تحويل العطاء المتسلم من بيت المال إلى ورقة الميت. وقد أراد عمر أن يلغي ذلك الحق ويفرض أرزاقاً لعامة الجند، ولكن أحد مستشاريه نصحه بقوله: «إني أتخوف أن يستنّ بك من بعدك في قطع الورثة ولا يستنّ بك في عموم الفريضة، قال صدقت وتركهم»^(١٩١).

والاهتمام بدفع الأرزاق في مواقيتها بهذا المعدل المتزايد كان عبئاً ثقيلاً على بيت المال. وفي ذات الوقت فإن ما بذل من جهد لتخليص الناس من جميع الضرائب غير العادلة، لا بد أنه ساق إلى نقص في الدخل الحكومي. وينسب إلى عمر إلغاء تلك الضرائب التي عدت في جوهرها ضد تعاليم الاسلام فحسب، مثل الخراج على المسلمين والضرائب التي كانت تجبى في الجاهلية^(١٩٢)، بل إلغاء الزيادات التي فرضها الأمويون السابقون خلافاً للاتفاقات المعقودة. فعلى زمن عبد الملك زيدت الإتاوة على أهل قبرص بألف دينار فحطها عمر عنهم، ولكن ردت إلى ما كانت عليه في زمن هشام^(١٩٣). وكان أهل أيلة على البحر الأحمر يدفعون ثلاثمائة دينار في العام وفق صلح عقوده مع النبي، فحظر عمر زيادة شيء عليهم^(١٩٤). وقد فرض على السكان النصارى بمدينة نجران الصناعية باليمن أن يدفعوا وفق صلح عقوده مع النبي ألفي حلة في السنة، فلما قرر عمر بن الخطاب ألا يبقى دين بجزيرة العرب خلاف الاسلام أجلاهم إلى العراق، فتناقص عددهم بالتدريج إلى عشر ما كانوا عليه نتيجة لما لحقهم من شتات واضطهاد. فقرر عمر بن عبدالعزيز أن تضرب عليهم الجزية فقط وليس الخراج، كما منع أخذ الجزية عن الموتى أي بنفس الحال مع الداخلين في الاسلام. ثم ألزمهم مائتي حلة فقط لا تتجاوز قيمتها ثمانية آلاف درهم^(١٩٥). وكان سكان اليمن المسلمون على عهد واليهم الأسبق محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي قد أثقلتهم الزيادة في الخراج، فألغى عمر ذلك، وأمر ألا يؤخذ من اليمنيين سوى العشر. ولما ولي يزيد رُدّت الزيادة إلى ما كانت عليه^(١٩٦).

(١٩٠) نفسه، ص ٢٥٥.

(١٩١) البلاذري، ص ٤٥٨ وما يليها.

(١٩٢) يبدو أن الأمر يتعلق بإلغاء عمر الضرائب على الترف على الرغم من كراهية عمر لادوات الترف، ومن قبل كان يُدفع دينار على الحصان ودينار على العبد، وخمسة دراهم على كل فدان من الأرض المملوكة (ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٧١).

(١٩٣) البلاذري، ص ١٥٤ وما يليها.

(١٩٤) نفسه، ص ٥٩.

(١٩٥) نفسه، ص ٦٦ وما يليها.

(١٩٦) نفسه، ص ٧٣.

ولم تكن الصدقات المفروضة على المسلمين من أجل الفقراء والمساكين تدخل بأية حال من الأحوال في بيت المال، وإن كان ذلك من الناحية النظرية فحسب. ذلك أن الدولة كثيراً ما تصرفت فيها. غير أن العلم بأن هذا يتعارض مع الشريعة كان من القوة بحيث أن الحاكم المتمسك بروح التقوى أو المتظاهر بها ما كان يجرؤ على استعمال أموال الصدقة إلا في أعمال البر. ولما ساقطت الحركة تحت شعار «كتاب الله وسنة نبيه» في منتصف القرن الثامن إلى سقوط الدولة الأموية وارتفاع نجم بني العباس، وجدت الدولة الجديدة من الضروري إرجاع الصدقات إلى هدفها الأصلي، وإن حدث ذلك لوقت قصير^(١٩٧). ومن الطبيعي أنه لم يوجد على عهد عمر تردد ما حول استعمال أموال الصدقة في وجهها الصحيح مثال ذلك أنه أمر بتقسيم ما جمع من الحب والتمر بعمان على فقراء أهلها^(١٩٨). وما زال في حاجة إلى إجابة وافية عن سؤال يتعلق بالضرائب التي تنطوي تحت هذا الضرب من الدخل. ولقد قبلت الشريعة الإسلامية على عهد العباسيين القانون الروماني المتعلق بالحرف occupatio: فسأوت الدخل من المعادن بغنائم الحرب وأمرت بأخذ الخمس عليها لبيت المال^(١٩٩). وعلى عهد عمر بن عبد العزيز ظلت هذه المسألة موضع نزاع، وكان الخليفة نفسه يميل إلى الحل الأقل مكسباً لبيت المال. وفي رأيه أن الدخل من المعادن تنضاف إلى الصدقات وليس إلى الخمس^(٢٠٠). أما فيما يتصل بمسألة أي أنواع الدخل ينتمي إلى الصدقات فإن عمر تجاوز أحياناً الشريعة من أجل مصلحة الفقراء والمساكين. فقد أمر، مثلاً، بأخذ الصدقة من خلايا النحل، وإن قال عدد من الفقهاء: إن الضريبة على العسل ليست من الصدقة^(٢٠١).

ومن بين الإجراءات التي اتخذت لحماية الفقراء من الاستغلال لا يرد سوى ذكر أمر لعمر بن عبد العزيز يرجع إلى نفس العام المائة الذي يرجع إليه ابن عساكر قانون الأراضي الملقق. ففي ذلك العام نهى أهل مكة من كراء دورهم، وألا يبني بناء بمنى^(٢٠٢) وهي الموضع الذي يرمي فيه الحجاج بالجمار، ويضحون ويمضون ليلتين (وتعمر في أيام الموسم وتخلو بقية السنة). ومن الواضح أن عمر بقراره هذا كان يبغي حماية الحجاج

(١٩٧) الكندي، ص ١٠٠.

(١٩٨) البلاذري، ص ٧٧ ومايليها.

(١٩٩) Schmidt, «Mir Islama», T.I, str. 133.

(٢٠٠) ابن سعد الجزء الخامس، ص ٢٥٩.

(٢٠١) البلاذري، ص ٥٧.

(٢٠٢) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٦٨. عن منع ايجار الدور بمكة يتحدث أيضاً البلاذري (ص ٤٣) دون اشارة إلى

التواريخ.

من استغلال السكان المحليين، غير أنه من المشكوك فيه أنه تمّ تنفيذه. وإلى جانب مسؤولية الولاة في تطبيق العدالة وحماية الناس من الجور، فقد أمروا أيضاً بأن يهتموا بمراقبة سلوك المواطنين وفق القواعد الأخلاقية للإسلام. فصدرت الأوامر إلى والي مصر بتحريم الخمر، وكسر حوانيتها، ومنع بيعها^(٢٠٣). كما منعت النساء من زيارة الحمامات^(٢٠٤)، وألاً يدخلها الرجال إلا بمئزر^(٢٠٥).

أما ببلاد الخليفة فقد أصبحت التقوى هي أسلوب الحياة المفضل. يقول الطبري في هذا الصدد: «وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه فانما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كان الناس يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وردك الليلة وكم تحفظ من القرآن ومتى تختم ومتى ختمت وما تصوم من أشهر»^(٢٠٦). لذا فقد عاشت أسرة الخليفة نفسه حياة تنطوي على التقوى، فابنه عبد الملك الذي مات في خلافة أبيه ولم يتجاوز سنه السابعة عشرة أو التاسعة عشرة^(٢٠٧) كان يعد من أكثر الناس المتمسكين بتعاليم الدين.

وأقل الناس رضى بما حدث من تغير في أسلوب حياة الخلفاء كان الشعراء، الذين أجازهم عمر بسخاء أيام ولايته المدينة. وقد لاهه الشاعر جرير لأنه أعطى الفقراء ومنع الشعراء^(٢٠٨). غير أن عمر ظل يمنح الشعراء ولكن بدرجة أقل ومن عطائه الشخصي، وليس من بيت المال. وأحياناً وجد الخليفة من الضروري أن يجازي الشعراء في السر بصورة أسخى مما في العلانية. ويحكي كتاب الأغاني حكاية عن ثلاثة من الشعراء دخلوا على الخليفة، فأذن لثنين بالإنشاد وأمر لكل منهما بمائة وخمسين درهماً ولم يأذن للثالث بالإنشاد. ويفصل صاحب كتاب الأغاني في قوله: «قال الرياشي في خبره فقال لنا: (أي عمر بن عبد العزيز للشعراء) ما عندي ما أعطيكم فانتظروا حتى يخرج عطائي فأواسيكم منه، فانتظرونا حتى خرج فأمر لي وللأحوص بثلثمائة درهم وأمر لنصيب بمائة وخمسين درهماً»^(٢٠٩).

(٢٠٣) الكندي، ص ٦٨.

(٢٠٤) نفسه، ص ٦٩.

(٢٠٥) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٦٢.

(٢٠٦) الطبري، القسم الثاني، ص ١٢٧٢.

(٢٠٧) تسعة عشر عاماً ونصف لدى ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٨٤، سبعة عشر عاماً ونصف لدى النووي، ص ٤٦٦.

(٢٠٨) كتاب الأغاني، الجزء الثامن، ص ١٥٥.

(٢٠٩) نفسه، ص ١٥٢ وما يليها.

وبخلاف الشعرفان الخليفة لم يكن غريباً أيضاً على العلوم. فقد كلف طبيباً من أهل البصرة اسمه ماسرجويه أن ينقل له من السريانية كتاب الطبيب الاسكندراني آهرون في الطب. ووفق خبر آخر فإن تلك الترجمة عملت في زمن مروان بن الحكم ووجدها عمر في خزانة كتب جدّه فوضعها على مصلاه واستخار الله في اخراجه للمسلمين لينتفعوا به، (فلما تمّ له في ذلك أربعون يوماً أخرجه إلى الناس وبثّه في أيديهم)^(٢١٠). ويبدو أن عمر أيام خلافته فضّل دين الصبي والأعرابي على جميع ضروب المعرفة. وينسب إليه قول مفاده: «الزم دين الصبي في الكتاب والأعرابي، واله عما سوى ذلك»^(٢١١). كذلك ينسب إليه القول الآتي: «من قال لا أدري أحرز نصف العلم»^(٢١٢). ولقد جهد ليعبر بصورة حية عن توقانه ليستعيد حياة الرعيل الأول من المسلمين في كل طهرها ونقاؤها. وينسب إليه تشبيهه الاسلام بالنهر حينما قال: إن محمداً عندما قبضه الله ترك للمسلمين «نهرأ شربهم فيه سواء، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه. فلما ولي عثمان اشتق من ذلك النهر نهرأ، ثم ولي معاوية فشق منه الأنهار، ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إليّ وقد يبس النهر الأعظم. ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه»^(٢١٣).

ويبدو أن عمر قلّ ما زار دمشق أو نزل بقصر الخلفاء الأمويين. ويقول اليعقوبي: إنه كره أن ينزل في منازل أهل بيته التي بناها بنوها بمال الله وفيء المسلمين^(٢١٤). ويقال إنه كان ينوي أن ينزع من المسجد الذي بناه الوليد بدمشق ما به من الرخام والفسيفساء والذهب لأنه يلهي المصلي ويشغله عن صلاته. غير أنه أقلع عن فكرته عندما بلغه ما تركه المسجد من أثر في نفوس السفراء البيزنطيين حتى قالوا: إنهم كانوا قبل ذلك يعدون بقاء العرب شيئاً مؤقتاً فلما أبصروا عظمة المسجد الذي بناه بنوه اقتنعوا بخطل رأيهم^(٢١٥). أما مسجد الرملة الذي بديء في عهد سليمان فقد أتم بناءه عمر ونقص من خطته

(٢١٠) ابن القفطي، ص ٢٢٤ ومايليها. أما عن الطبيب آهرون وترجمته فراجع «تاريخ الأدب السرياني» لرايت Wright وعن ما سرجويه راجع أيضاً الفهرست (لابن النديم)، ص ٢٩٧.

(٢١١) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٧٥.

(٢١٢) الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأول، ص ١٥٠.

(٢١٣) كتاب الأغانى، الجزء الثامن، ص ١٥٢.

(٢١٤) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٦٨.

(٢١٥) ياقوت المعجم، الجزء الثاني، ص ٥٩٥ ويختلف عنه بعض الشيء ابن الفقيه، ص ١٠٨، راجع أيضاً Fragmenta

الأصلية^(٢١٦). وكان الموضع المفضل لإقامة الخليفة عمر بن عبد العزيز هو بلدة حُنَاصِرَة بشمالي الشام على يومين من حلب في اتجاه الشمال الشرقي على طرف البادية^(٢١٧).

وأبعد من ذلك قليلاً صوب الشمال الغربي وذلك على ساحل البحر كان يقوم حصن المنقب بمنطقة جبلية قرب المصيصة، والذي ينسب بناؤه في بعض الروايات إلى عمر بن عبد العزيز^(٢١٨) وفي البعض الآخر إلى هشام^(٢١٩). وفي القرن العاشر كان يشار إلى منبر عمر وقرآنه بالمنقب.

وحسب ما ذكره اليعقوبي فقد حذر عمر من أن نزوله البادية مضرٌ بمصالح الدولة فعاد إلى دمشق، ونزل هناك لعشرين يوماً بدار أبيه عبد العزيز بن مروان قرب المسجد^(٢٢٠). وفي القرن الثاني عشر على زمن ابن جبير^(٢٢١) كان يشار بدمشق إلى مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز، وأيضاً إلى بيته الواقع إلى الشمال من المسجد الكبير، وحول فيما بعد إلى خانقاه للصوفية. ومهما يكن من شيء فإن خلافة عمر بن عبد العزيز حتى بالنسبة للعاصمة الأموية لم تمرّ دون أن تترك بعض الأثر، وذلك في مجال التقوى والعدل. فالقاضي الذي عينه بدمشق ظل في منصبه على حد قول ياقوت^(٢٢٢): مدة ثلاثين عاماً، أي في زمن خلفيه يزيد وهشام، بل لعله، إذا كان عدد السنين صحيحاً، إلى ما وراء خلافة هشام أو بالتقريب إلى نهاية أيام الدولة الأموية.

ومن دمشق ذهب عمر إلى حلب ثم حمص، ولكنه مرض وهو في طريقه إلى حمص فتوقف بدير سمعان وهناك اشترى من أحد الرهبان موضعاً لقبره دفع فيه عشرة دنانير^(٢٢٣). من هذه الحكاية ومن حكايات أخرى غيرها أفترض أن دير سمعان هذا بشمال الشام^(٢٢٤). والبكري^(٢٢٥) وياقوت هما الوحيدان اللذان يضعانه بنواحي

(٢١٦) البلاذري، ص ١٤٢.

(٢١٧) ياقوت المعجم، الجزء الأول، ص ١٥١، والجزء الثاني، ص ٤٧٣.

(٢١٨) الاصطخري، ص ٦٣.

(٢١٩) البلاذري، ص ١٦٦ في أسفلها.

(٢٢٠) اليعقوبي، التاريخ، الجزء الثاني، ص ٣٦٨.

(٢٢١) ابن جبير، ص ٢٦٩ و ٢٧١.

(٢٢٢) ياقوت، المعجم، الجزء الثاني، ص ٥٣٦ في أسفلها.

(٢٢٣) هذا المبلغ ورد ذكره أيضاً في كتاب الأغاني، الجزء الثامن، ص ١٥٨ ولكن بدون إشارة إلى اسم الدير أما

في Fragmenta, I, 63 فريد الحديث عن دينارين تم دفع أحدهما ودفع قميصاً كان عليه محل الآخر.

(٢٢٤) مثلاً في Fragmenta, I, 63: من أرض المعرة، والمسعودي المروج، الجزء الخامس، ص ٤١٦: من أعمال حمص.

(٢٢٥) توجد ترجمة رواية البكري بالروسية لدى مدنيكوف، فلسطين، الجزء الثاني، ص ٩٠٥.

دمشق^(٢٢٦). ويقول ياقوت: إن الدير تساقط بناؤه منذ عهد طويل، وأن موقعه لم يكن معروفاً على وجه الدقة. ويسوق في هذا الصدد أبياتاً لشاعر يدعى أبا فراس أبصر أطلال الدير. وفي كلامه عن دير مرّان بشمال الشام يقول ياقوت: إن الناس يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز، وأنه مشهور بذلك ويزار، ودير مرّان هذا قرب المعرة^(٢٢٧).

والروايات بصدد اللحظات الأخيرة لحياة الخليفة وتفاصيل دفنه تحمل نفس الطابع الأسطوري الذي حملته الروايات الكثيرة المتعلقة بسيرة حياته وأيام حكمه. ويرد لدى الطبري على لسان فاطمة زوج عمر أن الفاظه الأخيرة كانت الآية الكريمة: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين»^(٢٢٨). ووفق رواية يرويها كتاب الأغاني فإن فاطمة ومسلمة بن عبد الملك سمعا هاتفا في البيت يتلو تلك الآية بينما كان الخليفة يجود بأنفاسه الأخيرة ويقول «حيّ الوجوه حيّ الوجوه»^(٢٢٩). ووفقاً لما جاء في كتاب الأغاني فإن عمر حكى لمسلمة أنه أثناء دفن أبيه عبد الملك بن مروان رأى رؤيا عن مصير عبد الملك أفزعته فعاهد الله ألا يعمل بمثل عمله لو ولي الخلافة. فلما مات عمر كفته مسلمة ورأى كما يرى النائم الخليفة في جنات النعيم^(٢٣٠). والقصة التي يحكيها ابن سعيد تحتاج إلى كثير من الدقة والتوثيق، ومفادها أنه عند دفن الخليفة «سقط رق من السماء فيه مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار»^(٢٣١).

(٢٢٦) ياقوت المعجم، الجزء الثامن، ص ٦٧١، ويشير مدنيكوف Mednikov في كتابه بالروسية عن فلسطين (الجزء الأول، ص ٧١٩) أيضاً إلى يوتيوخوس، ولكن يوتيوخوس يضع الدير في أرض حمص (نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٧٦) على أي فإن الدير الذي دفن فيه عمر ليس هو نفس الدير المشهور الذي يحمل نفس التسمية ويقع على الطريق من حلب إلى انطاكية، راجع ياقوت، المعجم، الجزء الثاني، ص ٦٧٢، وروذن «باسيل قاتل البلغار» باللغة الروسية ص ١٦٨ Rozen, Vasilii Bolgaroboi-itsa.

(٢٢٧) ياقوت، المعجم، الجزء الثاني، ص ٦٩٧. وكان قبر عمر يشار إليه في عهد ياقوت بدير ثالث هو «دير النقيرة» القريب أيضاً من المعرة على جبل (نفسه، ص ٧٠٤).

(٢٢٨) الطبري، القسم الثاني، ١٣٧٢.

(٢٢٩) كتاب الأغاني، الجزء الثامن، ص ١٥٨.

(٢٣٠) نفسه، ص ١٥٦ وما يليها. راجع أسطورة مشابهة في Fragmenta, I, 61 (في أعلى الصفحة): «روى ميمون بن مهران صاحب عمر قال: قال لي عمر إنني وضعت الوليد في حفرة ثم نظرت فإذا وجهه أسود فإذا مت ودفنت فاكشف عن وجهي ففعلت فرأيت وجهه أحسن مما كان أيام تنعمه».

(٢٣١) ابن سعد، الجزء الخامس، ص ٢٠١.

الاجناد وادارتها

نجدة خماش

لعل الشام هي الولاية الوحيدة التي انقسمت الى ما يسمى أجناداً، فياقوت الحموي يذكر أنه لم يبلغه أن كلمة أجناد استعملت في غير أرض الشام (١). وقد انقسمت الشام في العصر الأموي الى خمسة أجناد هي: جند فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين، وكانت قنسرين مضافة الى حمص في العهد الراشدي، فأصبحت حلب مضافة الى قنسرين حتى نهاية الدولة الأموية (٢). واختلف المؤرخون فيما اذا كان معاوية هو الذي فصل قنسرين عن حمص أم ابنه يزيد، فالبلاذري يذكر أن قنسرين وكورها كانت مضمومة الى حمص حتى كانت خلافة يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً (٣)، بينما يذكر الطبري أن معاوية هو الذي جند قنسرين ممن أتاه من أهل العراقين أيام علي، و«إنما كانت قنسرين رستاقاً من رساتيق حمص، حتى مصرها معاوية وجندها بمن ترك الكوفة والبصرة، وأخذ لهم معاوية بنصيبهم من فتوح العراق أذر بيجان والموصل والباب» (٤).

وكانت الجزيرة تابعة إدارياً في بادئ الأمر لوالي حمص (٥)، فلما أصبحت قنسرين جنداً، ارتبطت الجزيرة إدارياً بوالي قنسرين، حتى كانت خلافة عبد الملك الذي عمد الى فصل الجزيرة عن قنسرين، نتيجة لمتطلبات عسكرية، و يقال إنه فعل ذلك بناء على طلب محمد بن مروان فجندها، فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها (٦) ثم ضم عبد الملك لمحمد بن مروان أذربيجان وأرمينية وأحياناً الموصل (٧).

١. ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان، م٥، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥، ج ١ ص ٢٨.
٢. ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م)، الأعلاق النفيسة، ليدن مطبعة برييل، ص ١٠٧. الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٢١٠هـ/٩٢٣م)، تاريخ الرسل والملوك، ١١ ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ٤ ص ١٦١. ابن العديم كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦هـ/١٢٦٢م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان. نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١م، ص ٤١.
٣. البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٢٨.
٤. الطبري، تاريخ، ج ٤ ص ١٦١، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٤م) الكامل في التاريخ، ١٠ ج، دار الكتاب العربي بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣، ج ٣ ص ١٥.
٥. البلاذري، فتوح، ص ١٧٧. الطبري، تاريخ، ج ٤ ص ١٤٤.
٦. البلاذري، فتوح، ص ١٢٨.
٧. خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة، ٢ ج، تحقيق سهيل زكار الملكية والتاريخ، ج ١ ص ٣٩٣، ٤١٦.

ومن تتبعنا للروايات التي أوردها المؤرخون حول الفتوحات ومقارنتها بما ذكر عند الجغرافيين، نجد أن كل جند من أجناد الشام كان يضم منطقة ساحلية وأخرى داخلية بحيث تستطيع كل منطقة أن تعتمد على الأخرى حربياً واقتصادياً وقد كانت يافا وعسقلان وغزة تابعة لجند فلسطين (٨) بينما كانت صور وعكا تابعة لجند الأردن (٩). أما المدن الساحلية التابعة لجند دمشق فقد كانت عرقة (١٠) وجبيل، وصيدا، وبيروت، وطرابلس (١١) بينما كانت اللاذقية، وجبلة وبانياس وأنطربطوس تابعة لجند حمص (١٢) وتبعت أنطاكية جند قنسرين (١٣).

وكانت مراكز الأجناد في العصر الأموي كلها مدناً داخلية كما كانت في العصر الراشدي، قنسرين، حمص، دمشق، طبرية، اللد، وبقيت اللد قسبة جند فلسطين حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك الذي ولي أخاه سليمان جند فلسطين، فابتنى مدينة الرملة (١٤) ومصرها واختط مسجدها، فصارت القسبة، ونقل الناس إليها من اللد، واحتفر لأهل الرملة قناتهم التي تدعى برده، واحتفر أباراً، وكان بنو أمية ينفقون على آبار الرملة وقناتها بعد سليمان بن عبد الملك (١٥).

وإذا كانت دمشق مجرد قسبة لجند دمشق في العصر الراشدي، فإنها أصبحت في خلافة بني أمية عاصمة للدولة الإسلامية بسبب موقعها المتوسط وتقاليد الحضارية، وبقيت دمشق العاصمة الرسمية للدولة الإسلامية حتى خلافة مروان بن محمد الذي نقل بيوت الأموال والخزائن إلى الجزيرة (١٦). وقد دفن كل من معاوية ويزيد ومروان بن الحكم

٨. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩١م ص ٢٢٩. البلاذري، فتوح، ص ١٤٤. ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهذلي كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، ص ١٠٣. ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٢٨٣هـ/١٩٦٣م، ص ٢٥٠، ٢٥١.

٩. البلاذري، فتوح، ص ١٢٤. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧. ابن شداد، الأعلاق، ص ١٢٣.

١٠. بلدة شرقي طرابلس، وهي آخر عمل دمشق وهي في سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل. ياقوت، ج ٤ ص ١٠٩.

١١. ابن شداد، الأعلاق، ص ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١٠١، ١٠٦. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٧. ابن خردادبة عبید الله بن عبد الله (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م)، المسالك للمالك، تحقيق دي غويه، ليدن، ١٨٨٩م طبعة أوفست مكتبة المثنى، بغداد، ص ٧٧. ابن الفقيه، البلدان، ص ١١٠، البلاذري، فتوح، ص ١٢٩.

١٢. البلاذري، فتوح، ص ١٥٣.

١٤. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٨، البلاذري، فتوح ص ١٤٩، القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى ١٤ ج، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٣١هـ/١٩١٣م، ج ٤ ص ٩٩.

١٥. البلاذري، فتوح، ص ١٤٩.

١٦. الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧، ص ٦٨.

وعبد الملك والوليد بن عبد الملك بدمشق، (١٧) أما سليمان فقد دفن بدابق من أرض قنسرين (١٨) بينما دفن عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أرض حمص (١٩) ودفن هشام بن عبد الملك بالرصافة (٢٠).

ومن المؤكد أن معاوية أقام في دمشق طوال إمارته وخلافته ولم يكن يغادرها إلا لأسباب قاهرة، وكذلك فعل عبد الملك، أما بقية الخلفاء فيظهر أنهم كانوا يقيمون في أماكن مختلفة، وإن بقيت دمشق هي المركز الذي تتم فيه بيعة الخلفاء وما يتبع ذلك من مراسم، إذ أن هناك إشارات واضحة إلى أن بيعة يزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد ابن عبد الملك قد تمت في دمشق، وكذلك سليمان لأنه هو الذي صلى على أخيه فلا شك أنه بويج بدمشق. ورغم أن البريد جاء بشارتي الخلافة، العصا والخاتم إلى هشام، وهو بالزيتونة، فإنه لم يلبث أن توجه إلى الرصافة ثم ركب من الرصافة حتى أتى دمشق، فبويج بها في اليوم الأول من رمضان سنة ١٠٥هـ (٢١).

وبانتقال الخلافة إلى معاوية أصبح كخليفة مسؤولاً عن تنفيذ القانون في جميع أنحاء الدولة الإسلامية، ولكن نظراً لسعتها، ولصعوبة المواصلات، أصبح تنفيذ القانون والإشراف على الشؤون الإدارية في الأمصار بيد الأمير الذي يتمتع خلال إشغال منصبه بشبه استقلال ذاتي، إلا أنه مسؤول تجاه الخليفة ويعمل باسمه كما أنه لم تكن له الصلاحية في أن يسير إلى الخليفة ويترك أمور ولايته إلا بأذنه (٢٢).

ونتيجة لهذا الأسلوب في الإدارة، كانت الشام هي الولاية الوحيدة التي وقعت تحت الإدارة المباشرة للخليفة، وإذا كان قد وجد إلى جانب الخليفة موظفون إداريون يساعدونه في النظر في الشؤون والقضايا المتعلقة بالدولة الإسلامية بشكل عام بما في ذلك الشام، فقد وجد موظفون آخرون انحصرت مهماتهم بإدارة الأجناد فقط.

١٧. أبو الحسن، علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي السرور، بلغلة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء، مصر، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩ ص ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٣. المسعودي أبو الحسن، علي بن الحسين بن علي (ت ٢٤٦هـ/٩٥٦م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ ج، دار الأندلس، ج ٣ ص ١، ٥٣، ٨٩، ٩١. القلقشندي، أحمد بن عبد الله (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، مآثر الأئمة في معالم الخلافة، الكويت، ١٩٦٤م، ج ١ ص ١١١، ١١٧.

١٨. النووي، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الحادي والعشرون، تحقيق محمد علي البجاوي، ص ٣٣٥.

١٩. الطبري، تاريخ، ج ٦ ص ٥٦٥.

٢٠. الطبري، تاريخ، ص ٢٠٠.

٢١. الطبري، تاريخ، ج ٧ ص ٢٥. مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق (من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم) مكتبة المثنى، بغداد، ص ٨٢. ابن الوردي، عمر بن مظفر (ت ٢٤٧هـ/١٠٠٠م)، تاريخ ابن الوردي، النجف، ١٩٦٩م، ص ٢٤٧.

٢٢. الجهشيار، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م)، كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي، ط ١٣٥٧هـ/١٩٣٨، ص ٢٤. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ١٤٩.

ومن أهم الموظفين الذين كانوا يساعدون الخلفاء في إدارة الشام والنظر في شؤون الدولة، المستشارون الذين يطلق عليهم المؤرخون أحياناً اسم الوزراء (٢٣) ورغم أن الوزارة، كما يقول ابن طباطبا، لم تتمهد قواعدها، وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فإننا إذا نظرنا إلى ما كتبه الطبري في أحداث سنة ٥٨ هـ عن قبيصة بن ذؤيب لوجدنا أنه كان يجمع كل صفات الوزير العباسي وإن لم يسم وزيراً، جاء في الطبري «أن عبد الملك تقدم إلى حجابيه أن لا يحجب عنه قبيصة بن ذؤيب أي ساعة جاء من ليل أو نهار، إذا كان خالياً أو عنده رجل واحد وإن كان عند النساء أدخل المجلس وأعلم بمكانه» وكان الخاتم والسكة إليه تأتيه الأخبار قبل عبد الملك، وقرأ الكتاب قبله، ويأتي بالكتاب إلى عبد الملك منشوراً (٢٤).

ويستخدم كل من اليعقوبي والجهشياري تعبيراً يعبر عن وضع هؤلاء الكتاب الذين كانوا بمنزلة الوزراء، فيذكر اليعقوبي أن قبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع اللجذامي كانا يكتبان لعبد الملك وكانا غالبين عليه (٢٥)، وكان يكتب لهشام بن عبد الملك، سعيد بن الوليد ابن عمرو بن جبلة الأبرش وكان غالباً عليه (٢٦) كما كان عبد الحميد غالباً على مروان (٢٧).

وكان هؤلاء المستشارون على درجة عالية من التفقه في الدين، يتقنون اللغة و يجيدون الخط، ويروون الأشعار، ويعرفون غريب معانيها، وكان عبد الملك يمتدح روح بن زنباع بقوله «إنه شامي الطاعة، عراقي الخط، حجازي الفقه، فارسي الكتابة» (٢٨) أما قبيصة بن ذؤيب فيدعوه الذهبي، الامام الكبير، الفقيه الخزاعي المدني ثم الدمشقي الوزير (٢٩).

ويبدو لنا لأول وهلة ونحن نقرأ عن هؤلاء المستشارين أنهم كانوا كذلك مسؤولين عن شؤون ديوان الرسائل، ولكننا إذا عدنا إلى المصادر وجدنا موظفين آخرين يتولون هذا المنصب، إلا عبد الحميد الكاتب فقد كان مستشار مروان والمسؤول عن هذا الديوان في الوقت نفسه (٣٠).

٢٣. المسمودي، مروج، ج ٢ ص ٢٩ - ٣١. ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م). سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق، أحمد عبيد، ط ٢، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤ ص ١١٨. الطبري، تاريخ، ج ٤ ص ٢٥٥، ج ٦ ص ٤١٢.
٢٤. الطبري، تاريخ، ج ٦ ص ٤١٢.
٢٥. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ج ٢، ص ٢٣٨.
٢٦. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٣٨. الجهشياري كتاب الوزراء، ص ٥٩. الطبري، تاريخ، ج ٧ ص ١٩٢.
٢٧. الجهشياري كتاب الوزراء، ص ٧٣.
٢٨. الجهشياري، كتاب الوزراء، ص ٢٥.
٢٩. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م). سير أعلام النبلاء، ج ٨، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٨١، ج ٤ ص ٢٨٢.
٣٠. خليفة، تاريخ، ج ٢، ص ٦٢٢.

كان صاحب ديوان الرسائل يدعى أحياناً، في خلافة بني أمية، ديوان الرسائل، أو صاحب ديوان المكاتب، وكان مؤتمناً على أمور الدولة وأسرارها (٣١)، وينظر في أمر البريد ومتعلقاته (٣٢)، ويقرأ الكتب الواردة على الخليفة، وكان هذا الواجب هو واجب الخليفة نفسه، ولما كان هذا متعزراً لكثرتها واتساع الدولة وكثرة المكاتبين، فوض الخليفة هذا الأمر إلى صاحب ديوان الرسائل الذي اضطر بدوره عندما ازدادت أعباؤه لانشغاله بمراقبة ما يكتب في الديوان والمقابلة به، أن يعتمد على كاتب يقوم مقامه، يتصفح ما يكتب في الديوان من الولايات والمناشير والمكاتب (٣٣).

ولو دققنا في الروايات المتعلقة بكتاب الرسائل في العصر الأموي لوجدنا أن صاحب ديوان الرسائل كان من العرب في خلافة معاوية ويزيد ومروان (٣٤)، ثم لم تلبث هذه المكانة أن انتقلت إلى الموالي (٣٥).

وازدادت مكانة الكتاب منذ خلافة هشام بن عبد الملك الذي أوكل إلى سالم بالكتابة إلى ولاته في الشؤون التي تعرض له (٣٦)، ونظراً لمكانته وعظيم قدره عند هشام فإنه كان يتجاوز مركزه أحياناً (٣٧)، فقد سار في موكب فمنعه هشام كما كان يسير مع هشام في الموكب فإذا جاء الرجل الغريب، يوقفه سالم ويسأله حاجته، كأنه على قول الطبري هو الذي أمر هشاماً (٣٨). وكان يقرأ الكتب لهشام فلا يدخل منها عليه إلا ما يسره (٣٩)، وعندما توفي هشام ابن عبد الملك كان سالم هو الذي أرسل إلى الوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦ هـ) يعلمه بموت هشام وتوليته الخلافة (٤٠) ولذلك أصبح سالم في خلافة الوليد الثاني ليس صاحب ديوان الرسائل فقط وإنما كان يكتب له على خاص أمره (٤١) وعندما مرض هشام وصار إلى الحد الذي لا ترجى معه الحياة أرسل عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان وكاتب الوليد الذي خلفه في الرصافة بعد شخوصه منها (٤٢) إلى الخزان أن يحتفظوا بما في أيديهم حتى لا يصل أحد إلى شيء، ولما توفي هشام خرج عياض من السجن وختم أبواب الخزائن كلها (٤٣).

٢١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ١٠٢.
٢٢. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ١٠٤.
٢٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ١٠٢.
٢٤. الجهشيارى كتاب الوزراء، ص ٢٦، ٢٤، ٤٣.
٢٥. خليفة، تاريخ، ص ٤١٨، ٤٢١، ج ٢ ص ٤٦٨.
٢٦. الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٦٢.
٢٧. الطبري، تاريخ، ج ٧ ص ٢٠٢.
٢٨. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٠٢.
٢٩. الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)، كتاب الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ م، ص ٨٠.
٤٠. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢١١.
٤١. الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٦٨.
٤٢. أمر الوليد بن يزيد كاتبه عياض أن يكتب إليه بالأخبار، فعتب عليه هشام فضر به وحبسه والبسه السوح.
٤٣. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢١١. العيون والحدائق، ص ١٠٦.

وإذا كان صاحب ديوان الرسائل مسؤولاً عن المناشير والمكاتبات ومراقبتها وقراءتها، فإن صاحب البريد كان يتولى تنفيذ ما يصدر وتلقي ما يرد فقط^(٤٤)، ولذلك كان ما يحتاج إليه صاحب هذا الديوان «أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافي المتصفح وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ»^(٤٥).

وبما أن مهمة البريد الأولى هي وصول الأخبار بسرعة، كانت أهم معالم إنشاء محطات للبريد تصل المركز بكل الولايات المرتبطة به، لأن الدولة الإسلامية انقسمت في عهد خلفاء بني أمية إلى ولايات ارتبط بعضها بالمركز مباشرة، وارتبط القسم الآخر بأمراء تلك الولايات. وكان صاحب ديوان البريد مسؤولاً عن محطات البريد التي تصل دمشق بالأجناد وبمراكز الولايات، كما كان من مهامه تعيين الموظفين المحليين في المدن المختلفة والأشخاص المناسبين في المحطات على الطريق وتعيين السعاة^(٤٦)، والاهتمام بدفع المرتبات والأرزاق لهم، وتدبير أمر الدواب وبرازعها، ومن يتولى عنايتها، كما كان من الضروري عمارة الطرق ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل حتى يعرف الرسول المسافة التي قد اجتازها، ورغم أن القلقشندي يذكر أن الوليد هو أول من بنى الأميال^(٤٧)، فقد وصلت إلينا نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان اكتشفت بالقرب من بيت المقدس، وتشير إلى أوامره بصنع الأميال وبعمارة أربع طرق تخرج من إيليا ومن دمشق^(٤٨).

ومن الموظفين الذين كان لهم دورهم الكبير، صاحب الشرطة الذي كان يرافق الخليفة في حله وترحاله، في حالة السلم والحرب، ويمسك بزمام الأمور في حالة وفاة الخليفة، فعندما حضر الموت معاوية سنة ٦٠ هـ وكان يزيد غائباً، دعا معاوية الضحاک بن قيس الفهري وكان صاحب شرطته^(٤٩)، ومسلم بن عقبة المري فأوصى اليهما أن يبلغا يزيد وصيته^(٥٠)،

٤٤. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤ ص ٣٧١.

٤٥. قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧ هـ/٩٤٨ م)، نبد من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ليدن، ط ١٣٠٦ هـ/١٨٨٨ م، ص ١٨٤، ١٨٥.

٤٦. الكندي، كتاب الولاة والقضاة، ص ٢٨٤.

Levy, Reubens, The social Structure of Islam. 2 nd. Edition, Cambridge University Press, P. 30.

٤٧. القلقشندي، مآثر الانفة، ج ١ ص ١٣٦.

٤٨. Van Berchem, Materiaux Pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jerusalem, t. I, p 20. Repertoire Chronologique d'epigraphic Arab, t. I, p. 13, 16.

٤٩. تشير بعض الروايات إلى أن الضحاک بن قيس كان على الشرط عند وفاة معاوية انظر: الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م)، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٢٢، الطبري، تاريخ، ج ٥ ص ٣٢٧. ابن بدران عبد القادر بن أحمد (ت ١٩٢٧ م)، تهذيب تاريخ ابن عساکر، ج ٧، بيروت، ١٣٩٩/١٩٧٩ م، ج ٧، ص ٨. أما الذهبي فيذكر أن معاوية ولي الضحاک على دمشق بعد أن عزله عن الكوفة فبقي على دمشق حتى هلك معاوية، ورواية الذهبي لا تناقض ما ذهب إليه الروايات الأخرى لأن أمراء الأجناد كانوا بمثابة الشرط.

٥٠. الطبري، تاريخ، ج ٥ ص ٣٢٣.

وعندما مات معاوية كان الضحاك هو الذي سعد المنبر وأكفان معاوية بين يديه ليبلغ خبر موت معاوية وهو الذي بعث البريد الى يزيد «بوجع معاوية» (٥١).

وكان كعب بن حامد على شرطة سليمان مرافقاً له في دابق، فلما ثقل سليمان كتب كتاباً وختمه ولم يدر أحد ما كتب فيه، وطلب من كعب أن يجمع اليه اخوته وعمومته وجميع أهل بيته وعظماء أجناد الشام وأن يحملهم على البيعة لمن سمي في ذلك الكتاب، وأن يضرب عنق من يأبى منهم أن يبايع (٥٢).

وكان صاحب الشرطة يرافق الخليفة في الحرب، فقد رافق الحجاج عبد الملك وكان على شرطه آنذاك الى العراق لقتال مصعب (٥٣). وكان مع مروان بن محمد في معركة الزاب صاحب شرطة كذلك، وعندما تقاعست قضاة والسكون والسكاسك طلب مروان من صاحب شرطه أن ينزل (٥٤). ونظراً لأن صاحب الشرطة كان مرافقاً للخليفة دائماً، فانه كان يوكل اليه أمر تنفيذ العقوبات التي يفرضها الخليفة، فهذا عمر بن عبد العزيز يأمر صاحب الشرطة أن يطبق العقوبة على كهول من قنسرين شهدوا زوراً على الفرات بن مسلم عامل خراج قنسرين (٥٥)، وعندما توعد روح بن الوليد رجلاً حمصياً كان عمر بن عبد العزيز قد قضى بارجاع حوانيته اليه (وكان الوليد بن عبد الملك قد أقطعها لروح) طلب عمر من صاحب شرطه أن يتوجه الى روح، فان سلم حوانيته فله ذلك، وان لم يفعل فليأته برأسه (٥٦).

وكان يوكل الى صاحب الشرطة أحياناً مهام أخرى، كأمر الخاتم، والخزائن وبيوت الأموال (٥٧)، كما يذكر ابن عساكر أن خالد بن اللجلاج، أبا ابراهيم العامري، ولي الشرطة بدمشق، وكان على بناء مسجد دمشق (٥٨)، أي ربما كان مراقباً لحسن سير البناء نظراً للعدد الكبير من الفعلة الذين ساهموا في بنائه.

هذه الروايات المتفرقة تعطينا فكرة عن الدور الذي لعبه أصحاب الحرب في الأزمات بالاضافة الى دورهم في توطيد الأمن والنظام وتنفيذ العقوبات واعتراكمهم في الحرب الى جانب الخلفاء، ولذلك قيل إن الشرطة أول كتيبة تشهد الحرب، وتتهيأ للموت، وقيل هي طائفة من خيار أعوان الولاة (٥٩).

-
٥١. الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٢٢٨.
 ٥٢. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٢٢٦، الطبري، تاريخ، ج ٦ ص ٥٥٢.
 ٥٣. ابن العبري، غريغورس أبو الفرج بن هارون الملقب (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص ١١٢.
 ٥٤. الطبري، تاريخ، ج ٧ ص ٤٢٤.
 ٥٥. ابن عبد الحكم؛ سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٣٠.
 ٥٦. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٥١.
 ٥٧. خليفة، تاريخ، ج ٢ ص ٥٥٥.
 ٥٨. ابن بدران، تهذيب، ج ٥ ص ٨٨.
 ٥٩. ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٤١.

ونستنتج مما يذكر الرواة عن الأشخاص الذين كلفوا بهذا المنصب في الشام أنهم كانوا من الشخصيات المرموقة، فزمل بن عمرو بن نمير الذي استعمله معاوية على شرطه، كانت له وفادة على رسول الله (صلم) وعقد له رسول الله لواء على قومه (٦٠)، أما الضحاك بن قيس فعداؤه في صفار الصحابة، حدث عنه سعيد بن جبير والشعبي وغيرهم، وكان ممن شهد فتح دمشق (٦١) وكان خالد بن معدان بن أبي كرب الذي تولى شرطة يزيد بن معاوية، تابعياً ثقة روى عن أبي عبيدة ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء، وكانت اذا عظمت حلقتة قام كراهية الشهرة وكان اذا أمر الناس بالغزو يجعل فسطاطه أول فسطاط يضرب، وقال حبيب بن صالح «ما خفنا أحداً من الناس مخافة خالد» (٦٢) وكان خالد بن اللجلاج صاحب الشرطة في خلافة الوليد ذا سن وصلاح، جريء اللسان على الملوك والغلظة عليهم (٦٣)، وبقي كعب بن حامد صاحباً للشرطة في خلافة سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشام، وأبقاه هشام ثلاث عشرة سنة ثم ولاه أرمينيا، ولا شك أن شخصاً يحتل هذا المنصب فترة طويلة كهذه ثم يعهد إليه بولاية أرمينيا هو شخص يتحلى بصفات تؤهله لذلك (٦٤).

الى جانب الشرطة وجد الحرس، و يتفق اليعقوبي وخليفة بن خياط على أن معاوية كان أول من اتخذ صاحب حرس (٦٥)، وكانت مهمة الحرس حراسة الخليفة بشكل خاص (٦٦) أو الأمير في مصره (٦٧)، وحراسة المسجد (٦٨) ورغم أننا نجد تداخلاً عند بعض المؤرخين بين لفظي الحرس والشرطة، فإن الحرس لم يكونوا شرطة بالمعنى الدقيق للكلمة، و يتضح ذلك من أن المؤهلات المطلوبة من صاحب الحرس كانت غير تلك المطلوبة من صاحب الشرطة، إذ كان يفضل أن يكون صاحب الحرس مسناً عفيفاً (٦٩) بينما كان يفضل أن يكون صاحب الشرطة شديد الصولة، قليل الغفلة، سمين الأمانة أعجف الخيانة (٧٠).

٦٠. ابن بدران، تهذيب، ج ٥ ص ٢٨٦.
٦١. الذهبي، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٢٤١.
٦٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٥٣٦، ٥٣٧. ابن بدران، تهذيب، ج ٥ ص ٨٩ - ٩٠.
٦٣. ابن بدران، تهذيب، ج ٥ ص ٨٨.
٦٤. خليفة، تاريخ، ج ١ ص ٤٢٦، ج ٢ ص ٤٨٧، ٤٤٤. الطبري، تاريخ، ج ٦ ص ٥٥٢.
٦٥. خليفة، تاريخ، ج ١ ص ٢٧٦، اليعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ٢٢١.
٦٦. المسعودي، مروج، ج ٢ ص ٢٩، ص ٣٠. ابن بدران، تهذيب، ج ٢ ص ٢٧.
٦٧. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ليدن، ١٩٣٠ م ص ٢٢٨.
٦٨. الطبري، تاريخ، ج ٧ ص ٢٤٠.
٦٩. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ٢٣٤.
٧٠. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، عيون الأخبار، ج ٢، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٨هـ/١٩٣٠، ج ١ ص ٦٦. ابن عبد ربه أحمد بن محمد (ت ٢٢٩هـ/٩٤٠م) العقد الفريد، ج ٧ تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ج ٥ ص ١٩. ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م)، جمهرة النسب، ج ١، مخطوطة برقم ٢٨٢ في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، ص ٨٤ ب.

وكان صاحب الحرس في الشام منذ عهد معاوية وحتى نهاية الخلافة الأموية من الموالي (٧١) ولم يكن للخليفة وحده حرس وإنما كان لوالي دمشق ولولاة الأجناد أحراسهم (٧٢) يذكر ابن قتيبة أن عمرو بن سعيد صالح عبد الملك بعد حصاره لدمشق أشهراً على أنه الخليفة من بعده ففتح دمشق، ثم أرسل عبد الملك إلى عمرو وكان بيت المال في يده، أن يخرج للحرس أرزاقهم، فقال عمرو: «إن كان لك حرس، فإن لنا حرساً، فقال عبد الملك أخرج لحرسك أرزاقهم» ويبدو أنه كان للحرس في الشام نوب وعلى كل نوبة عامل (٧٣).

أما فيما يتعلق بالقضاء والقضاة في الشام، فإنه من المؤسف أن المصادر لا تشير إلى القضاة في مراكز الأجناد وإنما إلى من تولى القضاء في دمشق العاصمة وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد، بناء على بعض المعلومات القليلة، أن ولاية الأجناد كانوا يتولون القضاء إلى جانب مهامهم الأخرى.

احترم معاوية وخلفاء بني أمية منصب القضاء وأهله، وحفوه بالكثير من الاجلال والاكبار، فقد كان معاوية يهاب أبا الدرداء ويتأدب معه (٧٤)، كما ولى قاضيه فضالة بن عبيد الغزو، فكان أمير الجيش وكان الولاية يتقيدون بأوامره (٧٥)، وعندما خرج معاوية إلى صفين استخلف فضالة بن عبيد (٧٦). وعن سعيد بن عبد العزيز أن القاضي كان خليفة الأمير إذا غاب (٧٧) وكانت منزلة أبي ادريس الخولاني عظيمة عند عبد الملك (٧٨) فكان إذا نظر في المظالم رد إلى قاضيه أبي ادريس فكان هو المباشر وعبد الملك هو الأمر، أي أن أبا ادريس يعطي حكمه وعبد الملك يأمر بتنفيذ الحكم، وبقي قاضياً لعبد الملك حتى وفاته سنة ٨٠هـ (٧٩). ونلاحظ في خلافة يزيد بن عبد الملك وجود قاضيين في دمشق، سليمان بن حبيب، والزهمري، هذا على حياله وهذا على حياله» (٨٠).

٧١. خليفة، تاريخ، ج ١ ص ٢٧٦، ٣٩٥، ٤١٩، ٤٢٢ ج ٢ ص ٤٦٩، ٥٤٥. ابن بدران، تهذيب ج ٢ ص ٣٧.
٧٢. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٦٩. ابن قتيبة، الامامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، ج ٢ ص ٢١.
٧٣. الطبري، تاريخ، ج ٧ ص ٥٧٥.
٧٤. ابن طولون، شمس الدين (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٦، ص ٢.
٧٥. الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج ٣ ص ١١٥.
٧٦. أبو زرعة، عبد الرحمن بن عمرو، (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م) تاريخ أبي زرعة، ج ٢، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القرطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ج ١ ص ٢٢٢.
٧٧. أبو زرعة، تاريخ أبي زرعة، ج ١ ص ٢٢٢. الذهبي سير أعمال النبلاء، ج ٣ ص ١١٤، ١١٥.
٧٨. الخولاني، القاضي عبد الجبار (القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي) تاريخ داريا، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠، ص ٥٤.
٧٩. ابن طولون، الثغر البسام، ص ٤.
٨٠. الخولاني، تاريخ داريا، ص ٦٨، الذهبي، ج ٥، ص ٣٣١.

ومما يثير الانتباه وجود ما يسمى قاضي الخلفاء في الشام، فقد ورد في تاريخ داريا أن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء، وكان قاضياً لعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام (٨١)، ويؤكد ذلك ما يرد في تاريخ دمشق لابن عساكر عن كلثوم بن زياد المحاربي بأن سليمان بن حبيب كان قاضي الخلفاء وأنه أقام بالشام ثلاثين سنة يقضي باليمين مع الشاهد (٨٢). وهذا ما يدفعنا الى التساؤل اذا كان هذا اللقب يعني رتبة رسمية أم كان هذا الخلع من الناس دلالة على علو كعبه في العلم والقضاء.

ويتبين لنا من دراستنا لسير قضاة دمشق أنهم كلهم بلا استثناء كانوا من الفقهاء المحدثين ومن القراء والعباد والزهاد، وكان الأئمة من الصحابة والبقية من التابعين، وكان القضاة يعلمون الناس قراءة القرآن بالإضافة الى عملهم كقضاة فكان أبو الدرداء مقرئ أهل دمشق وعالمهم (٨٣). ورأى يزيد بن عبيدة أبا ادريس زمن عبد الملك يتوسط حلق المسجد بدمشق، يقرؤون القرآن جميعاً، وأبو ادريس جالس الى بعض العمدة، فكلما مرت حلقة بأية سجدة، بعثوا اليه، يقرأ بها وانصتوا له و يسجد بهم جميعاً، وربما سجد بهم اثنتي عشرة سجدة، حتى اذا فرغوا من قراءتهم قام يقص (٨٤). واتخذ أهل الشام عبد الله بن عامر قاضي دمشق بعد أبي ادريس اماماً في قراءته (٨٥) وكان محمد بن عبد الله بن ليبي الأسدي، قاضي دمشق في خلافة مروان بن محمد ممن يحضر الناس دراسته في جامع دمشق (٨٦).

وكان القاضي في الاسلام يتولى جميع الاختصاصات التي تعرض عليه و يطلب منه فصل الخصومة فيها سواء أكان الخلاف كما نقول بلغة اليوم مدنياً أم جزائياً أم ادارياً أم متعلقاً بالأحوال الشخصية أم خلافاً بين الجند وغير ذلك مما يمكن أن يعرض على القضاة (٨٧)، أي ليس في الاسلام ذلك التمييز بين ما هو مدني وما هو ديني كما كان الأمر في الدولة البيزنطية (٨٨).

٨١. الخولاني، تاريخ داريا، ص ٦٨.
٨٢. ابن بدران، تهذيب، ج ٦ ص ٢٤٩. ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م)، المسند، ج ٤، دار المعارف، مصر، ط ٢، ج ٤ الفقرة ٢٩٦٩ - ٢٩٧٠، كان القضاء باليمين مع الشاهد متبعاً في حل قضايا الشراء والبيع وأشباهه، وهذا يدل على أن معظم القضايا الموكولة الى القضاة كانت بالدرجة الأولى متعلقة بالمعاملات والأموال.
٨٣. ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢.
٨٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٢٧٢.
٨٥. ابن طولون الثغر البسام، ص ٥.
٨٦. ابن طولون، الثغر البسام، ص ١١.
٨٧. ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والاسلام، السلطة القضائية، ط ١، ١٩٧٨، بيروت، ص ٢٥٥.
٨٨. Byzantium, II, An Introduction To East Roman Civilization, ed., By Norman H. Baynes and H. B. Moss. p. 291

ونلاحظ أن القضاء في المسائل الجزائية كان من اختصاص الخلفاء والولاة في صدر الاسلام، وان كانت لا توجد في ذلك العصر حدود دقيقة واضحة بين الاختصاصات القضائية لكل من الولاة والقضاة، وكان معاوية بن أبي سفيان هو أول من أمر بالنظر في الجراح إذ كتب الى قاضيه سليم بن عتر في مصر يأمره بالنظر في الجراح (٨٩). ولكن أغلب الظن أن النظر في القضايا الجزائية في الشام بقي من اختصاص الخلفاء، فعندما قتل خالد بن المهاجر مولاه نافع بن أثال النصراني أمر معاوية بضرب نافع مائة سوط وألزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم (٩٠). وعندما طلب أسماء بن خارجة الفزاري الى عبد الملك بعد أن فرغ من قتال مصعب أن يقيدهم من حميد بن حريث بن بحدل الذي كان قد أوقع ببني فزارة، أبى عبد الملك معتلا أنهم كانوا في فتنة والفتنة كالجاهلية لا قود فيها، وفرض لفزارة من أعطيات قضاة وحمير بالشام (٩١).

وبما أن النظام القضائي الذي طبق في الدولة الاسلامية كان يقوم على أساس من الشريعة الاسلامية، فانه كان يخص العرب المسلمين أو الذين أسلموا من أهل البلاد وارتبطت قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين الا اذا كانت القضية تمس المسلمين، فقد حبس القس الأخطل في كنيسة دمشق لأنه يشتم الناس ويهجوهم، ولما سئل عن سب هذا الخضوع والاستخذاء الذي يظهره للقس رغم مهابة الناس له واکرام الخليفة لشخصه جعل يقول: (انه الدين انه الدين (٩٢) وقد كان بإمكان أهل الذمة أن يحتكموا الى القاضي المسلم، وله أن يحكم بينهم بالعدل (٩٣) لأن أهل الذمة لم يكونوا مجبرين على تطبيق أحكام قضائهم اذا وجدوا في ذلك حيفاً وكان حكم الاسلام عليهم أنفذ. ويذكر الكندي أن القاضي خير بن نعيم الحضرمي (١٢٠ - ١٢٨ هـ) كان يقضي بين المسلمين في المسجد، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضي بين النصارى، وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى، واليهود على اليهود، ويتحقق من عدالة الشهود بين أهل دينهم واذا كان هذا ما يفعله القاضي في مصر، فلا شك أنه كان متبعاً كذلك في الشام وان لم يكن لدينا مثال على ذلك.

٨٩. الكندي، كتاب الولاة والقضاة، ص ٣٠٩.
٩٠. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت) ص ١٧٣ - ١٧٤.
٩١. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، مؤسسة الدراسات الشرقية، الجامعة العبرية، القدس، ١٩٣٦ م، ج ٥ ص ٣١٠.
٩٢. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦ م)، ج ١٨، تحقيق مصطفى السقا (د.ن)، القاهرة، ١٩٢٧ - ١٩٦١، ج ٨، ص ٣٠٩.
٩٣. سورة المائدة، الآية ٤٥.

الى جانب هؤلاء الموظفين الاداريين الذين كان معظمهم باستثناء قضاة دمشق ملازمين للخلفاء يساعدونهم في ادارة شؤون الشام بشكل عام، وجد ولاية الأجناد وعمال الخراج، وكان لكل جند بما في ذلك جند دمشق وال أو نائب عن الخليفة ولم يجمع خلفاء بني أمية جندين لوال واحد كما حدث في خلافة عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان بن عفان عندما جمع أجناد الشام والجزيرة لمعاوية، ويبدو أن صلاحيات الولاية لم تكن واسعة وإنما كانوا على حد تعبير ابن العديم بمنزلة الشرط لا يستقلون بالأمور والحروب (٩٤) أي أن مهمة الوالي الرئيسية كانت حفظ الأمن والنظام بالإضافة الى تعيين العمال على المدائن والقرى ومراقبتهم بحيث يجزى محسنهم ويستبدل المسيء منهم (٩٥).

ونستنتج من دراستنا للروايات ومن كتاب وجهه عمر بن عبد العزيز الى أمراء الأجناد أن القضاء كان يوكل اليهم أحياناً (٩٦)، كما جاء في تاريخ ابن عساكر أن عبادة بن نسي الكندي كان قاضي طبرية ولاء عبد الملك وعمر بن عبد العزيز (٩٧)، بينما يذكر الذهبي أنه ولي قضاء الأردن لعبد الملك ثم ولي نائباً لعمر بن عبد العزيز (٩٨)، وما يذكره الذهبي يتفق مع ما ورد في تاريخ خليفة بن خياط أن والي الأردن في خلافة عمر بن عبد العزيز كان عبادة بن نسي، (٩٩) ثم اذا رأينا ابن طولون يذكر أن عبد الرحمن بن الحسحاس العذري من بني عامر ولي قضاء دمشق زمن عمر بن عبد العزيز (١٠٠) ونرى خليفة بن خياط يذكره والياً زمن عمر، جازلنا أن نتساءل اذا كان عمر بن عبد العزيز قد أسند الولاية والقضاء لعبادة بن نسي ولعبد الرحمن بن الحسحاس، لا سيما وإننا نجد ذكراً لبلال بن أبي الدرداء كقاض لدمشق في خلافة عبد الملك، وأنه كان كذلك أميراً لدمشق أي أنه جمع بين الولاية والقضاء (١٠١).

وليست لدينا نصوص واضحة تشير الى مهمات عمال النواحي والقرى، ومع ذلك فإن النص الذي يورده الجهشيارى يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأن مهمة هذا العامل الأولى والأساسية كانت كما في العهد الراشدي، جباية الأموال، لأن الأمور المتعلقة بأهل الذمة كانت تدار من قبل رؤسائهم (١٠٢)، اذ عندما استشار عبد الملك ربيعة الجرشي في أمر الوليد

٩٤. ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١ ص ٤١.

٩٥. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ٦٩.

٩٦. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٦٨، ١٦٩.

٩٧. ابن بدران، تهذيب، ج ٧ ص ٢١٧.

٩٨. الذهبي سير أعلام النبلاء، ج ٥ ص ٣٢٤.

٩٩. خليفة، تاريخ، ج ٢ ص ٤٦٥.

١٠٠. ابن طولون الثغر البسام، ص ٧.

١٠١. ابن طولون، الثغر البسام، ص ٤.

١٠٢. Denette, Daniel, Conversion and the Poll Tax In Early Islam, Cambridge, 1950, P. 60, and Daniel depends on a latin text: "Vivent Secundum Leges Corm et Secundum quos habebant ante tempus nostrum; sed tributum secundum definitionem inter vos statum solant.

عندما عزم على تقليده العهد قال له : (إني قد عملت على توليته شيئاً من النواحي فإذا مرت له مدة قلدته، فقال له : يا أمير المؤمنين انك لو بعثت الوليد يقسم الأموال بين الناس ما رضا عنه، فكيف تبعته جابياً أن احتاطكم، وان رفق عجز، ولكن وله المعاون والصوائف يكون له ذلك شرفاً وذكراً) (١٠٣).

كان ولاة الأجناد مسؤولين مباشرة تجاه الخليفة، كما أن عمالهم على المدن والقرى كانوا مسؤولين تجاههم، ومن ثم نرى الخليفة إذا أراد أن يعاقب عاملاً أو يصدر أمراً إلى عامل في ناحية كلف الوالي بهذا الأمر، فمثلاً عندما بلغ هشام بن عبد الملك أن خالد بن عبد الله القسري اشترى أرضاً من أرض الغوطة بغير إذنه، كتب إلى كلثوم بن عياض والي دمشق أن يفرم الوليد بن عبد الرحمن عاملاً على الغوطة أربع مائة دينار لأنه اشترى أرض بغير إذن الخليفة (١٠٤)، كذلك أمر مروان بن محمد عاملاً على دمشق معاوية بن الوليد بن عبد الملك، أن يكتب إلى عامله على اللقاء في المسير إلى كداد أو الحميمة وأخذ إبراهيم بن محمد بن علي وشده وثاقاً وحمله إليه في خيل كثيفة (١٠٥).

وكان ولاة الأجناد يعينون تعييناً من قبل الخلفاء، وأحياناً ولكن نادراً كان الوالي يقيم في المركز و يعين خليفة له، جاء في أنساب الأشراف عن المدائني عن مسلمة وغيره أن مروان ولي عبد الملك فلسطين وجعل روح بن زنباع خليفة لعبد الملك عليها (١٠٦)، ولم ينتخب أهل الشام ولا تهم إلا مرة واحدة عندما بويع مروان بالخلافة، إذ طلب من أهل الشام أن يختاروا لولاية أجنادهم (١٠٧).

وبعد أن كان معاوية قد جعل ولاته على الأجناد في فترة ولايته من قادة الفتوح من الصحابة وأبنائهم، وعينهم في المناطق التي كان لهم فيها نكر نابه نجده في خلافته كما نجد يزيد من بعده يتجهان اتجاهاً مختلفاً في تعيين ولاة الأجناد فيعمدان إلى انتقائهم من زعماء القبائل حسبما توافر لهم من استقرار وكثرة، نتيجة لازدياد نفوذ القبائل اليمانية التي دعمت معاوية في صراعه مع علي بن أبي طالب فكانت قنسرين والجزيرة بأيدي عمال من عرب الشمال بينما كانت حمص والأردن وفلسطين بأيدي عمال من عرب الجنوب (١٠٨).

١٠٣. الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٢٧.

١٠٤. ابن عساکر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٩٦.

١٠٥. البلاذري، أنساب الأشراف، قسم ٢، العباس بن عبد المطلب وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨ م، ص ١٢١. الدينوري، ص ٣٥٩.

١٠٦. البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٤٩.

١٠٧. الطبري، تاريخ، ج ٣١٢٧.

١٠٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ١٤٥ الطبري، تاريخ، ج ٥ ص ٥٢٦. البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٢٧.

ورغم أنه بقي لسادات القبائل وأشرافهم مكانتهم في العهد المرواني (١٠٠) إلا أن إخراج الأمويين وشيعتهم من المدينة ومكة، وتوجههم إلى الشام ومعركة مرج راهط وما نجم عن ذلك من احتدام للعصبيات، دفعت عبد الملك رغبة منه في إبقاء الوحدة الداخلية لما لها من أهمية كبرى في تثبيت دعائم الحكم، أن يوسد إمارة الأجناد إلى أبنائه وأخوته أو أفراد من البيت المرواني (١١٠) واتبع الوليد أسلوب والده فأسند جند دمشق والأردن وحمص إلى أبنائه عبد العزيز وعمر والعباس، أما جند فلسطين فقد ولي عليه أخاه سليمان بن عبد الملك (١١١) وتابع خلفاء بني أمية هذا المنهج ما عدا عمر بن عبد العزيز الذي اتبع أسلوب معاوية في تعيين عمال وفق الأثرية القبلية في المنطقة (١١٢).

كان معظم ولاة الأجناد في الفترة المروانية من الفرع المرواني، إلا أننا نلاحظ أحياناً لا سيما أوقات الفتن، أن السلطة الفعلية لم تكن للوالي وإنما لأشرف المنطقة، فقد كان مروان ابن عبد الله بن عبد الملك عاملاً للوليد بن يزيد على حمص، وكان من سادة بني مروان نبلاً وكراً وعقلاً وجمالاً، ولكن أمر حمص كان لمعاوية بن يزيد بن حصين، وليس لمروان بن عبد الله من أمرهم شيء (١١٣). وكان سعيد بن عبد الملك والياً من قبل الوليد بن يزيد على فلسطين، إلا أن رأس أهل فلسطين كان يومئذ سعيد بن روح بن زنباع، فلما قتل الوليد، كتب سعيد بن روح إلى الوالي أن يرتحل عنهم، وطلب من يزيد بن سليمان سيد ولد أبيه أن يتولى أمر فلسطين، وكان أهل فلسطين يحبونهم لجوارهم (١١٤). وفي رواية للطبري أن ابن هبيرة سأل يوماً من سيد قيس؟ قالوا: الأمير قال: دعوا هذا، سيد قيس الكوثري بن زفر لو بوق بليل لوفاه عشرون ألفاً لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه (١١٥).

والى جانب الوالي وجد العامل على الخراج الذي قد يعين من قبل الوالي إذا كان مسؤولاً عن الإدارة المالية أو من قبل الخليفة (١١٦)، فإذا كان معيناً من قبل الخليفة كان بإمكانه أن يحد من سلطة الوالي، لأن أمر النفقات كان يؤول إليه فيؤدي ذلك في كثير من الأحيان إلى النزاع بينهما وإذا كان عامل الخراج مسؤولاً عن النفقات فلا شك أنه كان مسؤولاً عن الجباية والإشراف على الجباة المكلفين بجمع الجزية والخراج، ونفهم من نص

١٠٩. النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ١٢١، ابن بدران، تهذيب، ج ٥ ص ٢٤٠، ابن عبد ربه، العقد، ج ٣، ص ٢٨٢ الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٤١٢.

١١٠. خليفة، تاريخ، ج ١، ص ٣٩٢، ٣٩٤.

١١١. خليفة، تاريخ، ج ١، ص ٤١٧.

١١٢. خليفة، تاريخ، ج ٢، ص ٤٦٥.

١١٣. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٦٣.

١١٤. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٦٦.

١١٥. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ١٦.

١١٦. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٢٩، الطبري، تاريخ، ج ٧ ص ٢٥٥، ٢٥٦.

يورده ابن عساكر أن كل قرية كانت مسؤولة عن دفع الخراج متضامنة، فإذا أسلم ذمي، أسقطت الجزية عن رأسه، وبقيت الأرض لأهل القرية يقومون بزراعتها ودفع الخراج عنها إذا كان قد قرر ترك أرضه (١١٧). ولذلك كان من مهمات عامل الخراج على ما اعتقد، مراعاة أهل الذمة في كل عام لتثبيت من بلغ، واسقاط من دخل في الاسلام أو من مات، كما أن كل أرض خراجية إذا تحولت لسبب من الأسباب إلى عشرية، يثبت ذلك في الديوان ليسقط الخراج عن تلك الأراضي وعن أهل قراها (١١٨). وأغلب الظن أن هذه التغييرات كانت تسجل وترسل إلى ديوان الخراج المركزي في دمشق، إذ ليست لدينا إشارات إلى وجود دواوين للخراج في مراكز الأجناد، بينما لدينا رواية إلى أن الديوان المركزي في دمشق كان يضم على الأرجح دواوين (بمعنى السجلات) خراج قنسرين وحمص وفلسطين والأردن، يذكر الجهشياري أنه كان يكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابن أثال النصراني، وأن مهاجر بن عبد الرحمن بن خالد قتل ابن أثال عندما خرج من ديوانه في دمشق (١١٩).

وكان يتولى شؤون الخراج في الشام موظفون من أبناء المنطقة يتقنون الرومية بالإضافة إلى العربية، ويشرف على أولئك الموظفين رئيس يعرف بكاتب الخراج أو صاحب الخراج، ويتمتع بمنزلة عالية لدى الخليفة والأمراء، وقد اشتهر في الشام سرجون بن منصور الرومي الذي كان مسؤولاً عن دواوين الخراج كلها بالشام (١٢٠) ثم أصبح ابنه منصور هو المتولي لأمر الخراج (١٢١).

وفي خلافة عبد الملك تم تعريب ديوان الخراج عندما رأى من منصور تهاوناً وتوانياً، فطلب من سليمان بن سعد مولى بني أمية الذي كان كاتباً للرسائل أن ينقل الدواوين إلى العربية، وولاه جميع دواوين الشام ولم يزل سليمان على ذلك حتى خلافة عمر بن عبد العزيز (١٢٢).

إن تعريب دواوين الخراج لم يكن يعني عدم استخدام الكتاب النصارى، فقد أورد ابن العبري في كتابه «أن عبد الملك منع الكتاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية ولكن بالعربية» (١٢٣). وهذا دليل على أن الذين يجيدون العربية قد بقوا في وظائفهم. واستمر

١١٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١، ص ٥٩٣، ٥٩٦.

١١٨. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص ٥٩٦.

١١٩. الجهشياري، كتاب الوزراء، ص ٢٨، ابن أبي أصيبعة، عيون الأبناء، ص ١٧٣، ١٧٤.

١٢٠. خليفة، تاريخ، ج ١ ص ٢٧٦. الطبري، تاريخ، ج ٥ ص ٣٢٠. المقرئ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٣ دار التحرير للطبع والنشر، عن مطبعة بولاق، ١٢٧٠هـ، ج ١ ص ١٨٢.

١٢١. الجهشياري، كتاب الوزراء، ص ٢١. المقرئ، ج ١ ص ١٨٢.

١٢٢. الصولي، محمد بن يحيى (ت ٣٢٦هـ/٩٤٧م)، أدب الكاتب، تحقيق محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ، ص ١٩٣.

١٢٣. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٤.

استخدام الخلفاء والأمراء للكتاب النصارى، فقد قلد سليمان بن عبد الملك أمر النفقة على بناء الرملة ومسجدها الجامع لكاتب نصراني من أهل اللد (١٢٤) وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد طلب من عماله عزل الكتاب والعمال من أهل الذمة واستبدال غيرهم بهم من رجال مسلمين «لأن المسلمين استعانوا بهم في أول الأمر لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير» (١٢٥)، فاننا نرى هشام بن عبد الملك يقلد تاذري بن أسطين النصراني ديوان حمص (١٢٦). ولا شك أنه وجد الكثير من الكتاب النصارى في الشام واستمر وجودهم والاعتماد عليهم في العصر العباسي فالمقدسي (ت ٢٨٠هـ) يشير إلى أن أكثر الأطباء والكتبة بمصر والشام نصارى (١٢٧).

وإذا كان عامل الخراج مسؤولاً عن النفقات وجباية الجزية والخراج من أهل الذمة، فإن عامل الصدقة كان مسؤولاً عن جباية الصدقات من المسلمين لأنه لا يجوز أن يتولاهما عمال الخراج (١٢٨)، ورغم أن اليعقوبي يذكر أن معاوية سن أخذ الزكاة من الأعطية (١٢٩)، فإن أبا عبيد يفيد إلى أن الزكاة كانت تؤخذ في خلافة الراشدين من المسلمين المسجلين في العطاء (١٣٠) ولدينا فيما يتعلق بجباية الصدقات روايتان، الأولى ترد عند البلاذري أن عامل الصدقة كان يحمل كتاب أمير المؤمنين وعهده إلى القبيلة التي سيجبي صدقاتها، ويضرب الفسطاط ويدخل أفراد القبيلة لدفع صدقاتهم (١٣١)، ورواية ابن عساکر التي تشير إلى أنه كان لكل قوم عريف منهم يجمع الصدقات من أموالهم (١٣٢)، وأغلب الظن أن الرواية الأولى تتعلق بالقبائل في البادية، بينما تتعلق الثانية بالمقيمين في المدن والأرياف.

هذه صورة عن الأجناد وإدارتها وأهم الموظفين في الشام، وقد تبين لنا أن مهام هؤلاء الإداريين كانت متداخلة، فالمستشارون يقومون بأعمال هي من اختصاص صاحب ديوان الرسائل وولاية الأجناد يقومون بأعمال صاحب الشرطة، كما يتولون القضاء أحياناً، كما أننا لسنا واثقين بأن الدواوين بمعنى السجلات كان مركزها دمشق دائماً كما في عهد معاوية

١٢٤. البلاذري، فتوح، ص ١٤٩. الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٤٨.

١٢٥. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٣٦.

١٢٦. الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٥٩.

١٢٧. المقدسي، شمس الدين (ت ٢٨٠هـ/٩٩٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق غازي طليمان، ١٩٨٠م، ص ١٧٩.

١٢٨. أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)، كتاب الخراج، المطبعة السلفية القاهرة، ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م، ص ٩٥.

١٢٩. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٠٧.

١٣٠. أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٣٤هـ/٨٢٨م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة، ص ٣٥٩.

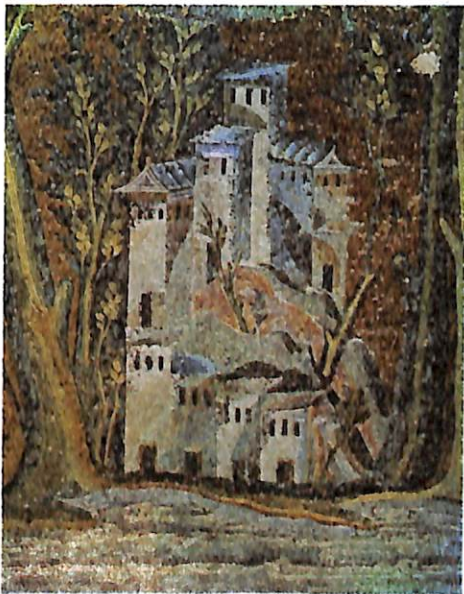
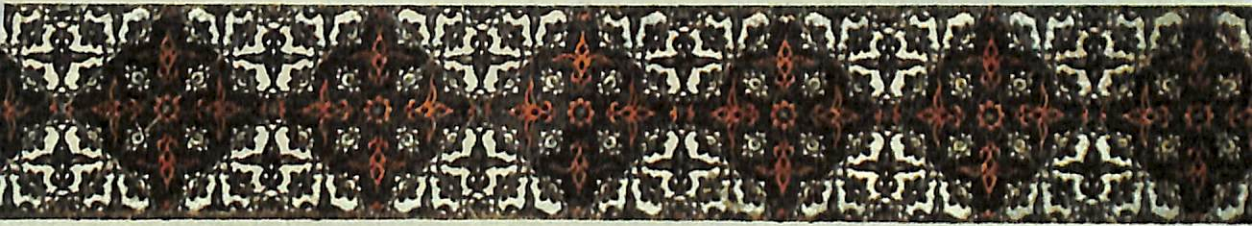
١٣١. البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢١٠، الأصفهاني، الأغاني، ج ١٢، ص ٢٠.

١٣٢. ابن بدران، تهذيب، ج ٦، ص ١١٧.

وعبد الملك، فالرصافة مثلاً كانت مقراً لهشام، والروايات كلها تشير الى شدة اهتمام هشام بأمر الدواوين (١٣٢) مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأن هذه السجلات كانت تراقب الخلفاء اذا كانوا قد قرروا الاقامة لفترة طويلة خارج دمشق.

ونظراً لأن الشام كانت الولاية المركزية والولاية الوحيدة التي وقعت تحت الادارة المباشرة للخلفاء، فانها حظيت باهتمامهم، فنقرأ مثلاً في تاريخ دمشق لابن عساكر عن تأسيس ديوان للزمنى، وأن الوليد عندما عين اسحاق بن قبيصة من أهل دمشق على هذا الديوان قال له: «لأدعن الزمن أحب الى أهله من الصحيح» (١٣٤) وأغلب الظن أن هذا الديوان ظهر في الشام فقط، فالقلقشندي يذكر أن الوليد هو أول من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى، وأول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون (١٣٥)، كما استمتع أهل الشام بازدهار مادي نتيجة لتدفق الفائض من الولايات الى بيوت أموالها بالاضافة الى أخماس الغنائم وعدم فرض ضرائب إضافية على سكانها، وبما أن أهل الشام كانوا أهل طاعة وولاء، فاننا لا نقرأ عن دار استخراج في الشام كتلك التي ظهرت في العراق في العصر الأموي، والتي كانت تصدر فيها أموال الموظفين الذين يختلسون أموال الجبايات ولا يؤدونها للدولة أو أموال الدهاقين الذين يقصرون في الجبايات المقررة عليهم، أو أموال الخارجين على الدولة أو الذين يشتبه بمساعدتهم للثائرين (١٣٦)، واستمر هذا الجهاز حيث تحول في العصر العباسي الى ديوان كبير عرف باسم ديوان المصادرين (١٣٧).

١٣٣. الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٠٣.
 ١٣٤. ابن بدران، تهذيب، ج ٢، ص ٤٥٢.
 ١٣٥. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٣٢.
 ١٣٦. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، البيان والتبيين، ٤ ج، دار الفكر، بيروت (د.ت.)، ج ٢، ص ٤٢.
 ١٣٧. حسام السامرائي، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية، ١٩٧١، ص ٢٨٦.



المراكز الإدارية والعسكرية في بلاد الشام في العصر الأموي

نقولا زيادة

أولا :

كانت بلاد الشام مقسمة في أيام جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) إلى الوحدات الإدارية التالية (مرتبة من الشمال إلى الجنوب):

١. سورية الأولى: وكانت هذه تضم الجزء الشمالي من بلاد الشام الممتد من ساحل البحر المتوسط إلى الولاية الفراتية (Euphratensis) وكانت ولاية كيليكية الشمالية (Cilicia II) تجاورها شمالا، كما كانت هي تجاور سورية الثانية جنوبا.

وكانت مدنها الرئيسية أنطاكية وسلوقية البحرية (السويدية الحالية) واللاذقية وبيروية (حلب) وخلقيس (قنسرين). وظلت أنطاكية عاصمة بلاد الشام، فكانت مقر الحكم العام (Consularis Syrae) لكن المركز الإداري لسورية الأولى أصبح مدينة قنسرين. فهذه المدينة تقع في مكان يمكن أن تراقب منه الهجمات الآتية من الخارج، كما أنها كانت تتوسط منطقة غنية بغلاتها الزراعية وبانعامها، فكانت تقوم بأود الجنود الكثر الذين اتخذت لهم فيها معسكرات.

٢. سورية الثانية (Syria II)، وهذه كانت تقع عبر بلاد الشام من ساحل البحر المتوسط (حول مدينة اللاذقية) إلى البادية السورية (بادية الشام) وكانت حدودها شمالا حدود سورية الأولى وجنوبا كانت تصاقب فينيقية الداخلية. والمدن الرئيسية في هذه الوحدة الإدارية هي اللاذقية وافامية ولاريسا (شيرز) وبيفانية (حماة) وارتسوزا (الرستن)، ومن المرجح أن تكون مدينة اناستاسيو بوليس (Anastasiopolis) (الرصافة) داخلة فيها. والمركز الإداري لها كان افامية على العاصي. وهذه المدينة كانت واحدة من المدن الأربع التي بناها سلوقس نيكاتور السلوقي (حكم من سنة ٣١٢ - ٢٨٠ ق.م) وهي أنطاكية وسلوقية البحرية واللاذقية وافامية وهذه الأخيرة كانت لفترة طويلة تتوسط المنطقة التي كانت تربي فيها الفيلة والخيول اللازمة للجيش السلوقي والرومانية.

٣. فينيقية البحرية أو الساحلية (Phoenicea Paralis) وقد امتدت هذه على الساحل الشامي من بلانية (Balanae) (بانياس الساحلية) شمالا حتى جنوبي جبل الكرمل. وكانت تشتمل في الداخل سلسلة جبال لبنان وسورية الغربية. كانت صور مركزها الإداري أما مدنها الأخرى المهمة فهي طرابلس وبيروت وصيدا وبظلمياوس (عكا) على الساحل، وقيسارية بانياس (بانياس / جبل الشيخ) في الداخل.

٤ . فينيقية اللبنانية أو الداخلية (Phoenicea Libanensis) وكانت رقعتها تمتد من البقاع غرباً حتى بادية الشام شرقاً، ومن سورية الثانية الى شمال شرق الاردن شمالاً وجنوباً. وكانت دمشق عاصمتها ومدنها الاخرى الكبرى هي اميزا (حمص) وبعبلك و بلميرا (تدمر).

٥ . فلسطين الاولى (Palaestina Prima) وقد شملت السهل الساحلي من جنوبي الكرمل حتى نقطة تقع جنوبي رافيا (رفح) وكانت تمتد الى الداخل بحيث كانت تضم جبال نابلس والخليل والجزء الجنوبي من غور الاردن. وكانت قيسارية البحرية مركز الادارة اما بقية المدن الرئيسية فكانت نيابولس (نابلس) والقدس والخليل وحلحول واللد وسبسطية واريحا في الداخل، اما على الشاطئ فكانت مدن يافا وعسقلان وغزة هي البارزة.

٦ . فلسطين الثانية (Palaestina Secunda) وهذه كانت تشمل مرتفعات الجليل ومنابع نهر الاردن (الفلسطينية وشمال غور الاردن وغولينيت (الجولان). كانت سكيثو بوليس (بيسان) المركز الاداري وكانت بعض المدن العشرة تابعة لها مثل بلا (فحل) وجدرة وكابيتو لياس (بيت راس) وهبوس (قلعة الحصن) وابلا (اربد)، كما كانت صفورياس (صفورية) وطبرية واللجون (تل المتسلم) من مدنها المعروفة.

٧ . فلسطين الثالثة (Palaestina Tertia) لما احتل تراجان البتراء وقضى على دولة الانباط (سنة ١٠٦م) انشا الولاية العربية (Provincia Arabica) من المنطقة الشامية التي كانت تحت نفوذهم. لكن هذا الوضع تبدل في القرن الرابع، ان لم يكن حتى قبيل ذلك، فسلخ القسم الجنوبي من «الولاية العربية» وضم الى القسم الجنوبي من فلسطين وسمي القسمان معا «فلسطين الثالثة». وكانت ايلة (العقبة) مقر الحاكم وكانت المدن المهمة فيها البتراء والوسا (الخلصة) وبيروسبا (بئر السبع) في النقب.

٨ . الولاية العربية وهذه كانت تشمل المنطقة الواقعة جنوبي منطقة دمشق وشرقي فلسطين الاولى والثانية وشمال نهر الموجب. وكانت بصرى (اسكي شام) عاصمتها الادارية.

٩ . في السنوات الاخيره من حكم جستنيان انتزعت الاجزاء الساحلية من سورية الثانية وجعلت مع الجهات الجبلية المصاغبة لها وحدة ادارية سميت ثيودورياس (Theodorias) ومن المرجح ان اللاذقية اصبحت عاصمتها (١).

١ . راجع نقولا زيادة، «التطور الاداري لبلاد الشام بين بيزنطية والعرب»، بلاد الشام في العهد البيزنطي - الندوة الاولى من اعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام تحرير: محمد عدنان البخيت ومحمد عصفور (عمان، ١٩٨٦) ص ٩٥-١٣٧.

Nicola A. Ziadeh, "The Administration of Bilad ash-Sham from the Byzantine to the Early Arabs", in *Melanges de L'Université Saint Joseph*, Tome L (1984), pp. 801ff.

G.W. Bowersock, *Roman Arabia* (Harvard University Press, Cambridge, Mass, 1983) cc II and III, passim.

إلى جانب هذه المراكز الإدارية كانت ثمة مراكز عسكرية تتجمع فيها فئات من الجنود النظاميين أي الذين كانوا يتبعون الإدارة العسكرية المركزية في أيام الرومان وأصبحوا كذلك في العهد البيزنطي، وكانت تقيم في بعضها وفي جهات أخرى أقل أهمية فئات من الجند الرديف المحلي.

وعندنا مثل واحد على وجود المركز العسكري في المركز الإداري نفسه وهو خلكيس (قنسرين) في سورية الأولى. أما في الأقسام الإدارية الأخرى والتي كان من المناسب أن تكون فيها حامية كبيرة، فإن هذه الحاميات كانت أقامتها في مناطق تستطيع أن تزود الجنود بحاجاتهم من المؤن ودواب النقل ومن هنا نجد أن سورية الثانية توزعت القوات العسكرية فيها بين لاريسا (شيزر) وأبيفانية (حماه) وإفامية العاصمة. وفي فينيقية الداخلية كانت سهولها وبساتينها على ضفاف العاصي تمد الحامية بالزاد والمؤن ودواب النقل والحمل. أما في فلسطين فقد كان ثمة مراكز مهمة في اللجون (تل المتسلم) في مرج ابن عامر، أغنى مناطق فلسطين زراعة، (وتل المتسلم) من أكثر بقاع المرج ماء من الينابيع. هذه فلسطين الأولى وفلسطين الثانية كان فيها تجمع كبير للجنود، من القرن الرابع للميلاد، في اللد. وقد استمر ذلك في العهد البيزنطي. وكانت بئر السبع والوسا (الخلصة) المركز الرئيسي لهذا التجمع، الذي لم تكن الأعداد فيه كبيرة، لكن السبب الاستراتيجي كان الدافع الأصلي لاتخاذ بئر السبع المركز.

وكان المعسكر الرئيسي في المنطقة الوسطى من شرق الأردن أي الولاية العربية، هو في اللجون (التي تقع إلى الشرق من الكرك).

وهنا يبدو سؤال مهم من كان صاحب الدور الأول في الإدارة الحاكم المدني أم القائد العسكري؟ والذي يمكن قوله أنه منذ القرن السادس، لما بدأت الدولة الساسانية أكثر اعتداء على بلاد الشام التابعة للبيزنطيين أصبحت الإدارة في تلك المنطقة يغلب عليها الطابع العسكري. فإذا لم يجمع الحاكم أصلاً بين السلطتين العسكرية والمدنية، فإن القائد العسكري (dux) كان أكبر نفوذاً وسلطة من الحاكم المدني^(٢).

وكان ثمة تقسيم آخر لبلاد الشام هو تقسيم البلاد إلى أبرشيات وبطريشيات مسيحية. ومع أن هذا التقسيم لم يؤثر فيما حدث فيما بعد في صدر الإسلام والعصر الأموي، فإن ذكره هنا قد تكون له فائدة جزئية. فقد قامت في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية في أواخر عهدها وهو الذي أصبح الإمبراطورية البيزنطية منذ القرن الخامس قطعاً، أربع بطريشيات هي: القسطنطينية وقد كانت تتبعها ثلاث أبرشيات في كل منها اسقف

A.H.M. Jones, *The Later Roman Empire*, 4 vols (Oxford, 1964), III, pp. 380, 388-90; ٢
S. Runciman, *Byzantine Civilization* (Cleveland and New York (reprint) 1970, p.
73.

(مطران) أو رئيس اساقفة (مثروبوليت) والاسكندرية وكانت مصر تعتبر أبرشية واحدة، وكان في بلاد الشام (وهي المنطقة التي تعنينا في هذا البحث) بطريركية انطاكية وكانت تشتمل القسم الاكبر من بلاد الشام وكانت بطريركية القدس (وقد تم انشاؤها سنة ٤٥١) تشمل ابرشيات فلسطين وشرق الاردن. أي على وجه التقريب الفلسطينيين الثلاث والولاية العربية. وقد كاذت حدود الابريشيات والبطريركيات لا تتفق تماما مع الحدود الادارية للولايات او المناطق. فأبرشية فلسطين الساحلية ومركزها قيسارية لم تكن تتفق مع فلسطين الثالثة تماما.

ثانيا :

لا يفوتنا القول بان بلاد الشام (وارض الرافدين في الجهة المقابلة) كانت مرتبطة بالجزيرة العربية سكانا وتجارة وحربا، ولو ان شمال الجزيرة العربية عرف دولة واحدة كان باستطاعتها ان ترتب امورها مع البيزنطيين (ومع الساسانيين). ولكن الحكومة المركزية لم تقم هناك وظلت هذه المجتمعات البدوية تخضع لمجموعات القبائل التي يمكنها السيطرة في وقت من الاوقات، ومراكز السلطة والنفوذ هذه كانت تتبدل بين وقت وآخر. وكانت الدولتان الكبيرتان القائمتان الى الشمال من القبائل العربية تحاولان اخضاعها لنفوذهما (ومثل ذلك يصدق على الدول التي كانت تقوم في جنوب الجزيرة العربية بالنسبة لقبائل اواسط الجزيرة). ومع ان البيزنطيين والساسانيين كانوا اغنى موارد من القبائل (التجارة العالمية والاراضي الزراعية الغنية)، كما كانوا اكثر تنظيما من القبائل، فان هذه كان لها ما يوازي هذين الامرين بل يتفوق عليهما. فالقبائل كانت على التنقل المستمر والحركة الدائمة اقدر، وكانت لها خبرة بشؤون القتال المناسب للصحراء. يضاف الى ذلك ان القبائل كان باستطاعتها ان تدخل الفيافي عند شعورها باحتمال الخسارة أو حتى بعد وقوعها فتامن غائلة اللحاق المنظم. (وهذه الحالة ظلت هي التي تغلب على التعامل العسكري بين القبائل والدول القائمة في ارض الرافدين وبلاد الشام حتى اوائل القرن الحالي). ومعنى هذا كله أن السلطة التي تقوم في المناطق المذكورة كان عليها أن تعالج علاقاتها بالقبائل البدوية المتنقلة منها أو شبه المستقرة على أسس غير أسس القهر والغلبة.

والاسلوب الذي اتبع هو اسلوب ان تعالج علاقاتها البدوية المتنقلة منها أو شبه المستقرة على «التعاهد» بين البيزنطيين (مثلا) و القبائل المجاورة لهم (او البعيدة مركزاً اذا وصلت اليهم). ويبدو أنه حتى مطلع القرن السادس كان بنو سليح الجماعة المرتبطة بالبيزنطيين، فلما انتهى امرهم وتولى الغساسنة الاشراف على المنطقة الواسعة الممتدة من مدائن صالح الى شمال حوران والجولان، وانتشر نفوذهم بحيث شمل جميع القبائل العربية التي كانت في ولايات فلسطين الاولى وفلسطين الثالثة وفينيقية الداخلية والولاية العربية،

رأى البيزنطيون الفائدة التي تعود عليهم من إقامة صلات «التعاهد» بينهم وبين امراء بني غسان (٤).

وقد خلص نولدكه الى القول بان البيزنطيين كانوا يدفعون لزعماء الغساسنة مساعدات مالية، كما عينوا كبيرهم فيلارخ (Phylaseh) أي القائد المقرب ثم رفعوا رتبته الى بطريق (وهي تعريب لكلمة (Patsician) هذه الترتيبات التي عرفها الرومان من القرنين الثالث والرابع على يدي ديوقلتيان وقسطنطين، هي التي اتقنها البيزنطيون اذ كانت القبائل قد اصبحت اكثر اهمية لهم منها قبلًا (٥).

كان الغساسنة اكثر تنقلا وارتحالا من نظرائهم في الجهة المقابلة، ولكن كانت لهم مع ذلك محلة هي المفضلة وهي الجابية في الجولان، وبسبب غنى منطقة الجولان وحواران الزراعي وثروتها الحيوانية، كان الغساسنة يقصدون الجابية صيفا بشكل خاص. وبذلك اكتسبت الجابية قيمة عسكرية تساوي قيمة اللجون الفلسطينية (في مرج ابن عامر) واللجون الأردنية (شرقي الكرك).

والمراكز العسكرية الممتدة في شرق بلاد الشام ازدادت اهميتها نسبيا في القرن السادس اذ ان التحصينات الحدودية، التي بدأت بتراجان في مطلع القرن الثاني الميلادي وقويت ونشرت شمالا في ايام ديوقليتتان، اهملت بسبب تعاظم الانفاق عليها. ذلك بان جستنيان قد انفق الكثير من موارد الامبراطورية على حروبه لاسترجاع شمال افريقية وايطالية ووضعها تحت سلطته يضاف الى ذلك ان الترتيبات الجديدة التي تمت بين البيزنطيين والامراء العرب المعاهدين ادت الى اهمال التحصينات. فالعربي البدوي كان انفع للدفاع عن امبراطورية القسطنطينية من الحصون عندما يكون المهاجم عربيا بدو يا مثله.

وهذه الحدود كان يحرسها في القرن الثالث والرابع للميلاد ثلاثون الف جندي، بين فارس وراجل، كانوا يقيمون في المعسكرات المذكورة قبلا في بلاد الشام وفي اوزرونه والولاية الفراتية (٦). الا ان هذا العدد ارتفع في القرن الخامس الى نحو ٨٠٠٠٠ على ما ورد في الوثيقة العسكرية المعروفة باسم نوتيتيا دغنيئاتوم (Notitia Dignitatum) والتي تعود الى القرن

٤. ثيودور نولدكه، امراء بني غسان (ترجمة بندي جوزي وقسطنطين زريق، ١٩٣٥) في مجمله لمقارنة العلاقة التي قامت بين الساسانيين والمناذرة. راجع الكتاب نفسه.

F.M. Donner, *The Early Islamic Conquests*, (Princeton, 1981), pp. 41-44, 48-49.

Irfan Shahid, *Rome and the Arabs*, (Dumbarton Oaks, 1984), pp. 34-40.

Byzantium and The Arabs in the Fourth Century (Dumbarton Oaks, 1984), pp. 62ff, 476ff and 514-19.

F.M. Abel, *Histoire de la Palestine*, vol. II (Paris, 1951) pp. 246-249; Jones, Later, III, p. 380; H. M.D. Parker, *A History of the Roman World, A.D. 138-337 (revised by B.H. Warmington, London, 1958), p. 275.*

المذكور^(٧). لكن مما لا شك فيه ان هذه الاعداد تقلصت بين ذلك الوقت و بين بدء الفتوح العربية.

وثمة أمر آخر حري بالذكر وهو ان المناطق الشرقية من بلاد الشام بشكل خاص كانت الادارة البيزنطية فيها قد تهزأت بحيث ان السلطة كانت قد عادت الى القبائل والعشائر التي كانت تخضع للغساسنة بقدر ما يمكن لهؤلاء ان يفرضوا سلطانهم عليها. فحتى القبائل العربية الموجودة في شمال الجزيرة كانت لها تحالفاتها الداخلية التي قد تحاول احيانا التملص من السلطة الاعلى اما نفرة من التسلط او احتجاجا على نقص في العطاء من قبل المعاهدين، أو طمعا في الحصول على عطاء اكبر من جهة أخرى.

فضلا عن هذا كله فمن الملاحظ انه في اوائل القرن السابع الميلادي، لما اشتدت الحملات الساسانية ضد البيزنطيين وكانت ناجحة، اخذ العرب (البدو) يهاجمون المناطق التي تصدعت التحصينات المختلفة المحيطة بها. وكان اكثر المهاجمين يأتون من داخل الجزيرة العربية او من اطرافها. فمن ذلك الهجوم الذي قام به الاعراب وقد وصلوا فيه الى أسوار القدس^(٨). ومثل هذه الهجمات كان عاديا. ذلك انه مجرد ان يحس هؤلاء الاعراب ان السلطة المعاهدة ضعفت او تزعزعت مكانتها ينزعون الى التحلل من ارتباطاتهم. وفي حالة الفشل فأنهم ينسحبون الى الصحراء - ملاذهم وحماهم - التي لا تستطيع الجيوش الدخول اليها.

ثالثا :

مجيء الاسلام غير امورا كثيرة بين العرب اولا ثم في المنطقة التي غزوها واحتلوها (ونحن سنقتصر في حديثنا عن الغزو والاحتلال على بلاد الشام).

تأسيس الحكومة الاسلامية في المدينة على عهد الرسول (ص) واستمرار عملها كدولة في ايام الخلفاء الراشدين (على الاقل الى منتصف عهد عثمان) ادى الى سيطرة عربية (مهاجرة - انصارية) على شمال الجزيرة، واقامة سلطة موحدة (من الداخل) توجه اعمال القبائل المتعددة. والاثر الاول لهذا، خاصة بعد حروب الردة، كان زوال التنافس والتحاسد والتخاصم ومن ثم الحروب بين القبائل. (نكرنا سيطرة الدولة على القبائل الشمالية لاننا نتناول في بحثنا بلاد الشام، ولكن الواقع هو ان الدولة سيطرت على جميع القبائل العربية).

ومع هذه السيطرة اخذت الدولة - مع توسع الفتوح - تنظم انتقال العشائر وسيورها. كما انها في شخص أبي بكر وعمر بشكل خاص، جددت سبل الإقامة والسكنى. ولنترك ارض

^٧ Jones, Later, III, p, 380; cf. Runciman, Byzantine, p. 117,

^٨ F.M. Donner, Early Islamic Conquests, p. 48, citing Theophanes, Chronographia, p. 300 under AM 6104.

الرافدين ومدينتيهما الكبيرتين – البصرة والكوفة – جانبا، ولنركز على الاستيطان في بلاد الشام. يبدو واضحا ان العرب الفاتحين لم يؤسسوا في تلك الديار مدنا جديدة على غرار البصرة والكوفة فهل ثمة ما حملهم على ذلك؟

لا يغربن عن البال ان كبار التجار في مكة كانت لهم مع اسواق بلاد الشام وتجارها علاقات قوية مفيدة. وكانوا يحرصون على استمرارها، ومن هنا، في راينا، كانوا يريدون ان تظل قنوات الاتصال مفتوحة عن طريق البعثات التي كانت تغذي جيوش الفتح أولا وعن طريق الاقامة والاستيطان فيما بعد. فان اقامة بعض القادة والصحابة والزعماء والجنود (مع تنظيم امور هؤلاء) في المدن التي كانت من قبل اسواقا هامة، يحافظ على العلاقات، لان اقامة مدن – معسكرات جديدة (على غرار البصرة والكوفة) قد يؤدي الى تجمعات عربية قبلية من الجزيرة هي فئات بحاجة الى سلع استهلاكية، لكنها (أي المدن – المعسكرات) لن تكون بديلا عن اماكن من نوع دمشق وحمص وحماة وانطاكية وحلب وبقية المدن الساحلية المنتشرة من سلوقية (في الشمال) الى غزة (في الجنوب).

وقد يسر أمر الاستيطان في المدن والبلدان القائمة الموجودة هجرة عدد كبير من الروم الذي كانوا يستوطنون المدن في بلاد الشام الى الشمال – شمال الحدود السورية – مع الجيوش البيزنطية المنسحبة. ودمشق وحمص وحلب كانت نماذج جيدة لهذا النوع من السكنى في بيوت تركها اصحابها فنزل فيها القادمون الجدد^(٩)، بقطع النظر عما اذا كان اصلهم جنودا مقاتلين توقفوا عن القتال أم انهم كانوا طارئين مباشرة من الجزيرة.

وكان ثمة بعض المعاهدات التي عقدت مع رؤساء المدن تنص على المشاركة في الاقامة^(١٠).

والمهم ان عدد الجنود الذين طرأوا على بلاد الشام كان اقل من الذين اتجهوا نحو ارض الرافدين، والذين جاءوا فيما بعد كانوا يتخذون من تلك الديار طريقا الى مصر وشمال افريقية لا دار اقامة.

والدولة العربية الاسلامية التي سيطرت على القبائل ونظمت أمر تنقلها وانضمامها الى الجيوش المقاتلة وما الى ذلك، قامت بالنسبة الى العهد الجديد بامرين مهمين: الاول انها اخضعت الجميع لضرائب حكومية تستوفي من الجميع – الطارئین وسكان البلاد الاصليين على اساليب مختلفة لست احسب ان الدخول بها ينفعنا في بحثنا. والامر الثاني هو تنظيم العطاء للمقاتلين وهو الامر الذي بدأه عمر بن الخطاب منظمًا، واستمر بعض الوقت. ولنعد الآن الى بلاد الشام لنرى ما الذي تم بشأنها من حيث التنظيم الاداري.

٩. Donner, *Early Islamic*, p. 247 and notes 177, 118, 119, 120, 121, 122 (c. III)

Ibid., notes 123-126 (c. III).

١٠.

لا بد لنا هنا من ابداء ملحوظتين: أولاها ان قادة الجيوش العربية الاسلامية، وهم اصلا زعماء قريش وكبار تجارها ومسافريها، كان يعرفون عن المناطق الجنوبية من بلاد الشام (أي الى خط يمتد من دمشق الى الساحل على وجه التقريب) الشيء الكثير، من حيث الطرق والمحطات ومحلات المياه والمدن والاسواق. كما كانوا يعرفون مدى ما وصل اليه انحلال الادارة البيزنطية نتيجة تدهورها مع الزمن ومن ثم فلم يكذب للعرب فتح هذه الاجزاء من بلاد الشام حتى قسمت مناطق ادارية تكاد تكون الأسس القائمة عليها مزيجا من الجغرافية والاقتصاد (الطرق بشكل خاص) وهي:

جند الاردن - شمل الأردن الحالية الى جهات بصرى. وبذلك أمن الاتصال التجاري المألوف مع منطقة دمشق الى الشمال. وضيف الى جند الاردن ممر من شمال الغور الى الساحل (عكا وصور) عبر مرج ابن عامر. ونقلت عاصمة هذه الوحدة الادارية من بيسان الى طبرية.

جند فلسطين - وشمل هذا ما كان من قبل فلسطين الاولى وما بقي من فلسطين الثانية بعد انشاء جند الاردن، واختيرت اللد عاصمة لهذه الوحدة الجديدة.

جند الشام - وكانت منطقتها تمتد شرقاً الى تدمر وجنوباً كانت تشمل حوران وتمتد الى بصرى، كما كان الجند يشمل الجولان. وقد كانت دمشق عاصمته.

ولما تقدمت الجيوش العربية الاسلامية نحو الشمال وكانت الفتوح متشعبة بسبب تشعب الرقعة واتساعها، اخذ الامراء يضمون ما يفتح الى ما سبق فتحه فكانت النتيجة ان هذا الجزء من بلاد الشام، والذي كانت فيه اربع وحدات ادارية في ايام البيزنطيين اصبح تابعا لادارة واحدة. وحتى لما فتحت اجزاء من الجزيرة الفراتية ضمت اليه. فكان وحدة ادارية عسكرية واحدة - كبيرة متسعة معقدة (١١). وظل الامر على ذلك الى خلافة يزيد بن معاوية.

ويمكن اجمال ما تم بين يزيد (٦٠ - ٦٤ هـ / ٦٨٠ - ٦٨٣ م) وايام هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) من حيث تنظيم هذه الاجزاء من بلاد الشام بما يلي:

١. فصل حمص عن قنسرين وجعلها جندا مستقلا (يزيد).
٢. افراد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) الجزيرة فاصبحت جندا، وصار جندها يأخذون اطماعهم من خراجها ومركزها حران.
٣. وفي ايام هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) جعلت قنسرين وكورها جندا وفصلت عنها مدن منبج ودلوك وربعان وقورس وانطاكية وتيزين وجمعها الرشيد فيما سمي بالعواصم (١٢).

Ziadeh, *Melanges*, p.p. 808—810. ١١

١٢. البلاذري، فتوح البلدان، ٣ ج (تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٩) المجلد الاول ص ١٥٦. ١٧٥، راجع ايضا Ziadeh, *Melanges*, pp 804-809. ١٢

وقد انتهى الامر ببلاد الشام إلى ان تكونت من ستة اقسام ادارية يسمى كل منها جندا، وهي: قنسرين وحمص والشام (دمشق) والاردن وفلسطين والعوالم (واصبحت الجزيرة الفراتية ولاية مستقلة بدارتها). وكان الجند في كل من هذه الاجناد يتناولون اطعامهم من مال المنطقة المستقر بها.

واذا تركنا العوالم جانبا، وجدنا ان المدن التالية اصبحت المراكز الادارية الرئيسية في العصر الاموي، وهي:

قنسرين وحمص ودمشق وطبرية واللد.
فأين كانت المراكز العسكرية في هذه الفترة؟

يجب ان نذكر ان طبيعة المراكز العسكرية وامكنتها تبدلت الان عما كانت عليه في العصر البيزنطي. ففي هذا العصر كانت الغاية من التجمعات العسكرية الدفاع عن بلاد الشام لذلك كانت المعسكرات تقع على الحدود وعلى مقربة من التحصينات، كما كانت بعض المعسكرات تستخدم للمحافظة على النظام في الداخل مثل اللجون (تل المتسلم) في شمال فلسطين.

أما اثناء الفتوح وبعدها في ايام الراشدين والامويين فقد اصبحت بلاد الشام جزءا من امبراطورية واسعة عربية اسلامية، وصارت الغاية من المعسكرات اما ان تكون مراكز لاعداد الجنود ثم ارسالهم للالتحاق بالجيوش الفاتحة او للمحافظة على الأمن احتياطا. وقد كان امراء الحرب العرب قد قلدوا الغساسنة باتخاذهم الجابية (في الجولان) معسكرا ايام الفتوح ثم استمر ذلك في الازمنة التي تلت (١٣). وقد تأثرت الجابية بطاعون عمواس الذي اصاب فلسطين في سنة ١٨هـ/٦٣٩م. فقد نقل انه كان فيها اربعة وعشرون الف جندي قبل الطاعون فاصبح العدد اربعة آلاف بعده. لكن ليس هناك ما يدل على ان الرقم الاول يعود الى وقت سبق الطاعون مباشرة (١٤) وقد كانت عمواس بالذات مركزاً من مراكز القيادة العسكرية ولكن لمدة قصيرة.

وكان المركز العسكري الثاني يقوم في منطقة اللد، ولعله كان في المدينة نفسها. وهنا نجد ايضا استمرارا لوجود مركز من هذا النوع في العصر البيزنطي (بل لعله كان من العصر الروماني ايضا) واختيار المنطقة يعود الى انها خصبة فهي تصلح للحصول على الخضار والفواكه والحبوب اللازمة للجند، كما انها تصلح لرعي الماشية والدواب اللازمة للجيوش.

١٣. البلازري، فتوح البلدان، اول ص ١٢٣، ١٤٧، ١٥٣، ١٦٤، ١٦٥. راجع ايضا ياقوت، معجم البلدان، مادة «الجابية». و يسميها ياقوت جابية الجولان.

١٤. Donner, *Early Islamic Conquests*, pp. 245-247.

وقد اجتمعت في اللد الادارة المدنية والقيادة العسكرية، وهي في العقود الاولى للعرب كانت تجتمع في يد واحدة في الغالب، وحتى عندما كانتا تفصلان فقد كان الرجوع الى امير بلاد الشام (أو الى الخليفة الاموي فيما بعد) يحل المشكلات التي قد تعرض.

ولكن لما ولي سليمان بن عبد الملك ولاية جند فلسطين بنى مدينة الرملة واتخذها عاصمة للجند. فلما تولى الخلافة (٩٦-٩٩ هـ/٧١٥-٧١٧ م) اتم بناء المدينة وحسنها وكان كثيرا ما يقضي اوقاته فيها (١٥).

كانت قيسارية عاصمة فلسطين الثانية، وكانت مدينة كبيرة وميناء مهما لكن العرب لم يحتلوا قيسارية الا في زمن متأخر نسبيا (سنة ٦٤١ م)، وكانت اللد قد اخذت مكان العاصمة الا ان الاهم من ذلك في رأينا ان العرب كانوا حريصين على اتخاذ قواعد ادارتهم داخل البلاد لا على الشواطئ لان الاسطول البيزنطي كان لا يزال نشيطا ولم يقدم العرب على الافادة من الموانئ والمدن البحرية الا بعد ان اتخذ معاوية (٤١-٦٠ هـ/٦٦١-٦٨٠ هـ) من صور وعكا دورا للصناعة وقواعد للبحر.

على أن الموانئ الشامية جميعها (باستثناء صور وبعض موانئ فلسطين) لم تضم الى الاجناد المصاحبة لها، بل ظلت كأنها اشياء ملصقة بالحكم بالمنطقة (١٦) وفي ايام الامويين وبعد ذلك بقليل كان ثمة موانئ خاصة بافتداء الاسرى، مثل بيروت وقيسارية.

وظلت قنسرين تحتفظ بعدد من الجنود لكن لما فصلت عنها مدن العواصم اصبحت هذه المدن مراكز عسكرية، دون ان تفقد قنسرين اهميتها (١٧) ولم ننع على احصاءات عن عدد الجند في أي من المراكز العسكرية الكبرى في أي من ازمانها التي هي موضع البحث. ويغلب على الظن ان عدد الجنود كان يتوقف على الأحوال العسكرية القائمة على الحدود.

وحري بالذکر ان العصبية القبلية قد نذر قرنها ثانية في العصر الاموي ودارت رحى حروب قبلية قد تكون قيسية يمانية في ظاهر الأمر، لكن المحرك لها كانت الخصومة والمنافسة اللتان قامتا بين الفرع السفيناني والفرع الرواني من الامويين وعندها لا شك انه كانت تقوم معسكرات مؤقتة في بلاد الشام. ومعركة مرج راهط (٦٥ هـ/٦٨٤ م) بين السفينانيين والمروانيين لم تقم بين ليلة وضحاها. فقد اعد لها وجمعت الجنود القبلية وسلحت قبل ان تتقاتل.

١٥. البلاذري، فتوح البلدان، اول، ص ١٧٠.

١٦. Ziadeh, *Melanges*, p. 810.

١٧. راجع هامش رقم ١٢.

وعندنا ان الجزيرة الفراتية كان فيها مركز عسكري هام في حران . فموقع هذه المدينة يفرض نفسه نقطة استراتيجية بين شمال بلاد الشام وشمال العراق شرقا وارمينيا في الشمال.

رابعا :

هذه المدن التي ذكرناها كانت المراكز الادارية للاجناد ومعسكرات للجنود ولكن السؤال الذي يواجه المؤرخ دوما هو: اين كانت عاصمة الخلافة الاموية ؟.

المألوف عند المؤرخين هو ان الامويين اتخذوا دمشق عاصمة لهم ولكن هل كانت دمشق دوما المقر الرسمي للخليفة ؟ ام هل كان بعض الخلفاء يقيمون مدة تطول او تقصر حسب رغباتهم في مدن اخرى من بلاد الشام ؟

نحن لا نقصد الاماكن التي كان الخلفاء يزورونها للاصطياف او قضاء الشتاء فقد كان من الطبيعي ان يبذل الخليفة مفر عمله للراحة والاستجمام بين حين وآخر فمن المعروف ان معاوية وعبد الملك بن مروان كانا يصطافان في بعلبك احيانا وقد كان معاوية والوليد بن يزيد وعبد الملك يشتون في الصنبرة، وهي بلدة تقع في مقابل عقبة افيق في منطقة بحيرة طبرية، وقد بنى هشام بن عبد الملك قصرا في الفجر شمال اريحا ليشتوفيه وقد روي أن الوليد بالذات اطال الاقامة في الصنبرة وكان يدير شؤون الدولة منها (١٨).

لكن الذي نقصده هو ان يقضي خليفة مدة طويلة في مكان واحد، ومن هناك يصرف اعمال الدولة، فيصدر الأوامر ويتلقى الشكاوى ويستقبل الوفود ويقضي بين المتخاصمين ويبدو من مراجعة ما قام به الخلفاء هو أن معاوية اتخذ دمشق عاصمة له وتبعه في ذلك يزيد ابنه والوليد بن يزيد (بشكل عام) ولما تولى عبد الملك الخلافة احتفظ بدمشق عاصمة لكنه اهتم بالقدس اهتماما كبيرا. فبنى المسجد الاقصى وقبة الصخرة. وهذا امر معترف به لعبد الملك لكن عبد الملك كان عنده مخطط لاعمار القدس بحيث يبني فيها قصرا لاقامته وآخر لادارة الامبراطورية وثالثا للاسرة الروائية (١٩) فكان عبد الملك كان ينظر الى ما بلغه عما فعله هيرودس الكبير في تلك المدينة واراد ان يقوم بشيء شبيه بذلك. هل معنى هذا ان عبد الملك كان يريد ان يتخذ من القدس عاصمة للدولة ؟ هذا سؤال نحتفظ به معلقا الى ان يتاح لنا او لغيرنا، الاجابة عنه.

١٨. فواز طوقان، الحائر بحث في القصور الاموية في البادية، (عمان، ١٩٧٩)، ص ١١٨. راجع ايضا ياقوت، معجم البلدان، مادة الصنبرة.

١٩. البلاذري، فتوح البلدان، اول، ص ١٦٤ - ١٦٦، راجع ايضا طوقان، الحائر، ص ١٠٤. (التحرير: لم يرد لدى البلاذري شيء مما ورد هنا، وهذا أمر مهم يستدعي تحديد المصدر الأصلي).

واهتم الوليد بدمشق عاصمة، واعتزم ان يجعل منها عاصمة تليق بمكانة الامويين ودولتهم الواسعة القوية فكان ان بنى فيها الجامع الكبير (الجامع الاموي) ليكون - مع قصر الخضراء وغيره من المباني - مقابلاً لعاصمة البيزنطيين مع ان هذا الخليفة كان مشغولاً بالفتوح التي تمت في ايامه في الشرق (وادي السند) والغرب (فتح الاندلس).

اما بعد الوليد بن عبد الملك فقد تقلص دور دمشق كعاصمة للدولة الأموية (٢٠) إذ اتخذ سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ/ ٧١٥ - ٧١٧ م) من الرملة مركزاً أساسياً لإدارة شؤون الدولة. وكان يزور دمشق لمأماً (٢١) وهشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ/ ٧٢٤ - ٧٤٢ م) بنى (أو عمرو ووسع) الرصافة واتخذ منها العاصمة الفعلية لإدارته. وحتى قبل ان يبني الرصافة كان يقضي الكثير من وقته في الزيتونة على مقربة من موقع الرصافة (٢٢).

ومروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ/ ٧٤٤ - ٧٥٠ م) قضى القسم الأكبر من خلافته في العاصمة التي كانت مركز إدارة الجزيرة لما كان حاكمها - في حران. إذ ان هذه كانت في الواقع هي عاصمته (٢٣).

لكن الأمر الذي كان كل خليفة يحرص عليه هو ان يبني في دمشق، وفي الجامع الكبير على التخصيص بعد بنائه، وظلت دمشق العاصمة الرسمية ولولم تكن العاصمة الفعلية دوماً.

٢٠. P.K. Hitti, *History of the Arabs* (6th ed. London, 1956) p. 220.

٢١. البلاذري، فتوح البلدان، اول، ص ٢٢٢.

٢٢. البلاذري، فتوح البلدان، اول، ص ٢١٣ و ٢٢٢، طوقان، الحائر، ص ١١٩.

٢٣. ياقوت، معجم البلدان، مادة حران، طوقان، الحائر، ص ١٠٢. Hitti, *History*, p. 220
يرى طوقان، (الحائر، ص ١١٩) ان مروان بن محمد كان يقضي الوقت في قصر الحير الغربي، قبل ان يلزم نفسه بالاقامة بحران.

ثغور بلاد الشام عمر عبد السلام تدمري

مقدمة

لا ريب في أن الدراسات الموضوعية عن «البحرية الإسلامية» وغزواتها في عهدها الأول ما تزال قليلة، بالقياس إلى غيرها من الدراسات الأخرى التي تتناول الفتوحات الإسلامية، على جبهة البر.

ولهذا فقد اخترت هذا الموضوع الذي حاولت فيه أن أضع تاريخاً مترابطاً - قدر الإمكان - لوقائع الأسطول الإسلامي الفتحي على جبهة بحر الشام، ورصد الغزوات وأمرائها، ودور ثغور الشام في الجهاد ضد البيزنطيين، منذ نشأة البحرية الإسلامية في عهد الخليفة عثمان - رضي الله عنه - وحتى نهاية العصر الأموي.

وأود أن أنوه هنا بأني استعنت بمجموعة من كتب الحديث والسنن، وكتب التراجم والطبقات، التي تعتبر مصادر أساسية، تفوق كتب التواريخ والحواليات البحتة في كثير من الأحيان.

الغزوات في عهد الخلفاء الراشدين

فتح جزيرة قبرس

بعد أن تمّ لمعاوية فتح جميع مدن الشام الساحلية، وجد بثاقب نظره أن البيزنطيين لا يفتأون يتطلعون إلى الانقضاض على تلك المدن بأساطيلهم البحرية، وأنهم يتخذون من جزر البحر المتوسط قواعد لانطلاق سفنهم والإغارة على ساحل الشام ومدنه، وكان إحساسه بخطر تلك الجزر مبكراً، حيث كتب إلى الخليفة عمر يقول: «يا أمير المؤمنين، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص (١)، فقبل إن الخليفة كتب إلى معاوية: «إنا سمعنا أن

١. تاريخ الرسل والملوك، للطبري، ج ٤/ ٢٥٨.

بحر الشام يُشرف على أطول شيء على الأرض، يستأذن الله في كل يوم وليلة في أن يفيض على الأرض فيفرقها، فكيف أحل الجنود في هذا البحر الكافر المستعصب، وتالله لئُسلم أحب اليّ مما حوت الروم، فأياك أن تعرض لي، وقد تقدّمت اليك ..» (١). وبسبب موقف الخليفة عمر من اصطناع الاسطول، انصرف الاهتمام الى تحصين المدن الساحلية وترميم حصونها القديمة التي تركها العدو، وسُميت «اخاند» (٢)، كما انشأ المسلمون «مناظر» كانت تُتخذ للمواقيد والحفظة والمربطة وحمايتها من غارات الروم المفاجئة. وكان معاوية قد عاد وكتب الى الخليفة يصف له حال الساحل، فكتب اليه في مرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها. ولم يأذن له في غزو البحر (٤).

وحدث في أواخر أيام الخليفة عمر وأوائل أيام الخليفة عثمان أن غمرت موجة بيزنطية الساحل الشامي، وعمل البيزنطيون على تثبيت أقدامهم في مدن الساحل والتشبّث بها، بفضل أسطولهم البحري، وألحقوا هذه الموجة بحملة بحرية، استطاعوا أن يستعيدوا فيها مدينة الإسكندرية سنة ٢٥هـ/٦٤٥م. ووجد معاوية أن من الضروري اصطناع أسطول بحري للوقوف في وجه الخطر البيزنطي، والدفاع عن سواحل مصر والشام، وحماية المياه العربية الإسلامية، بله ضرب الأراضي البيزنطية نفسها لردعها عن الغارات العدوانية التي تقوم بها.

وإذا كان معاوية قد فشل في الحصول على موافقة الخليفة عمر على ركوب المسلمين البحر، فإنه نجح في إقناع الخليفة عثمان بعد لأي، رغم أن عثمان كان محترزاً في قراره بالموافقة، حيث كتب معاوية إليه يسأله أن يأذن له في ركوب البحر إلى جزيرة قبرس، ويخبره في كتابه بقرب المسير إليهم، وأن البحر قد دلّ بعد صعوبته، فكتب إليه عثمان: إني لست بفاعل ذلك ولا آذن لك في ركوب البحر، وقد نهاك عنه عمر بن الخطاب، فإن أبيت ذلك، ولم يكن لك بُدّ من ركوب البحر فاحمل معك أهلك وولدك حتى أعلم أن البحر هين كما تقول (٥). وقيل إنه كتب له أيضاً قوله: «لا تنتخب الناس ولا تُقرع بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعطه» (٦).

٢. تاريخ الرسل، ٤/٢٥٨، ٢٥٩.

٣. فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، ص ١٣٠، طبعة نيو يورك ١٩٣٢.

٤. فتوح البلدان ١/١٥٢. وانظر: المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الاعظمي، ج ٥/٢٨٣، رقم ٩٦٢٣، باب الغزو في البحر، بروايته عن معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب.

٥. الفتوح لأبن اعثم، ١١٧/٢، ١١٨.

٦. المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقرزية، ج ٣/٣٠٨، طبعة مصر.

وما إن وصل جواب الخليفة إلى معاوية حتى كتب إلى أهل السواحل وأمرهم بإصلاح المراكب التي استولوا عليها من البيزنطيين، وتقريبها إلى ساحل حصن عكا التي أمر بترميمها كما قام بترميم مدينة صور^(٧) ووضع الأرزاق للناس فأعطاهم وأمرهم بالمسير إلى عكا، فخرج الناس من دمشق، وخرج هو وأهله وولده، وعقد الرايات والألوية، وأمر أن لا يتخلف أحد ممن أخذ أرزاقه، وخرج من ميناء عكا قبل صلاة يوم الجمعة في سنة ٢٨هـ / ٦٤٩م^(٨). قاصداً جزيرة قبرس التي كانت باكرة أعمال المسلمين الحربية في البحر المتوسط «إذ لم يركب المسلمون بحر الروم قبلها»^(٩) على رأس أسطول قيل إنه كان يتكوّن من (١٧٠٠) سفينة^(١٠) وقيل إنه تكوّن من (١٢٠) مركبا^(١١)، وقيل إنه كان يتكوّن من مراكب كثيرة^(١٢). وقد خرج في هذه الغزوة جمع من الصحابة منهم: «أبو ذرّ الغفاري» و«عُباد بن الصامت» وزوجته «أم حرام بنت ملحان»^(١٣)، و«المقداد بن الأسود» و«شذاد بن أوس» و«أبو الدرداء الأنصاري»، وكان هذا الأخير يربط في بيروت مع «سلمان الفارسي» و«عبد الملك بن أبي ذرّ»^(١٤).

وصادف حين خروج أسطول معاوية للغزو أن كانت مراكب الروم في البحر محملة بالهدايا قد بعث بها ملك قبرس إلى الإمبراطور «قنسطانز الثاني»، فأحرق المسلمون بتلك المراكب وأخذوها،

٧. فتوح البلدان ١٤٠/١ وهو يروي عن الواقدي، عن هشام بن الليث الصوري. رقم ٣٢٤.

٨. في تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ١٨٤/١ أن الغزوة كانت سنة ٢٥هـ (٦٤٥م).

٩. فتوح البلدان، ١٨١/١.

١٠. هذا حسب رواية «أغابوس بن قسطنطين المنبجي» في كتابه «العنوان» الذي نشره الآب لويس شيخو ببيروت ١٩٠٧، ج ٢/٣٤٦، واعتقد أن الرقم مبالغ فيه. انظر: المنتخب من تاريخ المنبجي، بتحقيقنا، طبعة دار المنصور، طرابلس ١٩٨٦، ص ٥٥ حاشية، رقم ٥.

١١. هكذا في كتاب الفتح لابن أعمش، ١١٨/٢ وهو رقم معقول، خصوصاً أنه أول أسطول يخرج به المسلمون للغزو، ولم يكن الوقت ليسمح لهم بإنشاء العدد الهائل الذي ذكره المنبجي.

١٢. الخراج وصناعة الكتابة لقدامة ٣٠٦.

١٣. ينفرد «صالح بن يحيى» في «تاريخ بيروت»، ص ١٤، بالقول إنها ماتت في بيروت بعد عودتها من قبرس، بينما تكاد المصادر الاقدم تجمع على أنها توفيت في الجزيرة ودفنت هناك وقبرها يُزار (انظر: تاريخ خليفة ١٦٠، ربيع الأبرار للزنجشيري ١/٢٤٠، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣١٨/٨، تاريخ دمشق (المجلد الأخير الخاص بالنساء، تحقيق سكيّنة الشهابي، دمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ص ٤٨٦ — ٤٩٦).

١٤. التاريخ الصغير للبخاري، ص ٤١، طبعة المكتبة الأثرية بالباكستان، تاريخ الطبري ٢٥٨/٤، تاريخ دمشق ١٦/٩٢ و ٢٧٨/٢٤، تاريخ ابي زرعة ١٨٧/١ وقد وردت أسماء جماعة آخرين من الصحابة في هذه الغزوة منهم: جبير بن نفير الحضرمي، ووائلة بن الاسقع، وأبو أملة الباهلي، وعبد الله بن بسر المازني، وعبد بن عبيد السلمي، وهذا الاخير هو الذي وصف الجزيرة للخليفة عثمان. (انظر: الفتح ١٢٠/٢ و ١٢٢ و ١٢٣).

وساروا حتى رسوا على ساحل قبرس وأغاروا على نواحيها وغنموا الكثير من أهلها، حتى اضطر ملك الجزيرة أن يطلب الصلح من معاوية، فصالحه على أن يؤدي الروم إلى المسلمين في كل سنة سبعة آلاف ومائتي دينار^(١٥)، ويؤدوا للبيزنطيين مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم وبين ذلك، على أن لا يغيروهم ولا يقاتلوا من وراءهم ممن أرادهم من خلفهم، وعليهم أن يؤذوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم، وأن يضع إمام المسلمين عليهم بطريقاً^(١٦) منهم^(١٧). فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرس، ولم ينصروا عليهم. فلما كانت سنة ٣٢٢هـ/٦٥٣م أعانوا الروم على الغزاة في البحر براكب أعطوهم إياها، وأخلوا بشروط الصلح، فغزاهم معاوية سنة ٣٣هـ/٦٥٤م. في ٥٠٠ مركب^(١٨)، ففتح الجزيرة عنوة، حتى أقر أهلها على صلحهم، وبعث إليها باثني عشر ألفاً من أهل الديوان المكتبيين، فبنوا بها المساجد ونقل إليها جماعة من أهل بعلبك، وبنى بها مدينة، وأقاموا يُعطون الأغطية إلى أن توفي، وولي بعده ابنه «يزيد» فأقفل ذلك البعث وأعاد البعلبكيين وغيرهم من أهل الديوان، وأمر بهدم المدينة^(١٩).

فتح جزيرة أرواد

وكان حظ جزيرة أرواد الشامية، الواقعة بين طرابلس وجبله، أمام مدينة أنطرتوس^(٢٠) مثل حظ جزيرة قبرس، إذ تعرضت لحمليتين، كانت أولاهما بعد الحملة الأولى على قبرس، وذلك في سنة

١٥. الفتح لأبن أعمش ١١٩/٢، وفي فتوح البلدان، وتاريخ الطبري وغيره.

١٦. بطريق: بفتح الباء، هي الصيغة العربية للكلمة اللاتينية «باتريكوس» وقد أنشأ هذه الرتبة الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م) وهي رتبة لا تتصل بأي وظيفة، وكانت تمنح لمن يؤدي للدولة خدمات جليلة. وقد جرى الاصطلاح على أنها تدل على القائد عند البيزنطيين، كالمصطلحات الأخرى «دمشق» و«دوقس» (دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣١٣/٧).

١٧. فتوح البلدان ١٨١/١، الفتح لأبن أعمش ١١٩/٢، تاريخ الطبري ٢٦٢/٤ وهو ينقل رواية الغزوة عن محدثين من المدن «اللبنانية» بساحل الشام، منهم: «سليمان بن أبي كريمة الصيداوي» و«الوليد بن مسلم» و«الليث بن سعد الفارسي»، وجميعهم حدثوا بطرابلس وبيروت وصيدا، وقد ذكر الطبري أنهم «من مشيخة ساحل دمشق». تاريخ دمشق (المخطوط) ١٩٦/٣٦ تهذيب تاريخ دمشق ١٦٦/٢، الخراج ٣٠٦، الاموال لابن سلام ٢٥٣، ٢٥٤، شرح كتاب السير الكبير، للشيباني، إملاء السرخسي، تحقيق عبد العزيز احمد، ج ٢١٦٦/٥، طبعة معهد المخطوطات بالجامعة العربية ١٩٧٢.

١٨. فتوح البلدان ١٨١/١.

١٩. فتوح البلدان ١٨٢/١، وفي تاريخ أبي زرعة ١٨٤/١ أن الغزوة كانت سنة ٢٦هـ بقيادة أبي الاعور السلمي عمرو بن سفيان بن سليم. (و انظر: لإصالة لابن حجر ٥٤١/٢).

٢٠. انطرتوس: هي طرطوس الحالية، بلد من سواحل الشام، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية، وأول أعمال حصص، وقال أبو القاسم الدمشقي: من أعمال طرابلس مطلة على البحر في شرقي عرقة بينهما ثمانية فراسخ ولها برجان حصينان (معجم البلدان).

٢٩ هـ/٦٤٩م، انتهت بعقد معاهدة مع أهلها. أما الحملة الثانية فكانت في السنة التالية، وتم فيها فتح الجزيرة بالقوة وإحراق عاصمتها وقلعتها.

وحول فتح أرواد، لدينا روايتان، إحداهما للمثبجي، والأخرى لابن أعثم، فتقول رواية ابن أعثم، إن المسلمين أسروا من الروم رجلاً في بعض السواحل، فقالوا: من أين انت؟ فقال: من أرواد، فأتوا به إلى معاوية فجعل يسأله عن أرواد وموضعها من البحر، وهو يصفها له، ثم سیر أربعة آلاف رجل بقيادة «جنادة بن أبي أمية» (٢١)، فسار «جنادة» بطريق الساحل على البر، ثم حمل أصحابه في عشرين مركباً، ومعهم الرومي يدلهم على الجزيرة، حتى إذا قاربوها أشار عليهم بأن يرسوا في البحر على وجه الماء، حتى إذا أظلم الليل أبحروا حتى وافوا الجزيرة وأهلها غافلون، فنزلوا إلى البر وانتظروا حتى فتح أهل الجزيرة باب حصنهم، وباغتوهم بهجمة صاعقة وأعملوا القتل فيهم، والتزم السابقون بيوتهم كالنساء، فأقرهم «جنادة» في حصنهم على صلح بما أخذه منهم، وفرض عليهم الجزية، وعاد إلى معاوية غانماً (٢٢).

أما رواية «المثبجي» فتقول إن معاوية حين غزا قبرس بلغه أن الروم توجهوا لمقاتلته، فانسحب إلى «سورية» ونزل على «أرواد» وجهد الجهد كله فلم يصل إليها، فأنفذ أسقفاً يقال له «توما» وسألهم الانتقال عن الجزيرة والانصراف إلى الروم لينزلها العرب، ولكن أهل الجزيرة اعتقلوا الأسقف ولم يلتفتوا إلى رسالة معاوية. وآثر معاوية العودة إلى دمشق لدخول فصل الشتاء، وحين دخل الربيع رجع معاوية إلى الجزيرة في جيش عظيم ونزل عليها حتى ضيق على أهلها وأجبرهم على الإذعان لشروطه بالخروج من الجزيرة إلى «سورية» ليسكنوا حيث شاؤوا. وفي لهم معاوية بذلك، وبعد خروجهم أمر بهدم سور الجزيرة وطرح فيه النار (٢٣).

وأهم ما يلاحظ في فتح جزيرة أرواد التشابه القوي بين ظروف الفتح الأول وهذا في عهد الخلفاء الراشدين، وظروف الفتح الثاني في عهد المماليك، الذي تم عن طريق نائب السلطنة بطرابلس سنة ٧٠٢ هـ/١٣٠٢م (٢٤) مما يجعلنا نرتجح أن الحملة الأولى إلى الجزيرة انطلقت من طرابلس أو من غيرها من مدن «لبنان» الساحلية.

٢١. كان على غزو البحر أيام معاوية كلها من زمن الخليفة عثمان إلى أيام يزيد بن معاوية، إلا ما كان من أيام الفتنة حتى توفي سنة ٥٨ هـ وقيل ٦٧ هـ وقيل سنة ٨٠ هـ. انظر: الكامل في التاريخ ٤/٤٥٦، والتاريخ الكبير للبخاري، مجلد ٢ ق ١/٢٣٢، والتاريخ الصغير له ١٦ و٧٢. وقال إنه كان في البحر ٦ سنين وفي وفاته نظر. والطبقات للزدي ٧٩٠/٢، ومشاهير علماء الامصار لابن حبان ١١٢، تجريد أسماء الصحابة للذهبي ٨٩/١ رقم ٨٣٩.

٢٢. الفتح لابن أعثم ١٤٥/٢، ١٤٦.

٢٣. المنتخب من تاريخ المنبجي، ٥٥، ٥٦.

٢٤. انظر: كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، عصر المماليك، ج ٢/١٣٣/١٣٦ فيه مصادر الفتح الثاني لأرواد، للمقارنة مع الفتح الأول لها.

فتح جزيرة رودس

وفي سنة ٣٣هـ/٦٥٤م هاجم المسلمون جزيرة رودس واستولوا عليها بالقوة (٢٥)، وفي ذلك تحدّث ابن أعمش فقال: إن معاوية كتب إلى الخليفة عثمان يستأذنه في فتح جزيرة أخرى بعد قبرس، فأحجم الخليفة عن الموافقة أول الأمر، ولكن أصحابه أشاروا عليه بالموافقة بعد أن أثبتت غزوة قبرس نجاحها، واجترأ المسلمون على ركوب البحر، فوافق عثمان وكتب إلى معاوية: «إنني قد أذنت لك فيما سألت، فاتق الله ولا تُضَيِّح الحزم، وإن خُوفت من البحر شيئاً فلا تركبته فإن هوله عظيم»، فنادى معاوية في الناس وأمرهم بالمسير إلى مدينة صيدا للانطلاق منها إلى رودس، فاجتمع المسلمون فيها مع المراكب، وخرج معاوية بهم يتقدّمهم في مركب وصحبه أشد المقاتلة، حتى بلغوا الجزيرة وقتلوا أهلها الذين خرجوا بمراكبهم، وهزموهم، ثم نزلوا على الجزيرة ودخلوها عنوة وقتلوا من فيها، واحتازوا الغنائم الكثيرة، حتى خلت الجزيرة من سكانها. وبقيت خراباً يباباً إلى خلافة معاوية ٤١هـ/٦٦١م (٢٦).

على أنّ المسلمين توجّوا نشاطهم البحري بالانتصار الرائع في الموقعة التي اشتهرت باسم «ذات الصواري» والتي ما تزال إلى الآن تُعتبر من أهم المعارك البحرية الفاصلة في التاريخ. وبعدها أصبح «بحر الروم» يُعرف «ببحر الشام» عند الساحل الشرقي.

موقعة ذات الصواري

نتيجة للانتصارات المتتالية التي حقّقها المسلمون في البحر المتوسط، تشجّع الخليفة عثمان وأعطى أوامره إلى معاوية بتحضير الأسطول ليكون مستعداً لمواجهة الأسطول البيزنطي، بعد أن علم أنّ الامبراطور قد عزم على غزو المسلمين في البحر فأمر معاوية بإعداد أسطول ضخم من السفن في ميناء طرابلس، وبحشد الجنود والعتاد، إلى جانب حشد بري ضخم أخذ يجمعه في دمشق، توطئه لتسيير حملة برية — بحرية.

وفيما كانت الاستعدادات على قدم وساق في مدينتي طرابلس ودمشق، إذ بشائين من نصارى طرابلس — كانا أخوين لرجل يقال له «بقناطر» (٢٧) ويعملان في خدمة العرب، يقومان بعملية تخريب واسعة استهدفت تعطيل استعدادات معاوية والقضاء عليها، إذ أنهما عندما نظرا إلى ما أعدّه معاوية في طرابلس تفاعلت الحميّة في نفسيهما، فتسلّلا إلى سجن المدينة واستطاعا أن يكشرا أبوابه ويُطلقا منه سراح جميع من فيه من المعتقلين من محاربي الروم. ثم انطلق الجميع إلى حيث يقيم عامل

٢٥. فتح البلدان ٢/٢٧٨.

٢٦. الفتح لابن أعمش، ٢/١٢٤-١٢٧.

٢٧. أو «بقنطر» أو «بقنطر» كما في بعض النسخ.

المدينة فهاجوا داره وقتلوه (٢٨) ثم تسارعوا بعد ذلك إلى حيث ترسو سفن الأسطول المستعدة للبحار، فأشعلوا فيها النيران وأحرقوا كل ما كان فيها من عتاد حربيّ، ثم أخذوا إحدى السفن وفروا بها إلى شاطيء أسية الصغرى ميممين نحو القسطنطينية وأذاعوا هناك أخبار الحشود الإسلامية، فتناهى ذلك إلى أسماع الامبراطور «قنسطانز الثاني» فراح يعمل بدوره على إعداد سفن أسطوله وجيشه لمواجهة معاوية .

ومن المرجح أن العملية التخريبية تمت في فصل الشتاء، وهو الفصل الذي يقفل فيه الجُند المرابطون في طرابلس إلى دمشق، حيث لا يبقى في المدينة سوى عاملها وحفنة من الجُند يسيرة (٢١) . ومهما يكن من أمر، فإنّ معاوية حشد في البرّ عند دمشق جيشاً وعتاداً يفوق ما فقدته في طرابلس، ولم تشه تلك الخيانة، وذلك العمل التخريبي عن متابعة استعداداته، بل راح بعزم وتصميم يعيد بناء سفن جديدة في طرابلس . وعندما تمّ ذلك خرج على رأس قوّاته البرية من دمشق في سنة ٣٤هـ/٦٥٥م وأبحرت في الوقت نفسه السفن من ميناء طرابلس بقيادة أمير البحر بساحل الشام «بُسر بن أبي أرطاة» (٣٠)، وانضمت إلى سفن الأسطول المصري بقيادة أمير البحر «عبد الله بن سعد بن أبي السرح»، واجتمع أهل الشام وأهل مصر بساحل مدينة عكا، وانطلقوا بأسطولهم وهم يحملون الخيل في المراكب، في جمع عظيم من العدة والعدد والسلاح والطعام، واختلف المؤرخون في تقدير مجموع المراكب والسفن، فذكر «ابن عبد الحكم» و«الكندي» أنّ العدد كان (٢٠٠) سفينة (٣١) وذكر «البلاذري» و«ابن أعمش» (٥٠٠) سفينة (٣٢) فيما لم يذكر «الطبري» رقماً معيّنأ .

وصل معاوية بقوّاته الى مدينة قيصرية (٣٣) في كبا دو كيا (٣٤) بأسية الصغرى الواقعة خلف مرتفعات طوروس، في حين كانت السفن الإسلامية تقترب من مياه الدولة البيزنطية عند الساحل

٢٨ . المنتخب من تاريخ المنبجي ٥٩، ٦٠، خطط الشام لمحمد كرد علي ١٤٢/١ ٣٦/٥، دمشق ١٩٢٥، الأمويون والبيزنطيون-الإبراهيم أحمد العدوي- ص ١٠٢ .

وقد أتى كل من البلاذري وابن عساكر وابن الأثير على رواية مشابهة لهذه التفاصيل في زمن عبد الملك بن مروان. وسيأتي تفصيل ذلك. انظر كتابنا: تاريخ طرابلس ١/١٠١، ١٠٢ .

٢٩ . فتوح البلدان ١/١٥١ .

٣٠ . حاضر العالم الاسلامي، مقالة محاصرات العرب للقسطنطينية، شكيب أرسلان، ج ١/٢١٤ .

٣١ . فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٩٢، ولاية مصر للكندي، ص ٣٦ .

٣٢ . فتوح البلدان ١/١٨١، الفتوح لابن أعمش ٢/١٢٨ .

٣٣ . قيصرية أو قيسارية : اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد امبراطوريتهم بالشرق وشمالى إفريقيا واسبانيا أيضاً . ومن هذه قيسارية فلسطين الواقعة على الشاطيء على مسافة ٢٤ ميلاً جنوبى حيفا . ومنها قيصرية الروم وهي المقصودة هنا، وتقع على نهر قاراصو أحد فروع نهر قزلة .

٣٤ . كبادوكيا : كورة بإقليم أرمينية به نغر ملطية . (معجم الخريطة التاريخية، أمين واصف، ص ١٠٣، طبعة مصر ١٩١٦) .

الجنوبي لآسية الصغرى، وكان الامبراطور البيزنطي قد علم عند ذلك بأبناء الحملة العربية فخرج علي رأس أسطوله الذي كان عدد قطعه يتراوح بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ سفينة (٣٥) فكان الروم في جمع «لم يجتمع لهم مثله قط»، من المقاتلة والزراقة (٣٦) والنيران والنفط.

التقى الأسطولان قرب شاطيء «ليكيا» عند ميناء «فوينكس» (٣٧) في شهر المحرم أول سنة ٣٤هـ (٣٨) وبدا للمسلمين أنّ الغلبة ستكون لعدوّهم، إذ عندما شاهدوا الأسطول البيزنطي، راعهم منظره، ولم يكن قد سبق لهم أن دخلوا في معركة بحرية ضدّ أسطول ضخم كهذا، وعبر أحد المحاربين المسلمين عن شعوره بالرهبة من السفن البيزنطية بقوله: «فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط» (٣٩).

كانت الرياح في ذلك الوقت معاكسة لاشرعة السفن العربية، فأثر المسلمون التريث قبل الدخول في القتال حتى تهدأ الرياح، وأرسوا سفنهم، وأرسي البيزنطيون قبالتهم، ونزل إلى البر «بئسر بن أبي أرطاة» (٤٠) في نصف القوات الإسلامية، وبقي النصف الآخر في السفن مع عبد الله بن

٣٥. ذكر الطبري أنها بين ٥٠٠ - ٦٠٠ سفينة (ج ٢٩١/٤٠) ونقل عنه ابن الاثير (ج ١١٧/٣) أما الكندي والمسعودي فيقولان إنها ١٠٠٠ سفينة، وقيل ٧٠٠ سفينة (ولاية مصر، ص ٣٦، التنبيه والإشراف للمسعودي، ص ١٣٥) ويجعلها ابن أعثم قريباً من ألف مركب. (الفتح ١٢٨/٢).

٣٦. الزراقة: هم الذين ينفخون النيران والنفط بالمزاريق، كالأنابيب. وقد تحرفت الكلمة في النسخة العربية للفتح إلى «الزرافات»، وأشير في الحاشية أنها وردت في النسخة المترجمة الى الفارسية «الزوارق». والصحيح ما أثبتناه (ج ١٢٨/٢).

٣٧. فوينكس: ميناء على الساحل الجنوبي من آسية الصغرى غربي خليج أنطاليا (أتاليا) بينه وبين جزيرة رودس. اسمه الآن «فينيكه».

ومما تجدر الاشارة إليه أنّ المصادر العربية القديمة لم تحدد المكان الذي دارت الموقعة عنده مع أنّ المؤرخ «ابن عبد الحكم» انفرد بالقول بأنّ جيش المسلمين انقسم الى قسمين، منه قسم نزل إلى البر، وبقي قسم آخر في السفن (فتح مصر ١٩٢) وذكر بعض الباحثين المحدثين أنّ الموقعة سُميت «ذا الصواري» (بحذف التاء) نسبة إلى المكان الذي جرت الموقعة عنده لأنه كان مكتظاً بأشجار السرو. (البحرية الإسلامية في مصر والشام: أحمد مختار العبادي، وسيد عبد العزيز سالم، ص ٣٠، بيروت ١٩٧٢). وأقول: إنّ الموقعة اشتهرت باسم «ذات الصواري» (بالصاد) أو «السواري» (بالسين)، وقيل إنها سُميت كذلك لكثرة صواري السفن التي ظهرت فيها وهي الأدقال (التنبيه والإشراف للمسعودي، ص ١٣٥) وانظر: ولاية مصر للكندي، ص ٣٦ و٣٧، بيروت ١٩٥٩، وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين، فيليب حتي، ج ٢/٢٦).

٣٨. انساب الاشراف للبلاذري، نشرة Goitein، ج ٥/٥٠، طبعة القدس ١٩٣٦.

٣٩. تاريخ الطبري ٤٩١/٤، الفتح لابن أعثم ١٢٩/٢ والراوي هو «مالك بن أوس بن الحدثان».

٤٠. انظر ترجمته ومصادرها في كتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان، ج ٢/١٠٠٨، رقم الترجمة ٣٣٦.

سعد (٤١)، وبات المسلمون ليلتهم يُصلّون و يقرأون القرآن و يدعون الله ، و بات البيزنطيون يضربون بالتواقيس و يشربون الخمر، و ينفخون في الصفارات .

وفي صباح اليوم التالي عرض المسلمون على البيزنطيين أن يكون القتال على الساحل وإن شاءوا فبالبحر، وكان هذا العرض يزيد من ثقة البيزنطيين في قدرتهم ودربتهم في القتال بالبحر، إذ كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم بدو رُحّل يجيدون ركوب الجمال أكثر من أي شيء آخر، ولذلك فإنهم رفضوا القتال على الساحل وقالوا: «الماء، الماء» و«البحريننا و بينكم» (٤٢) .

وبدأت المعركة بأن أخذ المسلمون يستخدمون القسي والسهام حتى نفذت ذخيرتهم منها، ولم يحاول البيزنطيون الإقتراب بسفنتهم، عملاً بخطة «قنسطانز» الذي كان يشرف على إدارة المعركة بنفسه، إذ اضطر المسلمون عند ذلك إلى قذفهم بالرماح والحجارة، بعد أن نفذت سهامهم، واعتقد البيزنطيون أن التصرف حليفهم وانهم لن يحتاجوا إلا إلى هجمة واحدة حتى يحطموا الأسطول الإسلامي، وردّد «قنسطانز» قوله: «غلبت الروم» ولكنّ المسلمين عندما رأوا أن جهدهم كلّ ضاع سدى، وأنّ عدوهم يتفادى الاصطدام بهم عن طريق المراوغة لإنهاكهم، قاموا بتغيير خطة القتال، حيث ربطوا سفنهم إلى بعضها واصطفوا على ظهورها مُشهرين السيوف والخناجر، وقذفوا سفن البيزنطيين بالخطاطيف (٤٣) والكلايب (٤٤) وجذبوها إليهم، و بذلك تحوّلت ظهور السفن للطرفين إلى ميدان قتال، وأمام هذا الهجوم المفاجيء ارتبكت القيادة البيزنطية، وانقلبت خططها رأساً على عقب، وأفلت الزمام من الامبراطور قنسطانز، وأيقن حينئذ بأن الهزيمة ستحلّ— ولا ريب— بقواته، لمعرفته بأنّ العرب أكثر ثباتاً في قتال من هذا النوع .

ولم يضيع المسلمون فرصة الارتباك والفوضى التي بدت في صفوف البيزنطيين حيث كان هؤلاء «يقاتلون على غير صفوف»، فاهتبل المسلمون الفرصة ووثبوا إلى السفن البيزنطية والتحموا بالعدو وأخذوا يكيلون الضربات و يقاتلون «أشدّ القتال»، ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن، ويتواجأون بالخناجر، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركماً (٤٥)، واقتتل الفريقان قتالاً لم يُسمع بمثله، وليس بينهم رمية سهم ولا

٤١. فتوح مصر، ص ٢٩٠ .

٤٢. تاريخ الطبري، ج ٤ / ٢٩٠، الفتوح لابن أعثم ١٢٩/٢ .

٤٣. الخطاطيف: جمع خطاف، وهي حديدة حجناء تعقل بها البكرة من جانبها فيها المحور (لسان العرب).

٤٤. الكلايب: جمع كلاب. حديدة معقوفة كالخطاف. (القاموس المحيط).

٤٥. تاريخ الطبري ٢٩٠/٤ .

طعنة رمح، إلا الضرب بالسيوف والبواتر والخناجر والسكاكين حتى احمرّ ماء البحر» (٤٦)، ووصف أحد شهود هذه الموقعة كثرة القتل فقال: «رأيت الساحل حيث تضرب الريح الموج، وإنّ عليه لمثل الظرب (٤٧) العظيم من جُثث الرجال، وإنّ الدم لَغَالِب على الماء، ولقد قُتِل يومئذٍ من المسلمين بشر كثير (٤٨)، وقُتِل من الكُفّار ما لا يُحصى» (٤٩).

وأبدى المسلمون والبيزنطيون، على السواء، في هذه الموقعة ضرواً من الشجاعة والتفاني في التضحية سطرها المؤرخون في المراجع العربية واليونانية، ومن ذلك أنّ البيزنطيين قذفوا خطأً على سفينة أمير البحر «عبد الله بن سعد» فعلق بها، وأخذوا يجذبونها إليهم مستهدين الإطاحة بالقيادة العربية التي كان النصر قد بدأ يمشي في ركابها، وكاد البيزنطيون ينجحون في خطتهم، وأصبح القائد العربي على وشك الوقوع بين أيديهم، لولا أنّ رمى أحد الجنود المسلمين — ويُدعى «علقمة بن يزيد الغطيفي» — بنفسه على سلاسل الخنطاف الذي كان يجذب سفينة القائد، وضرب السلسلة بسيفه فقطعها (٥٠)، وأظهر بذلك أعظم آيات التفاني نحو قائده، وأنقذه ومن معه من الوقوع في قبضة الأعداء.

وفي مقابل ذلك، أبدى البيزنطيون بدورهم تفانياً في الدفاع عن الامبراطور قنسطانز عندما اقترب المسلمون من سفينته، فقيل إنّ «أحد الشابين النصرانيين اللذين كانا في طرابلس، وقاما بعملية التخريب قد واصل دوره ضد المسلمين، حيث أسرع بحمل الامبراطور من سفينته الملكية إلى سفينة أخرى، بعد أن قام الامبراطور بالتمكّر، إذ استبدل بملابسه ملابس ابن أحد ضاربي الطبول في فرقة السفينة الملكية» (٥١)، واستطاع الشاب النصراني أن يفر بالامبراطور من المعركة بعد أن أصابته جراحات كثيرة في رأسه وجسده (٥٢)، مكث يعاني منها حيناً، وكادت سفينته تغرق وهو يهرب. وصاح «عبد الله بن سعد» بالقبض من النواتية الذين خرجوا معه من مصر: «ألا من قتل رجلاً من الروم

٤٦. الفتح لابن أعثم ١٢٩/٢.

٤٧. الظرب أو الظربان: حيوان من اللواحم في حجم القط. والمقصود هنا أنّ الجثث كانت مقطعة إلى أشلاء وكتل من اللحم على وجه الماء. وقيل الظرب: هو الجبل الصغير (لسان العرب) وقد فسر ابن أعثم المعنى بقوله: «حتى صار الساحل كأنّ عليه مثل التلول في جثث الرجال»، «الفتح ١٢٩/٢».

٤٨. ذهب في هذه الموقعة عين «علي بن رباح اللخمي» (سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠٢/٥).

٤٩. قيل إن قتل البيزنطيين بلغوا (٢٠) ألفاً. (الحدود الإسلامية البيزنطية، ج ٣٢٩/١ نقلاً عن «ميشيل السوري»).

٥٠. فتح مصر لابن عبد الحكم، ص ١٩٠.

٥١. The Chronicle of Theophanes, trans. by H.

Turtledove, Philadelphia, 1982, p. 45.

٥٢. الفتح لابن أعثم ١٣٠/٢.

فله ثلاثة دنانين»، فقيل إنَّ القبط قتلوا منهم في ذلك اليوم (٧٠٠) رجل (٥٣)، وقفز الجند المسلمون إلى السفينة الملكية واقتلوا مع الحرس الإمبراطوري، وهاجوا حامل ثوب الإمبراطور وقتلوه ظناً منهم أنه هو (٥٤)، وظن من بقي من المقاتلة البيزنطيين أن إمبراطورهم قُتل، فانحلت عزائمهم بعد أن أظهروا يومئذ صبراً لم يصبروا في موطن مثله، ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام، وقتلوا من البيزنطيين مقتلة عظيمة، وتقطعت مراكبهم يئمة و يسرة فما التقى منها مركبان في موضع واحد، «ولم ينج منهم إلا الشريد» (٥٥).

بيد أنَّ الإمبراطور لم يتعظ بما أصابه من هزيمة مُنكرة، إذ عاد في السنة التالية ٣٥هـ/٦٥٦ م. فجهز أسطولاً ضخماً؛ قيل إنه من ألف مركب (٥٦)، وقيل من ألفين ومائتي مركب (٥٧) جمع فيه أهل مملكته ومن كان يسكن الضواحي والسواحل، وخرج في خلقٍ كثير يريد مهاجمة القسطنطينية من أرض مصر، ولكنَّ رياحاً عاصفة ضربت مراكب الروم «فكان الموج يرفع المركب في الهواء ثم يلعب بها لعباً» (٥٨)، وتدخل القدر ثانية لتفرق جميع مراكب الروم، وينجو الإمبراطور بأعجوبة، حيث ألقته الرياح إلى جزيرة صقلية (٥٩)، واتخذ من عاصمتها «سيراكوزا» مقراً له، ولبث هناك يتحين الفرصة للانتقام من المسلمين، إلى أن وقعت الفتنة الكبرى بين عليّ بن أبي طالب ومعاوية أيام صفين سنة ٣٧هـ/٦٥٨ م وكان المسلمون قد امتنعوا عن الغزو في البحر والبر بسبب ذلك (٦٠) ولحق بالساحل جماعة من المسلمين بعيداً عن حمأة الصراع على الخلافة، فكان منهم «يزيد بن الأسود» (٦١) فاستعدّ

٥٣. الفتح لابن أعمش ٢/١٣٠.

٥٤. الأمويون والبيزنطيون - د. العدوي ١٠٥.

٥٥. تاريخ الطبري، ٤/٢٩٢، الفتح لابن أعمش ٢/١٣٠.

٥٦. تاريخ الطبري ٤/٤٤١، التنبيه والإشراف للمسعودي ١٣٥، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/١٩٩، فتح مصر لابن عبد الحكم ١٩٠ و١٩١، فتح الشام ومصر للواقدي (عن المكتبة الصقلية) لميخائيل أماري، ص ١٩٨ و١٩٩، لبيسك ١٨٥٧، والطبري ينقل عن الواقدي عن هشام بن الغاز الصيداوي.

٥٧. الفتح لابن أعمش ٢/١٣١.

٥٨. الفتح ٢/١٣١.

٥٩. الطبري ٤/٤٤١، المسعودي ١٣٥، ابن الأثير ٣/١٩٩، ابن عبد الحكم ١٩٠ و١٩١، الواقدي ١٩٨ و١٩٩، ابن أعمش ٢/١٣١.

٦٠. مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي -، تحقيق محمد عمي الدين عبد الحميد، ج ٢/٢٨٧ - طبعة القاهرة ١٩٦٤.

٦١. المعرفة والتاريخ - أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي (ت ٢٧٧هـ) - رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي، تحقيق أكرم ضياء العمري - ج ٢/٣٨٤، ٣٨٥، طبعة بغداد ١٩٧٥.

الامبراطور للخروج بحملة جديدة إلى سواحل الشام، و يبدو أنّ عيوناً لمعاوية في بلاد الروم أسرعوا يحيطونه بالأخبار المقلقة، فبادر إلى إرسال كتاب إلى الامبراطور يهدده فيه ويتوعده بقوله: «تالله لئن تمت (٦٢) على ما بلغني من عزمك لأصالحن صاحبي (٦٣) ولأكونن مقدمته اليك، فلأجعلن القسطنطينية البحراء حمة سوداء، ولأنتزعنك من المُلْك انتزاع الاصطقلينة (٦٤) ولأرُدَّنك أريساً (٦٥) من الأ رارسة ترعى الدّوابل» (٦٦) .

وفي الواقع، فإن الامبراطور تحقق من أنّ معاوية صادق في تهديده، ولذلك اطرح فكرة الخروج في حملته، ولجأ إلى التفاوض مع معاوية بالصلح، فكان المختلف بينهما غلام كان لمعاوية يُدعى «فناق الرومي» (٦٧) . وكانت الظروف السياسية تُملي على معاوية أن ينجح إلى السلم مع الروم ليتفرغ لخصمه في الداخل، وقد أشار عليه «عمرو بن العاص» بذلك (٦٨) ولذا صالحهم على أن يُؤدّي إليهم مائة ألف دينار، وأن يسلم الطرفان رهائن لبعضهما كضمان لتنفيذ هذا الاتفاق واستمراريته، فأخذ معاوية رهائن من الروم وجعلهم في مدينة بعلبك، ولكنّ الروم غدروا برهائن المسلمين وقتلوه، فلما

٦٢ . لعلها «صممت» (بالصاد).

٦٣ . يقصد : الامام عليّ بن أبي طالب .

٦٤ . الاصطقلينة : قال ثعلب عن ابن الأعرابي : الاصطقلين، الجزر الذي يؤكل . وهي لغة شامية . الواحدة إصطقلينة . قال شمر : الاصطقلينة كالجزرة وليست بعربية محضة لأن الصاد والطاء لا تكادان تجتمعان في محض كلام العرب . (تهذيب اللغة— لأبي منصور الأزهري ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني— ح ٢٧٢/١٢ ، مصر) .

٦٥ . الأريس : الأكار أو الفلاح .

٦٦ . وفي رواية : «كما كنت ترعى الخنايص» (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة— محمد حيد الله— ص ٤٠٣ و٤٠٤— بيروت ١٩٦٩) وهي بمعنى الدوابل أي صغار الخنازير .

٦٧ . روج الذهب للمسعودي ٣٢٩/١ .

٦٨ . الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار،— ص ٣٠١، أنساب الأشراف للبلاذري، ق ٤، ج ٤٧/١، تحقيق إحسان عباس— بيروت ١٩٧٩ وفيه إن معاوية قال لعمر بن العاص، وكان عنده بدمشق: قد جاشت الروم، وهرب عامل من عمالنا، وخرج أهل السجن، قال عمرو: فلا يكبرن عليك ذلك، أما الروم فأرضهم بشيء تردهم به عنك... فضل .

بلغ معاوية ذلك أبى هو والمسلمون «أن يستحلوا قتل من في أيديهم من رهنهم، وخلوا سبيلهم، واستفتحوا بذلك عليهم، وقالوا: «وفاء بغدر، خير من غدر بغدر» (٦١).

الغزوات في عهد معاوية

(٤١- ٦٠هـ/٦٦١- ٦٨٠م)

منذ أن قُتل عثمان واختلف الناس، لم تكن للناس غازية ولا صائفة، حتى اجتمعت الأمة على معاوية سنة أربعين، وسموها سنة الجماعة (٧٠). وما إن بُويع معاوية بالخلافة في الكوفة ورجع إلى الشام في سنة ٤١هـ/ ٦٦٢م حتى بلغه أن ملك الروم قد زحف في جُموع كثيرة، فخاف أن يشغله عما يحتاج إلى تدبيره وإحكامه، فوجه إليه «حبيب بن مسلمة الفهري» (٧١) والي الجرجومة، فصالحه على مائة ألف دينار، فكان بذلك أول من صالح الروم في سنة ٤١ أو ٤٢هـ. ولما استقام له الأمر، أغزى

٦٩. فتوح البلدان ١٨٨/١، مروج الذهب ٣٨٧/٢، الفخري في الآداب السلطانية، لابن الطقطقي، ص ٨٣، ٨٤، طبعة أوروبا، الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي الحسن الخشعمي السهيلي (٥٠٨- ٥٨١هـ)، تقديم طه عبد الرؤوف سعد، -ج ٣/٢٧٨، طبعة دار المعرفة، بيروت، نهاية الارب في فنون الادب - للنويري، ج ٦/١٦٤- مجموعة الوثائق، ص ٤٠٣.

وجاء في «شرح كتاب السير الكبير» للشيباني -ج ٥/١٧٥٣: «ولو كانوا شرطوا في أصل المودعة أنهم - أي الروم - إن غدوا فقتلوا رهن المسلمين فدماهم رهنهم لنا لحلال، ثم قتلوا هم رهننا فإن دماء رهنهم لا تحل لنا، لما روي أن هذه الحادثة وقعت في زمن معاوية رضي الله تعالى عنه فأجمع هو والمسلمون معه على ألا يقتلوا رهن المشركين». وقال الامام الأوزاعي: لا تقتل الرهن بغدرهم.

وجاء في كتاب «الاموال» لابن سلام - ص ٢٣٦، ٢٣٧: كان بين معاوية وناس من الروم عهد، فكان يسير في بلادهم، فاراد إذا انقضى العهد أن يغير عليهم، فسمع رجلاً يقول: «الله أكبر، وفاء بغدر» فقال: من هذا، قالوا: عمرو بن عنبسة، فقال عمرو: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحل عقده حتى ينبذ إليهم على سواء».

وقال أبو داود الطيالسي في «المسند» - ص ١٥٧ رقم ١١٥٥ - طبعة حيدرآباد بالهند ١٣٢١هـ: حدثنا شعبة عن أبي الفيض الشامي قال: سمعت سليم بن عامر وهو يقول: كان بين معاوية وبين الروم عهد فكان يسير في بلادهم حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم، وإذا رجل على دابة أو على فرس، ويقول: «الله أكبر وفاء لاغدر - مرتين - فإذا هو عمرو بن عنبسة (كذا) السلولي، فقال له معاوية: ما تقول؟ قال عمرو: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كان بينه وبين قوم فلا يحل عقد لا يشهدا حتى يمضي أمرها أو ينبذها إليهم على سواء». فرجع معاوية بالناس.

٧٠. تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ج ١/١٨٨.

٧١. تاريخ خليفة - ص ٢٠٥، تاريخ يعقوبي ج ٢/٢١٧ و ٢٣٩.

أمراء الشام على الصوائف (٧٢) في البر والبحر، فكانوا يخرجون للغزو في كل سنة، فقد ذكر «سعيد بن عبد العزيز التنوخي البيروتي» (٧٣) أنّ معاوية أغزى الصوائف وشتاهم بأرض الروم ست عشرة صائفة، تصيف بها وتشتو ثم تقفل وتدخل معقبتها (٧٤). وكان «بُسرين أرتاة» أول من غزا الروم في خلافة معاوية سنة ٤٢ هـ/٦٦٣ م فهزمهم هزيمة مُنكرة وقتل عدّة من البطارقة (٧٥) فطلب ملك الروم تجديد الصلح مع معاوية على أن يضاعف المال، فلم يجبه إلى ذلك (٧٦) وعاد «بُسرين» فغزاهم في البحر سنتين متواليتين ٤٣ و٤٤ هـ حيث شتا بأرضهم وبلغ القسطنطينية. وخرج «عقبة بن عامر بن عبس الجهني» - وهو صحابي مشهور - لغزو رودس في سنة ٤٧ هـ/٦٦٨ م (٧٧) وقام الروم في مقابل ذلك بغزوة وصلوا فيها إلى السواحل في سنة ٤٩ هـ/٦٦٩ م (٧٨).

ويلاحظ أنّ البلاذري «لم يورد تفصيلاً لغزوة الروم هذه، كما لم يُشر إليها غيره من المؤرخين المسلمين. ولكن أشار إليها المؤرخ اليوناني «توافانس» المتوفى سنة ٨١٨ م فقال: «في سنة ٦٦٩ للمسيح دخل المردة لبنان واحتلوا كل ما يقع بين الجبل الأسود والمدينة المقدسة. وانضم إليهم كثير من أبناء البلاد والعيبد والأسرى، فبلغ عددهم في مدة وجيزة عدّة آلاف» (٧٩).

٧٢. عُرفت غزوات المسلمين في وقت مبكر بالصائفة والشتية والربيعية وقد ذكرها «قدامة بن جعفر» فقال: «إنّ أجهدها ممن يعرفه أهل الخبرة من الثغرين أنّ تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوماً وهي بقية أيار وعشرة من حزيران، فانهم يجدون الكلاً في بلد الروم ممكناً وكان دوابهم ترتب ربيعاً ثانياً ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً، وهي بقية حزيران، وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوماً. فأما الشتواتي فإني رأيتهم جميعاً يقولون إنّ كان لا بد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك في آخر سباط (شباط) فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي في آذار فإنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواباً، ويجدون مواشيهم كثيرة، ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتساقون». (نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خردادبة، ص ٢٥٩، نشرة دي غويه - بريل ١٨٨٩).

٧٣. كان فقيه أهل دمشق والشام ومفتيهم بعد الأوزاعي. ولد سنة ٩٠ وتوفي سنة ١٦٧ هـ، انظر: ترجمته ومصادرها في كتابنا: «موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ٢/٢٨٠ - ٢٨٣ رقم ٦٢٠».

٧٤. تاريخ أبي زرعة ١٨٨/١.

٧٥. المنتخب من تاريخ المنجي، ص ٦٦، نهاية الأرب للتويري - ج ٢٠/٢٦٥.

٧٦. تاريخ اليقوبي ٢١٧/٢.

٧٧. تاريخ اليقوبي ٢٣٩/٢، تاريخ الطبري ١٨١/٥، ٢١٢، نهاية الأرب ٢٠/٢٦٦.

٧٨. فتوح البلدان ١/١٤٠.

٧٩. تاريخ الموارنة، بطرس ضو - ج ١/٢٨١، بيروت ١٩٧٠.

وانظر: Theophanes ص: ٥٣

ويبدو أنّ هذه الغزوة البيزنطية لم تلبث أن تراجعت دون أن تحدث أثراً هاماً ، ولكنها نبهت معاوية إلى ضرورة الاهتمام بتحصين المدن الساحلية ، فأمر بعدها بجمع الصناع والتجارين فجمعوا ورتبهم في السواحل (٨٠) وسير قواده لقتال الروم ، فشتا بأرضهم «مالك بن هبيرة السكوني» ، وغزاهم في البحر «يزيد بن شجرة الرهاوي» ، وشتا بأهل الشام ، وفيهم «أبو فراس الشعباني» و«أبو سعد الخير» صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨١) كما غزاهم «يزيد بن معاوية» حتى بلغ القسطنطينية ، ومعه «ابن عباس» و «ابن عمر» و«ابن الزبير» و«أبو أيوب الانصاري» . وكانت هذه الغزوات لها في سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م (٨٢) مما يؤكد أنّ غزوة «المردة» إلى «لبنان» التي ذكرها «توفانوس» لم تكن في تلك الخطورة التي بالغ في وصفها .

فقد ذكر «البلاذري» وغيره أنّ «معاوية» كان وجه جيشاً إلى بلاد الروم ليغزو الصائفة ، فأصابهم جذري ، فمات أكثر المسلمين ، وكان ابنه «يزيد» بدير مران مع زوجته «أم كلثوم» ، فبلغه خبرهم وما نزل بهم من بلاء ، فقال في ذلك شعراً ولم يُبال بما لاقاه المسلمون ، فبلغ شعره أباه ، فقال : أجل ، والله ليلحقن بهم فليصيبه ما أصابهم ، فخرج «يزيد» بجماعة من جُند بعلبك وأنطاكية حتى لحق بهم ، وغزا حتى بلغ القسطنطينية وهزم الروم ، وضرب بابها بعمود حديد كان في يده فهشمه حتى انخرق (٨٣) وكان معاوية قد ولى «عبد الله بن مكرز القرشي العامري» على غزو البحر من الشام ، فخرج في غزوة «يزيد» هذه سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م (٨٤) .

وتتابعت الغزوات الإسلامية على السواحل البيزنطية ، فكان يتناوب على الغزو في البحر عدد من القادة والأمراء والغزاة ، برز منهم في سواحل الشام ، منذ عهد الخليفة عمر : «عبد الله بن قيس الجامي» ، فكان أميراً على مدن الساحل وثغوره منذ سنة ١٧ هـ . ثم أصبح غازياً في عهد معاوية ، وقيل إنه غزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة في البحر ، ولم يفرق فيها أحد ولم يُثكب . وورد ذكره في

٨٠ . فتوح البلدان ١/١٤٠ .

٨١ . الكنى والأسماء ، لأبي بشر محمد بن حنّاد الدولابي (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) ، ج ١/٣٥ ، طبعة حيدرآباد ١٣٢٢ هـ .

٨٢ . تاريخ الطبري ٥/٢٣٢ ، الكامل في التاريخ ٣/٤٥٨ و ٤٥٩ .

٨٣ . أنساب الأشراف ، طبعة القدس ١٩٣٨ ، ق ٢ ، ج ٤/٣ ، الأغاني لأبي الفرج ١٧/٢١٠ ، تاريخ يعقوب ٢/٢٢٩ ، و ٢٤٠ ، جهرة أنساب العرب لابن حزم ، ص ٢٨٣ ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧ .

٨٤ . تاريخ دمشق ، تحقيق سكيئة الشهابي ، ج ٣٦/١٧٣ ، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٦ .

حوادث سنة ٣٥ هـ. في غزوة صائفة، وفي سنة ٥٥ هـ في غزوة شاتية، وفي سنة ٥٧ هـ في غزوة شاتية أيضاً، وأصيب فيها وحده بأرض الروم (٨٥).

ومن برز في عهد معاوية: «بُسر بن أرطاة» (٨٦)، و«مالك بن هبيرة السكوني» (٨٧) و«يزيد بن شجرة الرهاوي» (٨٨)، و«عبد الله بن مكرز بن الأخيف القرشي العامري» (٨٩)، و«فضالة بن عبيد الانصاري» (٩٠)، و«أبو طلحة زيد بن سهل الانصاري» (٩١)، و«عياض بن الحارث» (٩٢)، و«جنادة ابن أمية الأزدي الدوسي»، وهذا كان على غزو البحر أيام معاوية كلها من زمن الخليفة عثمان إلى أيام «يزيد بن معاوية» إلا ما كان من أيام الفتنة حتى توفي (٩٣) وقد أغزاه معاوية سنة ٥٢ هـ إلى جزيرة

٨٥. انظر عنه: تاريخ الطبري ٦٤/٤، ٦٧، ٢٦٠ و ٢٦١ (حوادث سنة ٢٨ هـ)، وتاريخ خليفة ٢٢٥ و ٢٣٠ (حوادث سنة ٦٠ هـ)، وانظر أيضاً: الطبري ٢٢١/٥ و ٢٩٩ و ٣٠٨، وتاريخ يعقوبي ٢/٢٤٠، وتاريخ دمشق ٦/٣٠٢، والكامل في التاريخ ٢/٥٦٢ و ٣/٥٧٤ و ٥٠١ و ٥١٤، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤/٥٩٤، ومقالة لنا بعنوان: «غزوة بحر الشام وأمراؤه في العصر الأموي»، الحلقة الأولى، في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، ص ٢٩ - ٣٨، بيروت ١٩٨١، العدد (٣٨).

٨٦. غزا في البحر أيضاً سنة ٤٨ هـ و ٥٢ هـ (المنتخب من تاريخ المنبجي ٧١).

٨٧. غزا سنة ٤٨ هـ (تاريخ يعقوبي ٢/٢٤٠، الطبري ٥/٢٣١، ابن الأثير ٣/٤٥٧).

وانظر ترجمته في: طبقات خليفة، بتحقيق سهيل زكار ٢/٧٥٠، طبعة دمشق ١٩٦٦، التاريخ الكبير للبخاري ٧/٣٠٢، مشاهير علماء الأمصار لابن حبان ٥٣، نهاية الأرب للزويري ٢٠/٢٦٨.

٨٨. غزا سنة ٤٩ هـ (اليعقوبي ٢/٢٤٠، الطبري ٥/٢٣٢، ابن الأثير ٣/٤٥٨) وسنة ٥٦ هـ (اليعقوبي) وقيل إن الذي غزا هذه السنة هو «عياض بن الحارث».

٨٩. تاريخ دمشق ٣٦/١٧٣ (تحقيق سكينه الشهابي، دمشق ١٩٨٦).

٩٠. غزا سنة ٥٠ هـ (الطبري ٥/٢٣٤، نهاية الأرب ٢/٢٧٠) وقد أمره معاوية على غزو الروم في البحر. وقيل إنه شتا بأرض الروم في البحر سنة ٥١ هـ (تاريخ خليفة ٢١٨، تاريخ يعقوبي ٢/٢٤٠) وتوفي سنة ٥٣ هـ. (انظر ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/١١٣ رقم ٢٣).

٩١. صحابي من بني أخوال الرسول صلى الله عليه وسلم. توفي غازياً في البحر سنة ٥١ هـ. قيل إن بنيه قالوا له: قد غزوت على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر، فنحن نفزوا عنك، فأبى، ففزا في البحر، فمات في السفينة، فما وجدوا جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام. (انظر ترجمته ومصادرها في سير أعلام النبلاء ٢/٢٧٧ رقم ٥).

٩٢. قُتل في سنة ٥٨ هـ. وهو يغزو في البحر (الطبري ٥/٣٠١ و ٣٠٩، يعقوبي ٢/٢٤٠) وانظر عنه: التاريخ الصغير للبخاري ٦٣ طبعة المكتبة الأثرية بالباكستان، الاستيعاب ٣/٦٥٤، أسد الغابة ٥/١١٤، الإصابة ٣/٦٨٥ و ٤/٨٦.

٩٣. الكامل لابن الأثير ٤/٤٥٦، وقيل توفي سنة ٥٨ هـ، وقيل توفي سنة ٦٧ وقيل ٨٠ هـ. وفي وفاته نظر. (انظر: التاريخ الكبير للبخاري ٢/٢٣٢، والتاريخ الصغير له ١٦ و ٧٢، ومشاهير علماء الأمصار لابن حبان ١١٢، والطبقات لخليفة ٢/٧٩٠).

رودس — وكانت غيضة في البحر (٩٤) فسار إليها في الشتاء بعد إغلاق البحر (٩٥) ومعه «حي بن هاني المعافري» (٩٦) وبذلك فاجأ البيزنطيين وتمكن من فتحها في سنة ٥٣ هـ (وقيل ٥٤ هـ/٦٧٤ م) وأرسل إليه معاوية فأنزله فيها قوماً من المسلمين، فزرعوها واتخذوا بها أموالاً ومواشي يدعونها حوطاً، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن، وأقاموا على الشاطئ حارساً يحظرهم من يريد منهم في البحر، فكانوا أشد شيء على الروم يعترضون سفنهم في البحر حتى أخافوهم، وكان معاوية يدهم بالعطايا والأرزاق والسلاح فأقاموا في الجزيرة سبع سنين لا يطعم فيها ملك الروم ولا غيره، وبنى المسلمون فيها مسجداً كان «مجاهد بن جبر» يُقريء فيه الناس القرآن (٩٧).

و يتحدث المنبجي عن غزوة جرت في سنة ٥٤ هـ/٦٧٤ م انتصر فيها البيزنطيون، فقال: «وفي السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في البحر وصاروا إلى لوقية (٩٨) فخرج إليهم ثلاثة بطارقة فلقوهم، وقتل الروم من العرب ثلاثين ألف رجل، ومن بقي منهم ركب البحر، فلما توسطوه لحقهم بعض الروم في سفينة، فألقى النار في سفن العرب، فاحترقت كلها، وفازت الروم بالظفر والغلبة في هذه السنة. وهم أول من أخرج النار، وصارت لهم عادة» (٩٩). وفي السنة التالية ٥٥ هـ/٦٧٥ قام «يزيد بن شجرة الرهاوي» بغزوة في البحر (١٠٠). ولعله انطلق من رودس، التي كانت تفرض شبه حصار على القسطنطينية في كل صيف، وأضحت في مركز شديد الخطورة، ولكن النيران اليونانية التي اخترعها «كالينيكوس» البعلبكي الأصل، أنقذت عاصمة الامبراطورية وحقت النجاح للأسطول، حيث خرج البيزنطيون في أسطول كبير من السفن في سنة ٥٧ هـ أو ٥٨ هـ/٦٧٨ م وصدموا أسطولاً بقيادة «يزيد بن شجرة الرهاوي» وتمكنوا من قتله وأصحابه (١٠١)، وألحقوا الهزيمة بالأسطول الإسلامي الذي أحرقت أكثر سفنه، وتفرق الباقي بشيء من الفوضى إلى بحر الأرخبيل، وحين كانت البقية

٩٤. فتوح البلدان ٢٧٨/١ والغیضة : مغيض يجتمع فنبت فيه الشجر، والغیضة أيضاً الأجمة.

٩٥. تهذيب تاريخ دمشق ٤٠٩/٣.

٩٦. الأنساب، لابن السمعاني، تحقيق محمد عوامة، ج ٧٩/٧، بيروت ١٩٧٦.

٩٧. فتوح البلدان ٢٧٩/١، تاريخ الطبري ٢٨٨/٥ و ٢٩٣، البدء والتاريخ، لمظهر بن طاهر المقدسي، نشره كلمان هوار، ج ٤/٦، طبعة باريس ١٩١٩، المنتخب من تاريخ المنبجي ٧١، الكامل في التاريخ ٤٩٣/٣ و ٤٩٧.

٩٨. هي «ليكييا» (الدولة البيزنطية، للدكتور العربي، ص ١٣٢).

٩٩. المنتخب من تاريخ المنبجي ٧٢.

١٠٠. تاريخ خليفة ٢٢٣.

١٠١. تاريخ اليعقوبي ٢٤٠/٢، تاريخ خليفة ٢٢٥، طبقات ابن سعد ٤٤٦/٧، تاريخ الطبري ٣٠٩/٥.

الباقية في طريق عودتها إلى سواحل المسلمين سنة ٦٧٩م تعرضت لعواصف شديدة في أثناء سيرها جنوباً تجاه ساحل بامفيليا، ولم يصل من هذا الأسطول الضخم إلى قواعده بالشام ومصر سوى سفن قليلة العدد (١٠٢)، وانكشف الساحل للبيزنطيين فوصلوا إلى مدينتي صور وصيدا (١٠٣)، واستطاعوا اقتحامهما والقضاء على كل مقاومة فيهما، ثم تسلقوا جبال لبنان واستولوا عليها وجاءوا بالجرافة (١٠٤)، فبثوهم فيما بين جبل الجليل في شمالي فلسطين إلى الجبل الأسود في شمالي الشام وشكلوا بذلك حاجزاً يفصل بين القوات العربية في البلاد الداخلية، وقواتهم في الساحل، حتى اضطرت معاوية لرفع حصاره عن القسطنطينية وعقد هدنة مع الامبراطور «قسطنطين اللحياني الرابع» مدتها ٣٠ عاماً، التزم فيها معاوية بأن يدفع في كل سنة عشرة آلاف قطعة ذهبية ومائة عبد و٥٠ فرساً (١٠٥).

غير أن «سعيد بن يزيد» أراد الانتقام لأبيه فقام بغزوة في سنة ٥٨ هـ ومعه قائد يُدعى «أكدر»، ووصل بغزوته إلى رودس (١٠٦).

وفي سنة ٥٩ هـ/٦٧٩م وهي المعروفة بسنة الجوع (١٠٧) قام «جُنادة بن أبي أمية» بغزوة إلى جزيرة إقريطش «كريت» (١٠٨)، وكانت الغزوة في فصل الشتاء بعد إغلاق البحر، استجابة لأمر معاوية الذي أراد أن تكون الغزوة مفاجئة للروم وفي وقت لا يتوقعون الغزو فيه، وكان جواب «جُنادة»: اللهم إن الطاعة علي وعلى هذا البحر». فقيل إنه لم يُصَب من المسلمين أحد بأذى في تلك

١٠٢. الدولة البيزنطية، ص ١٣٣.

١٠٣. المنتخب من تاريخ المنبجي ٧٢، الحدود الاسلامية ٥٢/٢. وينسب «محمد علي مكّي» هذه الرواية للمؤرخ ابن عساكر ويقول إنه أوردها في سنة ١٧ من خلافة معاوية (٦٧٧) ميلادية ثم يثبت المرجح الذي نقل عنه وهو كتاب «خطط الشام لمحمد كرد علي»، ج ١ (دون ذكر الصفحة).

وأقول: ليس في تاريخ ابن عساكر - على ضخامته - أي ذكر لهذه الواقعة التي انفرد بها «المنبجي» فقط (انظر: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، محمد علي مكّي، ص ٣٩، طبعة دار النهار، بيروت ١٩٧٧).

١٠٤. سيأتي التعريف بهم في موضعه (٤٠) المنبجي ٧٢، الحدود الاسلامية ٥٢/٢.

١٠٥. حسب رواية «شدرانس»، تاريخ سورية، للمطران يوسف الدبس، مج ٥، ج ٣/١٠٤. وهو ينقل عن توافانس» أن معاوية التزم بدفع (٣٠٠٠) قطعة ذهبية مع إطلاق سراح (٨٠٠٠) أسير من الروم، وخسين جواداً. (انظر: الجامع الموصول في تاريخ الموارنة المفضل، للبطريرك الدويهي، ص ٣٥، بيروت ١٩٠٥).

١٠٦. تاريخ خليفة ٢٢٥.

١٠٧. تاريخ دمشق (المخطوط) ٥٠/٨.

١٠٨. البلاذري ٢٧٩/١، اليعقوبي ٢٤٠/٢، الطبري ٣١٥/٥، تاريخ دمشق ٥٠/٨، تهذيب تاريخ دمشق ٤٠٩/٣، ابن الأثير ٥٢١/٣.

الغزوة (١٠٩)، ولكن البيزنطيين اغتبنوا فرصة وجوده بعيداً عن رودس فهاجموا الجزيرة واستولوا عليها، مما دعاه إلى العودة إليها ومنازلتها وهدم مدينتها في سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م (١١٠).

واستفحل خطر الروم وَعَبَّئُهُم في الشام حتى أنهم انتزعوا مدينة حماة من المسلمين، مغتتمين فرصة وفاة معاوية، ناقضين للهدنة، وكانت آخر وصية لمعاوية: «أن شذوا خناق الروم فانكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم» (١١١) وعندما قصد ابنه «يزيد» استردادها اعترضه أهل الجبال وردّوه عنها في سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م (١١٢) وإزاء هذا الخطر، رأى يزيد أن يدعم القوات الاسلامية المرابطة في بيروت وطرابلس وغيرها من المدن الساحلية لتتقوى على الصمود أمام البيزنطيين ومن والاهم. فكتب إلى المسلمين في جزيرة رودس يخبرهم بوفاة أبيه، و يطلب منهم مغادرة الجزيرة وهدم الحصن الذي كانوا يرابطون فيه والعودة بسفنهم إلى ساحل الشام، فغادروها كما أمرهم (١١٣)، فلم تُعمر بعد ذلك وخربت، وأمن الروم ركوب البحر (١١٤). و يبدو أنّ قرار الانسحاب شمل جُند قبرس، ففقلوا أيضاً في السنة نفسها (١١٥) بعد أن رابطوا فيها نحو ثلاثين سنة (١١٦).

١٠٩. تهذيب تاريخ دمشق ٤١٢/٣، الاستيعاب ٢٤٢/١، اسد الغابة ٢٩٧/١.

١١٠. الطبري ٣٧٢/٥، ابن الأثير ٥/٤، نهاية الآرب ٢٧٢/٢٠، ويحمل «خليفة بن خياط» تاريخ غزوة رودس في سنة

٥٩ هـ. بقيادة: جُنادة، وعلقمة بن جُنادة الحجري، وعلقمة بن الاخشم. وكان أهل مصر يبعثون الطعام إلى الجزيرة. (تاريخ خليفة ٢٢٧ و ٢٢٩).

١١١. تاريخ خليفة ٢٣٠.

١١٢. أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق ٢٠٢/١، بيروت ١٩٧١.

١١٣. البلاذري ٢٧٩/١، الطبري ٢٩٣/٥، ابن الأثير ٣/٢٩٧، الفتح لابن أعثم ١٢٧/٢.

١١٤. الطبري ٢٩٣/٥، ابن الأثير ٣/٢٩٧.

١١٥. البلاذري ١٨٢/١.

١١٦. الدولة البيزنطية ١٣٣.

ثم قام يزيد بتعيين «ثابت بن معبد المحاربي الداراني» من أهل داريا أميراً على الساحل مع أخيه «عطية» فوليا الساحل أربعين سنة (١١٧).

وهكذا نلاحظ من خلال هذا العرض المفصل، أنّ المدن «اللبنانية» لعبت الدور الأساس في الصراع البحري بين المسلمين والبيزنطيين، منذ الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين، وطوال عهد معاوية، فمن صيدا انطلقت الحملة التي فتحت جزيرة رودس في المرة الأولى.

وفي ميناء طرابلس تمّ التحضير لإنشاء الأسطول الذي حقق النصر العظيم في موقعة «ذات الصواري»، فكانت المدينة هدفاً للعمل التخريبي. وكان الذي أنقذ الامبراطور من الموت في تلك الموقعة واحداً من نصارى طرابلس.

ومن بعلبك انتقل المسلمون لإعمار جزيرة قبرس بعد فتحها، ومنها خرج «كالينيكوس» مخترع النار اليونانية التي استخدمها الأسطول البيزنطي بنجاح في عدّة معارك. وحين أخذ معاوية رهائن من البيزنطيين -- بموجب معاهدة الصلح -- كانت بعلبك مركز إقامتهم. وحين خرج «يزيد بن معاوية» لغزو البيزنطيين في سنة ٥٠ هـ كان جُند بعلبك في مقدمة قواته التي حاصرت القسطنطينية.

١١٧. كان عطية تابعياً روى عنه الأوزاعي (تاريخ دمشق ١٢٨/٢٨ تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٣٧٤).

وعن عودة المسلمين من رودس حدث «رشيد بن كيسان الفهمي» فقال: «كنا برودس، وأميرنا جنادة بن ابي امية الأزدي، فكتب إلينا معاوية بن أبي سفيان: «إنه الشتاء ثم الشتاء» فأهبوا له فقال «تبيع ابن امرأة كعب الأحبار»: تفلون إلى كذا وكذا. فقال الناس: وكيف نقل وهذا كتاب معاوية: إنه الشتاء ثم الشتاء فأثاه بعض أهل خاصته من الجيش فقال: ما يسميك الناس إلا الكذاب لما تذكر لهم من القفل الذي لا يرجونه. فقال تبع: فإنهم يأتيهم إذنهم في يوم كذا وكذا، من شهر كذا وكذا، وآية ذلك أن تأتي ريح فتقلع هذه التينة التي في مسجدهم هذا، فانتشر قوله فيهم، فأصبحوا ذلك اليوم في مسجدهم ينتظرون ذلك، وكان يوماً لا ريح فيه، فانتظروا حتى احتاجوا إلى المقييل والغداء، وملوا، فأنصرفوا إلى مساكنهم أو إلى مراكزهم، حتى إذا انتصف النهار، وقد بقي في المسجد بقايا من الناس، فأقبلت ريح إعصار فاحطت بالتينة فاقتلعها، وتصايح الناس في منازلهم، خرت التينة، خرت التينة. فاقبلوا من كل مكان حتى اجتمعوا على الساحل، فرأوا شيئاً لائحاً يتجول في الماء حتى تبين لهم أنه قارب. فأتاهم بموت معاوية وبيعة يزيد ابنه وأذنهم بالقفل، فشكروا تبيماً وأثنوا عليه خيراً، ثم قالوا: وأخرى بقيت، قد دخل الشتاء ونحن نخاف أن تنكسر مراكبنا فقال تبع: لا ينكسر لكم عود يضركم، ولا ينقطع لكم حبل يضركم حتى تردوا إلى بلادكم، فساروا، فسلمهم الله عز وجل (تاريخ دمشق ج ٤٣١/١٠ - تحقيق محمد أحمد دهمان، المعرفة والتاريخ، البسوي ٣/ ٣٢٤، سير أعلام النبلاء، للذهبي ٤/ ٤١٤) وروى ابن أعثم في كتاب الفتح ١٢٧/٢ رواية مختصرة عن «مجاهد بن جبر» قال: لقد دخلت مدينة رودس في سنة ثلاث وخمسين، فبينما فيها مسجداً، وأقمنا بها مؤذناً ومُصلًى. قال مجاهد: وكان تبع ابن امرأة كعب الاحبار، وكنت أقرئه القرآن، فقال لي ذات يوم: «يا مجاهد كأنك بهذه الجزيرة قد خربت وذهب رسمها... الخ.

وقد عرفنا من التابعين الذين نزلوا رودس في هذه الغزوة: عبد الله بن عوف القاري، وعبد الله بن عمير (حلية الأولياء، لأبي نعيم ١٤١/٥).

أما صور، فيبدو أنها أسهمت مع غيرها من موانئ ساحل الشام بغزوة قبرس، حين رمها معاوية مع عكا.

وفي المقابل، فإن أكثر الغزوات البيزنطية المضادة استهدفت سواحل الشام عامة، والمدن «اللبنانية» وسواحل «لبنان» وجباله خاصة، لأن الثغور البحرية في «لبنان» كانت هي مصدر القلق والخطر الرئيس في البحر المتوسط، وخاصة في القسم الشرقي منه، والذي أصبح يُعرف بـ «بحر الشام»، ومن ذلك غزو مدينتي صور وصيدا في سنة ٥٩ هـ/٦٧٩ م والانتشار البيزنطي في جبل لبنان بمساعدة المردة، من الجراجمة وغيرهم من العبيد في سنتي ٦٦٩ و٦٧٩ م.

ونحن إذ نسلط الأضواء على ما صرحت به المصادر التاريخية القديمة عن دور المدن «اللبنانية» في الاحتكاك الحربي بين المسلمين والبيزنطيين، فإن هناك أدواراً أخرى — ولا ريب — أسهمت فيها المدن «اللبنانية» في الغزوات البحرية والبرية الأخرى، مما لم تصيح بها تلك المصادر واكتفت بالإشارة فقط إلى «ساحل الشام» وليست المدن «اللبنانية» إلا جزءاً من «ساحل الشام» الذي رسمنا حدوده الجغرافية في بحث سابق. وبما أن ثغور: طرابلس وبيروت وصيدا وصور، هي أهم ثغور الساحل الشامي في صدر الاسلام، فإن هذه الثغور — بشكل متماثل أو متفاوت — أسهمت في معظم الغزوات الإسلامية إلى جزر البحر المتوسط، وسواحل آسية الصغرى، كما استهدفت، بالتالي، لمعظم الغزوات البيزنطية في البر والبحر.

ومن هذا المنطلق، فإن أكثر أمراء البحر والقادة والغزاة الذين كانوا يتولون امانة «ساحل الشام» أو «بحر الشام»، أو يقودون الغزوات الصائفة والشائية والربيعية من الشام، ممن ذكرنا أسماءهم من قبل، ومن لم نذكر، كان لا بد أن ينطلقوا للغزو إما من ميناء عكا بفلسطين بمساعدة المرابطين في الثغور «اللبنانية» وإما أن ينطلقوا بشكل أساسي من أحد الثغور «اللبنانية» بمساعدة عكا وغيرها. وسوف نرى بعد فترة كيف انتقلت القاعدة البحرية الأساسية من عكا الى صور، مما يعزز القوة الإسلامية المتنامية في ساحل «لبنان».

وقبل أن اختتم هذا الموضوع، لا بد أن أشير إلى قصة أحد قادة الغزو في البحر من مدينة صور، الذي نجح في أن يخذع ملك قبرس، والامبراطور البيزنطي، وجميع قادته من البطارقة، واستطاع أن يقبض على أحد البطارقة في خليج القسطنطينية ويأتي به إلى معاوية ليقبض منه في دمشق. وقد اشتهر القائد السوري بالجرأة والصلابة وكثرة الغزو، والكيد في البيزنطيين لدرجة أنهم قاموا برسم صورة له في بعض كنائسهم ليتعرفوا إلى شخصيته ويحذروه (١١٨) وقد روى قصته كل من «المسعودي» و«التويري»

ونقلها عنهما «محمد كرد علي» في خطط الشام، وسأثبت نص رواية «المسعودي» رغم إسهابه، وذلك لغرضين:

الأول: طرافة القصة ومتمعة قراءتها.

الثاني: وهو الأهم، الوقوف على صورة من صور المكايد والحيل التي مورست في عصر الصراع العربي — البيزنطي، وخاصة على يد شخصيات من صور، ومن طرابلس كما سيأتي.

فإذا سلمنا بصحة هذه الرواية التي يرويها «المسعودي» وهو من بين المؤرخين المسلمين الكبار، فإننا بالمقابل، لا يجوز أن نستبعد ما جاء في كتاب «فتوح الشام» المنسوب للواقدي، عن مكيدة الراهب الحلبي الذي اعتنق الإسلام، ونجح في تسليم مدينتي صور وطرابلس للمسلمين في عهد الخليفة عمر، كما نوهنا بذلك في حركة الفتح الإسلامي.

وتقول رواية المسعودي ما نصه: «فأما خبر معاوية وما ذكرناه من خبر الرجل الذي أسر البطريق في مدينة القسطنطينية، فهو أن المسلمين غزوا في أيام معاوية، فأسر جماعة منهم، فأوقفوا بين يدي الملك، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حروجه فآله — وكان رجلاً من قریش — فصاح: وإسلاماه، أين أنت عنا يا معاوية إذ أهملتنا وضيعت ثغورنا وحكمت العدو في ديارنا ودماثنا وأعراضنا، فمني الخبر إلى معاوية فآله، وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه وامتنع من الناس، ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أجل الأمر في أعمال الحيلة بإقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن فادى بذلك الرجل، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام دعاه معاوية فبزه وأحسن إليه، ثم قال له: لم نضيعك، ولا أبحنأ دمك وعرضك، ومعاوية مع ذلك يجيل الرأي ويعمل الحيلة.

ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان به عارفاً، كثير الغزوات في البحر صمّل (١١١) من الرجال، مرطان (١٢٠) بالرومية، فأحضره ونحلاه وأخبره بما قد عزم عليه، وسأله أعمال الحيلة فيه والتأتي له، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالاً عظيماً يبتاع به أنواعاً من الطرف والملح والجهاز والطيب والجوهر وغير ذلك، وابتنى له مركباً لا يلحق في جريه سرعة، ولا يدرك في مسيره بنياناً عجيباً، فسار الرجل حتى أتى مدينة (وفي نسخة: جزيرة) قبرس، فاتصل برئيسها وأخبره أن معه

١١٩. الصُّمْلُ: بالضم وتشديد اللام، هو الشديد الخلق. يقال صُمِّلَ أو صُمَّانَ الشيء يصمِّلُ صمولاً: إذا اشتدَّ وصلب (يسفر السعادة وسفير الإفاضة — لعلم الدين أبي الحسن علي بن محمد السخاوي (٥٥٨ — ٦٤٣هـ)، ج ٣٢٥/١، تحقيق محمد أحمد الدالي، طبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣).

١٢٠. المرطان: من رطن رطانة: نكلم بالاعجمية (وهذا يرجح أن القائد السوري كان رومي الأصل، مثل «شحيم بن المهاجر الرومي» والي طرابلس الذي سيأتي ذكره في عهد عبد الملك والوليد).

جارية للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصداً إلى الملك وخواصه بذلك، فروسل الملك بذلك، وأعلم بحال الرجل، فأذن له في الدخول فدخل خليج القسطنطينية، وسار فيه حتى انتهى إلى القسطنطينية... فلما وصل إلى القسطنطينية أهدى للملك وجميع بطارقه، وبايعهم وشاراهم، ولم يعط للبطريق الذي لطم وجه القرشي شيئاً. وقصده إلى ذلك البطريق الذي لطم الرجل القرشي.

وتأتى الصوري في الأمر على حسب ما رسمه له معاوية، وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره البطارقة والملك بابتياح حوائج ذكروها، وأنواع من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سراً، وذكر له من الأمر ما جرى، فابتيع له جميع ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه، وتقدم إليه فقال: إن ذلك البطريق إذا عدت إلى كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره واستهانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقصد والهدايا، واجعله القيم بأمرك، والمتفقد لأحوالك، وانظر ماذا يطلب منك حين أوبك إلى الشام، فإن منزلتك ستعلو وأحوالك تزداد عندهم، فإذا أتقنت جميع ما أمرتك به وعلمت غرض البطريق منك وأي شيء يأمرك بابتياحه، لتكون الحيلة بحسب ذلك.

فلما رجع الصوري إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه والزيادة على ما لم يطلب منه، زادت منزلته وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان في بعض الأيام، وهو يريد الدخول إلى الملك قبض عليه ذلك البطريق في دار الملك وقال له: ما ذنبي إليك؟ وبماذا استحق غيري أن تقصده وتقضي حوائجه وتعرض عني؟ فقال له الصوري: أكثر من ذكرت ابتدأني وأنا رجل غريب أدخل إلى هذا الملك والبلد كالمبتكر من أسارى المسلمين وجواسيسهم، لئلا ينموا بخبري ويعنوا بأمرني إلى المسلمين فيكون في ذلك فقدي، وإذا قد علمت بميلك إلي فلست أحب أن يعتني بأمرني سواك، ولا يقوم به عند الملك وغيره غيرك، فأمرني بجميع حوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام، وأهدى إلى البطريق حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجواهر والطرائف والثياب، ولم يزل هذا فعلة يتردد من الروم إلى معاوية ومن معاوية إلى الروم، ويسأله الملك والبطريق وغيره من البطارقة الحوائج، والحيلة لا تتوجه لمعاوية حتى مضى على ذلك سنين. فلما كان في بعضها قال البطريق للصوري: وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتبهت أن تغمرني بقضاء حاجة وتمن بها علي: أن تتباع لي بساطاً سوسجرد بمخاذه ووسائده، يكون فيه من أنواع الألوان من الحُمْرة والزرقة وغيرهما، ويكون من صفته كذا وكذا، ولولبلغ ثمنه كل مبلغ، فأنعم له بذلك.

وكان من شأن الصوري إذا ورد إلى القسطنطينية تكون مركبه بالقرب من موضع ذلك البطريق، وللبطريق ضيعة سرية وفيها قصر مشيد ومنتزه حسن على أميال من القسطنطينية رابكة على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقاته في ذلك المنتزه، وكانت الضيعة مما يلي فم الخليج مما يلي بحر الروم والقسطنطينية، فانصرف الصوري إلى معاوية سراً وأخبره بالحال، فأحضر معاوية بساطاً بوسائد ومخاد ومجلس، فانصرف به الصوري مع جميع ما طلب منه من دار الإسلام، وقد تقدم إليه معاوية بالحيلة

وكيفية إيقاعها، وكان الصوري فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم في المؤانسة وفي العشرة، وفي الروم طمع وشّره، فلما دخل من البحر إلى خليج القسطنطينية— وقد طابت له الرياح، وقد قرب من ضيعة البطريق— أخذ الصوري خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكب، فأخبر أن البطريق في ضيعة. فلما علم الصوري أنّ البطريق في ضيعة فرش ذلك البساط ونضد ذلك الصدر والمجالس بالوسائد والمخاذه في صحن المركب ومجلسه، والرجال تحت المجلس بأيديهم المجاذيف مشكلة قائمة غير قاذفين بها ولا يعلم بهم أنهم في بطن المركب إلا من ظهر منهم في المركب عمله، والريح في القلع، والمركب مار في الخليج كأنه سهم قد خرج من كبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه، لسرعة سيره، واستقامته في جريه، فأشرف على قصر البطريق وهو جالس في مستشفه مع حرمه وقد أخذت منه الخمر وعلاه الطرب وذهب به الفرح والسرور كل مذهب. فلما رأى البطريق مركب الصوري غنى طرباً، وصاح فرحاً و سروراً وابتهاجاً بقدمه، فدنا من أسفل القصر، وحط القلع، وأشرف البطريق على المركب، فنظر إلى ما فيه من حُسن ذلك البساط ونظم ذلك الفرش كأنه رياض تزهر، فلم يستطع اللبث في موضعه حتى نزل قبل أن يخرج ذلك الصوري من مركبه إليه، فطلع المركب، فلما استقرت قدمه في المركب ودنا من المجلس ضرب الصوري بعقبه على من تحت البساط من الوقوف— وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين في بطن المركب— فما استقر دقه بقدمه حتى اختطف المركب بالمجاذيف فإذا هو في وسط الخليج يطلب البحر لا يلوي على شيء وارتفع الصوت، ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر، فلم يكن الليل حتى خرج من الخليج وتوسط البحر، وقد أوثق البطريق كتافاً، وطابت له الرياح، وأسعده الجد، وحملته المجاذيف في ذلك الخليج، فتعلق في اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر، وحمل الرجل، فكانوا في اليوم الثالث عشر حضوراً بين يدي معاوية بالفرح والسرور لإثلاجه بالأمر وتمام الخيلة، وأيقن معاوية بالظفر وعلو الجد، فقال: عليّ بالرجل القرشي، فأثني به، وقد حضره خواص الناس، فأخذوا مجالسهم، وأنقص المجلس بأهله، فقال معاوية للقرشي: قم فاقصص من هذا البطريق الذي لطم وجهك على بساط معظم الروم، فانا لم نضيعك ولا أبحنأ دمك وعرضك، فقام القرشي ودنا من البطريق، فقال له معاوية: انظر، لا تتعد ما جرى عليك منه، واقتصص منه على حسب ما صنع بك، ولا تتعد، وراع، ما أوجب الله عليك من المائلة، فلطمه القرشي لطمات، ووكزه في حلقة، ثم انكب القرشي على يدي معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما أضاعك من سودك، ولا خاب فيك أمل من أملك، أنت ملك لا تُضام، تمنع حماك، وتصون رعيتك، وأغرق في دعائه ووصفه، وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وبره، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أموراً كثيرة وهدايا إلى الملك، وقال له: إرجع إلى ملكك وقل له: تركت ملك العرب يقيم الحدود على بساطك، و يقتصص لرعيته في دار مملكتك وسلطانك، وقال للصوري: سر معه حتى تأتي الخليج فتطره فيه ومن كان أسر معه ممن بادر فصعد المركب من غلمان البطريق وخاصته، فحملوا إلى صور مكرمين وحملوا في المركب، فطابت لهم الرياح، فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين ببلاد الروم، وقربوا من

فم الخليج، وإذ به قد أحكم بالسلاسل والمنعة من الموكلين به، فطرح البطريق ومن معه، وانصرف الصوري راجعاً، وحمل البطريق من ساعته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة، فتباشرت الروم بقدمه، وتلقوه مهنتين له من الأسر، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله بالبطريق والهدايا، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين في أيامه، وقال الملك: هذا أمكر الملوك وأدهى العرب ولهذا قدمته العرب عليها، فساس أمرها، والله لو هم بأخذي لتمت له الحيلة عليّ (١٢١).

الغزوات في عهد عبد الملك

(٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م)

عادت الحملات والغزوات البحرية إلى حدتها السابقة بين المسلمين والبيزنطيين في عهد «عبد الملك بن مروان»، وفي عهد خلفاء بني أمية من بعده، وذكرت المصادر التاريخية أنّ بعض السفن البيزنطية وصلت في سنة ٦٩هـ/٦٨٩م إلى مدينة قيسارية على ساحل فلسطين فشعثوها وهدموا مسجدها، كما خرّبوها مدينة عسقلان، وأخرجوا أهلها منها (١٢٢). وفي الوقت نفسه خرج أسطول بيزنطي بقيادة بطريق يُدعى «قلقط» - حسب ابن عساكر الدمشقي أو «الابن فلنط» - «حسب المسعودي» قاصداً بحر الشام، فأرأسى عند وجه الحجرين طرابلس وجبيل، ونزل الجيش إلى الساحل ومنه صعد إلى جبل لبنان وراح يقطع الطرق على المسلمين في المرتفعات ويهدّد الطرق الساحلية والداخلية، وبات يسيطر على مشارف الطرق المؤدية إلى دمشق (١٢٣).

ولقد حصل هذا في الوقت الذي كان فيه «عبد الملك» يواجه المصاعب والاضطرابات الداخلية (١٢٤)، حيث اضطر أن يهادن البيزنطيين ويقتدي بما فعل معاوية من قبل (١٢٥)، ولكنه لم يركن إلى ذلك فحسب، بل أوصى عامله على طرابلس أن يترصد قائد الأسطول البيزنطي حتى لا يخرق الهدنه، فاحتال عامل طرابلس، «سحيم بن المهاجر الرومي» على البطريق حتى قتله وهزم القوة التي

١٢١. مروج الذهب للمسعودي ٢١٥/٤ - ٢١٩، نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، ١٨٥/٦ - ١٨٧، خطط الشام لمحمد كرد علي ١٣٣/١.

١٢٢. البلاذري، ق ٢٦٩/١ و١٦٩.

١٢٣. تاريخ دمشق (المخطوط) ١٢٠/١٥، التهذيب ٦٥/٦، الكامل في التاريخ ٣٠٤/٤، بنية الطلب ٢١٩/٧.

١٢٤. مروج الذهب ١٠٥/٣، ١٠٦، لُطف التدبير، محمد بن عبد الله الخطيب الأسكاني (ت ٤٢١هـ)، تحقيق أحمد عبد الباقي، طبعة دار الكتب العملية ١٩٧٩، ص ٢١٩، تهذيب تاريخ دمشق ٢٣٤/١، تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد عمبي الدين عبد الحميد، طبعة السعادة بمصر ١٩٥٢، ص ٢٢.

١٢٥. أنساب الأشراف ٣٠٠/٥.

معها، فأتى من بقي منهم إلى سفنهم مند وجه الحجر وأبحروا هارين إلى بلادهم. ولم يخرج الروم بعد ذلك في البحر إلى ساحل الشام في زمن عبد الملك (١٢٦).

وانصرف «عبد الملك» بعد ذلك إلى تحصين السواحل وتقوية المدن عن طريق زيادة سكانها، فقام ببناء حصن طرابلس الذي في الميناء من جديد وحصنه، وشملت عنايته حصون كل من: صور وعكا، وقد جددهما بعد خرابهما. كما حصن قيسارية وعسقلان اللتين سبق أن خربهما البيزنطيون. وكان استرد قيسارية في سنة ٦٧١هـ/٦٩١م وجدد عمارة مدينة طرابلس وحصنها وأسكنها المسلمين «فصارت آمنة عامرة مطمئنة» ووضع لها نظاماً حربياً خاصاً، إذ كان يرسل إليها جنداً من دمشق فيربطون فيها في فصل الصيف أما في الشتاء فكان يوجه إليها جنداً من بعلبك (١٢٧).

في عهد الوليد بن عبد الملك

(٨٦ - ٩٦هـ/٧٠٥ - ٧١٥م)

وفي عهد «الوليد بن عبد الملك» أصبح «سحيم بن المهاجر الرومي» أميراً وقائداً للأسطول في طرابلس، بعد أن كان عاملاً على المدينة في عهد عبد الملك، كما تولى غزو البحر من ساحل الشام في خلافة «الوليد» أميران من الموالي الفرس من أهل ساحل «لبنان» هما: «أبو خراسان» و«سفيان الفارسي» (١٢٨) وسير «الوليد» الأسطول إلى جزيرة إقريطش ففتح بعض بلادها.

وفي أيام «الوليد» توفي «أبو صفوان عبد الله بن بسر المازني» بين سنتي ٨٧ - ٨٨هـ وهو آخر من مات من الصحابة بالشام، وكان ركب من عكا لغزو قبرس في أيام معاوية (١٢٩).

وحول سنة ٨٩هـ/٧٠٧م تحرك الجراجمة والروم على جبهتين في البر والبحر، حيث أتى إلى الجراجمة قوم من الروم من أهل الاسكندرونه وروسس، وقاموا بغارات على أطراف الدولة الأموية في

١٢٦. فتوح البلدان، ق ١٩٠/١، أنساب الاشراف ٣٠٠/٥، تاريخ دمشق (المخطوط ١٢٠/١٥ - ١٢٢، و١٢٢/١٢٢، و٥٩٥/١٢٢، التهذيب ٦٥/٦ و٦٦، الكامل في التاريخ ٣٠٤/٤، بغية الطلب ٢١٣/٧ و٢١٩ و٢٢٠، نهاية الأرب للنويري ١٠٨/٢١، ١٠٩، خطط الشام، ١٤٩/١ و١٥٠، تاريخ الأمة العربية، محمد أسعد طلس، ص ١٠٣ و١٠٤، الحدود الإسلامية البيزنطية ٣٦٢/١.

١٢٧. تهذيب تاريخ دمشق ١٨٣/٦، البداية والنهاية لابن كثير ٣١٣/١٣، عقد الجمان للعيني (مخطوط بدار الكتب المصرية)، ج ٢٠، ق ٧٢١/٤، الحدود الإسلامية ٣٦١/١.

١٢٨. بغية الطلب ٢٢٠/٧، تاريخ دمشق ١٢٢/١٥ و١٢٦/٨٩.

١٢٩. مشاهير علماء الأمصار لأبن حبان، نشرة فلا شهرم، ص ٥٤، تهذيب تاريخ دمشق ٣١٠/٧، الكامل في التاريخ ٥٣٤/٤.

الشمال، فتصدى لهم «مسلمة بن عبد الملك» (١٣٠) وفي البحر أتى الروم بأسطول ضخم إلى ساحل «لبنان» فأرسوا عند وجه الحجر حيث رابطت هناك بعض قطعه، وقامت القطع الأخرى بمهاجمة ثغر طرابلس وضربت عليه الحصار من ثلاث جهات، وجاء توقيت هذه الغزوة في الوقت الذي كان فيه أسطول طرابلس يغزو في البحر بعيداً عن الساحل، ولم يكن في المدينة من القوات الصالحة للدفاع عنها سوى نحو مائة وخمسين مقاتلاً ولحسن الحظ فقد كان «سحيم بن المهاجر» أمير البحر موجوداً فيها لم يخرج مع الغزاة، وكان معروفاً بذكائه ودهائه، فلجأ إلى خطة توييه بارة خدع بها البيزنطيين وجعلهم يفكرون حصارهم المضروب حول الثغر ويستدرجهم إلى النزول إلى البر بانتظار وصول النجدة العربية من المدن القريبة وقد بدأ خطته بأن نادى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس في المسجد، فقام فيهم خطيباً وحشهم على الصبر والجلاد والثبات أمام العدو، ثم أمر بإجراء إحصاء لعدد الرجال فبلغوا (١٥٠) مائة وخمسين مقاتلاً، سوى أهل السوق، والضعاف من الناس، ثم أمر بقياس الشرفات الواقعة بين الأبراج، ورتب عدداً معيناً من المقاتلين بين الشرفات والأبراج وجماعة يقومون عند باب الميناء الشرقي المطل على البر، وجماعة عند باب البحر في جهة الغرب، وأمر بإحضار أنواع من الثياب بالوان مختلفة، وقام بتوزيع لون واحد منها على المقاتلين والأهالي وشحن بهم أحد الأبراج ووزعهم على شرفة السور التابع له وأمرهم أن يظهرُوا أنفسهم للعدو جميعاً فيتهيب كثرتهم، وبعد قليل أنزلهم وأبقى منهم عدداً قليلاً مرابطين في البرج، وألبس الناس والمقاتلين ثياباً ذات لونٍ آخر، فصعدوا البرج الثاني والسور التابع له، وأظهروا أنفسهم للعدو، ولبثوا فترة ثم نزلوا، وبقي في البرج عدد قليل من المقاتلين، وهكذا فعل في بقية الأبراج والشرفات والأسوار المطلّة على البحر، حتى اعتقد البيزنطيون أن المدينة مملوءة فعلاً بالمقاتلين والمدافعين، وأنهم إذا استمروا على حصارهم في البحر فلن يحققوا أهدافهم، ولذا نزلوا إلى البر وعملوا على محاصرتها من الشرق. وفي هذه الأثناء وصلت النجدة من بيروت بقيادة واليها وأمير الساحل — كما يسميه ابن عساكر — «أبي العلاء عبد الرحمن بن سليم الكلبي» (١٣١). كما وصلت

١٣٠. فتح البلدان ١٩٠/١ و١٩١، تاريخ اليعقوبي ٢٨٣/٢.

١٣١. كان مع عبد الملك بن مروان ضد عمرو بن سعيد بن العاص حين عصى الأخير بدمشق سنة ٦٩ هـ، وفي سنة ٨٢ هـ كان مع الحجاج بن يوسف في العراق عند قتال ابن الأشعث، وفي سنة ١٠١ هـ كان والياً على خراسان أيام يزيد بن عبد الملك ثم صار عاملاً على البصرة في سنة ١٠٢ هـ، وفي سنة ١٠٣ هـ غزا الروم وفتح حصناً. وخرج على الصائفة في غزوة سنة ١٠٤ هـ (تاريخ اليعقوبي ٣١٥/٢، تاريخ الطبري ١٤١/٦ و٣٤٩ و٥٨٤ و٦٠٥، الفتح لابن أعمش ٢٥/٢ و٢٧، الكامل في التاريخ ٤٧١/٤، تاريخ دمشق ٥٩٤/٢٢، تاريخ الخليفة ٣٢٨ و٣٣٥ و٣٣٥).

النجدة من حمص بقيادة «الصقربن صفوان» (١٣٢) على رأس ستة آلاف من أهلها. وتمكنت طليعة الجند القادمة من بيروت بقيادة «سعيد بن عمرو بن الأسود الحرشي» (١٣٣) أن تشق طريقها إلى داخل المدينة بعد أن نجح الطرابلسيون في أسر قائد الحملة البيزنطية و يُدعى «دواميس».

ولما رأى البيزنطيون أنهم باتوا محاصرين بدورهم من جند حصص في الشمال، وجند بيروت من الجنوب، سقط في أيديهم، خاصة وأنهم فقدوا قائدهم، فلجأوا إلى مراسلة المسلمين وجنحوا إلى السلم ورفع الحصار، ودخلوا في مفاوضات مع والي بيروت وأمير الساحل «عبد الرحمن الكلبي» فأخذ عليهم العهد أن يرفعوا الحصار وألا يعودوا في غزوة أو حملة عدوانية على ساحل الشام طوال ذلك العام، مقابل إطلاق سراح قائدهم «دواميس» (١٣٤). وهكذا نجحت طرابلس من الحملة البيزنطية الضخمة بفضل دهاء «سحيم بن المهاجر» ثم بقدوم النجيدات السريعة من المدن الإسلامية، برأ و بحرأ.

ولكن البيزنطيين نجحوا في السنة التالية (٩٠هـ/٧٠٩م) في إنزال الهزيمة بأسطول عربي بقيادة «خالد بن كيسان» ووقع القائد أسيراً بيدهم، فقام الامبراطور «جستنيان الثاني» بإطلاق سراحه وسلمه إلى «الوليد بن عبد الملك» (١٣٥). غير أن البيزنطيين تلقوا ضربة أخرى عندما قام «العباس بن الوليد» أمير البحر بحملة ففتح قبرس — للمرة الثانية — في سنة ٩٥هـ/٧١٤م (١٣٦).

١٣٢. ذكره الطبري في حوادث سنة ١٢٦هـ فقال إنه في هذه السنة اجتمع أمراء أهل دمشق و بابعوا يزيد بن الوليد وخرجوا إلى دمشق وحصص، واعطاهم يزيد العطاء، وأجاز أشرافهم ومنهم الصقربن صفوان وغيره (٢٦٦/٧) وترجم له ابن عساکر فقال: صقربن صفوان الكلاعي، من وجوه أهل حمص، شهد مرج راهط وعاش حتى جاء في الجيش الذي توجه إلى دمشق للطلب بدم الوليد بن يزيد، فلما هزم الجيش بنواحي دمشق دخل دمشق مع من دخلها فباع يزيد بن الوليد فأجاره وأكرمه، وله ذكر وشعر، ومن شعره يخاطب مسلمة بن عبد الملك:

الا أبلغ مُسْتَلَمَةَ بن عبد مقالمة ماجد طِبِّ هجان
اتزعم أبالك أن سيفي بعيد العهد بالمهج الحواني
ولوساءلت - جذلاً - عن شباه غداة النزج في رهج الظمان
(تهذيب تاريخ دمشق ٤٤٣/٦).

١٣٣. ذكره ابن أعثم الكوفي في الفتوح ٢٦/٨ و ٤٣/٢٧، والطبري في حوادث سنة ١٠١هـ، وقال إنه كان فارساً قاتل الخوارج عند الكوفة (٥٧٧/٦)، وابن الأثير (٦٩/٥ و ٧٠)، وكان عاملاً على خراسان في سنة ١٠٣هـ (ابن الأثير ١٠٣/٥) وورد ذكره في حوادث سنة ١٠٤هـ (١٠٧/٥ - ١١٠ و ١١٥ - ١١٦) وفي سنة ١٠٧هـ كان على مقدمة جيش مسلمة بن عبد الملك والي أرمينية وأذربيجان فلقى عسكرياً للخزرمعهم عشرة آلاف من الاسرى المسلمين فحاربهم وهزمهم وقتل أكثرهم واستنقذ الاسرى وفتح عدة مدن. (اليقوبي ٣١٧/٢) وفي تاريخ خليفة، ص ٣٢٨ و ٤٣٧، مات سنة ١٦٣هـ وترجم له ابن عساکر (تهذيب ١٦٤/٦) ونقل عنه الذهبي في تاريخ الإسلام (١٧٩/٥) قيل كان صلوكاً يسأل على الأبواب، ثم صار سقاء، ثم صار جندياً، إلى أن ولي إمرة خراسان..

١٣٤. تاريخ دمشق (المخطوط) ٥٩٥/٢٢ - ٥٩٨.

١٣٥. الطبري ٤٤٢/٦، ابن عساکر ٢٣٧/١٢، ابن الأثير ٥٤٨/٤، النويري ٣١٩/٢١.

١٣٦. اليقوبي ٢٩٢/٢.

في عهد سليمان بن عبد الملك

(٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٨ م)

استرد البيزنطيون نشاطهم في أول عهد الخليفة «سليمان بن عبد الملك» فقام أسطولهم بالإغارة على مدينة اللاذقية - وكانت في ذلك الوقت من جند حمص - فأحرقوها وذهبوا بما فيها، ولذا أصبحت تُعرف في المصادر التاريخية بـ «اللاذقية المحترقة» (١٣٧) وأخذوا من ساحل حمص جملة أسرى من المسلمين، من بينهم امرأة لها ذكر ومكانة، مما أثار الخليفة «سليمان» الذي قال: «ما هو إلا هذا، نغزؤهم ويغزؤنا» وأقسم ليفتحنَّ القسطنطينية أو يموت، فأغزى أهل الشام والجزيرة في البر في نحو من مائة وعشرين ألفاً، وأغزى أهل مصر والمغرب في ألف مركب، عليهم «عمر بن هبيرة الفزاري» (١٣٨)، وعلى الكل «مسلمة بن عبد الملك» الذي أمر كل فارس أن يحمل على فرسه مدين من الطعام حتى يأتي به القسطنطينية، ثم أمر بالطعام فألقي في ناحية حتى صار كالجبل، ومنع المسلمين أن يأكلوا منه شيئاً بل يكتفوا بما يصيبونه من غاراتهم من الزرع والقوت، وأقام مرابطاً عند أسوار القسطنطينية قاهراً لأهلها حتى نفذ القوت عندهم وهو يغظهم بجبل الخنطة الذي في وسط معسكره، لا يمسسه أحد ولا ينقص منه شيء، حتى عرضوا عليه الفدية بعد أن أضرمهم الحصار، فأبى إلا أن يفتحها عنوة (١٣٩)، وصادف أن مات الامبراطور «جستنيان الثاني» أثناء الحصار، وتولى بعده «اليون الرومي المرعشي» الذي غدر بالمسلمين وخان العهد معهم بعد أن كان حليفهم، وأدخل إلى المدينة قسماً كبيراً من الخنطة. وقد شارك في هذه الغزوة الكبرى إلى القسطنطينية اثنان من غزاة البحر من أهل طرابلس، هما «الليث بن تميم الفارسي» وأخوه «أبو خراسان الفارسي» حيث خرجا بمركبهما من ميناء طرابلس وانضمّاً إلى الغزاة الذين تجمعوا تحت قيادة «عمر بن هبيرة».

ويحكى لنا «الليث بن تميم» بعض وقائع هذه الغزوة كشاهد عيان، حسب رواية «ابن عساكر» الذي ينفرد بهذا النص:

«قال الليث: كنت ممن غزا على اسمه وعطائه - يعني عمر بن هبيرة - إذ ولّاه سليمان بن عبد الملك غازية البحر، فرافقت أخي أبا خراسان في مركب، فسار بنا عمر حتى مررنا بأهل مصر فتبعونا، ومضينا حتى أتينا طرابلس إفريقية، وعلونا أرض الروم، حتى إذا حاذينا القسطنطينية سرنا في بحر الشام حتى دفعنا إلى خليج القسطنطينية، فخرجنا في الخليج على باب القسطنطينية لنجيز إلى

١٣٧. اليعقوبي ٢/٢٩٩.

١٣٨. كان على بعلبك في عهد عبد الملك على الأرجح. انظر عنه الأغاني ١٣/١٧٠، التنبيه والاشراف للمسمودي ١٤١.

١٣٩. الطبري ٦/٥٣٠ وما بعدها، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤/٥٠١، ٥٠٢.

«مسلمة» ومن معه من المسلمين. وصف «مسلمة» من معه من المسلمين صفاً لم أر قط أطول منه، مع الكراديس الكثير، وجلس «ليون» طاغية الروم على برج على باب القسطنطينية وبروجها، يصف منهم رجاله فيما بين الحائط والبحر صفاً طويلاً بحداء صف المسلمين، وأظهرنا السلاح في ألف مركب بين محرقات وقوادس فيها الخزائن من كسوة مصر وما فيه مما إليه والقباب فيها المقاتلة.

قال الليث: فما رأيت يوماً قط كان أعجب منه لما ظهر من عدونا في البر والبحر، وما أظهرنا من السلاح، وما أظهر طاغية الروم على حائط القسطنطينية وصفهم ذلك، والعدة ونصبوا المجانيق والعزادات فيكبر المسلمون في البر والبحر، ويظهر الروم قبلها، - حتى كتح بن هبيرة وجماعة من معه من السفن عن الاقدام على باب الميناء لما هابته على أنفسها، فلما رأت ذلك الروم، خرج إلينا من باب مينائهم مركبان، أو قال: محرقان، فمضى مركب منها إلى أدنى من يليه من مراكب المسلمين فالتقى عليه الكلابيل بالسلاسل فاجتره حتى أدخله بأهله القسطنطينية، فأسقط ذلك في أيدينا، وخرجوا إلى مركب ليفعلوا ذلك به، فجعل ابن هبيرة يتحسر ويقول: «الأرجل»؟ فقام إليه «أبو خراسان» فقال: هذا أنا رجل، ولكنك صيرتني في المركب معك لبعض من لا غنى عنده، فقال له «ابن هبيرة»: فمر بما ترى ومُر بما تحب. فأشار «أبو خراسان» إلى مركب من الفرس يعرفهم بالشدة والبأس، فقال: ابعثني في قارب أنا وأخي، ومرهم بطاعتي، ففعل، فأمر «أبو خراسان» بنوتي المركب أن يوجهه إلى ذلك المركب الذي ذهب بالمسلمين، ففتح عنه النوتي، فأشار إليه أبو خراسان بالسيف فمضى به حتى ألصق المركب بمركبهم، ثم سار أبو خراسان حتى أوثقهما بسلسلة لثلاً يقر أحدهما عن صاحبه.

قال: فاجتلدنا بأسيا فإنا فيما بين السفينتين، فرزقنا الله الظفر، فدخلنا سفينتهم ووضعنا السيف فيهم، فانتهينا إلى قومس السفينة الذي فعل ما فعل، وقد ألقى بيضته وجثا على ركبتيه، شيخ أصلع، فضربه صاحب لنا ضربة لم تُغنى شيئاً، وتقدم إليه «أبو خراسان» فضربه ضربة شق فيها هامته، حتى نظرت إلى السيف قد أجاز إلى الذقن إلى الحنجرة وما يليها، واستسلم من بقي منهم، فقصدناها إلى من يلينا من المسلمين ورجعنا إلى من كان منهم، فدخلوا الميناء. ووقف «أبو خراسان» موقفاً حسناً يأمن به من مَرَبنا إلى «مسلمة» ومن يليه حتى مروا عن آخرهم، لم يصب منهم إلا ذلك المركب الأول، حتى انتهينا إلى «مسلمة» ومن معه، فأخذناهم في الخليج إلى السقع الذي على باب القسطنطينية والبحر - أو قال: الخليج - محيط بها إلا نمالي برّها، فعسكر عليه «مسلمة». وكنا في سفننا مرسين على ساحلها مما يلي العسكر، يخرج من سفننا «عمر بن هبيرة» وغيره إلى «مسلمة» ومن أردنا من أهل العسكر، ويأتينا أهل العسكر فيدخلون علينا في سفننا» (١٤٠).

ولقد بقي «مسلمة» مقيماً على حصار القسطنطينية مدة ثلاثين شهراً حتى هلك الكثير من معه من الجوع، وأكل الناس بعضهم بعضاً، واضطر أن يرفع الحصار و يعود أدراجه دون أن يحقق اليمين الذي أقسمه الخليفة «سليمان» بفتح عاصمة الإمبراطورية، إلا أن الشق الثاني من القسم تحقق وهو وفاة الخليفة أثناء الحصار، وكان قبل ذلك قد ولي «حظي» أو «حُيي بن أبي كثير الجذامي» من أهل قرية حرستا، على غزو البحر، وكان منزله بعكا وبها عقبه من أبنائه وأحفاده (١٤١).

وروي الأوزاعي أن بعض البحارة من القبط كانوا في أسطول المسلمين، فوقعوا مع مركبهم في أيدي البيزنطيين، ثم أفلتوا منهم ورجعوا إلى ثغر بيروت، بعد عودة «ابن هبيرة».

في عهد عمر بن عبد العزيز ومن بعده

عاد البيزنطيون من جديد فأغاروا على ساحل اللاذقية فهدموا مدينتها وسبوا أهلها وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠هـ/ ٧١٩م فوجه عمر الغزاة في الصائفة من أهل حمص بقيادة «الوليد بن هشام المعيطي» و«عمرو بن قيس الكندي» ولم يزل الخليفة مهتماً بأمر اللاذقية حتى فتحها وأمر بإعادة بنائها قبل وفاته في سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠م ووجه إلى الإمبراطور البيزنطي يطلب منه فداء الأسرى المسلمين فرفض (١٤٢) وكان قد كتب إلى الأسرى المسلمين بالقسطنطينية ما نصه :

«.. أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى ولستم بأسارى، معاذ الله أنتم الحسباء في سبيل الله، واعلموا أنني لست أقسم شيئاً بين رعييتي إلا أخصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه وقد بعثت إليكم خمسة دنانير، ولولا أنني خشيت إن زدتكم أن يجسه عنكم طاغية الروم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان ابن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حركم ومملوككم، بما يسأل فأبشروا، ثم أبشروا» (١٤٣). وأخرج الغزاة في عهده إلى مرج دابق في نواحي حلب، يريدون منطقة الثغور.

وفي عهد «يزيد بن عبد الملك» جرى تقوية حصون اللاذقية وشحنها بالمقاتلة (١٤٤)، وولى على بيروت «أبا عثمان أيوب بن خالد الجهني المراغي» (١٤٥)، وعلى غازية البحر الشامي «المغيرة بن عمرو الأزدي» من أهل حرستا. واستمر في إمارة البحر حتى بعد وفاة يزيد بسنتين، إلى أن عزله «هشام بن عبد الملك» وولى مكانه «يزيد بن أبي مريم الثقفي المصيبي» (١٤٦)، وفي أيامه عاد البيزنطيون في عهد

١٤١. يعقوبي ٢/ ٢٩٩.

١٤٢. البلاذري، فتوح البلدان ١/ ١٥٧.

١٤٣. الأغانبي ٩/ ٢٦٥ و ٢٦٦، مختار الأغانبي ٥/ ٣٤، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ١٤٤.

١٤٤. البلاذري ١/ ١٥٧.

١٤٥. تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ٢٠٤، تهذيب التهذيب لابن حجر ١/ ٤٠١.

١٤٦. تاريخ دمشق (المخطوط) ٤٣/ ١٩٨، وعند البخاري «يزيد بن أبي مريم أبو عبد الله».

«هشام بن عبد الملك» (١٠٥ - ١٢٥ هـ/ ٧٢٤/٧٢٤م) فقاموا بغزوة إلى ثغر بيروت في سنة ١٠٧ هـ/ ٧٢٦م ووصلت سفنهم إلى باب الميناء، وكان «يزيد بن أبي مريم» معلولاً عند اللقاء، فخرج إليهم «خالد بن الحسفان الفارسي» فقاتلهم حتى أجبرهم على الهرب، وطاردهم بسفنه، فأرست إحدى سفنهم على جزيرة قبالة صور فاستولى عليها وأسر من فيها (١٤٧) وقد ادعى «يزيد بن أبي مريم» في كتاب كتبه إلى «هشام بن عبد الملك» بأنه وجه إلى الروم ابنه «الشرف» فهزمهم، ولكن صاحب البريد بطبرية أكد للخليفة أن «خالداً الفارسي» هو الذي خرج إلى الروم وليس «الشرف بن يزيد» فكتب «هشام» إلى «يزيد» يقرعه ويتهمه في أن ابنه «ليس بالشرف، ولكنه الوضع» ثم عزله وولى عوضه «الأسود بن بلال المحاربي» (١٤٨).

واجتمع جيش الشام، وعليه «ميمون بن مهران» (١٤٩) ومعه «معاوية بن هشام بن عبد الملك» ليرد على تلك الغزوة، فأبحر بالسفن من سواحل الشام وقطع البحر في سنة ١١١ هـ (١٥٠) ولكننا لم نتبين وجهة تلك الغزوة.

وفي السنة المذكورة كان «شديد بن قيس بن هاني اليزني» يلي بحر مصر والشام لآخر مرة (١٥١) غير أن المصادر التاريخية لا تفصح عن سيرته.

واستمرت الغزوات البحرية المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين، من وإلى ساحل الشام في عهد «هشام»، ووصل البيزنطيون في إحدى غزواتهم إلى بيروت فهاجموا ميناءها واستولوا على سفينة لجماعة من تجار إقليم مرسية الإسباني (١٥٢)، وتقدموا بسفنهم حتى قاربوا باب الميناء، فوقف أهل الميناء وهم يمسكون بأيديهم خوفاً ورهبة حتى خرج إليهم أمير البحر «الأسود بن جلال المحاربي» (١٥٢) فصاح

١٤٧. تاريخ دمشق ٧٦٧/٤٦.

١٤٨. تاريخ دمشق ٧٦٧/٤٦.

١٤٩. الطبري ٤٠/٧ (حوادث سنة ١٠٧ هـ)، ابن الأثير ١٤١/٥ (حوادث ١٠٨ هـ)، الحدود ١٠٦/٢.

١٥٠. الطبري ٦٧/٧، ابن الأثير ١٥٨/٥ ويذكر سليم النعيمي أن ميمون غزا مع معاوية جزيرة قبرس سنة ١٠٨ هـ (انظر تحقيقه لكتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، للزغشري، ج ١/١١٧، طبعة وزارة الأوقاف ببغداد)، وانظر: حلية الاولياء ٨٢/٤، تذكرة الحفاظ ٩٣/١.

١٥١. الاكمال، لابن ماكولا ٤٩/٥.

١٥٢. مرسية: إقليم في أسبانيا على ساحل البحر المتوسط استولى عليه العرب في القرن الثاني الهجري / ٨م. وجعلوا منه مملكة مستقلة في القرن ١١ هـ / ١١م. وكانت مدينة مرسية هي العاصمة. (الموسوعة العربية ١٦٨٢، القاهرة ١٩٦٥).

١٥٣. هكذا عند البخاري في التاريخ الكبير - مجلد ١ ق ١/٤٤٩ وعند الطبري وابن عساكر «الأسود بن بلال» بالباء، وعند ابن الأثير «المحادي» بدلاً من المحاربي (وهو تصحيف). وعند ابن حجر: «الاسود أبو سلام الكوفي» مخضرم ثقة جليل. (تقريب التهذيب - نشره عبد الوهاب عبد اللطيف ٧٧/١ - بيروت ١٩٧٥) وقد ولي إمرة البحر في بيروت بعد عزل عبد الله أو يزيد بن أبي مريم الثقفي بعد سنة ١٠٧ هـ. البخاري مجلد ٨ ق ٢ ج ٤ / ٣٦١، الطبري ٦٧/٧، تاريخ دمشق ٧٦٧/٤٦، الكامل في التاريخ ١٥٨/٥.

بهم، وركب قوارب صغيرة وأجهد نفسه في طلب البيزنطيين حتى لحق بسفنهم وأوقع بمقاتليها واستنقذ المركب والتجار(١٥٤).

وصرف «هشام» عنيته إلى تدعيم السواحل، وفي عهده انتقلت دار صناعة السفن من عكا إلى صور، وحول ذلك يروي «البلاذري» أنّ رجلاً من عكا كان يملك أرحاء ومستغلات فأراد هشام أن يشتريها منه، فأبى الرجل، وعند ذلك نقل هشام الصناعة إلى صور واتخذ بها فندقاً ومستغلاً (١٥٥)، وظلت صناعة المراكب في ميناء صور منذ ذلك الوقت حتى عهد المتوكل العباسي.

وبدا واضحاً أنّ أهل جزيرة قبرس كانوا يظهرون الغدر بين حين وآخر، فكانوا يقدمون التسهيلات للأسطول البيزنطي ويمدون بالعتاد ويزودونه بالمعلومات عن تحركات السفن الإسلامية. فكان المسلمون يخرجون بين وقت وآخر للاقتصاص منهم على عدم طاعتهم والوفاء بعهودهم. ولذلك غزاهم «الأسود المحاربي» في سنة ١٢٠ هـ/٧٣٨ م ومعهم «عياش بن عقبة» في أهل مصر (١٥٦). ثم قام في سنة ١٢١ هـ أو ١٢٢ هـ بالغزو إلى جزيرة إقريطش معه «حفص بن الوليد الحضرمي» على أهل مصر، وكان مرابطاً بالشام، فهزم أهل الجزيرة ونزل بالمسلمين عليها، وأصاب منها أسرى (١٥٧).

وقد استوجبت حدة الصراع شحن المدن الساحلية وتكثيف المرابطين فيها، لتفاقم الخطر البيزنطي، فخرج في الصائفة «خالد بن عبد الله القسري» مع ابنه «يزيد» و«هشام» وخرج ابنان آخران له للمرابطة في ساحل الشام مع عمهما «إسماعيل بن عبد الله القسري» وكان «إسماعيل» و«المنذر بن أسد بن عبد الله» و«سعيد» و«محمد» ابناً لخالد بالساحل لحدث كان من الروم (١٥٨).

وعندما آلت الخلافة إلى «الوليد بن يزيد بن عبد الملك» (١٢٥-١٢٦ هـ/٧٤٣-٧٤٤ م) قام بزيارة تفقدية إلى ساحل الشام ونزل بيروت فأعجبه، فأنشده فيها:

إذا شئت تصابرت ولا أصبر إن شئت
ولا والله لا يصبر في البرية الحوت
آ يا حَبَّبًا شَخْصَ حَمَت لُقْيَاهِ بِيْرُوتِ (١٥٩)

١٥٤. تاريخ دمشق ١٨/٦، التهذيب ٤٧/٣ ويجعل فتحي عثمان هذه الغزوة في سنة ١٢٠ هـ/٧٣٨ م (الحدود الإسلامية ١٠٦/٢).

١٥٥. البلاذري ١٤٠/١، كتاب الخراج لقدامه ٢٩٠.

١٥٦. تاريخ دمشق ١٩/٦.

١٥٧. تاريخ دمشق ١٨/٦ و١٩، التهذيب ٤٧/٣.

١٥٨. الطبري ٢٥٥/٧، ابن الأثير ٢٧٢/٥، النويري ٤٦٩/٢١.

١٥٩. معجم البلدان ٥٢٥/١، تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ١٥ وللوليد بن يزيد شعر آخر يذكر فيه بيروت وقراها. (الأغاني ٤٢/٧).

وأثناء زيارته أمر «الأسود بن بلال المحاربي» على جيش البحر في ساحل الشام كله، وأمره أن يسير لغزوقبرس ويأمر أهلها بالجلء عنها، ويخبرهم بين أن يسيروا إلى الشام أو إلى الروم، فنزل الأسود على الجزيرة في سنة ١٢٥ هـ/٧٤٣ م ومعه عياش بن عقبة، على أهل مصر، فخير أهلها في الإقامة خارجها أو القتال، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين في الشام فنقلهم إليها، وأسكنهم الماحوز على ساحل لبنان فيما بين صور وصيدا واختار آخرون أرض الروم فانتقلوا إليها (١٦٠).

ولكن الخليفة «يزيد بن الوليد» (١٢٦ هـ/٧٤٤ م) رد النازحين عن الجزيرة إليها بعد أن أنكر الناس ذلك، ولم يوافق عليه الفقهاء، فاستحسن المسلمون ما فعله «يزيد» (١٦١) وظلت قبضة المسلمين محكمة على الجزيرة، حتى جهز إليها الامبراطور «قسطنطين الخامس» في سنة ١٢٨ هـ/٧٦٤ م أسطولاً كبيراً في مياه آسية الصغرى الجنوبية، وسيّره إلى قبرس، فهاجم أسطولاً للمسلمين كان عندها وأنزل به الهزيمة، واحتل الجزيرة (١٦٢). وجاء احتلال قبرس في وقت كانت فيه الدولة الأموية قد شارفت على نهايتها. ولذا لم تظهر أية نتيجة فعّالة لجهود «حذيفة بن سعيد السلامي» الذي ولاه «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية على غازية البحر في سنة ١٢٧ هـ/٧٤٥ م بل إن «صالح بن علي» العباسي استخدم المراكب المرابطة في مواني بحر الشام لمطاردة «مروان بن محمد» وقتله في سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠ م (١٦٣) ليقضي بذلك على الخلافة الأموية، ولتطوى صفحة الأسطول الإسلامي مع الدولة الأموية، وتفتح صفحة جديدة عن دوره في العصر العباسي

١٦٠. البلاذري ١/١٨٣، الطبري ٧/٢٢٧، ابن عساكر ٦/١٩، التهذيب ٣/٤٧، ابن الأثير ٤/٢٧٤.

١٦١. البلاذري ١/١٨٥، الحدود الإسلامية ٢/١٠٨، المنتخب من تاريخ المنبجي ٩٥ و٩٧.

١٦٢. الروم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ١/٢٩٤، الحدود الإسلامية ٢/١٠٨، موسوعة تاريخ العالم، وليم لانجر، ترجمت بإشراف محمد مصطفى زيادة، ج ٢/٤٨٤، القاهرة ١٩٥٩.

١٦٣. الطبري ٧/٤٣٩.

الجيش الشامي في العصر الاموي نجدة خماش

وصلت الدولة العربية أقصى اتساعها شرقاً وغرباً وشمالاً في العصر الأموي، وكان للمقاتلة العرب الدور الأول والأساسي في تحقيق هذه الفتوحات التي انطلقت من مراكز متعددة: البصرة والكوفة، وأجناد الشام، والفسطاط، والقيروان بعد فصل ولاية إفريقية عن مصر سنة ٨٦هـ (١).

ورغم خضوع هذه الدولة المترامية الأطراف للخليفة الأموي المقيم في الشام، فإن الأسلوب الذي انتهجه الأمويون، والذي اضطلع بوضع أسسه معاوية بن أبي سفيان، باتخاذ اللامركزية في الإدارة سبيلاً لإعادة الاستقرار في الدولة الإسلامية، جعلت من الشام الولاية الوحيدة التي خضعت مباشرة لسلطة الخليفة الأموي، وكان لأهل الشام مكانتهم الخاصة لدى معاوية، فقد كان يرى أنهم عماد دولته المكين وسنده الأمين الذي ينبغي الحفاظ عليه، وفي بعض ما يؤثر عنه أقوال تنم عن شعوره بالود والمحبة لهم، ويظهر ذلك جلياً من وصيته لابنه يزيد، ومن ذلك الرواية التي يوردها الطبري على لسان الزهري، عندما أراد معاوية أن يرسل بسجل قد ختم عليه في أسفله إلى قيس بن سعد أن يسجل فيه ما يشاء؛ قال عمرو بن العاص لمعاوية: «لا تعطه هذا وقاته» فقال معاوية: «على رسلك، فانا لا نخلص إلى قتل هؤلاء حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام، فما خير العيش بعد ذلك». ونلاحظ أن هذه المودة المبنية على المنفعة المتبادلة استمرت ما قامت لبني أمية دولة في بلاد الشام، فالوليد بن عبد الملك كان عند أهل الشام أفضل خلفائهم، كما أنه كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن حماية أهل الشام، ويعتبر أهل الشام الجنة والرداء.

استطاع معاوية وخلفاء بني أمية من بعده، أن يحققوا بواسطة الجيوش الشامية الفتوحات في منطقة أرمينية واللان والخزر وفتح العديد من الجزر في البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى النجدات التي كانت ترسل شرقاً وغرباً إما دعماً للفتوح أو إخماداً للفتنة.

ورغم أن بني أمية كانوا يغزون الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية (٢)، فإن هذا لم يكن يمنع الراغبين في الجهاد من الاشتراك في هذه الحملات من الزهاد والعباد

١. ابن عذاري المراكشي، (ت ١٢٩٥/١٦٩٥م) البيان المغرب في أخبار المغرب، ج ٢، دار صادر بيروت، ١٢٨٨هـ/١٩٨٦م، ج ١ ص ٣٥.

٢. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٧م)، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص ١٢٨.

مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، (من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم)، مكتبة المثنى، بغداد (التاريخ) د. ت، ص ٨٩.

والصالحين (٣) وكانت البعوث تضرب أحياناً على أهل المدينة، فقد ضرب الوليد بن عبد الملك على أهل المدينة بعث ألفين سنة ٨٨هـ، ولكنهم تجاعلوا (٤) فخرج ألف وخمسمائة، فغزوا الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد (٥)، كما أن هشام بن عبد الملك عندما حج سنة ١٠٦هـ، طلب من ابراهيم بن هشام المخزومي أن يضرب على الناس بعث أربعة آلاف، فكان الناس اذا دخلوا الصائفة خرج أربعة آلاف من المدينة الى السواحل فكانوا هناك الى انصراف الناس وخروجهم من الصائفة (٦).

ويتبادر الى ذهن الباحث في للوهلة الأولى وهو يتتبع الروايات المتعلقة بالمقاتلة في الشام، وكان العرب المسلمين في الشام كانوا كلهم مقاتلة، وأنه لم يكن هناك فاصل بين مجتمع عربي إسلامي وجيش، مع أن الفصل بين المجتمع والجيش قد بدأ في فترة مبكرة في عهد الرسول (صلعم) عندما كانت الجماعة الإسلامية بكاملها تعتبر جماعة محاربة، يتوجب على أفرادها المشاركة في الجهاد، الا أن الرسول كان حريصاً منذ البدء أن لا يخرج معه الا الراغب في الجهاد (٧). وعندما انتشر الاسلام بين القبائل أصبح هناك مسلم مجاهد وآخر غير ذلك دعي بالاعرابي (٨)، ورفض أبو بكر الاستعانة بأحد من أهل الردة عندما بدأت الفتوحات (٩)، ولكن عمر لم يشأ أن تظل هذه القوى معطلة، فأذن لهم أن يشاركوا في

٣. مصعب الزبيري، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦هـ / ٨٥٠م)، نسب قريش، تحقيق أ. ليفي بروفنسال، المكتبة ص ٣٣٩.

ابن خلكان، حمد البرمكي (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢ ص ٤٢٦. و. القاهرة دار المعارف ١٩٥٣م
عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ٧، ج، دار المسيرة، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ج ٤ ص ٤٠٦.

٤. المعنى الاصطلاحي كما ورد في لسان العرب أن يكتب الغزو على الرجل فيعطي رجلاً آخر شيئاً ليخرج مكانه، وقيل جعله والجمالة، أن يكتب البيث على الغزاة فخرج من الأربعة أو الخمسة رجل، و يجعل له جعل. ابن منظور، (محمد بن مكرم) (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) لسان العرب، طبعة بولاق، ١٣٠١هـ مادة جعل، وفي حديث ابن سيرين، أن ابن عمر نكروا عنده الجمائل، فقال: لا اغزوا على اجر ولا ابيع أجري من الجهاد.

٥. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، ١٠، ج، ط، ٢، دار المعارف، ج ٦ ص ٤٣٤، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ
٦. الطبري، تاريخ، ج ٧ ص ٢٩.

٧. ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)، كتاب الطبقات الكبير، الأجزاء السبعة الأولى، ليدن، ١٣٢٢هـ / ١٩٠٤م ج ٢ ص ٢٧، الطبري، ج ٣ ص ١٠٧.

٨. ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٣٥٧هـ / ١٩٢٨م، ج ١، ص ٣٧٤.

٩. الطبري، تاريخ ج ٣، ص ٣٢٧، ٢٤١، ج ٤، ص ٢٥.

الجهاد (١٠)، ولكنه لم يطمعهم في الرياسة كما يقول الشعبي، واضطر عمر ازاء تردد العرب في الالتحاق بالجهة الفارسية أن يلجأ الى التجنيد الالزامي الى جانب التطوع (١١).

وجاء وضع الديوان الخطوة الأساسية في تنظيم المقاتلة، لأن المسلم ما دام قد ضمن عطاءه، وعطاء أهله فقد لزمه الجهاد، اذا دعي واستوفى شروطه، وأوضح الخليفة عمر بن الخطاب منذ البدء أن العطاء هو لأهل الفيء الذين آفأ الله عليهم وهم أهل المدائن فصاروا بعد الى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر (١٢). ونجد صدق ذلك في توجيهات عمر بن عبد العزيز القاضية بأن لا يسجل أعرابي (١٣) ولا تاجر في ديوان المقاتلة (١٤)، لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين، ولأن الأعراب لا يحضرون محاضرات المسلمين ولا مشاهدتهم. واذا تركنا جانباً توجيهات عمر بن عبد العزيز، فاننا نلاحظ اعتبارات أخرى لعبت دورها، أهمها الولاء للبيت الأموي، ولذلك فان التسجيل في ديوان الجند في الشام لم يكن اعتباطياً أو مفتوحاً للجميع وإنما يخضع لتوجيهات الخليفة، نجد انعكاس ذلك في رواية أبي أيوب السعدي، في تاريخ دمشق، التي تشير الى أن معاوية لم يفرض في بادئ الأمر الا للقبائل اليمانية وأن مسكين الدارمي قدم الى معاوية وسأله أن يفرض له فأبى، ولكنه لم يلبث أن فرض لأربعة آلاف من قيس وجعل مسكيناً في شرف العطاء عندما بلغه أن رجلاً من أهل اليمن قال يوماً: «لهممت أن لا أحل حبوتي حتى أخرج كل نزارى في الشام» (١٥).

وبما أن التسجيل في الديوان كان يعني للشخص الإقامة في البلد الذي به ديوانه فان الأمويين لم يكونوا يفرضون لبكر بن وائل وتميم بديوان الشام مخافة استقرارهما فيها، فقد رفض عبد الملك نقل اسم شبيب بن يزيد الشيباني من ديوان الجند في الكوفة الى ديوان الجند في الشام خوفاً من أن يكثر المنتسبون الى بكر وتميم فيها (١٦)، ورغم الصلة الوثيقة بين الشام والجزيرة، بحيث أن القوم اذا ذكروا أهل الشام ذكروا أهل الجزيرة (١٧)، فان الفرض لقيس

١٠. الطبري، المصدر السابق نفسه، ج ٣، ص ٤٤٨.

١١. الطبري، المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٧٨، ٤٧٩. كتب عمر بن الخطاب الى عماله على الأقاليم، «ولا تدعوا في ربيعة ولا مضر ولا حلفائهما أحداً من أهل النجدة، ولا فارساً الا جلبتموه فان جاء طائعاً والا حشرتموه. كما كتب لبعض قواده: لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي الا تختبئتموه ثم وجهتموه الي والعجل العجل.

١٢. الطبري، المصدر السابق نفسه، ج ٢، ص ٦١٩، ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) الأعلام النفيسة، ليدن، ١٨٩١م، ص ١٠٧.

١٣. أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٢٨م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد حامد الفقي، ص ٢٢٧.

١٤. ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٥٥.

١٥. تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٣٠٢.

١٦. احسان صدقي العمدة، الحجاج بن يوسف الثقفي: حياته، وأراؤه السياسية، بيروت، ١٩٧٣م، ص ٤١٣، البلاذري، أنساب، ج ٧، ص ٨٩.

١٧. البلاذري، أنساب، القسم الثالث، العباس بن عبد المطلب وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري، بيروت، ١٩٧٨م، ص ١٥١.

وربيعة كان محدوداً رغم كثرتهم العددية في الجزيرة، ويؤكد ذلك أن مروان بن محمد (١٣٧-١٣٢) عندما بلغه وفاة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، دعا قيساً وربيعاً، ففرض لستة وعشرين ألفاً من قيس وسبعة آلاف من ربيعة (١٨).

أما إذا أردنا التعرف على العناصر التي كان يتألف منها الجيش الشامي في العهد الأموي فلا بد من دراسة النصوص المختلفة المتعلقة بالجيش التي اشتركت في الفتوح أو بقمع الفتن ففي صفين، اختلفت الروايات في عدد جند معاوية ما بين ٧٠ ألفاً (١١) الى بضع وثمانين ألفاً (٢٠) الى مائة وعشرين ألفاً (٢١)، ولكنها تتفق على أن جيش معاوية كان يتألف من القبائل العربية، ونستنتج من دراستنا لتعداد ألوية القبائل أن جل من قاتل معه كانوا من القبائل اليمانية والقضاعية: حمير وكنب و بهراء. وتنوخ ولخم وجذام وهمدان وخثعم وغسان ومذحج وعك والأشعريين. وكندة والأزد (٢٢)، ولا نجد ذكراً الا لقيس دمشقي عند خليفة بن خياط (٢٣) ولقيس حمص عند الدينوري (٢٤) لأن منطقة قنسرين في ولاية معاوية للشام كانت لا تزال تابعة لجند حمص. أما الموالي فلا يرد لهم ذكر الا كتابعين لسادتهم.

ورغم أن الروايات المتعلقة بالجيش الذي أرسله يزيد الى الحجاز لا تشير الى القبائل وانما الى عدد المقاتلة من كل جند من الأجناد أو عدد المقاتلة من أهل الشام عامة (٢٥)، فإنه

١٨. خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة، تحقيق سهيل زكار، ج ٢، المكتبة والتاريخ، ج ٢، ص ٥٦٤، وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق ١٩٦٨، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم (ت ٢٣٤هـ/٩٤٥م) تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، المكتبة القاهرة، ١٢٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٦١.
١٩. خليفة، تاريخ، ج ١، ص ٢١٨.
٢٠. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م) العقد الفريد، ج ٧، تحقيق أحمد أمين أحمد الزين، ابراهيم الأبياري، المكتبة، ١٩٤٩-١٩٦٨م، ج ٢، ص ٢٣٧. القاهرة/ لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٩-١٩٤٠.
٢١. ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد العربي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١-١٩٦٨، ج ١، ص ٢٨.
٢٢. نصر بن مزاحم (ت ٢١٢هـ/٨٢٧م)، وقعة صفين، (د.ن) القاهرة، ١٣٦٥هـ، ص ٢٣٢ ٢٩٩.
- خليفة، تاريخ ج ١ ص ٢٢٢. الدينوري، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر مراجعة جمال الدين الشيال (د.ن)، القاهرة، ١٩٦٠م ص ١٧٢. الطبري، تاريخ، ج ٥ ص ١٤. ابن الأثير، أبو الحسن علي ابن الكرم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٤م)، الكامل في التاريخ، ج ١٠، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج ٢ ص ١٥.
٢٣. خليفة، تاريخ، ج ١، ص ٢٢٢.
٢٤. الدينوري، الأخبار، ص ١٧٢.
٢٥. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ دار صادر، بيروت، ١٢٧٩هـ/١٩٦٠م، ج ٢، ص ٢٥١، تهذيب، ج ٧، ص ٦٠.

يمكننا القول إن دور الموالي في الجيش في الفترة السفيانية كان محدوداً، كما أن المقاتلة الذين اشتركوا في معركة مرج راهط سواء مع الضحاك أو مع مروان بن الحكم كانوا كلهم من العرب، فمن قصيدة يقال أن مروان أنشدها يوم بويع، يتبين لنا أن القبائل التي أيدت مروان كانت قضاعية ويمانية، كلب والسكاسك وطيء والقين وتنوخ والسكون وغسان (٣٦)، في حين أن القبائل التي أيدت الضحاك كانت قيسية ويمانية، إذ يذكر البلاذري أنه كان مع الضحاك خلق من أهل اليمن؛ إلا أن قيساً كانوا رؤوس الناس وعددهم (٣٧). وتشير الرواية التي يوردها خليفة بن خياط وابن عبد ربه إلى أنه كان مع الضحاك ستون ألف مقاتل ومع مروان ثلاثة عشر ألفاً فقط (٣٨)، بينما يرد عند ابن اعثم أن مروان كان في ثمانية عشر ألفاً أكثرهم جماعة اليمن، وأن الضحاك بعد إمداد بشير الأنصاري كان في ٢٣ ألفاً أكثر من قبائل قيس (٣٩)، واعتقد أن الأرقام التي يذكرها ابن اعثم أقرب إلى الواقع والمنطق من تلك التي ترد عند خليفة وابن عبد ربه، لأننا إذا قبلنا أن الضحاك كان في ستين ألفاً فمعنى ذلك أن القبائل اليمانية التي كانت معه كانت أكثر من القيسية، وقد تبين لي من دراسة توزع السكان في الشام أن العناصر اليمانية والقضاعية هي الغالبة في كل الأجناد ما عدا جند قنسرين حيث كانت أكثريتها قيسية، إلا أنه لا يمكن أن يصل عدد مقاتلته إلى أكثر من ٢٠ ألفاً.

أما عن دور الموالي في هذه المعركة فإننا نستنتج من اقتراح عبید الله بن زياد، وعبد الرحمن بن عبید الله الثقفي بجمع موالي بني أمية وتسليحهم أجمعين حتى يتسنى لهم دعم مروان (٤٠) أن موالي بني أمية لم يكن يعتمد عليهم في القتال حتى هذه الفترة، ولكن هذا الاعتماد أخذ يزداد تدريجياً ابتداءً من خلافة عبد الملك بن مروان، فعندما ثار الجراجمة في جبل اللكام استطاع سحيم بن المهاجر أن يقضي على ثورتهم بجيش من موالي عبد الملك، وموالي بني أمية وجند من ثقات جنده (٤١)، كما أن سحيم استطاع أن يستميل العبيد الأباقي إليه والذين اشتركوا في ثورة الجراجمة، عندما أمر فنودي بأنه من يأتيه من العبيد فهو حر ويثبت في الديوان (٤٢)، فانفض إليه خلق كثير، وقاتلوا معه، فوفى لهم وجعل لهم ربعاً على حدة فهم يسمون الفتیان (٤٣) وعندما ثار يزيد بن المهلب سنة ١٠١هـ جهز يزيد بن عبد الملك

٢٦. الطبري، ج ٥، ص ٥٣٨، البلاذري، أنساب، الجزء الخامس، مؤسسة الدراسات الشرقية بالجامعة العبرية، القدس، ١٩٣٦م ص ١٢٨. ابن اعثم (أبو محمد أحمد بن اعثم الكوفي) (ت ٢١٤هـ/٩٢٦م) الفتوح، ٧ أجزاء، تحقيق محمد عبد المعيد خان، ج ٥، ص ٣١٢، ٣١٣.
المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) (ت ٢٤٦هـ/٩٥٦م) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ أجزاء، دار الأندلس، ج ٣، ص ٨٧.

٢٧. البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٣٠١.
٢٨. خليفة، تاريخ، ج ٣٢٦١. ابن عبد ربه، ص ٣٩٦.
٢٩. ابن اعثم، فتوح، ج ٥، ص ٣١٣.
٣٠. البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٢٨.
٣١. البلاذري، فتوح، ص ١٦٥. ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٠٤.
٣٢. البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٢٩٩، ٣٠٠.
٣٣. المصدر السابق، ص ٣٠٠.

أخاه مسلمة وابن أخيه العباس في سبعين ألفاً وقيل كانوا ثمانين ألفاً (٢٤)، فلما سمع أصحاب ابن المهلب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك، فخطب ابن المهلب الناس وقال: «لقد رأيت أهل العسكر وخوفهم: يقولون قد جاء أهل الشام ومسلمة، وما أهل الشام هل هم الا تسعة أسياف سبعة منها الي وسيفان علي، وما مسلمة الا جردة صفراء أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاحين» (٢٥). يعني أن نسبة العرب الى الموالي كانت ٢:٧. وتذكر المصادر ولأول مرة ظهور فرقة عرفت بالوضاحية لعبت دورها في القضاء على ثورة يزيد بن المهلب (٢٦). وكان وضاح مولى لبني أمية بربريا (٢٧)، امتدحه جرير في قصيدته (ضار بوهام الملوك) حيث نراه يثني على الموالي و يطيل في ربط العرب بالعجم بأبي الأنبياء ابراهيم الخليل، فيقول:

وأبناء اسحاق الليوث اذا ارتدوا	محامل موت لابسين السنورا
فيوما سراويل الحديد عليهم	ويوما ترى خبزاً وعصباً منيرا
لقد جاهد الوضاح بالحق معلناً	فأورث مجداً باقياً آل بربرا
أبونا أبو اسحاق يجمع بيننا	أب كان مهدياً نبياً مطهرا
فيجمعنا والغر أبناء سارة	أب لا نبالي بعده من تعذرا

ويستمر جرير في القصيدة في حوالي أربعة عشر بيتاً يمتدح فيها الموالي لاشتراكهم مع جيوش الخليفة في القضاء على ثورة يزيد بن المهلب، وهو في قصيدته هذه، قد تراجع عن نظرته القديمة، نظرة الاشمزاز من الموالي واحتقارهم. ونستطيع أن نفهم موقف جرير هذا، اذا عرفنا أنه كان شاعراً سياسياً بالمعنى التام، شاعراً يحامي عن نظرية حق الأمويين في الحكم و يناضل عنهم و يسدد سهامه الى خصومهم، وهو في تضاعيف ذلك يحفهم باطار رائع من التقوى والعمل الصالح، مقررأ أن شيعتهم على الحق وان مخالفهم من الشيع أهل باطل.

فضلا عظيماً على من دينه البدع

يا آل مروان ان الله فضلكم

٣٤. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٧٣، ٧٤.
 ٣٥. المصدر السابق، ج ٥، ص ٧٣، ٧٤. العيون والحدائق، ص ٧٠.
 ٣٦. الطبري، ج ٦، ص ٥٩٥، ابن الأثير، ج ٥، ص ٧٣، ٧٤.
 ٣٧. ياقوت الحموي (ت ١٢٢٩هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج ٥، ص ٣٧٨.
 ٣٨. جرير بن عطية بن حديفة الخطفي، (ت ١١٥هـ/٧٢٣م) ديوان جرير، دار صادر، بيروت، ص ١٨٥ - ١٨٧.

واعتمد مروان على الوضاحية في القضاء على ثورة حمص (٣١)، وكان عددهم ثلاثة آلاف، كما استخدمهم مروان لقمع ثورة أهل الغوطة (٤٠)، ويرد كذلك اسم الذكوانية وأنهم موالي سليمان ابن هشام بن عبد الملك (٤١). وكان مع مروان يوم الزاب ثلاثة آلاف من المحمرة، ومعه الذكوانية والصحصحية والراشدية، بالإضافة الى القبائل العربية، قضاة، والسكاسك، وبني عامر، وبني سليم والسكون، وغطفان (٤٢). ويورد خليفة بن خياط أن مروان كان في مائة ألف من المقاتلة من أهل الشام والجزيرة وحشدت معه بنو أمية بأنفسهم وأتباعهم (٤٣). أما المحمرة فهم على الأغلب موالي مروان بن محمد من الخزر والصقالبة والروم (٤٤). وقد رأينا أن الذكوانية هم موالي سليمان بن هشام بن عبد الملك، فإذا اعتبرنا المحمرة والذكوانية فرقاً من الموالي أمكننا بالقياس أن نعتبر الصحصحية والراشدية من الموالي كذلك، لا سيما وأن الطبري يورد صراحة أسماء القبائل العربية التي اشتركت في معركة الزاب بالإضافة الى هذه الفرق من الموالي.

ورغم إسهام الموالي في الجيوش الشامية في العصر الأموي، فإن دورهم يبقى متواضعاً بالنسبة للمقاتلة من أبناء القبائل العربية، كما يبقى تحديد أعداد المقاتلة في الشام أمراً فيه بعض الصعوبة، لاشتراك المتطوعين ومقاتلة من الأمصار الأخرى أحياناً، لا سيما في الحملات الموجهة لفتح القسطنطينية، ففي الحملة التي وجهت في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ) بلغ الجيش الذي توجه مع مسلمة، مائة ألف وعشرين ألفاً حسب قول ابن العبري (٤٥)، وخمسمائة وثلاثين ألفاً يأخذون العطاء «و يتقلبون في الرزق» حسب رواية ابن قتيبة (٤٦)، التي قد لا تخلو من المبالغة، وربما أشار ابن العبري الى عدد المقاتلة من أهل الشام، بينما يذكر ابن قتيبة عدد مقاتلة الجيش من أهل الشام والأمصار الأخرى. وفي الوقت نفسه الذي اشترك فيه الجند الشامي في غزو القسطنطينية، نجد الطبري يذكر أن عدد المقاتلة الشاميين في جيش يزيد بن المهلب الذي توجه لفتح جرجان بلغ ٦٠ ألفاً. ورغم أن مسلمة أسكن ٢٤ ألفاً من أهل الشام في مدينة الباب والأبواب على العطاء في خلافة هشام بن عبد الملك (٤٧)، وأن هشاماً قد ندب كلثوم بن عياض من الشام لقتال البربر في إفريقية وبعث معه

٣٩. الطبري، ج ٧، ص ٣١٢ ابن الأثير، ج ٥، ص ٣٢٩.

٤٠. الطبري، ج ٧، ص ٣١٢. ابن الأثير، ج ٥، ص ٣٢٩.

٤١. الطبري، ج ٧، ص ٣١٢، ابن الأثير، ج ٥، ص ٣٢٤، وذكوان ابن عبد الله مولى عبد الملك بن مروان

٤٢. الطبري، ج ٧، ص ٤٢٣.

٤٣. خليفة، ج ٢، ص ٦١١.

٤٤. البلاذري، أنساب، القسم الثالث، ص ١٢١.

٤٥. ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس (ت ٦٢٢هـ - ٦٨٥هـ / ١٢٢٦ - ١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت (د.ت)، ص ١١٤. ١٩٥٨. تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي.

٤٦. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)، الإمامة والسياسة، ج ٢، تحقيق طه

محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه، ج ٢، ص ٧٣.

٤٧. البلاذري، فتوح، ص ٢٠٩.

ثلاثين ألف فارس (٤٨)، فأننا نرى أن مروان عندما سار إلى الشام لخلع إبراهيم بن الوليد، وجه إبراهيم الجنود مع سليمان بن هشام في عشرين ومائة ألف، بينما كان مروان في ثمانين ألفاً من أهل الجزيرة وقنسرين (٤٩). وهذا يعني تسجيلاً مستمراً في ديوان الجند في الشام وأن متوسط عدد مقاتلة جيش الشام كان يتراوح بين مائة ألف ومائة وعشرين ألفاً.

انقسم مقاتلة الشام المسجلون في ديوان الجند إلى فرسان ومشاة أو خيالة ورجالة (٥٠)، ولكننا نلمس تركيزاً كبيراً على الفرسان في خلافة بني أمية، والأمثلة على اعتماد الخلفاء والأمراء على الفرسان كثيرة، فقد كان جيش الحصين بن نمير السكوني الذي توجه لقتال عبد الله بن الزبير يتألف من وجوه أهل الشام وفرسانهم (٥١)، وأثناء محاربة الحجاج بن يوسف الثقفي لشبيب الخارجي وافته الجيوش من أهل الشام في أربعة آلاف فارس (٥٢)، كما أنه دعا عبد الله بن رميثة الطائي من أهل حمص، ومظهر بن حر العكي من أهل الأردن فضم إليهما ثمانية آلاف فارس (٥٣)، وعندما جمع الحرشي في خلافة هشام بن عبد الملك غنائم الخزر، أخرج الخمس وقسم باقي ذلك في المسلمين فبلغ ما أخذه كل رجل من المسلمين ألفاً وثمانمائة دينار، وهذا يعني أن جيشه كله كان مؤلفاً من الفرسان، لأنه من المتفق عليه أن الغنائم كانت توزع بالسوية للراجل سهم ولل فارس سهمان أو ثلاثة حسب بعض الروايات (٥٤)، وفي حرب مروان بن محمد ضد الخزر طلب مروان بن الكوثر بن الأسود العنبري وكان على شرطته أن يجوز نهر الصقالبية، ويكمن للخزر في مثل عدتهم، وكانوا في أربعين ألفاً من أبناء الطراخنة، فانتخب الكوثر من ساعته أربعين ألفاً من فرسان العسكر (٥٥) وقد رأينا أن هشاماً عندما ندب كلثوم بن عياض لقتال البربر في إفريقية بعث معه ثلاثين ألف فارس. أما الأسلحة التي كان يستخدمها الفرسان فهي السيف والرمح والنبل، بينما كانت وسائل الدفاع تتألف من الدرع والترس والمغفر والبيضة، وكان سفيان بن عوف الأزدي الذي كان

٤٨. ابن عذاري، ج ٢، ص ٤٢، يورد ابن عذاري وفق رواية ابن القطان - أن جيش كلثوم بن عياض كان يـ ٣٠ ألفاً منهم عشرة آلاف من صلب بني أمية وعشرون ألفاً من سائر العرب بينما يذكر في ج ١ ص ٥٦ أن هشاماً عقد لكلثوم على اثني عشر ألفاً من أهل الشام وكتب إلى والي كل بلد أن يخرج معه، ويتبين لنا مما أورده ابن عذاري في ج ٢ ص ٤٨ أن جند بلج الذين دخلوا الأندلس كان يضم مقاتلة من الأجناد الخمسة، قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين.
٤٩. الطبري، ج ٧، ص ٣٠٠، ٣٠١.
٥٠. خليفة، تاريخ، ج ١، ص ٢٢٢. الدينوري، الأخبار، ص ١٧٢. الطبري، ج ٤، ص ٥٦٧، ٥٦٩، ج ٥، ص ٤٨٨.
٥١. الطبري، ج ٥، ص ٥٠٢.
٥٢. ابن اعثم، أبو محمد أحمد بن اعثم الموفى (ت: ٢١٤هـ/٩٢٦م)، الفتوح ٨، ج، دار الكتب العلمية. بيروت، المجلد (٧-٨)، ص ٦٤.
٥٣. المصدر السابق، ص ٩٥.
٥٤. الطبري، ج ٢، ص ٤٤٠. أبو يوسف، كتاب الخراج، باب في قسمة الغنائم، ص ١٨ - ٢٣.
٥٥. ابن اعثم، فتوح، ج ٧-٨، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

من أشهر قادة الصوائف والشواتي في خلافة معاوية لا يجيز في العرض الا رجلا بفرس ورمح وترس ومخصف وخيوطكتان ومخللة ومبضع ومقود (٥٦)، ووجه عمر بن عبد العزيز كتاباً الى ولاته جاء فيه: «لا يقبل من رجل له مائة دينار الا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل» (٥٧) وعندما أرسل مروان بن محمد عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي الى المدينة لقتال أبي حمزة الخارجي قدمها في أربعة آلاف فارس عربي منهم من عليه درعان أو درع وسنور وتجايف عدة لم ير مثلها في ذلك الزمان (٥٨).

من المؤسف أن الروايات المتعلقة بأسلحة المشاة غير متوفرة، ولكننا اذا علمنا أن الامبراطور البيزنطي ليون يعترف رغم ما عرف عنه من تحامل على العرب، بأن الجندي العربي لم يكن يفترق عن الجندي البيزنطي في السلاح ووسائل الدفاع وآلاته (٥٩) فان تعرفنا على أسلحة المشاة في الجيش البيزنطي يعطينا فكرة عن أسلحتهم في الجيش الشامي، فقد وجد لدى البيزنطيين مشاة ذوو أسلحة خفيفة يستخدمون النبال أو الرماح، ومشاة ذوو أسلحة ثقيلة يستخدمون الدروع المزودة و يحملون الرماح والسيوف والتروس (٦٠). وكان الجيش الشامي منذ ولاية معاوية مجهزاً كاملاً حتى أطلق على جيشه في صفين اسم الخضرية لاسوداده بالدروع والسلاح (٦١)، وكان العرب يطلقون على الكتيبة المغطاة بالحديد كتيبة خضراء (٦٢)، و يذكر المسعودي أن ميمنة معاوية كانت تضم عشرين ألفاً مقنعين بالحديد (٦٣)، بينما لم يكن مقاتلة الخليفة علي على هذا المستوى، نستنتج ذلك من قول علي يحرض أصحابه بأن يسووا صفوفهم كالبنيان المرصوص وأن يقدموا الدارع ويؤخروا الحاسر (٦٤).

الى جانب هذه الأسلحة ووسائل الدفاع الخفيفة التي كان يستخدمها المقاتلة، وجدت الأسلحة الثقيلة التي يشترك في استخدامها أكثر من جندي، يذكر ابن اسحاق في كلامه عن غزوة الطائف أن أول من رمى في الاسلام بمنجنيق هو الرسول (صلعم)، رمى به أهل

٥٦. تهذيب، ج ٦، ص ١٨٥.

٥٧. ابن سعد، ج ٥، ص ٢٥٨.

٥٨. الطبري، ج ٧، ص ٣٩٩.

Von Kremer, The Orient under the Caliphs, p. 328 Omar. Charles, K.B.E. A History of The Art of War in the Middle Ages. Vol. I, A.D. 378-1278, New York. p. 208-204.

Wilhelm Ensslin, The Army and the Fleet, Byzantium, II An Introduction to East Roman Civilization, ed. Norman H. Baynes & H.St. B. Moss. p. 301-302.

٦١. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٢٧.

٦٢. الطبري، ج ٢، ص ٥٤.

٦٣. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٨٠، ٢٨٨.

٦٤. ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٩٧.

الطائف (٦٥). كما يرد عند ابن هشام والطبري أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يشهدا حنيناً ولا حصار الطائف لأنهما كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابة والضبور (٦٦). وإذا علمنا أن جرش من أرض البلقاء والبلقاء من عمل دمشق، وأن هذه المنطقة كانت تحت الحكم البيزنطي، فمن الجائز أن يكون العرب قد نقلوا عن البيزنطيين استعمال المنجنيق والعرادة، لرمي الكتل الصخرية (٦٧).

استخدم المقاتلة في الشام المنجنيق عند حصارهم للمدن المحصنة، فقد حصر المسلمون دمشق سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق (٦٨)، وأغار مقاتلة أهل الشام في ولاية معاوية على أطراف صقلية، وأخرجوا مجانيق كانت معهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رمياً متداركاً، إلا أن الحجارة التي استخدمت كانت معتدلة (٦٩). واستمر استخدام الحجارة سواء عندما حاصر عبد الملك قرقيسيا في طريقه لقتال مصعب بن الزبير (٧٠)، أو في حصار مكة عندما توجه الحجاج لقتال عبد الله بن الزبير (٧١)، وحتى مروان بن محمد الذي استخدم المنجنيق على نطاق واسع استعمل الحجارة فقط (٧٢)، ولكن مسلمة بن عبد الملك عندما هاجم مدينة الباب والأبواب حاصرهم ورماهم بالحجارة ثم بحديد اتخذته على هيئة الحجارة (٧٣). تجاه هذه الروايات نتساءل عن مدى الدقة فيما يروي المسعودي، عندما يذكر أن الحصين بن نمير السكوني رمى الكعبة بالأحجار والنار والنفط ومشاقات الكتان (٧٤)، فهل نسب المسعودي إلى فترة يزيد ذلك التطور الذي حدث في وقت متأخر بعض الشيء لكي يعلل بذلك احتراق الكعبة التي يقال إنها احترقت أثناء الحصار. هذا وأن الإشارات إلى استخدام المنجنيق وبأعداد كبيرة لا يمكن أن تتوافر في الجيش، وما لم يكن لديه دار لصناعتها، وفرق

٦٥. ابن هشام، السيرة، ج ٤، ص ٩٤.

٦٦. ابن هشام، المصدر السابق نفسه، ج ٤، ص ٩٠. الطبري، ج ٣ ص ٨٢٨١. الدبابة لغة اسم مشتق من (دب) يدب دبيباً إذا مشى على مهل) وسميت بذلك لأنها تدب حتى تصل إلى الحصون، ثم يعمل الرجال الذين بداخلها في ثقب أسوارها بالآلات الحفر. ويظهر بأن الصبر نوع منها، أو هي الدبابة نفسها من ترادف الأسماء ففي القاموس المحيط، أن الضبر جلد يغشى خشباً فيه رجال تقترب إلى الحصون للقتال، والجمع ضبور، وليست الدبابة شيئاً غير هذا. ويبين صاحب أثار الأول (ص ٢١٤) أن الدبابة آلة تتخذ من الخشب الملز وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجل مستدير وتحرك، وربما جعلت برجاً من خشب ودبر فيها هذا التدبير وقد يدفعها الرجال فتندفع على بكر.

٦٧. Von Kremer, Op. Cit., p. 237, Omar, Op. Cit, p. 219.

٦٨. الطبري، ج ٢، ص ٤٢٨. ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٢٨.

٦٩. ابن أعمش، فتوح؛ ج ٢، ص ١٤٣.

٧٠. ابن أعمش، المصدر السابق نفسه، ج ٦، ص ٤٦٢. البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ٣٠١.

٧١. الطبري، ج ٦، ص ١٨.

٧٢. الطبري، ج ٧، ص ٣٢٦. ابن الأثير، ج ٥، ص ٣٢٣.

٧٣. البلاذري، فتوح، ص ٢٠٩.

٧٤. المسعودي، مروج، ج ٢، ص ٧١.

تقوم على تجهيزها وإعداد القذائف لها والعمل على صيانتها وحفظها سليمة صالحة للاستعمال.

لم يكن عطاء المقاتلة في الشام المسجلين في ديوان الجند بنسب واحدة، فقد كان هناك حد أعلى للعطاء يدعى شرف العطاء الذي انخفض في خلافة بني أمية إلى ٢٠٠٠ درهم بعد أن كان محددًا بألفين وخمسمائة درهم في عهد عمر ومن تبعه من الخلفاء الراشدين (٧٥)، يذكر البلاذري أنه قتل مع الضحاك في مرج راهط ثمانون من الأشراف كان لكل رجل منهم في العطاء الفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم (٧٦).

وإذا كان شرف العطاء قد أعطي في بادئ الأمر لأهل الأيام والفتوح الأولى مجازاة لهم لمساهماتهم في تلك الحروب الخطيرة وبلائهم فيها أولم قام ببعض الأعمال الإدارية والقيادية (٧٧)، فإنه أضيف إليه في العصر الأموي الولاء لبني أمية مع التورث في شرف العطاء الذي لم يكن يورث قبل ذلك، فقد اشترط حسان بن مالك بن بحدل، وكان سيد أهل الشام، على مروان ما كان لهم من شروط على معاوية وابنه يزيد، منها أن يفرض لهم لألفي رجل ألفين ألفين، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه (٧٨)، وفي صفين طلب مسروق العكي من معاوية أن يفرض لقومه في ألفين ألفين ومن يهلك منهم فابن عمه مكانه إذا أراد أن تكون عك والأشعريون في المقدمة، فوافق معاوية على ذلك (٧٩).

وكان عطاء أغلبية المقاتلة في الشام والعراق في العهد الراشدي يتراوح ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة وفق رواية الواقدي عن الزهري (٨٠)، بينما يشير النص الذي يورده الطبري إلى أن الحد الأدنى كان مائتين (٨١). أما في العهد الأموي فإن الولاء للبيت الأموي والإخلاص له كان دافعاً لزيادة العطاء لأهل الشام، ظهر ذلك منذ خلافة معاوية الذي نقل بيت مال الدولة من الكوفة إلى دمشق، وزاد في عطاء أهل الشام وانقص عطاء أهل العراق (٨٢). ووعده عبد الملك أهل العراق خلال ثورة ابن الأشعث أن يجعل عطاءهم مساوياً لعطاء أهل الشام ولكن نظراً لرفض مقاتلة العراق شروط عبد الملك فإنه لم

٧٥. الطبري، ج ٣، ص ٦١٤، ج ٤، ص ٧٥.

٧٦. البلاذري، أنساب، ج ٥، ص ١٢٦. ابن سعد، ج ٥، ص ٢٥٥.

٧٧. ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ١٤٢، البلاذري، فتوح، ص ٤٢٢.

٧٨. المسعودي، مروج ج ٢، ص ٨٦.

٧٩. الدينوري، الأخبار، ص ١٨٦. وكان ما فرض لعك في أيام عمر بن الخطاب ٣٠٠ درهم (الطبري ج ٤، ص ٩١).

٨٠. البلاذري، فتوح، ص ٤٢٨.

٨١. الطبري، ج ٣، ص ٦١٤.

٨٢. يوليوس فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريبة، ص ١٢٦، نقلاً عن تيوفانس في أخبار حوادث سنة ٦١٥١، ٦١٥٢، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر/١٩٥٨م.

يبر بوعده (٨٣) ورغم أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي عرف بسخائه في العطاء قد زاد عطاء جميع الأمصار، إلا أنه ما لبث أن زاد عطاء أهل الشام بعد زيادة العشرات عشرة (٨٤). ونلاحظ أن عدد المقاتلة في الشام الذين يأخذون عطاء مرتفعاً كان كبيراً، لأننا إذا اعتمدنا رواية أبي عبيد معمر بن المثنى المتعلقة بكتاب الحجاج الى رتبيل، يتبين لنا أنه كان مع عمارة بن تميم ثلاثون ألفاً كل واحد منهم يأخذ ١٠٠ درهم في الشهر أي ١٢٠٠ درهم في السنة، فقد كتب الحجاج الى رتبيل: «أما بعد فاني قد بعثت اليك بعمارة بن تميم في ثلاثين ألفاً من أهل الشام لم يخالفوا طاعة ولم يخلعوا خليفة، ولم يتبعوا إمام ضلالة، يجري على كل رجل منهم في الشهر مائة درهم يستطيعون الحرب استطعماً (٨٥). أما الموالي فان عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، إلا أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً (٢٥٠ درهماً) (٨٦) ورواية ابن سعد هذه تساعدنا على فهم رواية ابن لهيعة التي تبدو غامضة غير واضحة، والتي قد تتفق مع رواية ابن سعد اذا اعتبرنا ما يرد فيها متعلقاً بموالي العتاقة، اذ يذكر أن معاوية فرض للموالي خمسة عشر، فبلغهم عبد الملك عشرين ثم بلغهم سليمان خمسة وعشرين ثم قام هشام فأنتم للأبناء منهم ثلاثين (٨٧).

أما عطاء الأسرى، فليس بين أيدينا سوى نص واحد ينسب الى عمر بن عبد العزيز يتعلق بالأسارى بالقسطنطينية، اذ كتب اليهم وفق رواية ابن عبد الحكم: «أما بعد فانكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله، بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أنني لست أقسم شيئاً بين رعييتي الا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وأني قد بعثت اليكم بخمسة دنانير، خمسة دنانير ولولا أنني خشيت أن زدتم أن يحبسها طاغية الروم عنكم لزدتكم (٨٨). تشير هذه الرواية الى أن عطاء الأسير كان يعطى لأهله في خلافة عمر بن عبد العزيز، ولا شك أن هذا المبدأ كان مطبقاً في الفترات السابقة، فخلفاء بني أمية كان يهتم أمر مقاتلتهم في الشام والجزيرة، ويستبعد أن يكونوا قد أهملوا أمرهم وأمر أسرهم، وهذا بدوره يقتضي تسجيلاً في الديوان لمن يقتل أو يفقد أو يؤسر. واتخذ عمر بن عبد العزيز اجراءات معينة متعلقة بالغائب، فاذا كان قريب الغيبة أعطي العطاء لأهل ديوانه، وان كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه الى أن يقدم أو يأتي نعيه، أو يوكل عنه بوكالة ببينة على حياته فيدفع العطاء الى وكيله (٨٩)، أما اذا مات أو قتل فان الفقهاء اختلفوا، فبعضهم يقول أن ورثته يحالون على مال

٨٣. الطبري، ج ٦، ص ٢٤٧.
 ٨٤. الطبري، المصدر السابق، ج ٧، ص ٢١٧. ابن الأثير، ج ٥، ص ٢٦٨.
 ٨٥. الطبري، ج ٦، ص ٢٩٠.
 ٨٦. ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٢٧٧.
 ٨٧. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٤٠.
 ٨٨. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٤٠.
 ٨٩. ابن سعد، الطبقات، ج ٥، ص ٣٥٧.

العشر والصدقة لأن عطاءه سقط بموته، والبعض الآخر يرى استبقاء نفقات ذريته من عطاءه في ديوان الجند ترغيباً وتشجيعاً للجنود على التجنيد (٩٠).

وبالإضافة إلى المقاتلة العرب والموالي، استعان خلفاء بني أمية، كما استعان قادة الفتح في العهد الراشدي بالمعاهدين في مناطق الثغور مقابل اسقاط الجزية عنهم (٩١) وقد صالح الجراجمة حبيب بن مسلمة عندما غزا الجرجومة على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم في مغازيهم. وفي سنة ٧٤هـ/٦٩٣م عندما نقض جستنيان الهدنة مع عبد الملك متخذاً من قضية الدنانير تعلقة لنقض الصلح التقى المسلمون بالجيوش البيزنطية في معركة سيستوبوليس Sebastopolis (٩٢) حيث هزم جستنيان هزيمة ساحقة، وانحاز عشرون ألفاً من الصقالبة إلى المسلمين (٩٣)، ويذكر ميخائيل السرياني أن عبد الملك أسكن هؤلاء الصقالبة الذين انحازوا أنطاكية (٩٤). وبما أن جستنيان كان قد اتجه إلى محاولة استخدام السلاف في الدفاع عن الدولة وكون منهم فرقة كبرى بلغت ٣٠ ألف جندي ووزعهم على أشد المناطق تعرضاً لهجمات المسلمين في آسيا الصغرى والتي كانت في طريق زحفهم جنوب القسطنطينية، فإن هؤلاء الصقالبة كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى، ولذا غدا بإمكان المسلمين استخدامهم في أي نضال حربي ينشب بينهم وبين البيزنطيين، وربما دخل قسم من هؤلاء بعد ذلك في الإسلام، إذ يرد في أنساب الأشراف أن مروان بن محمد كان له موال من الصقالبة والخزر والروم (٩٥)، كما يذكر البلاذري أن زياداً وسلمان كانا من الصقالبة الذين رتبهم مروان بن محمد في الثغور (٩٦). وعندما بنى مروان بن محمد الخصوص شرقي جيحان، أسكنها الفرس والصقالبة وانباط نصارى وأعطاهم خططاً في المدينة وأعانهم على البناء.

وفي أقصى الشمال عند التوغل في أرمينية باتجاه الخزر، نجد أن مروان بن محمد في خلافة هشام ابن عبد الملك يفرض على صاحب طبرس انشاء أن يكون في الساقة إذا بدأوا

٩٠. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٧٣م، ص ٢٠٦.

٩١. البلاذري، الفتوح، ص ١٦٤. الطبري، ج ٤، ص ١١٢. ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٩٣.

Ostrogorsky, G, History of the Byzantine State, Trans by Joan Hussey, Oxford, ٩٢ 1956, p. 118.

٩٣. Hill, George, The History of Cyprus, Vol. I, to the Conquest of Richard Lion Heart, Cambridge, University Press, 1940, p. 287

Ibid, p. 288, Theophanes Sixth year of Justinians, 692 A.C., p. 558-559.

٩٥. البلاذري، أنساب، القسم الثالث، ص ١٢١.

٩٦. البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

بمهاجمة العدو وفي المقدمة اذا انصرفوا، كما فرض على صاحب قلعة شروان أن يكون في المقدمة اذا بدأ المسلمون بغزو الخزر، وفي الساقية اذا رجعوا، بالإضافة الى الزام كل منهم عشرة آلاف مدي تحمل الى اهراء الباب (١٧)، ولكنه لم يوظف شيئاً على فيلان شاه «لحسن غنائه وجميل بلائه واحماده أمره» وانما جعل عليه أن يفزوا معهم فقط (١٨).

كان المسلمون أول أمرهم يقومون بواجب الجهاد كما يقومون بالأعمال الأخرى اللازمة من حفر الخنادق واقامة التحصينات وزرع الحسك (١٩)، يشترك في ذلك كبيرهم وصغيرهم، فلما فتحوا الأقطار وكثر في أيديهم الرقيق، كان من الطبيعي أن يستعينوا بهم على أعمال الجهاد الهينة، كتعهد الجمال والخيول وحزم الأمتعة وحراستها في الحل والترحال واقامة القناطر والجسور، لا سيما وأن العرب رأوا كثرة الاتباع لدى الفرس، فقد خرج رستم حسب رواية السري في عشرين ومائة ألف متبوع، وأنه خرج من المدائن في ستين ألف متبوع (١٠٠). وكان هذا النظام متبعاً عند البيزنطيين حيث كان قادتهم يحضرون معهم عدداً من الغلمان بعضهم أرقاء وبعضهم خدم مأجورون، واستحسن الامبراطور ليون تلك العادة، وأوصى بتشجيع الفقراء من الفرسان أن يقتني كل أربعة أو خمسة منهم خادماً أو تابعاً لحمل أمتعتهم التي لا يمكن حملها بسهولة (١٠١).

ورغم أن الاشارات الى كثرة الاتباع لا ترد صراحة في مصادرنا، فاننا نستطيع القول ان العرب اتبعوا هذه الطريقة (١٠٢)، كما أن مروان في حربه سنة ١٢٧ هـ ضد الخوارج كان جيشه يضم الكثير من العبيد. ومما يدل على أن هؤلاء العبيد لم يكونوا مسلحين أو فرقة محاربة هو أن مروان عندما هزم ودخل الخيبري حجرة مروان وقطع أطنابها، ورأى أهل معسكر مروان قلعة من مع الخيبري، ثار اليه العبيد من أهل المعسكر بعمد الخيام فقتلوا الخيبري وأصحابه جميعاً (١٠٣) وفي تاريخ خليفة أنه كان في حرس مروان رجل يقال له

٩٧. البلاذري، المصدر السابق نفسه، ص ٢١٠، ٢١١.

٩٨. البلاذري، المصدر السابق نفسه، ص ٢١٠.

٩٩. أصل الحسك الشائك في اللغة، نبات له ورق كورق الرجلة، وعند ورقه شوك ملزب وصلب ذو ثلاث شعب، تعلق ثمرته بصوف الغنم، ويظهر أن هذا الشوك كثير الوجود في بلاد العرب، فقد ضربوا بشوكه المثل في الصلابة، وقد استخدمه المسلمون في حروبههم، كما استخدمه الفرس والروم في التحصين، والرسول أول من استخدمه في الاسلام وذلك في حصار الطائف، ثم نرى المسلمين فيما بعد يضعونه من أصابع حديدية مدببة لها شعب ثلاث أو أربع يبيثونه حول الخنادق لمنع تقدم الخيل والرجال، وقد ذكر صاحب آثار الأول ما يفيد أن العرب أجادوا ذلك النوع من وسائل الدفاع وصار للحسك عندهم صناع يعدونه وعمال ينقلونه على الدواب و يبيثونه في الطرق التي يحتمل قدوم العدو منها. (الحسن العباسي، آثار الأول في تدبير الدول، مخطوط في المتحف الحربي بالقلعة برقم ٢٨٢ ومطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي، مصر، ١٣١٥ هـ، ٢١٥).

١٠٠. الطبري، ج ٣، ص ٦٠٦.

١٠١. Omar, Op. Cit., vol. I p. 190

١٠٢. الطبري، ج ٦، ص ٢٤٧.

١٠٣. الطبري، المصدر السابق نفسه، ج ٧، ص ٢٤٧.

سليمان بن مسروح البربري، فنادى في العبيد «من اتبعني فهو حر» فاجتمع اليه من العبيد ثلاثة آلاف رجل فقتل الخيبري (١٠٤). وأرسل مروان بن محمد في حربه مع سليمان بن هشام الفعلة لقطع الأشجار ليعقدوا جسوراً و يجوزوا الى معسكر سليمان (١٠٥).

وهناك اشارات أيضاً الى مرافقة الأطباء للجيش، اذ نجد ذكراً لأبي الحكم الذي كان طبيباً عالماً بأنواع العلاج والأدوية، أرسله معاوية مع يزيد بن معاوية عندما ولاه الموسم متطبياً له (١٠٦). وعندما وجه يزيد مسلم بن عقبة المري نحو الحجاز اصطحب معه طبيباً (١٠٧). ولكننا لا نستطيع أن نثبت أن النساء في العصر الأموي كن يقمن بمداواة الجرحى كما في عهد الفتوح، حيث كان من أول واجباتهن سقي المحاربين والعناية بالجرحى، وحمل الماء لهم ونقل الجرحى الى مكان أمين لعلاجهم، وحفر القبور لموتى المسلمين (١٠٨)، كما لا نستطيع أن نقرر وجود القصاص والقراء في الجيش الشامي رغم وجود كتيبية عرفت بكتيبة القراء في العراق اشتركت مع ابن الأشعث في ثورته على الحجاج.

أما في مجال البحرية فان معاوية أدرك منذ أن كان والياً على جند دمشق والأردن في خلافة عمر بن الخطاب، الخطر الذي يلوح في الأفق مهدداً الشام بسبب وجود أسطول الروم قريباً من شواطئه وافتقاره الى وسائل الدفاع، لاسيما وأنه كان قد اشترك في فتح كثير من المدن الساحلية التي قاومت مقاومة عنيفة نتيجة لتلقيها الامداد والمؤن من دولة الروم، وهذا ما ضمن لها البقاء والمقاومة فترة أطول (١٠٩). وعندما رفض عمر بن الخطاب فكرة ركوب البحر ومهاجمة قبرص، نهج معاوية بايعاز من عمر سياسة بحرية دفاعية بوضع حاميات قوية في المدن الساحلية الهامة، مثل اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل، كما أنه عمد الى مرمة حصونها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها (١١٠). ولكن اثر غارة الروم على الشام ومصر سنة ٢٥هـ والتي كانت من أشد الغازات عنفاً (١١١) تبين أن السياسة البحرية الدفاعية لم تعد كفيلاً بالمحافظة على سلامة ممتلكاتهم، وأنه لا بد للعرب من الهجوم على قبرص والاستيلاء عليها، لأنهم اذا نجحوا في ذلك أمكنهم التصدي للأساطيل البيزنطية قبل اقترابها من الساحل الشامي، فلما سمح الخليفة عثمان لمعاوية بغزوها، كتب

١٠٤. خليفة، تاريخ، ج ٢، ص ٥٦٩.

١٠٥. الطبري، ج ٧، ص ٣٠١.

١٠٦. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا (د. ن)، دار مكتبة الحياة ١٩٦٥، بيروت، ص ١٧٥.

١٠٧. البلاذري، انساب، الجزء الرابع، القسم الثاني، مكتبة المثنى، بغداد، ص ٤١.

١٠٨. المسعودي، مروج، ج ٢، ص ٥١٤.

١٠٩. Ostrogorsky, G. History of The Byzantine State, p. 104

١١٠. البلاذري، فتوح، ص ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٥٠، ١٥٣.

١١١. Bury, A History of the Late Roman Empire, London, 1889, p. 288.

الى أهل الساحل يأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها الى ساحل حصن عكا (١١٢) وكانت هذه خطوة معاوية الأولى، إذ لم يلبث المسلمون أن استولوا على أرواد ثم في عام ٦٥٥هـ/ ٦٥٥م عقد لواء النصر للعرب في الموقعة البحرية الكبيرة ذات الصواري، وكان خوض معركة كهذه يتطلب عدة أمور، قواعد بحرية، وتشمل الأحواض، وأماكن بناء السفن ومواد البناء ومهرة البنائين، ثم السفن الحربية وما يتبعها من ملاحين مدربين وجنود بحريين وضباط، وكانت الاسكندرية تشتمل على ميناء رائع وأحواض متسعة لبناء السفن وبنائين من الأقباط (١١٣) وكانت موانئ الشام ولا سيما عكا ومصر قواعد بحرية أبحر منها جزء من الأسطول الذي اشترك في ذات الصواري (١١٤)، ولكن الساحل الشامي كان في ذلك الوقت عاطلا من بناء السفن، فلما كانت سنة ٤٩هـ - ٦٦٩م وشن الروم غارة عنيفة على سواحل الشام، عمد معاوية الى إنشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها الى جانب دور الصناعة بمصر، فجلب الصناع والنجارين الى عكا من جند الأردن التي وقع اختياره عليها لينشئ بها أول دار لصناعة السفن بالشام (١١٥) وبقيت دور الصناعة في عكا حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي نقلها الى صور (١١٦) ولكن التعاون بين مصر والشام بقي مستمرا سواء في استخدام الأقباط كملاحين في سفن الشام أو في استيراد الأخشاب التي تصلح لبناء السفن من الشام، ويظهر أن بناء السفن بمصر رغم انشاء دار للصناعة في الشام كان له شأن عظيم في العصر الأموي، فقد ألفت أوراق بردي أفروديتو ٩٢هـ / ٧١٠م وهي كوم أشقاو أو أشقوة الآن، شعاعاً من نور على صناعة السفن في مصر، وأظهرت مهارة المصريين في تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين، وتقدير الحكومة المركزية لتلك المهارة، كما أنها تدل على أن القبط كانوا يجندون في صعيد مصر، للعمل في أحواض السفن بالاسكندرية، والاشترك في الغارات السنوية الكورسا بل أنهم كانوا يرسلون للعمل في الأساطيل التي تتخذ قواعدها في الشام (١١٧).

أما عن أشكال السفن الحربية ومعداتاتها في العصر الأموي فان مصادرنا لا تمدنا بأية معلومات على الاطلاق، وأكبر الظن أنها لم تكن تختلف كثيراً عن السفن المعروفة لدى الروم في ذلك العصر، لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند البيزنطيين،

١١٢. ابن أعم، الفتوح، ج ٢، ص ١١٨.
١١٣. أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، طبعة ١٩٧٢، ص ٦. عن هويزنباخ فلهم، البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط، تطوان، ١٩٥٤م. (تخصص الأقباط في استخدام المسامير الحديدية في بناء السفن، وثبت أن السفن التي تستخدم المسامير في تثبيت الواجها أفضل من السفن التي تشد بالحبال).
١١٤. ابن أعم، ج ٢، ص ١٢٨.
١١٥. البلاذري، فتوح، ص ١٢٤.
١١٦. البلاذري، المصدر السابق نفسه، ص ١٢٥.
١١٧. جورج فضلو الحوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، دار الكتاب، جورج فضل الحوراني، القاهرة، ص ١٨١، ١٨٤.

ويعتقد جورج حوراني أن الأسطول العربي في معركة ذات الصواري، كان يتكون من درامين من الطراز البيزنطي العادي، وهي سفن حربية سريعة خفيفة تشتمل على طبقة أو طبقتين من المجاديف (١١٨)، ولا يشير تيوفانس في صدد الحديث عن الحملة التي وجهت إلى القسطنطينية في خلافة سليمان بن عبد الملك إلى أشكال السفن وإنما إلى نوعها، فيذكر أن الأسطول العربي الذي توجه في خلافة سليمان لدعم القوات البرية، وإحكام الحصار على القسطنطينية براً وبحراً، كان يتألف من ١٨٠٠ سفينة منها سفن حربية Kampf Schiffen وأخرى لنقل المؤن Proviant Schiffen وهي أصغر حجماً ولكنها كانت تضم ١٠٠ من المقاتلين المسلحين تسليحاً ثقيلاً (١١٩).

من الطبيعي أن يكون اعتماد العرب في الفترة المبكرة من نشاط أسطولهم على أقباط مصر، وسكان الساحل الشامي القدامى الذين مهروا في ركوب البحر وتدرّبوا على فنون القتال لا سيما وأن سكان سواحل البحر المتوسط الشرقية هم الذين كانوا يظهرون تفوقهم في مجال البحرية في العهد البيزنطي (١٢٠). واشترط الخليفة عثمان بن عفان عندما سمح لمعاوية بركوب البحر أن لا ينتخب بين الناس ولا يقرع بينهم وأن يخيرهم (١٢١)، ويبدو أن معاوية اعتمد في بادئ الأمر على اليمانية في غزو البحر ذلك أن عرب اليمن وان كانوا قد قطعوا كل اتصال لهم بالبحر وأهملوا شؤونهم لانصرافهم إلى التجارة البرية، إبان الغزو إلى الحبشي والفرسي لليمن فإنهم لم يفقدوا تماماً تقاليدهم البحرية التي اكتسبوها من خلال تاريخهم الطويل وتجار بهم الماضية في ممارسة الملاحة والطواف بسفنهم في البحر الحبشي أو الأريترى وترددهم على موانئ البحر العربي والمحيط الهندي، لذلك نلاحظ أن القادة البحريين الذين تجرأوا على قيادة حملات بحرية في خلافة عمر بن الخطاب كانوا من اليمانيين، فالعلاء بن الحضرمي الذي حمل أهل البحرين في البحر إلى فارس بغير إذن من عمر كان يمانياً حضرمياً (١٢٢)، وعلقمة بن مجزر المدلجي صاحب الحملة البحرية إلى الحبشة سنة ٢٠هـ/ ٦٤٠م كان يمانياً الأصل لخمياً (١٢٣)، ولكننا نستنتج مما يرويه ابن عساکر أن المقاتلة العرب من اليمانية لم يكونوا متحمسين لغزو البحر (١٢٤)، مما اضطره إلى أن يعاقب بينهم في البر والبحر، أي لم تنشأ لدى الأمويين في هذه الفترة فرق خاصة من المقاتلة تابعة للبحرية،

١١٨. المرجع السابق، ص ١٨٢، والدرايين جمع درمونة معرب Dromon في اليونانية.

١١٩. Theophanes, Bilderstreif und Araber Sturm in Byzanz Das 8 Jahrhundert 717-813, Aus der Welt Chroniké des Theophanes. Übersetzt, Eingeleitet, und Erklärt von Leopold Breyer, Wien, 1957, p. 48, 49.

١٢٠. ابن أعم، فتوح، ج ٢، ص ١١٨، ١٢٩.

١٢١. الطبري، ج ٤، ص ٢٦٠.

١٢٢. الطبري، المصدر السابق نفسه، ج ٤، ص ٨١٧٩.

١٢٣. الطبري، المصدر السابق نفسه، ج ٤، ص ١١٢.

١٢٤. تهذيب، ج ٥، ص ٣٠٥.

وان ظهر بعض القادة الذين اشتهروا بغزوهم في البحر، كعبد الله ابن قيس حليف بني فزارة الذي غزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر (١٢٥)، وجنادة ابن ابي امية الأزدي اليماني (١٢٦)، الذي اعتمد عليه معاوية في غزو أرواب ورووس وكريت، وخالد بن كيسان صاحب الروم في خلافة الوليد بن عبد الملك (١٢٧).

ويذكر المقرئزي أن القوات البحرية لم تظهر بشكلها المنظم الا في عهد المتوكل وفي مصر عندما غزا الروم دمياط سنة ٢٢٨هـ / ٨٥٢م عند ذلك «وقع الاهتمام بأمر الأسطول وانشئت الشواني برسم الأسطول، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو...» (١٢٨).

التعبئة والقيادة

كانت أجناد الشام الخمسة (قنسرين ودمشق وحمص والأردن وفلسطين) مراكز للمقاتلة يأخذون أعطياتهم من فيئها (١٢٩)، وكان ديوان كل جند يضم سجلات بأسماء المقاتلة المقيمين فيه، ولذلك نجد بعض المصادر لا تذكر أسماء القبائل التي اشتركت في القتال وانما تشير الى عدد المقاتلة من كل جند (١٣٠) ومع أن الروايات المتعلقة بالعرفاء تكاد تكون معدومة، فان الاشارة الى وجود عريف للسكاسك في الشام (١٣١)، وعريف لكل قوم (١٣٢) تجعلنا نميل الى الاعتقاد أنه كان لكل قبيلة عريفها كما كان الأمر في العراق ومصر، ولكن ليست لدينا أدلة تؤكد أن دورهم في الشام كان كدورهم في العراق حيث كان العرفاء مسؤولين عن أفراد عرفاتهم، وعن توزيع العطاء، وعن الأمن والنظام، وعن تقديم العدد اللازم من المقاتلة عند ارسال البعوث (١٣٣).

ويبدو أن تقديم العدد اللازم من المقاتلة في الشام كان يتم اما عن طريق الانتخاب أو القرعة (١٣٤)، وفق خطورة المهمة التي توكل الى القائد، فقد كان سفيان بن عوف الأزدي مثلا قد اتخذ من كل جند من الأجناد أهل فروسة ونجدة وعفاف وسياسة للحرب، فكانوا عدة له،

١٢٥. الطبري، ج ٤، ص ٢٦٢. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٩٧.
 ١٢٦. الطبري، ج ٤، ص ٣٠٩. ابن اعثم، فتوح، ج ٢، ص ١٢٢، ١٤٥. البلاذري، فتوح، ص ٢٢٧.
 ١٢٧. الطبري، ج ٦، ص ٤٢٢.
 ١٢٨. المقرئزي (أبو العباس أحمد بن علي) (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٣ أجزاء، دار التحرير للطبع والنشر، عن طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ، ج ٢، ص ٦٠.
 ١٢٩. البلاذري، فتوح، ص ١٢٧.
 ١٣٠. اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥١. تهذيب، ج ٧، ص ٦٠.
 ١٣١. تهذيب، ج ٥، ص ٥٢.
 ١٣٢. تهذيب، ج ٦، ص ١١٧.
 ١٣٣. الطبري، ج ٥، ص ٣٥٩، ج ٦، ص ٢٠٥.
 ١٣٤. المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٦٠. ابن الأثير، ج ٢، ص ٩٦.

قد عرفهم وعرفوا به (١٣٥). وعندما عين عبد الملك أخاه بشر بن مروان والياً على العراق كتب إليه أن يبعث المهلب في أهل مصره الى الأزارقة وأن ينتخب من أهل مصره وجوهم وفرسانهم وأولي الفضل والتجربة منهم لأنه أعرف بهم (١٣٦).

أما التعبئة فمعناها كما يرد عند ابن خلدون، هو تقسيم الجيوش والعساكر أقساماً لكثرتها وترتيبها ترتيباً قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع، فالقائد أو الأمير في القلب ثم هناك الميمنة والميسرة والمقدمة والساقة، وأن هذا الترتيب إما أن يتم على مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم أو اليومان بين كل عسكريين منها أو حسب حال الجند في القلة والكثرة، وأنه بعد هذه التعبئة يكون الزحف (١٣٧). والقتال على التعبئة كما يقول ابن خلدون مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين في صدر الاسلام، أي في الخلافة الراشدة ودولة الأمويين، ولعل خالد بن الوليد عندما جاء مدداً لمقاتلة الشام ورأى الروم على نظام وتعبئة بينما العرب على تساند وانتشار، كان أول من طبق التعبئة، إذ يقول السري عن شعيب عن سيف، إن خالداً «خرج في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً الى أربعين، فجعل القلب كراديس وجعل القيادة لأبي عبيدة، والميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان، والميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص». وكان القلب يضم ستة عشر كردوساً بينما نجد عشرة كراديس في كل من الميمنة والميسرة (١٣٨).

وإذا كان خالد بن الوليد قد طبق نظام الكراديس، فإن نظام الصفوف هو الذي طبق في معركة صفين، إذ حرض الخليفة علي بن أبي طالب أصحابه فقال في كلام له: فسووا صفوفكم كالبنيان المصوص» (١٣٩) و يقدم لنا كل من الدينوري وخليفة لوحة يكمل بعضها البعض، فيذكر الدينوري أن كل فريق منهم اصطف في سبعة صفوف: صفين في الميمنة و صفين في الميسرة، وثلاثة في القلب، وأن القائد العام أو الأعلى في جيش معاوية كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي دفع اليه معاوية باللواء الأعظم، ثم وجد قائد عام للمشاة وآخر للفرسان وقائد للميمنة وآخر للميسرة وثالث للقلب، وكان لمقاتلة كل جند من الأجناد قائد ولكل قبيلة ضمن الجند قائدها أو زعيمها (١٤٠) أي نلاحظ أن رابطة النسب القبلية ظلت تراعى في تشكيل الكتائب والوحدات بالجيش التي تدخل ضمن وحدات أكبر قائمة على أساس الروابط الجديدة التي نشأت بعد موجة الفتوحات كرابطة القاعدة العسكرية أو الجند، واستمر الزحف بالصف طيلة الفترة الأموية حتى خلافة مروان بن محمد الذي أبطل

١٣٥. تهذيب، ج ٢، ص ٤٥٥.

١٣٦. الطبري، ج ٦، ص ١٩٦.

١٣٧. ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١م، ج ٢، ص ٨٢٤، ٨٢٥.

١٣٨. الطبري، ج ٣، ص ٣٩٦، ٣٩٧.

١٣٩. ابن الأثير، ج ٣، ص ٢٩٧.

١٤٠. الدينوري، الأخبار، ص ١٧١، ١٧٢. خليفة، تاريخ، ج ١، ص ٢٢١، ٢٢٢.

الصف وصار الى التعبئة كراديس في قتال الضحاك الخارجي والخيبري من بعده و يورد الطبري ذلك في قوله : فلما قتل الخيبري سنة ١٢٧ هـ بوبع شيان قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل الصف يومئذ، وجعل الآخرون يكردسون بكراديس مروان كراديس تكافئهم وتقابلهم.

جعل معاوية القيادة في الشام للصحابة وأبنائهم المشهود لهم بالكفاءة والاخلاص بالاضافة الى اعتماده على سادات القبائل في كل جند (١٤١)، واعتمد على قادة متعددين ينتمون الى قبائل مختلفة لقيادة الصوائف والشواتي، وفي قيادة الحملات الموجهة الى أرمينية (١٤٢)، بينما نلاحظ في الفترة الرومانية ازدياداً كبيراً في الاعتماد على أمراء بني أمية من آل مروان كقادة، وإن بقي لسادات القبائل قيادة قبائلهم، إذ عندما حشد عبد الملك جيشاً لقتال الروم واجتمع هذا الحشد خارجاً من مدينة دمشق، خرج عبد الملك فعبأهم، فجعل على كل قبيلة من القبائل رجلاً من ساداتهم يقتدون برأيه وينتهون الى أمره، وأمر ابنه مسلمة بن عبد الملك عليهم، وطلب منه عندما يعزم على حرب عدوه أن يجعل عمه مروان على يمينته وابن عمه محمد بن عبد العزيز على يسارته (١٤٣).

وبما أن خلفاء بني أمية من آل مروان كانوا يعلقون أهمية كبيرة على حملات الصوائف والشواتي، فانهم كانوا يسندون قيادتها لأبنائهم أو اخوتهم (١٤٤)، لأنهم بعملهم هذا انما يتابعون عملية الجهاد ضد أعداء المسلمين، كما أن هذه الحملات تكسب الأمراء هالة من المجد بالاضافة الى أن عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من أن تحافظ جيوشهم الشامية على ما تتمتع به من نظام وسجايا حربية، ومن ثم كانت هذه الجيوش مصدر قلق لأباطرة بيزنطة، نجد انعكاس ذلك فيما كتبه الامبراطور ليون في الكتيب الذي أصدره والذي زاد عليه فوكاس Phocas اذ يبين أن البيزنطيين في حروبهم، لم يواجهوا عمليات حربية حصيفة ومحكمة ومدروسة بدقة كخطط العرب، وأن القائد المكلف بمواجهتهم كان يحتاج الى كل قدراته الاستراتيجية والتكتيكية، كما أن الفرق التي يقودها يجب أن تكون انضباطية وجريئة اذا أراد أن ينجح في صد العرب (١٤٥).

١٤١. الدينوري، ص ١٧٢. خليفة، ج ٢، ص ٢٢٢.

١٤٢. تظهر في خلافة معاوية أسماء قواد كانت لهم مكانتهم، كعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومالك بن هبيرة السكوني وفضالة بن عبيد ويزيد بن شجرة الرهاوي وسفيان بن عوف الأزدي، وعبد الله بن قيس الفزاري، الطبري، ج ٥، ص ٢٣٤، ٢٥٣، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٥، ٥٢٠.

١٤٣. ابن اعثم، فتوح، ج ٧، ص ١٦٨ - ١٦٩.

١٤٤. الطبري، ج ٦، ص ٣٨٥، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٢٩، ٤٤٢، ٤٥٤، ٤٦٨، ٤٦٩، ج ٧، ص ٤٠، ٤٦، ٦٥، ٦٧، ٧٠، ٨٨، ٩٢، ٩٩، ١٣٩. Theophanes, Leopold Breyer, p. 48-49.

Omar, A History of the Art of War, p. 208. *Tactica XVIII § 120* The Commander who has to meet with them, will need all his strategical ability, the troops must be well disciplined and courageous if the barbarous and blaspheming Saracen is to be driven back.

الاقطاع في بلاد الشام خلال القرنين الاول والثاني للهجرة

احمد بدر

تدل كلمة الاقطاع لغويا على عمليين : اولهما اجتزاء أو اقتطاع جزء من كل ويدعى هذا الجزء قطيعة . وثانيهما منح هذه القطيعة لشخص ما على سبيل الانتفاع أو التملك^(١) . وقد عرف عرب الجاهلية احد اشكال منح الانتفاع بملكيتهم بما يسمى «العُمري» وهي حسب تعريف صاحب اللسان «ما تجعله للرجل طول عمرك أو عمره ، كأن يدفع الرجل إلى أخيه دارا فيقول هذه لك عمرك أو عمري، أي جعلها له يسكنها، فإذا مات أحدهما قبل الآخر أصبحت لمن بقي حيا^(٢)» وترادفها أيضا كلمة الرقبى، التي يجعل صاحب اللسان اشتقاقها من المراقبة بقوله « وأصل الرقبى من المراقبة، كأنما كل واحد منهما انما يراقب موت صاحبه^(٣)» . ثم يرى أن الرسول ﷺ اجاز المنح وحرّم تحديده بعمر وقال « لا ترقبوا فمن أعمر دارا أو أرقبها فهي له ولورثته من بعده^(٤)» . لكن ما منحه الرسول اتخذ اسم الاقطاع، سواء كان تمليكا كاملا أو انتفاعا لسد ضرورة مؤقتة . فقد أجمل القاضي أبو يوسف العمل الاول بالقول « وقد اقطع رسول الله ﷺ وتآلف على الاسلام أقواما - واقطع الخلفاء من بعده - من رأى أن في اقطاعه صلاحا وعمارة للارض^(٥)» . والحادثة المشهورة للنوع الثاني ينقلها صاحب اللسان عن ام العلاء الانصارية بقولها « لما قدم النبي ﷺ المدينة اقطع الناس الدور فطار سهم عثمان بن مظعون علي » ثم يفسر قولها « أي انزلهم في دور الانصار يسكنونها معهم ثم يتحولون عنها^(٦)» .

١ . ابن منظور، جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن احمد بن ابي القاسم بن حبيقة بن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، لسان العرب، ١٥ ج، طبعة دار المعارف بمصر (د.ت.)، مادة قِطَع. وسيشار اليه هكذا: (لسان العرب).

٢ . ابن منظور، المصدر السابق نفسه، مادة «عمر».

٣ . ابن منظور، المصدر السابق نفسه، مادة «رقب».

٤ . ابن منظور، المصدر السابق نفسه، مادة «عمر».

٥ . ابو يوسف، يعقوب بن ابراهيم بن حبيب (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م)، كتاب الخراج، ص ١٣١.

٦ . لسان العرب، مادة «قطع».

فيما سبق دلالة على أن الإقطاع بمفهوم منح الأرض أو العقار تمليكا أو انتفاعاً كان معروفاً للعرب المسلمين عندما انطلقوا فاتحين. وبكل الانظمة التي قامت لديهم أصبح له وجهان : نظري وعملي أو فعلي. ويقدم التعريف الذي صاغه ياقوت الحموي في مقدمة تعدادة لقطاع المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م) في بغداد، صورة لهذا الوجه النظري، إذ يقول فيه « استقطع فلان من الامام قطيعة من عفو البلاد فأقطعه اياها، اذا سألته ان يقطعها له مفروزة محدودة يملكه اياها فاذا اعطاه اياها كذلك فقد اقطعه اياها. والقطاع من السلطان انما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لاحد عليها ولا عمارة توجب ملكاً لاحد فيقطع الامام المستقطع له منها قدر ما يتهيأ له عمارته باجراء الماء اليه أو باستخراج عين فيه أو بتحجير عليه ببناء أو حائط يحزره^(٧) ».

أما من الناحية الفعلية فلم ينطبق العملي على النظري تمام الانطباق في جميع البلدان الاسلامية أو كل الاوقات، وهذا ما جرى في بلاد الشام خلال الفترة، مدار بحثنا هذا، كما أن أشكال المنح وحياسة الإقطاع تمايزت حسب الظروف الزمانية والمكانية وريقة الفتح بحيث يمكننا تمييز إقطاعات الشام في هذه الفترة إلى ثلاث مجموعات : إقطاعات الداخل ، وإقطاعات الجزيرة وما حول الفرات، وإقطاعات الساحل والثغور.

إقطاعات الداخل :

كان أسبق نواحي بلاد الشام سقوطاً وينسب منح الإقطاعات فيه للخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب. وكان أولها فيما يبدو تنفيذاً لأمر الرسول ﷺ بمنح تميم الداري وآله بلدي الخليل وبيت لحم كإقطاع. وقد شكك في شرعية هذا المنح في العقد التاسع من القرن الخامس الهجري أبو حاتم الهروي القاضي الحنفي لبيت المقدس وكفره الغزالي لذلك، بينما ادعى الداريون ملكية كتاب من الرسول ﷺ على أديم من خفّ علي بن أبي طالب، واعتمده الخليفة العباسي المستنجد بالله العباسي ٥٥٥ - ٥٦٦ هـ / ١١٦٠ - ١١٧٠ م وأصدر نسخة جديدة للإقطاع بالاعتماد عليه، ظل الداريون يحتفظون بهما في صندوق حتى زمن مجير الدين الحنبلي صاحب الانس الجليل (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م) الذي رأهما بأمر عينيه^(٨).

٧. ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م)، مادة: «قطيعة». وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ياقوت - بلدان؛ وبعضه في اللسان «قطع».

٨. مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي ابو اليمن مجير الدين الحنبلي توفي عام ٩٢٨ هـ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢، ج، مكتبة المحتسب عمان، ١٩٧٣، ج ٢، ص ٨١ - ٨٢.

وقد أورد كل من ابن سلام^(٩) وابن عساكر^(١٠) روايات متعددة لنص الكتاب، من ضمنها النص الوارد في نسخته التي اعتمدها المستنجد، وكذلك روايات أخرى لنص كتاب أبي بكر باعتماده وتنفيذه. إلا أن نصه يرد متناقضاً في الروايات من نواح عدة : عدد البلدان المنوطة وحدود ما يمنح حول كل منها وفي داخله، إضافة للتكلف الواضح في أسماء الشهود على المنح، فهم الخلفاء الأربعة أو الخمسة بالترتيب نفسه الذي توالوا فيه على منصب الخلافة أضف إلى هذا التناقض بين مضمون كتاب الرسول ﷺ وكتاب تأكيده من قبل أبي بكر الصديق. يدعو كل هذا إلى الشك في صحة نص الكتاب لكن مضمونه العام، وهو وعد الرسول ﷺ لتميم الداري بإقطاعه أراض في موطن قبيلته في الشام يبدو أهلاً للتصديق، إذ أن الوعد باراض قبل فتحها من قبل الرسول ﷺ قد اعطي لصحابي آخر هو أبو ثعلبة الخشني^(١١)، المتوفى بالشام (عام ٧٥هـ / ٦٩٤ - ٦٩٥م)، وذلك بعد ما طلب منه أن يهبه اقطاعاً في بلد خاضع للروم وبشره بأن الله سيفتحه عليه^(١٢). كما ان الظروف المحيطة بوعد الرسول ﷺ لتميم تدعو للتصديق بحدوثه، إذ ان تميماً الداري ينتمي إلى لحم التي كانت في غرب البحر الميت من فلسطين، كما أنها تخالط قبائل جذام في النزول إلى الشرق منه في المنطقة الممتدة من تبوك جنوباً حتى البلقاء حول عمان شمالاً. وكانت طرفاً في التجمع القبلي المحالف للبيزنطيين والذي أوقع بالمسلمين في مؤتة عام ٨هـ/٦٢٩م، واستمرت كذلك ضمن الحشد البيزنطي في البلقاء استعداداً للهجوم على المسلمين، والذي قام الرسول ﷺ بغزوة تبوك لالتقاء مخاطره^(١٣) ويحدّد الخبر المتعلق بمنح الرسول ﷺ اقطاعاً لتميم وأخوته توقيته عند منصرف الرسول ﷺ من هذه الغزوة، الأمر الذي يدعم الميل لتصديقه لما في هذا الوعد من تأليف قلوب بعض أبناء هذه القبائل واستجلابه لها من الصف البيزنطي إلى الجانب الإسلامي، لهذا كله تبدو الرواية التي يوردها ابن عساكر ويسندها إلى تميم الداري ذاته صحيحة، ويقول فيها

٩. ابو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٩م)، كتاب الاموال، تحقيق محمد خليل الهراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٦٨، ص ٢٨٨-٢٨٩. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابو عبيد، كتاب الاموال.

١٠. ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧٢هـ/١١٧٦م) تاريخ مدينة دمشق، المجلد العاشر، تحقيق محمد احمد دهمان ص ص ٤٦٦ - ٤٦٩. وسيشار إليه هكذا: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق.

١١. ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م) الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر ودار بيروت للنشر (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م) بيروت، ج ٢٧، ص ٤١٦. وسيشار إليه لاحقاً هكذا: ابن سعد.

١٢. ابو عبيد، كتاب الاموال، ص ٢٨٨.

F.M.G. Donner: The Early Islamic Conquests, Princeton

University Press, 1981, P. 105

١٣

«أستقطعت رسول الله ﷺ أرضاً بالشام قبل ان تفتح فأعطانيها، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه فأتيته، فقلت إن رسول الله اعطاني أرضاً من كذا الى كذا فجعل عمر ثلثها لابن السبيل وثلثا لعمارتها وثلثا لنا^(١٤)». ومما يدعمها ايضا، الاتفاق بين بعض ما تنص عليه ومشاهدات الجغرافي المقدسي بعد أكثر من ثلاثة قرون، الذي يذكر في معرض اشارته لحبري أو حبرون (الخليل) «وفي هذه القرية ضيافة دائمة وطباخ وخباز وخدام مرتبون يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء ويدفع الى الاغنياء اذا اخذوا ويظن أكثر الناس انه من قرى ابراهيم وانما هو وقف تميم الداري وغيره^(١٥)».

من ناحية اخرى منح عمر اقطاعا لأناس سألوه أرضا من أرض اندركيسان (الاندر تعني البيدر بلغة اهل الشام حسب قول ياقوت)^(١٦) لمربط خيلهم، فأعطاهم طائفة منها فزرعوها، فانترعها منهم واغرمهم لما زرعوا فيها^(١٧). ويلاحظ هنا ربط عمر بين الحق في تملك الاقطاع وتحقيق الغرض من منحه، اذ يؤثر عند إقطاع أرض الموات قوله «من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها^(١٨)».

لكن أغلب ما حازه الناس من أراضي هذه المنطقة وعقارات مدنها لم يتم منحه كإقطاع بهذه الطريقة المباشرة، وانما وضع الفاتحون أو قادتهم يدهم عليه أولا ثم أقرهم عمر على ذلك، ويرجع ذلك الى ظروف معينة للفتح اقتضت أو اجتذبت الفاتحين للقيام بما قاموا به. فمن المعروف في فتح بلاد الشام ان البيزنطيين هزموا في كل المعارك التي جرت في الأرض المكشوفة خارج اسوار المدن، وبالتالي اعتبر الريف كله عنوة. بينما اضطر العرب في كثير من الحالات للوقوف امداء طويلا امام الاسوار الحصينة. لعدم استخدامهم ادوات الحصار اللازمة مما وفر لهذه المدن الحصول على استسلام مشروط بالحفاظ على الارواح والاملاك واماكن العبادة، واقتصر الفاتحين في نزولهم على كل ما جلا اهله عنه أو ساحة متروكة. ويبدو ان مثل هذا الوضع قد اقع كالا من الفاتحين وسكان بعض المدن

١٤. ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ص ٤٦٩.

١٥. المقدسي المعروف بالبشاري (من رجال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، لندن - مطبعة بريل (١٩٠٦)، ص ١٧٢.

١٦. ياقوت، معجم بلدان، مادة «اندرين».

١٧. ابو عبيد، كتاب الأموال، ص ١١٦.

١٨. ابو عبيد، كتاب الأقوال، ص ١٣١.

١٩. ابن عساکر (علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م)، تهذيب، تاريخ دمشق الكبير، هذبه الشيخ عبد القادر بدران ت ١٣٤٦ هـ. دار المسيرة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩، بيروت. ج ١، ص ١٤٧. وسيشار إليه فيما بعد هكذا: ابن عساکر، تهذيب.

التي كان فتحها تاليا بالرضا بتطبيق شروط استسلام المدن المفتوحة سابقا. من ناحية اخرى كان الجيش مؤلفا من وحدات قبلية، ومن الطبيعي ان يكون لها مكان محدد حول المدن المحاصرة، كما حصل في دمشق التي دام حصارها شهورا عديدة تنزل بها بعض الروايات الى أربعة شهور بينما ترفعها بعضها الى شهور اكثر لتصل الى اربعة عشر شهرا في واحدة منها. يضاف الى هذه المدة التي اقامتها الوحدة العسكرية القبلية، مدة اخرى انقضت بين استسلام المدينة وبين دخولهم اليها، لانهم تريثوا في الدخول ريثما يمكنون لانفسهم في الجهات الاخرى من البلاد. ودعاهم ذلك الى التمسك بهذه الارض التي اقاموا فيها مقرات سكن لهم على ما يبدو. وقد وضع احد فقهاء الشام للمأمون العباسي هذا الوضع في معرض تبريره لتملك احفاد هؤلاء الفاتحين لتلك الاراضي، اذ يقول سليمان ابن عتبة (ت ١٨٥هـ/ ٨٠١م) «سألني أمير المؤمنين عبدالله بن محمد لما قدم الشام سنة ثلاث وخمسين أو أربع وخمسين ومائة عن سبب الارضين التي بأيدي ابناء الصحابة ويذكرون انها قطائع لابائهم قديمة. فقلت: يا أمير المؤمنين ان الله لما أظهر المسلمين على بلاد الشام وصالحوا اهل دمشق واهل حمص كرهوا أن يدخلوها دون أن يتم ظهورهم واثخانهم في اعدائهم فعسكروا في مرج بردى ما بين المزة وبين مرج شعبان (شمال دمشق). وكان هناك مروج مباحة فيما بين اهل دمشق وقرائها ليست لاحد منهم فأقاموا بها حتى اوطأ الله المشركين ذلا وقهرا، فأحيا كل قوم محلثهم ورفعوا ذلك الى عمر بن الخطاب فأمضاه لهم فبنوا الدور ونصبوا الشجر ثم امضاه عثمان ومن بعده الى ولاية امير المؤمنين فقال: قد امضيناه لاهله^(٢٠)».

اما المدن فقد كان فيها فضول منازل^(٢١) «فدمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو بانطاكية وكثرت فضول منازلها» اما في طبرية وحمص فقد نصت شروط الصلح على سكنى الفاتحين فيما جلا عنه اهله وكل ما هو متروك^(٢٢). وقد نظم انزال المسلمين في هذه الاماكن الشاغرة بتكليف شخص مسؤول عن العملية في دمشق كان

٢٠. ابن عساکر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م)، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥١، ص ٥٩٧، وسيشار اليه فيما بعد هكذا: ابن عساکر، المنجد.

٢١. البلاذري، ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، فتوح البلدان، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٧٨م، ص ١٢٩. وسيشار اليه فيما بعد هكذا: بلاذري، فتوح.

٢٢. بلاذري، فتوح، ص ١٢٣، ١٢٧.

سبرة وربما سمرة أو أخوه خريم بن فاتك، والذي بالغت الرواية في حرصه على عدم ازعاج اهل الذمة، ففي حالة قسمة دار واحدة كان سبرة أو سمرة يترك الرومي في العلو ويترك المسلم، في السفلى لتلا يضر المسلم بالذمي^(٢٣). وفي حمص قام بعملية الانزال شرحبيل بن السمط.

أما في الارياف البعيدة عن المدن فلا تورد المصادر الاولى اي خبر يفيد باستقرار العرب فيها، مما يدل على بقاء الفلاحين فيها أو نبط القرى حسب التسمية الشائعة لهم في مصادرنا العربية. ويبدو تعليل دونر "Donner" لبقاء فلاحي الشام في أراضيهم أكثر انطباقاً على هذه المنطقة ومؤداه أنه لم تحصل هجرة للريفين مماثلة لهجرة الناس في المدن، حيث كانت، في هذه الاخيرة، طبقة تنتمي الى البيزنطيين معتقدا ولغة ولديها من الثروة المنقولة أو الثابتة في أراضيهم ما يمكنها من العيش بين ظهرانيتهم، وليست هذه حال الفلاحين الذين يعتمدون في حياتهم على ارضهم ويختلفون عن البيزنطيين في لغتهم ومعتقدهم^(٢٥).

يبدو ان اقرار عمر بن الخطاب للفتاحين بما حصلوا عليه من ارض بجوار المدن وبيوت في داخلها قد تم خلال زيارته الاخيرة للجابية، ورتب فيها امور العطاء والارزاق وأقر بقاء ارض العنوة بيد فلاحيتها واخذ الخراج منها وعدم قسمتها بين الفاتحين^(٢٦)، مع استثناء ما استحدثه بعض القواد فيها، كما هو حال عمل عمرو بن العاص الذي اتخذ ضيعة يقال لها عجلان باسم مولى له في بيت جبرين بفلسطين^(٢٧).

ويبدو أن امر عمر بن الخطاب لامراء الاجناد بالشام « بالا بيتدروا الى القرى ويتركوا المدائن » كان بغاية منعهم من التمدد الى الارياف التي يجب ان تبقى بيد فلاحيتها^(٢٨). وخاصة أن مساكنهم داخل المدن لم تعتبر انزالاً مؤقتاً، كما كان الحال بالنسبة للمرابطين من المسلمين في الاسكندرية خلال فترة من كل عام والذين خص كل منهم بمنزل حسب اختياره، لأن من ركز رمحه في منزل منها يصبح له. فكانت الدار،

٢٣. ابن عساکر، تهذيب، ج ٦، ص ٦٤.

٢٤. ابن عساکر، المصدر السابق نفسه، ج ٦، ص ٢٠٠.

٢٥. F.M.G. Donner, p. 248 - 250.

٢٦. بلانزري، فتوح، ص ١٥٦.

٢٧. ياقوت، بلدان، مادة «جبرين».

٢٨. ابن عساکر، تهذيب، ج ١، ص ٢٢١.

حسب قول ابن الحكم « تكون لقبيلتين أو ثلاث وكانوا يسكنونها حتى اذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها . فكان يزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨ هـ / ٧٤٥ - ٧٤٦ م) يقول لا يحل من كرائها شيء ولا بيعها ولا يورث ولا يورث منها شيء ، وانما كانت لهم في رباطهم^(٢٩) . أما في الشام فقد سأل رجل أصحابي واثلة بن الأسقع (ت ٨٥ هـ / ٧٠٤م) ، فقال له « رأيت هذه المساكن التي اقتطعوها يوم فتحوا دمشق أماضية هي لاهلها قال : نعم . قال فان ناسا يقولون هي لهم سكن وليس لهم بيعها ولا اتلافها بوجه من الوجوه في صدقة أو مهر أو غير ذلك . فقال واثلة ومن يقول ذلك بل هي ملك ثابت يسكنون ويمهرون ويتصدقون^(٣٠) . »

مع ذلك فان الفلاحين لم يكونوا يملكون كل الارض ، ان لم نقل غالبيتها ، ومع فقدان الارقام لا يمكننا معرفتها الا من انواعها ، وهي املاك الطبقة النبيلة واملاك الكنائس والاديرة سواء في داخل المدن او خارجها ، وقد عرفت باسم الصوافي . وحددتها الرواية الشامية من أواخر القرن الثاني واوائل الثالث على لسان الوليد بن مسلم نقلا عن مشيخة الشامية بالقول « فلما هزم الله الروم هربت تلك البطارقة عما كان في ايديها من تلك المزارع فلحقت بأرض الروم ومن قتل منها في تلك المعارك التي كانت بين المسلمين والروم فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته ، قالوا فمنها اندركيسان يعني بدمشق وقبيس بالبلقاء وما على باب حمص من جبعاتا وغيرها » وتتابع الرواية نفسها القول بأن معاوية طلب من عثمان ان يقطعه هذه الاملاك لأن الذي اجراه عليه من الرزق لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسلا امرائها ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها وحدد هذه الصافية... فأقطعه اياها وأبقاها معاوية على حالها عندما أصبح خليفة وجعلها من بعده حبسا على فقراء أهل بيته وللمسلمين^(٣١) . »

نشأت بعد ذلك ضرورات سياسية في بلاد الشام جعلت الدولة تحتاج الى اراض لاقطاعها فأخذتها منها ، مثل محاولة معاوية اقامة التوازن القبلي في بلاد الشام ، حيث كانت غالبية أهل الديوان من اليمانية ففرض لأربعة آلاف رجل من قيس سوى خندف^(٣٢)

٢٩ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

٣٠ . ابن عساکر ، منجد ، ص ٥٩١ .

٣١ . ابن عساکر ، منجد ، ص ٥٩٣ - ٥٩٤ ، نجدة خماش ، الشام في صدر الاسلام ، دراسة للاوضاع الاجتماعية والادارية ، رسالة دكتوراة منسوخة - ١٩٨٣ ص ٢٥٩ ..

٣٢ . ابن عساکر ، تهذيب ، ج ٥ ، ص ٣٠٣ .

وكذلك بعض هجرات لجماعات كتلك التي قامت عند طرد الامويين من المدينة اثر موت يزيد ، أو الهجرة الجماعية من الحجاز في سني القحط المعروفة بسنيات خالد^(٢٣) وكذلك قدوم الاشراف المتوالي على الشام وضرورات تقريبيهم وخاصة خلال الفترات الحرجة من حياة الدولة زمن معاوية ومروان وعبد الملك ، فقد قدم الاموي محمد بن عمرو بن سعيد ابن العاص الشام غازيا ، فدخل على عمته آمنة امرأة خالد بن يزيد فقال خالد « ما يقدم احد من الحجاز الا اختار المقام عندنا على المدينة^(٢٤) ». ومن الامثلة على من اقطع منهم ، اسامة بن زيد قائد الجيش الذي اعده الرسول ﷺ للاغارة على الشام والذي سيره ابو بكر لتحقيق هذه المهمة . وقد عاد اسامة الى عشيرته من كلب ، ثم وفد على معاوية فقال له اختر لك منزلا فاختر المزة واقتطع فيها هو وعشيرته^(٢٥) » وممن وفد على عبد الملك حفص ابن عمر بن سعيد الازدي الذي قال لعبد الملك « يا أمير المؤمنين ان في غوطة دمشق قرية يقال لها زملكا ولي فيها بنو عم وسألوني الاشراف عليهم وليس لي في الموضع شيء فقال عبد الملك سل هل لنا في تلك القرية شيء فنظروا فاذا فيها ضيعة من صوافي الروم فأقطعه اياها^(٢٦) ».

الاقطاعات في الجزيرة وحوض الفرات :

لعل اكثر الاراضي اتساعا مما اصبح خالصا للعرب المسلمين الفاتحين تلك التي تقع في الجزيرة وحوض الفرات . فعلى الرغم من سقوطها بيدهم كسقوط المناطق الاخرى : الريف عنوة والمدن مثل الرقة وحران وقرقيسياً ونصيبين وسنجاراً وميافارقين استسلاماً على الشروط نفسها التي رأيناها في بلاد الشام الاخرى تقريباً^(٢٧) . ألا ان مقدار الفراغ كان كبيراً لكون الهجرة في الريف اوسع . فعند حديث البلاذري عن رأس العين يقول « جلا خلق من رأس العين واعتمل المسلمون وازدرعوها باقطاع^(٢٨) » كما ان المنطقة كانت منطقة حدود بين البيزنطيين والفرس وحدثت فيها وقائع ، مما يسبب الخراب وهجرة الناس عادة . وهكذا

٢٣. الزبيري، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب (ت ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م)، تصحيح وتعليق ا. ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، ص ١٧٠.

٢٤. البلاذري، ابو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر، (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، انساب الاشراف، ج ٤، ق ٢، ص ٧١.

٢٥. ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج ١، ص ٢٤٧-٢٤٨، ابن عساكر، تهذيب، ج ٣، ص ٢١٨.

٢٦. ابن عساكر، تهذيب، ج ٤، ص ٢٨٤.

٢٧. بلاذري، فتوح، ١٧٦-١٧٧، ١٨٢.

٢٨. بلاذري، المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.

على الرغم من استسلام سنجار على الشروط نفسها من الحفاظ على الارواح والاملاك ، لكن الرواية تقول ان عياضا اسكنها قوما من العرب ، مما يعكس الفراغ الكبير فيها والذي يمكن تقديره من كونها بالذات ميدان معركة بين الفرس والبيزنطيين (٣٩٨) ، وهكذا دفعت هذه الظروف قادة الفاتحين الى هذا الاجراء على ما يبدو ، الا ان الرواية تجعل عملية الاسكان تتم بأمر الخليفة عثمان بن عفان المناقض لامر عمر الذي سلف ذكره بالنسبة لانزال العرب في منطقة الداخل وتقول بأنه امر معاوية ان ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى وبأذن لهم في اعتمال الارضين التي لا حق فيها لاحد^(٤١) .

نتيجة لذلك قام معاوية بن ابي سفيان بتنظيم نزول القبائل العربية في الجزيرة سواء القادمة مع موجات الفتح أو التي تلتها مع مراعاة القرابة والنسب في الانزال ، بحيث تجمع الجذمان الكبيران ربيعة ومضر كل في منطقة ، فيما يتعلق بالاولى التي غلب عليها اسم قيس انزل بني تميم الرابية وانزل المازحين والمديير اخلاطا من قيس واسد وغيرهم . ورتب ربيعة في ديارها على ذلك . وربما كان عمل معاوية هو الاساس الاول الذي تحددت بموجبه كل من ديار ربيعة ومضر كما ترد عند الهمداني ، وغيره ، الذي يجعل مدينة رأس العين في أعلى الخابور حدا فاصلا بينهما ، تقوم ديار ربيعة الى الشرق وضمنها اختصت كل قبيلة بموضع ، فالثرثار احد روافد الخابور كان اكثره لبني تغلب وفيه منازل لبكر بن وائل . كما كان للقبيلة الاولى سنجار وبقية الخابور ، الاجزاء من اعاليه عند الحدود مع المضرية حيث نافسهم بنو عقيل ، وقد طرأ هؤلاء في فترة خلافة معاوية قادمين من العراق حيث وقعت منازعات بينهم وبين قبيلة اخرى قتلوا منها فقاد ربيعة بن عاصم العقيلي قومه الى الجزيرة^(٤٢) ، وكان ذلك بعد مقتل عثمان ، يريد معاوية فمر بالجزيرة حيث رأى وقومه بلادا خصبة ريفية ومزدرعا واسعا وقله اهل فلما وصلوا الى معاوية ردهم الى الجزيرة واسكنهم بها^(٤٣) . والى الغرب من الخابور انتشرت المضرية غربا حتى تجاوزت الفرات لتصل الى شرق حلب وقنسرين فكانت النمر بن قاسط عند رأس العين وبنو تميم من حران وبنو سليم في الرها ونزلت اخلاط من مضر في الرافقة^(٤٣) .

٣٩ . بلاذري، فتوح، ص ١٨١ - ١٨٢ .

٤٠ . بلاذري، المصدر السابق نفسه، ص ١٨٢ .

٤١ . ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ، (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط ٤ ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧ ، ص ٢٩١ .

٤٢ . ابن عساکر، تهذيب، ج ٥ ، ص ٣٠٧ .

٤٣ . الهمداني، الحسن بن احمد بن يعقوب، (٩٤٥ هـ / ١٣٣٤) صفة جزيرة، العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي، اشرف على طبعة حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٦ .

وجاورت بذلك شقيقاتها من القبائل التي نزلت غرب الفرات منذ الفتح ، حيث كانت توجد في منطقة مجاورة للرقعة قريتا بالس وقاسرين وهما قبل الفتح « لآخوين من اشراف الروم اقطعا القرى التي بالقرب منهما وجعلنا حافظين لما بينهما من مدن الروم بالشام فصالحا المسلمين على الجزية أو الجلاء فجلا اكثرهم ، ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة واسكنها قوما من عرب الشام الداخلين في الاسلام وقوما لم يكونوا من البعوث وانما نزعوا من البوادي من قيس^(٤٤) .»

إضافة لهذا النوع من الاراضي التي أمنت السكنى للقبائل توفرت للامويين اراض اخرى بمحاذاة الفرات كي يقطعوها للأفراد واكثرها أراضٍ موات بسبب ظروف الارض الجغرافية المتمثلة بتحويل الفرات لمجرأه وكذلك لوقوعها على سيف البادية ومرورها بفترة طويلة من الاضطراب قبيل الفتح الاسلامي وخلالها . وهذا كله جعلها مواتا والاقطاع لآحياء الموات امر مرغوب منذ ظهور الاسلام ، والامويون ذوو خبرة فيه كما يتجلى في قصورهم الصحراوية ، وقد جعل عمر بن عبد العزيز اقطاعه مطلقا لمن يجيبه اذ قال « من غلب الماء على شيء فهو له »^(٤٥) . ومن أمثلة هذه الاقطاعات غابة ابن هبيرة من ارض سروج التي منحها له الامويون وصادرها العباسيون فيما بعد^(٤٦) . واقطاع منطقة نهر سعيد لسعيد بن عبد الملك من منطقة الرقة وكانت غيضة ذات سباع فأقطعه اياها الوليد أو عمر بن عبد العزيز فحفر النهر الذي حمل اسمه وعمر ما هنالك^(٤٧) . ومن انواعها « الحيار » التي اشتهر منها حيار بني القعقاع ، وهو صقع من برية قنسرين بينه وبين حلب يومان^(٤٨) وكان معروفا قبل الاسلام ، حيث يقال إنه كان مقيل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة . وقد اقطع عبد الملك بن مروان أو الوليد قطعة فيه للقعقاع بن خلود ابن جزء وأوطنه أهله فنسب اليه^(٤٩) . واستمر الاقطاع في المنطقة أيام العباسيين، ومن اشكاله الرحبة التي يجد لها ياقوت معنى عاما هو ما اتسع من الأرض وجمعها رحب ،

٤٤ . بلاذري، فتوح، ص ١٥٥ .

٤٥ . ابو عبيد، كتاب الاموال، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

٤٦ . بلاذري، فتوح، ص ١٨٥ .

٤٧ . بلاذري، فتوح، ص ١٨٢ - ١٨٤ . ابو عبيد، كتاب الاموال، ص ٤٠١ . قدامة بن جعفر (٢٢٩ هـ / ٩٤٠ م)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدي، ص ٣١٥ . وسيشار اليه لاحقا هكذا: قدامة - خراج .

٤٨ . ياقوت، بلدان، مادة «الحيار» .

٤٩ . بلاذري، فتوح، ص ١٥١ - ١٥٢ .

واكثرت من معنى عندما تخصص ، فهي في الاودية مواضع متواطئة ليستتقع الماء فيها وما حولها مشرف عليها وهي أسرع الارض نباتاً^(٥٠). ومنها رحبة مالك بن طوق في اسفل قرقيسياء والتي اقطعه اياها الرشيد وبنائها وحدثها هو في زمن المأمون^(٥١). وكان من الممكن اقطاع الانهار ايضا واقطعه نهرا أباحه له^(٥٢) فقد كانت عين الرومية من ارض الرقة وماؤها للوليد بن عقبة بن أبي معيط فأعطاها أبا زبيد الطائي ثم صارت لأبي العباس السفاح فأقطعتها ميمون بن حمزة مولى علي بن عبد الله بن عباس ثم ابتاعها الرشيد من ورثته^(٥٣).

الإقطاع في الساحل والثغور :

اختلفت اوضاع الساحل عن الداخل من ناحية سكانية ، اذ لم يسقط بيد الفاتحين موضع الا وقد كاد يخلو من سكانه ، فطرابلس هرب سكانها ، كما جلت غالبية سكان السواحل المواجهة لدمشق وجبله وانطرطوس^(٥٤). ونظرا لقربها من مقر الدولة البيزنطية وقواعد اسطولها القوي كانت عرضة للهجمات ما بين حين وآخر لذلك اعتبرت كالثغور سواء بسواء ، مواقع جهاد ومواضع رباط. ويبدو ان العرب احجموا عن النزول فيها ، مما اضطر قادة الفتح ان يضعوا في طرابلس جماعة كبيرة من اليهود^(٥٥). ورأى عمر بن الخطاب المعروف بحرصه على عدم التفرير بالمسلمين وعدم التوسع في الاقطاع ان يكفي بوضع حفظة على الساحل الى انغلاق البحر ، والاكتفاء بعد ذلك بترميم الحصون عليه وان يوضع فيها من المقاتلة ما يكفي لحراسة مناظرها والإنذار عند اللزوم بايقاد النيران من مواقيد. لكنه لم ير ان يخص هؤلاء بمميزات اخرى تختلف عن ميزات المقاتلة الآخرين ، والاعتماد على نياتهم الطيبة ، اذ كتب بعد فتح انطاكية لامير الشام « رتب بانطاكية جماعة من المسلمين ذوي نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء »^(٥٦). وحدث تغير في هذه السياسة زمن عثمان بن عفان ، خاصة بعد ما تبين مدى

٥٠. ياقوت، بلدان، رحبة مالك بن طوق.

٥١. بلاذري، فتوح، ص ١٨٤.

٥٢. لسان العرب، مادة «قطع».

٥٣. بلاذري، فتوح، ص ١٨٤ - ١٨٥.

٥٤. بلاذري، فتوح، ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٩.

٥٥. بلاذري، فتوح، ص ١٢٣.

٥٦. بلاذري، فتوح، ص ١٥٢ و ١٢٤ و ١٢٩ - ١٤٠.

خطر الهجمات البيزنطية فكان امره لمعاوية « ان يقطع الرتب ارضين ويعطيهم ما جلا عنه اهله من المنازل » وادى هذا الى اجتماع الناس فيها ، فبعد ان كان الخلفاء يجمعونهم من الجماعات الفارسية في بعلبك وحمص وأسورة البصرة والكوفة^(٥٧) نزع اليها أهل بلدان شتى حسب تعبير الرواية الشامية التي تعود الى الوضين بن عطاء^(٥٨) (ت ١٤٩هـ/ ٧٦٦م) والتي ينقلها بدوره عن شاهد عيان^(٥٩). ومنذ ذلك الوقت طبق هذا المبدأ سواء لدى الامويين أو العباسيين على المقاتلة في الثغور ، فكانوا يقطعون مساكن لإيوائهم وأرضا لاستثمارهم. وقد لا تكون الارض المقطعة مجاورة لاماكن السكنى . كما حدث في انطاكية التي لم تكن على الساحل بينما اقطع عبد الملك مقاتلتها سلوقية على الساحل ، وصير الفلثروهو الجريب بدينار ومدى قمح^(٦٠). والملاحظ هنا أن ما فرضه كمية محدودة بينما يفهم من الاقطاع انه ارض عشر. وربما كانت الكمية المفروضة أقل منه تشجيعا للمقاتلة. وقد طبق الأمر ذاته في الثغور الشامية والجزرية ، فقد أمدّ معاوية قائده حبيب بن مسلمة فاتح قاليقلا (ارضروم حاليا)^(٦١) بألفي رجل لمواجهة حشد رومي فأسكنهم فيها واقطعهم القطن^(٦٢). وتقدم لنا بعض أخبار العصر العباسي صورة لاقطاعات السكن. فعندما عمّرت طرسوس زمن هارون الرشيد بين نهريين صغيرين مسحت الثغرة من النهر الى النهر فبلغ ذلك الى اربعة آلاف خطة ، كل خطة عشرون ذراعا في مثلها واقطع اهل طرسوس هذه الخطط^(٦٣). وفي زمن أبي جعفر المنصور بنيت ملطية على أحد فروع الفرات واقطع جندها الأربعة آلاف مزارع وقسموا الى عرافات يتألف كل منها من عشرة انفار الى خمسة عشر نفرا ولكل عرافة مسكن واحد فيه بيتان سفليان وعليتان فوقهما واصطبل^(٦٤).

٥٧. بلاذري، فتوح، ص ١٢٤ و ١٥٣.

٥٨. ابن سعد، طبقات، ج ٧، ص ٤٦٦.

٥٩. بلاذري، فتوح، ص ١٢٤.

٦٠. ياقوت، بلدان، مادة «سلوقية»، بلاذري، فتوح، ص ١٥٣.

٦١. M. Canard, E. I² Art Arminiga

٦٢. بلاذري فتوح، ١٧٣ - ١٧٤.

٦٣. بلاذري، فتوح، ص ١٩١. قدامة، خراج، ص ٣١١.

٦٤. بلاذري فتوح، ص ١٩١.

أنواع القطائع والمنح الرسمي لها:

مما مر من وقائع منح القطائع جمع قطيعة ، يمكننا أن نميز بين شكلين تحت هذا الاسم ، فغالبا ما استخدم كتاب مصادرنا اسم « ضيعة » للدلالة على القطيعة من الارض ، وهي وضع مالي لا علاقة له بالقرية^(٦٥) ، فقد رأينا عبد الملك عندما أراد أن يمنح الشريف الازدي قطيعة في قرية زملكا بغوطة دمشق ، سأل هل لنا في تلك القرية ضيعة؟ ومجموعها لدى الفقهاء المعاصرين في الشام اطلق عليه اسم الضريبة المأخوذة عنه . اذ يقول مكحول (ت ١١٢ هـ / ٧٣٠ - ٧٣١ م)^(٦٦) كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهله فأقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتا لا حق فيه لاحد فأحيوه بإذن الولاة^(٦٧) . أما في المدن فقد ظل اسم القطيعة مستخدما كاسم عام . وفي كثير من الأحيان تعطى اسما مركبا من نوع القطيعة مع اسم صاحبها . وتعددت هذه الانواع فقد تكون دورا مثل قطيعة زميل بن عمرو العذري ممن لهم وفادة على الرسول ﷺ واصبح من أنصار معاوية فولاه على شرطته واقطعه دارا عند باب توما^(٦٨) . والبعض كان يقطع سوقا مثل سفيان بن الابرذ بن أبي امامة ، ابو يحيى الكلبي « كان له سوق الصياقلة بدمشق قطيعة »^(٦٩) . أما خالد بن أسيد ابن أبي العيص ، معاصر عبد الملك فقد منح في دمشق رحبة دعيت برحبة خالد^(٧٠) ، ومعنى الرحبة في أماكن السكنى والنزول هو الفضاء بين اقنية البيوت^(٧١) . واقطع صفوان بن امية الصحابي القرشي ، وامير الكردوس في اليرموك زقاقا عرف بزقاق صفوان ، وذلك اثر وفادته على معاوية^(٧٢) . ومثله حميد بن عمرو بن مساحق القرشي ، قريب معاوية عن طريق الام ولو أن القرابة بعيدة ، الذي اقطع دربا عرف بدرب حميد^(٧٣) .

٦٥ . Cl. Cahen, E. 1² Arts Dayā. Iqta

٦٦ . ابن سعد، طبقات، ج ٧، ص ٤٦٤ .

٦٧ . بلاذري، فتوح، ص ١٥٥ .

٦٨ . ابن عساکر، تهذيب، ج ٥، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

٦٩ . ابن عساکر، تهذيب، ج ٦، ص ١٨٢ .

٧٠ . ابن عساکر، تهذيب، ج ٥، ص ٣٠ - ٣١ .

٧١ . ياقوت، بلدان، مادة «رحبة مالك بن طوق» .

٧٢ . ابن عساکر، تهذيب، ج ٦، ص ٤٢٩ - ٤٣٤ .

٧٣ . ابن عساکر، تهذيب، ج ١، ص ٢٤٣ .

وحملت بعض القطائع الاخرى بدمشق اسم كنائس ، وتفسر الرواية التي يوردها ابن عساكر انتقالها كإقطاعات للمسلمين « بانه اقام بدمشق بعد فتحها اثنا عشر بطريقا من بطارقة الروم فأقروا في منازلهم وكان لكل بطريق منهم في منزله كنيسة فأقاموا بها حيناً ثم بدا لهم فهربوا من دمشق وتركوا تلك المنازل فصارت اقطاعا لقوم من أشرف دمشق^(٧٤) » وقد أثارت هذه العملية جدلا لمطالبة المسيحيين بها باعتبارها من ضمن الخمس عشرة كنيسة الداخلة في صلحهم. وقد خاصموا بعض الاشراف لدى عمر بن عبد العزيز ، أولهم حسان بن مالك الكلبى الذي ابلغه عمر بانه لا سبيل له على الكنيسة التي اقطعت له اذا كانت داخلة في صلحهم. كما رد لهم كنيسة كان معاوية اقطعها لبني نصر ، فلما ولي يزيد ردها الى بني نصر^(٧٥). وربما كان وجه الخلاف في المسألة انهم جلوا عنها فصارت من حق الفاتحين من وجهة نظر من وهبها كإقطاع . أما من وجهة نظر عمر وقاضيه فان اقطاعها للمسلمين وسكنائهم بها يخالف شرط الأمان لهم ، والذي اورده يحيى ابن حمزة القاضي في حيينات حكمه انه قرأ كتاب خالد لهم عند الفتح وفيه « انه أعطاهم أمانا لا لنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا نهدمنه ولا نسكنه^(٧٦) ». وهنا يبدو ان من الأصح النظر الى كلمة المنازل التي يحتوي كل منها كنيسة بالمعنى الواسع للكلمة واعتبارها سكنا كبيرا ذا اراض واسعة .

وربما انطبق الوضع ذاته على عدد من الأديرة حول دمشق لاننا نجد اسماءها مرتبطة باسماء بعض الأمراء الامويين او كبار أنصارهم ، مما يدعو لترجيح كونها مع اراضيها الملحقة بها قد اقطعت لهم ، ولو أن مصادرنا لاتذكر ذلك صراحة . هناك دير ابان الذي ينسب لابان بن عثمان بن حرب الاموي عند قرحتا ، وكذلك دير بشر عند حجيرا بغوطة دمشق^(٧٧) . وفي اقليم بيت الابار دير بحدل الذي ينسب لسعد بن مالك بن بحدل الكلبى الذي ولي امرة قنسرين والجزيرة ايام يزيد بن معاوية^(٧٨) .

ومهما تعددت اشكال هذه القطائع فان شرعية الحصول عليها تتم بكتاب يصدر عن الخليفة يمنح ويحدد الاقطاع الممنوح ويشهد فيه عليه القوم . ونجد نموذجا لذلك في

٧٤ . ابن عساكر، المصدر السابق نفسه، ج ١، ص ٢٤١.

٧٥ . بلاذري، فتوح، ص ١٣٠.

٧٦ . ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ٢٤٢.

٧٧ . ياقوت، بلدان، مادة «ديرابان»، «دير بشر».

٧٨ . ابن عساكر، تهذيب، ج ٦، ص ١٧٣.

منح عبد الملك بن مروان لحفص بن عمر بن سعيد بن عبد العزيز الازدي : اني انطيتك بقرية زملكا كذا وكذا فدانا واشهد على نفسه أخويه محمدا وعبد العزيز واثنين من كبار خواصه وهما روح بن زنباع وقبيصة بن ذؤيب بن حلحلة ، وهو من التابعين (ت ٨٧هـ / ٧٠٩م)^(٧٩) لكن العملية بين عزم الخليفة على المنح وبين التنفيذ لم تكن بسيطة ومباشرة بل أصبحت مركبة وتتألف من مراحل متعددة ، مما قد يتيح ، في بعض الاحيان - التحايل وادخال تحريف في نصه لمصلحة المقطع (بفتح الطاء) كما حصل مع هشام بن عبد الملك عندما اقطع قبل توليه الخلافة أرضا يقال لها دورين ، ولما علم انها خراب ، وشكا ذلك لزويد الكاتب الذي ادخل كلمة « وقرأها » في النص مقابل رشوة باربعمائة دينار . ثم « امضاها هشام في الدواوين فأخذ شيئا كثيرا^(٨٠) » . لكن هذه الرواية رغم ذكرها لضرورة مرور العملية في دواوين متعددة الا انها لا تحدها . وقد رسم لنا قدامة بن جعفر المتوفى سنة (ت ٣٢٩هـ / ٩٤٠ - ٩٤١م) . صورة متكاملة للاجراءات التي يتم بموجبها صدور كتاب الاقطاع . اذ يخرج الامر من الخليفة من ديوان الدار . ثم يصاغ هذا الامر ويوقع في ديوان التوقيع ، حيث تصاغ نسخة اخرى الى صاحب ديوان الدار . ومن هناك تحول الى صاحب ديوان الضياع^(٨١) . لكننا لا نستطيع تحديد الزمن الذي اتخذت الاجراءات فيه هذا الشكل الكامل وهل وصلت اليه في فترتنا هذه أم لا .

دور الاقطاع في نواحي الحياة المختلفة :

شمل تأثير هذا النظام بالشكل الذي أخذه في بلاد الشام العديد من نواحي الحياة . فقد أدى توطين القبائل في أماكن خاصة اما بعمل مقصود كما حصل في الجزيرة ، أو غير مقصود كما حصل حول دمشق ، حيث انقلب موقع الوحدة العسكرية المكونة من أبناء قبيلة واحدة الى اكثر من نتيجة . منها حمل بعض المواقع حول دمشق لمضمون قبلي اذ اصبح يسمى باسم القبيلة مثل الازواع وهي قرية على باب دمشق من جهة باب الفراديس في شمالها ، وهي التي تحول اسمها بعد قرون الى العقيبة^(٨٢) ، علما ان الازواع

٧٩ . ابن سعد ، طبقات ، ص ٤٤٧ .

٨٠ . الطبري ، محمد بن جرير (ت ٢١٠ هـ / ٩٤٥ م) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ . وسيشار اليه فيما بعد هكذا : طبري ، تاريخ .

٨١ . قدامة ، الخراج ، ص ٥٤ .

٨٢ . الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان شمس الدين (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٧٤ م) ، سير اعلام النبلاء ، ج ٨ ، حققه نذير حمدان وأشرف على التحقيق وخرج الاحاديث شعيب الأرنؤوط ، ط ٤ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٠٧ . وسيشار اليه فيما بعد هكذا : الذهبي ، المحقق .

هي بطن من ذى الكلاع من حمير^(٨٣). وفي أحيان أخرى كانت المناطق تحتفظ باسمها مضافا لاسم القبيلة التي نزلتها مثل المرة التي نزلها اسامة بن زيد - كما مر - مع عشيرته كلب فصارت تدعى مزة كلب ، وكذلك حال البقاع التي يحدها ياقوت بانها ارض واسعة بين بعلبك ودمشق وحمص وتدعى بقاع كلب^(٨٤). لكن النتيجة السلبية والخطيرة لهذا الشكل من استقرار القبائل هو وقوع المنازعات بين القبائل المتجاورة خاصة والتي اشتدت في اواسط العصر الاموي في الجزيرة وحول البادية. وفي دمشق خلال العصر العباسي في الفتنة المشهورة باسم فتنة ابي الهيثام^(٨٥).

من ناحية أخرى اسهم هذا النظام - على ما نعتقد - في إبراز طبقة عليا أو أشرف كما يتردد اسمها في المصادر العربية والتي كانت كل درجة من القوة تنالها تساعدها على الارتقاء الى درجة أعلى على سلم الثراء والقوة. وتتألف من أفراد الاسرة الاموية وأشرف القبائل المناصرة. فقد منحوا أول الأمر الاقطاعات لكسب دعمهم وتأييدهم لكنهم أصبحوا أقوى وبالتالي أصبحت الدولة أكثر ميلا لارضائهم واستمرت في منحهم الاقطاعات كما حدث في عهد عبد الملك اذا انتهت الصوافي فتحول لمنحهم « من أراضي خراج قد باد اهلها ولم يتركوا عقبا فأقطعهم منها ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج ولم يحمله أحدا من أهل القرى وجعلها عشرا ورآه جائزا له مثل اخراجه من بيت المال لجوائز الخاصة »^(٨٦) ثم تجاوز الخلفاء بعد انتهاء هذه الاراضي الى السماح لهم بشراء اراضي اهل الذمة ووضعوا خراج هذه الاراضي عمن باعها بعدما تحولت لعشرية واذنوا للمشتريين بادخال اثمانها الى بيت المال كسداد لما ضعف اصحاب هذه الاراضي عن ادائه في السابق. ولا يخفى ان مردود العملية هذه يعود على الاشراف بفائدة قد لا تقل كثيرا عن مردود عملية الاقطاع ، اذ لا بد انهم اشتروها بأسعار رخيصة جدا لان السعر يرتبط عادة بالريعية وريعتها ضعيفة بالنسبة لاهل الذمة لانهم يدفعون عنها نصف انتاجها بشكل عام ، بينما يرتفع ريعها عندما تصل لأيدي هؤلاء الاشراف الى تسعة اعشار بشكل عام. كما انهم باعوا في وقت حاجة لضعفهم عن سداد الخراج كما تقول الرواية. وقد حاول عمر بن عبد العزيز الوقوف في وجه هذه العملية لكنه لم يستطع

٨٣. ياقوت، بلدان، مادة «اوزاع».

٨٤. ياقوت، المصدر السابق نفسه، مادة «بقاع».

٨٥. ابن عساکر، تراجم حرف العين المتلوة بالالف، عامر بن عمارة بن خريم ابو الهيثام المري، ص ٣٩٤.

٨٦. ابن عساکر، منجد، ص ٥٩٥. نجدة خماس، الشام في صدر الاسلام، ص ٢٥٩.

الغاء البيوع السابقة لاختلاط الاموال في المواريث والمهور وقضاء الديون فاكتفى بايقافها معتبرا سنة مائة حدا فاصلا أو سنة المدة كما سماها فمن اشترى بعدها شيئا فشرأه مردود. ورغم أن الرواية هذه تقول بالتزام يزيد بن عبد الملك وهشام بفعله ، الا ان بعض الوقائع تدل على ان المنع لم يكن تاما ، بل اكتفى بوضع قيد على شراء ارض اهل الذمة ، هو استئذان الخليفة. فقد اشترى خالد القسري ارضا في الغوطة فأمر هشام بتغريم عامله على الغوطة اربعمائة دينار وبمعاقبة وكيله القسري بالضرب مائة سوط لكل منهما والتشهير بالطواف بهما والمناداة عليهما بان هذا جزاء من اشترى ارضا بغير اذن أمير المؤمنين^(٨٧).

استمر الحال على هذا المنوال الى مجيء العباسيين ، فجرى للشام تعديلان أو مساحة جديدة لتبين وضعية الاراضي ومدى شرعية الاقطاعات بيد اصحابها ، كان اولهما في عهد أبي جعفر المنصور الذي ارسل المعدلين الى الكور ، فعدلوا تلك الاثرية وحملوا نتائج عملهم اليه في الكوفة^(٨٨). لكن العملية لم تستكمل بل بقيت الغوطة دون تعديل وبقيت كذلك الى زمن المأمون الذي قدم لدمشق سنة ٢١٤هـ واصطدمت العملية بعقبات منها أن المساحين أو المعدلين الذين استقدمهم من أهل الجزيرة ، والموصل والرقه طلبوا اعفاءهم، مما يدعو الى الظن بصعوبة العملية أو بعدم قناعتهم بالتوجيهات التي فرض عليهم الالتزام بها ، فاستقدم مساح العراق والاهواز والري^(٨٩). وبنتيجة العملية اعفيت القطائع القديمة ، قبل سنة مائة من الخراج وابقيت عشرية واخذ الخراج على اراضي الاثرية بعد هذه السنة^(٩٠)، بهذه العملية جرد اشراف الشام من كسب احرزوه بعدما حرم أبناء الاسرة الاموية وكبار انصارها من اقطاعاتهم بمصادرتها ، باستثناء اقطاعات عمر بن عبد العزيز، ففي الرواية الشامية التي ينقلها ابن عساكر عن الوليد بن مسلم يرد « ان عمر بن عبد العزيز لم يمت عن ضيعة بقيت في يده غير بدا وجزين بأرض بعلبك وانه اورثها عشرية وعدلها على ذلك ابو جعفر المنصور فصارت بأيدي ورثة عمر^(٩١) ».

٨٧. ابن عساكر، منجد، ص ٥٨٧.

٨٨. الذهبي، المحقق، ج ٨، ص ٣١٧.

٨٩. ابن عساكر، تهذيب، ج ٤، ص ١١٠.

٩٠. ابن عساكر، منجد، ص ٥٩٧.

٩١. ابن عساكر، المصدر السابق نفسه، ص ٥٨٨.

ومن الوسائل الأخرى التي رخص فيها الخلفاء لهؤلاء الاشراف وازدادوا بها ثروة وقوة قضية الإلجاء. وأوضح مثل عليها بعيد عن الشام ولكنه قريب من ثغور الجزيرة، وهو مراغة اعظم بلاد اذربيجان التي الجأها اهلها لمروان بن محمد عندما كان واليا على ارمينية واذربيجان فابتناها وتآلف وكلاؤه اهلها فكثروا فيها للتقرر وعمرها ثم انها قبضت مع ما قبض من ضياع بني امية وصارت لإحدى بنات الرشيد^(٩٢). لكننا نعثر في بلاد الشام على شكل من اشكال الالغاء التي تحدد فيها واجبات كل من الطرفين، ولو ان المصدر الذي يورد الخبر لم يسمها كذلك بل يسردها كواقعة وجرت هذه الواقعة في بلدة بالس التي كانت للروم فجلوا عنها واسكنت قوما من العرب والبوادي، وكان موقعها في الاصل على الفرات لكنه لم يزل يشرق عنها حتى صار بينهما أربعة أميال. فلما كان مسلمة بن عبد الملك، الامير الأموي والقائد العسكري المشهور متوجها للغزون نحو الثغور الجزيرة عسكر ببالس حيث تم الاتفاق بينه وبين اهلها واهل القرى المنسوبة اليها بوبلس وقاصرين وعابدين وصفين، اما بمبادأة منهم أو منه. على أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقي ارضهم على ان يجعلوا له الثلث من غلاتهم بعد عشر السلطان الذي كان يحفر له. فحفر لهم النهر المعروف بنهر مسلمة ووفوا له بالشرط ورم سور المدينة وأحكامه. فلما مات صارت بالس وقرائها لورثته، فلم تزل في ايديهم حتى جاءت الدولة العباسية وقبضت أموال الامويين فاقطعها السفاح لاحد أبناء الاسرة العباسية^(٩٣).

اضافة لهذه الوسيلة التي ضخمت املاك اشراف الشام، حصلوا من الدولة على تسهيل آخر في دفع ما يترتب على اراضيهم من مال وذلك بواسطة الايغار، الذي يضع له ياقوت الحموي معنيين اولهما بمعنى الحماية « اوغرت الدار اذا حميتها ولا يسمى الايغار ايغارا حتى يأمر السلطان فلا تدخله العمال لمساحة خراج ولا مقاسمة فيكون الايغار لعقبه من بعده على مر السنين، خلا الصدقات فانها خارجة عنها يحصيتها المصدق ويأخذ التواجب عنها»، أما المعنى الثاني فهو « ان يقرر امر الضيعة مثلا على عشرة آلاف درهم كل سنة يؤديها في بيت المال أو في غير البلد الذي الضيعة فيه لتكون الضيعة موقرة محمية لا تدخلها يد عامل أو متصرف»^(٩٤) وما نعثر عليه في بلاد الشام هو مثل عن الايغار بالمعنى الثاني وهو المفيد لهم، فقد اقطع عبد الملك بن مروان العباس ابن جزء، والد زوجته ام الوليد وسليمان، قطائع اوغرت له إلى اليمن^(٩٥).

٩٢. ياقوت، بلدان، مادة «مراغة».

٩٣. بلاذري، فتوح، ص ١٥٥-١٥٦.

٩٤. ياقوت، بلدان، مادة «الايغاران».

٩٥. بلاذري، فتوح، ص ١٥٢.

أخيرا يبدو ان الاشراف في الشام نالوا من الخلفاء منافع اخرى تتمثل بشكل من الاقطاع هو الذي يسميه صاحب اللسان اقطاع ارفاق ، اذ يرد في الطبري « بايع حصين ابن نمير مروان به الحكم وكان قد اشترط عليه ان ينزل بالبقاء من كان بالشام من كندة ، وان يجعلها لهم مأكلة^(٩٦) ». والمأكلة على ما جاء في اللسان مرادفة لطعمة ، يقال جعل السلطان ناحية كذا طُعمة لفلان أي مأكلة له . والطعمة شبه الرزق يريد به ما كان له من الفيء وغيره وجمعها طعم ، يقال فلان تجبى له الطعم أي الخراج والاتاوات^(٩٧) ، أي أن هذا النوع من الاقطاع يمنح المقطع له الانتفاع بواردات أرض معينة .

اضافة لكل هذه الوسائل التي يمكن اعتبارها شرعية والتي توفرت لاشراف الشام في تحصيل ثروات ضخمة لجأ البعض الى وسائل اخرى لا تتسم بهذه السمة ، هاجم الفقهاء منها وضع اليد على ممتلكات مفتوحة في الثغر ، ويظهر ان الخلفاء تغاضوا عنها اما للقرابة أو تشجيعا لهؤلاء القادة على بذل اقصى النشاط في محاربة الروم البيزنطيين ، ونتيجة لكل ذلك تراكمت ثروات كبيرة ، تناسبت ضخامتها مع كثرة عدد وسائل الحصول على المال ، حتى اذا اجتمعت كلها أو اكثرها لدى البعض اصبحت ثروته خيالية . ونجد بعض شخصيات تمثل هذا الواقع وفي مقدمتها مسلمة بن عبد الملك ، أخو الخلفاء وقائد السرايا ، فعدا عن الاراضي التي اصبحت له بالالغاء - والتي مر ذكرها ، كانت له اراض اخرى واسعة بين رأس العين والرقبة بنى فيها حصنا . كما كانت له في الثغر الشامي ارض بغراس والاسكندرية (اسكندرون حاليا) وكذلك عين السلور وبحيرتها^(٩٨) وعندما تحول هذه الممتلكات الى قيم رقمية تكشف عن ثروات طائلة فابن اخيه معاوية بن هشام قرينه في قيادة الصوائف التي بلغ عددها عشر صوائف قبل أن يتوفى سنة ١٩ هـ^(٩٩) ، لكنه لم يبلغ مداه في الثراء على الأرجح ، لان المصادر لا تأتي على ذكرها لعدم شهرته في هذا المجال ، ومع ذلك فانه عندما توفي عن زوجتين له في حياة ابيه هشام ، اخرج هذا الاخير كلا منهما من نصف الثمن بأربعين الفا^(١٠٠) ، أي ان مجموع ثروته هو ٦٤٠٠٠ ر. وهو مبلغ هائل حتى لو اعتبرنا وحدة العملة التي لا يحددها المصدر درهما . وقد مكنتهم هذه

٩٦ . الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٥٤٤ .

٩٧ . لسان العرب، مادة «طعم» .

٩٨ . بلاذري، فتوح، ص ١٥٣ .

٩٩ . طبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٠، ٤٦، ٥٤، ٦٧، ٧٠، ٨٨، ٩٠، ٩٢، ٩٣، ٩٩، ١٠٩ .

١٠٠ . طبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٠٧ .

الثروات من الظهور بمظهر السلاطين فصاروا يهبون الاقطاعات مثلهم . فقد اقطع مسلمة قوما من ربيعة قطائع قبضت وصارت بعد للمأمون العباسي^(١٠١) . كما انه جعل بغراس ، التي يملكها والمعروفة باهميتها الاستراتيجية ، لوقوعها على مدخل ممر بيلان الذي يعبر جبال الامانوس (اللكام) من ناحية بلاد الشام^(١٠٢) ، وقفا على اعمال الخير ، وكان زنباع الجذامي ذا مكانة عند عبد الملك بن مروان الذي امر ابنه بان يعطي روح بن زنباع هذا ضيعته المجاورة لاملاكه بما فيها من العبيد والآلات والحيوانات^(١٠٣) . وتشبه عبد الواحد ابن الحارث بن الحكم ابن عم الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان بالخلفاء من ناحية اخرى ، فتبرع بمرج كامل في الثغرسمي باسمه ويقع بين جيحان والفرات الاوسط ليكون حمى للمسلمين^(١٠٤) . والحمى في الاصل تقليد جاهلي اذ كان الشريف عند نزوله موطننا في عشيرته . استعوى كلبا وجعل لرعيه ورعي خاصته مدى عوائه فلم يرعه معه احد وكان شريكا في سائر المراجع حوله^(١٠٥) . وقد حرمه الاسلام ، واقامه الخلفاء لاغراض المسلمين العامة .

واذا ضربنا صفحا عن قضية العدالة في التوزيع من الناحية الاجتماعية نجد ان عملية الاقطاع ادت دورا هاما على صعيد النمو الاقتصادي في بلاد الشام . فمنذ الزمن الذي تلا الفتح نجد اخبارا عن انزال قبائل في الجزيرة ، وفي ثناياها ما يدل ضمنا على توطين بدو وبعضها يذكر ذلك صراحة بادماجه ضمن من وطنوا على الارض « قوما نزعوا من البوادي » . وفي الاخبار عن اصحاب الاقطاعات الكبيرة نجد ذكرا لاعمالهم العمرانية في جر المياه . اما بحفر انهار جديدة كما فعل سعيد الخير أو مسلمة بن عبد الملك في بالس ، أو باصلاح القديمة المخربة كما فعل مسلمة في منطقة الحصن المسمى باسمه ، كما انهم اقاموا في هذه المناطق الواقعة على سيف البادية حصونا كما يدل اسم المنطقة السابقة الذكر مباشرة ، وعمل مسلمة ايضا في بالس التي الجئت اليه اذ « رمم سورها وحصنه ، وبهذا أسهموا إسهاما ملحوظا في عملية التنمية الزراعية في بلاد الشام التي كان يقوم بها الخلفاء الأمويون في بلاد الشام ومن اهمها مد حدود الحاضرة شرقا بعد أن كانت محدودة بجوار خط المدن الداخلية الكبرى دمشق - حمص - حماة - قنسرين وذلك

١٠١ . بلاذري، فتوح، ص ١٥٤ .

١٠٢ . Cl. Cahen, E. I². Art. Baghras

١٠٣ . ابن عساکر، تهذيب، ج ٥، ص ٢٤٢ .

١٠٤ . بلاذري، فتوح، ص ١٨٥، مقدمة، الخراج، ص ٣٢١ .

١٠٥ . لسان العرب، مادة «حمى». ياقوت، بلدان، مادة «حمى» .

بواسطة قصورهم الصحراوية^(١٠٦). فكانوا مساعدين في هذا الاتجاه وخاصة في أقصى الشمال ، كما انهم كانوا يمدون حدود الحاضرة بالاتجاه المقابل أي من الفرات باتجاه الغرب. وتزداد أهمية أعمالهم المائية في ضوء الاتجاه العام للتطور الزراعي في المنطقة. فهي بداية فترة انتقال مزروعات من الشرق الأقصى لعالم المتوسط مع انتقال الناس والتجار بين العالمين ومثل هذه المزروعات النابتة طبيعيا في بيئة امطارها صيفية تحتاج في منطقة المتوسط الى الري. كما انها تحتاج لعمل زراعي اكثر تعقيدا وكلفة وهم اقدر على ذلك من غيرهم. ونجد مثلا على هذا الامر في عمل عبد الله بن صالح العباسي الذي ينسب اليه ابتناء سلمية التي اجرى اليها نهرا واستنبط ارضها حتى زرع فيها الزعفران^(١٠٧)، وكما جرت العادة في انتقال النباتات الجديدة تبدأ عند الكبار وتنتشر فيما بعد لدى عامة الناس لمردودها المالي الكبير وقد تم هذا بالفعل في سلمية ، ان يرد في ترجمة المحدث المعاصر للفترة الحكم بن نافع البهراني الحمصي (ت ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م) ، انه كان اذا جاءه اهل الحديث بسلمية قال لهم : القطوا لي الزعفران ، وثمت ينبت الزعفران فكانوا يلقطون ويحدثهم^(١٠٨) .

رأي الفقهاء بالاقطاع :

انصبت معارضة الفقهاء في الاقطاعات على قضيتين الاقطاعات في الثغور ومصادرة اقطاعات الأمويين التي تعود في اصولها الاولى الى الصوافي. في القضية الاولى لم تطل معارضتهم اقطاعات السواحل الشامية فالفريابي^(١٠٩) (١٢٠ - ٢١٢هـ) نزيل قيسارية واحد شيوخ البخاري يرى على سبيل المثال ان « بعسقلان هنا قطائع اقطعت بامر عمر وعثمان لو دخل فيها رجل لم اجد بذلك بأسا^(١١٠) ». اما بالنسبة للثغور الشامية أي ما وراء انطاكية ، فلدينا رأي أبي اسحاق الفزاري الشامي المتوفى ١٨٦هـ/ ٨٠٢م والخبير بأوضاع الثغور لقضائه وقتا طويلا في التعليم والتوجيه ان تصفه رواية الذهبي بالقول « كان صاحب سنة ، صالحا ، وهو الذي أدب أهل الثغر وعلمهم السنة^(١١١) » .

١٠٦. A.M. Watson, Agricultural innovation in the Early Islamic world, Cambridge University Press 1983, p.130 .

١٠٧. اليعقوبي، احمد بن يعقوب بن واضح، (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، كتاب البلدان، ملحق بكتاب الأعلام النفيسة، مصورة عن طبعة ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩١، مسيحية، ص ٣٢٤.

١٠٨. الذهبي، ارناؤوط ج ١٠، ص ٣٢٤.

١٠٩. الذهبي، محمد بن احمد بن عثمان شمس الدين (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م)، تذكرة الحفاظ، وزارة معارف الحكومة العالية الهندية، دار الفكر، ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٧٦، الذهبي، ارناؤوط، ج ١٠، ص ١١٨، عبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ج ٢، ص ١٢٨.

١١٠. بلاذري، فتوح، ص ١٥٠.

كان الفقيه يكره شراء ارض بالتغر ويقول « غلب عليه قوم في بدء الامر واجلوا الروم فلم يقسموه وصار الى غيرهم ، وقد دخلت في هذا الامر شبهة العاقل حقيق بتركها^(١١٢) » .

ونجد مبررا لشهادة هذه الشخصية الجديرة بالاعتبار من ملاحظة كيفية السيطرة على اراضي التغر. ذلك انه بعد فتح الشام كانت الارض من الاسكندرونة الى طرسوس خلاء وقد هدمت حصونها بعمل الروم أو المسلمين وكان المسلمون بالتالي يغزون ما وراء انطاكية^(١١٣). ويبدو ان قادتهم وضعوا ايديهم على ما فتحوه أو على القسم الاعظم منه دون قسمته على الآخرين وتغاضي الخلفاء عنهم ، كما توحى بذلك ملكيات مسلمة الواسعة جداً في المنطقة والتي سلف ذكرها ، ولما قامت الدولة العباسية وصادرت اقطاعات الامويين رأى الفقهاء المعاصرون من الشام وغيرها أن العملية غير شرعية ولا يمكن تبريرها بعدم شرعية ملكية الأمويين لها. فقد قال فقيه الشام الاوزاعي (ت ١٥٧هـ / ٧٧٣ - ٧٧٤ م) لعبد الله بن علي العباسي حولها « ان كانت اموالهم لهم حلالا فهي عليكم حرام ، وان كانت عليهم حراما فهي عليكم أحرم » أما خارج الشام فقد امتنع بعض كبار الفقهاء كمالك بن انس عن الاجابة على سؤال وجه لهم بهذا الخصوص ، لكن سفيان الثوري (ت ١٦٢هـ / ٧٧٨ - ٧٧٩ م) شدد على عدم شرعية العملية بأوجه عدة. فقد أجاب سائله ناصحا بالأ ينزل في ارض منها وان يفارق اباه اذا ابى الخروج منها والا يصلي بمسجد فيها أو يعود مريضا مقيما بها. لكنه حلل له شراءها اذا عرف اصحابها الاول. ثم كرر حجة الاوزاعي « ان كانت الصوافي لبني امية حلالا فهي على بني هاشم حرام ، وان كانت على بني امية حراما فهي على بني هاشم أحرم^(١١٥) » .

١١١ . الذهبي، حمدان و ارناؤوط، ج ٢٨، ص ٥٤٠ - ٥٤١، عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصرى (ت ٢١٨هـ / ٨٩٤م)، تاريخ ابي زرعة الدمشقي، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠م، ج ١، ص ١٨٨ - ١٨٩.

١١٢ . بلاذري، فتوح، ص ١٧٦.

١١٣ . بلاذري، فتوح، ص ١٦٨.

١١٤ . الذهبي، ارناؤوط، ج ٨، ص ١٢٥.

١١٥ . ابن عساکر، تهذيب، ج ١، ص ١٨٦.

أعظم دليل على قوتها^(١٣). وقد كان حافظاً لما رواه متقناً لما وعاه عارفاً فهما، قيماً في ما جاء به صادقاً في ما نقله عن أفاضل المسلمين^(١٤). وقد أثنى ابن الجزري على قراءته وعلمه قائلاً: «وكان إماماً كبيراً وتابعياً جليلاً وعالمًا شهيراً أمّ المسلمين بالجامع الأموي سنين كثيرة في أيام عمر بن عبد العزيز وقبله وبعده، فكان يأتهم به وهو أمير المؤمنين وناهيك بذلك منقبة وجمع له بين الامامة والقضاء ومشیخة الاقراء بدمشق، ودمشقُ ان ذاك دار الخلافة ومحط رحال العلماء والتابعين فأجمع الناس على قراءته وعلى تلقيها بالقبول وهم الصدرُ الأولُ الذين هم أفاضل المسلمين»^(١٥).

ولابن عامر قراءات كثيرة وغزيرة تبدو شخصيته فيها واضحة المعالم، من يتتبعه فيها يُحس ويتأكد له بأنه كان يقرأ عن فهم ووعي لما يقرأ، فلم يكن مجرد راوية فحسب وإنما كان يختار القراءة ويتبناها بعد أن يقلبها على وجوهٍ عدةٍ وبعد أن يرتكز على مرتكزات معينة وبعد أن يرسو على مصدرٍ يستقيها منه .

وأولُ المصادر التي كان يستقي قراءته منها وأهمها رسم مصحف أهل الشام، فكان رسم الكلمة على وضع معين يوحى اليه بقراءتها على وجه دون الوجوه الأخرى المتاحة، وهذا ظاهر بينٌ ودلائله كثيرة:

فقد قرأ قوله تعالى (والذين اتَّخَذُوا)^(١٦) بغير واو قبل (الذين) لأنها بغير واو في مصاحف أهل المدينة والشام، وذلك على الاستئناف واضمار الخبر، أو على أن (الذين) خبر والمبتدأ محذوف مقدر، وقد قرأ معه هذه القراءة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني المتوفى سنة (١٦٩هـ - ٧٨٥م) لعدم ذكرها في مصاحف أهل المدينة كما ذكرت، بينما قرأ الباقرن بالواو لأنها كذلك في مصاحفهم^(١٧).

١٢. انظر: ابن حجر العسقلاني - تهذيب التهذيب - ج ٥ ص ٢٧٤.

١٣. انظر: ابن الجزري - غاية النهاية - ج ١، ص ٤٢٤.

١٤. انظر: ابن الجزري - غاية النهاية - ج ١، ص ٤٢٤.

١٥. ابن الجزري - غاية النهاية - ج ١ ص ٤٢٤.

١٦. ابن الجزري - النشر في القراءات العشر (ج ١ ص ١٤٤).

١٧. سورة التوبة آية ١٠٧.

وقرأ قوله تعالى (أَشَدُّ مِنْهُمْ)^(١٨) بالكاف على الخروج من الغيبة إلى الخطاب كما قال (الحمدُ لله ربَّ العالمين)^(١٩) ثم قال (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)^(٢٠) فرجع إلى الخطاب بعد لفظ الغيبة وكذلك هي في مصاحف أهل الشام بالكاف بينما قرأ الباقرن باللهاء^(٢١).

وقرأ مع نافع قوله تعالى (فَمَا كَسَبَتْ)^(٢٢) بغير فاء لأنها كذلك في مصاحف أهل المدينة والشام، ووجه ذلك أن تكون «ما» في قوله تعالى (وما اصابكم) بمعنى «الذي» في موضع رفع بالابتداء فيكون قوله تعالى (بما كسبت) خبر الابتداء فلا يحتاج إلى فاء، وقرأ الباقرن (فبما) بالفاء لأنها كذلك في جميع المصاحف إلا مصاحف أهل الشام والمدينة^(٢٣).

وقرأ (ذو الجلال) بالواو في قوله تعالى (اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ)^(٢٤) جعله صفة لاسم وهي كذلك في مصاحف أهل الشام^(٢٥).

وقد بلغ بأبن عامر من شدة عنايته بمتابعة مصحف أهل الشام الأبيالي بما أجمع عليه القراء واختاروه وهذا ظاهر في قراءته قوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)^(٢٦) بغير الواو جاعلاً إياه مستأنفاً غير معطوف على ما قبله لا لشيء إلا لأنها كذلك في مصاحف أهل الشام بينما قرأ الباقرن بالواو، قال مكي بن أبي طالب: «وكذلك هي في جميع المصاحف بالواو إلا في مصحف أهل الشام، وإثبات الواو هو الاختيار لثباتها في أكثر المصاحف ولأن الكلام عليه كله قصة واحدة وإجماع القراء عليه سوى ابن عامر»^(٢٧).

وليس هذا غريباً على ابن عامر الذي كان يقرأ قوله تعالى (وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلًى)^(٢٨) بفتح الخاء مخالفاً لإجماع على قراءتها بالكسر ومخالفاً لقراءة الرسول الذي ما علم أنه قرأها بغير الكسر^(٢٩).

١٨. انظر: ابو محمد مكي بن أبي طالب القيسي - توفي سنة ٤٣٧ هـ - ١٠٤٥ م - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها - ج ٢ - تحقيق محيي الدين رمضان - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثالثة - بيروت ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م - ج ١ ص ٥٠٧. وسيشار لهذا المرجع فيما بعد عند وروده هكذا: مكي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات.

١٩. سورة المؤمن آية ٢١.
٢٠. سورة الفاتحة آية ٢.
٢١. سورة الفاتحة آية ٥.
٢٢. انظر: مكي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات - ج ٢، ص ٢٤١.
٢٣. سورة الشورى آية ٣٠.
٢٤. انظر: مكي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ٢ ص ٢٥١).
٢٥. سورة الرحمن آية ٧٨.
٢٦. انظر: مكي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ٢ ص ٣٠٣).
٢٧. سورة البقرة آية ١١٦.
٢٨. انظر: مكي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٢٦٠).
٢٩. سورة البقرة آية ١٢٥.

وثاني المصادر التي كان يستقي قراءته منها السياق القرآني بمعنى أن يكون انسجام بين ما يُقرأ وما بعده أو ما قبله:

فقد كان يقرأ قوله تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا)^(٣٠) بالياء على لفظ الغيبة لتقدم ذكر الذين كفروا ولقوله (فهم لا يؤمنون)^(٣١) وقوله (منهم ثم ينقضون عهدهم)^(٣٢) وقوله (لعلهم يدركون)^(٣٣) وقوله (إليهم على سواء)^(٣٤) فردَّ (يحسبن) في الغيبة على هذه الألفاظ المتكررة بلفظ الغيبة وهم الفاعلون والمفعول الأول (يحسبن) مضمرة، و(سبقوا) المفعول الثاني، والتقدير: ولا يحسبن الذين كفروا انفسهم سبقوا^(٣٥)

وكان يقرأ قوله تعالى (والله أعلم بما وضعت)^(٣٦) بضم التاء على إسناد الكلام إلى أم مريم وبجدة انها قالت (ربِّ إني وضعتها أنثى) كأنها أخبرت الله بأمر هو أعلم به منها فتداركت ذلك بقولها (والله أعلم بما وضعت) وقرأ آخرون بسكون التاء^(٣٧).

وكان يقرأ أحياناً الآية الواحدة على وجه واحد أين كانت في سور القرآن انسجاماً مع مفهوم آية أخرى من آيات القرآن، فقد كان يقرأ (وإلى الله ترجع الأمور)^(٣٨). بفتح التاء وبالبناء للمعلوم في جميع القرآن انسجاماً مع قوله تعالى (إلا إلى الله تصير الأمور)^(٣٩). فلم يقل تُصار «وقرأ آخرون (تُرجع) بضم التاء وفتح الجيم وبالبناء للمجهول^(٤٠).

وثالث مصادر قراءته الدلالة المعنوية للفظة موضوع القراءة وهذا يتطلب من ابن عامر أن يكون مطلعاً على اللغة ومدلولات الألفاظ اطلاقاً واسعاً يمكنه من أن يقرأ القراءة التي يراها تؤدي المعنى الذي يفهم من السياق أداءً دقيقاً وهكذا كان ابن عامر: فقد قرأ قوله تعالى (وانظر إلى العظام كيف نُنشِرها)^(٤١). بالزاي وقرأ الباقي بالراء أي (نُنشِرها)

٣٠. انظر: مكي بن ابي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٢٦٣).

٣١. سورة الانفال آية ٥٩.

٣٢. سورة الانفال آية ٥٥.

٣٣. سورة الانفال آية ٥٦.

٣٤. سورة الانفال آية ٥٧.

٣٥. سورة الانفال آية ٥٨.

٣٦. انظر: مكي بن ابي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٤٩٢).

٣٧. سورة آل عمران آية ٣٦.

٣٨. انظر: ابن زنجلة - حجة القراءات ص ١٦٠.

٣٩. سورة البقرة آية ٢١٠.

٤٠. سورة الشورى آية ٥٣.

٤١. ابن زنجلة - حجة القراءات ص ١٣٠.

وحجة ابن عامر والكوفيين، الذين قرأوا معه الحمل على معنى الرفع من «النشز» وهو المرتفع من الأرض أي: وانظر إلى العظام كيف نرفع بعضها على بعض في التركيب للإحياء لأن النشز الارتفاع يقال لما ارتفع من الأرض: نشز، ومنه المرأة النشوز وهي المرتفعة عن موافقة زوجها. والقراءة بالزاي أيضاً بمعنى الإحياء، والعظام لا تحيا على الانفراد حتى يُضَمَّ بعضها إلى بعض^(٤٢).

وقرأ مع نافع قوله تعالى (قُبلاً)^(٤٣) بكسر القاف وفتح الباء وقرأ الباقون بضمهما، وحجتهم جعل هذا اللفظ بمعنى المواجهة والمعانية، أي وحشرنا عليهم كل شيء يواجهونه ويعاينونه ما آمنوا إلا أن يشاء الله^(٤٤).

وقرأ مع نافع قوله تعالى (السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا)^(٤٥). بغير ألف على معنى الاستسلام والانقياد فالمعنى: لا تقولوا لمن استسلم اليكم وانقاد لست مسلماً فتقتلوه حتى تتبينوا أمره، وقرأ آخرون (السلام) بألف على معنى السلام الذي هو تحية الإسلام وعلى معنى: لا تقولوا لمن حياكم تحية الإسلام لست مؤمناً فتقتلوه لتأخذوا سَلْبَهُ^(٤٦).

ورابع هذه المصادر الدلالة النحوية إذ أن معرفة ابن عامر النحوية تبدو جلية واضحة وذات أثر في تبنيه وجهة قرائية معينة مما يحدو بي للقول: إنه كان نحويًا غير مشتغل بعلم النحو كالنحاة الآخرين الذين اتخذوا منه مهنة وشغلوا أنفسهم به وبتأليف الكتب لخدمته وتوضيحه وتطويره.

فقد كان يقرأ قوله تعالى (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى)^(٤٧). بكسر همزة (إِنَّ) على اجراء النداء مجرى القول فكسر (إِنْ) بعده كما تكسر بعد القول، ويجوز أن يكون أضمم القول بعد (فنادته). فقالت إن الله». ومن فتح قدر حرف الجر محذوفاً فـ (أَنَّ) في موضع نصب بحذف حرف الجر^(٤٨).

وكان يقرأ قوله تعالى (أو التابعين غير أولي الإربة)^(٤٩) بنصب غير على الاستثناء ويجوز نصبه على الحال من المضمرة المرفوعة في (التابعين)، تقديره على الاستثناء: لا

٤٢. سورة البقرة آية ٢٥٩.

٤٣. انظر: مكي بن ابي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٣١٠).

٤٤. سورة الانعام آية ١١١.

٤٥. انظر: مكي بن ابي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٤٤٦).

٤٦. سورة النساء آية ٩٤.

٤٧. انظر: مكي بن ابي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٣٩٥).

٤٨. سورة آل عمران آية ٣٩.

٤٩. انظر: مكي بن ابي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٣٤٣).

يبدين زينتهن للتابعين إلا إذا الإربة منهم، وتقديره على الحال: ولا يبدين زينتهن إلا للتابعين عاجزين عن الإربة والإربة في هذا الموضع: الحاجة إلى النساء^(٥٠).

وكان يقرأ قوله تعالى (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء)^(٥١) برفع (يغفر) و(يعذب) على الاستئناف بحجة أن قوله (إن تبدوا) شرط، و(يحاسبكم) جزم لأنه جواب، وقد تم الكلام، فيرفعان على تقدير ضمير: فهو يغفر ويعذب وقرئ بالجزم فيهما على العطف على (يحاسبكم به الله)^(٥٢).

وكان يقرأ قوله تعالى (قوارير قوارير)^(٥٣) بغير تنوين «وهو محض العربية لأن «فواعل» لا تنصرف معرفة ولا نكرة»^(٥٤).

وخماس مصادره لغات القبائل، وقد لعبت لغات القبائل ولهجاتها دوراً كبيراً في توجيه قراءات التابعين الشاميين - وابن عامر من التابعين، وقد أشار إلى هذا حسين عطوان بوضوح قائلاً في حديثه عن كثرة قراءات التابعين الشاميين الشاذة والمفردة: «وثالث الأسباب التي أدت إلى كثرة قراءات التابعين الشاميين الشاذة والمفردة اختلاف اللغات واللهجات القبلية، فقد كان بعض القراء من التابعين الشاميين يعدلون عن قليل من حروف القرآن ويستعيضون عنها بما يقابلها من ألفاظ قبائلهم، وكانوا يقرأون بلهجات قبائلهم ويتأثرون بطريقة نطقها وأدائها للكلام وربما أجازوا ذلك وسوغوه بحديث الرسول الكريم» إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منها... وكان القراء من القبائل الشامية البدوية يحققون الهمز في قراءاتهم ويظهرونه، وكان القراء من القبائل الشامية الحضرية يخففون الهمز في قراءاتهم ويسهلونه»^(٥٥).

ومن القراءات التي استقاها من لغات القبائل قراءته تعالى (فلا تقل لهما أف)^(٥٦) بفتح الفاء من غير تنوين، وقرئت بكسر الفاء والتنوين، وبكسر الفاء من غير تنوين. قال مكي بن أبي طالب: «وهي لغات كلها وأصل (أف) المصدر من قوله: أفة وتفة... وهو اسم سمي به الفعل فبني على فتح أو على كسر أو على ضم منون وغير منون،

٥٠. سورة النور آية ٢١.

٥١. انظر: مكي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات ج ٢، ص ١٢٦.

٥٢. سورة البقرة آية ٢٨٤.

٥٣. انظر: ابن زنجلة - حجة القراءات ص ١٥٢.

٥٤. سورة الانسان آيات ١٥، ١٦.

٥٥. ابن زنجلة - حجة القراءات ص ٧٣٩.

٥٦. حسين عطوان - القراءات في بلاد الشام ص ١٨٥.

ذلك جائزٌ فيه لأن فيه لغاتٍ مشهورة، فمن نَوَّنه قدر فيه التنكير ومن لم ينونه قدر فيه التصريف... وموضعُ (أف) نصبُ بالقول»^(٥٧).

وقراءته قوله تعالى (السَّدين)^(٥٨) بالضم و(سَّدا)^(٥٩) بالضم أيضاً، وقد قرأهما آخرون بالفتح، وهما لغتان كالضَّعف والضَّعْف والفَقْر والفُقْر^(٦٠).

وسادس مصادر قراءته مناسبة الآية ومعرفةً وقت نزولها، فقد كان يقرأ قوله تعالى: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر)^(٦١) بنصب (غير) على الاستثناء من القاعدين لأنه ثبت أنه نزل بعد نزول (لا يستوي القاعدون) فلو كان صفةً لم يكن النزول فيهما إلا في وقت واحد فلما نزل (غير أولي الضرر) في وقت بعد وقت نزول (لا يستوي القاعدون) علم أنه استثناء، إذ لو كان صفةً لنزل مع القاعدين في وقت، وقد ثبت أنهما نزلا في وقتين فقد روي أن صحابياً أعمى لما نزل (لا يستوي القاعدون من المؤمنين) قال: يا رسول الله هل من رخصة؟ وشكا ضرره فأنزل الله (غير أولي الضرر) فجعلت بعد القاعدين^(٦٢). وقد اختار أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى (سنة ٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م) النصب وفقاً لهذا الفهم ورأى أنه الوجه^(٦٣).

ووفقاً لما ذكرت من مصادر قراءة ابن عامر ووفقاً لكل كلمة وردت فيها فإنني أستطيع القول: ان قراءة ابن عامر لم تكن كلها قراءةً مرويةً متواترةً مسندةً الى الرسول وإن كانت من القراءات السبع، وإنما كانت في بعضها قراءةً مستندةً الى درايته في وعي القرآن وفهمه وتفقيهه فيه ومستندةً الى معرفته باللغة معرفةً واسعةً في شتى ضروبها المعرفية، ولذلك أميل الى تأييد الزمخشري الذي كان يرى أن بعض قراءات ابن عامر كانت منبثقةً من رأيه له^(٦٤)، وأميل الى تأييد الرضي في عدم قناعته بتواتر بعض القراءات

٥٧. سورة الاسراء آية ٢٢.

٥٨. مكّي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ٢ ص ٤٤).

٥٩. سورة الكهف آية ٩٣.

٦٠. سورة الكهف آية ٩٤.

٦١. انظر: مكّي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ٢ ص ٧٥).

٦٢. سورة النساء آية ٩٥.

٦٣. انظر: مكّي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٣٩٦).

٦٤. انظر: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م) - معاني القرآن - ٣ ج - عالم الكتب - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٠ م، وسيشار لهذا المرجع عند وروده هكذا: الفراء، معاني القرآن.

السبع وقد كان يرى أنها أي القراءات السبع جميعاً ليست متواترة فقد قال بالحرف الواحد «ولا نسلم تواتر القراءات السبع وان ذهب اليه بعض الأصوليين»^(٦٥).

وقد شغلت بعض قراءاته النحاة وأشكلت عليهم فوقفوا عندها طويلاً وثاروا فيها وعنوا أنفسهم، وقد لاقوا عناء كبيراً في توجيهها والبحث في ثنايا اللغة لتخريجها ووضعها في الأوجه اللغوية المناسبة:

ومن هذه القراءات قراءته قوله تعالى (نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)^(٦٦) بنون واحدة وجيم مشددة، أي: (نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ). ويرى بعض العلماء انه كان يجب على هذه القراءة أن يُفتح الياءُ لأنه فعلٌ ماضٍ لم يسم فاعلهُ ويجب أن يُرفع (المؤمنين) لأنه مفعول فعلٍ لم يُسم فاعلهُ، وأتى على إضمار المصدر واقامته مقام الفاعل، ورأى من رأى هذا التأويل: انه تأويلٌ بعيدٌ لأن المفعول أولى بأن يقوم مقام الفاعل وانما يقوم المصدرُ مقامَ الفاعلِ عند عدم المفعولِ به، أو عند اشتغال المفعولِ به بحرفٍ جر نحو: سير بزيد^(٦٧). وقيل هو على هذه القراءة مُضارعٌ أصله (نُنْجِي) بسكون ثانيه وادغامه في الجيم وقيل إن هذا بعيد لأن النون عند الجيم تُخفى ولا تُدغم، فقيل إنها ادغمت قليلاً. وقيل أيضاً إنه فعلٌ مضارعٌ واصله نُنْجِي بفتح ثانيه وتشديد ثالثه ثم حذفت النون الثانية فرُدَّ بأنه لا يجوز في مضارع نباتٍ ونُقبت ونزَّهت ونحوهن اذا ابتدأت بالنون أن تحذف الثانية الا في ندور^(٦٨).

ومن قراءته التي أشكلت على النحاة قراءته قوله تعالى «اذ قال يوسفُ لأبيه (يا أبتِ إني رأيتُ احدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)^(٦٩) بفتح تاء (أبت) وقد صرح ابن النحاس بأن فتح التاء مشكل في النحو، وعدد آراء النحاة في الفتح هذا، فمذهبُ سيبويه أنهم شبهوا هذه الهاء التي هي بدلٌ من الياء بالهاء التي هي علامة تأنيث فقالوا يا أبتِ^(٧٠)، وهذا أحد قولي الفراء، وله قولٌ آخرٌ وهو أنه يكون الأصل، يا أبتاهُ ثم حُذفت

٦٥. انظر: الامام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري المالكي - الانصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال وهو حاشية على كتاب الكشاف لأبي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري (ت سنة ٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م - ٤ جـ - دار المعرفة - بيروت - لبنان جـ ٢ ص ٥٣ الحاشية).

٦٦. انظر الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي النحوي ت سنة ٦٨٦ هـ - ١٢٨٧ م - شرح الكافية في النحو - ٢ جـ - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م - ج ١ ص ٢٩٣.

٦٧. سورة الأنبياء الآية ٨٨.

٦٨. انظر: مكِّي بن أبي طالب - مشكل اعراب القرآن - ج ٢ ص ٤٨١ - ٤٨٣.

٦٩. انظر: جمال الدين بن هشام الانصاري (ت سنة ٧٦١ هـ - ١٣٥٩ م) مغني اللبيب - ١ جـ - تحقيق مازن المبارك، محمد علي حمدالله، مراجعة سعيد الأفغاني - دار الفكر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٧٢ م (ص ٧٢١).

٧٠. سورة يوسف آية ٤.

الألف^(٧١). ويكون الوقوف عند الفراء على هذا القول بالتاء، وعلى القول الذي وافق فيه سيبويه بالهاء، وقال محمد بن المستنير المعروف بقطرب والمتوفى سنة (٢٠٦هـ - ٨٢١م)، إن أصل (يا أبت) بالفتح «يا أبتا» بالتنوين، ورأي ابن النحاس أن التنوين لا يحذف لغير علة. وفي الفتح قول رابع كأنه أحسنها كما قال ابن النحاس وهو أن الأصل الكسر ثم أُبدل من الكسرة فتحة كما تبدل من الياء ألف فيقال في يا غلامي اقبل: يا غلاما اقبل^(٧٢).

ومن هذه القراءات قراءته قوله تعالى (إِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لِيُؤْفَيْنَهُمْ)^(٧٣). بتشديد (لما) فقيل إن الأصل فيها «لن ما» ثم ادغم النون في الميم فاجتمع ثلاث ميمات في اللفظ فحذفت الميم المكسورة وتقديره: وإن كلاً من خلق ليؤفئهم ربك. وقيل التقدير (لن ما) بفتح الميم في «من فتكون ما» زائدة وتحذف إحدى الميمات لتكرر الميم في اللفظ فالتقدير «لخلق ليؤفئهم»، وقيل إن «لما» في هذا الموضع مصدر «لم» لكن أجري في الوصل مجراه في الوقف وقد حكى عن أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي المتوفى (سنة ١٩٣هـ - ٨٠٨م) أنه قال: لا أعرف وجه التثقيب في «لما»، وقيل إنه لو جعلت «إن» في حالة التخفيف بمعنى «ما» رفعت «كلاً» ولصار التشديد في «لما» على معنى «إلا» كما قال تعالى (إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)^(٧٤) بمعنى ما كل نفس إلا عليها حافظ^(٧٥).

وقد وقف النحاة من بعض قراءات ابن عامر موقفاً سلبياً يتراوح بين ردها واختيار قراءات أخرى عليها، وبين تقبيح الوجه الذي جاءت عليه أو تلحينه، وفي ظني أن النحاة ما كانوا ليجرؤوا على أن يصفوها بهذه الأوصاف لو أنهم كانوا مقتنعين بأنها متواترة عن الرسول ثابت أسنادها إليه، وأعتمد في هذا القول على ما ذهب إليه الزمخشري والرضي وهو ما ذكرته قبل صفحات من هذا البحث.

ولم يتوقف أمر الطعن في بعض قراءات ابن عامر على النحاة وحدهم وإنما تجاوزته إلى العلماء المفسرين، فهذا محمد بن جرير الطبري المتوفى (سنة ٣١٠هـ - ٩٢٢م) يطعن

٧١. انظر: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المتوفى سنة ١٨٠هـ - ٧٩٦م - كتاب سيبويه - ٥ ج - تحقيق عبد السلام هارون

- عالم الكتب - بيروت - ج ٢ ص ٢١١.

٧٢. انظر: الفراء - معاني القرآن - ج ٢ ص ٣٢.

٧٣. انظر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت سنة ٣٣٨هـ - ١٩٥٠) إعراب القرآن - ٣ ج - تحقيق زهير

غازي زاهد - مطبعة العاني - بغداد ١٩٧٩م - ج ٢ ص ١٢٠.

٧٤. سورة هود آية ١١١.

٧٥. سورة الطارق آية ٤.

في قراءة ابن عامر فيرد عليه ابن الجزري بقوله: «وأما طعنُ ابن جرير فيه فهو مما عُدَّ من سقطات ابن جرير قال الشاطبي: إياك وطعنُ الطبري على ابن عامر»^(٧٦).

ومن هذه القراءات التي وقف النحاة منها موقفاً سلبياً قراءته قوله تعالى: (وإذا قضى أمراً فإنما يقولُ له كن فيكونُ)^(٧٧) بنصب (يكون) وقد رد الفراء هذه القراءة بقوله: «رفعٌ ولا يكون نصباً إنما هي مردودةٌ على (يقول)^(٧٨). وضعفها مكِّي بنُ أبي طالب بقوله: «فوجه النصب مشكُلٌ ضعيف، وذلك أنه جعله جواباً بالفا للفظ (كن) إذا كان لفظُهُ الأمر وإن كان معناه غير الأمر فهو ضعيف لأن (كن) ليس بأمر إنما معناه الخبر؛ إذ ليس تمُّ مأمور يكون (كن) أمراً له، والمعنى: فإنما يقول له كن فيكون فهو يكون. ويدل على أن (فيكون) ليس بجواب لـ (كن) أن الجواب بالفاء مضارع به الشرط والى معناه يؤول في التقدير، فإذا قلت: اذهب فأكرمك فمعناه: ان تذهب فأكرمك»^(٧٩).

ومنها قراءته قوله تعالى (أتحاجونني)^(٨٠) بتخفيف النون، والحجة في ذلك حذفُ النون الثانية استخفافاً لاجتماع المثلين متحركين وللتضعيف الذي في الجيم، ولا يحسنُ في رأي النحاة حذفُ النون الأولى لأنها عَلِمَ الرفع في الفعل ولأن حذفها عَلِمَ النصب والجزم فلو حذفت استخفافاً لاشتبه المرفوعُ بالمجزوم والمنصوب، ويرى النحاة بناءً على ذلك أن حذفَ هذه النون في العربية قبيحٌ مكروهٌ إنما يجوز في الشعر لضرورة، والقرآن لا يُحْمَلُ على الضرورة إذ لا ضرورة تلجئُ إليه، ولذلك فقد لَحَنَ بعضُ النحويين من قرأ بحذف النون الثانية وقايةً للفعل من أن تكسر الياء، فإذا حذفتها - النون الثانية - اتصلت الياء بنون الرفع فغيرتها من الفتح إلى الكسر فبغير الفعل ولذلك الاختيارُ تشديداً للنون كما قرأ آخرون لأنه الأصلُ ولأن الحذفَ يوجب التغييرَ في الفعل ولأن أكثرَ القراء عليه^(٨١).

ومنها قراءته قوله تعالى (إرجئهُ)^(٨٢) بالهمز وكسر الهاء من غير إشباع فرأى أهلُ النحو أن هذا غلط لأن الكسرة لا تجوزُ في الهاء إذا سُكِّنَ ما قبلها نحو (منهم) بكسر الهاء

٧٦. انظر: مكِّي بن أبي طالب مشكل اعراب القرآن ج ١ ص ٣٧٤. و: ابن هشام: مغني اللبيب ص ٣٧١. و: ابن الجزري: النشر في القراءات العشر ج ٢ ص ٢٩١. و: الزمخشري: الكشاف ج ٤ ص ٢٤١. و: سيويه: كتاب سيويه ج ٢/١٤٠، ٣/١٠٩.

٧٧. ابن الجزري - غاية النهاية ج ١ ص ٤٢٥.

٧٨. سورة البقرة آية ١١٧.

٧٩. أبوزكريا الفراء - معاني القرآن ج ١ ص ٧٤.

٨٠. مكِّي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات ج ١ ص ٢٦١.

٨١. سورة الأنعام آية ٨٠.

٨٢. انظر: مكِّي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات ج ١ ص ٤٣٦.

وإنما يجوز كسر الهاء في رأي هؤلاء إذا كان ما قبلها ياء أو كسرة فتكسر الهاء لأجلهما غير أن بعض النحاة أوّلوا هذه القراءة وقالوا إنّ الهمزة لما سُكنت للجزم وبعدها الهاء ساكنة على لغة من يُسكن. فكسر الهاء لالتقاء الساكنين وليس هذا كقولهم «منهم» لأنّ الهاء هناك لا تكون الا متحركة^(٨٣).

ومنها قراءته قوله (وإنّ تَلّوا أو تُعرضوا)^(٨٤) بضم اللام أي (تَلّوا) بحجة أنه من: ولي يلي وأصله تُولّوا ثم حذف الواو التي هي فاء الفعل على الأصول للاعتلال في «يعد ويزن» ودليل حمله على «ولي» أن بعده (أو تعرضوا) فهو نقيض (تلوا) لأن ولاية الشيء الاقبال عليه ونقيضه الاعراض عنه^(٨٥) وقد رأى بعض النحويين أن من قرأ (تَلّوا) بضم اللام فقد لحن لأنه لا معنى للولاية ههنا ويرى آخرون رداً على هؤلاء أن (تَلّوا) بمعنى: «تلّوا» والأصل «تلّوا» همزت الواو كما يقال «أَقَّتْ» فصار تَلّوا ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فوجب أن تحذف فصار (تلوا)^(٨٦). ورأى آخرون من الموافقين على هذه القراءة تأويلاً آخر؛ وهو أن تكون القراءة بضم اللام كالقراءة بإسكانها وذلك أن أصل (تَلّوا) «تلّوا» فاستثقلت الضمة على الواو وبعدها واو أخرى فألقيت الحركة على اللام وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين^(٨٧).

ومنها قراءته قوله تعالى (اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه اجراً)^(٨٨) بكسر هاء (اقتده) في الوصل وقد لحن ابن النحاس هذه القراءة لأنه يرى أن الهاء هنا لبيان الحركة في الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها ياء أو واو، ولذلك لا يجوز الكسر في الوصل، وكان يرى أن من اجتنب اللحن واتبع السواد قرأ بإسكان الهاء وَوَقَّفَ، ولم يصل لأنه إن وصل بالهاء لحن وإن حذفها خالف السواد^(٨٩) غير أن محمد بن القاسم المعروف بأبي بكر بن الأنباري المتوفى سنة (٣٢٨ هـ - ٩٣٩م) كان يرى تأويلاً لهذه القراءة؛ فكان يقول: إن من العرب من يثبت هاء السكت في الوصل والوقف بنوا الوصل على الوقف وفي رأيه أن من كسر الهاء كأنه جعلها لغير السكت جعلها كناية عن المصدر،

٨٣ . سورة الأعراف آية ١١١ .

٨٤ . انظر : ابن زنجلة - حجة القراءات ص ٢٩١ .

٨٥ . سورة النساء آية ١٣٥ .

٨٦ . انظر : مكّي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات ج ١ ص ٣٩٩ .

٨٧ . انظر - ابن النحاس - اعراب القرآن ج ١ ص ٤٦١ .

٨٨ . انظر : مكّي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٣٩٩) .

٨٩ . سورة الأنعام آية ٩٠ .

والفعل يدل على مصدره كأنه في التقدير «اقتد الاقتداء» ففيه معنى التأكيد كأنه قال: فبهذا هم اقتد اقتد ثم جعل المصدر عوضاً من الفعل الثاني لتكرّر اللفظ فاتصل بالفعل الأول فأضمر وعليه جاز كسر الياء^(٩٠).

ولم تثر قراءة قارىء النحاة ما أثارته قراءة ابن عامر قوله تعالى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم)^(٩١) وذلك حين قرأ (زين) مبنياً للمجهول (وقتل) مرفوعاً و(أولادهم) منصوباً و(شركائهم) مجروراً ففصل في هذه القراءة بين المضاف والمضاف اليه والنحاة لا يرون الفصل بين المضاف والمضاف اليه الا في ضرورة شعرية وليس بكل لفظ وانما بالظروف أو القسم. فهم يرون أن المضاف والمضاف اليه بمثابة كلمة واحدة مركبة أو بمثابة الاسم وتنوينه فكيف يفصل بين الاسم والتنوين ولذلك أطلق النحاة على هذه القراءة أحكاماً قاسية لم يطلقوها - حسب معرفتي - على قراءة قرآنية أخرى، فالفراء رأى أنها ليست بشيء فقد قال مشيراً إليها: «وليس قول من قال: إنما أرادوا مثل قول الشاعر:

فزعجتُها مُتَمَكَّنًا زَجَّ القلوصَ أبي مُزادة^(٩٢)

بشيء، وهذا مما كان يقوله نحويو أهل الحجاز ولم نجد مثله في العربية^(٩٣)، ورأى ابن النحاس أن هذه القراءة لحنٌ لا يجوز في كلام ولا يجوز في شعر قال مشيراً إليها: «فأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز في كلام ولا شعر وانما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف اليه في الشعر بالظروف لأنه لا يفصل فأما بالأسماء غير الظروف فلحن^(٩٤). ورأى الزمخشري أن الفصل هنا سمحٌ مردودٌ في الشعر الخاضع للضرورة فكيف به حين يكون في القرآن. واتهم ابن عامر بأنه وقع في وهم الرسم قال: «وأما قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل الى الشركاء والفصل بينهما بغير الظروف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمحاً مردوداً كما سمح ورُدَّ،

زَجَّ القلوصَ أبي مَزادة

فكيف به في الكلام المنتور، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمهِ وجزالته والذي حمَله

٩٠. انظر: ابن النحاس - اعراب القرآن - ج ١ ص ٥٦٤.

٩١. انظر: مكى بن ابي طالب - الكشف عن وجوه القراءات (ج ١ ص ٤٣٩).

٩٢. سورة الأنعام آية ١٣٧.

٩٣. البيت لا يعرف قائله ويروى روايات مختلفة: زججت الكتيبة: دفعنها، القلوص: الناقة الفتية. أبو مزادة: كنية رجل.

٩٤. الفراء - معاني القرآن ج ١ ص ٣٥٧.

على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء ولو قرئ بجر الأولاد والشركاء لكان الأولاد شركاءهم في أموالهم لُوْجِدَ في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب^(٩٥). ولم يقف الزمخشري عند هذا الحد وإنما برأ سيبويه من أن يسوق شاهداً فيه فصل بين المضاف والمضاف اليه على شاكلة ما ورد في قراءة ابن عامر قال: «وما يقع في بعض نسخ الكتاب من قوله:

فَزَجَجْتَهَا بِمَرْجَةٍ زَجَّ الْقُلُوصَ أَبِي مَزَادَةَ

فسيبويه برىء من عهده^(٩٦). ورأى ابنُ يعيش أن الفصل بين المصدر وفاعله المضاف اليه بالمفعول ضعيفٌ جداً ولم يصح نقلُه عن سيبويه بل ووصفَه بأنه فاحش. قال في باب الاضافة: «فأما قوله فَزَجَجْتَهَا بِمَرْجَةٍ فإنه انشده الأخفش في هذا الباب والشاهد فيه أنه أضاف المصدر الى الفاعل ووصل بينهما بالمفعول وذلك ضعيف جداً لم يصح نقله عن سيبويه... وقد قرأ ابن عامر (وكذلك زَيْنٌ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم) بنصب الأولاد وخفض الشركاء فهذا وصل بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول وحكى الكسائي: أخذته بأدنى ألف درهم وهذا أفحش مما تقدم لأنه أدخل حرف الجر على الفعل وفصل به بين الجار والمجرور ولا يقاس على شيء من ذلك»^(٩٧).

ويكاد يكون حكم الرضي في شرح الكافية أقسى حكم عرفته. على ابن عامر وأعنفه وهو أقسى حكم عرفته على قراءة من القراءات فرأى أن الفصل بين المضاف والمضاف اليه بالظروف قبيحٌ في الضرورة الشعرية والفصل بغيره في الشعر أقبحُ والفصل بغيره في غير الشعر أقبحُ مهما كان الفاصلُ مفعولاً أو ميمناً أو غيره، وحكّم على قراءة ابن عامر بناء على ذلك بأنها ليست بشيء ولا تستحق أن يلتفت إليها، وانطلق من ذلك الى القول إنه لا يسلم بتواتر القراءات السبع ولعل مبدأه هذا استعان به ليسوغ لنفسه أن يخطيء هذه القراءة ويحكّم عليها بأحكام قاسية عنيفة، ولعل الرضي في هذا الحكم تأثر بحكم الزمخشري المذكور قبل قليل ولكنه زاد عليه وتمادى فيه، وإنني أفضل أن أسوق قول الرضي بالحرف ليطلع القارئ عليه عن كتب قال الرضي: «وقد جاء في السعة الفصل بالمفعول ان كان المضاف مصدرًا والمضاف اليه فاعلاً كقراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) وهو مثل قوله:

فَزَجَجْتَهَا بِمَرْجَةٍ زَجَّ الْقُلُوصَ أَبِي مَزَادَةَ

٩٥. انظر: ابن النحاس - اعراب القرآن - ج ١ ص ٤٣١.

٩٦. الزمخشري - الكشاف - ج ٢ ص ٥٤.

٩٧. الزمخشري - المفصل في علم العربية - ١ ج - دار الجيل - بيروت - الطبعة الثانية، ص ١٠١ - ١٠٢.

وانظر تعليق عبد السلام هارون على هذا البيت الذي ذكره في الحاشية واستبعده من أن يكون في المتن.

سبويه - كتاب سبويه ج ١ ص ١٧٦ (في الحاشية).

... وأنكر أكثر النحاة الفصل بالمفعول وغيره في السَّعة، ولا شك أن الفصل بينهما في الضرورة بالظرف ثابت مع قلته وقبحه والفصلُ بغير الظرفِ في الشعر أقبحُ منه بالظرف وكذا الفصلُ بالظرف في غير الشعر أقبحُ منه في الشعر وهو عند يونس قياس كما مر في باب لاء التبرئة والفصلُ بغير الظرفِ في غير الشعر أقبحُ من الكل مفعولاً كان الفاصلُ أو يميناً أو غيرهما فقراءةُ ابن عامر ليست بذاك ولا تُسَلَّم تواترَ القراءاتِ السبعِ وإن ذهب إليه بعضُ الأصوليين»^(٩٨)

ولا أريد أن أوصل الحديث في هذا المجال حتى لا يُظنَّ أنَّ النحاة كانوا يهجمون على قراءة ابن عامر في كل موضع محاولين أن يخطئوها أين كانت فأقول إن تخطئة النحاة لبعض قراءات ابن عامر وغيره من القراء عائدة إلى أنهم كانوا يحتكمون إلى القياس والسماع عن العرب فكانوا يستندون إلى العربية في كل حكم يتبنونه وكل رأي يذهبون إليه ولذلك تجدهم يختلفون في اجتهاداتهم وأحكامهم بصدد القراءة الواحدة، ففي الوقت الذي يُصدِرُ فيه نحاةً احكاماً على قراءةٍ بالتحين والتغليب يُصدِرُ آخرون احكاماً بالتصويب والإجازة. وقد مر في البحث في موضوع تخطئة «قراءة ابن عامر أمثلة على ذلك وقد يثير الاستغراب أن نعرف أن قراءة ابن عامر الأخيرة (وكذلك زين....) التي اصدر بعض النحاة - كما مر أعنف الأحكام وأقساها عليها قد قبلت من قبل نحاة آخرين وجوزت بل صيغت عليها قاعدة نحوية وهي جوازُ الفصلِ بين المضاف والمضاف إليه إذا كان المضافُ مصدرًا والمضاف إليه فاعله والفاصل مفعولاً للمصدر^(٩٩).

ولم تكن هذه القراءة الوحيدة التي قعد عليها بعض النحويين قواعدهم وإنما من الملحوظ أن بعض النحاة وهم كثر تتبعوا قراءة ابن عامر واستفادوا منها كلما وجدوا الفرصة سانحة لكي يصوغوا القواعد عليها أو يتخذوا منها أمثلة تدعم ما يذهبون إليه من أحكام نحوية.

فقد ذهب الزجاجي إلى أن الاسم الواقع بعد «ال» في النفي الأصل فيه أن يكون بدلا مما قبله ولكنه يجوز فيه النصب وذلك وفقاً لقراءة لابن عامر قال: «وإذا كان ما قبل «ال» غير موجب كان ما بعدها تابعاً لما قبلها على البديل وجاز فيه النصب إذا تم الكلام

٩٨. موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي المتوفي سنة ٦٤٣هـ - ١٢٤٥م شرح المفصل - ١٠ ج - إدارة الطباعة المنيرية - مصر - ج ٣ ص ٢٢ - ٢٣.

٩٩. رضي الدين محمد بن الحسن الأسترابادي (ت سنة ٦٨٦هـ - ١٢٨٧م) شرح الكافية - ٢ ج - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م (ج ١ ص ٢٩٣).

ودنه وذلك قولك: ما قام القوم إلا زيداً وإلا زيداً، وما شرب القوم إلا عمروً وإلا عمرواً... قال الله عز وجل (ما فعلوه إلا قليل منهم)^(١٠٠). فرفع على البديل من الواو لأن ما قبله غير موجب، وقد يجوزُ نصبه وقرأ بعض القراء وهو ابنُ عامرٍ بالنصب»^(١٠١).

ويكاد يكون ابنُ مالك أكثر النحاة تتبعاً لقراءة ابن عامر للاستفادة منها في تبني آراء وأحكام نحوية وصرفية:-

فقد ذهب الى أن الفعل المضارع المعطوف على جواب الشرط يجوز فيه الجزم والنصب وفقاً لقراءات قراء، ويجوز فيه الرفع وفقاً لقراءة ابن عامر. قال في هذا المجال: «ومن الوارد بالأوجه الثلاثة بعد جواب الشرط المجزوم قوله تعالى (وان تُبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء)^(١٠٢). بالجزم لنافع.... وبالرفع لابن عامر... وبالنصب لبعض القراء الزائدين على السبعة»^(١٠٣).

وذهب الى أن المرفوع الظاهر في باب الحال اذا كان جمعاً جاز في رافعه الأفراد وفقاً لقراءة وجاز فيه جمع التفسير وفقاً لقراءة ابن عامر وآخرين قال: «وان كان المرفوع الظاهر جمعاً جاز في رافعه الأفراد والتكسير نحو: مررت برجل صالح ابناؤه وصلحاء ابناؤه وكذلك الحال والخبر فمن الحال قوله تعالى (خاشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث) وهي قراءة أبي عمرو...^(١٠٤) و(خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث)^(١٠٥). وهي قراءة نافع... وابن عامر»^(١٠٦).

١٠٠. انظر : بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي (ت سنة ٧٦٩هـ - ١٣٦٧م) شرح ابن عقيل - ٤ ج - تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد - دار الفكر - الطبعة السادسة عشرة ١٢٩٩هـ - ١٩٧٩م - (ج ٣ ص ٨٢).

وانظر : محمد بن علي الصبان - (ت سنة ١٢٠٦هـ - ١٧٩١م) حاشية الصبان - ٤ ج - دار احياء الكتب العربية (ج ٢ ص ٢٧٦). وعلي بن محمد الأشموني (ت سنة ٩٢٩هـ - ١٥٢٣م) - شرح الأشموني (ضمن كتاب حاشية الصبان المذكور) ج ٢ ص ٢٧٦.

وانظر : جلال الدين السيوطي - ت سنة ٩١١هـ - ١٥٠٥م) - جمع الهوامع - ٧ ج - تحقيق عبد العال سالم مكرم - دار البحوث العلمية - الكويت - طبع ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م - (ج ٤ ص ٢٩٤).

١٠١. سورة النساء آية ٦٦.

١٠٢. أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي - (ت سنة ٣٤٠هـ - ٩٥١م) الجمل في النحو - ١ ج - تحقيق علي توفيق الحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م - ص ٢٣١.

١٠٣. سورة البقرة آية ٢٨٤.

١٠٤. جمال الدين محمد بن مالك - (ت سنة ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م) - شرح عمدة الحفاظ وعدة اللافظ - ١ ج - تحقيق عدنان عبد الرحمن الدوري - مطبعة العاني - بغداد - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م - (ص ٣٥٦).

١٠٥. هوزبان أبو عمرو بن العلاء البصري (ت سنة ١٥٤هـ - ٧٧٠م).

١٠٦. سورة القمر آية ٧.

وذهب إلى أن المصدر المنون يعمل عمل الفعل واستشهد على ذلك بشواهد منها قراءة لابن عامر قال: «ومن اعمال المصدر المنون.. وقراءة نافع وابن عامر... (فك رغبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً)»^(١٠٧)،^(١٠٨).

وذهب إلى أن المصدر المضاف الى منصوبه مقتصراً عليه أكثر من ذكره مضافاً اليه مذكوراً بعده المرفوع واستشهد بالحالة الثانية بقراءة لابن عامر قال في حديثه عن المصدر «واضافته الى المنصوب مقتصراً عليه أكثر من اضافته اليه مذكوراً بعده المرفوع، ومنه ومثله قراءة ابن عامر.. (ذكر رحمت ربك عبده زكريا)»^(١٠٩)،^(١١٠).

وذهب الى أن بعض الأسماء المؤنثة اذا نُونت فألفها ألفُ إلحاق بناء على قراءة، وألفُ تأنيث اذا لم تُنون وذلك وفقاً لقراءة ابن عامر وآخرين قال: «وقد يُستعمل بعضُ الأسماء منوناً وغير منون فتجعل ألفه اذا نُون ألفَ إلحاق واذا لم يُنون ألفَ تأنيث فمن ذلك قوله تعالى (ثم أرسلنا رُسُلنا تَتْرًا)^(١١١). قرأه بتنوين... وأبو عمرو على أن ألفه للإلحاق وقرأ ابن عامر ونافع والكوفيون بلا تنوين على أن الفه للتأنيث فتصغيره على الإلحاق تُتِيرُ وعلى التأنيث تُتِيرِي»^(١١٢).

وقد تزايدت ثقة ابن مالك بقراءة ابن عامر حتى أنه صاغ قاعدة على قراءة ابن عامر (فيكون) بالنصب التي مر ذكرها والتي ردها الفراء وضعفها مكي بن أبي طالب كما أشرت فقد زاد بناء عليها موضعاً آخر من مواضع نصب الفعل المضارع وهو نصبه مقترناً بالفاء أو الواو بعد حصر بانما قال السيوطي: «وزاد ابن مالك في مواضع النصب بعد الفاء والواو النصبَ بعدهما بعد حصرٍ وإنما كقراءة ابن عامر (اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون) بالنصب». ولم تصادف هذه القاعدة قبولا أو رضى عند ابن مالك الذي علق وقال: «وهذا نادر لا يكاد يعثر على مثله الا في ضرورة الشعر»^(١١٣).

وقد اقتفى ابن هشام صاحب المؤلفات النحوية المشهورة ابن مالك في تتبعه قراءات ابن عامر وصياغة القواعد النحوية عليها:

١٠٧. ابن مالك - شرح عمدة الحافظ ص ٥٤٠.

١٠٨. سورة البلد الآيات ١٣، ١٤، ١٥.

١٠٩. ابن مالك - شرح عمدة الحافظ ص ٦٩٥.

١١٠. سورة مريم آية ٢.

١١١. ابن مالك - شرح عمدة الحافظ ص ٦٩٩ - ٧٠٠.

١١٢. سورة المؤمن آية ٤٤.

١١٣. ابن مالك - شرح عمدة الحافظ ص ٨٢٩.

فقد ذهب الى أنه يجوزُ أن تُحذفَ ألفُ «أَيُّها» في النداءِ وأن تُضمَّ هاؤها إبتاعاً وفقاً لقراءات لابن عامر، فقد قال يعدد ما تدخل عليه هاء التنبيه: «... والثالث: نعت أي في النداء نحو. يا أَيُّها الرجل، وهي في هذا واجبة للتنبيه على أنه المقصود بالنداء وقيل: وللتعويض عما يضاف إليه أي، ويجوز في هذه في لغة بني أسد أن تحذف الفها وأن تُضمَّ هاؤها إبتاعاً وعليه قراءة ابن عامر (أَيُّهُ المؤمنون)^(١١٤) (أَيُّهُ الثقلان)^(١١٥) (أَيُّهُ الساحر)^(١١٦) بضم الهاء في الوصل^(١١٧).

وذهب الى أن الضمير رابط الخبر بالمبتدأ يمكن أن يكون محذوفاً في موضع النصب، قال يبين أحوال هذا الضمير: «.... ومحذوفاً مرفوعاً.. ومنصوباً كقراءة ابن عامر في سورة الحديد (وَكُلُّ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى)^(١١٨).^(١١٩) وقد صوب مكِّي بن أبي طالب قراءة نصب (كل) ورأى قراءة ابن عامر رفع (كل) بعيدة بل وقبح حذف الهاء في مثل هذا الموضع الا في شعر ذلك لأن حذف هذه الهاء يحسن من الصلات ويجوز في الصفات وهنا حذف من غير صلة ولا صفة^(١٢٠).

من هذا البحث يتبين أن ابن عامر ما كان يقرأ القراءة القرآنية عفواً الخاطر من غير وعي أو تدبر وإنما كان يفهم الآية ويتدبرها ويستغل مفاهيم كثيرة لغوية وغيرها في سبيل الانطلاق الى اختيار الوجه المناسب من أوجه القراءة، ويتبين كما اسلفت - أنه وفقاً لاستغلال معلوماته ومفاهيمه كان يجتهد كلما سنحت الفرصة للاجتهد دون أن يقف عند الرواية وحدها، وقد أشكلت بعض قراءاته على النحاة فكانوا ينشغلون بها كثيراً ويعنون أنفسهم من أجل أن يوجدوا لها تأويلاً مناسباً فكانوا يتلاقون وكانوا يتباعدون، ويتبين من هذا البحث أن النحاة وقفوا مواقف سلبية عند بعض قراءات ابن عامر التي كانوا لا يجدون لها وجهاً ولا ينفذون إلى تأويل لها فيصفون الوجه الذي جاءت عليه بالضعف والبعد والقبح والسماجة وما إلى ذلك من الأحكام القاسية العنيفة، ولكنه تبين في الوقت نفسه أن بعض النحاة وقفوا عند بعضها وصاغوا عليه القواعد النحوية والصرفية.

١١٤. جلال الدين السيوطي: همع الهوامع ج ٤ ص ١٣٨.

١١٥. سورة النور آية ٣١.

١١٦. سورة الرحمن آية ٣١.

١١٧. سورة الزخرف آية ٤٩.

١١٨. ابن هشام - مغني اللبيب ص ٤٥٦.

١١٩. سورة الحديد آية ١٠.

١٢٠. ابن هشام - مغني اللبيب ص ٦٤٧.

١٢١. انظر: مكِّي بن أبي طالب - الكشف عن وجوه القراءات ج ٢ ص ٣٠٧.

الجدل الديني المسيحي الاسلامي في العصر الاموي واثره في نشوء علم الكلام

جورج عطيه

مقدمة

للجدل معان كثيرة بعضها إيجابي وبعضها الآخر سلبي . وتتوقف السلبية أو الإيجابية على الغاية القصوى من الجدل . والجدل في الأصل هوفن الحوار والمناقشة ، والغرض منه الارتقاء من قول إلى قول للتوصل إلى المبادئ العليا أو الأولى . وثمة معنى آخر، وهو الصراع الفكري ، أو الخصومة الفكرية ومقابلة الحجج بالحجة ، للدفاع عن قضية أو عن مبدأ معين . وهذه الناحية الدفاعية هي التي يتميز بها الجدل الديني في العصر الأموي .

ويعسن بنا قبل الدخول في الموضوع النظر في العلاقة الأساسية بين الدينين الكريمين : الإسلام منذ نشأته وهويتاعاطى مع المسيحية ، والدين المسيحي . وليس هناك فترة من تاريخ الاسلام تخلو من نوع ما من التعامل منذ عهد النبي الكريم ، إلى يومنا هذا . ويمكننا النظر إلى العلاقة بين الدينين من الناحية الروحية ، ناحية عبادة الاله الواحد، والايان بوجوده ، ومن الناحية العقلانية ، وهي معرفة الله ، من خلال تأمل الكون ونظامه ، بواسطة العقل . ففي النظرة إلى الكون ، تشترك الديانتان في القول بعقلانية الطبيعة ، أي سير الطبيعة وفق قوانين ثابتة لا تتغير من ذاتها ؛ وتشتركان أيضاً في القيم الروحانية ، فالانسان في الاسلام والمسيحية هو مركز الثقل في العالم ، نفخ الله فيه من روحه ، وجعله وسط العالم ، لكي يكون خليفة عليه ، موصياً اياه أن يلتزم الحياة الاخلاقية ويعطي الاولوية للروحانيات . ليس فقط ، فهناك اصول اخرى مشتركة بين الديانتين ، مما سهل للمسيحيين المعيشة في اطار الحضارة العربية الإسلامية ، وجعل الكثيرين منهم يشعرون بأنهم منها ولما . فعدا الاعتقاد بالاله الواحد خالق السموات والارض ، هناك الاعتقاد بأن الله كلم البشر بواسطة الأنبياء . فالمسيحيون والمسلمون ، على السواء ، يعتقدون بالنبوة ، وكذلك هم يعتقدون بخلق الدنيا من العدم ، وبنهايتها ، وبوجود دار ثواب ، ودار عقاب . ويشترك الاثنان أيضاً في اصل آخر، هو العبادة فالصلاة والصيام والصدقة هي أمور مشتركة في الديانتين . وكل هذا الاشتراك يخلق إطاراً فلسفياً واحداً ، يضم بين اطرافه الاثنتين .

لكن هذا التلاقي ضمن الاطار الواحد الاكبر للدين رافقه اختلاف في التفاصيل، خصوصاً في مفهوم الوحدانية، والنبوة، والأسرار الالهية. الاسلام يقول بوحدانية الله المطلقة، والمسيحية تقول بالتثليث، الله واحد ذو ثلاثة أقانيم. الاسلام لا يقول بصلب المسيح ولا ببنوته؛ وفي المسيحية، صلب المسيح وموته وقيامته معتقدات أساسية تركز عليها فكرة خلاص البشر. في الاسلام، النبي محمد هو خاتم الأنبياء؛ وفي المسيحية النبوة النهائية قد تحققت في المسيح، وإن كانت روح النبوة تظهر من جيل الى جيل.

هذه التفاصيل كانت موضع الجدل بين الاسلام والمسيحية. والجدل لا يحدث في فراغ. وكل جدل يتميز عن غيره بالنسبة للجو الذي ينشأ وينمو فيه. ولذلك يحسن، قبل ان ندخل في محتواه، ان نلقي نظرة على الجو السياسي والحضاري واللاهوتي الذي تم فيه الجدل الديني المسيحي - الاسلامي في العصر الأموي.

الصورة الكبرى التي يمكن رسمها لفترة الخلافة الأموية من حيث العلاقة بين المسيحيين والمسلمين هي، على الإجمال، صورة تساهل وافتتاح عاش فيها المسيحيون حياة لا تختلف ظروفها الاجتماعية والسياسية كثيراً عما كانت عليه حياتهم في العصر البيزنطي. فكان لا بد من حصول صداقات شخصية عديدة بين المسلمين والمسيحيين، من جراء الحياة المختلطة بينهم، مما كان يخفف من وطأة تلك الإجراءات الحكومية التي كانت توضع من حين إلى آخر ضد المسيحيين. فقد كان يتخلل بعض الفترات صعوبات يتحملها المسيحيون، كالسياسة المتبعة في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد الثاني، من تفرغ الإدارة الحكومية من الموظفين المسيحيين، ووضع أنظمة مشددة على بعض تصرفاتهم اليومية، ورفع الحصانة الضرائبية عن الأدبارة والكنائس.، وإصدار أوامر ضد الايقونات. ولكن من جهة أخرى كانت سياسة معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد وهشام بن عبد الملك.، وإلى حد كبير عبد الملك بن مروان سياسة متساهلة وعادلة. فمعاوية استعان بالمسيحيين في الإدارة، وكان يلفّ حوله أصدقاء من العرب المسيحيين، خصوصاً اليمانيين منهم، كما أنه تزوج من امرأة مسيحية، ميسون أم يزيد. وكان يزيد أكثرهم تسامحاً، حتى أنه كان يعطي الصدارة في القصر، إلى حلفائه من المسيحيين، بعد أمراء العائلة المالكة (١).

١. حول التعايش الديني، راجع دراسة صالح حمارة، «المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الاسلامي» في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام (٢٠ نيسان / ٢٥ نيسان ١٩٧٤): الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥٤٩ - ٥٦٢. أيضاً كتاب:

Henry Lammens. *Studes sur le Siècle des Omayyades* (Beirut: Imprimerie Catholique, Beirut: 1930).

وأما من الناحية الحضارية، فيمكن القول بأن القرنين السابع والثامن كانا ذروة للحركات والمذاهب الدينية المسيحية. فكما نعرف أنه قامت منذ القرن الثاني الميلادي خلافات كبرى بين المسيحيين حول قضايا أساسية تتعلق بالأصول العقائدية نفسها، مثل طبيعة المسيح ومعنى الشركة المقدسة، والعلاقة بين الأقاليم الثلاثة، وكانت هذه الخلافات السبب في ظهور الكنائس المختلفة، من نسطورية ويعقوبية ومارونية عدا الكنيسة الارثوذكسية أو الملكية، كما كان يشار إليها. وقد شهد القرنان حركة انبعاث في العلوم والفلسفة، خصوصاً في بلاد الشام والعراق. وقد ظهر في بلاد الشام عدد كبير من العلماء والمدارس (٢). وبعد الفتح الاسلامي، نشطت الحركات الفكرية متخذة لها اتجاهات جديدة. ففي بدء العهد الأموي تغير التوجه الفكري المسيحي، إذ اختفت تقريباً تلك الجدالات اللاهوتية العنيفة بين الكنائس المختلفة، وحلت محلها دراسات فيلولوجية وفلسفية وتاريخية، وأخذت الأدبيات الجدلية تهدف إلى الدفاع، بشكل ظاهر أو خفي، عن الديانة المسيحية أمام الديانة الاسلامية التي انتشرت سريعاً بين المسيحيين لعدة أسباب منها القرابة العرقية بين العرب الشاميين وعرب الجزيرة، ومنها التذمر من الحكم البيزنطي، وبعض المنافع الشخصية المتأتية عن الانضمام إلى دين الفاتحين، ومنها أيضاً النزعة الاستقلالية، سواء كانت فكرية أو سياسية، والتي كان يتميز بها السوريون على الإجمال.

استقبلت الأكرسية من أبناء بلاد الشام الفاتحين العرب بسرور وترحاب (٣). ولم يكن الاستقبال الديني مختلفاً بادية الأمر، وإن كان ممزوجاً بشيء من حب الاستطلاع، لأن الإسلام بدا لرجال الدين المسيحي وكأنه بدعة مسيحية جديدة، شبيهة بالبدع الأخرى الكثيرة؛ بدا وكأنه طائفة أخرى من الطوائف العديدة التي نشأت في قلب الديانة المسيحية، وليس كدين جديد معاد. فهي طائفة تؤمن بنفس الاله، وتوقر المسيح، وتقول بالبعث، كما أنها طائفة تعتمد على كتاب واحد، وهي تخلو من نظام فكري أو فلسفي متطور كالذي كان للديانة المسيحية آنذاك. والأدب المسيحي الفكري منه والديني كان له تاريخ طويل، نتيجة للدفاع عن عقائده ضد الديانات القديمة والحركات الفلسفية المختلفة، ونتيجة للخلافات العديدة بين الطوائف المسيحية التي ساعدت على ظهور الحركات الفكرية الناضجة. وقد اشتهر في بلاد الشام العديد من كبار المفكرين الدينيين، نذكر على سبيل المثال أولئك الذين ازدهروا قبيل مجيء الاسلام كسرجيوس الراسعيني وساويروس الانطاكي الذي درس الفقه في

٢. راجع حول النشاط الفكري قبيل العهد الاسلامي في بلاد الشام مقالتنا «الأثر السرياني في الحياة العلمية والفكرية في بلاد الشام» في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (١٥ - ٢١ تشرين ثاني ١٩٨٣): الجامعة الاردنية، عمان،

١٩٨٦.

٣. أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق م. ج. د. غويه ليدن، بريل، طبعة معادة عن طبعة ١٨٦٦،

ص ١٣٧.

مدرسة الفقه الروماني ببيروت، و يعقوب البرادعي، و يوحنا ابي السدرات، وساو يروس سوبخت، و يوحنا مارون. وما نبغي قوله من كل هذا هو ان المسيحيين في أوائل التقائهم بالمسلمين كانوا يشعرون بتفوق فكري وفلسفي. ولكن كان لا بد لهم بعد مجيء الاسلام من الدفاع عن دينهم، على الرغم من شعورهم بالتفوق، وقد حصل ذلك أولاً عن طريق المناقشات الشفوية. ومن ثم تطورت هذه المناقشات في القرون التالية إلى دراسات وجدليات طويلة لا تزال قائمة حتى الآن (٤).

نعرف بعض الشيء عن هذه المناقشات الشفوية. فقد وصلنا عنها خبر عن مناقشة بين البطريرك اليعقوبي يوحنا الأول، وعمرو بن العاص. كما نعرف انه جرت مناقشة أخرى بين عمرو وبين البطريرك بنيامين، بطريرك الاسكندرية. وتلا المناقشات الشفوية مناقشات كتابية، فنرى مثلاً اتناسيوس البلدي، البطريرك اليعقوبي (٦٨٤ - ٦٨٦ م) يكتب رسالة بطريركية عن كيفية تصرف المسيحيين بين المسلمين (٥)، ونرى ابراهيم بيت هاله يؤلف حوالي سنة ٦٧٠ م مقالة جدلية بأسلوب حوار بين مسلم ومسيحي، كما كتب بارتليمي الرهاوي (أوائل القرن الثامن الميلادي) رسالة عنوانها «ضد محمد»، يرد فيها على اعتراضات المسلمين على عقيدتي التثليث والتجسد. و يظهر أن الأدب الإسلامي الجدلي المكتوب لم يظهر حتى العهد العباسي، فالوثائق التي لدينا حتى الان هي وثائق مسيحية، وتعطي وجهة النظر المسيحية، إذ لا يوجد لها مماثل في الأدب الاسلامي، في الفترة التي تعيننا. كلنا يعرف أن مؤرخ العصر الأموي لا يملك الوثائق الكافية لدراسة العصر. فان اكثر ما وصلنا في اللغة العربية جاء من الأعصر العباسية. ولا يمكن الاعتماد عليه كلياً. وما وصلنا حول موضوع الجدل هي وثائق في لغات غير العربية، خصوصاً في اللغتين السريانية واليونانية. وبما ان هذه الوثائق غير موجودة حتى الان، في اللغة العربية، فستقدم ترجمة إثنين منها، وندرس بعض محتوياتهما التي تلقي ضوءاً على طبيعة الجدل الديني ومحتوياته.

٤ . راجع قائمة المصادر والمراجع حول الحوار الاسلامي - المسيحي منذ العهد الاموي :

“Bibliographie du dialogue islamo-chrétien Les auteurs et les oeuvres du VI^{ème} au X^{ème} Siècle”

Islamochristiana, vol. 1 (1975) pp. 125-181, vol. 2 (1976) pp. 187-249

٥ . منشورات في مجلة :

Revue de L'Orient Chrétien. Deuxieme serie, Tome 4 (14) pp. 128-130

رسالة البطريرك يوحنا الأول (١)

أول هذه الوثائق هي سريانية اللغة، رسالة البطريرك يوحنا الأول اليعقوبي «في الكلام الذي تحدّث فيه مع أمير المسلمين» وأمير المسلمين هذا هو عمرو بن العاص، وليس عمير بن سعد بن أبي وقاص الأنصاري (٧).

الرسالة موجهة إلى كنائس ما بين النهرين، دونها ساو يرا أحد كتاب البطريرك. وفيها يتحدث عن لقاء جرى بين عمرو وبين البطريرك يوحنا، في الثامن من آيار ٦٣٩ م (١٨ هجرية). ويظهر أن اللقاء كان مهماً، إلى درجة أن البطريرك جاء برفقة خمسة أساقفة وعدد من عليه القوم. وقد حضر اللقاء أيضاً عدد من وجهاء المسلمين، ومن أفراد القبائل العربية المسيحية، كبني تنوخ، وطيء، وعقيل، ومن أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية. ويبدو من محتويات الرسالة أن غاية عمرو من هذا اللقاء، كانت غاية سياسية أكثر منها دينية. فهو لم يكن يرغب في أن يعتنق المسيحيون الاسلام، ولا في أن يضع الاسلام تحت المجهر المسيحي. إنّما كان يريد أن يعترف المسيحيون بوحدانية الله و برسالة النبي محمد (٨). ولذلك طلب من البطريرك ان يترجم الاناجيل إلى العربية وأن يحدف منها كل الإشارات إلى الوهية المسيح، ومعموديته وإلى الصليب. ولما رفض البطريرك حذف أي شيء، قال له عمرو: افعّل ما تريد. ولا شك في ان عمراً كان يدرك ما للمسيحية والمسيحيين من أهمية سياسية، في ذلك الوقت المبكر من الفتح الاسلامي، وخصوصاً أن وجود عدد كبير منهم كان ما يزال يقف موقفاً غير محبذ، أو معادياً للحكم البيزنطي. وهذه ترجمة الرسالة:

النص

١. بما أننا مدركون لانشغال بالكم وخوفكم علينا بالنسبة للقضية التي استدعينا إليها إلى هذه المنطقة [بلاد الشام] مع أبنينا صاحب الغبطة و بطيركنا، فاننا نبليغ احباءنا انه في التاسع من هذا الشهر يوم

٦. ترجمنا هذه الرسالة عن الترجمة الفرنسية للاب م. ف. نو (Nau) بعد مقابلتها على الاصل السرياني وهي منشورة في مجلة:

Journal Asiatique, 11th series vol. 5, no. 2 (March-April 1915) pp. 257-279

٧. أعطى الأب نوبراهين مقنعة على أن الامير المسلم هو عمرو بن العاص وليس عمير بن سعد بن ابي وقاص الانصاري كما يقول البطريرك اغناطيوس افرام الاول برصوم في كتابه اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والاداب السريانية، ط ٣، مجمع اللغة السريانية، الغداء، ص ٢٧٩.

٨. الاب لويس شيخو، «نسخ عربية قديمة في الشرق من الانجيل الطاهر» (الشرق)، م ٣، (١٩٠١)، ص ٩٨. «الامير عمير بن سعد بن ابي وقاص استقدم اليه البطريرك يوحنا اليعقوبي (٦٣١-٦٤٩ م) وأمره بأن ينقل الانجيل الى العربية بشرط أن يحدف منه ما يختص باسم المسيح الاله والعماد والصليب فأجاب يوحنا أنه يفضل الموت على ان يترك منه ياء أو نقطة فلما رأى عمر عزمته قال: اذهب واكتب ما تشاء».

الاحد، ذهبنا إلى حضرة الأمير الجليل القدر، حيث حاول ان يستفسر من غبطة البطريرك أبينا جميعا [عن شؤون العقيدة المسيحية] فسأله فيما اذا كان الانجيل واحدا لا تباين فيه، واذا كان يؤخذ بنفس الاعتبار من قبل الذين هم مسيحيون، أو الذين يحملون هذا الاسم، في كل انحاء المعمورة - وقد أجاب صاحب الغبطة بأن الانجيل واحد عند اليونان والرومان والسوريين والمصريين والكوشيين والهنود والارمن، والفرس، وبقية الشعوب وفي كل اللغات.

٢. وسأله أيضاً: «لماذا تختلف الأمانة [العقيدة] والانجيل واحد؟» فأجاب صاحب الغبطة: فكما ان الناموس [التوراة] هو واحد لا غير، ويعترف به كل منا على السواء، نحن المسيحيين وانتم المسلمين، وكذلك اليهود والسامريون وكل قوم يختلف بالأمانة، وهكذا بالنسبة لأمانة الانجيل [هو واحد] ولكن كل بدعة [طائفة] تفهمها وتفسرها بطريقة مختلفة عن طريقتنا.

٣. وسأله [الأمير] أيضاً: ماذا تقول عن المسيح، هل هو الله أولا؟» فأجاب أبونا: [نحن نقول] إنه إله، وانه الكلمة، مولود من الأب أبدي وأزلي، وأنه سيأتي في آخر الزمان من أجل خلاص البشر وانه تجسد وصار انساناً من الروح القدس، وسيدتنا والدة الله مريم العذراء».

٤. وتابع الأمير الجليل القدر الاسئلة: «عندما كان المسيح في أحشاء مريم، وهو الذي تقولون إنه الله، من تولى تدبير السماء والأرض؟». وعكس أبونا الحجة على صاحبها قائلاً: «عندما ظهر الله على جبل سيناء، وكلم موسى اربعين نهاراً وليلاً، من دبر السماء والأرض أثناء ذلك؟ فأنتم تعترفون بموسى وبكتبه». فأجاب الأمير: «الله كان الذي دبر السماء والأرض». وفورا سمع صاحب الغبطة يقول: «وهكذا المسيح الاله دبر الارض والسماء وكل ما فيها، عندما كان في احشاء العذراء بما انه اله كلي القدرة».

٥. وحينئذ قال الأمير الجليل القدر: «ماذا كانت الامانة والاراء، التي اعتنقها ابراهيم وموسى؟». فأجاب ابونا السعيد: «ابراهيم واسحق وياقوب وموسى وهارون وبقية الانبياء والحكماء والصدّيقون اعتنقوا العقيدة المسيحية وآمنوا بها». فقال الأمير: «واذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يكتبوا عن ذلك بوضوح ليعلمونا عما يخص المسيح [منها]». فأجاب صاحب الغبطة قائلاً: «هم كانوا يعرفون ذلك من جهة قرابتهم [من الله] واثمتانهم على أسرارهم، ولكن بسبب حماقة الناس وغلاظة قلوبهم في ذلك الزمان، أخذوا ينجحون ويميلون نحو الوثنية إلى درجة اعتبارهم الأخشاب والأحجار وكثيرا من الاشياء آلهة رفعوا لها الاصنام وعبدوها وقدموا لها الضحايا - فالقدسيون ارتأوا عدم توفير الاعذار للضالين لئلا يبتعدوا اكثر عن الله الحي، ويتبعوا الضلالة كلياً، انما اعلنوا بشيء من الحذر ما هي الحقيقة؛ اسمع يا اسرائيل: الرب الهنا رب واحد [تثنيه ٦: ٤] [١١]، فهم كانوا يعرفون الحقيقة بأنه لا يوجد الا اله

٩. آيات العهد القديم والعهد الجديد مأخوذة من طبعة جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، بيروت ١٩٥١.

واحد والوهمية واحدة من الآب والابن والروح القدس؛ وكذلك تكلموا بطريقة مكتنفة بالاسرار، وكتبوا عن الله بأنه واحد في الالهية، وثلاثة في الاقانيم والاشخاص؛ لانه لا يوجد ثلاثة آلهة أو ثلاث الوهيات يؤمنون بها، ولا بطريقة من الطرق ثلاثة آلهة وثلاث الوهيات، بل الوهية واحدة. من الآب ينبثق الابن والروح القدس. فاذا رغبت في ذلك فاني مستعد ان اثبته لك بواسطة الكتب المقدسة» -.

٦. وبعدهما سمع الأمير كل ذلك، طلب أن يُثبِت له بالبراهين العقلية وبالناموس ان المسيح هو الله، وانه ولد من العذراء، وأن لله ابناً. فأجابه صاحب الغبطة، وأن الأنبياء القديسين، وليس موسى وحده، تنبأوا بقدم المسيح، ودونوا ذلك في كتبهم. احدهم كتب عن ولادته من عذراء، وآخر كتب انه سيولد في بيت لحم، وآخر عن معموديته، والكل، يمكننا ان نقول، كتبوا حول آلامه المخلصة وموته المحيي، وعن عظيم قيامته من القبر بعد أيام ثلاثة. وأخذ [ابونا] في اثبات ذلك بحسب الانبياء وبحسب موسى في الوقت نفسه.

ولكن الأمير الجليل القدر لم يقبل ما [قاله] الانبياء، وطلب ان يثبت له ان موسى قال بأن المسيح هو الله، فأورد له غبطته ما جاء عن موسى: «وأمر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً و ناراً من عند الرب من السماء [تكوين ١٩ : ٢٤]. ولكن الأمير أصر على ان يرى ذلك بأمر عينه في الكتاب ذاته، فأراه صاحب الغبطة ما طلب رؤيته في الكتب كلها، اليونانية منها والسريانية، دون ان يكون هناك سوء فهم. وكان موجودا بيننا في ذلك المكان بعض المسلمين، فشاهدوا بأمر عينهم في فقرات الكتاب اسم الأسياد والسيد المجيد. ودعا الأمير أحد اليهود المشهود عنهم بالتمكن من الكتاب المقدس، وسأله اذا كان الناموس فعلا ينص على ما قيل، فأجابه اليهودي «لست أعرف ذلك بالضبط».

٧. ومن ثم أخذ [الأمير] يستفسره عن النواميس المسيحية، ما هي وكيف هي، وهل هي موجودة أو غير موجودة في الانجيل. وأصاف قائلاً: إذا توفي أحد الرجال تاركاً وراءه صبيانا وبنات وزوجاً واماً واختاً وابن عم، فكيف يوزع بينهم الأثر؟ - وعندما قال غبطته ان الانجيل المقدس يعلمنا المبادئ السماوية والقواعد المحيية ويفرضها علينا، وانه يلعب كل انواع الخطايا وكل الشرور، ويعلم سمو الاخلاق والعدل، وانه قيل في ذلك أشياء كثيرة - كان ذلك أمام جمع، ليس فقط من أشراف المسلمين، إنما من رؤساء المدن ومن المؤمنين واصدقاء المسيح من بني تنوخ وبني طي وبني عقيل. وقال الأمير الجليل القدر «اطلب اليك ان تفعل واحدا من أمور ثلاثة: اما ان تبرهن لي ان نواميسكم مشبته في الانجيل وإنكم تمتثلون بها، واما ان تلتزموا الشريعة الاسلامية»، وعندما أجاب أبونا «نحن المسيحيين لنا نواميسنا وهي نواميس عادلة وسوية، موافقة لتعاليم وقواعد الانجيل للأصول التي وضعها الرسل والقوانين الكنيسة، انفق عقد اجتماع اليوم الاول هذا ولم تمثل امامه فيما بعد.

٨. وأحضر الأمير بعض أنصار المجمع الخلقيدوي. ولكن كل الذين حضروا من ارثوذكسيين (١٠) أو خلقيدونيين، دعوا للمولى ان يحفظ البطريرك السعيد و يطيل عمره، وسبحوا الرب ومجدوه لما أفاض على فمه من غزير الكلام الصحيح، كما وعد حقاً عندما قال : و يقودونكم الى الولاة والملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم، فاذا اسلموكم فلا تهتموا كيف او بماذا تتكلمون؛ فانكم ستعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به، لانكم لستم انتم المتكلمين، لكن روح ابيكم هو المتكلم فيكم» [متى : ١٨ - ٢٠].

٩. اننا مرسلون الى محبتكم هذه الكلمات القليلة عن أشياء كثيرة عرضت في هذا الوقت، لكي تصلوا من أجلنا بحرارة وعناية، ولكي تتضرعوا للرب لكي يرعى برحمته كنيسته وشعبه، ولكي يعطي المسيح مراقبيهم الابرار الرؤساء والمؤمنين المجتمعين هنا معنا وخصوصاً رئيسنا المحبوب والحكيم، حفظه الله، ماراندره، ونحن الحقيرون في الرب نطلب لكم العافية، ونتمنى دعاءكم المقدس من أجلنا دائماً.

يوحنا الدمشقي والإسلام

بعد هذه الوثيقة التي وضعت في أوائل العهد الاسلامي، لم تصلنا وثائق أخرى حول هذا الموضوع، الا بعد فترة طويلة من الوقت. ومن أهم ما وصلنا ما كتبه يوحنا الدمشقي. ويعتبر الدمشقي بين آباء الكنيسة الشرقية كما يعتبر توما الاكويني في الكنيسة الغربية (١١)، كقائد فكري في الدفاع عن العقيدة المسيحية، اذ استخدم الفلسفة اليونانية، والهيلنستية، لتفسير العقيدة المسيحية، واضعاً هكذا الأساس العقلاني بجانب الديني في خدمة الايمان الأرثوذكسي.

يختلف المؤرخون حول مولده، وعلى الأرجح أنه ولد ما بين ٦٥٥ و ٦٦٠ ميلادية، من عائلة لها صلتها القوية بالدولة الأموية، فعدا أصله العربي كما يدل عليه الاسم منصور، كان جده وأبوه من حملة المناصب السامية في الدولة. فقد شغل جده سرجون بن منصور مركزاً مرموقاً في حكومة دمشق، كعامل على دمشق، وكان قد لعب دوراً مهماً في استسلام المدينة للعرب المسلمين، وفي تواتر الإدارة الأموية. وورث ابن منصور والد يوحنا هذا المنصب، ثم اورثه الى يوحنا. وكانت عائلة منصور محترمة ومحبوبة من قبل المسيحيين والمسلمين، وهي عائلة عرف عنها شدة التقوى والورع. وعلاقة يوحنا مع

١٠. البطريرك يوحنا كان يعقوبياً، وهو يشير هنا الى جماعته من اليعاقبة وليس للارثوذكسيين الملكيين.

١١. راجع حول مقابلة يوحنا الدمشقي بتوما الاكويني كتاب :

Deno John Geanakoplos, *Byzantine East and Latin West: Two Worlds of Chirstiandom in Middle Ages and Renaissance* (New York: Harpertoneh books, 1966) pp. 22F.

المسلمين كانت علاقة متينة، فقد كان صديقاً أو رفيقاً ليزيد بن معاوية (١٢)، وعمل في إدارة الدولة الأموية زمناً طويلاً، ولكنه اختار، فيما بعد، ترك الوظيفة، متزهداً في دير مار سابا في فلسطين. ومن الممكن أن ما دعاه إلى التزهّد كان عمق إيمانه، وربما خوفه على دينه من الزوال. فقد رأى العديد من المسيحيين يدخلون في الاسلام افواجاً، فأراد أن يضع لهم منهجاً ثابتاً وطريقاً واضحاً، فلذلك اعتزل العمل الاداري، وأخذ في تأليف الكتب والدراسات التي تشرح وتفسر أصول المسيحية والارثوذكسية، والتي تدافع عنها ضد مخالفيها، من مسيحيين ومسلمين، وأشهر ما كتب يوحنا هو كتاب «ينبوع المعرفة» في ثلاثة أقسام، يتعلق القسم الأول بالمنطق والمبادئ الفلسفية والقسم الثاني بالبدع، وفيه مائة بدعة وبدعة، آخرها في رأيه الاسلام. والقسم الثالث هو في شرح الايمان القويم، أي الارثوذكسي. وله أيضاً كتاب شهير في بدعة محاربي الصور، وكتابات أخرى في الرد على مزاعم اليعاقبة والمناويين. وما يهمنا هنا هو ما كتبه عن الدين الاسلامي. أولاً هناك الفصل ١٠٠/١٠١ من كتاب «في البدع» ومن ثم «المناظرة بين المسيحي والمسلم» عدا بعض الاشارات والتلاميخ في كتابات أخرى قليلة الأهمية.

ويشير الفصل عن الاسلام في كتاب «في البدع» (١٣) إلى أن يوحنا كان يعتبر الاسلام احدى بدع المسيحية، وآخر بدعة في سلسلة طويلة، ويبدو من الفصل أن معرفته بالاسلام لم تكن سطحية وإن كانت غافلة عن امور مهمة. فهي إن كانت تدلنا على شيء إنما تدلنا على مدى معرفة المسيحيين في ذلك العصر بخصائص الدين الاسلامي. وذلك أنه نرى يوحنا يتكلم عن المسلمين كأبناء اسماعيل، ويعتبر النبي محمداً مقدمة للمسيح الدجال، ويقول عنه إنه وقع صدفة على كتابي «العهد القديم» و «العهد الجديد»، فأخذ عنهما أشياء، كما أخذ عن الراهب — الذي ينعت بالارويوسي — (١٤) بحيرا،

١٢ P. Joseph Nasrallah, *Saint Jean de Damas, son époque-savie -son oeuvre* (Harrissa: 1950) pp. 64.

راجع ايضاً أبو الفرج الاصبهاني، كتاب الاغانى، تحقيق ابراهيم الابياري، طبعة خاصة اصدرتها دار الشعب، القاهرة، ١٩٨١. مجلد ١٧ ص ٢٢٢٠.

١٣. الاصل اليوناني منشور في :

Patrologiae cursus completus.
Series Graeca Prior, edited by Jacques Paul Migne (Paris: J. P. Migne, 1857-1866).
vol. 94, col. 764A - 773A.

١٤. نسبة الى الراهب الاسكندري اريوس (ت. ٣٣٦م) الذي قال ان الله هو واحد لا يمكن معرفته بالعقل ومنفصل عن كل ما هو مخلوق وان المسيح مخلوق وليس الها وان «الكلمة» او «اللوعوس» عندما تجسدت اتخذت جسماً ولم تتخذ لها روحاً انسانياً.

أشياء أخرى، وضعها كلها في كتاب اعتبره منزلاً، يقول فيه بأنه يوجد له غير مخلوق ولا مولود، و يعتبر المسيح كلمة الله وروحه، وأنه ولد من مريم دون ان يسها بشر وان اليهود أرادوا صلبه، ولكنهم صلبوا ظله، فالمسيح نفسه لم يصلب ولم يميت، وإنما رفعه الله اليه. وعندما رفعه سأله فيما اذا كان ادعى انه ابن الله، فأجاب يسوع بالنفي. ومن ثم يثير يوحنا الشك في صحة النبوة المحمدية، معتبراً انه لا يوجد لها شهادة، أي ان الانبياء لم يعلنوا عنها مسبقاً، كما فعلوا بالنسبة للمسيح؛ ويرد على تهمة «الشرك» بأنه إذا كان المسيحيون «مشركين» بسبب التثليث، فالمسلمون هم «بتر» (١٥)، لانهم بتروا الله عن كلمته وروحه. فالكلمة والروح لا ينفصلان عن الشيء الذي هما منه بالطبيعة. فاذا كانت الكلمة والروح خارج الله، يصبح الله كالحشب أو الحجر بدون كلمة أو روح. ويرد يوحنا على تهمة الوثنية، بسبب توقيير الصليب من قبل المسيحيين، بأن المسلمين أيضاً وثنيون لتوقييرهم الحجر الأسود. ومن ثم يتكلم عن تعدد الزوجات و ينتقده، وعن سهولة الطلاق، وزواج النبي محمد من زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة، وقصة ناقة صالح، وغيرها من الأمور. ولا شك أن هذا الفصل ليس فصلاً جدلياً، بالمعنى المعروف، إذ إن الغاية منه كان تنبيه المسيحيين لما هو في نظر يوحنا هرطقة مخالفة للرأي القويم، مما يعني ان الإسلام هو دين اساسه في العهد القديم والعهد الجديد، لكن يخالف في تفاصيله دين المسيح. ويظهر ان يوحنا لم يكن يبغى حواراً، ولذلك لم يتعمق في دراسة روحية الاسلام، ولا في فكرة التوحيد أو القدرة الالهية أو الوحي، ولا في ذلك الشعور القوي بالقربى من الله، الذي يحركه الايمان ويدفع بالانسان إلى الاحسان والبر.

وما تركه لنا يوحنا مما يتعلق بالجدل مباشرة هو «المنافرة بين المسلم والمسيحي». وهذه المقالة أهمية خاصة لتركيزها على قضايا فلسفية أثرت، فيما بعد، في علم الكلام. ولذلك سندرج فيما يلي ترجمتها بحسب النص الذي نشره مينيبي ٩٤ : ١٣٣٦ Migne (١٦).

النص

عندما سأل أحد المسلمين مسيحياً «ما هو في نظرك علة الخير والشر؟» تعجب المسيحي وأجاب : «نحن نؤمن بأن لا علة الا الله لكل ما هو خير ولكنه ليس علة الشر فسأل المسلم عند ذاك «من هو اذاً علة الشر؟»، فأجاب المسيحي : «من الواضح انه ذلك الذي يسبب الفساد بأحكامه، ونحن بنو البشر.

١٥. جمع أبت رأي المقطوع قبل الاتمام و يستعمل يوحنا كلمة Koptai اليونانية.

١٦. نشره ايضا مينيبي في الكتاب المذكور اعلاه، مجلد ٩٤ عامود ١٥٨٥ - ١٥٩٦ وقد ترجمناه بعد مقابلته مع الاصل اليوناني عن الترجمة الانكليزية في كتاب :

Daniel J. Sahas, *John of Damascus on Islam* (Leiden: E. J. Brill, 1972) pp. 144-57.

المسلم : ولماذا ؟ لأي سبب ؟

المسيحي : بسبب قدرتنا الذاتية [autexousios] (١٧).

المسلم : اذا أنت لك قدرة ذاتية ، وباستطاعتك ان تفعل ما تشاء .

المسيحي : [نعم] فقد أعطيت قدرة ذاتية من الله عندما خلقت ، وذلك في أمرين فقط ، وليس في أي أمر آخر .

المسلم : ما هما هذان الامران ؟

المسيحي : طالما كنت أفعل الخير لا أخاف من الناموس ، بل على العكس ، هذا يشرفني ويمنحني النعمة الالهية ، والشيطان نفسه [لا يخاف الناموس] لو فعل الخير . لقد خلق الله الانسان الاول ومنحه القدرة الذاتية ، ولكن الانسان ارتكب الخطيئة فطرده الله من الحال التي كان فيها ، وبما انك قد تعترض على كلامي هذا متسائلا : «ما هي هذه الأمور التي تسميها خيرا وشرا ؟ هذه هي الشمس والقمر والنجوم وكلها خير ، فاعمل واحدا منها» انا أقول لك مسبقا بأني لا أعني هذه ، بل فعل الخير والشر من حيث هي خصائص انسانية . فمثلا ، الخير هو ان تسبح الله وتتضرع اليه ، والشر هو الزنى والسرقه ، فهل يكون الخير والشر من الله كما تدعي ؟ الله اذا ظالم ، تبعاً لما تقول . وهذا غير صحيح . فلو كان الله هو الذي امر الزاني ، كما تقول ، ان يزني ، والسارق ان يسرق ، والقاتل ان يقتل ، تصبح هذه اموراً تستحق المديح ، لانها تنفيذ لارادة الله . ففي هذه الحال يكون واضعوا الشريعة عندكم كاذبين ، وتكون كتبكم مزيفة ، لانها كلها تأمر بجلد الزاني والسارق ، فيما هما لم ينفذا الا مشيئة الله . وكذلك هي تأمر بقتل القاتل . فيما هو يجب تكريمه لانه هو أيضا انما ينفذ ارادة الله .

وقال المسلم : «من يكون الجنين في أرحام النساء ؟» يطرح المسلمون علينا هذا السؤال المحرج وهم يبغون ان يبرهنوا ان الله هو علّة الشر ، لانك لو أجبت قائلا ان «الله هو الذي يكون الجنين في ارحام النساء» فسيقول المسلم «ان الله اذا يتعاون مع الفاسق والزاني» . ويرد المسيحي على النحو التالي : «انني لا أجد ذكرا في أي مكان من الكتاب المقدس بأن الله صنع أي شيء بعد الاسبوع الأول من الخليقة» . فاذا أبدى [المسلم] شكاً في هذا ، اطلب منه ان يريك شيئاً ما ، أو مخلوقا صنعه الله بعد الاسبوع الاول من الخليقة ؛ فانه لن يجد شيئاً ليريكه ، لان كل المخلوقات المشاهدة صُنعت في الاسبوع الاول ، فالله خلق الانسان خلال الاسبوع الاول ، وامره ان يولد ويولد ، قائلا : «انموا وأكثرُوا واملأوا الأرض» [تكوين ١: ٢٨] ولما كان الرجل حياً ويملك نطفة حيّة ، فانه يبذر في احشاء زوجه كائننا حياً ، فالانسان إذأ هو الذي يلد الناس ، كما يقول الكتاب المقدس . «ولد آدم شيث وولد شيث أنوش ، وأنوش ولد قينان ، وقينان ولد مهليل ومهليل أنوش» [تكوين : ٥ : ٣ وما بعد] ،

١٧ . ترجم بعض العلماء هذا الاصطلاح Autexousios ب «حرية الاختيار» ولكن القسم الثاني من الكلمة Exousios يعني سلطة ، قدرة او سيادة ولذلك تكون ترجمته «قدرة ذاتية» أضبط .

والكتاب المقدس لا يقول كَوْن الله شيث أو انوش أو أي شخص آخر، ومن هنا نعرف أن آدم هو الشخص الوحيد الذي خلقه الله، وان الذين تبعوه منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا، انما يولدون ويولدون. هكذا، بنعمة الله، يتكوّن العالم لأنه منذ الخليقة كل عشبة وشجرة تنتج، حسبما أمر الرب «لتنبت الأرض عشباً ونباتاً» [تكوين ١ : ١١] ووفقاً لأمره ظهرت كل شجرة، وكل أنواع الاعشاب والنبات، وفيها تكمن القدرة على التكاثر. فبذرة كل نبات وكل عشبة هي كائن حي. متى زرعت في الأرض، وبدون أن يخلقها أحد ما، تنمو بقوتها الذاتية وان كان زارعها [شخص] آخر. ويكون ذلك بمجرد اطاعتها لما أمر به الرب في البدء. فانا مثلاً، بالنسبة لما قلته اعلاه، بما اني امكك القدرة الذاتية على فعل ما ذكرته سابقاً فقط، فكل ما احرثه ان في زوجي أو في غيرها ومستفيداً من قدرتي الذاتية - انما ينبت وينمو بمجرد اطاعته لما أمر به الله في البدء. الله لا يصوغ [الاشياء] ويخلقها الان، وفي كل آن، لانه خلق السموات والارض وكل الكائنات في الاسبوع الاول، واستراح في اليوم السابع من كل الاعمال التي بدأها، كما يخبرني الكتاب المقدس [تكوين ٢ : ٣] ويقول المسلم، ولكن الله قال لارميا : «قبل أن أصورك في البطن عرفتك، وقبل ان تخرج من الرحم قدستك [ارميا ١ : ٥] و يرد المسيحي قائلاً : الله خلق في كل انسان - وهو في الرحم - القدرة على الحياة والتوالد منذ آدم وصاعداً، ولما كان لآدم في خاصرته القدرة، فقد أنجب شيث، كما ذكرته، وشيث أنجب انوش، وكل رجل يحمل في خاصرته القدرة على ان ينجب ولدا انما يمكنه ان يصبح ابا، والولد ايضا يصبح ابا وهكذا الى يومنا هذا. وأما العبارة «وفي الرحم قدستك» فأنتنا نفهم منها انه حقاً من الرحم يولد أبناء الله، حسب شهادة الانجيل المقدس «واما كل الذين قبلوه فاعطاهم سلطانا ان يكونوا ابناء الله للذين يؤمنون باسمه» ويقول اولئك «الذين لا من دم ولا من مشيئة لحم ولا من مشيئة رجل ولكن من الله ولدوا» [يوحنا ١ : ١٣١٢] بواسطة المعمودية. ويقول الخضم [المسلم]، ولكن هل كان هناك معمودية قبل المسيح ؟ لان ارميا ولد قبل المسيح.

و يقول المسيحي : نعم، بحسب شهادة الرسول الذي قال «وكلهم اصطبغوا [على يد موسى] في الغمام وفي البحر» [الرسالة الاولى الى أهل كورنثس، ١٠ : ٢] و يقول الرب في الأناجيل «إن لم يولد أحد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله» [يوحنا ٣ : ٥] ولذلك فإن ابراهيم واسحق ويعقوب وغيرهم من القديسين قبل المسيح ما كان بإمكانهم الخلاص ودخول ملكوت السموات، ولو لم يتعمدوا قبلاً. ويشهد الروح القدس قائلاً «قد زاغ المنافقون في الحشا» [مزامير ٥٧ : ٤] يعني رحم المعمودية. ولهذا السبب نحن نعتقد ان كل الذين خلصوا وخلصوا قد خلصوا وخلصوا بالمعمودية، بنعمة الله.

ويسأل المسلم هذا السؤال : هل تعتبر المسيحي الذي يتخذ مشيئة الله وحدها صالحاً أو شريراً ؟ ولكن المسيحي الذي فطن الى الخدعة قال : «انا أعرف تماماً ماذا تبغي قوله». المسلم : دلني على ذلك.

المسيحي : انك في الواقع تريد ان تسألني : «هل تألم المسيح بارادته أو ضد ارادته ؟ فلو أجبته بأنه تألم طوعاً ، أي بارادته ، فانت ستقول : اذهب واحن رأسك احتراماً لليهود ، لان ما فعلوا ما هو الا مشيئة الله» .

[١٣٤١ : ٩٦]

و يقول المسلم : «هذا ما اردت قوله فعلا ، فاذا كان عندك ما تحبيني به ، فافعل» .

المسيحي : انت تدعو هذا «ارادة» وانا ادعوه رحابة صدر وكبير صبر .

المسلم : كيف يمكنك اثبات ذلك ؟

وقال المسيحي للمسلم : «من واقع الأمور، عندما نجلس انت أو انا ، أو نقف ، هل يمكن

لاحد منا الوقوف او التحرك بدون القدرة والسيادة الالهية ؟

وأجاب المسلم : كلا

المسيحي : بما ان الله قال : لا تسرق ، لا تزني ، لا تقتل ، فهو يريدنا الا نسرق أو نزني أو نقتل .

المسلم : كلا ، فانه لو أردنا [أن نفعل هذه الأمور] لما كان أمرنا الا نسرق وألا نزني وألا

نقتل .

المسيحي : المجد لله ، فقد اعترفت بما ارغب في قوله ، فانت اقررت معي أنه ليس باستطاعة

أحدنا ، بدون معونة الله ، ان يقف أو أن يتحرك ، وأن الله لا يريدنا أن نسرق أو أن نزني . فلوقمت انا

تواً ورحت أسرق وأزني ، فهل تدعو ذلك «ارادة الله» أو [تدعوها] رحابة صدر وكبير صبر .

وأجاب المسلم ، وقد فهم وأبدى اعجابه ، قال : «هذا هو الواقع حقاً» .

المسيحي : اعتبر هذا أيضاً ، فمع أن الله كان قادراً على ضرب [أعدائه] بعنف ، فلقد توجه نحو

الصليب ، أي انه تسامح مع الخطيئة وصبر عليها . ولكنه عندما يريدني ان أتوب ، فانه سيعيدها [أي

الخطيئة] اليّ ، كما أعادها الى اليهود ، وذلك انه ما هي الا سنوات قليلة حتى أرسل ضدّهم تيطوس

وفاسبسيان واليونان وبدد غطرستهم .

لو سألك مسلم هذا السؤال : «ماذا تقول عن المسيح ، من هو؟» فأجبه قائلاً : «كلمة الله» ،

فانا لا أعتقد أنك تقترف إثماً لو قلت ذلك ، فهو في الكتاب المقدس يدعى «كلمة» الله ، وحكمته ،

وساعده وقدرته ، وأسماء أخرى غيرها ، فهو ذو أسماء عديدة . وتردّ على المسلم أيضاً سائلاً : ماذا يدعى

المسيح في كتابك المقدس ؟ «ولو صدف ان يكون بوذّ المسلم أن يسألك عن شيء آخر ، فلا تجبه حتى

يردّ على سؤالك ردّاً مرضياً . فهو لا بد أن يجيبك بعد قليل من الالحاح : «المسيح في كتابي المقدس

يدعى كلمة الله وروحه» . فتقول له حينئذ «هل كلمة الله وروحه في كتابك المقدس مخلوقان أو غير

مخلوقين؟» فلو قال لك إنهما مخلوقان ، فأسأله «ومن خلق كلمة الله وروحه؟» فلو أجابك وهو مدفوع

من الدهشة ، : إن الله خلقهما ، قتل له : «عفواً ، لو كنت انا الذي يقول ذلك ، لكنك اتهمتني بأني

أخفيت الشهادة وبأنه لن يصدّقني أحد مهما قلت بعد الان» . ولكنني سأسألك هذا : «قبل ان يخلق

الله الكلمة والروح، هل كان [الله] بدون كلمة وروح؟» وعندئذ سيهرب المسلم منك لأنه لن يجد ما يقوله. فمثل هذا القول هرطقة عند المسلمين.

[٩٦ : ١٣٤٤]

مرفوض ومنبوذ على الاطلاق. ولرأدت أن تبلغ أمره الى غيره من المسلمين لخلاف منك كثيراً.

وقد يسألك المسلم، «هل كلمة الله مخلوقة أو غير مخلوقة؟» المسلمون يسألوننا هذا السؤال الصعب لكي يبرهنوا على ان كلمة الله مخلوقة، وهي غير ذلك. فلو أجبت بأنها «غير مخلوقة» فيقول لك [المسلم]، «انظر، وكل ما هو كلمة الله وان كان غير مخلوق، فهو ليس الله». وهذا اعتراف بأن المسيح، مع كونه كلمة الله، ليس الله». ولذلك يجب على المسيحي الا يقول: «مخلوق» أو «غير مخلوق». وانما «أؤمن بأنه ليس الله الا كلمة، واحدة في الجوهر، غير مخلوقة كتلك التي اعترفت بها. ومن جهة أخرى، انا لا ادعو كتابي المقدس، بصورة عامة، «كلام الله» بل «نطق الله». فاذا قال المسلم: لماذا اذا قال داود «كلام الرب كلام نقي» [مزايير ١١ : ٧] ولم يقل «نطق الرب» نطق نقي؟» فأجبه: النبي [داود] تكلم بصورة مجازية وليس بصورة حرفية. ولو سألك: «ما هو المجازي وما هو الحرفي؟»، أجبه: «الحرفي هو ما يدل على المثبت وجوده، بينما المجازي لا يمكن التأكد منه». فلو قال المسلم: «هل من المحتمل ان يستعمل نبي برهاناً عرضة للشك؟»، فأجبه حالا: «عند الانبياء الجمادات تستعمل كأشخاص ذات أعين وأفواه، مثلاً، البحر رأى فهرب»، [مزايير ١١٣ : ٣] والبحر لا عين له، فهو جاد. ايضاً النبي نفسه يتحدث اليه وكأنه كائن حي، «مالك يا بحر تهرب» [مزايير ١١٣ : ٥] الى آخره. ويقول الكتاب المقدس، «ولان للرب سيفاً يأكل من اقصى الارض الى اقصى الارض» [ارميا ١٢ : ١٢] فالفعل «يأكل»، يدل على فم يتناول الطعام والشراب، بينما السيف يقطع، ولكنه لا يأكل، وهكذا فهو يستعمل مجازاً «كلمة» بدل «نطق» والتي هي في الواقع «نطق» وليس «كلمة». واذا قال لك [المسلم] «كيف نزل الله الى رحم امرأة؟» فأجبه «لناخذ كتابك المقدس وكتابي المقدس. كتابك يقول: الله طهر مريم العذراء، [سورة ٣ : ٤٢] واصطفاها على نساء العالمين وابقى فيها روحه وكلمته [سورة ٤ : ١٧] وكتابي يقول: «الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلك». فنحن نجد هنا صوتاً واحداً ومعنى واحداً في كلا البيانين. ايضاً انا ادرك بأن الكتاب المقدس حين يتكلم عن نزول [حلول] الله وصعوده، يأخذ بعين الاعتبار صبغتنا [البشرية]، أي أنه يتكلم مجازاً وليس حرفياً. فبحسب الفلاسفة، الحلول والصعود يستعملان من جهة شغل الاجسام [للمكان]، ولكن الله يشمل كل شيء دون ان يقله مكان معين. وقد قال أحد الانبياء: «من قاس البحر بمقياس يده والسماوات بشيره [٩٦ : ١٣٤٥] والارض كلها بقبضته؟» والواقع ان كل المياه تحت يدي الله والسماوات في كفه، فكيف اذاً «من الممكن للواحد الذي يمسك كل شيء في يده ان يهبط وان يصعد؟» وايضاً لو سألك المسلم: «لو كان المسيح هو الله، فكيف كان يأكل ويشرب وينام

الخ؟» فأجبه: «ان كلمة الله الازلية، الذي خلق الكون كله، كما ينص كتابي وكتابك، ذلك الذي اصبح انسانا كاملا من لحم مريم العذراء المقدسة، حيا وعاقلا، هو الذي كان يأكل ويشرب وينام. ولكن «كلمة الله» لم تأكل أو تشرب أو تتم أو تصلب الخ. يجب ان تعرف ايضا اننا نعتقد بأن المسيح هو اثنان من حيث الطبيعة، ولكنه واحد من حيث الجوهر [Hypostasis]، لان «كلمة الله» الازلية هي واحد من حيث الجوهر ومن حيث الجسد، حتى بعد التجسد، اذ انه لم يضيف شخص رابع للثالوث بعد ذلك الاتحاد بالجسد الذي لا يمكن وصفه.

المسلم: ماذا اذا، هل مات [من يدعى ذا الطبيعة] الالهية أو لم يزل حياً؟
أجبه: «انه لم يميت» بحسب شهادة الكتاب المقدس التي نثق بها. فالكتاب المقدس يقول حول هذا: أصابه الموت المطبوع عليه الانسان، ولكن ذلك لم يقض على الذاكرة، ولم يكتبها كما يحدث لنا، بل على نقيض ذلك. ودعني أعبر عن ذلك بطريقة أخرى. الانسان الاول أوقع في السبات، فاستل منه احد اضلاعه.

المسلم: لنفرض انني جرحت في مكان ما من جسدي، وتكون في الجرح رضة، وفي الرضة دودة، فمن خلق الدودة؟

أجاب المسيحي مردداً ما قاله سابقاً: الله لم يخلق أو يكون شيئاً بعد الاسبوع الاول من خلق العالم، وانما الاشياء تكونت بأمره، أثناء الاسبوع الاول. وهكذا توطد حدوث مالا يزال يحدث. وللاسف تبع الاوامر الالهية وقوع الخطيئة، الشيء الذي ادى الى حزن وأسى. ففي ذلك الحين حكم على جسدنا ان يخرج قملا وديدانا. ولا يزال الحكم جاريا حتى هذه الساعة.

ويسأل المسلم المسيحي: حسناً، ولكن من هو أعظم في رأيك، الذي يكرس أو المكرس؟

أجاب المسيحي، وقد أدرك الغاية من السؤال: أنا أعرف ماذا تريد قوله.

المسلم: اذا كنت حقاً تعرف ذلك، ارني كيف.

فقال المسيحي: اذا أجبتك ان الذي يكرّس هو أعظم من المكرّس، فستقول لي: اذهب اذا

واسجد ليوحنا المعمدان الذي عمد المسيح وكرسه.

ويقول المسلم: هذا في الواقع ما كنت سأقوله لك.

وأجاب المسيحي معطياً مثلاً: عندما نذهب الى الحمام وتصطحب معك خادمك، وخادمك

يغسل جسدك وينظفه، من هو الاعظم في نظرك، ذلك الخادم المسكين الذي اشترته بالدرهم، او

انت الذي غسل جسدك ذلك الخادم؟ المثال نفسه ينطبق على المسيح، فكونه السيد، نظافته تمت

بواسطة خادمه.

وقال المسلم للمسيحي: اذا أنت تدعوني أعظم. والأعظم بالأحرى هو الذي «صنع» شيئاً،

وليس الذي «صنع» الشيء من أجله، أليس كذلك؟ وأجاب الآخر [المسيحي] بعد أن حمد الله قائلاً

للمسلم : فعلى هذا المنوال يجب أن ندرك ما فعله يوحنا كخادم وكمرافق . فهو خدم المسيح في نهر الأردن حيث كسر مخّصي رؤوس الشياطين الذين كانوا يكمنون له هناك . وتولت الدهشة المسلم وأخذته العجب ، ولما لم يجد ما يرد به على المسيحي ، أدبر دون أن يتحداه بعد ذلك .

أثر الجدل في نشوء علم الكلام

القضايا المطروحة في هذه المناظرة كلها قضايا مهمة في علم الكلام الإسلامي وفي علم اللاهوت المسيحي على حد سواء، ومنها علّة الخير والشر والقدرة الإنسانية، القضاء والقدر، العدل الإلهي، الإرادة الالهية، كلمة الله ونطقه وأخيرا النبوة. وسنبحث في بعض هذه المواضيع لنرى فقط التشابه بين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي الذي كان منتشرأ في العصر الأموي في بلاد الشام وامكانية تأثير الفكر المسيحي في نشوء علم الكلام. والتشابه بين بعض مجاري الفكر المسيحي والمحاولات الاولى لعلم الكلام ظاهرة للعيان، ولكن إلى أي مدى يمكن القول مع بعض المؤرخين الغربيين إن علم الكلام هو نتيجة للتأثر بالفكر الديني المسيحي (١٨).

كان العصر الأموي بالواقع عصر نقل وتحضير ولكن نزعة التفكير الفلسفي ظهرت خلاله بدافع العقائد الدينية والجدل الديني. فقد واجه الإسلام عدة مسائل جوهرية منها مسألة الخلافة، ثم مسألة قدرة الإنسان على أعماله، ومسألة خلق القرآن، والصفات الالهية. مسألة الخلافة، وهي وان صُغت بطابع ديني، كانت اساساً مسألة سياسية لا علاقة لها مباشرة بالفكر المسيحي. أما مسألة قدرة الإنسان على أعماله: هل هو مختار لها أو مجبور عليها، وعلاقة ذلك بعلّة الخير والشر وبالعدل الآلهي، فقد كانت من أهم المسائل التي أثّرت في ذلك الوقت، والتي حاول عدد من المسلمين طرحها وتوضيحها فكراً ودينياً. فظهرت عدة مدارس دينية وفكرية كالمرجئة، والخوارج، والقدرية، والجهمية، والمعتزلة، وظهر

١٨. من أهم من بحثوا في الموضوع وقالوا بقوة الاثر المسيحي في نشوء علم الكلام Carl H. Beckrt في دراسته *Christliche Polemik und Islamische Dogmenbildung' Zeitschrift für Assyriologie*, vol. 26 (1911) pp. 175-195.

ومؤخراً

Morris S. Seals, *Muslim Theology, A study of Origins, with Reference to the Church Fathers* (London: Luzac and co., 1964)

وراجع حول أثر يوحنا الدمشقي كتاب

Adel-Theodore Khoury, *Les Theologiens Byzantine et L'Islam: textes et auteurs, VIIIe-XIIIe S.* (Paris: Beatrice-Nauvelaerts, 1969) pp. 72-73.

عدد من المفكرين نذكر منهم معبد الجهني (ت ٦٩٩م) والحسن البصري (ت ٧٢٨م) وغيلان الدمشقي (ت قبل ٧٤٣م) وواصل بن عطاء (ت ٧٤٨م) وينسب إلى الحسن البصري تأسيس الحركة المعتزلية. وقد عاصر هؤلاء جميعهم يوحنا الدمشقي. ومعبد الجهني وغيلان الدمشقي هما من أوائل من تكلم في «القدر» (١١). ولكن بسبب ضآلة الوثائق التاريخية للعهد الأموي، يصعب رسم صورة واضحة لكلامهما في هذا الموضوع، كما يصعب التأكد من أن كلامهما كان نظاماً فكرياً أو فلسفياً متكاملًا، إذ إن علم الكلام المتقدم فكرياً، بمعنى المدارس الفكرية المتكاملة، لم يظهر إلا متأخراً، أي في العهد العباسي.

عند تحليلنا للوثيقة التي تركها يوحنا، نرى فيها عدداً من النقاط التي أثرت في المدارس الكلامية الإسلامية. والنقطة الأولى التي أثارها يوحنا تتعلق مباشرة بقضية القدرة الإلهية، وهي تشير إلى أن المسلم يؤمن بأن الله هو علة الخير والشر معاً، لأنه خالق لكل ما هو موجود، والشر موجود. ومشكلة القدرة الإلهية وخلق الأفعال مشكلة كان يناقشها المسيحيون، كما كان يناقشها المسلمون. وكانت دمشق مركز التنظيرات في القدر، وفي المذهب الجبري أيضاً، ومنها انتشر هذا التفكير سريعاً في الانحاء الأخرى من الدولة خصوصاً إلى العراق.

وقد كان للمدرسة القدرية دور بارز في العصر الأموي على الصعيد السياسي، كما على الصعيد الفكري، فقد استخدم بعض الخلفاء الأمويين فكرة «القدر» واستخدموها في تبرير كثير من المواقف السياسية والاجراءات تجاه خصومهم. فقد حاول يزيد بن معاوية تبرير قتل الحسين بن علي بأنه قضاء من الله، ليس له فيه يد، وقد قتل هشام بن عبد الملك غيلان الدمشقي لأنه كان يقول بحرية الاختيار وبأن الله لا يعمل إلا الأصلاح ولا يقضي بالمعاصي، بل الإنسان هو الذي يرتكب المعصية بارادته وأختياره. هذا يعني أن مقتل الحسين أو غيره من الأعمال لم يكن مقدراً بل عمل تقع مسؤوليته على الأمويين (٢٠).

ويمكن القول إنه في أوائل العصر الأموي كانت العلاقة قوية بين السياسة والنظريات الدينية الفكرية، وهذا مهم لبحثنا، ويدل على أن المسلمين لم يثبتوا نظرية حرية الاختيار لانهم درسوها على

١٠. راجع الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، كتاب البيان والتبيين، م، تحقيق عبد السلام محمد هارون،

مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨، م ١، ص ٢٩٥. وراجع أيضاً، W. Montgomery Watt, *The Formative Period of Islamic Thought* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1973) pp. 85-88.

يد المسيحيين، فالمشكلة موجودة أساساً في القرآن الكريم. وبالتالي فعلى الأرجح إذن أنه في صراعهم السياسي - الديني كانوا، إذا وجدوا فكرة مسيحية صالحة لدعم وجهة نظرهم، يأخذون بها و يتبنوها. ونحن لا نعرف أنه كان يوجد أية علاقة مباشرة بين غيلان و يوحنا الدمشقي، أو غيره من العلماء والمفكرين المسيحيين. أي أنه لا يمكننا ان نثبت بطريقة قاطعة إن غيلان كان يعرف يوحنا الدمشقي أو أفكاره الدينية والفلسفية، وإن كان عاصراً. نعم، ثمة مطابقة أو تقارب بين موقف القدرية العام القائل بأن الحسنات والخير هي من الله، والشر من الانسان أو من الشيطان، وموقف يوحنا الذي يقول إنه ليس من الصواب أن ننسب إلى الله أفعالاً خسيمة أو ظالمة. ولكن من يتعمق قليلاً في موقف الإثنين لا بد له من ان يرى خلافاً في غاية الاثنين^(٢١)، وذلك عندما ندقق في مفهوم كل واحد منهما للقدرة الذاتية، أي استطاعة الانسان ان يقرر بذاته اعماله. فالقدرية كانت أول من عارض الكلام القائل بأن الله هو المسؤول عن كل الأعمال الإنسانية، لانه هو خالق كل شيء والقادر على كل شيء، واعتبرت أن للإنسان القدرة على تقرير الأعمال. ولذلك فهو مسؤول عن أعماله الشريرة وليس الله، أي هو حر الإرادة. وقد اعتبر بعض الدارسين «القدرة الذاتية» مساوية لحرية الإرادة، أو حرية الاختيار، ولكن المشكلة، بالنسبة ليوحنا وبالنسبة للقدرية، لم تكن مشكلة «حرية»، وإنما مشكلة «قدرة»، أي استطاعة الإنسان أن يقوم بالأعمال بنفسه بدون تدخل الهي. وهنا يوجد تشابه في طروحات المشكلة، بيد انه على الرغم من التشابه في الطروحات، هناك اختلاف اساسي في مفهوم «القدرة الذاتية» أو الإستطاعة عند الاثنين. فبالنسبة ليوحنا، «القدرة الذاتية» متأية عن طبيعة الانسان ككائن مفكر وعقل. بينما القدرية نظرات إلى القدرة الانسانية كردة فعل ضد الفكرة القائلة ان الله هو خالق الشر، لانه خالق لكل شيء، القدرية كانت مهتمة بنفي الظلم عن الله لانها كانت مهتمة بنسبته الى الأمويين

والقضية الثانية التي تثيرها «المناظرة بين المسيحي والمسلم» هي قضية العدالة. وهو موضوع مهم جداً بالنسبة للمعتزلة. وأصول المعتزلة ترجع إلى العهد الأموي، وهي تتفق مع القدرية في معارضة القول بنسبة خلق الشر إلى الله تعالى، ولكنها تشدد على العدالة كما يفعل يوحنا. فالله لا يقاص الإنسان على أعماله هو قدرها له، هذا يتناقى مع صفة العدالة. وقد عاصر يوحنا أيضاً واصل بن عطاء الذي ينسب إليه تأسيس المدرسة المعتزلية، وهنا أيضاً لا نعرف إذا كان ثمة علاقة بين الإثنين، وإلى أي حد أخذ واصل عن يوحنا هذه الفكرة، اذا كان أخذها عنه على الإطلاق وذلك أنه لم يكن في دمشق.

٢١. راجع كتاب: ساهاس المذكور أعلاه، ص ١١٢-١١٣.

وئمة قضية أخرى مهمة، تثيرها مناظرة يوحنا، متعلقة بكلمة الله وعلاقة ذلك بقضية خلق القرآن الكريم (٢٢) فنحن نعرف أن القرآن يدعو المسيح «كلمة» الله وروحه. بالنسبة إلى المسيحي «كلمة» هي مساوية للوغوس (Logos) والروح مساوية لـ (Pneuma)، ولذلك يسأل يوحنا المسلم «هل كلمة الله روحه في كتابك المقدس مخلوقة أو غير مخلوقة؟» فلو أجاب المسلم بأن الكلمة غير مخلوقة يكون ذلك بمثابة اعتراف بأن المسيح هو الله، ولو أجاب بأنها مخلوقة يعني أن الله كان بدون كلمة وروح قبل خلقها. ويظهر من وضع المسألة في هذا الشكل ان الغاية كانت لكي يعترف المسلم بالوهمية المسيح. مما أدى بالمفكرين المسلمين إلى مساواة «الكلمة» أو «الكلام» بالقرآن الكريم، ومن هنا ظهرت مشكلة خلق القرآن او عدمه، هل كلام مخلوق أو غير مخلوق، هل كلام الله هو الله، أي من جوهر الله أو أنه مخلوق وليس من جوهره ولا حاجة إلى التنويه هنا بالافاضة في هذا الموضوع في كتب علم الكلام. عارضت المعتزلة معارضة شديدة القول بأبديّة القرآن وازليته واعتبرته كلاماً مخلوقاً، وموقف يوحنا هو أقرب للموقف السني منه للمعتزلة وتمييزه بين «الكلمة» و«النطق» قد يكون المثال الذي احتذاه فيما بعد ابن حنبل والاشاعرة (٢٣). وعلى الرغم من وجود أصول مشكلة خلق القرآن أو عدمه في القرآن نفسه لا شك فيه انه كان ليوحنا أثر كبير في تطور قضية خلق القرآن في علم الكلام فيما بعد خصوصاً بواسطة تلميذه ثيودور ابوقرة الذي كتب بالعربية في عصر المأمون وخصوصاً في استخدام الاسلوب والمنهج المنطقي.

وأخيراً نذكر نقطة هامة لها علاقة بأثر يوحنا في نشوء علم الكلام وتطورة، وهو التشابه في ترتيب كتب الاصول، خصوصاً المعتزلية، وكتاب يوحنا «في الايمان القويم». فالقسم الأول من هذه الكتب تعالج مشكلة العلم؛ وشرح العقيدة يبدأ بالبرهنة إن العالم، أي الأمور المشاهدة، مخلوقة ولها خالق، ويتبع هذا البرهان اثبات وحدانية الله والبحث في جوهره، أي في مشكلة الصفات، وهذا هو الترتيب الموجود في كتاب «في الايمان القويم» (٢٤).

٢٢ البرنصري بنادر، فلسفة المعتزلة، فلاسفة الاسلام الاسيقين، ج ١، دارنشر الثقافة الاسكندرية، ١٩٥٠، ج ١، ص ١٠٣ - ١١١. راجع أيضاً علي بن اسماعيل الاشعري (ت. ٣٣٠ هـ) مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة القاهرة، ١٩٥٠، ج ١، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ و ٣٢١.

Earl Edgar Elder, *A Commentary On the Creed of Islam, Sád Al-Din Al-Taltazani on The Creed of Najm Al-Din Al-Nasafi* (New York: Columbia University Press, 1950) pp. 58-66.

٢٤. راجع: Luis Gardet et M.-M. Anawati, *Introduction a la theologie Musulmane: Essai de theologie comparee* (Paris: J. Vrin, 1948) p. 207.

والخلاصة «المنظرة بين المسلم والمسيحي» تدلنا على المواضيع التي كانت تهم المفكرين المسيحيين والمسلمين ولكنها لا تبرهن بصفة قاطعة على أن تطور علم الكلام كان نتيجة للأثر المسيحي، ولا يسعنا إلا أن نشير إلى التشابه بين الكثير من أوجه علم الكلام وعلم اللاهوت المسيحي، خصوصاً ما أظهر منه في بلاد الشام وما بين النهرين، ظهر في جومشع بالدين الإسلامي ومع أننا نجد أن بذور الكثير من الأفكار والقضايا التي ناقشها وطورها علماء المسلمين موجودة في الأدبيات المسيحية لا يمكننا أن نكبر حجم تأثير علم اللاهوت المسيحي - وخصوصاً يوحنا - في علم الكلام فلقد أخذ الفكر الديني الإسلامي طريقاً مختلفة مأخوذة من الأصول القرآنية، ومن عبقرية اللغة العربية، فأكثر القضايا التي أثرت في علم الكلام وعلم اللاهوت في قضايا إنسانية كبرى، انما أخذت في الحضارة الإسلامية شكلاً وطابعاً إسلامياً خاصاً بها، ولو نظرنا الى أبعد من ذلك، نرى أن علم الكلام الاسلامي ترك في العصور التالية أثراً كبيراً في علم اللاهوت المسيحي.

طريق الحج الشامي في العهد الاموي صالح درادكه

تعيد دراسة طرق الحج الشامي في الفترة الاسلامية المبكرة إلى الأذهان الدور البارز الذي لعبته هذه المنطقة الجغرافية العربية الممتدة ما بين دمشق والحجاز، في حركة المواصلات العالمية عبر العصور التاريخية الموعلة في القدم. والصلات بين الحجاز والشام لم تنقطع طيلة الفترات التاريخية بحكم الاتصال الجغرافي ووحدة المصالح المتمثلة بالقيام بدور الوسيط في مبادلة السلع التجارية العالمية.

فمنذ ان قامت الكيانات السياسية اليمنية - معين، وسبأ، وحمير - والكيانات السورية المتعاقبة - منذ أيام الفنيقيين ومرورا بالانباط والرومان وحتى قيام الاسلام - ظل الطريق التجاري الواصل بين عدن وسواحل البحر الابيض المتوسط، والى مدينة غزة بخاصة، مزدهرا تعبره القوافل المحملة بالسلع العربية المحلية والعالمية جيئة وذهاباً، فقد كان يشكل طريق البخور في العصور الكلاسيكية، حيث كانت الجمال تحمل البخور الى البتراء ومنها الى سوريا متبعة طريق مادبا وعمون و بصرى الى دمشق^(١).

وقد أدرك الرومان أهمية الطرق الواصلة بين الحجاز والشام، ومنحوها اهتمامهم فأنشأ تراجان (٩٨ - ١١٧ م) طريقاً يصل بين بصرى والعقبة مروراً بفيلاذلفيا «عمان الحالية»، وكابتلاياس «أم الجمال» متجنباً البتراء، وأطلق عليه الطريق الجديد (Via nova)^(٢). ومن الجدير ذكره ان الاجزاء الجنوبية من بلاد الشام كانت تجتازها ثلاث طرق من الشمال الى الجنوب في العهد الروماني والبيزنطي (القرن الخامس للميلاد) وهي :-
١. طريق دمشق - بصرى - فيلاذلفيا - أيلة.

٢. اللجون (الفلسطينية) - نيابوليس (نابلس) - ايليا (القدس) - بئر السبع - الوسا (الخلصة) - البتراء.

٣. قيسارية - ديو سوليس (اللد) - غزة - رفح^(٣).

Andrew D. Petersen, *Early Ottoman Forts on the HAJJ Road in Jordan* Thesis
Pembroke College Oxford, Trinity Term 1986, p. 7.

وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا : Petersen

٢. نقولا زيادة، التطور الاداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب، مجلد بلاد الشام في العهد البيزنطي ، الندوة الاولى من اعمال المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد عصفور، عمان ١٩٨٦ م. ص ٩٥ - ١٢٧، ص ١٦ - ١٧.

وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا : نقولا زيادة، التطور الاداري.

٣. نقولا زيادة، التطور الاداري، ص ١٢٠.

وكان يطلق على الطريق الذي يمر بمنطقة البحر الميت : الطريق الملكي، الذي كان التجار المصريون يستخدمونه. ومن العراق النبطية المهمة، تلك التي تصل «بترا» عبر وادي عربة والنقب الى البحر الابيض المتوسط^(٤). وقد ورد في كتابات القدماء عدد من المدن كمحطات تجارية مثل: بتراء، حائل، الجوف، تيماء، تبوك، خيبر، ددان، مدائن صالح، «الحجر»، غزة، عسقلان، ادوم، مآب، بالإضافة الى معظم المدن الموجوده شرق الاردن^(٥).

ازدهرت مكة في القرون الميلادية القريبة من الاسلام، بفضل موقعها المتوسط على الطريق التجاري الهام بين جنوب الجزيرة العربية والبحر المتوسط. وقد استغل أهل مكة موقعهم هذا، كما مهروا في الدبلوماسية التجارية مستفيدين من الظروف الدولية المواتية، اذ ان الحروب في بلاد ما بين النهرين كانت تجعل طريق ساحل البحر الاحمر أكثر أهمية من غيرها. كذلك كانت تزداد أهمية هذا الخط كلما اندلعت الحروب بين الساسانيين وبيزنطة، ويعود السبب في ازدهار مكة الى هذا الخط، وفي ذلك قال تريس Tresse. «ان موقع مكة في

٤. N. Glueck., "Deities and Dolphins", New York, 1965, p. 44.

سيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : N.Glueck
٥. ولزيد من المعرفة حول الطرق القديمة في هذه المنطقة انظر: -

Y. Aharoni., "The Roman Roads to AILA", I.E.J., IV. 1954, pp. 9-16.

سيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : Aharoni

Ph., Grant, "The Syrian Desert Caravans, Travel and Exploration", New York, The Macmillan Company, 1938.

سيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : Grant

R.G., Goodchild, "The Coast Road of Phoenicia and its Roman Milestones; Archaeological Studies" Berytus IX, 1949. pp. 91-127.

سيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : Goodchild

Ph., Mayerson. *The Desert of Southern Palestine according to Byzantine Sources*, P.A. Ph. S., C VII, 1907, pp. 79-80.

سيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : Mayerson

R. F. Burton, *Personal Narrative Of .apiligrimage to Al-Madinah and Mecca*, 2 Vols. (Dover Edition, 1964).

سيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : Burton

G.A. Smith., *The Historical Geography of the Holy Land*, Fontana Library, 1968.
G.W. Bowersock, *Roman Arabia*, harvard University Press, Cambridge, Mass. 1983.

جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام*، ١٠م، دار العلم للملايين، ط ١، مكتبة النهضة، بيروت، بغداد ١٩٧١ م. ١، ص ٣٢١، ٣٦٤. وسيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : جواد علي، *المفصل*.

منتصف الطريق التجاري بين عدن وغزة جعل منها جمهورية اوليغارشية مزدهرة في القرن السادس الميلادي» (٦).

وقد ابتكر المكيون «قريش» الايلاف، وتخطوا بهذا الاسلوب – من التعامل المحلي والدولي – معظم المشاكل التي كانت تعترض حركة التجارة في داخل بلاد العرب وخارجها. ومن الله على قريش بالايلاف – الذي اطعمهم من جوع وأمنهم من خوف – وذكرهم بفضله في سورة خاصة من سور القرآن الكريم (٧). وفضل الايلاف: «اصبح المقيم رابحا والمسافر محفوظا»، كما يقول الجاحظ (٨).

وقد دلت الفتوحات الاسلامية على خبرة قريش بجغرافية الشام وشمال الحجاز بشكل خاص وبقية الاقاليم المجاورة بشكل عام. فقد كانت دروب هذه المنطقة واضحة تماماً في اذهان قادة الدولة الاسلامية، واستخدموها بكفاءة عالية تدل على خبرتهم الطويلة ومعرفتهم الواسعة بجغرافية المنطقة.

واذا قيل ان الفتوحات الاسلامية لسوريا والعراق سببت تراجعاً في تجارة القوافل المكية، فإن الحج أدى الى تزايد أهمية مكة الدينية (٩)، ذلك ان الاسلام وحد المنطقة واصبحت تخضع لادارة واحدة، مع مرافق حركة الفتوح وانتشار الاسلام من أمن واستقرار. كما تزايدت العناية بالطرق بعامة والطريق الشامي بخاصة، لأسباب كثيرة منها (١٠):

١. حركات الجيوش: منذ أن انطلقت جيوش الفتح الاسلامية من المدينة (قاعدة الحجاز) نحو بلاد الشام في عهد الخليفة أبي بكر، والقوات العسكرية الاسلامية لا تنقطع ذهاباً

٦. Petersen, p. 8.

٧. سورة قريش، رقم (١٠٦) وآياتها اربع.

٨. انظر: الجاحظ، ابو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٢٥هـ/٨٦٩م) «كتاب رسائل الجاحظ»، جمع حسن السندوبي، القاهرة ١٩٣٣، ص ٧١. ولزيد من المعلومات حول الايلاف، انظر: صالح درادكة، «ايلاف قريش: ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الاسلام»، مجلة دراسات تاريخية، ع ١٧-١٨، آب، تشرين الثاني، ١٩٨٤، ص ٥١-٧٢.

٩. Petersen, p. 8.

١٠. انظر: صالح العلي، «طرق المواصلات في الحجاز»، مجلة العرب، ج ١١، السنة الثانية، جمادي الاول، ١٣٨٨هـ، آب ١٩٦٨م، ص ٩٦٣-٩٦٦، ص ٩٧١. وسيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا: صالح العلي، طرق المواصلات.

الى الشام ومنها، ورافق حركة الجيوش حركات انتقال قبلية بدأت قبل الاسلام، ونشطت مع حركة الفتح (١١).

٢. الحاجات الادارية: اقتضى قيام الدولة الاسلامية ربط الاطراف بالعاصمة، فاعتني بطرق البريد بشكل زائد، واستمر موظفو الدولة بالانتقال على هذه الطرق لتبليغ الاوامر الادارية والعسكرية والمالية، ومنها جمع الصدقات. مما ترتب عليه نشوء طرق خاصة للمصدقين، نجد وصف بعضها عند البكري وياقوت (١٢).

٣. حركة التجارة وارتفاع مستوى المعيشة: بعد انضواء بلاد الشام في الدولة الاسلامية زالت الحواجز السياسية التي كانت معروفة قبل الاسلام، حيث كانت تتعدد الكيانات، ففي بلاد الحجاز كانت المدينة الواحدة وحدة سياسية وادارية قائمة بذاتها، كما كان الحال في بلاد الشام بالاضافة الى تدخل القوى الاجنبية منذ الاسكندر المكدوني وسيطرة السلوقيين والبطالمة على المنطقة، ومن ثم وقوع هذه المنطقة في معظم اجزائها تحت النفوذ الروماني او الفارسي. ان الوضع الجديد الذي ترتب عليه وحدة سياسية وادارية، ساهى ايضا بتجانس فكري وثقافي، مما ساعد على انتشار الامن واسباب الاستقرار، تحت مظلة اللغة العربية الواحدة، ونتج عن هذا كله ارتفاع في مستوى المعيشة وازدياد الحاصلات وازدهار حركة التجارة، وحركة الرحلات طلبا للعلم والمعرفة او لغرض الهجرة والاستقرار في البلاد المفتوحة.

٤. الحج: يضم اقليم الحجاز مركزين مقدسين هما: مكة والمدينة، اما مكة فقد حظيت بتقديس العرب منذ اقيم فيها اول بيت للناس «الكعبة» فكانت محج العرب من كل مكان وظلت كذلك بعد ان اودعوها معبوداتهم واقاموا لها المواسم. لهذا كانت الكعبة من العوامل المهمة التي هيات لنجاح الوحدة الثقافية والسياسية للعرب، التي تحققت بالاسلام. وفي الاسلام اصبح الحج الى مكة ركنا من أركانه الخمسة، ومن شعائره الظاهرة، المتعلق فعلة بالابدان والاموال، كما نص على ذلك العلماء والفقهاء. واما المدينة فكانت تعرف بـ «يثرب» قبل الهجرة، وفيها قامت اول دولة اسلامية في التاريخ، واصبحت

١١. تجدر الاشارة هنا الى ان الاهتمام ببلاد الشام والتطلع لتحريره من السيطرة الرومية بدأت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعركة مؤتة (٨هـ/٦٢٩م) خير شاهد على ذلك. ولمزيد من المعلومات حول محاولات الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح بلاد الشام، انظر: صالح درادكة، مقدمات في فتح بلاد الشام، الندوة الثانية من اعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت واحسان عباس، عمان، ١٩٨٧، ص ١٠٢-١٣٤.

١٢. انظر: صالح العلي، طرق المواصلات، ص ٩٧١. حول طرق البريد عند ابن فضل الله العمري، والقلقشندي، وابن شاهين الظاهري، وپوپر (Popper, William).

انظر: محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك في العهد المملوكي، ط ١، عمان ١٩٧٦، ص ٦٦-٦٧. سيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا: محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك.

بذلك عاصمة الاسلام الاولى، وقضى الرسول الكريم فيها السنوات العشر الغنية والاخيرة من حياته، وفيها دفن، وترتبط فيها حياة الصحابة الأول وأعمالهم (١٣).

ان كون الحج فرض عين على كل قادر في الاسلام، لم يجعل الامر مقصورا على عدد محدود من العرب، فتوجه المسلمون من كل صوب ركبانا ومشاة نحو مكة، يتزايدون في كل عام تبعا لتوسع العالم الاسلامي وتزايد اعداد المسلمين. وفي العهد الاموي انتقلت عاصمة الخلافة من المدينة المنورة الى دمشق قاعدة بلاد الشام، لذلك اصبح ركب الحج ينطلق من العاصمة في موعد محدد وموكب مهيب كل عام لتأدية فريضة الحج.

ونظرا للمكانة الكبيرة للحج وارتباطه الوثيق بالدين الاسلامي، سعى الخلفاء والامراء والحكام طيلة التاريخ الاسلامي الى العناية بطرق الحج وتمهيدها والتخفيف من قسوتها بحفر الآبار وبناء القصور والقلاع وشحنها بالحراس ووضع العلامات، وجلب كل ما فيه راحة الحجاج، إما طلبا للأجر والثواب وخدمة للمسلمين، أو طلبا لرضى المسلمين من باب الدعاية والكسب. ونظرا لأهمية طرق الحج ومنازله، وما يرافق ذلك من نشاط ثقافي وتجاري وسياسي، فقد توسع المتقدمون من العلماء والمتأخرون في دراسة طرق الحج ومنازله كجزء من دراساتهم الجغرافية، فأفردوا قسماً من مؤلفاتهم في وصف طرق الحج دعوه كتب «المنازل» أو «منازل الحجاز» أو «منازل الحج»، ضمنوه في أول الأمر كتب: «المناسك» أي المؤلفات التي خصصت لبيان أحكام الحج ووصف أعماله، ثم أفردوه في مؤلفات خاصة تنفرد بها حضارتنا العربية الاسلامية، التي أغنت التراث الانساني وغطت جميع جوانب المعرفة في زمانها. وكما اختلفت حضارتنا بكتب الجغرافيين ووصف المسالك والممالك، فقد اختلفت بكثرة كتب الرحلات التي لا تقف عند وصف المواضع وتحديد المسافات بينها، بل تشمل وصف جميع جوانب الحياة في هذه البلاد على اختلافها (١٤).

وقد أسهم بعض الباحثين المحدثين في دراسة الجغرافيين العرب من امثال: ماينورسكي، ودي غويه، وكزاتشكوفسكي، وصالح العلي، وحسين ناصر، وحمد الجاسر (١٥) الذي يجب علينا الوقوف عنده، فقد أغنى هذا العلامة المكتبة العربية بعامة والجغرافية بخاصة، بدراساته الكثيرة والمركزة على جغرافية الجزيرة العربية، والتي كان منها: المعجم

١٣. انظر: صالح العلي، طرق المواصل، ص ٩٧١.

١٤. حمد الجاسر، كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب، ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية، (٢ ج)، الجزء الأول، جامعة الرياض ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م، ص ٢٢٩ - ٢٤٤. وسيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا: حمد الجاسر، كتب المنازل.

١٥. Abdullah Al-Wohaibi, *The Northern Hijaz in the Writings of the Arab Geographers 800-1150*. Al-Risalah Ets. Publishers and Book sellers.

الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ان منجزات الشيخ الجاسر في هذا الميدان تستدعي منا كل تجلة واحترام.

ومن باحثينا المعاصرين الذين اهتموا بدراسة طرق الحج والتعريف بها، الدكتور عبد الله الوهيبي الذي انجز دراسة قيمة حول شمال الحجاز في كتابات الجغرافيين العرب (من ٨٠٠ - ١١٥٠ م) (١٦). ونذكر بالتقدير بحث الدكتور سعد الراشد : «درب زبيدة - طريق الحج من الكوفة الى مكة» (١٧). هذا بالاضافة الى الرحلات والدراسات التي قام بها عدد من الرحالة الاوروبيين في هذه المنطقة وتتبعوا طريق الحج الغربي. من امثال : بيركهاردت (Burckhardt) وفريدولين (Fridolin) ودوتي (Doughty) و.أ. موسل (Musil) وكاستيو (Castiau) وغيرهم (١٨).

وفي هذا المقام لايفوتنا ان ننوه بالجهود الخيرة التي تبذلها دوائر واقسام الآثار في المملكة العربية السعودية، لدراسة الطرق والمعالم القديمة في شمال وشمال شرق الجزيرة. أما الجغرافيون العرب الأوائل الذين تعتمد هذه الدراسة على اعمالهم في الدرجة الاولى فهم كثر، منهم من نشرت مؤلفاتهم ومنهم من ما زالت مؤلفاتهم مخطوطة، تنتظر التحقيق، ونذكر هؤلاء الذين وصلتنا مؤلفاتهم، وتعرضوا لتسجيل طرق ومنازل الحج.

فأقدم من سجل لنا طرق الحج الشامي ومنازله هو ابن خرداذبة (ت حول ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م) (١٩)، واليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) (٢٠)، وابن رسته (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م)،

١٦. Al-Wohaibi, *The Morthern*, p. 15. Al-Wohaibi,

وسيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا :

١٧. Saad A. Al-rashid, *Darb Zubaydah, The Pilgrim Road From Kufa to Mecca*, Riyadh University Libraries.

وسيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : Al- Rashid, *Darb*, ونعتذر عن ذكر الآخرين الذين ساهموا ببحوثهم في هذا الميدان، وذلك لان غرض البحث غير هذا، فاكثفينا بالمثال لا بالحصر.

١٨. Grant, p. 223.

١٩. هو ابو القاسم، عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل ١٩٦٧. وسيشار اليه عند وروده فيما بعده هكذا : ابن خرداذبه.

٢٠. احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي، كتاب البلدان، ملحق بكتاب الاعلاق النفيسة، تصنيف ابي علي احمد بن عمر بن رسته، بعناية دي غويه، مطبعة بريل ١٨٩١. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا : اليعقوبي، البلدان. وابن رسته : الاعلاق.

والحربي (ت ١٩٨ هـ / ٨١٣ م) (٢١)، ووكيع (ت ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م) (٢٢)، وقدامة بن جعفر (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٧ م - ٩٤٨ م) (٢٣)، وابن الفقيه الهمداني (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) (٢٤)، والمسعودي (٢٤٦ هـ / ٩٥٦ م) (٢٥)، والاصطخري نبغ في ٩٥١ م) (٢٦)، وابن حوقل (كتب عام ٩٧٧ م) (٢٧)، والمقدسي (ت بعد ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) (٢٨)، والهمداني (ت بعد ٣٤٤ / ٩٤٥ م) (٢٩)، والبكري (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) (٣٠)، والادريسي ٤٩٤ هـ - ٥٦٢ هـ / ١١٠٠ - ١١٦٦ م) (٣١).

٢١. ابو اسحق ابراهيم بن اسحق الحربي البغدادي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٢٨٩ هـ / ١٩٦٩ م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الحربي، المناسك.

٢٢. وكيع بن محمد بن خلف بن حيان القاضي، منازل طريق مكة، مخطوط في احدى المكتبات الفارسية، استخدمه وافاد منه الوهبي. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا وكيع، المنازل: انجليزي

٢٣. قدامة بن جعفر بن قدامة، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١، وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج.

٢٤. ابو بكر احمد بن ابراهيم الهمداني (ت ٣٢٤ هـ / ٩٤٥ م)، مختصر كتاب البلدان، بعناية دي غويه، بريل ١٣٠٢ هـ وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، البلدان.

٢٥. المسعودي أبو الحسن بن علي (ت ٢٤٦ هـ / ٩٥٦ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، مصر ١٢٨٤ هـ - ١٩٦٤ م. وكتابه التنبيه والاشراف، دار التراث، بيروت ١٢٨٨ هـ / ١٩٦٨ م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج أو التنبيه.

٢٦. ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي، كتاب المسالك والممالك، وهو معول على كتاب صور الاقاليم للشيخ ابي زيد احمد بن سهل البلخي، بعناية دي غويه، بريل ١٩٢٧ م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الاصطخري، المسالك.

٢٧. أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة الارض.

٢٨. المقدسي المعروف بالبشاري، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، بعناية دي غويه، بريل ١٩٠٦ م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، احسن التقاسيم.

٢٩. الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٤٤ هـ / ٩٤٥ م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع، ط٢، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، لبنان ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الهمداني، صفة.

٣٠. البكري، ابو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ط٢، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، معجم.

٣١. ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ادريس الحمودي الحسني (ت ١١٦٦ م)، نزهة المشتاق في اختراق الافاق، النسخة الايطالية، بريل ١٩٧٤ م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الادريسي، نزهة المشتاق.

ويتبع هذه المجموعة مجموعة أخرى من الجغرافيين من ابناء القرنين السابع والثامن الهجريين، نذكر منهم: أبو الفداء صاحب حماة (٧٢٢هـ/ ١٣٣١م) (٣٢)، وياقوت الحموي (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) (٣٣)، والحميري (ت حول ٧٢٧م) (٣٤)، ومن ثم الرحالة ابن بطوطة (٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م - ٧٦٧هـ/ ١٣٧٧م) (٣٥)، وابن فضل الله العمري (٧٠٠-٧٤٩هـ/ ١٣٠١-١٣٤٩م) (٣٦)، والقلقشندي (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) (٣٧).

وتأتي بعد ذلك مجموعة كبيرة من كتب المنازل والرحلات يضيق المكان عن حصرها، ومعظمها دون العهدين المملوكي والعثماني نثراً وشعراً. وهذه الدراسات علاوة على تخصصها في وصف الرحلة الى الحج وذكر المنازل وما فيها من موارد للمياه أو القلاع وأوصافها، والمفازات وأحوالها، فانه لا يستغنى عنها كمصادر معاصرة للفتحات التي الفت فيها، ففيها الكثير من المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية. ورغم ان هذه الدراسات متأخرة عن الفترة الأموية - موضوع بحثنا - ففيها الكثير من الاشارات المفيدة، لا سيما ان الطريق الرئيسي للحج الشامي لم يتغير كثيراً منذ العهد الاموي وبعده.

وقد اضاف الشيخ الجاسر الى الدراسات المتعلقة بالحج أو في كتاب عن اخبار الحج والحجاج في خلال عشرة قرون وهو: «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة

٣٢. عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء صاحب حماة (ت ٧٢٢هـ/ ١٣٣١م)، تقويم البلدان، بعناية رينود، والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس ١٨٥٠م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفداء، البلدان.

٣٣. شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم.

٣٤. محمد عبد النعم الحميري (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٤م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الحميري، الروض المعطار.

٣٥. محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن بطوطة، تحفة النظار.

٣٦. شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق ايمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة، والجزء الخاص بقبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الاسلامي للبحوث، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن فضل الله العمري، المسالك والممالك، طبعة ايمن فؤاد سيد أوكرافولسكي.

٣٧. أبو العباس احمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الاعشى.

المعظمة» تأليف: عبد القادر بن محمد الجزيري الحنبلي (٣٨)، من اهل القرن العاشر الهجري، وقبل ان ننقل من استعراض المصادر لابد من التذكير بان ما عرضناه هو قليل من كثير. اذ المحنا الى تلك التي تمس موضوعنا مسأ مباشراً، ولم نذكر المصادر الاولية في التاريخ والادب كالحوليات وكتب الفتوح والتراجم والمدن والموسوعات والمعاجم، على اعتبار هذه المصادر اولية لابد من الرجوع اليها لانها تشكل الاساس في كل دراساتنا التاريخية والجغرافية.

وقد اوردت كتب السيرة تفصيلات واسعة عن الدروب وما عليها من مواقع في منطقة الحجاز، وبعض هذه المواقع تعرض لغزو الرسول صلى الله عليه وسلم مثل: ودان، وثنية المره، ومر الظهران، وسيف البحر، وبواط، والخرار، وعسфан، والهده، وتيماء، وتبوك وغيرها، وكلها مواقع على الطريق القديم بين الشام والحجاز (٣٩).

وذكرت كتب السيرة طريق الرسول صلى الله عليه وسلم الى تبوك في السنة التاسعة للهجرة، وورد فيها ذكر فدك، ووادي القرى، وتيماء وأيلة وغيرها (٤٠).

٣٨. صدر في ثلاثة مجلدات تضم ٢٢١٢ صفحة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الجزيري، الدرر.

حول الدراسات المتأخرة انظر: حمد الجاسر، كتب المنازل من رواقد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب، والجاسر ايضا، «في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات الى الحج»، مجلة العرب، ابتداء من العام ١٩٦٨ وما بعده. فقد نشرت المجلة مجموعة من كتب الرحلات. وقد وصفت طريق الحج شعراً، واصبحت هذه الاشعار مصدراً للباحثين في طرق الحج وتحديد المواضع، حول ذلك انظر:

حمد الجاسر، الشعر في وصف منازل الحج، مجلة العرب، ج ١٤، السنة الثالثة، شوال ١٣٨٨هـ، كانون الثاني، يناير ١٩٦٩م.

عبد الكريم رافق، «قافلة الحج الشامي وأهميتها في الدولة العثمانية»، مجلة دراسات تاريخية، ع ٦، ذي الحجة ١٤٠١هـ، وتذكر مصادر اخرى في الحواشي.

٣٩. انظر على سبيل المثال: ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ١٥١هـ / ٧٦٨م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميله، ط ٢، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م. ٦٠٨/٢ - ٦٠٩. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة.

الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ / ٨٢٢م)، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونز، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص ٢، ٣، ٥، ٧، ١٢، ٦٨، ٢٨٨، وانظر فهرس الاماكن والغزوات. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، المغازي.

ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م. م ٢، ص ٥ - ١٦٨ «المغازي والسرايا» وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.

وانظر: محمود شيت خطاب، الرسول القائد، دار الفكر، ط ٤، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ملحق أ، ص ٩٥ - ٩٦، ملحق د، ١٦٦، ملحق ز، ص ٢٦٤، ملحق ط، ص ٢٢١ - ٢٢٢، ملحق ن، ص ٤١٩ - ٤٢٦.

٤٠. انظر: ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٥١٥ - ٥٢٥. الواقدي، المغازي، ص ٩٨٩ - ١٠٢٥.

وهذه الطرق التي سلكتها الغزوات الى شمال وغرب المدينة هي نفسها الطرق التي كانت تسلكها القوافل القرشية، ثم سلكتها جيوش الفتح، وقوافل الحج الأموية. فقد ذكرت المصادر ان ابا بكر رضي الله عنه عندما سير الجيوش لفتح الشام، امر بعضها بسلك الطريق الساحلي من المدينة الى أيلة «العقبة»، وامر البعض الآخر بسلك الطريق الداخلية من المدينة الى شرق الاردن مروراً بتبوك. واطلق على الطريق الاول اسم «المعرقة» والثانية اسم «التبوكية»^(٤١)، وهذان الطريقان الرئيسان في منطقة الحجاز يصلان الشام بكل من المدينة ومكة، وكانت عير قريش تسلك هذين الطريقين الى الشام، ولما اراد الرسول صلى الله عليه وسلم اعتراض قافلة قريش اثناء عودتها من الشام على الطريق الداخلية، تجنب ابو سفيان قائد القافلة الاعتراض باتخاذ الطريق الساحلية «المعرقة»^(٤٢). وفي حديث عمر انه قال لسلمان: «أين تأخذ اذا صدرت، أعلى المعرقة ام على المدينة»^(٤٣)؟ وطريق المعرقة تختصره العرب الى الشام والى مكة، «وهو يمر بين جبلي رضوى وعزور»^(٤٤).

هذا وقد انتبه المسلمون منذ وقت مبكر الى العناية بطرق الحج والحجاج، وفي العهد النبوي والراشدي كان مصدر إمرة الحج وموردها مكة المكرمة والمدينة المنورة، والبداءة منها ثم من مكة المعظمة، ان كان الخلفاء ان ذاك يجهزون الحجيج ومن ثم كانت ولايتهم الحاج، ثم لما انتقلت الخلافة الى بني امية، وكانت الشام دار ملكهم، كانت الامرة منها، والحجيج المعنى به الركب السلطاني الذي تصحبه الكسوة الشريفة^(٤٥)، وتعلقات الحرمين من جانب الامام الاعظم، واما الركوب القاصدة للحج من الاقاليم المشهورة فمنفردة كالكوفة ومصر وغيرها، فانها كالقوافل الواردة من البلاد^(٤٦)، أي ان الركب القادم من العاصمة كان اهم الركوب.

وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينتدب لامارة الحج أحد الصحابة المشهورين بالعلم والورع والسابقة والكفاية، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده، بل ان قافلة الحج

٤١. حول المعرقة والتبوكية انظر: الطبري، محمد بن جرير (٢٢٤ - ٣١٠ هـ / ٨٢٨ - ٩٢٢ م) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠ م، ج ٢ ص ٣٨٧، ٣٩١، ٤٠٥. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

٤٢. ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٦١٨.

٤٣. صالح العلي، طرق المواصلات، ص ٩٦٨.

٤٤. البكري، معجم، ص ٦٥٦.

٤٥. وكسوة الكعبة خطة قديمة، عرفت قبل الاسلام، ويقال بان اول من كسا الكعبة من العرب التبع أسعد الحميري. انظر الوليد محمد بن عبد الله بن احمد الأزرقى (ت ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م تقريباً)، «كتاب اخبار مكة» شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار، رواية أبي محمد اسحق بن نافع الخزاعي، غنتقة ١٣٧٥ هـ / ١٧٣١. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الأزرقى، اخبار مكة.

٤٦. الجزيري، الدرر، ج ١، ص ٣٩٨ - ٤٠٠.

كانت تسير في الغالب تحت قيادة الخليفة نفسه. ومنذ ذلك التاريخ أصبح حرص الخلفاء على امارة الحج تقليدا يحافظون عليه، أو ينيبون أحد كبار رجال الدولة من خاصتهم.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين وطرق الحج تلقى العناية من الخلفاء والمسؤولين والوجهاء والموسرين، فيحرصون على انشاء المنازل واصلاح الطرق، ولما قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بأداء العمرة من المدينة الى مكة سأله اصحاب المياه ان يسمح لهم بانشاء المنازل على طول الطريق بين مكة والمدينة، وسمح عمر بذلك على ان يكون ابن السبيل احق بالظل والماء (٤٧). وقد حث القرآن الكريم في عدد من الآيات (٤٨) على رعاية ابن السبيل وتوليه بالمساعدة المادية والمعنوية ليصل الى بغيته، وفي هذا ما يشير الى كثرة عدد المسافرين من جهة، واهتمام المسلمين الاوائل بالطرق من جهة ثانية. وتنافس اغنياء المسلمين في خدمة الطرق ووقف المشاريع الخيرية عليها، لتوفير الراحة للمسافرين، و يروي الشافعي بسند عن جعفر بن محمد عن أمية انه كان يشرب من سقايات كان يضعها الناس بين مكة والمدينة (٤٩).

ومن الطبيعي ان يهتم خلفاء بني أمية بالطرق بعامة وطريق الحج الشامي خاصة، ذلك ان القوافل المنظمة والمحمية والمشمولة برعايتهم بدأت تخرج من دمشق الى الحجاز في ايامهم، فهذا الطريق هو طريقهم سواء الى الحجاز ام الى قصورهم ومنتجعاتهم التي اكثروا من انشائها في بادية الشام وعلى طول طريق الحج الشامي، الذي كان في الوقت نفسه طريق التجار والرحالة والجيوش والقبائل. ويمكن القول بان طرق المواصلات الاسلامية استقرت في العهد الاموي نتيجة لاستقرار الاوضاع العامة في البلاد.

ولم تفصح لنا المصادر المتقدمة عن اخبار القافلة الشامية في العهد الاموي، وتنظيمها واسلوب تجهيزها وادارتها وحمايتها وخدمات منازلها، من دمشق الى مكة المكرمة. ولكن المصادر ذكرت حج الخلفاء والاعيان من بني أمية، وذكرت الحرص على توجيه الحج في مواعده واختيار أميره (٥٠)، دون ان تفصل في واجبات امير الحج، ولكن يمكن تصور هذه الواجبات من خلال ما اورده بعض المصادر المتأخرة، وهذه الواجبات ما هي الا امتداد لما

٤٧. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٩.

٤٨. الايتان ١٧٧، ٢١٥، سورة البقرة، الايتان، ٣٦، ٤٤ سورة النساء، الآية ٤١ سورة الأنفال، الآية ٦٠ سورة التوبة، الآية ٢٦ سورة الاسراء الآية ٢٨، سورة العنكبوت، الآية ١٧، سورة الحشر.

٤٩. ابو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م) الام، كتاب الشعب، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج ٣، ص ٢٧٩.

٥٠. حول حج خلفاء بني أمية واعيانهم، انظر خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) تاريخ خلفه ابن خياط، ١، مطبعة الآداب في النجف الاشرف ١٤٨٦هـ/١٩٦٧م. رتب خليفة كتابه على نظام الحوليات وذكر في نهاية كل سنة من قام للحج. وكذلك فعل اليعقوبي في تاريخه، والطبري. انظر أيضا الجزيري، الدرر، ج ١، ص ٤٢٢ - ٤٥٩.

ابتكره الأمويون، لأن القافلة الشامية نشأت نشأة أموية. وقد جعل الجزيري واجبات امير الحج عشرة، تدور حول توفير شروط الامن والراحة والتموين من نحو تأمين الماء والطعام للركب، والعبادة وتأدية الشعائر، وتحديد المنازل للراحة والاقامة (٥١).

وتصف لنا المصادر المتأخرة موكب الحاج وكأنه دولة متكاملة متحركة، تضم جميع الاجهزة اللازمة للدولة من موظفين وقضاة ورجال حسبة وحماة ورجال مال، وطعام وشراب، وحملة مشاعل وعلافين، وشعراء وخطباء ورحالة وطلبة علم وغير ذلك (٥٢). وقد قدر بيركهاردت في وصفه لاحدى القوافل التي شاهدها ان عدد الحجاج الحقيقيين لم يكن يتجاوز عشر عدد الموجود (٥٣).

وذكرت المصادر ان معاوية بن ابي سفيان (٤٠ - ٦٠هـ) أول من طيب الكعبة بالخلوق والمجمر وأجرى الزيت لقناديل المسجد في بيت مال المسلمين (٥٤). وروى الطبري ان الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) كتب في السنة الثالثة من ملكه الى عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة المنورة بتسهيل الثنايا في الطرق، وحفر الآبار بالمدينة، وخرجت كتبة الى البلدان (٥٥). وكتب الوليد الى خالد بن عبد الله القسري بمثل ذلك (٥٦).

وبلغ من شغف الوليد بن عبد الملك بالعمارة ان طلب مهندسين رومان لبناء مسجد المدينة، وجلب من هناك مواد البناء مثل الفسيفساء (٥٧). ويحكي ابن الفقيه ان الخليفة الوليد بن عبد الملك قد حفر المياه في مختلف المنازل الواقعة على هذا الطريق كما انشأ عليه البيمارستانات للمرضى (٥٨). وذكر القلقشندي ان الوليد «هو أول من بنى الاميال في الطرقات» (٥٩). وقد اثنى الطبري على الخليفة الوليد لكثرة اعماله العمرانية قائلاً: «كان عند

٥١. انظر: الجزيري، الدرر، ج ١، ص ٢١٧ - ٢٧٤.

٥٢. عقد الجزيري فصلاً خاصاً في ذكر المناصب التابعة لامرة الحاج، ج ١، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

٥٣. Selah Merrill, East of the Jordan: A record of Travel and observation in the Countries of MOAB, GILEAD, and BASHAN. London, 1881, pp. 330-347.

وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: S. Merrill

٥٤. ابن الفقيه الهمداني، البلدان، ص ٢٠.

٥٥. تاريخ، ج ٦، ص ٤٢٧ وانظر: Al- Rashid, Darb Zubayda, p. 8-9.

٥٦. الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٤٢٧.

٥٧. اليعقوبي، تاريخ، ج ٣، ص ٣٠.

٥٨. البلدان، ص ١٠٦.

٥٩. مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار احمد فراج، صورة بالوافست، عن ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠م، ج ١ ص ١٣٦. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، مآثر الأنافة. وانظر: صالح العلي، طرق المواصلات، ص ٩٧٤.

اهل الشام افضل خلائفهم، بنى المساجد، مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنار، واعطى الناس» (١٠). وتابع الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ/٧١٧ - ٧٢٠م) اعمال الوليد في اصلاح الطرق وتوفير اسباب الراحة فيها، وعمر من الاوائل الذين بنوا الخانات في الطرقات للمسافرين، فقد كتب الى والي خراسان سليمان بن ابي السري، ليبني البيوت بالطرقات ويطعم المسافرين، ويقوم بخدمة المرضى منهم، ويدفع النفقات لتأمين سفرهم الى اهلهم اذا اقتضى الامر ذلك (١١).

ويذكر الكليني عن ابي عبد الله قال: واي شيء البريد؟ قال: ما بين ظل عير الى فيء وعيره. قال ثم عبرنا زمانا، ثم رأى بنو امية يعملون اعلاماً على الطريق وانهم ذكروا ما تكلم به ابو جعفر، فذرعوا ما بين ظل عير الى فيء وعيره، ثم جزأوه الى اثني عشر ميلاً، فكان ثلاثة الاف وخمسمائة ذراع كل ميل، فوضعوا الاعلام، فلما ظهر بنو هاشم غيروا امر بني امية غيره، لان الحديث هاشمي، فوضعوا الى جنب كل علم علماً (١٢). ويعلق الدكتور صالح العلي على هذه الرواية قائلاً: «ان هذا النص يتحدث عن حدود حرم المدينة ولكننا نرجح ان الامويين لم يكتفوا بوضع الاعلام حول المدينة، بل على الطرق ايضاً، كما يروي القلقشندي ويشير الطبري، ولكن ازالة العباسيين آثارهم كما تحدث الكليني أدى الى ضياع تفاصيل ما عملوه، ولعل العباسيين تابعوا الامويين ولم يكن عملهم الا اصلاحات وتعديلات لما وضع في زمن الامويين» (١٣).

ويعتبر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ/٧٢٤ - ٧٤٣م) من اعظم الخلفاء في الاهتمام بالطرق، اذ بنى عليها القصور والحدائق المزودة بالماء والمنافع، كالسدود والمخازن والاقنية والآبار، وابنية أخرى لا يزال بعضها مشاهداً في الاردن والبادية السورية. وقد أولى هذا الخليفة بنفسه عناية فائقة للطريق بين سورية ومكة (١٤).

٦٠. تاريخ، ج ٦ ص ٤٩٦. وانظر حول اهتمام خلفاء بني امية بالعمارة والطرق، ابن الفقيه، البلدان، ص ١٠٢، ١١٣.

٦١. ابن الاثير، ابي الحسن عز الدين على ابن ابي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٢٢م)، الكامل في التاريخ ج ١٣، ج ٥، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. ص ٦٠، وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الاثير، الكامل.

٦٢. أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، (ت ٣٢٨ - ٩٢٩م تقريباً)، الفروع من الكافي، ج ٣، طبعة طهران، ص ٤٢٢. وانظر: صالح العلي طرق المواصلات، ص ٩٧٤ - ٩٧٥.

٦٣. طرق المواصلات، ص ٩٧٤ - ٩٧٥.

٦٤. انظر: Al- Rashid, Darb Zubayda, p. 9.

ومن مآثر الأمويين العمرانية هذه القصور والقلاع والبرك المنتشرة في البادية الأردنية على طول طريق الحج الشامي وهي تقف شاهداً على جهودهم (٦٥). ويجدر التذكير بأن «الحير» نوع من القصور الصحراوية، وهي فكرة عربية أموية أشاعها الأمويون في صحارى الشام لزيادة الخصوبة فيها (٦٦).

وقد ذكر التنوخي أن خلفاء وأمراء بني أمية شغفوا بالبادية وحياتها «ولم يذكر صاحب الأغاني، وابن عساكر ملكاً أموياً، إلا ذكر تبديه، فكان خالد بن يزيد يسكن قصر (فدين) في البلقاء - لعله قصد قصر شبيب في الزرقاء - وروى صاحب العيون والحدائق (ص ١٢٠) أن الوليد بن يزيد كان يستوطن قصر الأزرق في البرية (٦٧). وذكر الاصفهاني في اغانيه (٢٠/١٨) انه كان ليزيد عدة قصور ينتقل اليها ويتعبد بها كالزيزاء وفدين (المفرق) والأزرق والأغدق والنجاء، وقصر الأبيض في الرحبة» (٦٨).

كانت دمشق القاعدة والمنطلق لقافلة الحج، فهي قاعدة بلاد الشام، وفيها يجتمع الركب وتحصل الاستعدادات للخروج تحت امره الخليفة او من ينوب عنه في امرة الحج. وطبقاً لرواية ابن خردانبة (٦٩) يخرج الحاج من دمشق الى منزل ثم الى منزل ثم الى ذات المنازل. وتابعه في تحديد هذه المنازل ابن رسته (٧٠). ومما يجدر قوله ان ابن خردانبة هو اقدم جغرافي عربي سجل لنا المنازل على الطرق بعامة، وطرق الحج الشامي بخاصة (٧١)، من

٦٥. حول القصور والقلاع في الأردن انظر: لانكستر هاردنج، آثار الأردن، تعريب سليمان موسى، اخرجته «مجلة رسالة المعلم» في العدد ١١ (٢-١) من السنة الثامنة، ط ١، كانون الثاني ١٩٦٥ م، ص ١٥٢-١٦٨. وجعفر الحسيني، قصور الأمويين في الديار الشامية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م ١٧، الجزء الخامس والسادس، ايار وحزيران (١٩٤٢م) جمادى الأولى والآخره (١٣٦١هـ) ص ٢١٤ - ٢٣١ وفواز طوقان: القصور الأموية الصحراوية لما ينبت به حولية مديرية الآثار العامة، م ١٤ (١٩٦٩) عمان، ص ٤ - ٢٥.

وانظر: انجليزي

٦٦. فواز طوقان «الحائر في العمارة الأموية الإسلامية»، كتاب المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٦٩-١٣٨، ص ١٠٧. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: طوقان، الحائر.

٦٧. عز الدين التنوخي، (ت ١٩٦٦م) الرحلة التنوخية، من الزرقاء الى القرى، جمع وتحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر، ط ١، ١٩٨٥، سلسلة الأقطار العربية، ص ١٨ - ١٩. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: الرحلة التنوخية.

٦٨. الرحلة التنوخية، ص ١٨ - ١٩.

٦٩. المسالك، ص ١٥٠.

٧٠. الاعلاق النفسية، ص ١٨٢.

٧١. ذكر الجغرافيون سبع طرق كان يسلكها الحجاج من مختلف الجهات الى مكة المكرمة. انظر:

Al- Rashid, *Darb Zubayda*, p. 4-7.

A. Petersen, p. 6-7.

دمشق وحتى مكة. ثم جاء من بعده اليعقوبي والحربي وابن رسته وقدامة بن جعفر والادريسي، اما بقية الجغرافيين، فلم يتتبعوا المنازل من دمشق والى النهاية، ولكنهم فصلوا في طرق الحجاز وما بين المدينة ومكة بخاصة. وسنجد تباينا بين الجغرافيين القدامى في تسمية المنازل، و يعود السبب في ذلك الى تغير الطرق عدة مرات في القرن السابع الميلادي، اذ كانت الطريق تبدأ من دمشق الى الجنوب من عمان حيث يختار الحجاج احدى ثلاث طرق تقع الى الشرق من وادي الاردن وأودية البحر الميت، واستمر تغير الطرق واختلاف المنازل حتى القرن السادس عشر حيث توحدت الطريق عندما ابنتى العثمانيون القلاع على طول الطريق الشامي. وأنشأوا المستودعات المحفوظة للمياه العذبة فاستقر الطريق منذ ذلك الوقت (٧٣). ولعل تغير موسم الحج من فصل الى آخر سبب تغيرا في الطريق شرقا وغربا.

وسبب آخر يعود الى خلاف الجغرافيين في مواصفات المنزل، اذ رأى بعضهم شرط توفر الأهل والمياه والسوق والعشب في المنزل حتى يعد منزلا، اذ كانت بعض المواضع اماكن استراحة مؤقتة أو متعشيات يحط فيها الركب لتناول العشاء ومن ثم يستأنف المسير (٧٣). ويستنتج مما اورده بعض الجغرافيين ان المسافة بين المنزل والذي يليه تتراوح ما بين ٤٥ - ٦٥ كيلا، بينما المسافة بين محطات الاستراحة او المتعشيات قد لا تصل الى عشرين كيلا (٧٤).

و يعتقد موسل ان المنزل الاول عند ابن خرداذبة بعد الخروج من دمشق هو الكسوة، اما الثالث «ذات المنازل» فهو اذرعاع «درعا الحالية» (٧٥) الواقعة على مسافة مائة وخمس كيلات تقريبا الى الجنوب من دمشق. وتسمية درعا بذات المنازل يشير الى أهميتها، و يبدو أن درعا (٧٦) ازدهرت بعد تراجع بصرى على اثر ذبول الطريق الشرقي وتحركه نحو الغرب ليكون

٧٢. Grant, *The Syrian Desert*, p. 223.

٧٣. انظر: ابن رسته، الاعلاق النفسية، ص ١٧٨ - ١٧٩. موسل، ص ١٥٧. Grant, p. 230.

٧٤. أ. موسل، شمال الحجاز، نقله الى العربية عبد المحسن الحسيني، الاسكندرية، ١٩٥٢، ص ١٥٦. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: موسل، شمال الحجاز.

٧٥. موسل، شمال الحجاز ص ١٥٦.

٧٦. خلطت بعض المصادر بين اذرعاع والبثنية، فذهب ابن فضل الله العمري مثلا الى أن اذرعاع هي البثنية (المسالك، تحقيق ايمن فؤاد سيد ص ١١٩)، وفعل مثله الادريسي، في نزهة المشتاق، ص ٢٧٦ - ٢٧٧). ولكن ما تفيد المصادر الاقدم خلاف ذلك، فالبثنية كورة واذرعاع (درعا) قاعدتها، وكذلك حوران كورة مثل البلقاء، ولم تبغ حدود الكور على حالها، فكانت تتسع وتضيق، كما كانت تتغير مراكزها احيانا، انظر: البلاذري، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار السعادة، مصر، ١٩٥٩، ص ١٣٢ - ١٣٣. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح، الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٤٣، ج ١٠، ص ١٢٢. ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٣٣. افادت النصوص ان بصرى قاعدة كورة حوران، واذرعاع قاعدة البثنية، وعمان قاعدة البلقاء، انظر: المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٥٤، ١٦٢، ١٧٥. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٥. ابن خرداذبة، المسالك، ص ٧٧. الاصطخري، المسالك، ص ٦٧. الهمداني، صفة، ص ٢٤٢ - ٢٤٥. البكري، معجم، ص ٢٢٦.

قريباً من العمران، فقد كانت بصرى احد المراكز المشهورة والمزدهرة في العهد الروماني، كما ان الرسول صلى الله عليه وسلم مر بها وهو صبي مع قافلة التجارة القرشية. وافادت المصادر المتأخرة ان القافلة تستريح في بصرى ثلاثة ايام او اربعة.، حتى يلتحق بها الحجاج الذين فاتهم الالتحاق بالركب قبل ذلك (٧٧). وكذلك تراجعت مدن عمان واذرعات ومعان واذرخ الى بليدات او مدن صغيرة في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي (٧٨).

ولعل هذا التراجع يعود الى انعدام الأمن وانتشار الاضطراب ونفاد الماء والقحط، واختفاء الاسواق، وهذا ما يفسر ذكر كل من بصرى واذرعات والمزيريب في المصادر المتباعدة (٧٩). اما صرخد، فقد ذكر الجزيري ان للحجاج طريقاً اقصر من الطرق السابقة، وهو الذي يمر على صرخد ثم على تيماء الى المدينة النبوية، وهو اقرب بنحو ستة ايام (٨٠). ولم تذكر المصادر طريق صرخد الا نادراً لبعده عن العمران وتوغله في الصحراء، مما يعرض المسافرين الى المشاق من قلة الماء وانعدام الأمان.

والمنزل بعد اذرعات هو «سرغ» عند ابن خرداذبة وابن رسته وقدامة بن جعفر والادريسي. وقد تعرض لفظ «سرغ» الى التحريف كزرع او زرعة أو ازرعة التي هي «ازرع» الحالية في حوران، فقليل فيه شرغ وسرع والاصح «سرغ» وهي بلدة المدورة الاردنية التي تقع على الحدود الاردنية السعودية الداخلية. وقد ذكرتها المصادر كاحدى محطات الطريق الشامى، وجاءها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما توجه الى الشام في جمادي الاولى من السنة السابعة عشرة للهجرة، وفيها بلغه ان الوباء قد وقع بالشام (٨١). وحدد ياقوت موقع سرغ بأنها أول الحجاز وآخر الشام، وجعلها بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام (٨٢). ولكن المسافة بين درعا «أذرعات» والمدورة «سرغ» تزيد على ثلاثمائة كيل، ومن غير المعقول ان يقطع الراكب هذه المسافة مرة واحدة دون النزول والاستراحة في منازل سابقة.

وقد ذكر الحربي سبعة منازل ما بين درعا «أذرعات» والمدورة «سرغ» وهذه المنازل هي: الزرقاء والقسطل وقبال وبالعه والحفير ومعان وذات المثار والمغيثة ثم الى سرغ (٨٣). وما

٧٧. انظر: هورست كلينكل، آثار سورية القديمة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٥، ص ٧٨ - ٨٤.

٧٨. نقولا زيادة، جغرافية الشام عند جغرافي القرن الرابع الهجري، المؤتمر الاول لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٧٤. من ص ١٢٩ - ١٧٩، ص ١٥٦. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: نقولا زيادة، جغرافية الشام.

٧٩. الجزيري، الدرر، ص ١٢٣٤.

٨٠. الجزيري، الدرر، ص ١٢٣٤.

٨١. ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٢٨٢. الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٧. البكري، معجم، ج ٢، ص ٧٣٥. الحميري، الروض المعطار، ص ١٢.

٨٢. معجم البلدان «سرغ»، وقد ابتنى فيه العثمانيون قلعة المدورة في القرن السادس عشر، انظر:

A. Petersen, p. 108.

٨٣. المناسك، ص ٦٥٢.

ذكره الحربي يبدو أنه أكثر وضوحاً ودقة لأن ما ذكر من منازل يتناسب مع المسافات المقدرة بين المنزل والآخر من جهة (٨٤)، وان بعض هذه المنازل ما زال يحتفظ ببعض الآثار الاموية من جهة أخرى (٨٥). وكل هذه المنازل تقع في شرقي الاردن، فالزرقاء هي المدينة الثانية بعد عمان العاصمة، وتقع على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلا الى الشمال الشرقي من العاصمة، وعلى حافة نهر الزرقاء «سيل الزرقاء» وفيها بقايا قلعة «قصر» شبيب التبعي الحميري (٨٦)، وهي اليوم احدى محطات سكة الحديد الاردنية الحجازية.

اما القسطل فهي بلدة تقع الى الجنوب من عمان في وسط الطريق المؤدي الى مطار الملكة علياء الدولي، ولا يزال هذا الموقع يحتفظ باسمه حتى اليوم، وذكر القسطل مع الموقر القريب منه، وبعده بقليل يقع قصر المشتى، ولكنها قصور اموية لا تزال تحتفظ بالآثار الدالة على ذلك رغم طغيان التوسع العمراني على الاماكن الاثرية (٨٧).

وقد ذكر ياقوت القسطل على طريق المدينة وقال: «هي في لغة العرب الغبار الساطع، وفي لغة اهل الشام الموضع الذي تفترق منه المياه، واستشهد فيها بما قاله كثير.

سقى الله حيا بالوقر دارهم الى قسطل البلقاء ذات المحارب سوارى تنحى كل آخر ليلة وصوب غمام باكرات الجنائب (٨٨)

اما قبائل التي يذكرها الحربي بعد ذلك فلم نعثر لها على وجود في الجزء الاردني من الطريق، ولكن سكان المنطقة يطلقون احيانا اسم «قيال» على موقع خان الزبيب الذي يبعد ثماني كيلات الى الغرب من القطرانة على الطريق الصحراوي. وخان الزبيب اليوم محطة من محطات القطار وفيها مسجد يعود الى العهد الأموي، حيث تكثر المخلفات الأثرية الأموية في هذه المنطقة، فعلى بعد تسع كيلات ونصف غرب زيزياء يقع مسجد ام الوليد (٨٩). ولا عبرة بما ذكره ياقوت حول قبائل (٩٠)، لان ما ذكره يقع خارج المنطقة المعنية. كذلك لا توجد حالياً

٨٤. انظر: ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، المختصر في اخبار البشر، ج ٤، ص ٧٣ - ٧٤. يذكر انه في حجة من حماة، مراكب الكرك في ذهابه، واقام في المعلا وفي بركة زيرا ودمشق في العودة الى حماة. وذكر بان مسيره من حماة الى مكة استغرق خمسة وعشرين يوماً، اقام منها نحو ثلاثة ايام، فيكون مسيره الفعلي دون اثنين وعشرين يوماً. والمسافة بين حماة ومكة اكثر من تسعمائة ميل، فلا بد ان يكون قد قطع في اكثر من خمسة واربعين كيلا في اليوم الواحد. انظر: موسل، شمال الحجاز، ص ١٥٨.

٨٥. انظرها في مصادر القصور الاموية التي ذكرناها سابقاً.

٨٦. ياقوت، معجم، «الزرقاء».

٨٧. انظر المصادر المشار اليها سابقاً.

٨٨. معجم البلدان «القسطل». وذكر: الطبري، ج ٣، ص ٣٨٩، ج ٧، ص ٢٣٧، ٢٦٥. وابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٢٨٣، ان الموقر والقسطل كانتا من منازل الامويين.

٨٩. انظر: فواز طوقان، الحائر، ص ١٢١.

٩٠. ذكر ياقوت جبلا بهذا الاسم قرب دومة الجندل. واستشهد ببيت شعر يفيد انها واد. انظر المعجم «قبائل».

مواقع باسم بالعه أو الحفير، مع أن ياقوت ذكر بالعه على أنها من قرى البلقاء (١١). و يغلب على الظن أن هذه المواقع اما أصابها الخراب والدمار والا ندراس فلم يعد لها وجود، أو أنه أصاب اسماءها التحريف والتبديل أو أن النسخ اخطأوا في رسمها لسبب أو لآخر. والامكنة الحالية - بعد القسطل - المثبتة في الخرائط الاردنية، وهي : الجيزة «زيزياء» وهي احدى محطات القطار، وقريبة من القسطل، لذلك لا تصلح منزلا اذا اتخذت القسطل منزلا، وبعدها خربة أبو عليق وقلعة ضبعة وهي محطة قطار أيضاً، وكذلك خان الزبيب «قيال فرضا» بعدها، ثم رجم الكيال، والسويقة ومن ثم القطرانه، وهي من محطات القطار، وبعدها الرجم الأبيض ثم الحسا، وجرف الدراويش وبعده الدجينة ثم عنيزة ثم معان (١٢). والمسافة بين القسطل ومعان حوالي مائة وخمسة وسبعين كيلا، فيلزم ان يكون فيها من ثلاثة الى اربعة منازل. وقد كانت الجيزة «زيزياء» من المنازل المشهورة في العهد الأموي.

ذكر الطبري أن الوليد بن يزيد سنة ١٢٥هـ كان يطعم من صدر عن الحج بمنزل يقال له زيزياء ثلاثة أيام، و يعلف دوابهم، ولم يقل في شيء يسأله : لا، فقليل له : ان في ذلك قولك : انظر، عدة ما، يقيم عليها الطالب، فقال : لا أعود لساني شيئاً لم اعتده (١٣). ومن الجدير ذكره ان زيزياء تقع الى الغرب من قصر المشتى على الطريق بين عمان والقطرانه، في المنطقة التي تكثر فيها الآثار الاموية، وزيزياء احدى مواقع الآثار الاموية الماثلة للعيان، خصوصاً البركة الشبيهة ببركة الموقر (١٤). وذكر الطبري ما يفيد ان أبل وزيزياء والقسطل تقع على خط واحد (١٥). وعدم ذكر زيزياء من قبل الجغرافيين القدامى يدل على انها تراجعت بعد العهد الاموي، غير انها ما لبثت ان عاودت ازدهارها كمنزل للحجاج، فقد ذكرها ياقوت (١٦)، والصلاح الصفدي (١٧)، ومر بها ابن بطوطة في حجه عام ١٣٢٦ م (١٨)، مما يشير الى انها كانت مزدهرة في القرنين السابع والثامن الهجريين ثم تراجعت بعد ذلك لعدم ذكرها في مصادر القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وظلت مغمورة حتى بناء الخط الحديدي الحجازي في اواخر الحكم العثماني، فاصلحت بركتها واصبحت محطة على طريق القطار، والطريق المعبد الصحراوي.

٩١. معجم البلدان «بالعه».

٩٢. انظر هذه المواقع على الخرائط الاثرية للمملكة الاردنية الهاشمية ١ : ٢٥٠ ر. ٢٥٠، المركز الجغرافي الملكي الاردني ١٩٨٠.

٩٣. تاريخ، ج ٧، ص ٢١٧ - ٢١٨. تعرف الآن بـ «زيزياء» أو الجيزة، وسمتها المصادر زيزياء، وبركة زيزيي.

٩٤. فواز طوقان، الحائر، ص ١٢٢.

٩٥. تاريخ، ج ٣، ص ٢٨٩.

٩٦. معجم البلدان «زيزياء».

٩٧. الجزيري، الدرر، ج ٢، ص ١٢٥٦.

٩٨. تحفة النظار، ص ٧٧.

أما المقدسي فيذكر ان الطريق الى تبوك يبدأ من عمان، وبعد منهلين يصل الى معان ثم الى تبوك مثلهما ثم الى تيماء أربعاً ثم الى وادي القرى أربعاً (١٠١). والمنازل بعد معان او سرغ الى وادي القرى عند ابن خرداذبة (١٠٠) والحربي (١٠١)، وابن رسته (١٠٢)، وقدامة بن جعفر (١٠٣) هي: - تبوك - المحدثة - الاقرع - الجنينة - الحجر ومن ثم الى وادي القرى. ويذكر الادريسي نفس المنازل السابقة، الا انه حصل خطأ في ذكر البثنية بعد سرغ، وذكر دمة (دماً أو دمنة) بعدها (١٠٤)، وحصل عنده تحريف لاسم الجنينة فذكرت الحنيفية، وذلك ان البثنية هي اذرعان كما اسلفنا وذكر ذلك الادريسي نفسه (١٠٥). ويقول موسل أن دمة «دمنة» محلة عامرة يجب ان نجعل موضعها عند المنزل المعروف بذات الحج على مسافة أربعين كيلاً تقريباً الى الجنوب من سرغ، وبالقرب منها ينتهي شعيب دمنة الذي يأتي من العين المعروفة بالاسم نفسه. وهذا الترتيب الذي يبدأ بسرغ ثم دمنة يستقيم مع اسم المنزل الذي يذكر بعد ذلك وهو تبوك. وتختلف المنازل في المصادر المتأخرة كما هو بين في الملحق رقم (٥). ومنازل الطريق بين وادي القرى والمدينة المنورة عند ابن خرداذبة، والحربي وابن رسته والادريسي تكاد تكون متطابقة لولا أن الحربي يزيد في المنازل بعد وادي القرى منزلاً باسم «السقيا» ويذكر أن هذا الموقع مكان التقاء الطريق للحجاج المصري والشامي، ويسمى حمدا الجاسر في معجمه (١٠٦) بسقيا الجزل وهي سقيا يزيد، وهي جزء من وادي القرى، لان الأخير ليس علماً على مكان واحد، وإنما يدل على عدد من القرى المتناثرة على هذا الوادي (١٠٧). ويضيف الحربي أيضاً منزلاً آخر بعد السقيا اسمه «عتاب»، كذلك يضيف «الأراك» بعد السويداء. وطبقاً لما جاء عن ابن خرداذبة ومن تابعه تكون المنازل على النحو التالي: وادي القرى - الرحبية وهي عند ابن رسته «الرحبة» - ذو المروة - المر - السويداء - ذى خشب - المدينة. ولم يذكر قدامة بن جعفر مناظر بين وادي القرى والمدينة. و وادي القرى هو مجتمع الحجاج المصري والشامي (١٠٨)، ومن قصد الشام من المدينة على الطريق الداخلية لا بد من ان

٩٩. احسن التقاسيم، ص ٢٥٠.
 ١٠٠. المسالك والممالك، ص ١٥٠.
 ١٠١. المناسك، ص ٦٥٣.
 ١٠٢. الاعلاق النفيسة، ص ١٨٣.
 ١٠٣. الخراج، ص ٨٥.
 ١٠٤. نزهة المشتاق، الطبعة الايطالية، بريل ١٩٧٤م، ص ٣٧٦.
 ١٠٥. نزهة المشتاق، ص ٣٠.
 ١٠٦. المعجم الجغرافي، القسم الثاني (ح - ظ)، ص ٦٧٣. يذكر الجاسر بان هذه البلدة درست ويعرف موقعها الآن باسم (أم فقور).
 ١٠٧. انظر: ياقوت، معجم «وادي القرى».
 ١٠٨. Al-Wohaibi, p. 293.

يمر بوادي القرى، فقد ذكر الطبري انه عندما خرج محمد بن عبد الله في المدينة على الخليفة أبي جعفر المنصور، استشار هذا احد اصحابه حول خروج محمد بن عبد الله، فنصحه قائلاً: «ظهر حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع، ابعث مولى تثق به، فليسر حتى ينزل بوادي القرى، فيمنعه ميرة الشام، فيموت مكانه جوعاً» (١٠٩). ولما خرج ابو عبيدة والمسلمون الى الشام مروا بوادي القرى ثم أخذوا على الحجر أرض صالح النبي عليه السلام، ثم على ذات المنار، ثم على زيزاء، ثم ساروا الى مآب بمعان (١١٠). ووادي القرى مكان تردد ذكره في المصادر قبل الاسلام وبعده، وصالح الرسول صلى الله عليه وسلم أهل وادي القرى في عودته من تبوك في السنة التاسعة للهجرة (١١١) وذكر في الشعر كثيراً، ومما قيل فيه :

أبلغ أبا بكر اذا الامر انبرى وجازت الخيل على وادي القرى (١١٢)

ولم يذكر وكيع وادي القرى وانما ذكر بدله (السقيا) (١١٣) ثم بعدها «عتاب» التي جعلها الحربي ايضاً بعد وادي القرى. اما منازل اليعقوبي فهي: السقيا وذى المروة وذو خشب ثم المدينة (١١٤). وتتطابق المنازل عن ابن خرداذبة وابن رسته وكيع وقدامة والادريسي، بعد الرحبة «الرحبية» أي: ذى المروة، والمر، والسويداء وذى خشب، ولكن قدامة يسقط من قائمته منزل «المر» (١١٥) والحربي يجعل بعد السويداء منزلاً جديداً هو «الأراك» (١١٦).

وتذكر الرحبة والسقيا والجندل كمواقع متقاربة (١١٧)، والرحبة واد «فرتاح» الذي لا يزال معروفًا (١١٨). والمروه و«ذو المروة» مدينة لها شهرتها التاريخية، نقل السمهودي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بها حينما ذهب الى غزوة تبوك، ونقل عن ابن زبالة قول الرسول

١٠٩. تاريخ، ج ٧، ص ٥٧٨، وانظر ج ٥، ص ٤٨٥.

١١٠. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٧. ويبدو ان الناسخ اخطا حين ذكر مآب بمعان.

١١١. حمد الجاسر، الشعر في وصف منازل الحج، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

١١٢. ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٥٠. حمد الجاسر، الشعر، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

١١٣. بلدة كثيرة الآبار والعيون والبرك، وبنى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم مسجداً، وهي قرية من قرى وادي القرى، البكري، معجم، ج ٢، ص ٧٤٢ - ٧٤٣.

١١٤. البلدان، ص ٣٤١.

١١٥. الخراج، ص ٨٤.

١١٦. المناسك، ص ٦٤٩.

١١٧. البكري، معجم، ص ٢٨، ٦٤٤، ٧٩٣، ١٢٨١.

١١٨. لغدة الاصفهاني، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، ص ٦١. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: لغدة، بلاد العرب.

فيها: «اللهم بارك فيها من بلاد، واصرف عنهم الوباء، واطعمهم من الجني، اللهم اسقمهم الغيث، اللهم سلمهم من الحاج، وسلم الحاج منهم» (١١٩).

وتعد ذو المروة من وادي القرى والمسافة بينها وبين ينبع مرحلتان (١٢٠). وذكر الاسدي، أن المروة بعد وادي القرى بنحو ثلاث مراحل لجهة المدينة الشريفة (١٢١). وجعل الهمداني بين المدينة ووادي القرى خمس مراحل على طريق المروة (١٢٢). ومن المروة الى المدينة مرحلتان، السويداء وفيها الماء ثم المدينة (١٢٣). وإذا جاء حاج مصر والشام من السويداء الى المدينة مال الى «أوال» ثم خرجوا منها الى السیالة (١٢٤). وذو خشب واد على مرحلة من المدينة على طريق الشام (١٢٥). وكان به قصر لروان بن الحكم ومنازل لغير واحد، وبه نزل بنو أمية لما أخرجوا الى الشام قبيل وقعة الحرة (١٢٦).

والطريق من المدينة الى مكة عشر مراحل كما يقول اليعقوبي (١٢٧)، وأول مكان على هذا الطريق بعد المدينة يدعى الشجرة، وهو ليس بمنزل وإنما هو ميقات أهل المدينة للأحرام، على ست أميال من المدينة. وقد ذكرت المصادر المسافات بين المنازل ومصادر المياه فيها مما يشير الى وضوح أكثر لهذا الجزء من الطريق في المصادر الجغرافية الأولية.

ومنازل هذا الطريق طبقاً لما أورده ابن خرداذبه (١٢٨) هي: ملل - السیالة - الرويثة - السقيا - الأبواء - الجحفة - قديد - عسفان - بطن مرثم الى مكة. ويوافق ابن رسته ابن خرداذبة في تعداد المنازل وضبط أسمائها، غير أنه لم يذكر (ملل) بين المنازل (١٢٩)، كذلك تتطابق المنازل عند قدامة (١٣٠) مع ماورد عنه ابن خرداذبه. أما الحربي فيضيف المنازل

١١٩. السمهودي، نور الدين علي بن احمد (ت ١١١هـ/ ١٥٠٥م)، وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ١، بيروت، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧١م، ج ٢ ص ١٣٠٥. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: السمهودي، وفاء. وانظر: حمد الجاسر، بلاد ينبع، لمحات تاريخية، وانطباعات خاصة، ص ٢١٢. وسيشار اليه عند وروده فيما بعد هكذا: حمد الجاسر، بلاد ينبع.

١٢٠. حمد الجاسر، بلاد ينبع، ص ٢١٢. وانظر ياقوت، معجم «ذو المروة».

١٢١. السمهودي، وفاء، ص ١٣٠٥.

١٢٢. صفة جزيرة العرب، ٢٤٤.

١٢٣. صفة الجزيرة العرب ص ٢٤٤.

١٢٤. صفة جزيرة العرب ص ٢٤٤.

١٢٥. البكري، معجم، ج ١ ص ٥٠٠.

١٢٦. السمهودي، وفاء، ج ٢ ص ١٢٠١.

١٢٧. البلدان، ص ٣١٢.

١٢٨. المسالك، ص ١٣٠ - ١٣١.

١٢٩. الاعلاق النفيسة، ص ١٧٧ - ١٧٨.

١٣٠. الخراج، ص ٤٠.

التالية الى قائمة ابن خرداذبه : الروحاء بعد السيالة - والعرج بعد الرويثة، وأمج بعد قديد ثم سرف والتنعيم قبيل مكة (١٣١). وأضاف اليعقوبي ايضا الروحة (الروحاء) والعرج وجعل الرويثة بينهما (١٣٣). اما المقدسي فبدأ منازل الرويثة ثم الروحاء وبعدها العرج ثم سقيا بن غفار (السقيا)، وبعدها الابواء والجحفة ثم الخيم وبعدها خليص وأمج وبعدها عسفان وبطن المرثم الى مكة (١٣٣) ونلاحظ أن قوائم المنازل عند (١٣٤) الجغرافيين تزداد وتنقص و يعود ذلك الى حرص البعض على ايراد كل الأماكن التي يمر بها الحاج حتى وان لم تكن من المنازل كالمساجد والأماكن المقدسة أو مصادر المياه، وتمسك بعض الجغرافيين بذكر المنازل فقط. كما يجدر بنا أن ننوه بكثرة الطرق والأماكن حول مكة.

وقد ذكر السمهودي المساجد التالية على هذا النطاق : مسجد الشجرة (ذى الحليفة) والحليفة الميقات المدني ويعرف اليوم (ببئر علي) (١٣٥). ومنها مسجد المعرس، ثم مسجد شرف الروحاء وهو على ميلين من السيالة في رواية الأسدي (١٣٦). ثم مسجد عرق الظبية، وذكر الأسدي أنه يقع على تسعة أميال من السيالة (١٣٧)، ثم مسجد المنصرف الذي تغير اسمه الى مسجد الغزالة، وهو على ثلاثة أميال من الروحاء (١٣٨)، وبعده مسجد الرويثة، وبين الروحاء والرويثة ثلاثة عشر ميلا. وبعده مسجد ثنيه ركوبة ثم مسجد الأثاية، وبعده مسجد العرج، وبعده مسجد المنبجس ثم مسجد يحيى (لحي جمل) (١٣٩). والمنبجس وادي العرج (المدارج اليوم)، ومسجد (لحي الجمل) على ميل من الطلوب، والطلوب : بئر غليظة الماء بعد العرج بأحد عشر ميلا والسقيا بعد الطلوب بستة أميال وفيها مسجد (١٤٠). و بعد ذلك يذكر عدداً من المساجد منها مسجد الابواء، وذكر الاسدي في الابواء أبارا وبركا، وبعده مسجد يسمى بمسجد البيضة، ومسجد عقبة هرثى وهو على ثمانية أميال من الابواء، و بعد ذلك يذكر مسجد الجحفة، والجحفة بعد الابواء بثلاثة عشر ميلا، وفي الجحفة أبار وبرك وعيون (١٤١). ثم مسجد غدير خم - ربما حدث تحريف عند الجغرافيين فلفظوه الخيم - ثم

١٣١. المناسك، ص ٤٢٥ - ٤٦٨.

١٣٢. البلدان، ص ٣١٣.

١٣٣. احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٠٦.

١٣٤. انظر الملاحق.

١٣٥. السمهودي، وفاء الوفاء، ج ٢، ص ١٠٠٢.

١٣٦. السمهودي، وفاء الوفاء ص ١٠٠٧ - ١٠٠٨.

١٣٧. السمهودي، وفاء الوفاء ص ١٠٠٨ - ١٠٠٩.

١٣٨. السمهودي، وفاء الوفاء ص ١٠١٠.

١٣٩. انظر: وفاء الوفاء، ج ٢ ص ١٠١٠ - ١٠١٤.

١٤٠. السمهودي، وفاء الوفاء ص ١٠١٤ - ١٠١٥.

١٤١. السمهودي، وفاء الوفاء ص ١٠١٦ - ١٠١٧.

مسجد قديد، وخليص ثم مسجد مر الظهران. و يقول المطري: وممر الظهران هو بطن مر المعروف (١٤٢)، و يطلق عليه اليوم (وادي فاطمة) أحد اودية مكة الغنية. وقبل الدخول في مكة يأتي مسجد سرف على سبعة اميال من مر، وهو على قبر ميمونة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم مسجد التنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة اميال (١٤٣).

وتذكر المصادر الاولية طريقين رئيسيين من أيلة «العقبة» الى كل من المدينة ومكة. وأيلة احدى منازل الحج المصري والمغربي والشامي (١٤٤)، ذلك ان حجاج فلسطين ومن يردونها كانوا يمرّون بأيلة احيانا، ومن أيلة كان الركب يأخذ احد طريقين، اما الداخلية واما الساحلية. والاولى هي التي اطلقت عليها مصادرنا اسم التبوكية، والثانية هي المعرقة التي تتبع الساحل، وكانت قریش قبل الاسلام تسلك الطريقين، ورأينا في احداث معركة بدر كيف ان ابا سفيان تحول بالقافلة من الطريق الداخلية (التبوكية) الى الطريق الساحلية «المعركة» لينجو بالقافلة من اعتراض المسلمين.

وذكر ابن خرداذبة (١٤٥) خمسة عشر منزلا على الطريق الداخلي من أيلة الى المدينة هي: حقل - مدين، الاغراء - منزل - الكلابة - بدا - السرحتين - البيضا - وادي القرى - الرحيبة «الرحبة» - ذي المروة - المر - السوياء - ذي خشب - المدينة (١٤٦). اما وكيع فقد قدم بعض المنازل وأخر اخرى، فبدأ بشرف البعل ثم مدين - قالس - الاغراء - الكلابنة «الكلاب» - بدا - الشغب - السرحتين - السقيا ثم تتبع طريق الحجاج السوري الى عناب (عتاب) والمروة ثم المر والسوياء الى اراك أو (أوال) (١٤٧).

أما اليعقوبي فقد جعل بعد الاغراء: قالس وبعدها شغب، وجعل بعد بدا - السقيا ثم المروة وذي خشب (١٤٨).

وتطابق قائمة المنازل عند ابن رسته قائمة ابن خرداذبه، ما عدا البيضاء وحقل، فلم يذكرهما ابن رسته في قائمته (١٤٩)، وبدأ بشرف النمل «شرف البعل» التي جعلها معظم الجغرافيين المنزل الاول بعد أيلة.

١٤٢. السمهودي، وفاء الوفاء ص ١٠١٨ إلى ١٠١٩.

١٤٣. السمهودي، وفاء الوفاء ص ١٠٢٠.

١٤٤. المسالك، ص ٤٩.

١٤٥. Ibid, p. 327

١٤٦. Ibid

١٤٧. Ibid

١٤٨. البلدان، ص ٣٤١.

١٤٩. الأعلام النفيسة، ص ١٨٣.

أما الحربي فيرتب منازلها على النحو التالي : شرف البعل - مدين - قالس - الأغر - الكلابية - بدا - شغب - السرحتين - السقيا وبها يلتقي طريق الشام الداخلي مع الطريق المصري، والسقيا جزء من وادي القرى، ثم الى عتاب - المروة - المر - السويدياء وبعدها الأراك ثم الى ذي خشب والمدينة (١٥٠).

يبدأ قدامة قائمته بمنزل شرف ذي النمل «البعل» ثم يتابع ترتيب ابن خرداذبة الا انه يذكر منزل الكلابية بعد الأعراء مباشرة ثم يجعل بعدها شغب بني السرحتين، ثم يسقط بدا ويذكر بعد ذلك وادي القرى، ويتابع موافقا ابن خرداذبة دون ان يذكر منزل المر (١٥١).

وبدا المقدسي قائمته بشرف ذي النمل «البعل» ثم يطابق ترتيبه ما ورد عند ابن خرداذبة حتى وادي القرى (١٥٢). ويتابع بعد ذلك المقدسي منازل الطريق الساحلي، ويقول بأنه الطريق المستعمل اليوم. وبعدها يورد قائمة جديدة من المنازل للطريق الداخلي هي : شرف البعل - الصلا - النبك - ظبة - عونيد - الرحبة - منخوس - البحيرة - الاحساء - الاعراء - الكلابية - شغب - بدا - السرحتين - البيضاء - قرح - سقيا يزيد المدينة (١٥٣). وللبكري قائمة يبدأها بأنملة - حقل - وادي الغراب - وأشرف البعل - مدين - عينوته - النبك - الصلا - ظبة - بدا يعقوب - سقيا يزيد - ثم المروة - السويدياء - نقع ذو خشب (١٥٤).

والادريسي له قائمته الخاصة، الا انها وصلتنا مضطربة ومشوشة، اصابتها يد التحريف والتصحيف فهو يذكر : حقل ثم بعدها مدين ثم الاعراء بدلا من الأعراء ثم منزل والكلابية بدلا من الكلابية، وسعب بدلا من شغب ثم البيضاء ثم وادي القرى وبعدها الرحبية ثم ذو المروة وبعدها المر والسويدياء وذو خشب (١٥٥)

لم يذكر الاصطخري، وابن حوقل ترتيبا للمنازل بين أيلة والمدينة كما فعل من سبقهم، مع ان كلا منهما صرح بوجود مثل هذه القائمة. ويمكن جمع الكثير من المعلومات المتناثرة في ثنايا مؤلفيهما حول الموضوع. وقد اشارا الى ان حجاج المغرب ومصر وفلسطين يجتمعون في أيلة، ثم يأخذون الطريق الداخلي الى مدين وشغب وبدا والمروة الى المدينة، واثارا الى الطريق الساحلي وقالوا بأن الطريقين يلتقيان في الجحفة (١٥٦).

١٥٠. المناسك، ص ٦٤٩.

١٥١. الخراج، ص ٨٤.

١٥٢. حصل تحريف لأسماء المنازل عند المقدسي، فذكر الاعراء بدلا من الاعراء، والكلابية بدلا من الكلابية.

١٥٣. أحسن التقاسيم، ص ١٠٩ - ١١٠.

١٥٤. نقلا عن كتاب المسالك والممالك. انظر

Al-Wohaibi, *The northern*, p. 328.

١٥٥. نزهة المشتاق، النسخة الايطالية، بريل، ١٩٧٤، ص ٣٤٥.

١٥٦. Al-Wohaibi, p. 323.

ونذكر اليعقوبي ان الطريق الساحلي كان مستعملا في ايامه اي اواخر القرن التاسع الميلادي، ويبدو من حديثه ان الذين يريدون مكة دون المرور بالمدينة يفضلون الأخذ على ساحل البحر المالح، واعطى اليعقوبي اهمية اكثر للطريق الساحلي، ويظهر بأنه كان على ثقة اكبر بالمنازل التي يحددها هذا الطريق من تلك التي ذكرها على الطريق الداخلي. وجاء ترتيب المنازل عند وكيع على النحو التالي: عينونا «عينونه» - المصلى «الصلا» - النل «النبك» - طيبة (ظبة) - المدة - عيوند «عونيد» - الرجة القصيبة «الوجه» - منخوس - الحوراء - قصيبة - البحرة - يلبا «ينبع» - (مسئولان) - الجار - المدينة (١٥٧).

واذا تجاوزنا مالحق أسماء بعض المواقع من تحريف، فان هذه المواقع معروفة باستثناء «مسئولان» الذي ذكره قدامة ايضاً بعد ينبع (١٥٨).

ويبدو لي ان قائمة الحربي اكثر دقة ووضوحا، ان سلمت من التحريف الذي لحق بقائمة وكيع، مع انها تكاد تطابق منازل وكيع. وهي عند الحربي: عينونا - المصلى - النبك - ظبة - المرة - الوجه - منخوس - الحوراء - قصيبة - البحرة - ينبع (..) ثم الى الجار وبعدها المدينة. وعلى ضوء قائمة الحربي يمكننا تخلص قائمة وكيع مما لحقها من تحريف (١٥٩). ولم نهتد الى ضبط او تحديد المنزل الذي ورد عند وكيع وقدامة باسم «ماسولان أو مسئولان»؟

ان قائمة قدامة قريبة من قائمة الحربي باستثناء ابتداء قدامة بمنزل شرف البعل بدلا من عينونا «عينونة» ولم يذكر منزل المره، وازفاد منزلا جديدا بعد منخوس اطلق عليه اسم «التحريم» ولا شك انه اسم محرف، وبعد ذلك يذكر الاحساء ثم ينبع ومسئولان والجار ثم المدينة (١٦٠). اما قائمة المقدسي فقريبة من قائمة قدامة، والمقدسي يسمى أيلة «ويلة» ويسمى شرف البعل، شرف ذو النمل، وتقابل الوجه، الرحبة عند المقدسي، وجعل البحرة بعد منخوس، ثم ذكر الحسا وبعدها العشيرة ثم الجار فبدر ثم المدينة (١٦١). و يختصر الادريسي عدد المنازل الى مكة ثم يستأنف تعداد منازل طريق المدينة، فأما منازلها الى مكة فهي: الحقل - مدين - الحوراء - الجار - قديد - عسفان - بطن المر - مكة. ومنازله الى المدينة: عو يند - صبة - العطوف - الحوراء - وادي السرف - القريفة - الجار - المدينة (١٦٢).

١٥٧. Al-Wohaibi, p. 335-336.

١٥٨. الخراج، ص ٨٥.

١٥٩. ضبطنا اسماء المنازل التي حرفت عند وكيع ووضعناها داخل اقواس صغيرة، كما لم يذكر اسم منزل عند ابن خردادبه فتركناه فراغا داخل معقوفتين.

١٦٠. الخراج، ص ٨٤.

١٦١. احسن التقاسيم، ص ١٠٩.

١٦٢. نزهة المشتاق، ص ٢٠، ٣٤٥.

وانظر: Al-Wohaibi, p. 335-336.

وانظر الملاحق.

نكتفي بما ذكرناه عن دروب الحجاز، ولم يتعرض البحث الى التفصيلات والتحقيقات الواسعة للمنازل وما تشتمل عليه من مياه وأثار، وما بينها من مسافات، وما كان يكابده الحاج من صعوبات في الصحارى والمفايزات. وذلك لان هذه المنطقة حظيت وتحظى بدراسات جادة من قبل المستشرقين والرحالة، وتحظى الان بعناية ابناء البلاد المختصين من امثال الشيخ حمد الجاسر، واساتذه التاريخ والاثار في الجامعات السعودية، وفي أقسام الآثار المختلفة. وهذه المكانة التي حظيت وتحظى بها منطقة الحجاز، تعود الى أهمية موقعها كحلقة وصل على الطرق العالمية القديمة، ومن كونها قبلة المسلمين ومحجهم، تهفو لزيارتها قلوب الملايين من المسلمين مصداقا لقوله تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام: «ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» (١٦٣). صدق الله العظيم.

ملحق (١)

منازل الحج الشامي عند الجغرافيين العرب الاوائل من دمشق الى المدينة المنورة

ابن خرداذبه	الحربي	ابن رسته	قدامة بن جعفر	المقدسي	الادريسي
دمشق	دمشق	دمشق	دمشق	دمشق	دمشق
منزل	الصنمين	منزل			منزل (الكسوة)
منزل		منزل			منزل (دعه) أزرع
ذات المنازل	أذرعات	ذات المنازل	ذات المنازل		ذات المنازل
	الزرقاء			عمان	(ينوع) ينبع
سرغ	القسطل	سرغ	سرغ		البثنية
	قبال				دمه
تبوك	بالعة	تبوك	تبوك	معان	تبوك
المحدثه	الحفير	المحدثه	المحدثه		المحدثه
الاقرع	معان	الأقرع	الأقرع	تبوك	الاقرع
	ذات المثار				
الجنيبة	المغيثة	الجنيبة	الجنيبة	تيماء	الحنيفية
الحجر	سرغ	الحجر	الحجر		الحجر
	تبوك				وادي (القرى)
وادي القرى	المحدثه	وادي القرى	وادي القرى		الرحبة
الرحبية	الاقرع	الرحبة			ذي المروة
ذى المروة	الجنيبة	ذى المروة			المر
المر	الحجر	المر			السويداء
السويداء	وادي القرى	السويداء			ذي خشب
دي خشب	السقيا	ذي خشب			المدينة «يثرب»
المدينة	عتاب	المدينة			
		المدينة	المدينة		
	المروة				
	المر				
	السويداء				
	الاراك				
	ذى خشب				
	المدينة				

ملحق (٢)

منازل الطريق من المدينة الى مكة عند الجغرافيين الاوائل مع ذكر المسافات بالاميال

ابن خرداذبة	اليعقوبي	الحرابي	ابن رسته	قدامة
الشجرة	ذو الحليفة ٤	ذو الحليفة ٥	الشجرة ٦	الشجرة ٦
ملك ١٢	الحفيرة	الحفير ٦	السيالة ٣١	ملك ١٢
السيالة ١٩	ملك	ملك ٦	الروثة ٣٤	السيالة ١٩
الروثة ٣٤	السيالة	السيالة ٧	العرج =	الروثة ٣٤
السقيا ٣٦	الروحة	الروحاء ١١	السقيا ٣٦	السقيا ٣٦
الابواء ٢٩	الروثة	الروثة ١٣	الابواء ١١	الابواء ٢٩
الجحفة ٢٧	العرج	العرج ١٤	الجحفة ٢٧	الجحفة ٢٧
قديد ٢٧	سيقا بني غفار	السقيا ١٧	قديد ٢٩	قديد ٢٦
عسفان ٢٤	الابواء	الابواء ١٧	عسفان ٢٤	عسفان ٢٤
بطن مر ٣٣	الجحفة	الجحفة ٢٣	بطن مر ٣٤	بطن مر ١٦
١٦ مكة	قديد	قديد ٢٤	١٦ مكة	١٦ مكة
	عسفان	أمج		
	مر الظهران	عسفان ٢٣		
	مكة	بطن مر ٢٤		
		سرف ٧		
		التنعيم -		
		١٣ مكة		

ملحق (٢)

الهمداني	المقدسي	الادريسي	الاسدي كما جاء عند السمهودي	البكري
السيالة ٢٣	رويته	الشجرة	الشجرة ٥	ذو الحليفة ٦
الروحاء ٢٤	الروحاء	ملك ١٢	(مجموعة مساجد)	
الروثة ١٣	العرج	السيالة ١٧	الحفيرة	الحفير ٨
العرج ٢٤	سيقا بني غفار	الروثة ٣٤	ملك	ملك ٨
السقيا ٢٤	الابواء	السقيا ٣٦	السيالة ٧	السيالة ٧
			الروحاء ١١	الروحاء ١١

الروثة ٢٤	الروثة ١٣	الابواء ٢٧	الجحفة	الابواء ١٩
الأثاية ١٢	الجي	الجحفة ٢٧	الخيم	الجحفة ٢٣
العرج ٢	العرج ١١	قديد ٢٦	خليص	قديد ٢٤
الطلوب -				
القاحة ٦	السقيا ١٧	عسفان ٢٤	عسفان	عسفان ٢٣
السقيا ١	الابواء ٢١	بطن مر ٣٣	بطن مر	مر الظهران ٢٣
تیهان ٣	الجحفة ١٣	مكة ١٦	مكة	مكة ١٣
ابواء ١٦	قديد ٢٤			
الجحفة ٢٣	خليص ٧			
الكلابية ١٢				
المشلل ٩	بطن مر الظهران ٣٧			
قديد ٣				
خليص ٧	مكة ١٧			
أمج ٢				
الروضة ٤				
قديد ٢				
وادي غزال ٥				
عسفان ١				
الجنابذ ٥				
بئر العدني ٢				
كورا الغميم ١				
بطن مر ١٥				
سرف ٧				
مكة ٦				

ملحق (٣)

الطريق الداخلية من أيلة «العقبة» الى المدينة

ابن خرداذبة	اليعقوبي	الحربي	ابن رسته	وكيع
حقل	شرف البعل	شرف البعل	شرف النمل	شرف البعل
مدين	مدين	مدين	مدين	مدين
الأغراء	الأغراء	فالس	الأغراء	قالس
منزل	قالس	الأغر	منزل	الار (الاکر)
الكلابة	شغب	الكلابية	الكلابة	الكلانبه (الكلابيه)
شغب	بدأ	بدأ	شغب	بدأ
بدأ	السقيا	شغب	بدأ	الشغب
السرحتين	ذو المروة	السرحتين	سرحتين	السرحتين

البيضاء	ذو خشب	السقيا	البيضاء	السيفيه (السقيا)
وادي القرى	المدينة	عتاب	وادي القرى	عتاب
الرحبية	المر	المر	الرحبه	المروة
ذى المروة	السويداء	السويداء	ذى المروة	المر
المر	الاراك	الاراك	المر	السويداء
السويداء	ذى خشب	ذى خشب	السويداء	الاراك (اوال)
ذى خشب	المدينة	المدينة	ذى خشب	
المدينة			المدينة	

قدامة	المقدسي	البكري	الادريسي
شرف ذى النمل	شرف البعل	أنملة	حقل
مدين	الصلاح	حقل	مدين
الاعراء	النبك	وادي الغراب	الاعراء
منزل الكلابة	ضبة	شرف البعل	منزل
شعب بني السرحتين	عونيد	مدين	الكلابة
البيضاء	الرحبة	عينونه	شعب
وادي القرى	منخوس	النبك	البيضاء
الرحبية	البحيرة	(الصلاح)	وادي القرى
ذو المروة	الاحساء	ضبة	الرحبية
السويداء	الاعراء	بدا يعقوب	ذى المروة
خشب	الكلابة	سقيا يزيد	مر
المدينة	شغب	المروة	السويداء
	بدا	السويداء	ذى خشب
	السرحتين	نقع ذو خشب	المدينة
	البيضاء		
	قرح		
	سقيا يزيد		

ملحق (٤) الطريق الساحلي من أيلة الى المدينة

اليعقوبي	الحربي	وكيع	قدامة	المقدسي	الادريسي
شرف البعل	عينونا	عينونا (عينونه)	شرف البعل	شرف البعل	الحقل
مدين	المصلي	المصلي (الصلاح)	الصلاح	الصلاح	مدين
عينونا	النبك	النيل (النبك)	النبك	النبك	الحوراء
العونيد	ظبة	طبية (ظبة)	ظبة	ضبه	الجار
الصلاح	المره	المده (المره)	عونيد	عونيد	كديد
النبك	عونيد	عونيد (عو يند)	الوجه	الرحبه	عسفان

القصبية	الوجه	الرجه القصيبة	منخوس	منخوس	منخوس	بطن مر
البحره	منخوس	(الوجه)	الجره	البحيره	مكه	
المغيثه	الخوراء	منخوس	الاحساء	الاحساء	(٢)	
ظبه	قصبية	الخوراء	ينبع	الأعراء	أيلة	
الوجه	البحره	قصبية	مسئولان	العشيره	عونيد	
منخوس	ينبع	البحره	الجار	الكلابه	ضبه	
خوراء	(٠٠)	يلبا (ينبع)	المدينة	شغب	العطوف	
الجار	الجار	مسئولان		بدا	الخوراء	
الجحفة		الجار		السرحتين	وادي السرف	
قديد	عمقه (٤)	المدينة		البيضاء	القريفة	
عسفان	الكن (٤)			فرح	الجار	
بطن مر	المدينة			سقيا يزيد		
مكه						

ملحق (٥)

طريق الحج الشامي عند بعض المتأخرين من دمشق والى المدينة ومكة

ابن فضل الله العمري	الصلاح الصفدي	ابن بطوطة	الجزيري
ت ١٣٤٩/٧٤٩ م	ت ١٣٦٢/٧٦٤ م	ت ١٣٧٧/٧٩٧ م	ت ٩١١-٩٧٧ هـ / ١٥٠٥-١٥٦٩ م
دمشق	دمشق	دمشق	دمشق
الكسوة	قلعه يلغا	زرعه (ازرع)	الكسوة
الصنمين	الكسوة	بصرى	الصنمين
زرع	الصنمين	بركة زيبي	درعا
بصرى	المليحة	اللجون	بصرى
الزرقاء	بصرى	حصن الكرك	الزرقاء
معان	رأس وادي عنتر	معان	زيزاء
عقبة الصوان	الازرق	ذات حج	الكرك
ذات حج	زيزا	تبوك	الثنية
تبوك	الكرك	الاخيضر	الحسا
العلا	الحسا عقبة الصوان	بركة المعظم	معان
هدبه		بئر الحجر	العقبة (عقبة الصوان)
عيون حمزه	القطرانه	العلا	
المدينة	معان	العطاس	ذات الحج
ذى الحليفة	تبوك	هديه	تبوك
بئر علي	المفازه	المدينة المنورة	المفازة العظمى
الصفراء	العلا	الروحاء	العلا
بدر	وادي الاخيضر	الصفراء	الاخيضر

بركة المعظم	بدر	هديه	مكة
سيل الصافي	رايغ	عيون حمزه	
الخبيب	خليص	المدينة	
فويق	عسفان	ذى الحليفه	
العلا	بطن مر	الصفراء	
هديه	مكة المكرمة	بدر	
اكرى		مكة	
عيون حمزه			
العقبة السوداء			
وادي العظام			
أرض النخلتين			
ذى الحليفه			
بئر علي			
العقيق			
الصفراء			
بدر			
ثم يلاقى الطريق			
المصرية			

يتبع

رواية الجزيري عن مقدم الحج الشامي في ايامه

دمشق	وادي العقيق
قبة يلغا	أبار حمزه
قبة الحج	عيون حمزه
جسر الكسوه	المدينة المنوره
خان ذى النون	أبار علي
كنيبه	ذو الحليفه
المزيريب	قبور الشهداء
أذرعات	الجديده
خان المفرق	بدر وحنين
الزرقاء	قاع البزوه
رأس بلاطه	البزواء
خان قياد	رابغ
خان القطراني	طارق قديد
اللجون	خليص
الكرك	وادي المنحنا
الحسا	وادي الزاهر

خان عنيزه
معان
عقبة الصوان
الطبيليه
ذات حج
قاع بسيطه
بركة تبوك
عقبة الاخضر
أبي خبيب
بركة المعظم
الاقيرع
شق العجوز
ابيار الحجر
مدائن صالح
العلا
مطارين
شعب النعام
هديه
الفحلتين
نقب علي
وادي القرى

يتبع ملحق (٥)

الطريق من أيله الى مكه
-رواية الجزيري

محمد عبد الله «كبريت»
(ت ١٠١٢ - ١٠٧٠هـ /
١٦٠٣ - ١٦٥٩م)
عبد الغني النابلسي
(ت ١١٤٣ / ١٧٣١م)

دمشق	دمشق	حقل
الكسوه	الكسوه	مدین
خان الكشك	الصنمين	عيون القصب
وعرة الغباغب	المزيريب	النبك
قرية الكتيبه	وادي القديم (الفيدين)	المويلحه
قلعة المزيريب	الزرقاء	الازلّم
الرمثا	البلقاء	الوجه
المفرق	القطراني	اكرى
الزرقاء	الحساء	الحوراء
القلايات	عنيزه	نبط
البلقاء	معان	ينبع
	عقبة الصوان	الدھنا

وادي النسور	عبادان	بدر
قلعة القطرانه	الطيبليات	الجار
الحسا	بطن الغول	رابع
عزّه	قاع البسيطة (العرائد)	الجحفة
عقبة الحلاوة	تبوك	خليص
جخيمات	المعز	بطن (مر)
قلعة معان	الاخضر	عسفان
ذات صبح	الاقيرع	بطن مكة
الزلاقات	الميرك	
القاع	مدائن صالح (الحجر)	
الارحاء	العلا	
قلعة تبوك	أبار الفقير	
مغاير شعيب	بئر الزمرد	
الأخضر (الأخضر)	شعب النعام	
جنابن القاضي	ذى الحليفة	
قلعة المعظم	خيف	
الاقيرع	رابع	
أبار ثمود (مدائن صالح)	قديد	
شعيب النعام	خليص	
بئر الزمرد	عسفان	
بئر الجديد	البرقاء	
دار الظرافة	مكة	
هدبة		
العقبة السوداء		
الفحلتين		
واد القرى		
الجرف		
المدينة		

الافاريز الرخامية المحفورة والمذهبة في العهد الاموي في قبة الصخرة المشرفة في القدس

مروان ابو خلف

تعتبر قبة الصخرة المشرفة في القدس من أقدم وأجمل الابنية التي خلفتها الحضارة الاسلامية. وقد أنشأها الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ/٦٩١م، وذكرت بعض المصادر التاريخية أن الخليفة قد صرف على بنائها خراج مصر لسبع سنوات^(١).

إن الشكل المعماري الذي بني على أساسه هذا البناء هو المثلث وهو من النماذج الفريدة في تاريخ العمارة الاسلامية. يتألف في تخطيطه من مثلث خارجي وآخر داخلي ومن ثم دائرة تتوسط البناء. والمثلث الخارجي عبارة عن جدران مغلقة عليه أربعة أبواب تقع في الجهات الموازية للاتجاهات الاربعة. وعلى كل ضلع من أضلاع المثلث سبعة شبابيك: يلاحظ أن الاثنين منها الواقعين على طرفي كل ضلع من أضلاع البناء مغلقان. أما المثلث الداخلي فهو عبارة عن عقود تقوم على دعائم وأعمدة تحمل السقف الموجود بين المثلث الخارجي والقبة. ثم تأتي الدائرة التي تتوسط البناء والتي تتكون من أعمدة ودعامات ترتكز عليها القبة.

إن أهمية قبة الصخرة منذ بنائها جعلتها محط الانظار، ووصفها الكثيرون من المؤرخين، وذكرها الرحالة في أسفارهم. وقد أجري حديثاً العديد من الدراسات على هذا البناء من الناحيتين المعمارية والفنية^(٢)، الا انه على الرغم من هذه الدراسات فانه لا يزال هنالك الكثير لم يدرس بعد، وإن ما تمت دراسته أصبح بحاجة إلى توجه أكثر عمقاً وذلك تبعاً للمعطيات والاكتشافات الجديدة.

من أهم المعالم التي تلفت النظر في قبة الصخرة المشرفة الافاريز الرخامية المحفورة والمذهبة. تتشكل هذه الافاريز من ألواح رخامية ذات أطوال مختلفة، وعرض ٦٢سم، وسمك ٢ سم، موضوعة بجانب بعضها بعضاً وهي منتشرة في أماكن متعددة داخل قبة

١ - مجير الدين الحنبلي. الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ١-٢، ص ٢٤١ مطبعة بولاق ١٨٦٦-١٨٦٧.

٢ - Creswell, K.A.C. 1969. Early Muslim Architecture. Vol I. Part I, Oxford; Richmond, E.T. 1925. The Dome of the Rock in Jerusalem. A description of its structure and decoration, Oxford; Berchem, M.V. 1920-1927. Matériaux pour un Corpus Inscriptienuum Arabicarum, Syrie du Sud, Jerusalem, Part II, Le Caire.

الصخرة. أهم هذه الأفاريز هي تلك التي تحيط بجدار المئمن الخارجي من الجهة الداخلية، وهي على ارتفاع يتساوى مع ارتفاع عتبات الأبواب، وهناك ألواح تعلو عتبات الأبواب، ومن ثم أفاريز أخرى تحيط بالجزء العلوي من الدعامات التي تحمل المئمن الداخلي وتلك التي تحمل القبة، هذا بالإضافة إلى أفاريز أخرى موجودة في رقبة القبة.

من خلال البحث في دراسة المعالم الزخرفية داخل قبة الصخرة وجدنا أن هذه الأفاريز لم تدرس بعد، وأن الإشارة إليها كانت من خلال نشر صور بعض الألواح في كتاب كريسيويل وأخرى في كتاب لفان بيرشيم^(٣)، بالإضافة إلى دراسة صغيرة حول التكنيك المستخدم في مثل هذا النوع من الزخارف المعمارية كتبتها مريم روزن أيلون من الجامعة العبرية في القدس^(٤).

بعد دراسة العناصر الزخرفية التي تغطي هذه الأفاريز وجدنا أنها تمثل عدة أساليب زخرفية، والأسلوب الزخرفي نعني به هنا المزج بين العناصر الزخرفية على كل لوح بحيث تظهر مختلفة بين لوح وآخر. وسوف تتناول هذه الدراسة البحث في بعض الأساليب التي تزخرف هذه الأفاريز، ومعرفة العناصر الزخرفية التي تتشكل منها، ومقارنتها مع عناصر زخرفية أخرى سابقة عليها ومعاصرة لها. كما سنتناول هذه الدراسة أيضاً التكنيك المستخدم في زخرفة هذه الأفاريز وفي عملها.

الأساليب الزخرفية

توجد العناصر الزخرفية التي تمثل هذه الأساليب بشكل عام داخل محاريب، مرتبة بشكل مزدوج، ونعني بذلك أن كل ضلع من أضلاع المئمن يبدأ بأسلوبين زخرفيين مختلفين، بحيث يتكرر هذان الأسلوبان على طول الضلع. هذا باستثناء الأفاريز الموجودة على الأضلاع الغربية والجنوبية الغربية، والجنوبية من المئمن فإنها توجد داخل أشكال هندسية قوامها دوائر ومسططيات. كذلك فإن الأفاريز التي في رقبة القبة وفي أعلى الدعامات التي تحمل تلك الرقبة هي عبارة عن أشكال لولبية.

فبالأسلوب الزخرفي الذي يزخرف الأضلاع الجنوبية والغربية من المئمن، يتألف من جزئين: الجزء الأول عبارة عن دائرتين متداخلتين (Medallion) غطيت المساحة الموجودة

٢ - Creswell, 1969. Figs 189-190; Berchem; M.G.V. 1978. La Jerusalem Musulmane dans l'oeuvre de Max Van Berchem. p. 54. Geneve.

٤ - Rosen - Ayalon, M. 1974. Notes on a Particular Technique of Architectural Decoration. I.E.J. Vol 9, No 3-4, pp

بينهما بأوراق نباتية قلبية الشكل، وفي داخل الدائرة الداخلية أشكال قلبية أخرى أكبر حجماً من السابقة التي بداخل كل منها ورقة نباتية ذات خمسة فصوص حول دائرة صغيرة في الوسط بداخلها زهرة ذات ثمانية فصوص. أما الجزء الثاني فإنه مكون من أنصاف أوراق نخيل ذات خمسة فصوص موضوعة بشكل أفقي فوق بعضها بعضاً، وتصل بينها أوراق عنب خماسية الفصوص، بعضها موضوع داخل شكل قلب. الاطار الخارجي الذي يحيط بجزئي هذا الأسلوب الزخرفي مزخرف بأوراق صغيرة ذات ثلاثة فصوص (لوحة ١١).

يتشكل على الضلع الجنوبي الشرقي للمثمن كل من الأسلوبين من محراب ذي عقد نصف دائري مكون من خطين زخرفت المساحة التي بينهما بأشكال لولبية ينتهي كل منها بورقة عنب ذات ثلاثة فصوص أو خمسة. ويقوم العقد على عمودين أو دعامتين محفور على كل منهما زخرفة على شكل معين، يتوسط شكل زهرة. أما تاج الدعامة فهو عبارة عن نصفي ورقة نخيل موضوعين بشكل متعاكس وبينهما ورقة عنب خماسية الفصوص توصل بين فرعيها.

الأسلوب الأول على هذا الضلع مكون من وحدة زخرفية هي عبارة عن نصفي ورقة نخيل يخرجان من ساق نباتي بشكل متعاكس باتجاه الأعلى، حيث تفصل بينهما فروع وأوراق نباتية تنتهي في الأعلى بعنصر زخرفي على شكل كأس زهرة قوامه نصفاً ورقة نخيل متقابلان تحيط بها من الجانبين فروع على شكل حرف (S) بالانجليزية وعلى كل جانب ورقة نباتية خماسية الفصوص.

الأسلوب الثاني هو عبارة عن وحدة زخرفية مكونة من ساق نباتي في الوسط تخرج منه في الجزء الأسفل وباتجاهين متعاكسين فروع نباتية تشكل أشكالاً لولبية ينتهي كل منهما بقطف عنب كروي الشكل. وتقف خارج هذه اللولبيات وباتجاه الأعلى أوراق عنب خماسية. أما الساق الوسطى فإنها تنتهي في أعلى المحراب بشكل مجنح، مكون من جناحين يقف بينهما شكل زهرة مكون من نصفي ورقة نخيل (لوحة ١ ب).

أما تلك التي تزخرف الضلع الشرقي من المثمن فإن عقود محاريبها مزخرفة بأوراق قلبية الشكل محددة في بدايتها ونهايتها بأشكال دائرية تشبه حبات الخرز، وترتكز على أعمدة ضخمة ليس عليها أية زخرفة. وتاج العمود مكون من نصفي ورقة نخيل مسننين ومتلاصقين بشكل متعاكس. وعلى هذا الضلع بالذات ثلاثة أساليب وليس اثنان كما هي الحال بالنسبة لباقي الأضلاع.

الأسلوب الأول على أفريز هذا الضلع مكون من وحدة زخرفية قوامها ساق نباتية فى الوسط، تخرج منها فروع نباتية فى اتجاهين متعاكسين مكونة أشكالاً نصف لولبية، ينتهى كل منها بنصف ورقة نخيل، وتستمر الساق فى الوسط بالاتجاه نحو الأعلى حيث تلتف عليها بعض العناصر النباتية ثم شكل دائرى يشبه الروابط النباتية التى ظهرت على الألواح الخشبية للمسجد الأقصى، حيث يخرج منه فرعان آخران كل منهما يسير بعكس الآخر، وينتهى بنصف ورقة نخيل متجه نحو الأسفل، يعلوه نصف ورقة أخرى أصغر حجماً متجهاً نحو الأعلى. بين هذه الأوراق تنتهى الساق بورقة نباتية ثلاثية الفصوص تعرف بزهرة الزنبق أو حسب رأى Hamilton بـ fleur de lis يلف عليها شكل نصف دائرى موضوعة عليه بشكل منتظم حبات رمان صغيرة مكونة ما يشبه التاج.

الأسلوب الثانى على هذا الضلع يتوسطه من الأسفل زهرية ذات بدن كروي، ورقبة قصيرة وقاعدة مدورة. ويخرج من الزهرية فرعان نباتيان يسيران باتجاهين متعاكسين ويخرج من كل منهما نصف ورقة نخيل متجهة نحو الأسفل تملأ الفراغ الموجود على طرفى الزهرية، وينتهى كل فرع من الفرعين فى الوسط بنصف ورقة نخيل موضوع بشكل أفقى. وفى الوسط بين الأوراق الأفقية هناك ساق نباتية يقف عليها جرة ذات بدن مضلع، يخرج منها أيضاً فرعان نباتيان متعاكسان.

ينتهى كل منها بنصف ورقة نخيل متجه نحو الأسفل ويقف بين فرعيها فى أعلى الوحدة الزخرفية عنصر زخرفى إما على شكل جرة صغيرة أو حبة رمان.

الأسلوب الثالث على هذا الضلع يشبه إلى حد ما الأسلوب السابق فى جزئه العلوى. أما الجزء الأسفل فانه مكون من أشكال لولبية بعضها ينتهى بورقة عنب خماسية الفصوص بوسطها ورقة صغيرة قلبية الشكل، وبعضها الآخر ينتهى بنصف ورقة نخيل (لوحة ١٢؛ ب٢).

على الضلع الشمالى الشرقى تظهر الأساليب الزخرفية بوضع مختلف عن السابق حيث إن العقود مزخرفة بأوراق نباتية ذات ثلاثة فصوص وتقف على أعمدة مزخرفة بحزوز متموجة.

الأسلوب الأول يتكون من ساق فى الوسط، تخرج منها سيقان نباتية تسير باتجاهين متعاكسين مكونة بذلك أشكالاً لولبية كل منها ينتهى بنصف ورقة نخيل متجه نحو الأسفل وورقة نباتية ثلاثية الفصوص. فى الوسط بين الأشكال اللولبية تستمر الساق فى الصعود وتظهر فى جزئها العلوى ورقة نباتية خماسية الفصوص. يعلوه هذه الورقة جرة

صغيرة يخرج منها فرعان نباتيان باتجاهين متعاكسين مكونين بذلك أشكالاً لولبية أخرى في الجزء العلوي ينتهي كل منها بنصف ورقة نخيل وقطف عنب وتنتهي الساق النباتية في الأعلى بورقة عنب خماسية الفصوص.

الأسلوب الثاني، على هذا الضلع، مكون من ساق نباتية في الوسط يخرج منه فرعان باتجاهين متعاكسين ينتهي كل منهما بنصف ورقة نخيل ثلاثية الفصوص متجه نحو الأعلى. تستمر الساق بالصعود من خلال رابط نباتي دائري الشكل تعلوه حبات من الخرز مثقوبة الوسط. ويخرج في الجزء العلوي فرعان باتجاهين متعاكسين، بحيث ينزل منهما عند بداية خروجهما في كل جهة نصف ورقة نخيل متجه نحو الأسفل وفصوصه باتجاه الساق الوسطى. وينتهي الفرعان في الأعلى مكونين أشكالاً لولبية ينتهي كل منها بورقة عنب خماسية الفصوص متصلة ببعضها برابط نباتي دائري يشبه بذلك ما وجد على الألواح المزخرفة التي أنزلت من سقف المسجد الأقصى (لوحة ١٣).

أما الأساليب الزخرفية الموجودة على الضلع الشمالي فهي تختلف قليلاً عن السابقة وذلك أن زخرفة العقود عبارة عن أشكال لولبية ينتهي كل منها بورقة عنب خماسية الفصوص. وترتكز العقود على أعمدة عليها زخرفة بشكل المستطيل، أما تيجان الأعمدة فإنها عبارة عن نصفي ورقة نخيل موضوعين بشكل متعاكس وفروعهما متلاصقة في الوسط.

الأسلوب الأول على هذا الضلع مكون من ساق نباتية ذات عدة فروع تقف على الجزء الأسفل من الوحدة الزخرفية. تمر الساق باتجاه الأعلى من خلال شكل كروي صغير هو عبارة عن شكل خرزة عليها شكل عين يعلوه عقده أو رابط نباتي يخرج منه فرعان نباتيان باتجاهين متعاكسين ينتهي كل منهما بنصف ورقة نخيل متجه نحو الأسفل وفصوصه نحو الداخل متقابلة مع الساق النباتية. يعلو هذا الجزء الزخرفي عنصر زخرفي هو عبارة عن ورقة نخيل كاملة موضوعة بشكل مقلوب حيث يتصل الجزء الأوسط منها مع الساق بواسطة عنصر صغير مثلث الشكل. أما وضع هذا العنصر الزخرفي بشكل مقلوب، فمن المحتمل ان يكون الفنان قد استوحاه من شكل الصدفة أو المحارة المستعملة في كثير من الأحيان في الزخارف الاسلامية وغير الاسلامية.

الأسلوب الثاني على هذا الضلع يتكون أيضاً من ساق نباتية في الوسط تخرج منها عدة فروع تقف على الجزء الأسفل من الوحدة الزخرفية، ويخرج من الساق نصفاً ورقة نخيل باتجاهين متعاكسين، يتجهان نحو الأعلى وفصوصهما نحو الداخل. ويعلو الساق في الوسط ورقة عنب خماسية الفصوص حيث يعلوها مباشرة ورقة نخيل مقسومة إلى

نصفين متساويين يتوسطها كأس ممتلئ بالأوراق النباتية، تشبه تلك الموجودة على أخشاب المسجد الأقصى^(٥). (لوحة ٣ ب).

الضلع الشمالي الغربي للمثمن مزخرف بأسلوبين أيضاً. العقود مزخرفة بأشكال قلبية بداخلها أوراق ثلاثية الفصوص. وتقف العقود على أعمدة مزخرفة بحزوز مموجة، والتاج عبارة عن نصفي ورقة نخيل موضوعين بشكل متعاكس وملتصقي الفروع.

الأسلوب الأول، على هذا الضلع عبارة عن وحدة زخرفية مكونة من أمفورا Am-phora تقف في الجزء الأسفل على أوراق نباتية تخرج منها في الاتجاهين أوراق نباتية متعددة الأشكال. ويخرج من فوهة الأمفورا نصفاً ورقية نخيل متجهان نحو الأسفل وفصوصهما نحو الداخل باتجاه جسم الأمفورا. كما تخرج من فروع نصفي ورقة النخيل فروع أخرى وبالاتجاهين أوراق نباتية طولية ذات خمسة فصوص وأوراق بيضاوية الشكل. في الوسط الفوهة وبين هذه الفروع تقف ورقة الزنبق ذات الفصوص الثلاثة من نوع fleur de lis يعلوها مباشرة شكل مجنح يتوسطه شكل هلال.

أما الأسلوب الثاني، فإنه يتشابه إلى حد ما مع الأسلوب السابق، حيث تقف الأمفورا في الجزء الأسفل أيضاً على أوراق نباتية يخرج منها وبالاتجاهين نصفاً ورقية نخيل ذات فصوص متجهين نحو الأعلى. ويخرج من فوهة الأمفورا أيضاً نصفاً ورقية نخيل يشبهان في وضعهما تلك الموجودة على الأسلوب السابق الذكر. يقف على فروع نصفي ورقة النخيل جرة صغيرة Juglet حيث يخرج من فوهتها وباتجاهين متعاكسين فرعان نباتيان ينتهي كل منهما بقطف عنب كبير طولي الشكل. وبين الفروع يقف شكل مستطيل ليس هناك امكانية لتحديده (لوحة ١٤).

أما الأساليب التي تزخرف الجزء العلوي لدعائم المثمن الداخلي فإنها أيضاً متعددة، حيث أن كل جهة من جهات الدعامة مزخرفة بأسلوبين مختلفين وكل دعامة تختلف في أساليبها عن الأخرى. وليس بالامكان التحدث عن زخارفها هنا لأنها كثيرة وكذلك لعدم اختلاف العناصر الزخرفية الموجودة عليها، إلا في بعض أشكال الأعمدة حيث ظهرت بشكل مضلع (لوحة ٥).

أما تلك التي تعلو دعامات القبة فإنها مزخرفة بأشكال لولبية متكررة، مكونة من أوراق الاكانثاس، يتوسطها شكل زهرة. والمساحة الموجودة بين هذه الأشكال مزخرفة

بأوراق نباتية مختلفة الأشكال. وهذا العنصر الزخرفي يشبه تماما ما وجد على بعض الألواح الخشبية التي تم انزالها من سقف المسجد الاقصى (٦) (لوحة ٤ب).

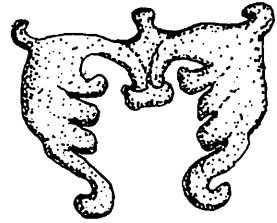
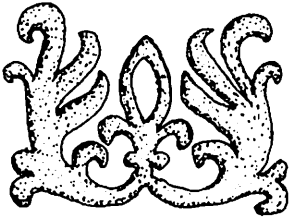
العناصر الزخرفية

من خلال الوصف الذي أجريناه على الأساليب الزخرفية التي تزخرف الأفاريز وجدنا أن هناك العديد من العناصر الزخرفية التي يمكن تمييزها وهي على نوعين: نباتية ومعمارية:

أ - العناصر الزخرفية النباتية

١ - ورقة النخيل Palmette

لم تظهر ورقة النخيل بشكل كامل على هذه الافاريز الا في حالة واحدة (لوحة ٢ ب) وهي بشكل مقلوب إلا أنها تظهر في أغلب الحالات على شكل نصف ورقة



ويمكن ملاحظتها على ألواح معظم الأساليب، حيث إنها اتخذت أوضاعاً مختلفة منها العمودي والأفقي باتجاه الأسفل أو الأعلى أو مقسومة نصفين. ويعود هذا العنصر الزخرفي في أصوله إلى الفن الساساني، حيث استعمل بشكل كبير في

Hamilton. 1949. Bl. XLVII 3 - ٦

Pope, A. 1938, Persian Art. Vol I, figs: 139, 146a, b, 196 a, b; Vol IV pls: 167, 168c, 171f, 172 a, d, 178d, 237, London; Pfister, R. 1948. Le Role de Iran dans les Textiles d'Antioche. Ars Islamica XIII, p.55, fig 17.

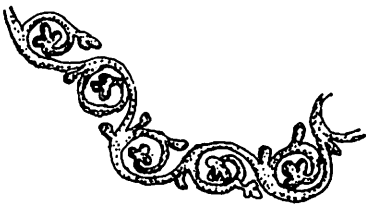
الزخارف المعمارية الإسلامية كان مألوفاً ولكن كان في أغلب الأحيان محوراً. حيث يمكن ملاحظة أوراق النخيل المقسومة والنصفية، على فسيفساء قبة الصخرة وعلى الألواح البرونزية التي تغطي عتبات مداخل قبة الصخرة^(٨). كما يمكن ملاحظة هذا العنصر الزخرفي على الزخارف الجصية التي تم اكتشافها في خربة المفجر قرب أريحا^(٩).

٢ - أوراق العنب Vine Leaves

وتظهر في شكلين، خماسية الفصوص وثلاثية الفصوص، وتظهر الخماسية في أغلب الأحيان داخل أشكال لولبية كما هي في زخرفة بعض العقود (لوحة ١ ب، ٢ ب) وتظهر على وسط بعضها زخرفة خفيفة تشبه الشكل البيضاوي (لوحة ١٣، ٢ ب) ويمكن رؤيتها أيضاً بين أنصاف أوراق النخيل التي تشكل بعض تيجان الأعمدة (لوحة ١ ب).

أما ورقة العنب ذات الفصوص الثلاثة، فإنها تظهر في الأغلب داخل الأشكال اللولبية التي تزخرف بعض العقود (لوحة ١ ب، ١٣) وإطارات الأسلوب الأول (لوحة ١١) وكذلك داخل أشكال قلبية كما يظهر ذلك على بعض الأفاريذ (لوحة ١٤).

ورقة العنب بشكلها كعنصر زخرفي معروفة في الكثير من الفنون التي تعود إلى فترة ما قبل الإسلام، إلا أنها ظهرت هنا بشكل محور وبطابع غلب عليه الأثر الإسلامي ولا سيما تلك التي يتوسطها الشكل البيضاوي أو الموجودة داخل الأشكال القلبية.

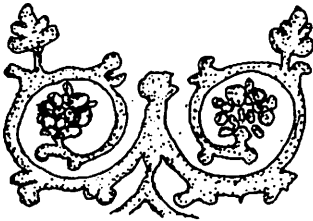


Creswell. 1968. fig 293, pls: 20 b,c, 21 b,c, 21 b,c, 27a, 28a,b,c,d. - A

Hamilton, R.W. 1959. Khirbet al-Mafjar. Pts: XX4, XXXII, XXXIII, LX. Oxford. - ٩

٣ - قطوف العنب Grapes

يمكن ملاحظة قطف العنب على ألواح عدة أساليب حيث تظهر داخل أشكال لولبية مدورة الشكل كما هو الحال في أسلوب الضلع الجنوبي الشرقي (لوحة أ ب) أو طولي مع نصف ورقة نخيل كما هو في أسلوب الضلع الشمالي الشرقي (لوحة أ). ويظهر أيضاً طولي الشكل كبير الحجم غير محاط بأشكال لولبية كما هو في أسلوب الضلع الشمالي (لوحة ١٤). وقطف العنب كعنصر زخرفي من العناصر المألوفة جداً في الفن الإسلامي وخاصة الأموي، حيث يمكن رؤيته على زخارف قبة الصخرة وخربة المفجر، وقصر المشتى وخشب المسجد الأقصى وغيرها.



٤ - الشكل المجنح Winged Shape

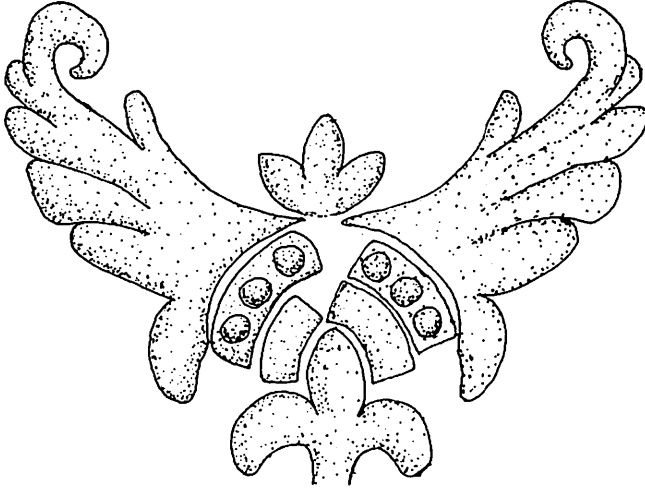
ويظهر هذا العنصر الزخرفي في أسلوبين من الأساليب المدروسة هنا. (لوحة أ ب، لوحة ١٤) وهو عبارة عن شكل مكون من جناحين يتوسطه عنصر زخرفي نباتي أو رمزي. ويعود هذا العنصر الزخرفي في أصوله إلى الفن الساساني حيث استعمل بشكل كبير ولا سيما على قطع العملة الفضية والذهبية الساسانية وكذلك الجصية^(١).

وقد ظهر هذا العنصر الزخرفي في زخارف الفترة الأموية وبخاصة في فسيفساء قبة الصخرة والقطع البرونزية التي تغطي عتبات قبة الصخرة^(١) وكذلك في الزخارف الحجرية لقصر المشتى وغيرها^(٢).

١٠ - Pope, A. 1938. vol IV, pls: 174 a,b, 252k.

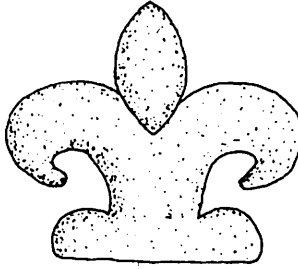
١١ - Creswell. 1969. Vol I, Part I. pl: 28,37.

١٢ - نفس المرجع. 133. pl 133. Part II, Vol I.



٥ - زهرة الزنبق Fleur de Lis

وهي ورقة ثلاثية ذات فصوص مقولبة أطلق عليها هملتون هذا الاسم وقد ظهرت في معظم الأساليب الرخامية لقبة الصخرة لوحة (١٢، ١٤). ويذكر هملتون أن هذا العنصر الزخرفي يعود في أصوله إلى الفن الساساني^(١٣) وقد أصبح مألوفاً في الاستعمال في الفترة الأموية، حيث يظهر في الزخارف الجصية التي اكتشفت في خربة المفجر^(١٤).

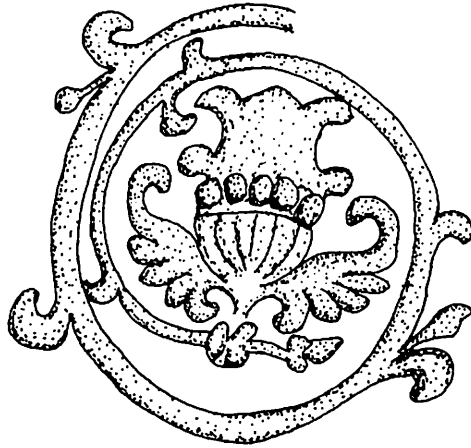


١٣ - Hamilton. 1959. p.212, fig 155.

١٤ - نفس المرجع. fig 121.

٦ - الأشكال الزهرية Fleurons

وهي على شكل زهرة، تتكون إما من أوراق نباتية موضوعة فوق بعضها بعضاً كما في ألواح الباب الجنوبي (لوحة ١٦) أو عبارة عن ورقة نخيل مقسومة تقف في وسطها كأس صغيرة أو فاز كما في ألواح الباب الشرقي (لوحة ٦ب)، وكذلك أسلوب الجهة الشمالية (لوحة ٣ ب) استعمل هذا العنصر الزخرفي بشكل كبير في الفترة الإسلامية، حيث يمكن رؤيته على ألواح خشب سقف المسجد الأقصى^(١٥)، وهو ذو طابع أموي صرف، ويمكن رؤيته أيضاً في خربة المفجر^(١٦) وقصر الحير الغربي^(١٧).



٧ - التاج Crown

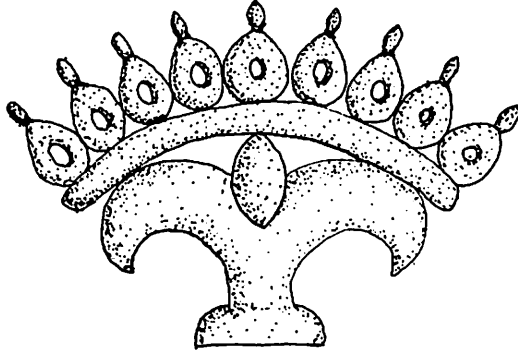
عنصر زخرفي مكون من شكل نصف دائري يحيط داخله بورقة من زهرة الزنبق وعلى سطحه الخارجي يقف عدد من حبات الرمان الصغيرة مكونة مع بعضها ما يشبه التاج (لوحة ٢أ، ٢ب) إن هذه الظاهرة أموية خالصة ولم نجد ما يشبهها فيما قبل الفترة الإسلامية. أما بالنسبة للفترة الإسلامية فقد تم العثور حديثاً على كانون مصنوع من البرونز في حفريات المفرق في الأردن وهي الحفريات

Hamilton. 1949. pls: LXVIII, IOE; LVI 8E; LX 13W. - ١٥

Hamilton. 1959. fig. 221. - ١٦

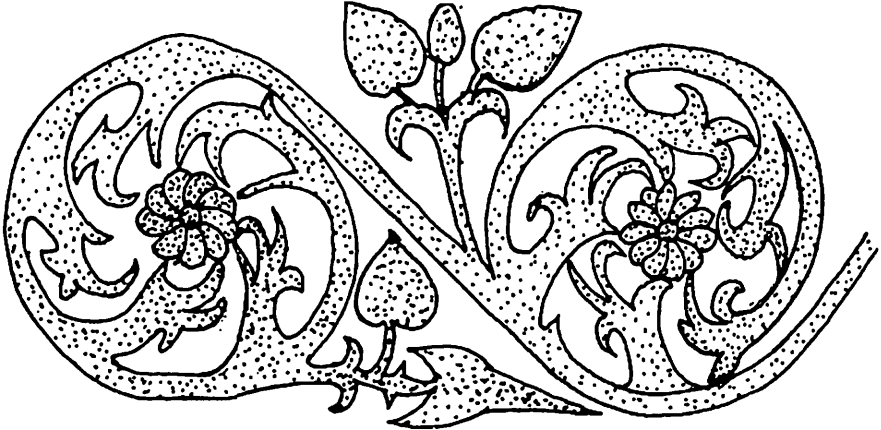
Greswell. 1969. vol I. part II. figs: 184-185. - ١٧

التي قامت بها المدرسة الفرنسية للآثار حيث ظهر شبيهه لهذه الزخرفة على جوانب الكانون الذي يعود في تاريخه إلى الفترة الأموية^(١٨).



٨ - الأكنثاس Acanthus

أكثر ما ظهرت عليه أوراق الكنثاس هو على الألواح التي تزخرف الجزء العلوي من الدعامة التي تحمل رقبة القبة. وتتشكل هذه الأوراق داخل حلزونات تتوسطها أشكال زهرية (لوحة ٤ب) وهذه الزخرفة تشبه تماماً ما وجد على الدعامة الخشبية التي أنزلت من الرواق الأوسط للمسجد الأقصى^(١٩).



La Voie Royal, 900 Ans d'Art au Royaume de Jordanie. Musee du Luxembourg 26 Nov 1986 - 25 Janvier 1987: - ١٨

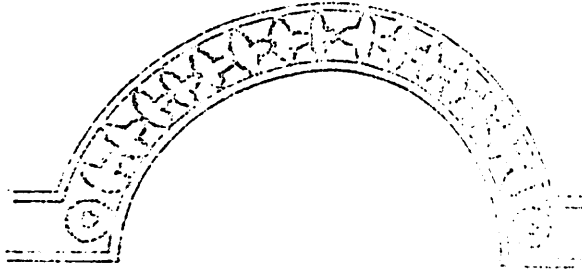
No 353 pp 267-268. Paris 1987.

Hamilton. 1949. pl. XLVII 3. - ١٩

ب - العناصر الزخرفية المعمارية

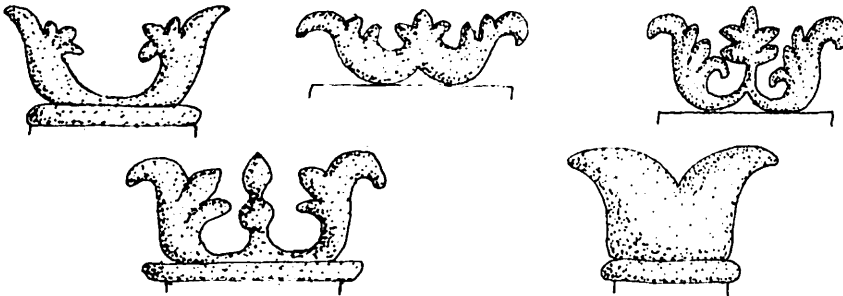
١ - العقود:

وهي على شكل نصف دائري مشكلة من خطين ومزخرفة بعناصر نباتية. توجد العقود على معظم أفاريز المثلث الخارجي وفي أعلى دعائم المثلث الداخلي. ويمكن ملاحظة مثل هذه العقود على بعض الألواح الخشبية التي كانت في سقف المسجد الأقصى^(٢٠) وبعض الزخارف الحجرية في خربة المفجر^(٢١)



٢ - التيجان

تظهر التيجان بأشكال متعددة. إلا أنها جميعاً مكونة من أنصاف أوراق نخيل متعكسة الفروع بعضها مسنن وبعضها ذو فصوص. وعلى بعض الأعمدة يوجد بين نصفي ورقة النخيل التي تشكل التاج ورقة عنب خماسية الفصوص. أما تلك الموجودة على أعمدة الرواق الداخلي فتاجها مكون من أنصاف أوراق موضوعة بشكل أفقي ومتصلة مع بعضها بعضاً.

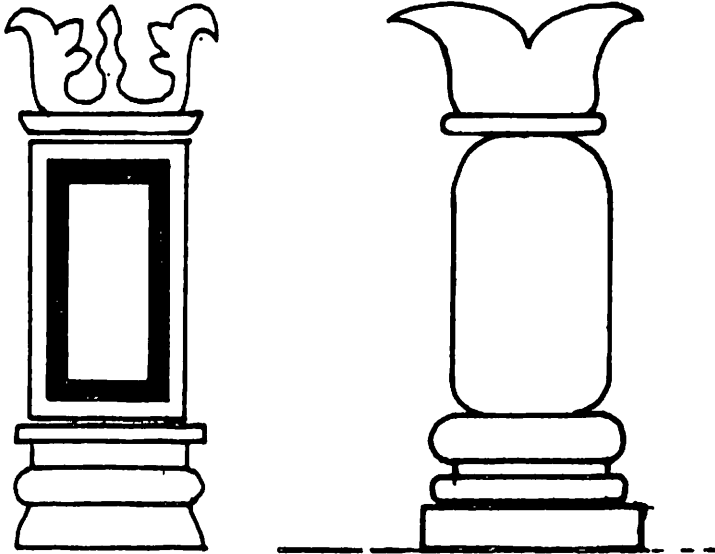
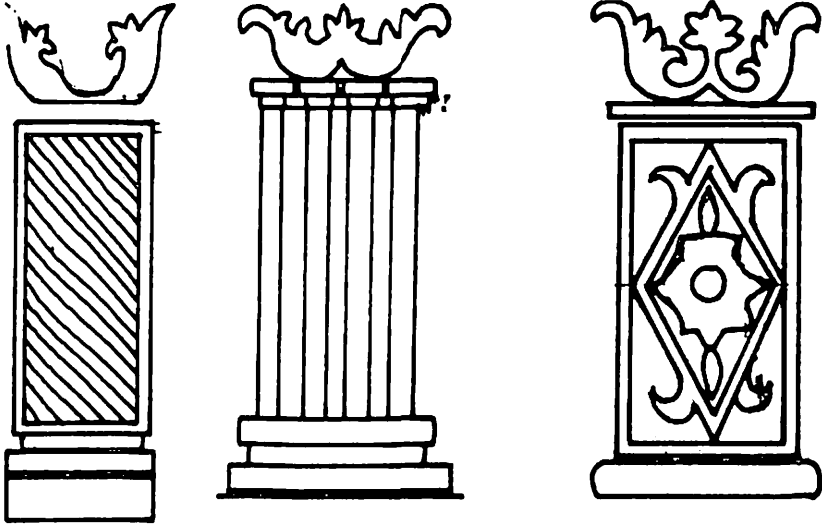


Hamilton. 1949. pls.: LIV 6E, LXXII3. - ٢٠

Hamilton. 1959. figs 124, 173. - ٢١

٣ - الاعمدة:

ظهرت على هذه الافاريز خمسة أشكال من الاعمدة أو الدعامات نوع منها ليس عليه أي شيء من الزخارف (لوحة ١٢، ٢ب)، ونوع آخر عليه زخارف قوامها حوز متموجة (لوحة ١٣، ١٤) والثالث مزخرف بشكل معين داخله زهرة (لوحة ١ب)، والرابع محفور



عليه شكل مستطيل معلّمة خطوطه بالأسود (لوحة ٣ب) والأخير مزخرف بمضلعات وهي عبارة عن أربعة أضلاع وجدت على الأفاريز التي تزخرف أعلى دعامات المثمن الأوسط (لوحة ٥). هذه الأشكال من الأعمدة تتميز بأنها تعود في تاريخها لفترة صنعها، حيث أن أشكال الأعمدة هذه بزخارفها لم يعثر عليها في فترات ما قبل الاسلام ولا حتى في الزخارف المعمارية الأموية الأخرى باستثناء النوع الأخير وهو المضلع فقد عثر على مشابه له في زخارف الفسيفساء في المسجد الكبير في دمشق^(٢٢).

من دراسة العناصر الزخرفية التي تغطي الأفاريز الرخامية في قبة الصخرة المشرفة نرى أن هذه الزخارف متأثرة بالفن البيزنطي والفن الساساني، إلا أنها تظهر هنا بشكل متحور، حيث طرأ بعض التغيير على شكلها الطبيعي. ونلاحظ أيضاً أن ظاهرة التضاد (Contradictory) وهي ظهور العناصر الزخرفية في غير وضعها الطبيعي يمكن ملاحظتها على هذه الافاريز، ومثال ذلك وضع نصف ورقة النخيل بجانب كطف العنب كما هو على لوح (١٣)، وهو أمر غير وارد في الطبيعة. إن هاتين الظاهرتين المتمثلتين في تحويل العناصر الزخرفية النباتية ووضعها بشكل غير مألوف في الطبيعة هما من الظواهر التي يتميز بها الفن الأموي.

طريقة صنع الافاريز

العناصر الزخرفية الموجودة على هذا الأفاريز ذات بروز بسيط low relief حيث إن عمق الحفر يقدر بحوالي ٢ ملم، وهي ذات سطح منبسط وناعم. الطريقة التي استعملت في زخرفة هذه الافاريز كانت طبع العناصر الزخرفية المراد وضعها على الألواح الرخامية المعدة لتشكيل الأفاريز، ومن ثم الحفر أو التفريغ حولها. إن عملية التفريغ كانت عبارة عن قطع أجزاء من الرخام على شكل شظايا مما أدى بالتالي إلى بروز العناصر الزخرفية. وتشير الخلفية الناتجة عن عملية التفريغ هذه إن عملية القطع فظة coarse ولم تكن منتظمة والدليل على ذلك أن السطح الذي نتج عن ذلك غير مستو. وتعرف هذه الطريقة في الحفر باسم Champleve Technique. وحتى يتم ابراز العناصر بشكل أوضح فقد استخدمت في هذه (التكنيك) الألوان، حيث تم طلاء العناصر الزخرفية باللون الذهبي وتم طلاء الخلفية الناتجة عن عملية التفريغ باللون الأسود والأزرق الغامق، وبدا واضحاً أن تأثير اللون على هذه الأفاريز كان أكثر فعالية من تأثير الفحوى التشكيلي.

أما أقدم الأمثلة التي تنسب إلى هذا (التكنيك) فإنه من الصعب تحديدها إلا أنه من المحتمل أنها تعود في تاريخها إلى نهاية الفترة البيزنطية. لقد تم العثور على بعض القطع الرخامية التي حفرت بنفس (التكنيك) في كنيسة خلدة البيزنطية في لبنان التي يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن الخامس^(٢٣) وهناك قطعة رخامية أخرى تم العثور عليها في أحد الأديرة البيزنطية في جبل نبو في الأردن يعود تاريخه إلى القرن السادس الميلادي^(٢٤).

بالإضافة إلى ذلك فإنه تم العثور على قطع رخامية تنسب إلى هذا (التكنيك) في مواقع إسلامية لكن ربما كان تاريخها يعود إلى الفترة البيزنطية المتأخرة بسبب زخرفة الصليب الموجود عليها. عثر على إحدى هذه القطع في حفريات خربة المنية على سواحل بحيرة طبرية، والقطعة الأخرى عثر عليها Mazar في الحفريات التي أجراها في جنوب المسجد الأقصى وظهرت في المستوى الأموي^(٢٥).

كما أن هناك بعض الأمثلة الأخرى التي تعود إلى الفترة الإسلامية إلى جانب الأمثلة التي وجدت في قبة الصخرة. فقد ذكر Sauvaget في كتابه^(٢٦) عن مسجد المدينة الأموي، أن هناك على الأقل ست مجموعات من الزخارف الرخامية على الجدران الداخلية للمسجد، كانت ثلاث منها مزخرفة، واحدة منها تم وصفها على أنها مغطاة بنقش مطلي بالذهب على خلفية مدهونة باللون الأزرق، وهو مشابه تماماً لأفاريز قبة الصخرة. كما أن هناك بلاطتين رخاميتين تم العثور عليهما في المسجد الأموي في دمشق، وذكر أنهما تعودان إلى الفترة الأموية وأنهما حفرتا بطريقة التفريغ المنخفض^(٢٧).

من خلال البقايا السالفة الذكر يلاحظ أن طريقة الحفر المنخفض أو ما يطلق عليه Champleve Technic قد تطورت بشكل تدريجي في منطقة بلاد الشام في فترة ما قبل الإسلام حتى القرن السادس الميلادي، وأنها أصبحت صناعة رائجة ومزدهرة لعمل الزخارف المعمارية في الفترة الأموية في القرنين السابع والثامن الميلاديين.

٢٣ - Chehab, M.H, 1957. Mosaiques du Liban, Bulletin du Musee de Bayrouth 14.pp 118-119 figs 9-10. -

195915, pl.LXXX, 1-8.

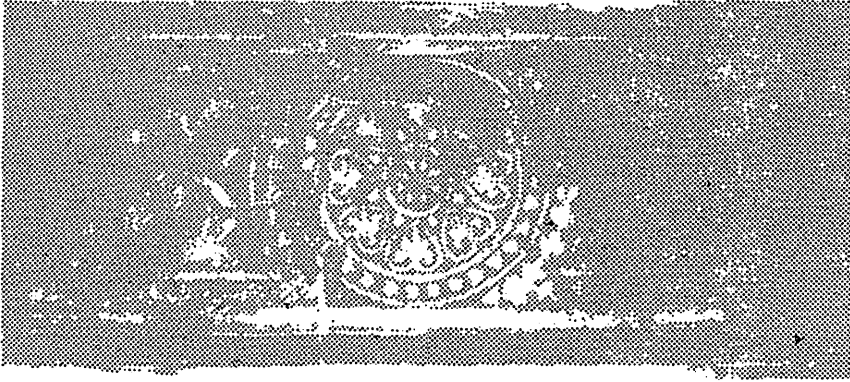
٢٤ - Saller, S.J. 1941, The Memorial of Moses on Mount Nebo, Vol. I, p. 290; II, pl. 125: 18. -

٢٥ - Rosen Ayalon. M.1974. pp233-234, pl 51; A,B. -

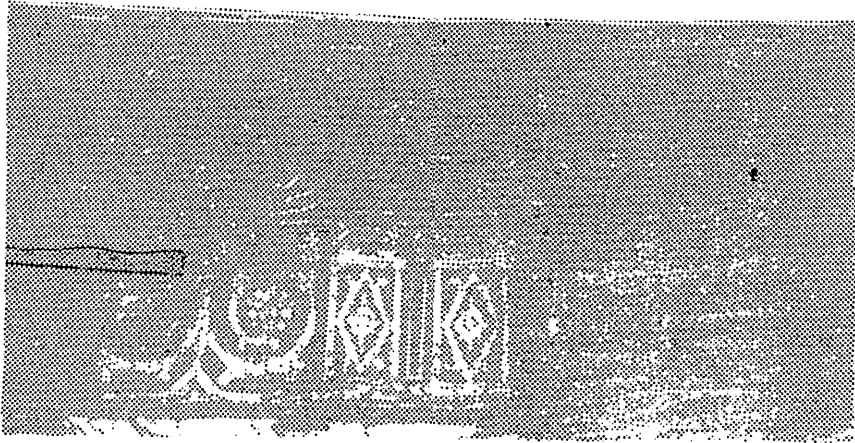
٢٦ - Sauvaget, J.1947. La Mosquee omeyyade de Medine. p78. Paris. -

٢٧ - Creswell. 1969. pl 62 A,C; Stern, H. 1972. Notes sur le Mosaiques du Dome du Rocher et la Mosquee de Damas, -

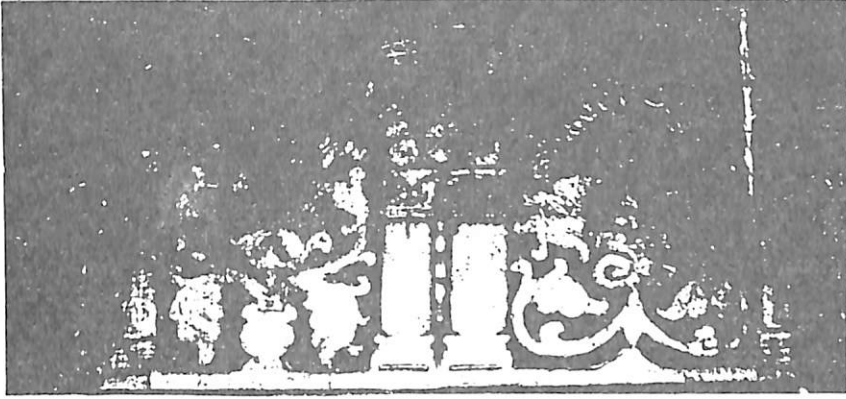
a propos d'un livre de Mme. Marguerite Van Berchem, Cahier Archeologiques No 22, Appendice, figs 35, 36, 37.



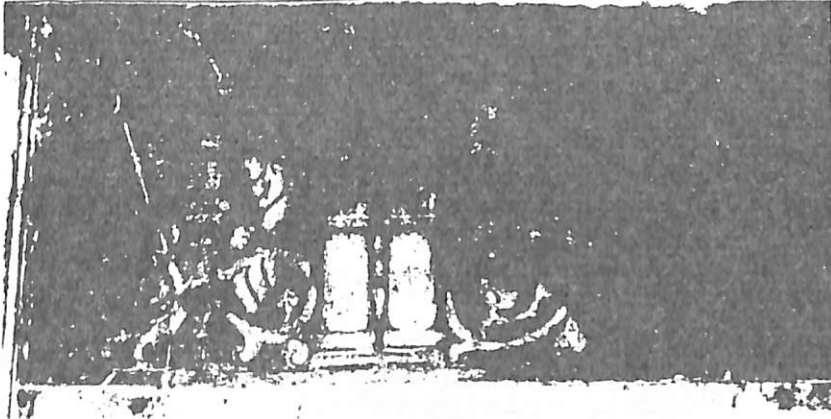
أ - جزء من الافريز الذي يزخرف الاضلاع الغربية، الجنوبية الغربية، والجنوبية.



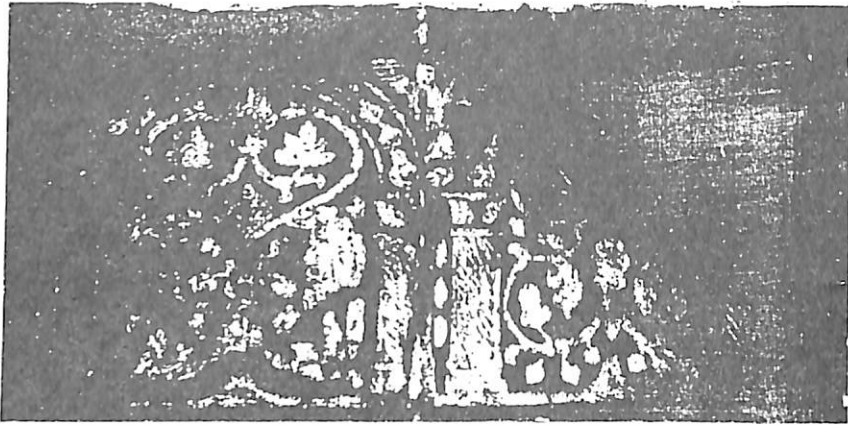
ب - جزء من الافريز الرخامي الذي يزخرف الضلع الجنوبي الشرقي.



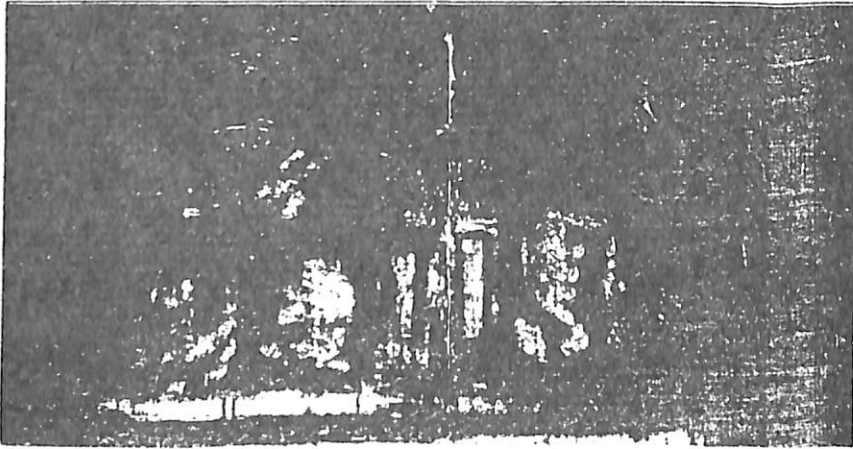
أ - جزء من الافريز الرخامي الذي يزخرف الضلع الشرقي.



ب - جزء من الافريز الرخامي الذي يزخرف الضلع الشرقي.



أ - جزء من الافريز الرخامي الذي يزخرف الضلع الشمالي الشرقي.



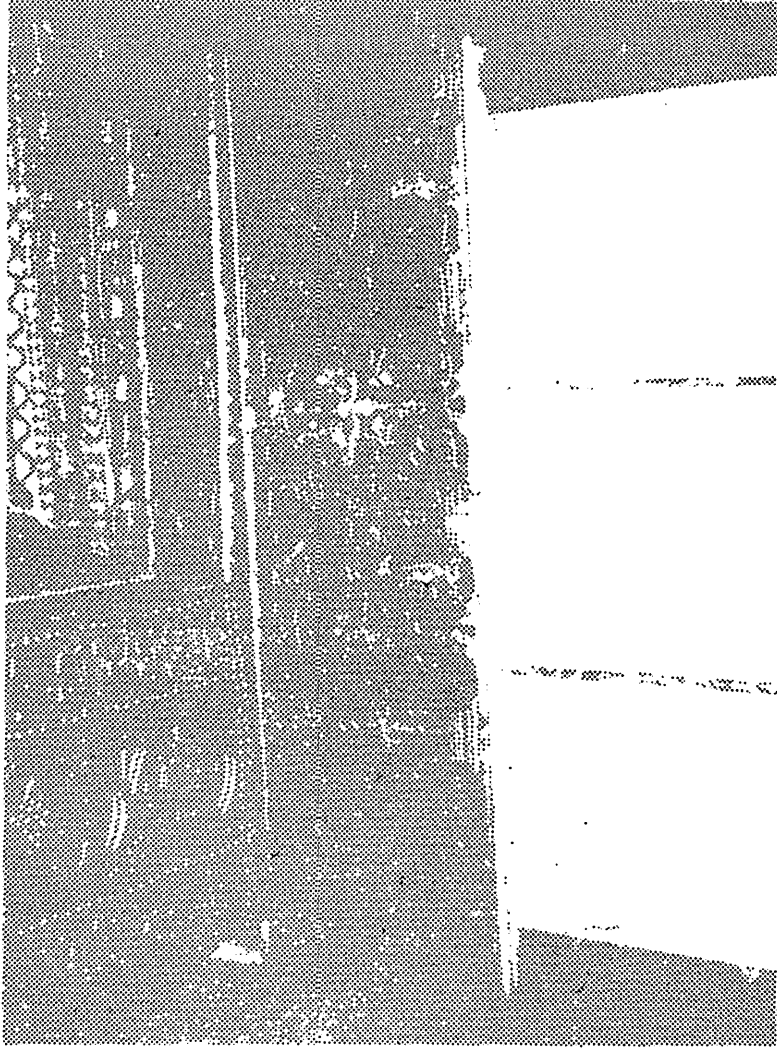
ب - جزء من الافريز الرخامي الذي يزخرف الضلع الشمالي.



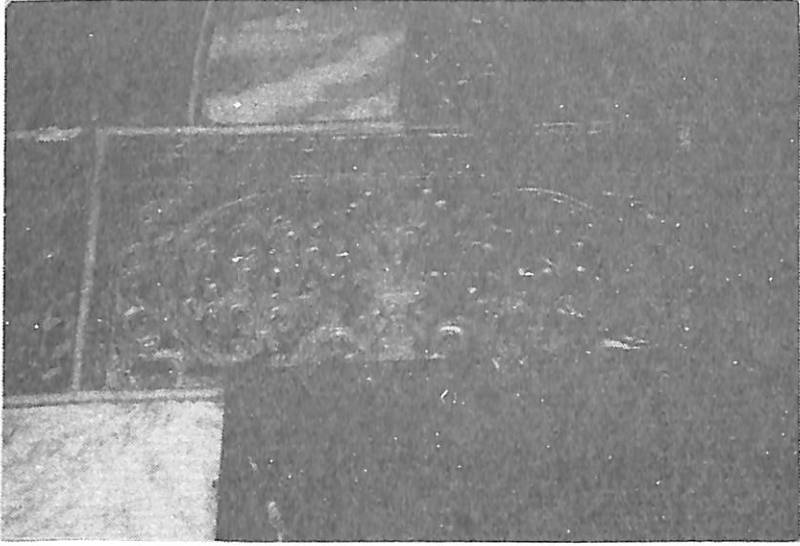
أ - جزء من الأفريز الرخامي الذي يزخرف الضلع الشمالي الغربي.



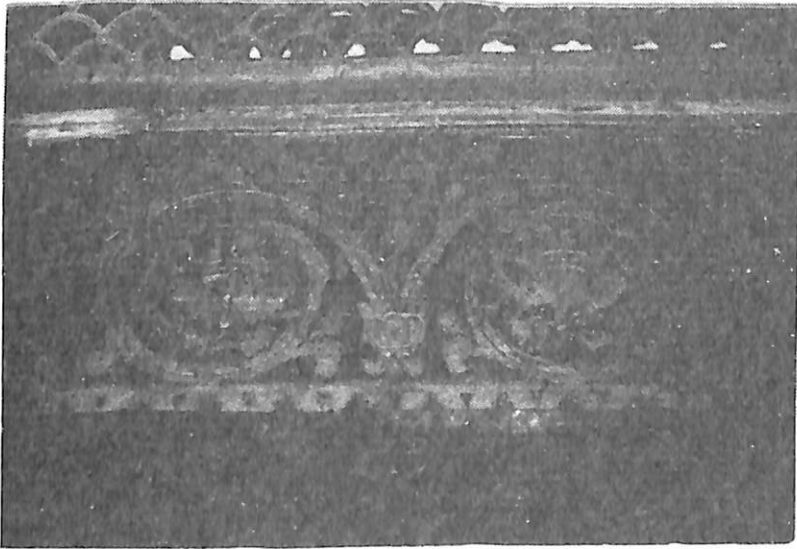
ب - منظر من الأفريز الرخامي الذي يزخرف الجزء العلوي للدعامات التي تحمل قبة الصخرة.



١ - منظر من الأفريز الرخامي الذي يزخرف الجزء العلوي للدعامات التي تحمل القبة الداخلية لقبة الصخرة.



أ - منظر لآحد الألواح الرخامية التي تزخرف الجهة الداخلية لعتبة الباب الجنوبي لقبة الصخرة.



ب - منظر لآحد الألواح الرخامية التي تزخرف الجهة الداخلية لعتبة الباب الشرقي لقبة الصخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك الحسين بن طلال المعظم

جامعة اليرموك



الجامعة الأردنية

برنامج

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

من مطلق العهد البيزنطي إلى أواخر العهد الأموي

الندوة الثالثة

بلاد الشام في العهد الأموي

٧-٢ ربيع الأول ١٤٠١ هـ

٢٩-٢٤ تشرين الأول ١٩٨٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

○○○ مقدمة ○○○

أخذت الجامعة الأردنية على عاتقها منذ ربيع ١٩٧٢م، مسؤولية العناية والتركيز على تاريخ بلاد الشام من مختلف جوانبه وفي جميع عهوده، وإيماناً بذلك رأت أن تعقد، بصورة مستمرة وبشكل منتظم، حلقات وندوات بحث ومؤتمرات علمية حول تاريخ بلاد الشام في مختلف العهود التاريخية، وبخاصة بعد الفتح العربي الاسلامي.

كان فاتحة هذه اللقاءات عقد المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام في الجامعة الأردنية في شهر نيسان عام ١٩٧٤م، وقد تناول فيه المؤتمرون تاريخ هذه البلاد حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي، ثم كان انعقاد المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام الذي تم بالتعاون مع جامعة دمشق وأقيم في رحابها في مطلع شهر كانون الأول عام ١٩٧٩م، وكان موضوعه «تاريخ بلاد الشام من مطلع العهد العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الثانية».

ثم تلا ذلك المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، الذي عقد سنة ١٩٨٠م ضمن مشاركة المؤسسات العلمية الأردنية بالاحتفال بحلول القرن الخامس عشر الهجري، وقد عقد بالاشتراك مع جامعة اليرموك. ودار حول «تاريخ فلسطين منذ أقدم العصور حتى سنة ١٩٨٠م»، وذلك نظراً لما لفلسطين من مكانة في نفوس الشعب الأردني والأمة العربية بخاصة والأمة الاسلامية بعامه.

شرعت الجامعات الأردنية منذ مطلع عام ١٩٨١م بالأعداد لعقد المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام على أن يتناول تاريخ هذه البلاد منذ مطلع العهد البيزنطي حتى أواخر العهد الأموي على شكل دراسة تفصيلية دقيقة من مختلف الجوانب والوجوه لتلك المرحلة التي تجمع بين عهدين.

وانطلاقاً من أهمية تاريخ بلاد الشام وتوخياً للحصول على دراسات تفصيلية تتسم بالعمق والدقة والشمول، فقد رأت لجنة تاريخ بلاد الشام أن يكون عملها على شكل ندوات وحلقات تعقد في فترات متفاوتة ومتلاحقة تتناول كل منها، بالتسلسل، جانباً محدداً من الموضوع تدرسه دراسة مستفيضة وتبحثه بحثاً علمياً عميقاً على أن تصبح أعمال هذه الندوات في نهاية المطاف مادة لمؤتمر عام يعقد للنظر في القضايا الرئيسية والنتائج الكبيرة التي توصل إليها الباحثون والعلماء المشاركون في هذه الندوات والحلقات.

من هذا المنطلق عقدت الندوة الأولى من حلقات المؤتمر الدولي الرابع وكان موضوعها «بلاد الشام في العهد البيزنطي» بين ١٥ - ١٩ تشرين أول ١٩٨٣م وعقدت الندوة الثانية وكان موضوعها «بلاد الشام في صدر الاسلام» بين ٢١ - ٢١ آذار ١٩٨٥م.

وانه لمن دواعي سرورنا أن نشير الى أن البحوث المقدمة لكل من الندوتين المشار اليهما أعلاه قد قيمت وتم طبعها ونشرها في ستة مجلدات تم توزيعها على المشاركين بأعمال هاتين الندوتين، وحرصاً على توصيل نتائج هذه البحوث الى أوسع قاعدة من المستفيدين، فقد تم اهداء هذه المجلدات لعدد كبير من الجامعات والمعاهد والمراكز العلمية المتخصصة في أقطار الوطن العربي وخارجه.

واننا إذ نجتمع هذا الاسبوع لاستكمال البحث في «بلاد الشام في عهد بني أمية»، فإن لجنة بلاد الشام قد أعدت مخططاً شاملاً ومستوفياً للقضايا التاريخية الجديرة بالبحث حول هذه الحقبة التاريخية المهمة يمكن ايجازه بما يلي :

أولاً : المصادر وتشمل ما يلي : -

أ (المصادر العربية : -

١. المصادر التاريخية : (الحوليات، كتب الطبقات، كتب التراجم...).
٢. الشعر كمصدر للتاريخ.
٣. المصادر الجغرافية.
٤. كتب الفقه والحديث.
٥. كتب الأنساب.
٦. الدراسات الحديثة عن الدولة الأموية.

ب (المصادر السريانية.

ج (المصادر اليونانية والأرمنية.

د (المواد الأثرية : -

١. النميات.
٢. أوراق البردي.
٣. النقوش.
٤. المسوحات الأثرية.

ثانياً : التاريخ السياسي والاداري والعسكري.

أ (النظام الاداري : -

١. الأجناد وادارتها.
٢. الادارة في الجزيرة.
٣. الدواوين المركزية.
٤. السكان في ظل الادارة اليومية.
٥. البريد وطرق المواصلات الحكومية والتجارية.
٦. الحج من بلاد الشام وبدايات تنظيم قوافله - طريق الحج الشامي.
٧. السياسة الأموية تجاه أهل الذمة ومؤسساتهم في بلاد الشام.

ب (النظام المالي : -

١. موارد الدولة : -

- أ (الجزية والخراج، وعشور التجارة والمكوس.
ب (الزكاة والصدقات.
ج (الغنائم والركاز.

٢. النفقات : -

- أ (الأعطيات، الأرزاق.
ب (نفقات الحروب.
ج (النفقات على المنشآت العامة.
د (النفقات على التحصينات والثغور.

٣. النقود (تعريب النقود، ودور الضرب والسكة).

ج (النظام العسكري : -

١. تنظيمات الجيش (توزيع الوحدات، وتموين، وتعبئة، وتخطيط).
٢. الأسطول (أنواع السفن، ودور الصناعة، والبحارة، والمقاتلة).
٣. التطوع للجهاد - الثغور.
٤. الأسلحة والذخيرة، وصناعة الأسلحة ومراكزها، ودواب القتال.
٥. الشرطة والعسكر.

د (النظام السياسي : -

١. مؤسسة الخلافة «ولاية العهد ومفهوم الخلافة عند الأمويين».
٢. مراسم الخلافة (دار الخلافة الأموية).
٣. أسلوب الحكم.
٤. العصبيات.
٥. الأحزاب السياسية.
٦. دور المدينة الشامية في الحياة السياسية.
٧. الدولة والعلاقات الخارجية (بشكل خاص مع بيزنطية).

ثالثا : الحياة الاقتصادية والاجتماعية

أ (الحياة الاقتصادية : -

١. الزراعة

- أ (نظام الأراضي وملكيته.
ب (أصناف الأراضي : (أراض الخراج، والصوافي، والأراضي الموات).
ج (ملكية الأراضي : (الاقطاعات، وأحياء الموات والملكيات الخاصة، والمشاع، والأوقاف).

٢. النظام الزراعي

- أ (طرق استثمار الأراضي : (المغارة، المساقاة، المزارعة، والايجار).
- ب (التقنية الزراعية (من اعداد الأرض حتى الانتاج).
- ج (الحاصلات الزراعية وتوزيعها الجغرافي.
- د (المصطلحات الزراعية.
- هـ (الري وموارد المياه : -
- منشآت الري.
- تنظيم الري.
- و (امتداد الحاصلات الزراعية.
- ز (المراعي والثروة الحيوانية.
- ح (الغابات.
- ط (العمل والعمال في حقل الزراعة.
- ي (الأوبئة والآفات الزراعية.

٣. التجارة : -

١. طرق التجارة والمحطات التجارية ووسائل النقل وتنظيمها والتخزين.
٢. السلع التجارية.
٣. المبادلات التجارية : -
 - أ (مع العالم الخارجي.
 - ب (مع الأمصار الاسلامية.
 - ج (المبادلات المحلية.
٤. المعاملات التجارية في العصر الأموي (العقود، الشركات، الوكالات).
٥. معاملات الائتمان (الأقراض، التسليف).
٦. الصناعات والحرف وتنظيمها.

ب (الحياة الاجتماعية : -

١. السكان في بلاد الشام.
 - أ (عناصرهم.
 - ب (توزعهم - بادية - ريف - حاضرة.
 - ج (التكوين الاجتماعي للسكان.
٢. الحياة اليومية في المدن والأرياف والبادية : (الأعراف، والتقاليد، والأعياد والمواسم، والأطعمة والأشربة، والألبسة...).
٣. الرقيق في بلاد الشام.
٤. الأسرة ومكانة المرأة.

رابعاً : الحياة الفكرية والفنية.

أ (الحياة الفكرية : -

١. العلوم الاسلامية : (العلوم القرآنية، والحديث والتفسير، والفقہ...).
٢. علوم العربية وفنونها : (اللغة، والنحو، والبلاغة، والأنساب، والرواية، القصص، الشعر والترسل).
٣. الاتصال بالثقافات الأخرى (اليونانية والسريانية والفارسية.. وأثرها في الحياة الفكرية في بلاد الشام).
٤. مراكز التربية والتعليم.
٥. الكتابة والتأليف والمكتبات.

ب (الحياة الفنية : -

١. تخطيط المدن.
٢. الموسيقى والغناء.
٣. فن العمارة.
٤. فن الرسم والزخرفة.
٥. وسائل الترويح والتسلية.

ويسعد لجنة تاريخ بلاد الشام أن تتوجه بالشكر الجزيل للعلماء الأعلام المشاركين بأعمال هذه الندوة، وشكرها موصول أيضاً إلى جميع العاملين في الجامعات الأردنية وبخاصة الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي، رئيس الجامعة الأردنية، والأستاذ الدكتور محمد حمدان، رئيس جامعة اليرموك لما أحاطا به اللجنة من دعم وعون. ونذكر بالعرفان أيضاً مؤازرة الوزارات والمؤسسات الرسمية والخاصة لأعمال هذه الندوة.

وخير ما نختم به هذا العمل قوله تعالى «ونعم أجر العاملين» صدق الله العظيم.

مقرر لجنة متابعة المؤتمرات والندوات

(الدكتور محمد عدنان البخيت)

عمان في ٢٦/صفر/١٤٠٨ هـ.
١٨/تشرين أول ١٩٨٧ م

**وقائع جلسات الندوة الثالثة :
بلاد الشام في العهد الأموي
من أعمال
المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام**

مدرج كلية الهندسة والتكنولوجيا/الجامعة الأردنية

٢ - ٧ ربيع الأول ١٤٠٨هـ

٢٤ - ٢٩ تشرين أول ١٩٨٧م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السبت

٢ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ
٢٤ تشرين أول ١٩٨٧

حفل الافتتاح

١٠٠٠ - السلام الملكي

- أي من الذكر الحكيم

- كلمة الاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت
مقرر لجنة متابعة المؤتمرات والندوات

- كلمة معالي الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي
رئيس الجامعة الأردنية

- كلمة ملكية سامية

- استراحة قصيرة

- جولة في حرم الجامعة الأردنية تشمل:

- زيارة المتحف الشعبي/ الجامعة الأردنية

- زيارة متحف الجامعة

- مكتبة الجامعة

- المعرض الدائم/ عمادة شؤون الطلبة

- مشاهدة فيلم الجامعة الوثائقي

١٤٠٠ ر حفلة غداء يقيمه الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي رئيس الجامعة الأردنية
تكريماً للعلماء المشاركين في المؤتمر/ مطاعم الجامعة.

ملحوظة :

- نظراً لضيق الوقت فقد خصصنا عشرين دقيقة لكل باحث، لذا يرجى من الزملاء المشاركين أن يقدموا ملخصات لبحوثهم عند طرحها، وأن يتجنبوا القراءة من النص. ذلك أن البحوث قد وزعت على الأعضاء المشاركين من أجل اطلاعهم المسبق عليها.
- الرجاء من الزملاء المشاركين أن يدونوا ملاحظاتهم واسئلتهم وأية استفسارات عند مناقشة البحوث - كتابة - وأن يسلموها الى أمانة سر المؤتمر للفادة منها عند تحرير البحوث ونشرها.
- الزملاء المشاركون في أعمال المؤتمر مدعوون لتناول المشروبات الساخنة والباردة خلال أيام أعمال المؤتمر وذلك في نادي الجامعة الأردنية/مقابل مطاعم الجامعة.

الفترة المسائية الأولى (١٦٠٠ - ١٩٠٠)

رئيس الجلسة
المشاركون

“Syriac Sources and the Umayyad Period”

Dr. J. F. Healey - ١

“The Umayyads in Syriac Sources”.

Dr. J. Maurice Fiey - ٢

«مصادر تاريخ بلاد الشام في العهد الأموي
المصادر السريانية»
«تاريخ ميخائيل السوري»

٣ - الدكتور جاسم صكبان علي

٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م - ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م

«عبد الله بن لهيعة (٧٩ - ١٧٤هـ / ٧١٥ -
٧٩٠م) وأهمية صحيفته المحفوظة في
هيدلبرج في دراسة التاريخ الإسلامي في
القرن الأول الهجري»

٤ - الدكتور رثيف جورج خوري

«حولية ثيوفانيس : مصدر بيزنطي عن بلاد
الشام في العصر الأموي»

٥ - الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى

«دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في
العصر الأموي»

٦ - الدكتور عبد الواحد ذنون طه

الأحد

٣ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ
٢٥ تشرين أول ١٩٨٧ م

الفترة الصباحية (٩٠٠ - ١٣٠٠)

رئيس الجلسة
المشاركون

١ - الدكتور غازي بيشة
"Qasr Mshash and Qasr Ain Al-Sil:
Two Umayyad Sites in Jordan"

٢ - Dr. G. R. D. King
"The Umayyad Qusur and Related
Settlements in Jordan"

٣ - Dr. Patricia Carlier
"Qastal al-Balqa': an Umayyad Site
in Jordan"

٤ - Dr. G. Rex Smith
Some Umayyad Inscriptions of Bilad
al-Sham Palaeographic Notes.

١٤٠٠ تناول طعام الـداء بدعوة من معالي الدكتور جواد العناني رئيس الجمعية
العلمية الملكية في مطاعم الجمعية العلمية الملكية.

الفترة المسائية (١٦٠٠ - ١٩٠٠)

رئيس الجلسة
المشاركون

- “The Umayyad Mosque in Amman” Dr. Alastair Northedge - ١
- «الأفاريز الرخامية المحفورة والمذهبة في
العهد الأموي في قبة الصخرة المشرفة في
القدس» - ٢ الدكتور مروان ابو خلف
- “Sanctuary Buildings in the Second
Civil War in Bilad al-Sham” Dr. Gerald Hawting - ٣
- “Evidence of the Umayyad Period
From the Aqaba Excavations” Dr. Donald Whitcomb - ٤
- “The Coinage of Syria Under the
Umayyads 692-750” Dr. Michael L. Bates - ٥

الاثنين

٤ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ

٢٦ تشرين أول ١٩٨٧ م

الفترة الصباحية (٩٠٠ - ١٣٠٠)

رئيس الجلسة

المشاركون

- ١ - الدكتورة نجدة الخماش «الاجناد وادارتها»
- ٢ - الدكتور نقولا زياده «المراكز الادارية والعسكرية في بلاد الشام في العصر الاموي»
- ٣ - الدكتور جمال جودة « ملكية الاراضي في بلاد الشام أيام بني أمية »
- ٤ - Dr. Ulrich Rebstock "Observations on the Diwan al-Haraj and the Assessment of Taxes in Umayyad Syria".
- ٥ - الدكتور مصطفى العبادي « أضواء من الوثائق البريدية على الادارة الاموية »

The Shurṭa in Early Umayyad Syria

Dr. Fred M. Donner - ٦

١٤٠٠ تناول طعام الغداء

الفترة المسائية (١٦٠٠ - ١٩٠٠)

رئيس الجلسة

المشاركون

- ١ - الدكتور عبد الفتاح الحموز «اسهام القراء الشاميين في العهد الاموي في النشاط اللغوي المبكر من خلال اختياراتهم القرائية»
- ٢ - الدكتور محمود حسني محمود «قراءة ابن عامر: مصادرها وموقف النحاة منها»
- ٣ - الدكتور صالح درادكة «طريق الحج الشامي في العهد الاموي»

الثلاثاء .

٥ ربيع الاول ١٤٠٨ هـ
٢٧ تشرين اول ١٩٨٧ م

الفترة الصباحية (٩٠٠ - ١٣٠٠)

رئيس الجلسة المشاركون

- ١ - الدكتور رضوان السيد «الخلافة والملك - دراسة في الرؤية الاموية للخلافة»
 - ٢ - الدكتور نبيه عاقل «مولد الحزبية السياسية وقضية الحكم»
 - ٣ - Dr. Goto, Akira «Marwan b. al-Hakam, His Supporters and His Bayt»
 - ٤ - الدكتور ابراهيم بيضون «مؤتمر الجابية: دراسة في نشوء خلافة بني مروان»
 - ٥ - الدكتور عبد الأمير دكسن «مراسيم الخلافة»
- ١٤٠٠ تناول طعام الغداء

الفترة المسائية (١٦٠٠ - ١٩٠٠)

رئيس الجلسة المشاركون

- ١ - الدكتور نجدة خماش «الجيش الشامي (العناصر، التعبئة، القيادة)»
- ٢ - الدكتور عمر عبد السلام تدمري «ثغور بحر الشام ودورها الجهادي في العصر الأموي»
- ٣ - Dr. Walter Emil Kaegi «Observations on Warfare Between Byzantium and Umayyad Syria»

الأربعاء

٦ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ

٢٨ تشرين أول ١٩٨٧ م

الفترة الصباحية (١٥٨ - ١٢٣٠)

رئيس الجلسة

المشاركون

١ - الدكتور محمد خريسات «دور غسان في الحياة العامة في صدر الاسلام»

٢ - الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم «الصقالبة ببلاد الشام في زمن الأمويين»

٣ - Dr. Robert Schick "The Fate of the Christians in Palestina During the Byzantine - Umayyad Transition, A. D. 600- 750".

٤ - الدكتور عبد المنعم جابر ابو قاهوق «السياسة الأموية تجاه أهل الذمة ومؤسساتهم في بلاد الشام»

٥ - الدكتور جورج عطية «الجدل الديني المسيحي - الاسلام في العصر الأموي واثره في نشوء علم الكلام»

٦ - Dr. A. Desreumaux "La Naissance D'une Nouvelle Ecriture Arameenne au Bilad Esh-Sham A l'Epoque Byzantine"

١٤٠٠ تناول طعام الغداء بدعوة من الأستاذ الدكتور محمد حمدان رئيس جامعة اليرموك في جامعة اليرموك.

قائمة المشاركين وعناوين بحوثهم

في

الندوة الثالثة
«بلاد الشام في العهد الأموي»

٢-٧ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ

٢٤-٢٩ تشرين أول ١٩٨٧ م

المملكة الأردنية الهاشمية

- ١ - الدكتور جمال جودة
جامعة النجاح
«ملكية الأراضي في بلاد الشام ايام بني أمية»
- ٢ - الدكتور صالح درادكة
الجامعة الأردنية
«طريق الحج الشامي في العهد الأموي»
- ٣ - الدكتور عبد الفتاح الحموز
جامعة مؤتة
«اسهام القراء الشاميين في العهد الأموي في النشاط اللغوي المبكر من خلال اختياراتهم القرائية»
- ٤ - الدكتور عبد المنعم جابر ابوقاهوق
جامعة النجاح
«السياسة الأموية تجاه أهل الذمة ومؤسساتهم في بلاد الشام»
- ٥ - الدكتور غازي بيشرة
دائرة الآثار العامة
“Qasr Mshash and Qasr Ain Al-Sil: Two Umayyad Sites in Jordan”
- ٦ - الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى
جامعة اليرموك.
«حولية ثيوفانيس : مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الأموي»
- ٧ - الدكتور محمد خريسات
الجامعة الأردنية
«دور غسان في الحياة العامة في صدر الاسلام».
- ٨ - الدكتور محمود حسني محمود
جامعة اليرموك
«قراءة ابن عامر: مصادر ومواقف النحاة منها».
- ٩ - الدكتور مروان أبو خلف
جامعة بيرزيت
«الأفاريز الرخامية المحفورة والمذهبة في العهد الأموي في قبة الصخرة المشرفة في القدس».

جمهورية السودان

١ - الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم «الصقالبه ببلاد الشام في زمن الامويين»

الجمهورية العربية السورية

١ - الدكتور محمد نبيه عاقل «مولد الحزبية السياسية وقضية الحكم»
جامعة دمشق

٢ - الدكتورة نجدة الخماش ١. «الاجناد وادارتها»

٢. «عناصر الجيش الشامي البري والبحري،
التعبئة، القيادة»

الجمهورية العراقية

١ - الدكتور عبد الأمير دكسن «من رسوم الخلافة في العصر الأموي».
جامعة بغداد

٢ - الدكتور عبد الواحد زنون طه «دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في
العصر الأموي»
جامعة الموصل

٣ - الدكتور جاسم صكبان علي «مصادر تاريخ بلاد الشام في العهد الأموي
المصادر السريانية»
«تاريخ ميخائيل السوري»

دولة الكويت

- ١ - الدكتور مصطفى عبد الحميد «من وثائق الادارة العربية في صدر الاسلام»
العبادي
جامعة الكويت

الجمهورية اللبنانية

- ١ - الدكتور ابراهيم بيضون «مؤتمر الجابية : دراسة في نشوء خلافة بني مروان»
الجامعة اللبنانية
- ٢ - الدكتور رضوان السيد «الخلافة والملك : دراسة في الرؤية الأموية للخلافة»
المعهد العالي للدراسات الاسلامية
في بيروت.
- ٣ - الدكتور عمر عبد السلام تدمري «ثغور بحر الشام ودورها الجهادي في العصر الأموي»
الجامعة اللبنانية
- ٤ - الدكتور نقولا زيادة «المراكز الادارية والعسكرية في بلاد الشام في العصر الأموي»
الجامعة الأمريكية ببيروت
- ٥ - Dr. Jean Maurice Fiey "The Umayyads In Syriac Sources"

المانيا الغربية

WEST GERMANY

1 — الدكتور رثيف خوري

« عبد الله بن لهيعة : (٧٩ -
١٧٤هـ / ٧١٥ : ٧٩٠م) وأممية
صحيفته المحفوظة في هيدلبرج في
دراسة التاريخ الاسلامي في القرن
الأول الهجري » .

2 — Dr. Ulrich Rebstock

“Observations on the Diwan
al-Haraj and the Assessment
of Taxes in Umayyad Syria”

فرنسا

FRANCE

1 — Dr. A. Desreumaux

“La Naissance D'une Nouvelle
Ecriture Arameenne au Bilad Esh-
Sham A l'Epoque Byzantine”

2 — Dr. Patricia Carlier

“Qastal al-Balqa': an Umayyad Site
in Jordan”

المملكة المتحدة

UNITED KINGDOM

- 1 — Dr. G. Rex Smith Some Umayyad Inscriptions of Bilad al-sham Palaeographic Notes.
- 2 — Dr. J. F. Healey “Syriac Sources and the Umayyad Period”
- 3 — Dr. Alastair Northedge “The Umayyad Mosque of Amman”
- 4 — Dr. G. R. D. King “The Umayyad Qusur and Related Settlements in Jordan”
- 5 — Dr. Gerald Hawting “Sanctuary Buildings in the Second Civil War in Bilad al-Sham”.

الولايات المتحدة الأمريكية

U. S. A.

- 1 — Dr. Donald Whitcomb “Evidence of the Umayyad Period from the Aqaba Excavations”
- 2 — Dr. Fred M. Donner The Shurta in Early Umayyad Syria
- 3 — Dr. Walter Kaegi “Observations on Warfare Between Byzantium and Umayyad Syria”
- 4 — Dr. Michael L. Bates “The Coinage of Syria Under the Umayyads 692-750”
- 5 — Dr. Robert Schick “The Fate of the Christians in Palestina During the Byzantine Umayyad Transition, A. D. 600-750”

٦ - الدكتور جورج عطية «الجدل الديني المسيحي - الاسلام في العصر الأموي واثره في نشوء علم الكلام»

اليابان

JAPAN

- 1 — Goto, Akira “Marwan b. al-Hakam; His Supporters and His Bayt”

فهارس النص

١. الاعلام

١٤٣	أ.أ. سميونوف
٣٨١، ١٧١	ابان بن عثمان بن حرب الأموي
١٤٣	ابراهيم بيضون
٣٥٤	ابراهيم الخليل
١٩٧	ابراهيم بن محمد بن علي
٣٥٠	ابراهيم بن هشام المخزومي
٣٥٦، ٢١٥، ١٢٨	ابراهيم بن الوليد
٩٨	أبرهة
٥٢	ابيماخوس
٢٣٢	البرت هربي
١٠٨	ابن ابي الحديد
١٣٧	ابن ابي الزناد
١٠٧، ١٠٦	ابن ابي شيبة
٢٩٩	ابن اثال النصراني
٣٦١، ٢٥٣، ٢٢٨، ٢١٢، ٢٠٩	ابن الأثير: علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني الجذري
٣٥٧، ٩٨، ٨١، ٣١	ابن اسحاق: محمد بن اسحاق بن يسار
٣٦٣، ١٥١، ١٣٠، ١٢٩	ابن الأشعث: سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشر
٣٥٣، ٣٢٠، ٣١٩، ٢٠٠	ابن اعثم: احمد بن اعثم الكوفي
٤٥٧، ٤٤٤، ٤٣٤	ابن بطوطة: ابو عبدالله محمد بن ابراهيم اللواتي
٢٤٧	ابن تغري: بردي جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغري بردي الظاهري
٦٠	ابن تيمية: تقي الدين ابو الغباس احمد بن عبد الحلیم الحراني
٢٨٣	ابن جبیر: أبو الحسن محمد بن احمد الكتاني
١١٠	ابن جريح
٣٩٩	ابن جرير: ابو جعفر محمد بن جرير الطبري

- ابن الجزري ٣٩١
- ابن الجوزي: ابو الفرج عبد الرحمن بن علي ٢١١
- القرشي البغدادي
- ابن حبيب: ابو جعفر محمد ١٤٣
- ابن جبير البغدادي ٢٠٥
- ابن حنبل: أبو عبد الله احمد بن محمد الشيباني ٤٢٥
- ابن حجر:العسقلاني شهاب الدين ٢١٦، ٤٠، ٣٦، ٢١
- أبو الفضل احمد بن علي الكتاني
- ابن الحكم ٣٧٤
- ابن حوقل: ابو القاسم محمد بن حوقل ٤٥٠، ٤٢٣
- ابن حوى السكسكي ٢٠٣
- ابن خرداذبه: ابو القاسم عبد الله بن عبد الله ٢٢٧، ٤٣٢، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٥٤
- ابن خلدون: ولي الدين ابوزيد عبد الرحمن ٣٦٧، ١٩٤، ٢٢
- بن محمد الحضرمي
- ابن خياط: خليفة بن خياط بن هبيره ١٦٩
- الشيبياني العصفري البصري ابو عمرو
- ابن ربيعه: عمر ٣٩، ٢٨
- ابن رسته: بن خرداذبه ابو علي احمد
- بن عمر ٤٣٢، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٣، ٤٥٤
- ٤٥٥، ٤٥٤
- ٤٤٦
- ابن زباله
- ابن زنجويه: حميد بن مخلد بن قتيبة ٢٠١
- بن عبد الله النسائي
- ابن الزبير الأزدي: عبد الله بن الزبير ٣٧، ٣٨، ٤٠، ١١٠، ١٣٤، ١٥٧
- بن العوام ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٧٠، ١٧٤، ١٨٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢٩، ٢٣٣، ٣٢٩

- ابن زياد ١٨٧
ابن سعد : ابو عبد الله محمد بن سعد ٣٣ ، ١٣٢ ، ١٤٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
بن منيع الزهري ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ،
٢٧٠ ، ٢٨٤ ، ٣٥٩ ،
ابن سلام : ابو عبد الله محمد الجمحي ٣٧٠
ابن شوذب ١٠٣
ابن طباطبا حجر ٢٨٨
ابن الطقطقي : فخر الدين ابو جعفر محمد ٢٥٠
بن علي
ابن طولون : شمس الدين محمد بن علي بن ٢٩٦ ، ١٦٩
محمد ابن عامر الحميري ابو الوليد ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ،
اسماعيل بن محمد ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،
٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
ابن عباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ١١٥ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٣٢٩ ،
ابن عبد الحكم المسعودي ٤٤ ، ٥١ ، ١٥١ ، ٢١٢ ، ٣٢١ ، ٣٦٠ ،
ابن عبيد القاسم بن سلاح اليهودي ١٣٣
ابن عبد ربه ابي عمر احمد بن محمد بن ١٧٦ ، ٢٣٤ ، ٣٥٣ ،
عبد ربه الأندلسي
ابن عبد الملك ٢٥٨
ابن عساكر ثقة الدين ابو القاسم علي بن ٣٩ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
الحسين بن هبة الله الشافعي ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٧٥ ،
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ،
٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٣٩ ،
٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٨١ ،
٣٨٣ ، ٤٤٠ ،
ابن العبري ابو الفرج غزيغوريوس بن ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩٩ ، ٣٥٥ ،
احدون الملطي
ابن العديم كمال الدين ابو القاسم عمر ٢٩٦
محمد بن احمد بن هبة الله
ابن عديس البلوي ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٠

٢١٠، ١٥١	ابن عذارى ابو عبدالله احمد بن محمد
	المراكشي
٣٢٩، ١٠٩، ٩٩	ابن عمر
١٣٩	ابن عليّه
٤٥٧، ٤٣٤	ابن فضل الله العمري شهاب الدين ابو
	العباس احمد بن يحيى
٤٣٨، ٤٣٣	ابن الفقيه الهجراني
٣٣، ٣٢	ابن مثنى
١٧٦، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٠،	ابن قتيبة عبدالله بن مسلم بن قتيبة
٣٥٥، ٢٩٣	الدينوري
١٦٤، ١٧٠، ٢٠١، ٢٣٣	ابن الكلبي ابو المنذر هشام بن محمد
	السائب
٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٣٦٠،	ابن لهيعة
٤٠٤، ٤٠٥	ابن مالك
٣٣	ابن المبارك
٢٠٣	ابن مزاحم
٢٠١	ابن مساحق الكناني
١٠٦	ابن مسعود
٢١٧	ابن معين
٤١٤	ابن منصور والد يوحنا
٢٠٠	ابن منظور جمال الدين ابو الفضل محمد
	بن مكرم الرديفي
٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠١	ابن النحاس
٢٩٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٧٧	ابن هبيرة
٣١، ١٥٠، ١٩٣، ٣٥٨، ٤٠٥	ابن هشام جمال الدين ابو محمد عبدالله بن
	يوسف الانصاري
٢٩١	ابن الوليد
٣٨، ٣٩، ١٩٣	ابن وهب الاسدي
٣٩	ابن يزيد
٢٩٣	أبو ادريس الخولاني

٢٩١	أبو ابراهيم العامري
١١١	أبو اسحق السبيعي
٧٦، ٦٩، ٦٠	أبو اسحق الفزازي ابراهيم بن محمد
٢٨٨	أبو اسحق الفزازي الشامي
٣٢٩	أبو ايوب الانصاري
١٠٩، ٦٤، ٦٢	أبو أمامه صدى بن عجلان الباهلي
٣٥١	أبو ايوب السعدي
٦٣	أبو بحرية الكندي
١٠٧	أبو بردة بن أبي موسى الأشعري
٦٨	أبو بشر
٩٧، ٨٥، ٨٤، ٨٣، ٦٩، ٦٧، ٦٣	أبو بكر الصديق
١٣٧، ١٣٢، ١٣٠، ١٠٧، ١٠٢، ٩٩	
٢٢٧، ١٩٩، ١٦٦، ١٤٠، ١٣٨	
٣٧٠، ٣٥٠، ٣٠٨، ٢٥٩، ٢٥٣	
٤٣٦، ٤٢٩، ٣٧٥	
٤٣٣	أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني
٣٦١، ١٣٧	أبو بكر بن حزم
١٤٢	أبو بكر بن عيَّاش
١٠٦	أبو بكره أخوزياد بن أبيه لامة
٣٧٠	أبو ثعلبة الخشني
٣٦، ٣٥	أبو ثور الفهمي
٣٨٤، ٣٧٩، ٢٣	أبو جعفر المنصور
١٣٩	أبو حازم
٣٦٩	أبو حاكم الهروي
٣٧	أبو حذيفة
٣٩٨	أبو الحسن علي بن حمزه الكسائي
٣٥٧، ١٢٩	أبو حمزه الخارجي
١٧٧، ١٧٦	أبو مخنف
٣٤٤، ٣٤٣، ٣٤٠	أبو خراسان الفارسي
١٥١	أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي

٢٩٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ١٣٣ ، ١٣٢	أبو الدرداء
٣٩٠	
٣١٧ ، ٢٢٨	أبو ذر الغفاري
٣٧٨	أبو يزيد الطائي
٢١٣ ، ١٣٣	أبو زرعه الدمشقي
٣٠	أبورفاعة عمارة بن وثيمة بن الفرات الفارسي
٣٩٦	أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء
٦٣	أبو الزهراء القشيري
٢١٧	أبو زياد يحيى بن عبيد الغساني
٦٩	أبو سراقه عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه
	الأزدي
٣٧	أبو سرح
٣٢٩	أبو سعد الخير
١٧٢ ، ١٦٧ ، ١٥٤ ، ١٤٧ ، ٧٦ ، ٦٥	أبو سفيان بن حرب
٤٤٩ ، ٤٣٦ ، ٢٢٧	
١٣٦	أبو سلمة بن عبد الرحمن
٣٤٠	أبو صفوان عبد الله بن بسر المازني
١٤٨	أبو طالب
٣٣٠	أبو طلحة زيد بن سهل الانصاري
٣٧٨	أبو العباس السفاح
٨٠	أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان
٤٠١ ، ٣٦٠	أبو عبيد معمر بن المثني
١١١	أبو العاص
٣٦٧ ، ٢٩٢ ، ٢٠٠ ، ١٤٩ ، ١٤٨ ، ٨٣	أبو عبيدة
٣٤٥	أبو عثمان بن خالد الجهني المراغي
١٧١ ، ٦٨ ، ٦٣	أبو عثمان الصنعاني
٢٠٣	أبو عثمان يزيد بن أسيد الغساني
٣٤١	أبو العلاء عبد الرحمن بن سليم الكلبي
٣٩٠	أبو عمران عبد الله بن عامر بن عمران
	اليحصبي

٤٣٤	أبو الفداء
٣٢٩	أبو فراس الشعابي
١٨٥	أبوليلي
٢٣٦، ٦٢	أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي
٣١٦، ١٩٩	أبو مريم الغساني
٤٠٢، ٤٠١	أبو مزاده
٢٤٤، ٩٤، ٩٣، ٢٣	أبو مسلم الخراساني
٩٤، ٩٣	أبو منصور
١٤٠، ١٣٩	أبو موسى الأشعري
٢١٢، ٢٠٩	أبو نائل رياح بن عبده الغساني
٣٩	أبو نعيم الأصبهاني
٢٠١	أبو النميس يزيد بن الاسود الغساني
١٣٩، ٩٩	أبو هريرة
٣٨٣	أبو الهيثام
٢١٥	أبو الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث
٣٨٠	أبو يحيى الكلبي
٣٦٨	أبو يوسف
٤١٠	أقناسيوس
٣٠١	أحمد بن طولون
١١٨	أحمد بن مروان المالكي
١٤٠	أحمد بن منيع
٦٥	أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري
١٨	أرتافاسدوس
٤١٧	آدم
٣٨٣، ٣٧٥، ١٩٩، ١٠٩، ٩٥	أسامة بن زيد بن حارثة
٤٧	استرهيو ابته سرجة
٢٤٦، ٢٢٠	استروچورسكي
٤١٨، ٤١٢، ٣٥٤، ٣٠	اسحاق بن بشر
٣٠١	اسحاق بن قبيصه
٣٣	أسد بن موسى

٣١	أسعد بن زرارة
٣١٧	أبو الدرداء الأنصاري
٢١٩	أغاثياس
٣٣٢	أكدر
٢٩٥، ٤٠	أسماء بن خارجة الفزاري
٣٩، ٣٨	أسماء بنت أبي بكر
٤١٥	اسماعيل
١٠٤	اسماعيل بن راشد
٣٤٧	اسماعيل بن عبد الله القسري
٨٤	أسيد بن حضير
٧٤	الأبرش الكلبي
١٠٩	الأحنف بن قيس
٢٨١	الاحوص
٢٩٥، ٢٣٣، ٢٣٢، ١٨١	الاخلط التغلبي
٤٤٦، ٤٤٥، ٤٤٢، ٤٤١، ٤٣٣	الادريسي
٤٥٦، ٤٥٤، ٤٥١	
٣٨٠، ٢٨٦، ٢١٥	الأزدي أبو زكريا يزيد بن محمد
٤١٥	الأريوسي
٤٥٤، ٤٤٨، ٤٤٧	الأسدي
٤٣٠	الاسكندر المكدوني
٣٤٨، ٣٤٧، ٣٤٦	الأسود بن بلال المحازي
٤٩، ٤٨	الأسود بن عدي
٢٠٥	الأشتر النخعي
٢٦٩، ٢٥٨، ٢٥٧	الأصبغ
٢١٤	الأصبغ بن ذؤالة
١٥٠	الأصبغ بن عمرو الكلبي
٤٥٠، ٤٣٣، ٢٨٣	الاصطخري
٤٤٠، ٢٠١، ١٩٠	الأصفهاني
١٩٨	الأصمعي
٣٨٩، ٣٤٥، ١٠٩، ٦٩، ٦٠	الأوزاعي

١٩٤	الأيهم بن النعمان الغساني
١٧١	أمامة
٥٠	أم اياس بنت معارك
٢٦٢، ٢٦١	أم البنين
١٠٢	أم حبيبة
٣١٧	أم حرام بنت ملحان
١٨٠	أم خالد
٢٢٦	امرئ القيس الكندي
٢٥٦	أم عمر
٣٦٨	أم العلاء الانصارية
٣٢٩	أم كلثوم
١١	أميانوس ماركلينوس
١٠٩	أنس بن مالك
٢٢١	انسطاس الأول
٤١٨، ٤١٧	أنوش
١٨	أوبسكيون
١٦	أوبستروجورسكي
٢٤٦	اوسيبينسكي
٢٧٦	ايزيدور الاشبيلي
٢٣٤، ١٦٥	ايمن بن خزيم بن فانك الاسدي
٢٧٠، ٢٦٥، ١٣٩	أيوب بن شرحبيل
٥٢	ب - بابدستولوس
٢٤٠، ٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٦	بارتولد
٢٤٥، ٢٤٤، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤١	
٢٤٩، ٢٤٨، ٢٤٦	
٥٠، ٤٧	باسيل
٣٢٣، ٣١٩	بروقوبيوس القيساري
١١	بروكوبيوس
٣٣٠، ٣٢٨، ٣٢٢، ٣٢١، ٢٠٣	بسر بن أبي ارطاة

١٣٧، ١٣٣	بسر بن سعيد
٣٦٧، ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣٢	بشر بن مروان
٢١٤	بشر بن الوليد
٣٥٣، ٨٤، ٨٣	بشير بن سعد
٢١٩	بطليموس
٥٠	إبن عبد الله بن عمر بن عبيد الله
٨٧، ٨٦	البغدادى
٣٧٦	بكر بن وائل
٤٣٠، ٤٣٣، ٤٤١، ٤٥٠، ٤٥٤	البكرى
٤٥٦	
٢٨٣، ٢١٩	بكيرش
٧٠، ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٥، ٤٤، ٣٦	البلاذرى
١١١، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥	
١٧٦، ١٨٩، ٢٠١، ٢٢٧، ٢٣٠	
٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٦٧، ٢٧٦	
٢٨٥، ٣٠٠، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٢٩	
٣٤٧، ٣٥٩، ٣٧٥	
٢٩٦	برال بن أبي الدرداء
١٨٦	بلج بن بشر القشيري
٢١٩	بلني الأكبر
٢٢١	بليزاريوس
٢١، ١٣	بلينيوس
٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠	بندلي صليبا الجوزي
٩٤	بيان بن سمعان
٤٣٢	بيركهارت
١٧	يورفيروجينوس
٢٤٧	بوشكين
٢٢٥	بيغوليفسكا

٢١٩	ت - تاستيوس
٢٢٢، ٢٢٥	تادويش لفيتسكي
٣٠٠	تاذري بن أسطين النصراني
٢٤٨	تشيخوف
٤٢٨	تريس
٢٤٨	تليستوي
٣٧٠، ٣٦٩	تميم الداري
٢٧٨	تيمورلنك
٣٦٥	تيوفانس
٤١٩	تيطوس
٤١٤	توما الاكوييني
٣٢٩، ٣٢٨	توافانس
٢٤٨	تورجينيف
٣٣٤	ث - ثابت بن معبد المحاربي الداراني
٤٢٥	ثيودور أبوقرة
٢٤٨	ثيودور نولدكه
١٦٠	ثور بن معن السلمي
٢٤٧، ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٤	ثيوفان
١١، ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨،	ثيوفانيس
١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥،	
٢٦	
٢١٩	ثيوفلاقط
١٩٨، ١٩٤	ح - الحارث بن أبي شمر
١٩٢، ١٤٤، ١٤٣	الحارث بن جبلة
٢١٥	الحارث بن عبد الرحمن الحرشي
١٤١	الحارث بن سريج
٢٠٣، ١٩٤	الحارث بن عمير الأزدي
٣٣٠	جنادة بن أمية الأزدي الدوسي

٢٠٧، ٢٠٣	حبيش بن دلجة القيني
٢٩٢	حبيب بن صالح
٢١٦	حبيب بن مرة
٣٧٩، ٣٦١، ٣٢٧، ٢٠٣	حبيب بن مسلمة الفهري
٢١٦	حجر بن الحارث الغساني
٢٩، ٤٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٥٠،	الحجاج بن يوسف الثقفي
٢٥٤، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٣،	
٢٧٩، ٢٩١، ٣٥٦، ٣٦٠، ٣٦٣،	
٣٤٨	حذيفة بن سعيد السلامي
٤٩	حوران
٤٣٣، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٧،	الحزبي
٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦،	
٢١٣	حريث
١٤٤	حسان بن ثابت
١٤٧، ١٧٦، ٢٠٣، ٢٠٧، ٣٥٩،	حسان بن مالك بن بحدل الكلبي
٣٨١	
١١٩	الحسن بن محمد بن الحنفية
١٩١، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠،	حسان بن النعمان
٢١٢، ٢١١	
١٠٨، ١١٣، ١١٩، ١٢٠، ١٣٨،	الحسن البصري
١٤٠، ٤٢٣،	
١٠٣، ١٠٤،	الحسين بن علي
٤٢٣	
٣٩٥	حسين عطوان
٧٢	حسين نصار
١٤٠	حشرج بن نباته
١٥٦، ٣٥٦، ٣٥٨،	الحصين بن نمير
٢١٣	حظوه
٢٨٢	حفص بن عمر بن سعيد بن عبد العزيز
	الأزدي

٣٤٧	حفص بن الوليد الحضرمي
١٧١	الحكم الزبيري
٢١٥	الحكم بن ضبعان الجذامي
١٧١	الحكم بن العاص بن أمية
٣٨٨	الحكم بن نافع البهراني الحمصي
٧٣	حماد بن سابور بن المبارك
٤٥٢، ٤٤٥	حمد الجاسر
٢٠٣	حمزه بن مالك
٢٩٥	حميد بن حريث
٣٨٠	حميد بن عمرو بن مساحق القرشي
٢١٤	حميد بن نصر اللخمي
١٥١، ١٣١	حنظلة بن صفوان الكلبي
٥١	حيان بن سريح
٧٣	حيدر اباد الدكن
٣٤٥	حيي بن أبي كثير الجذامي
١٠٩، ٩٩	ج - جابر بن سمرة
٢٣٧، ٢٢٢	الجاحظ
٤١٠	جارتليمي الرهاوي
٤٢٢	الشيخ الجاسر
٢٢٨	جولد زمير
١٥٣	الجامح
١٤٧، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٨،	جبله بن الأيهم
٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩	الزهري
١٥٠، ١٤٧، ١٣٧، ١٣٦، ١٣٥، ٧٨	
٢٥٩، ٢٤٩، ٢٩٣	
٢٠٩	زهير بن قيس البلوي
٣٩٨	زهير غازي زاهد
٣٨٢	زويد الكاتب
١٥٢	زياد بن أبيه
٢١٥	زياد بن أبي ليلى الغساني

١٧٤	زياد بن عمرو بن معاوية العقيلي
٤١٦، ١٥٠، ١٣٤، ١٠٩	زيد بن ثابت
٩٤، ٦٨	زيد بن علي
٤١٦	زينب بنت جحش
٢٨٩، ١٣٦، ٦٨، ٦٧	س - سالم بن عبد الله
٤٠٩	ساويروس الانطاكي
١٨	سابوريوس
٤١٠	ساويروس سوخت
٥٤	سيطه
٢٢٩	سترسين
٣٥٣، ٣٤٢، ٣٤١، ٣٤٠، ٣٣٩	سحيم بن المهاجر
٤١٤، ٢٩٩، ٢٢٨	سرجون بن منصور الرومي
٤٠٩	سرجيوس الراسعيني
٢٠	سعد بن بطريق
٨٤، ٨٣، ٨٢	سعد بن عباد
١١١، ٧٠	سعيد بن ابان بن سعيد بن العاص
٢٠٦	سعيد بن انس الغساني
٩٥	سعد بن أبي وقاص الزهري
١٣٣	سعد بن أبي وقاص
١٥٣	سعيد بن بحدل الكلبي
٢٩٢	سعيد بن جبير
١٤٠	سعيد بن جهمان
٢٩٨	سعيد بن روح
١٧٠، ١٥٥، ٩٦	سعيد بن العاص
٣٧٧، ٢٩٨، ٢٧٦	سعيد بن عبد الملك
٣٢٨، ٢٩٣، ١١	سعيد بن عبد العزيز التنوخي
٣٤٢	سعيد بن عمرو بن الاسود الحرشي
٢٥٩، ١٣٧، ١٣٦، ١١٠	سعيد بن المسيب
٢٨٨	سعيد بن الوليد بن عمرو بن جبلة الابرش

٢٣٢	سعید بن یزید
٣٨٠	سفيان بن الأبرد بن ابي امامه
١٦٠	سفيان بن الأبرد
٢٠٧، ١٥٩، ١٥٦	سفيان بن الأبرد الكلبي
٣٦٦، ٣٥٦	سفيان بن عون الأزدي
٦٠	سفيان بن عينيه
٣٨٩	سفيان الثوري
٣٤٠	سفيان الفارسي
٣١٧	سلمان الفارسي
٢٩٥	سليم بن عتر
٢٤٨	سليم قبعين
٢٥٢	سليمان بن ابي جعفر المنصور
٤٣٩	سليمان بن أبي السري
٢٩٤، ٢٩٣، ١٣٦	سليمان بن حبيب
٢٩٩	سليمان بن سعد
٢٣، ٦٦، ٧٤، ١٢٥، ١٣٦، ٢١٢،	سليمان بن عبد الملك
٢٣٤، ٢٤١، ٢٥٤، ٢٦٣، ٢٦٧،	
٢٧٢، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣١٢، ٣١٤،	
٣٤٣، ٣٤٥، ٣٦٥، ٣٧٢،	
٣٧٢	سليمان بن عتبه
٢٠٩	سليمان بن قيس
٣٦٣	سليمان بن مسروح البربري
٢١٤، ٣٥٦، ٣٥٥، ٣٦٣،	سليمان بن هشام
٣٠٣	سلوقس نيكاتور السلوقي
٢٠٤	سماك بن خرشه الجعفي
٤٥٤، ٤٤٨، ٤٤٦	السمهودي
٤٧	سيار بن سهل
٦٣، ٦٥، ٦٧، ٩٦، ٩٧، ١١٢، ١١٣،	سيف بن عمر
٤٠٢، ٣٩٨	سيبويه
٤٠٥، ٢٠٥	السيوطي

٥٤	سرباطه
٢٤٧	سويرس بن المقفع
٢٤٦	ش - شارل دييل
٤٣٧، ١٣٢	الشافعي
٧٢، ٥٩	شاكر مصطفى
٣٥٦	شبيب الخارجي
٢١٤، ٢١٣	شبيب بن مالك الغساني
٣٥١	شبيب بن يزيد الشيباني
٣١٧	شداد بن أوس
٣٤٦	شديد بن قيس بن هاني اليزني
٦٣	شراحيل بن مرثد
١٧٥	شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري
١٩٩، ١٩٧، ١٩٤	شرحبيل بن عمرو الغساني
٣٧٣	شرحبيل بن السمط
٣٤٦	الشرف بن يزيد
١٤٠	شريح بن النعمان
١١٣	الشعبي
٥٢	شنوده
٨٧، ٨٦	الشهرستاني
٢٩	شوت
٤٢٧، ٤١٨	شيث
٣٤٨	ص - صالح بن علي
٥٦	الصدفي
١٠٥، ١٠٤	صعصعة بن صوحان
٣٨٠	صفوان بن أمية
٣٤٢	الصقر بن صفوان
٢٧٤	صلاح الدين الأيوبي
٢١٨	صلاح الدين عثمان هاشم

٤٥٧،٤٤٤

٥٤،٥٣

٢٩٩

الصلاح الصفدي

صموئيل

الصولي محمد بن يحيى

١٠٩، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،

١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣،

١٦٤، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧،

١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨،

١٩١، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٩٠،

٢٩١، ٢٩٢، ٣٠٢

٦٣

٢٥، ٣٧، ٤٤، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦،

٦٧، ٦٩، ٧٤، ٨٣، ٨٤، ٩٦، ١٠٤،

٧٥، ١٤١، ١٤٩، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦،

١٦٩، ١٧٥، ١٧٦، ٢٢٨، ٢٣٠،

٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٠،

٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧،

٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٧،

٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٤،

٢٨٥، ٢٨٨، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٢١،

٣٤٩، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩،

٣٨٦، ٣٩٩، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٤،

٤٤٦

٢١٤

٢٢٢، ٢٢٣

ضرار بن الأزور

ط - الطبري

طلحة بن سعيد

طبريوس الثاني

٢٥٣

ظ - الظاهر

٤٠، ٧٩، ٨٢، ١٠٦، ١٣٢، ١٣٧،

٧٦، ٧٧

ع - عائشة (أم المؤمنين)

عاصم بن عمر بن قتادة

٣١٧، ٢٩٢، ٦٢	عبادة بن الصامت بن قيس
٢٩٦، ٢١٣، ١٣٦، ٦٧، ٦٦، ٦٥	عبادة بن نسي الشامي الكندي
٢٩٧	العباس بن عبد المطلب
٢١٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٣٤٨، ٣٤٢	العباس بن الوليد
٣٥٠	
٢١٦	عبد الاعلى بن مسهر ابودارمه الغساني
١٧١، ١٧٠	عبد الله الأصغر
٩٩	عبد الله بن أبي الهذيل
٢٠٣	عبد الله بن الحارث السكوني
٢٦٤	عبد الله بن الحسين
٦٢	عبد الله بن حواله الازدي
٣٥، ٣٨، ١٢٧، ٢٢٨، ٢٥٦، ٢٥٩	عبادة بن الزبير
٢٦٠	
٣٥٦	عبد الله بن رميثة الطائي
١٧٧، ١٦٥	عبد الله بن زياد
٢٠٩	عبد الله بن زيد الحكمي
٢٥١، ٨١	عبد الله بن سبأ
٣٢٤، ٣٢٢، ٣٢١، ٣٧	عبد الله بن سعد بن أبي سرح
٢١٦	عبد الله بن سعيد بن عبد الملك بن مروان
٣٢	عبد الله بن سلام
٣٨٨	عبد الله بن صالح العباسي
٢٩٤، ١١١	عبد الله بن عامر
٢١٦	عبد الله بن علي
٩٥	عبد الله بن عمر بن الخطاب
٣٨٩	عبد الله بن علي العباسي
١٠٠، ٤٠	عبد الله بن عمرو بن العاص
٢٥٨	عبد الله بن عبد الملك
٥٢	عبد الله بن عبيد الله
٣٢٩	عبد الله بن قيس الجامي
٦٣	عبد الله بن قيس الكندي

٣٣، ٢٧	عبد الله بن لهيعة
١٠٧	عبد الله بن مسلم الفهري
٣٧٢	عبد الله بن محمد
١١٠	عبد الله بن محيريز
٣٦٠	عمارة بن تميم
٩٤	عبد الله بن معاوية
٣٥	عبد الله بن مسعود
٣٣٠	عبد الله بن مكرز بن الأحنف القرشي العامري
٣٤، ٣٣	عبد الله بن المبارك
٢٠٣	عبيد الله بن عمرو
٦٧	عبد الله بن الوليد
٢٤٢	العباس بن الوليد
٤١، ٤٠، ٣٤، ٣٣، ٣٢، ٢٧	عبد الله بن وهب
٤٣٢	عبد الله الوهبي
٢١٧، ٢١٥	عبد الله بن رياح الغساني
١٠٨	عبد الجبار بن احمد
٦٧	عبد الحميد بن يحيى الكتاب
١٣٨، ١٠٦	عبد الرحمن بن أبي بكره
١١٠	عبد الرحمن بن الاسود بن عبد يغوث
١١٩	عبد الرحمن بن الاشعث
١٧٧، ١٧٦	عبد الرحمن بن ام الحكم الثقفي
٦٧، ٦٢	عبد الرحمن بن جبير
٢٩٦	عبد الرحمن بن الحساس
٣٦٧، ٢٣٠، ٢٠٣	عبد الرحمن بن خالد
٣٥٣	عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي
٣٧	عبد الرحمن بن عديس
٩١	عبد الرحمن بن عوف
٦٨، ٦٢، ٥٩	عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي
٦٤	عبد الرحمن بن غنم الاشعري

٢٠٣	عبد الرحمن بن قيس القني
٣٤٢	عبد الرحمن الكلبي
١٥٨	عبد الرحمن بن جحدم الفهري
١٢٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،	عبد العزيز بن مروان
٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٨٣	
٤٥٩	عبد الغني النابلسي
٣٧٥	عبد الملك حفص بن عمر بن سعيد الأزدي
٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ٦٦ ،	عبد الملك بن مروان
٦٦ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ١٠١ ،	
١١٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،	
١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،	
١٧١ ، ١٧٧ ، ٢١١ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،	
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ،	
٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،	
٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣٣٩ ،	
٣٥٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ،	
٤٠٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٢	
٣١٧	عبد الملك بن أبي ذر
٣١	عبد المنعم بن ادريس
٥٨	عبد الواحد ذنون طه
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩	عبيد بن أوس الغساني
٢٠٦	عبيد الخاتم
٧١ ، ٧٢ ، ٧٣	عبيد بن شريه الجرهمي
٥٦	عبيد بن سليم الاموي
١٣٦	عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
١٦١ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٥٣	عبيد الله بن زياد
١٣٩ ، ١٤٠	عتبه بن غزوان
١٧١	عثمان الاصغر
٢٦١	عثمان بن حيان
٣٢	عثمان بن صالح

١٠٤
٢١، ٣٥، ٣٨، ٦٥، ٦٦، ٨٦، ٨٧،
٨٨، ٨٩، ٩٤، ٩٦، ١٠١، ١٣١،
١٥٠، ٢٣٩، ٢٩٦، ٣٠٨، ٣١٥،
٣١٦، ٣٢٠، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٦٥،
٣٧٨، ٣٧٦

١٥٤
٣٦٨
٢٣٥
١٩٨
٢١٣، ١٣٦
١٣٧
٢٥٩، ١١٠، ٧٦، ٧٥
٢٠٦
٣٥٨
٧٠
٣٢٨
١٢٠
٢١١
٣٦٥
٧٣
١٣٢
٢٣٤
١٩٨
٣٦٥
٦٥
٦٢، ٩٢، ٩٤، ١٠١، ١٠٨، ١١٦،
١٢٠، ١٢٩، ١٧٢، ١٩١، ٢٩٧،
٣٦٩، ٣٦٧، ٣٢٥
٧٠

عثمان بن عبد الرحمن
الخليفة عثمان بن عفان

عثمان بن محمد
عثمان بن مظعون علي
عدي بن أرطاة
عدي بن حاتم الطائي
عدي بن عدي
عراك بن مالك
عروة بن الزبير بن العوام
عروة بن المنذر الغساني
عروة بن مسعود
عقيل بن أبي طالب
عقبة بن عامر بن عبس الجهني
عقبة بن عبد الفاخر العوزي
عقبة بن نافع
علاء بن الحضرمي
علاقة بن كريم الكلوي
علقمة بن أبي علقمة
علقمة بن زيد الغطيفي
علقمة بن علاثة
علقمة بن مجزر المدلجي
علي بن أبي حملة القرشي
علي بن أبي طالب
علي بن احمد بن سعيد بن حزم

غيلان الدمشقي
غيلان بن مسلمة

٤٢٣
٣٥٨

ف - فاسبيان

فاسيليف

فرعون

الفراني

الفراء

فارنشسكو غربريللي

الفرزدق

الفزاري

فريدولين

فضالة بن عبيد الأنصاري

فكتور روزن

فلهاوزن

٤١٩

٢٤٧، ٢٤٦، ٢٢١، ٢٢٠

٢٥٧

٢٨٨

٤٠١

٨٠

٢٦٤، ٢٣٣، ٢٣٢، ١٨١

١٨٥

٤٣٢

٣٣٠، ٢٩٣

٢٤٦

٢٤٣، ٢٤١، ٢٤٠، ٢٣٩، ٢٣٨، ٩٢

٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥

٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٧٥

٢٧٦

٣٠٢

٣٠٧

فوكاس

فيلارخ

ق - القاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق

قببصه بن ذؤيب

قدامه بن جعفر

١١٢، ١٢٥، ١٣٦

١٣٥، ٢٨٨، ٢٨٢

٢٨٢، ٤٣٣، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٥

٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٤

٤٥٦

٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٤

٢٢٢، ٢٢٤

٥٢

٢٤، ٣٣٢

قره بن شريك

قسطنانس الثاني

قسطنطين ببطلس

قسطنطين الرابع

٢٤٨ . ٢٢٤ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٤	الامبراطور قسطنطين الخامس
٢٤٨	قسطنطين زريق
٥٠	قطر بن جمول
٢٤٢	قطري بن الفجاءة المازني
٤٣٩ ، ٤٣٨ ، ٤٣٤ . ٣٠١ ، ٢٩٠	القلقشندي ابن العباس محمد بن علي
٣٣٩	قلقط
٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢١ ، ٣١٧	قنسطانز
٤٩ ، ٤٨	قيار
٢٤٩ ، ١١٦	قيس بن سعد بن عباده
١٧٥	قيس بن طريف الهلالي
١٢٨	قيس بن هاني العبسي
٢٤٩	ك - كايثاني
٤٢ ، ٢٩	كارل هايزيخ بيكر
٤٣٢	كاستيو
٣٣٤ ، ٣٣١ ، ٢٣	كالينيكوس
٢٧٨	كثير عزه الخزاعي
٢٤٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٤٣١	كراتشكوفسكي
٤٦٣	كريسويل
٢٧٥	كريم
٢٤٥	الكسندروفتش فاسيليف
٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢١٢ ، ٢٠٩	كعب بن حامد العبسي
١٩٨	كعب بن مالك
٢٩٤	كلثوم بن زياد المحازي
٣٥٦ ، ٣٥٥ ، ٢٩٧	كلثوم بن عياض
٣٢١ ، ٢٧٠ ، ٢٥٧ ، ٢٤٧ ، ٥٦ ، ٥٥	الكندي
٩٤	الكوبي
٢٢ ، ٢٠	الكولوسوس
١٨	كونستافس
٤٤٦	كيع

١١٦، ٢٥٩، ٦١
٣٧٨
٩١
١٩٤
٣٨
٢٥، ٣٤، ٤٥، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٦٧،
٧٠، ٨٣، ٨٤، ٩١، ١٠٠، ١٠٢،
١٠٧، ١١٢، ١١٣، ١٣٠، ١٣٥،
١٤٧، ١٤٨، ١٦٣، ٢٠١، ٢٥٦،
٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٦، ٢٧٥، ٢٧٦،
٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٦، ٣٠٨، ٣٠٩،
٣١٥، ٣١٦، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٥١،
٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢،
٣٧٣، ٣٧٨، ٤٣٧، ٤٤٢

علي بن الحسين
علي بن عبد الله بن عباس
علي زين العابدين
عمار بن ياسر
عمارة بن غزية
عمر بن الخطاب

٩٥
١٢٩
٢٤٣
٢٢٤
٢٣، ٢٥، ٥١، ٥٦، ٦٥، ٦٦، ٦٨،
٦٩، ٧٠، ٧٣، ٧٧، ٧٨، ١١٧، ١١٩،
١٢١، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩،
١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ٢١٣،
٢١٤، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢،
٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٠،
٢٢٦، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦،
٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣،
٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٦،
٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٤٥، ٣٥١،
٣٥٧، ٣٦٠، ٣٧٧، ٣٨١، ٣٨٣،
٣٨٤، ٣٩١، ٤٠٨، ٤٣٩، ٤٣٩

عمران بن حصين الخزاعي
عمر بن شبة
عمر بن هبيرة الفزازي
عمر بن الوليد
عمر بن عبد العزيز

٣١٥	عمر عبد السلام تدمري
٢٧٠	عمر الحجاج بن يوسف الثقفي
١١٠، ١٦٦، ١٦٥، ١٥٦، ١٧٢،	عمرو بن سعيد
١٧٦، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٨	
٣٧، ٤٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٥٠،	عمرو بن سعيد بن العاص
١٥٤، ٢٠٨، ٣٢٦، ٣٤٩، ٣٦٧،	
٣٧٣، ٤١٠، ٤١١	
٥٥	عمرو بن عطاس
١٤٩	عمرو بن عنبه
٢١٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٤٥،	عمرو بن قيس الكندي
٥٧	عمرو بن كلثوم
٧٤	عمرو بن مروان الكلبى
٢١٥	عمرو بن الوضاح
٢٠٧	عمرو بن يزيد الحكمى
١٣٦	عروة بن أذينة
١٨٨، ١٨٧	عمير بن الحبار السلمى
١٣٧	عمرة بنت عبد الرحمن
٤١١	عمير بن سعد بن أبى وقاص الانصارى
١٠٥	عمير بن هانىء
٣٣٠	عياض بن الحارث
٢٨٩	عياض بن مسلم
٣٤٧، ٣٤٨	عياش بن عقبة
٧٥	عوانه بن الحكم بن عوانه الكلبى
٢١٤	عيسى بن شبيب التغلبى

٣٦٩	غ - الغزالي
٢٠	غريغوريوس
١٣٥	غضيف بن الحارث الثمالى
٢٣٣	غوثن بن الصلت
١٣٠	غولدزيهر

٢٠١	كيونس بن عمرو الغساني
٣٩٧	م - مازن مبارك
٢٨٢	ماسرجويه
٢٨٩، ١٣٣، ٩٨، ٣٢	مالك بن أنس
١٧٣	مالك بن حسان
٢٠٢	مالك بن زيد بن كهلان
٣٧٨	مالك بن طرفه
٣٣٠، ١٧٦، ١٧٣، ١٦٥، ١٥٦	مالك بن هبيرة السكوني
٤٣١	ماينورسكي
٢٨٧، ٣٧٢، ٢٧٧	المأمون العباسي
٣٦٦، ٣٤٧	المتوكل العباسي
١١٢	المتنى بن حارثه
٣٣١	مجاهد بن جبر
٣٦٩	مجير الدين الحنبلي
٢٤٦	محبوب أغابوس
٣٧	محمد بن أبي حذيفة
٦٦	محمد بن اسماعيل النجاري
٣٠	محمد بن اسحاق بن محمد بن اسحاق
٧٣	محمد بن اسحق بن النديم
٩٤	محمد الباقر
١٠٠	محمد بن جبير بن مطعم
٣٩٨	محمد بن جرير الطبري
٤٧	محمد بن حاتم
١٢٠، ٩٣	محمد بن الحنفية
١٢٠	محمد بن راشد
٧٤	محمد بن السائب الكلبى
٦٦	محمد بن سعد
١٣٤	محمد بن شهاب
٤٤٦، ٩٢	محمد بن عبدالله

٣٠٢	محمد بن عبد العزيز
٢٣٧	محمد عبد الهادي أبوريقة
١٩١	محمد عبد القادر خريسات
٢٧٥	محمد بن عمرو بن سعيد بن العاص
٦٦	محمد بن عمر الواقدي
٤٠٠	محمد بن القاسم المعروف بأبي بكر بن الانباري
٣٩٨	محمد بن المستنير
٩٥	محمد بن مسلمة الانصاري
٢٨٥، ٢٧٠	محمد بن مروان
٧٧	محمد بن مسلم بن شهاب الزهري
٢٧٩	محمد بن يوسف
٢٠٣	مخارق بن الحارث الزبيدي
٩٢	المختار بن أبي عبيد الثقفي
٧٠	مخرمة بن نوفل
١٠٤، ١٠٧، ٢٤٠، ٢٥٥، ٢٦٤،	المدايني
٢٩٧، ٢٦٥	
٢٤٥	مدينكوف
٤٦٢	مروان أبو خلف
١٥٦	مروان أبو عشيرة
١١١، ١٤١، ١٥١، ١٥٦، ١٦٠،	مروان بن الحكم
١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٧١،	
١٧٢، ١٧٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٣٣،	
٢٤٣، ٢٥١، ٢٥٨، ٢٧٧، ٢٨٢،	
٢٨٦، ٢٨٧، ٣٥٣، ٤٤٧،	
٣٥٦	مروان بن الكوثر بن الأسود العنبري
٢٩٨	مروان بن عبد الله بن عبد الملك
١٤، ٢٤، ١١٨، ١١٩، ١٢٣، ١٢٤،	مروان بن محمد
١٢٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢٣٠، ٢٤٣،	
٢٤٤، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٧،	

٣١٤ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،
٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٨٥

٢٣٩ ، ٢٣١

٢٦٩

٢٥٩

١٥١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٣ ،

٢٠٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٩ ،

٢٧٨ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،

٤٣٣

١٥٤ ، ٢٠٣ ، ٢٩٠

١٢٠

٦٥ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٤٢ ، ٢٨٤ ، ٣٠٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ،

٣٤٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧

١٠٩ ، ٢٥٦

١٠٧ ، ١١٠

٨٥

٨٥

٤٣

١١١ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٥٧ ، ٣٥٨

١٢٠

٤٤٩

٣٥٦

١٠٥ ، ٢٩٢

١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ٦٢ ،

٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١٠١ ،

١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٤٩ ، ١٧١ ، ٢١٠ ،

٢٤٤ ، ٢٩٥ ، ٣٤٩ ، ٣٧٦ ، ٤٠٨

١٢٠ ، ٤٢٣

٢٤٩ ، ٢٥٠

مروان الثاني

المستنجد بالله العباسي

مسروق العكي

المسعودي

مسلم بن عقبة المري

مسلم بن يسار

مسلمة بن عبد الملك

مسلمة بن مخلد

المسور بن مخرمه

مسيلمة بن حبيب الحنفي

مسيلمة بن ثمامه

مصطفى العبادي

مصعب بن الزبير

مطرّف بن عبد الله بن الشخير

المظري

مظهر بن حر العكي

معاذ بن جبل

معاوية بن أبي سفيان

معبد الجهني

المعتضد بالله

٢٧٧	معاوية مروان بن الحكم
٣٨٦، ٣٤٦	معاوية بن هشام بن عبد الملك
٢٩٧	معاوية بن الوليد بن عبد الملك
٢٩٨، ١١١	معاوية بن يزيد
٩٣	المغيرة بن سعيد
٩٤	المغيرة بن سعد العجلي
١٠٦	المغيرة بن شعبة الثقفي
٣٤٥	المغيرة بن عمرو الأزدي
٣١٧	المقداد بن الأسود
٤٣٣، ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥١	المقدسي
٤٥٦، ٤٥٤	
٣٦٦، ٢٤٧	المقريزي
٣٩٢، ٣٩٥، ٣٩٩، ٤٠٥، ٤٠٦	مكي بن أبي طالب
٣٣١	المنبجي
٣٤٧	المنذر بن أسد بن عبد الله
٢١٤، ١٢٨	منصور بن جمهور الكلبي
١٩٣	المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني
٢٩٩	مهاجر بن عبد الرحمن بن خالد
٢٥١، ١٣٨، ١٣١، ٩٤	المهدي
٤١٧	مهليل
٩٩	موسى الأشعري
١٠٤	موسى بن عبد الرحمن
٢٢٢	موريقي
٩٢	مونتغومري دات
٣٦١	ميخائيل السرياني
٢٤٨	ميخائيل نعيمة
٢٠٠	ميسره بن مسروق العبسي
٤٠٨	ميسون أم يزيد
٣٧٨	ميمون بن حمزه
٣٤٦	ميمون بن مهران

٤١٦	مييني
٢٤٤	ن - ن.أ. مدنيكون
٢٩٥	نافع بن أثال النصراني
٢٠٣، ١٨٠، ١٧٤، ١٦٣، ١٥٨	نائل بن قيس الجذامي
٣٩١	نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني
٣٤٩	نجدة خماش
٧٤	نضر بن شميل الحميري
٤١	نعيم بن حماد
١٧٥، ١٧١، ١٦٣، ١٥٨، ١٣٣، ٨٣	النعمان بن بشير الانصاري
١٧٤	
٢١٦	النعمان بن منذر الغساني
٢٤٧، ٢٢٥، ٢٢٤	نقفور
٣٠٣	نقولا زيادة
٣٧٦	النمر بن قاسط
٣٠٧، ١٤٥، ٣٨	نولدكه
٢٠٤	النويري
١٤١	نوح
٤٩	نير بن قيس
١٧، ١٦	نيكيفوروس
٤١٢، ٣١٠، ١٤٢	هـ - هارون الرشيد
٢٠٤	هاشم بن عتبة
٢١٥	هاشم بن عمرو القيسي
١٠٩	هذيل بن شرحبيل
١٩٢، ١٥٠، ١٤٧، ١٣٨، ٦٧، ٦٣	هرقل
٢٢٧، ٢٢٢، ٢٠٠، ١٩٨، ١٩٧	
٣٧٢	
٢٥٩	هشام بن اسماعيل المخزومي
١٠٦	هشام بن عمار

هشام بن عبد الملك

١٨ ، ٢٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٧ ،
٧٨ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،
١٣٦ ، ٢١٢ ، ٢٤١ ، ٢٧١ ، ٢٨٧ ،
٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣١٤ ،
٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ ،
٣٦٤ ، ٤٠٨ ، ٤٢٣

٢١٧

الهيثم بن حميد الغساني

١٨٩

الهديل بن زفر بن الحارث

٢٠

هليوس

٢٣٧

هنري لامنس

١٩٥ ، ٢٠٦ ، ٣٧٦ ، ٤٣٣ ، ٤٤٧ ،

الهمداني

٤٥٤

٢٣

هيرودوتس

٣١٣

هيردوس الكبير

٤٤

هوتشو

٢٢٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

ل - لامنس

٣٣٩

لاوبن فلنط

٤٦٣

لفان بيرشيم

٢٣٤ ، ٢٣٦

لفيتسكي

٣٠

لقمان الحكيم

٣٤٣

الليث بن تميم الفارسي

٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

الليث بن سعد

٢٦٩ ، ٢٧١

ليفوند

٣٦

ليفي ديلافيدا

١٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩

ليون الثالث

١٧

ليون الرابع

١٧

ليون الخامس

٢٤٥

ليون كاتياني

٣٧٤	و - وأئله بن الاسقع
٤٢٤، ٤٢٣	واصل بن عطاء
١٩٩، ١٩٨، ١٧٤، ٦٧، ٦٦، ٤٤	الواقدي ابو عبدالله محمد بن عمر السهمي
٢٥٥، ٢٤٠، ٢٢٧، ٢٠١، ٢٠٠	المدني
٣٥٩، ٣٣٦، ٢٦٥، ٢٥٩، ٢٥٨	
٥٦	الوايلي
٦٨، ٦٢	الوضين بن عطا
٢١٣، ٤٣٣	وكيع
٢٠٧، ١٦٨، ١٥٩، ١٥٦، ١٥٤	الوليد بن عتبة
٧٣	الوليد بن روح بن الوليد بن عبد الملك
٢٩٧	الوليد بن عبد الرحمن
٣٧٨	الوليد بن عقبة بن أبي معيط
١٣٥، ١٢٦، ١١٧، ٧٦، ٧٣، ٥٥	الوليد بن عبد الملك بن مروان
٢٨٦، ٢٧٠، ٢٦٠، ٢١٢، ١٤١	
٢٨٧، ٢٤٢، ٢٤٠، ٤٣٨، ٣١٤	
٤٣٨، ٣٦٦، ٣٥٠، ٣٤٩، ٣٤٧	
٢١٦	الوليد بن معاوية
٣٧٤، ٦١	الوليد بن مسلم
٣٤٥	الوليد بن هشام المعيطي
١٢١، ١٠٨، ٧٨، ٦٨، ٦٧، ٢١	الوليد بن يزيد
١٣٨، ١٣٦، ١٣١، ١٢٩، ١٢٧	
٢٨٩، ٢٤٣، ٢١٣، ١٩٢، ١٤١	
٤٤٢، ٤٤٠، ٣٦٠، ٣١٣، ٢٩٨	
٧١، ٣٣، ٣١، ٣٠، ٢٩	وهب بن منبه
٤٣٤، ٣٨٥، ٣٦٩، ٢٨٥	ي - ياقوت الحموي
٢٧٥، ٢٧٦، ١٢٠	يحيى بن آدم
٣٨	يحيى بن أيوب
٣٨١	يحيى بن حمزة
٢١٦	يحيى بن الحارث الذماري الغساني

٣٤٦	يحيى بن سعيد الانطاكي
٧٠	يحيى بن سعيد بن ابان الاموي
٢٠٩	يحيى بن قيس بن حارثه
١٣٦	يحيى بن يحيى
٢١٦، ٢١٣، ٢١٢	يحيى الغساني
٣٧٤	يزيد بن ابي حبيب
٣٢٥	يزيد بن الاسود
٣٦٧، ٦٣	يزيد بن ابي سفيان
٣٤٦، ٣٤٥	يزيد بن مريم الثقفي المصيبي
٢٠٣، ١٧٨، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٦	يزيد بن ابي النمس الغساني
٢٠٨، ٢٠٧	
٢١٥	يزيد بن خالد القسري
٢١٤	يزيد بن سليمان بن عبد الملك
٣٣١، ٣٣٠، ٣٢٩	يزيد بن شجرة الرهاوي
٥٥	يزيد بن عبد الله
٢٩٣، ٢٩٢، ٢٧٢، ٢٣٥، ١٢٥، ٧٧	يزيد بن عبد الملك
٣٨٤، ٣٥٣، ٣٤٥	
٣٥	يزيد بن عمرو المعافري
٧٤	يزيد بن مصاد الكلبي
٢٩٤	يزيد بن عبيدة ابا ادريس
٤٨	يزيد بن قاسم
١١٢، ١١٠، ١٠٨، ١٠٣، ٧٣، ٦٥	يزيد بن معاوية
٢٨٥، ٢٠٨، ٢٠٦، ١٧٩، ١١٧	
٢٣٤، ٣٣٠، ٣٢٩، ٣١٠، ٢٩٢	
٤٢٣، ٤١٥، ٣٨١، ٣٦٣	
٣٦٣	يزيد بن مسلم بن عقبة المري
٢٧١، ٢٤٢، ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣٤	يزيد بن المهلب
٣٥٥، ٣٥٤، ٣٥٣	

٢١٣ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٦ ، ١٢٤ ،
٣٥٢ ، ٣٤٨ ، ٢٤٢ ، ٢١٥ ، ٢١٤

يزيد بن الوليد

٢١٣

يزيد بن يزيد بن جابر

٢٢١

يسطين الأول

٤١٠

يعقوب اليرادعي

٢٥٠

يعقوب بن داود

٢١٤

يعقوب بن عبد الرحمن السلمي

٢١٤

يعقوب بن عمير بن هانيء الغساني

١٨٠ ، ١٧٤ ، ١٦٩ ، ١٦٣ ، ١٤٧ ،

اليقوبي

٢٦٤ ، ٢٥٩ ، ٢٥٥ ، ٢٣١ ، ١٩٤ ،

٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٣ ، ٢٦٧ ،

٤٤٦

٢. الجماعات والشعوب

٩٢	أ - آراميون
٣٧٦,١٦٥	اسد
٣٢	اسرائيل
٢١٨	اسكلابنوى
٣٦٥,٣٦٤,٥٥	أقباط
٩٤,٩٣,٩٢,٩١,٨٦	آل البيت
١٩٥	آل جفنه
٢٢٩	الاحباش
٢١٩	الارثوذكسية
٤١٢,٢٦٨,٢٢٤,٢٢٣	الارمن
٣٥٢,٩٠	الازد
٢١٩	الاسكوفينيون
٣٥٩,٣٢٢,٢٠٧	الاشعريون
٥٦	الاشمونيون
٥٦	الاغريق
٢٢٢	الافار
٢٢٢	الالبانيون
٢٤٧	اللايقونية
١٠٦,١٠٤,١٠١,١٠٠,٧٧,٧٤,٧٣,٧١,٢٦,٢٥	الامويون
١٣٢,١٣١,١٣٠,١٢٩,١٢٦,١٢٠,١١٩,١١٢,١١٠	
١٧١,١٦٢,١٥٨,١٥٧,١٥٦,١٤٢,١٣٨,١٣٥,١٣٤	
٢١٨,٢١٧,٢٠٨,٢٠٧,١٩٢,١٩١,١٨٥,١٨٢,١٧٧	
٢٤٢,٢٤٠,٢٣٩,٢٣٨,٢٣٥,٢٣٣,٢٣١,٣٢٩,٢٢٨	
٢٧٢,٢٦٦,٢٦٣,٢٥٧,٢٥٢,٢٥٠,٢٤٦,٢٤٤,٢٤٣	
٣٥٤,٣٤٩,٣١٤,٣١٣,٣١٢,٢٩٨,٢٨٢,٢٧٩,٢٧٨	
٢٨٨,٢٨٧,٢٨٥,٢٨١,٢٧٩,٢٧٧,٢٧٥,٢٦٧,٢٦٥	
.٤٢٤,٤٢٣,٣٨٩	
٤٢٧,٣٦١,٣٥٤,٢٣٥,٢٣١	انباط

١٩٨، ١٥٨، ١٥٣، ١٣٠، ١٠٢، ١٠٠، ٩١، ٨٨، ٨٣، ٨٢	الانصار
٣٦٨، ٢٦١، ٢١٦، ٢٠٧	
٢٣٧	الاوروبيون
٣٨٢	الاوزاع
١٦٠، ٨٤	الايوس
٢٣٧	الاييرانيون
١٥	الايقونيون
٤٥	الايونيون
٣٥٠	اهل الرده
١٢٨	اهل المزه
٢٠١، ٢٠٠	ايداد (قبيله)

٩٣	ب - بجيله
٣٥٤، ٢٣٥، ٢٢٠، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٦، ١٥١، ٢٢، ١٤	برابره
٣٥٦، ٣٥٥	
١٢٠	البصريون
٢٤٧	البطاركه
٤٣٠	البطاله
٣١٨	البعليكيون
٥٢	بسقلون
٥٢	بسقنون
٣٥١، ٩٠	بكر بن وائل
٢٠٢، ٢٠٠، ٦١	بلقين
٢٢٢، ٢٢١، ١٨	البلغار
٢٠٠، ١٩٧	بلي
٣٥٢، ١٩٧، ١٤٦	بهراء
٢١٨	البولنديون
١٢، ١٥، ٢١، ٢٥، ٥١، ٦٣، ٦٧، ١٤٥، ١٤٦، ١٩٧	البيزنطيون
٢١٨، ٢١٩، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٨٢	
٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧	

.٣٣٥، ٣٣٤، ٣٣٣، ٣٣٢، ٣٣١، ٣٢٥، ٣٢٤، ٣٢٣، ٣١٨
.٣٦٢، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٣، ٣٤٢، ٣٤١، ٣٤٠، ٣٣٩
.٣٨٦، ٣٧٥، ٣٧٣، ٣٧١، ٣٧٠، ٣٦٤

١٠٩

ت - التابعون

٢٢٢

التراقيون

٢٦٨، ٢٣٧

الترك

٤٢٧

تراجان

٢١٨

التشيك

٢٣٣، ١٨٩، ١٨٧

تغلب

٣٧٦، ٣٧٠، ٣٥١، ٢٣٣، ٢٠٤، ٩٠

تميم

٣٥٣، ٣٥٢، ٢٠٨، ١٩٩

تنوخ

٩١

التوابون

٤٢٨

تيماء

١٥٣، ٢٠٢، ٤٠

ث - ثقيف

.١٩٨، ١٩٧، ١٧٦، ١٧٢، ١٦٤، ١٥٣، ١٤٧، ١٤٦، ٤٦

ج - جذام

.٣٧٠، ٣٥٢، ٢٠٧، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩

.٣٦١، ٣٥٤، ٣٥٣، ٣٤٠، ٣٣٥

الجراجمه

.٢٢٤، ٢٢٠، ٢١٩، ٢١٨

الجرمان

٣٥٤، ٢٣٥

جرامقه

٩٤

بني جسر

٢٠٤

جعفي

٢٦٨

جيحان

.٤٢٧، ٣٨٣، ٣٥٢، ٢٩٥، ٢٢٦، ٢٠٢، ٧١، ٣١

ح - حمير

٣٥٢، ٢٠٣، ٢٠٠، ٣١

خ - خثعم

٣٦٢، ٣٦١، ٣٥٦، ٣٥٥

الخيرج

٨٤، ٨٢، ٦٢

الخيرج

١٠٨، ١٠٩، ١٢٦، ٢١٣، ٢٤٤، ٢٦٨، ٢٧٢، ٣٦٢	الخوارج
٢٠٢	ذ - ذبيان
٣٥٥	الذكوانيه
٢٠٢	ر - الرباب
٢٠٢، ٣٥٢، ٣٧٦، ٣٨٧	ربيعه
٢١٨	الروس الاوكرانيون
٢٣٧	الروس
٤٥، ٥١، ٥٣، ٧٢، ١١٠، ١١٤، ١٤٨، ١٩١، ١٩٢، ١٩٧،	الروم
١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٢، ٢١٩، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٠،	
٢٣١، ٢٤٢، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٧، ٣٠٩،	
٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧،	
٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩،	
٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٥،	
٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٨١،	
٣٨٦، ٣٨٩، ٤١٢، ٤٢٧، ٤٣٨.	
١٢٠، ١٥٣، ١٦٠	ز - الزبيرون
١٤٠، ١٤١	بنو الزرقاء
٩٤	الزبيديه
١٤١، ١٤٣، ٣٠٦، ٤٢٨	س - الساسانيون
٤١٢	السامريون
٢١٩	السرماطيون
١٦٥، ١٧٢، ٢٥١، ٣١٢	سفيان
٣٥٥	سليم
١٦٤، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٣٥٣، ٣٥٥	السكاسك
١٦٤، ١٧٣، ٢٠٧، ٢٠٨، ٣٥٣، ٣٥٥	السكون
٢٥٢	السلاجقه

٢١٨	السلوفاك
٤٣٠، ٢١٨	السلوقيون
٢٤٢	السوفييت
٤١٢، ٤٠٩، ٢٤	السوريون
١٢٩، ١٢٠، ١٠٩	ش - الشاميون
٢٧٧، ٢٥١، ٢١٦، ١٢٦، ٩٤، ٩٣، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩	الشيعة
٢١٨	ص - الصرب
٢٣، ٢١٨، ٢٣٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨	الصقالبة
٣٦١، ٣٥٥، ٢٤٤، ٢٣٧، ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣١، ٢٢٩، ٢٢٨	الصهاينة
٢٥٢	
١٩٩، ١٤٣	ض - الضجاعم
٣٥٦	ط - الطراخنة
٤١٣، ٤١١، ٣٥٣، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٢، ١٦٤	طي
٢٠٠، ١٩٨	ع - عاملة
٢٢٤	عبس
٣٣، ١٢١، ١٢٩، ١٣١، ١٣٨، ١٤٢، ١٩٢، ٢١٦، ٢٣٩	العباسيون
٢٨٤، ٣٧٩، ٣٧٧، ٢٨٠، ٢٥١	
٩٣	عجل
١٠٥	العجم
٢٠٧، ١٦٤	عذرة
١٠٣، ١١١، ١٣٤، ١٢٨	العراقيون
١١، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٤٩، ٥٣، ٥٧، ٥٩، ٧٠	العرب
٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٩١، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٥، ٢٠٩	
١١٢، ١١٣، ١١٤، ١٤١، ١٤٥، ١٤٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٨	
٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧	
٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٦٤	

٣٠٨، ٣٠٧، ٣٠٢، ٢٩٥، ٢٨٩، ٢٧٨، ٢٧٥، ٢٦٦، ٢٦٥
٣٥٠، ٣٤٩، ٣٣٩، ٣٣١، ٣٢٣، ٣٢٠، ٣١٩، ٣١٢، ٣٠٩
٣٦٤، ٣٦٢، ٣٦١، ٣٦٠، ٣٥٨، ٣٥٧، ٣٥٤، ٣٥٣، ٣٥١
٤٠٠، ٣٨٥، ٣٧٨، ٣٧٦، ٣٧٥، ٣٧٣، ٣٦٩، ٣٦٨، ٣٦٥
٤٥٣، ٤٣٦

٤١١

٣٥٩، ٣٥٢، ٢٠٢

٢٧٧، ٢٥٩، ٢٥١، ٩١

عقيل

عك

العلويون

١٩٨، ١٩١، ١٦٤، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٦، ١٤٧، ١٤٣، ٦١
٢١٥، ٢١٤، ٢١٠، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٣، ١٩٩
٣٥٣، ٣٥٢، ٢٠٧

غ - غسان

٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٣، ١٩٢، ١٤٦، ٩٢
٢١٧، ٢١٦، ٢١٣، ٢١٢، ٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٦
٣١١، ٣٠٨، ٣٠٧، ٣٠٦، ٢٢٦
٣٥٥، ٢٠٧

الغساسنة

غطفان

٢٧٧

٣٤٤، ٣٤٠، ٢٣١، ٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٢، ٢٢١، ١١٣، ٩٢
٤١٢، ٣٧٦، ٣٧٥، ٣٦١
٣٦٦، ٢٠٧، ٢٠٢، ١٦٤

ف - فدك

الفرس

فزارة

٢١٩

الفنديون

٤٢٧

الفنقيون

٣٤٥، ٥٢، ٥١

١٥٢، ١٠٠

١١٨

١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٨٩، ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٧٤، ٧٠
١٧٠، ١٦٧، ١٦٥، ١٥٧، ١٥٣، ١٥٠، ١٣٩، ١٣٠، ١٠٧
٤٣٩، ٣١٠، ٢٦٦، ٢٢٧، ٢٠٢، ١٨٢

ق - القبط

قحطان

القدرية

قريش

٣٥٥، ٣٥٣، ٢٩٥، ٢١٠، ٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٨، ١٨٧	قضاعه
٢٢٣، ٢٢١	القوط
٢٣٧	القوقاز
١٧٤، ١٦٤، ١٦٣، ١٦١، ١٦٠، ١٥٦، ١٥٢، ١٢٩، ١١٢	القيسيون
٢٠٠، ١٨٩، ١٨٧، ١٨٥، ١٨٣، ١٨٢، ١٨١، ١٧٩، ١٧٨	
٣٧٦، ٣٧٤، ٣٥٣، ٣٥٢، ٢١٧، ٢١٥، ٢١٠، ٢٠٣، ٢٠٢	
٣٧٧	
٣٥٣، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ١٩٧	القين
٩٣	ك - الكريهه
٢١٨	الكروات
٤٠، ٣٩، ٣٨	كعب
١٥٦، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٦، ٧٥، ٧٤، ١٤	الكلبيون
١٨٩، ١٨٧، ١٨٥، ١٨١، ١٧٧، ١٧٦، ١٧٣، ١٦٥، ١٦٤	
٢١٥، ٢١٤، ٢١٣، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ١٩٩، ١٩١، ١٩٠	
٣٨٣، ٣٧٥، ٣٥٣، ٣٥٢، ٢٦١	
٢١٩، ٢١٨	الكلت
٢٠٧، ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠٠	كنانه
٣٨٦، ٣٥٢، ٢١٠، ٢٠٧، ٢٠٣، ٢٠٢، ١٩٧	الكنديون
٤١٢	الكوشيون
٤٠٥، ٣٩٤، ٧٥	الكوفيون
٢١٤، ٢١٣، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٨، ١٩٧، ١٤٦	ل - لخم
٣٥٢	
١٢٠	م - المجوس
١٠٩	المحدثون
٨٨	مخزوم
٣٥٢، ٢١٥، ٢٠٣، ٢٠٢، ١٦٤	مذحج
٢٦	المرده

٢٠٢
٣١٢، ٢٤٧، ٢٤٤، ١٩٠، ١٨٧، ١٧٣، ١٤١، ١١٢، ١١١
، ١١٢، ١٠٥، ٩٤، ٨٤، ٧٦، ٦٩، ٦٧، ٦٤، ٥٦، ٥٠، ٢١
، ١٣٨، ١٣٧، ١٣٦، ١٣١، ١٣٠، ١٢٩، ١٢٧، ١٢٦، ١٢٢
، ١٩١، ١٨٣، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٥، ١٤٢، ١٤١، ١٤٠
، ٢٢٤، ٢١٢، ٢١١، ٢٠٤، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٨، ١٩٧
، ٢٦٨، ٢٥٣، ٢٤٠، ٢٣٧، ٢٣٦، ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٨، ٢٢٧
، ٣٠٠، ٢٩٥، ٢٨٢، ٢٨٠، ٢٧٩، ٢٧٥، ٢٧٤، ٢٧٣، ٢٧٢
، ٣٢٦، ٣٢٥، ٣٢٤، ٣٢٣، ٣٢٢، ٣٢٠، ٣١٩، ٣١٨، ٣١٦
، ٣٣٦، ٣٣٥، ٣٣٤، ٣٣٣، ٣٣٢، ٣٣١، ٣٢٩، ٣٢٨، ٣٢٧
، ٣٤٨، ٣٤٦، ٣٤٥، ٣٤٤، ٣٤٣، ٣٤٢، ٣٤٠، ٣٣٩، ٣٣٧
، ٣٧٣، ٣٧٢، ٣٦٩، ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٦١، ٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥٠
، ٤١١، ٤١٠، ٣٩١، ٣٨٩، ٣٨٧، ٣٧٨، ٣٧٧، ٣٧٥، ٣٧٤
، ٤٥٢، ٤٤٦، ٤٣٨، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٢٠، ٤١٦، ٤١٣، ٤١٢
، ٤١٢، ٤١٠، ٤٠٧، ٣٨١، ٢٥٢، ١٢٩، ١٢٠، ٤٦، ٢١

مره
المروانيون
المسلمون

المسيحيون

٤١٦

٤١٢، ١٣٧، ١١٦

المصريون

٣٧٦، ٢١٦، ٢٠٣

مضر

٤٢٥، ٤٢٤

المعتزله

٢٥٢، ٢٣٧

المغول

٢١٨

المقدونيون

٤٢٩

المكيون

٣١٩

الماليك

١٩٢، ١٤٤، ٩٢

المناذره

١٥٢، ١٣٣، ١٠٢، ١٠٠

المهاجرون

، ٢٥٠، ٢٤٧، ٢٤٥، ٢٤٢، ٢٣١، ١٣١، ١٠١، ٨٦، ٣٢
، ٣٦١، ٣٣٤، ٣٢٠، ٣٠٠، ٢٩٩، ٢٩٥، ٢٧٩، ٢٦٩، ٢٦٤

ن - النصارى

٢٧٨

هـ - الهاشميون

٢٢٠	الهراقطه
٥٦	هرموبولس
٢٢٣	الهلنيون
٢٥٢, ٢٠٧, ٢٠٣, ٢٠٢, ٩٠	همدان
٢١٩	الهنغاريون
٢١٣, ٢١٠, ٢٠٦, ٢٠٤, ٢٠٣, ١٧٩, ١٧٨, ١٥٧, ١١٢	ى - اليمنيون
٤٠٨, ٣٥٣, ٣٥٢, ٣١٢, ٢١٧, ٢١٦, ٢١٥, ٢١٤	
٢٩٥, ٢٧٧, ٢٦٩, ٢٥١, ٢٥٠, ٢٤٧, ١٣٢, ١٠١, ٨٦	اليهود
٤١٩, ٤١٣, ٤١٢, ٣٧٨	

٣. المواقع والأماكن

٤٦٠	أ - آبار ثمود (مدائن صالح)
٤٥٨	آبار حمزه
٤٥٨	آبار علي
٤٦٠	آبار الفقير
٤٥٩	آبيار الحجر
٣٠٥	ابيفانية
٢٢٧، ١٧٠، ٧٠	أجنادين
٥٦، ٥٥، ٥٤، ٢٧	أخميم
٣٨٥، ٢٨٥، ٢٤٨، ٢٤٤	أذربيجان
٤٥٨، ٤٥٣، ٤٤٥، ٤٤٢، ٤٤١، ٢٠٢	أذرع
٤٤٢	أذرح
٤٢٨	أدوم
٥٦	أديسا
٤٤٩	أراك
٣٠٤	أريد
٣٠٣	ارتوزا
٤٥٣	أزرع
٥٦	أرسنوى
٤٥٨	أرض النخلتين
١٨، ٢٣١، ٢٤٤، ٢٧٠، ٢٨٥، ٢٩٢، ٣٠٢	أرمينية
٣٨٥، ٣٦١، ٣١٣	
٣٦٦، ٣١٩، ٣١٨	أرواد
٤٦٩، ٣١٣، ٣٠٤	أريحا
٢٢١، ٢١٩	اسبانيا
٨٦	اسرائيل
٢٢١، ٢١٩	آسيا
١٤، ٢٤، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٠	آسيا الصغرى
٣٦١، ٣٤٨، ٣٣٥، ٣٢٢، ٣٢١	
٢٤٤، ٢٣٧	آسيا الوسطى

٣٦٤	أشقوه
٥٣,٥٢	أشمون
٢٤٤	أصفهان
٣٠٥,٣٠٣,٢٣٠,٢٤,٢٠	أفاميه
٢١١,٢١٠,٢٠٩,٢٠٧,٢٠٦,١٩١,٤٥,٣٣	افريقيا
٣٥٦,٣٥٥,٣٤٩,٣٤٣,٣٠٩,٢٥٧,٢١٢	
٢٤٣	أفغانستان
٣٤٠	اقريطش
٤٥٩,٤٥٨	اكرى
٢٧	اكسفورد
٥٤	أكرم أشقوه
٢٢٢	الباڤيا
٤٥٥,٤٥٤,٤٤٨,٤٤٧	الأبواء
٤٥٧,٤٥٦,٤٥١,٤٥٠	الاحساء
٤٦٠	الاخيضر
٤٥٦,٤٥٣,٤٥٠,٤٤٥	الأراك
٤٦٠	الارچاء
٣٣١	الارخبيل
١٥٩,١٥٨,١٥٢,١٣٦,٦٦,٦٣,٦٢,٢٥	الأردن
٢٠٣,١٩٩,١٩٥,١٩٤,١٩٣,١٨٠,١٧٩	
٢٦٤,٢٢٧,٢١٥,٢١٤,٢١٣,٢٠٨,٢٠٧	
٢٠٤,٢٩٩,٢٩٨,٢٩٧,٢٩٦,٢٨٦,٢٨٥	
٢٦٣,٣٥٦,٣٥١,٣٥١,٣١١,٣١٠,٣٠٦	
٤٧٧,٤٧٢,٤٤٣,٤٣٩,٤٣٦,٣٦٦,٣٦٤	
٤٥٧,٤٤٠	الأزرق
٢١٤	الارزه
٤٥٩	الازلم
٢٨٦,٢٧٣,٢٦٤,٢٤٠,٣١٦,٣٠٦,٤٥,٤٤	الاسكندرية
٤١٠,٣٨٩	
٤٥٧,٤٥٦,٤٥٠	الاعراء

٤٤٠	الاغدق
٤٥٠	الاجر
٤٥٦، ٤٥٥، ٤٤٩	الاجراء
٤٥٣، ٤٤٥	الاقرع
٤٦٠، ٤٥٩	الاقيرع
٤٥٥	الاکر
٣٨٧	الامانوس (اللكام)
٤٣، ٣٧	ألمانيا الغربية
٢٢٣، ١٨	الأناضول
٣١٤، ٢٧٦، ٢١٢، ١٥١، ٦٨	الأندلس
٣٨٤	الاهواز
٦٨	الاوزاع
٤٥٥، ٤٥٤، ٤٤٨	امج
٤٢٧	أم الجمال
٣٠٤	اميزا
٣٠٣	اناستاسيويوليس (الرصافة)
٣٧٤، ٣٧١	اندركيسان
٢٨٦، ٢٦٨، ٢٥٨، ٢٣٠، ٢٠٠، ٦١، ٤٥، ٤٤	انطاكية
٣٧٨، ٣٧٢، ٣٦١، ٣٢٩، ٣٠٩، ٣٠٦، ٣٠٣	
٣٨٩، ٣٨٨، ٣٧٩	
٣٧٨، ٣١٨، ٢٨٦	انطرطرس
٢٢٦، ٢٤	أنقره
٤٥٦، ٤٥٥	أنمله
٢٧	أهناس
٢١١	اوراس
٤٤٩	اوال
٣٠٥	الوسا (الخلصه)
٢٦٦، ٢٤٢، ٢١٩	أوروبا
٢١٨	أوروبا الشرقية
٢٣٩	أوروبا الغربية

٢١٨	أوروبا الوسطى
٤٢٩	أوليغارشية
٢٣٥	ايران
٢٢١	ايطاليا
٢٩٠	ايليا
٢٥٦، ٢٧٩، ٤٢٧، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٩	أيلة (العقبه)
٢١٤، ٢٨٠	ب - باب توما
٤٦٠	بئر الجديد
٤٥٧	بئر الحجر
٤٦٠	بئر الزمرد
٤٢٧، ٣٠٥	بئر السبع
٤٥٥	بئر العدني
٤٥٨، ٤٥٧، ٤٤٨	بئر علي
٦٩	بئر معونه
٥٤، ٥٣	باسيل
٢٤٣	باكستان
٣٨٧، ٣٨٥، ٣٧٧	بالس
٤٥٣، ٤٤٤، ٤٤٢	بالعه
٥٦	بالميرا
٣٣٢	بامفيليا
٣٠٣، ٢٨٦	بانياس
٢٢١	بايبريا
٤٢٨، ٤٢٧، ٣٠٤	البتراء
٤٥٣، ٢٠٨، ٢٠٢، ١٩٦، ٦٣	البتنيه
٢٢٤، ٢٢٣	بثينيا
٢١٢	بجانہ
٢٧٩	البحر الأحمر
٢٢٢، ٢٢١	بحر ايجہ
٢١٩	بحر آزوف

٢١٩	البحر الأسود
٢١٩	بحر البلطيق
٣٦٥	البحر الحبشي
٣٦٥	البحر العربي
٦٣ ، ٢٢١ ، ٣٠٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٣٥ ،	البحر المتوسط
٣٦٥ ، ٣٤٩	
٤٤١ ، ٣٧٠	البحر الميت
٤٥٧ ، ٤٥٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩	بدا
٤٦٠ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧ ، ١٧٢ ، ١٧٠ ، ١٠١ ، ٧٦	بدر
٤٦٠	البرقاء
٢٢٢	برزخ كورنث
٤٥٨	البزواء
٢٧	برلين
١٩٦	البريص
٦٨ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ،	بصرى
٢٠٢ ، ٢٢٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٥٧ ،	
٢٦ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٣٩ ، ١٨٤ ، ٢٣٥ ،	البصره
٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٣٠٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٧٩ ،	
٤٦٠	بطن الغول
٣٠٣	بظلمياوس (عكا)
٥٦	بظلوليماس
٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ،	بطن المر
٤٦٠	بطن مكه
٤٤٩	البعل
٢٣ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ،	بعلبك
٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ،	
٣٦٩ ، ٤٢٨ ،	بغداد
٣٠٣	بلانية (بانياس)
١٤٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،	البلقاء

٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٣٥٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤	
٣٨٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٥٩	
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٦٥	البلقان
٥٦	البهنسا
٣٨٥	بوبلس
٢٢٥	البوسفور
٢١٩	بولنده
١٩٥	بيت راس
٤١٣ ، ٣٦٩	بيت لحم
٦٨ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٠٣ ، ٣١٢	بيروت
٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٤١٠	
٢١٢	البيره
٦٦ ، ٣١٠	بيسان
٣٨٧	بيلان
٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧	البيضاء

١٤٨ ، ١٩٨ ، ٣٧٠ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٢	ت - تبوك
٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠	
٥٦ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٣١٠	تدمر
٢٢٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧	تراقيا
٢٤٣	تركستان
٤٤٨ ، ٤٥٤	التنعيم
٢١١ ، ٢١٢	تونس
٣١٠	تيزين
٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٥٣	تيماء
٤٥٥	تيهان
٤٥٧	ث - الثنيه
٤٣٥	ثنية المره

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،
١٨١ ، ١٩٠ ، ١٩٦

ج - الجابية

٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠

الجار

١٤٤

جاسم

٢١٤ ، ٢٣٩

الجامع الأموي

٣٧٤

جبعاتا

٣٠٣

جبل الكرمل

٤١٢

جبل سيناء

١٨ ، ٢٦

جبل لبنان

٢٧

جبلين

١٩٧ ، ٢٨٦ ، ٣١٨ ، ٣٧٨

جبله

٦٨ ، ٢٨٦ ، ٣٣٩ ، ٣٦٣

جبيل

٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠

الجحفة

٤٦٠

جخيمات

٤٥٨

الجديدة

٢٣٤ ، ٣٥٥

جرجان

٢١٤ ، ٣٥٨

جرش

٤٦٠

الجرف

٤٤٤

جرف الدراويش

٢١٩ ، ٢٢٢

جزيرة البلقان

٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٣٦ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،

الجزيرة العربية

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٧٩ ،

٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٤٣ ،

٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ،

٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٤٠٩

١١١

الجزيرة الفراتية

٤٥٨

جسر الكسوه

١٩٦

جلق

٤٥٥	الجنابذ
٤٦٠	جناين القاضي
٤٤٦	الجنبدل
٤٥٣، ٤٤٥	الجنينه
٤٥٥	الجي
٤٢٨	الجوف
٣١١، ٣٠٧، ٣٠٦، ٢٠٢، ٢٠١، ١٩٣، ١٤٤	الجولان
٣٦١	جيحان
١٩٧	ح - حادب
٤٢٨	حایل
٣٦٥، ٢٢١	الحبشة
١٤١، ١٣٦، ١١٢، ١٠٤، ١٠٣، ٨٥، ٦١، ٥٩	الحجاز
١٦٣، ١٦٢، ١٦٠، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٥، ١٥٤	
١٩٤، ١٨٥، ١٨٠، ١٧٣، ١٧١، ١٦٦، ١٦٥	
٢٥٧، ٢٣٩، ٢٢٩، ٢٢٨، ٢٢٦، ١٩٨، ١٩٧	
٤٣٠، ٤٢٩، ٤٢٧، ٤٠١، ٣٧٥، ٣٦٣، ٣٥٢	
٤٥٢، ٤٤٢، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٣٥، ٤٣٢	
٣٨١	حجير
٤٥٣، ٤٤٥	الحجر
٢١٤، ٧٦	الحديثة
٣٧٦، ٣٧٥، ٣١٤، ٣١٣، ٣١٠، ٢٤٣	حرّان
٣٤٥	حريستا
١٩٦	حرلان
١٩٦	الخرابه
١٩٥	حساء
٤٦٠، ٤٥٨، ٤٥٧، ٤٤٤	الحسا
١٩٥	حسمي
٣٨٧	الحصن
٤٥٧	حصن الكرك

٤٥٤، ٤٥٣، ٤٤٢، ١٩٧	الحفير
٤٥٦، ٤٥٥، ٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٩	حقل
٣٧٦، ٣٤٥، ٣٠٩، ٣٠٣، ٢٨٥، ٢٨٣، ٢٠١	حلب
٣٧٧	
٣٠٤	حلحول
٢٥٧	حلوان
٤٣٤، ٣٨٧، ٣٣٣، ٣٠٩	حمامه
١٩٦	حمى جاسم
١٧٤، ١٥٨، ١٤٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٣، ٦١	حمص
٢١٤، ٢١٣، ٢٠٠، ١٩٧، ١٩٥، ١٧٦، ١٧٥	
٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٣، ٢٦٨، ٢٤٣، ٢٣٠، ٢١٥	
٣١١، ٣٠٩، ٣٠٠، ٢٩٩، ٢٩٨، ٢٩٧، ٢٨٧	
٣٥٦، ٣٥٢، ٣٥١، ٣٤٥، ٣٤٣، ٢٤٢، ٣١٥	
٣٨٧، ٣٨٣، ٣٧٩، ٣٧٤، ٣٧٣، ٣٧٢، ٣٦٦	
٢٠٢	الحميمة
٤٥٩، ٤٥٦، ٤٥١	الحوراء
٤٤٢، ٣١٠، ٣٠٧، ٣٠٦، ٢٠٨، ٢٠٢، ١٩٦، ٦٣	حوران
٢١٩	حوض الفستولا
٣٧٧، ١٤٤	الحيه
٢٧٦، ١٨٨	خ - الخابور
٤٤٣	خان الزبيب
٤٥٩	خان عنيزه
٤٥٨	خان القطراني
٤٠٨	خان قياد
٤٥٩	خان الكشك
٤٥٨	خان المفرق
٤٥٨	الخبيب
٤٣٥	الخرار
٤٤٤	خربة أبو عليق

١٢٩، ١٤١، ١٧٠، ٢١٦، ٢٣٤، ٢٦٨، ٢٧٠،	خراسان
٤٣٩	
٥٠	خربة المرء
٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٤	خربة المفجر
٤٧٧	خربة المنيه
٢٧	الخريانة
٣٠٥	خليص
٤٤٨، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٠	الخليص
٢٦٤، ٣٠٤، ٣٦٩، ٣٧١	الخليل
٢٨٣	خناصره
٨٣	الخنديق
٢٠٢، ٥٩	خولان
٤٢٨	خيبر
٤٦٠	خيف
٤٤٨، ٤٥٥	الخيم

٢٦٥، ٢٨٧، ٢٩١	د - دابق
٤٦٠	دار الظرافه
١٩٦، ٢١٤، ٢٣٤	داريا
٤٣٥	دان
٢٢٠، ٢٢١	الدانوب
٢١٩	الدنبير
٤٥	دجلة
٤٤٤	الدجنه
٢٦٥	الدونيل
٤٤٢	درعا
٣١٠	دلوك
٢٤، ٢٧، ٣٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٣،	دمشق
٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٧٧، ١٣٢،	
١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩،	

١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
١٨٠ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ،
١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،
٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
٢٦٧ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،
٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
٣٣٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ،
٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤١٤ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ،
٤٣١ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،

٤٥٩ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧

٣٦٦

دمياط

٢١٩

الدنيستر

٤٥٩

الدهنا

١٩٩ ، ١٩٨

دومة الجندل

٢١٩

الدون

٢٨٧ ، ٢٨٣

ديرسمعان

٢٨٤ ، ٢١٤

ديرمران

٤٥٩ ، ٤٥٧

ذ - ذات حج

٤٦٠

ذات صبح

٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٣٤ ، ٣٢٠

ذات الصواري

٤٥٣

ذات المثار

٤٦٠ ، ٤٥٤

ذو الحليفه

٤٥٦ ، ٤٥٣ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٦

ذو الخشب

٤٥٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٣ ، ٤٤٩ ، ٤٤٦ ، ٤٤٥

ذو المروه

٤٦٠،٤٥٨	ر - رابغ
٣٧٦	رأس العين
٤٥٨	رأس بلاطه
٤٥٧	رأس وادي عنتر
٣٠٤	رافيا
٢٢٨	الربذه
٤٤٤	رجم الكيال
٤٥٠،٤٤٦	الرحبه
٤٥٦،٤٥٣،٤٤٩	الرحيبه
٤٥٧،٤٥١	الرجه القصيبه
٣١٤،٣٠١،٢٨٩،٢٨٧	الرصافه
٤٣٦،٩٣	رضوى
٣١٠	رعبان
٣٨٦،٣٨٤،٣٧٨،٣٧٧،٣٧٥،٢٧٦	الرقه
٤٥٩	الرمثا
٣٢٤،٣١٢،٣٠٠،٢٨٢،٢٦٤،٢٦٣،٢٤١،٦٢	الرملة
٥٦،٢٥	الرها
٤٥٧،٤٥٤،٤٤٨	الروحاء
٤٥٤،٤٤٨	الروحه
٣٣٤،٣٣٣،٣٣٢،٣٣١،٣٢٨،٣٢٠،٦٣،٢٠	رودس
٣٦٦	
٣٤٠	روسس
٢٤٧،٢٤٥،٢٣١	روسيا
٤٥٥	الروضه
٢٢٣،٤٥	روما
٤٥٥،٤٥٤،٤٤٨،٤٤٧	الرويثه
٣٨٤	الرى
٤٥٧	ز - زرعه
٤٥٩،٤٥٨،٤٥٧،٤٥٢،٤٤٣،٤٤٢،٤٤٠	الزرقاء

٢٠٢	زغر
٤٦٠	الزلاقات
٣٨٢، ٣٨٠	زملكا
٣١٤، ٢٨٧	الزيتونة
٤٥٧، ٤٤٠، ٢٠٧	زيزاء
٤٤٤، ٤٤٣	زيزياء
٢٧	س - سامراء
٢٢٢	سالونيكيا
٣٠٤	سبسطية
١٣	سترابون
٢٩	ستراسبورج
٤٥٧، ٤٥٦، ٤٥٥، ٤٥٠، ٤٤٩	السرحتين
٤٥٣، ٤٤٢	سرغ
٤٤٨	سرف
٢١٤	سطره
٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٥٥	السقيا
٤٥٦	
٤٥٧، ٤٥٦	سقيا يزيد
٣٠٩، ٣٠٣	سلوقيه
٢٤	سليوكويولوس
١٩٦	السماوة
٢٦٦	سمرقند
٣٧٦، ٣٧٥	سنجار
٣٠٣، ٢٥٢، ٢٣٠، ٢٢٧، ١٩٢، ٤٦، ٣٥، ٢٥	سورية
٤٢٩، ٤٢٧، ٣١٩، ٣٠٥، ٣٠٤	
٤٥٠، ٤٤٩، ٤٤٧، ٤٤٦، ٤٤٥، ٢٠٢، ١٩٦	السويداء
٤٥٦، ٤٥٣	
٤٤٤	السويقة
٤٤٨، ٤٤٧	السياله

٣٢٥

سيراكوزا

٤٣٥

سيف البحر

٤٥٩

سيل الجوفي

٤٥٨

سيل الصافي

ش - الشام

١٢، ١٣، ١٤، ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٣،
 ٣٨، ٤٠، ٤٤، ٤٦، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢،
 ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢،
 ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٩٦، ١٠٣، ١٠٤،
 ١٠٥، ١١١، ١١٢، ١١٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦،
 ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩،
 ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧،
 ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٨، ١٧٠،
 ١٧٣، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥،
 ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩،
 ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٤،
 ٢١٨، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢،
 ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٢،
 ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٣،
 ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٢،
 ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩،
 ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١١،
 ٣١٢، ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٢،
 ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٤٨،
 ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨،
 ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٣، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٩،
 ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٧،
 ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧،
 ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٠١، ٤٠٨، ٤٠٩،
 ٤١١، ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٠، ٤٣٥، ٤٣٦،

٤٧٧، ٤٥٠، ٤٤٧، ٤٤٦، ٤٤٢	شرف البعل
٤٥٦، ٤٥٥، ٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٩	شترال
٢٤٣	الشجرة
٤٥٤	الشراة
٢٠٢، ١٩٥	شروان
٣٦٢	شعب بني السرحتين
٤٥٦	شعب النعام
٤٦٠، ٤٥٩	الشغب
٤٥٧، ٤٥٦، ٤٥٥، ٤٥٠، ٤٤٩	شق العجوز
٤٥٩	شيكافو
٢٩	ص - صبه
٤٥١	الصفراء
٤٥٨، ٤٥٧	صفورياس
٣٠٤	صفيق
٣٨٥، ٣٥٩، ٣٩٣، ٣٧٨، ١٩٦، ١٥٢	صقلية
٣٥٨، ٣٢٥، ٢٣٠، ٢٤، ١٤	الصلا
٤٥٦، ٤٥٠	الصمان
١٩٦	الصنبرة
٣١٣، ١٨٠	صنعاء
٣١	الصنمين
٤٥٩، ٤٥٧، ٤٥٣	صور
٣٣٢، ٣١٧، ٣١٢، ٣١٠، ٣٠٣، ٢٨٦، ٦٨	صيدا
٣٦٣، ٣٤٨، ٣٤٧، ٣٤٦، ٣٤٠، ٣٣٦، ٣٣٥	الصين
٣٦٤	
٣٣٥، ٣٣٢، ٣٢٠، ٣٠٣، ٢٨٦، ١٩٧، ٦٨	
٣٦٣، ٣٤٨	
٢٦٦، ٢٢١	
٤٥٧، ٤٥٦	ض - ضبه

٣٥٨، ١٧٢، ١٧٠، ١١١	ط - الطائف
٤٥٨	طارق قديد
٢٣٥، ٢٣٤	طبرستان
٦٦، ١٥٨، ٢٨٦، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣١٠، ٣١١	طبرية
٤٧٧، ٣٧٢	
٤٥٩	الطبيليه
٢٨٦، ٣٠٣، ٣١٥، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١	طرابلس
٣٢٤، ٣٢٣، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤٠	
٣٧٨، ٣٦٣، ٣٤٣، ٣٤٢، ٣٤١	
٣٨٩، ٣٧٩	طرسوس
٢٦٧	طرندة
٤٥٥	الطلوب
٥٥	طهطا
٣٢١	طوروس
٤٥١	طيبة
٤٥٧، ٤٥٦، ٤٥١، ٤٥٠	ظ - ظبه
٣٨٥	ع - عابدين
٣٠٥	العاصي
٤٦٠	عبادان
٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٥٦	عتاب
٣٧٣	عجلان
٤٢٧، ٤٢٩	عدن
٢٢٧	عرايبا
١٦، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٧٥، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٠٤	العراق
١١٢، ١١٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٣، ١٤١، ١٤٤	
١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠	
١٦٦، ١٧١، ١٧٣، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤	
١٨٥، ١٨٨، ١٩٢، ٢٠٥، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٥٤	

٢٦١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٩، ٢٨٥، ٢٩١، ٣٠١،	
٣١٣، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٧٦، ٣٨٤، ٤٠٩،	
٤٢٣، ٤٢٨، ٤٢٩	
٤٤٨، ٤٥٤، ٤٥٥	العرج
٢٨٦، ٢٦٣	عرقه
٤٣٥، ٤٤٧، ٤٥١، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧،	عسفان
٤٥٨، ٤٦٠	
٦١، ٢٨٦، ٣٠٤، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٨٨، ٤٢٨،	عسقلان
٤٥٧	العشيره
٤٥٧	العطاس
٤٥١، ٤٥٧	العطوف
٣٠٤، ٤٢٧، ٤٤٩	العقبه
٤٦٠	عقبه الحلاوة
٤٥٨، ٤٦٠	العقبه السوداء
٤٥٧، ٤٥٩	عقبه الصوان
١٩٦، ٢٠٢	عقرباء
٤٥٨	العقيق
٥٦، ٦٨، ٢٨٦، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٧، ٣٢١، ٣٣٥،	عكا
٣٤٠، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٦٤	
٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩	العلا
٤٣، ٥٦، ١٩٥، ٢١٤، ٢٨٠، ٣٧٠، ٤٢٧، ٤٤١،	عمان
٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥٣	
١٥٥، ٣١١	عمواس
٤٢٧	عمون
٥٩	عنس
٤٤٤، ٤٥٩، ٤٦٠	عنيزة
٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٦، ٤٥٧	عويند
٢٧	عوجاء الحفير
٢٠٢	عين الجر
٣٨٦	عين السلور

٤٥١	عينونا
٤٥١	عيوند
٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٦	عينونه
٤٥٧، ٤٥٨	عيون حمزه
٤٥٩	عيون القصب
٢٨٧، ٣٨٦	غ - غراس
٢١٢	غرناطه
٢٠٢	غرندل
٥٣، ٥٤، ٢٠٩، ٢٨٦، ٣٠٤، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩	غزة
٣٠٤، ٣١٠	الغور
٦٤، ٢٠٢، ٣١٤، ٢٩٧، ٣٥٥	الغوطه
٤٢٤	غيلان
٢٧، ٣٣	ف - فارس
٧٠، ٣٠٤	فحل
٤٥٩، ٤٦٠	الفحلتين
٤٣٥	فدك
٤٥، ٩٦، ٢١٤، ٢٧٦، ٣٦٩، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٩	الفرات
٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٨	
٤٥٧	فرح
٢٦٨	فرنسا
٢٧، ٣٣، ٤٤، ٤٥، ٥٥، ٢٥٧، ٢٦٥، ٢٩٢	الفسطاط
٣٢٥، ٣٤٩	
٢٠٢	الفلجه
٢٥، ٢٧، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٣، ٥٤	فلسطين
٦٥، ٦٦، ٦٩، ١٣٦، ١٥٨، ١٧١، ١٧٦، ١٩٣	
١٩٤، ١٩٥، ٢٠٣، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٧	
٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٦٢	
٢٦٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٤	

٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ،
٣٣٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٤١٥ ، ٤٤٩ ،
٤٥٠

٤٥٨ فويق
٣٢٢ فوينكس
٤٢٧،٥٦ فيلادلفيا
٢٨،٢٧ فينا
٥٦،٢٧ الفيوم

٩٦
٢٤٨
٣٨٥ ، ٣٧٧
٥٧

ق - القادسية
قازان
قاسرين
قاصرينا

٤٦٠ ، ٤٥٩
٤٥٨
٤٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٤ ، ٤٣ ، ٢٩ ، ٢٧
٤٥٥ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩

قاع بسيطه
قاع البزوه
القاهرة
قالس

٣١٧ ، ٣١٥ ، ٢٧٩ ، ٢٢٣ ، ٦٩ ، ٦٤ ، ٢٤ ، ١٤
٣٤٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨
٣٦٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٢

قبرص

٤٦٣ ، ٤٦٢ ، ٣١٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٤٧
٤٦٠ ، ٤٥٧ ، ٤٥٥ ، ٤٥٤ ، ٤٥١ ، ٤٤٨ ، ٤٤٣
٤٥٦ ، ٤٥٠

القدس
قديد
قرح

٢١٢
٢١١

قرطبه
قرطاجنه

٣٧٨ ، ٣٧٥ ، ٣٥٨ ، ١٨١ ، ١٧٥ ، ١٧٤
١٩٦
٢٣٠

قرقيسيا
القريات
قورس

٤٥٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٣ ، ٤٤٢
٢٢١ ، ١٩٠ ، ١٢٦ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٢٣ ، ١٨ ، ١١

القسطل
القسطنطينية

٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
٢٦٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٣ ،
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٥

٤٤٠

قصر الأزرق

٤٤٢ ، ٤٤٠

قصر شبيب

٤٤٠

قصر (فدين)

٤٤٤ ، ٤٤٣

قصر المشتى

٤٥٧ ، ٤٥١

قصيبة

٤٥٧ ، ٤٤٤ ، ٤٤٣

القطرانة

٤٥٩

القطراني

٤٥٩

القلليات

٤٥٩

قلعة المزيريب

٤٤٤

قلعة ضبعه

٤٦٠

قلعة القطرانه

٦٥ ، ٦٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٤ ،

قنسرين

٢٤٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،

٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ،

٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨١

٣٨٧

قورس

٤٤٢

قيال

٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٤٩

القيروان

٦٥ ، ٢٣٧ ، ٣٠٦ ، ٣١٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٨٨

قيسارية

٣٢١

قيصرية

٤١٧

قينان

٣٠٤

ك - كابيتولياس

٤٥٦

كديد

٢٤٤

كردستان

٢١٩

الكربات

٩١	كربلاء
٣٠٤	الكرمل
٤٥٨، ٤٥٧، ٣٠٧، ٣٠٥	الكرك
٣٦٦، ٣٣٢	كريت
٤٥٩، ٤٥٧، ٤٥٣، ١٩٦	الكسوة
٢٦٨	كفريًا
٤٤٩	الكلاباب
٤٥٦	منزل الكلابه
٤٥٧	الكلابه
٤٥٧	الكن
٢٤٣	كنجوت
٣٨٤	الكور
٤٥٥	كور الغميم
٣٦٤	كوم اشقاو
٤٦، ٢٧	كوم أشقوة
١٥٢، ١٠٧، ١٠٦، ٩٦، ٩٤، ٩٠، ٦٨، ٥٨، ٣٦	الكوفة
٢٣٥، ١٩٠، ١٨٤، ١٧١، ١٧٠، ١٦٣، ١٥٧	
٣٥٩، ٣٥١، ٣٤٩، ٤٣٦، ٣٢٧، ٣٠٩، ٢٨٥	
٤٣٢، ٣٨٤، ٣٧٩	
٢٢٨، ٢٢٦، ٨١	الكويت
٣٠٣	كيليكه

٣٦٣، ٣٤٥، ٣٤٣، ٣٠٣، ٢٨٦، ٢٦٥	ل - اللاذقية
٣٠٥، ٣٠٣	لاريسا
٥٦	لاهانسيا
٣٣٢، ٣٢٩، ٣٢٨، ٣١٩، ٣٠٣، ٢٣٧، ٢٥	لبنان
٤٧٧، ٣٤٨، ٣٤١، ٣٤٠، ٣٣٩، ٣٣٥	
٤٥٨، ٤٥٧، ٣١١، ٣٠٥، ٣٠٤	اللجون

٣١١، ٣١٠، ٣٠٤، ٢٨٦	اللذ
٣٦١، ٣٥٣	اللكام
٣٢٢	ليكيا
٤٤٦، ٤٢٨، ١٩٥	م - مآب
٤٢٧	مادبا
١٨٨	ماكسين
٤٦٠	المبرك
٤٥٣، ٤٤٥	المحدثه
١٩٦	المخيرقه
٤٦٠، ٤٥٩، ٤٢٨، ٣٠٦	مدائن صالح
٤٤٢	المدوره
٤٥٦، ٤٥٥، ٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٩	مدين
٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٧، ٧٦، ٧٥، ٦٦، ٦٤، ٥٩، ٥٨	المدينه المنوره
١١٢، ١١٠، ١٠٥، ١٠٤، ٩٦، ٨٧، ٨٤، ٨٢	
١٥٠، ١٤٦، ١٣٧، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٤، ١٣١	
١٦٥، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣	
١٩٠، ١٨٠، ١٧٨، ١٧٤، ١٧١، ١٧٠، ١٦٦	
٢٩٨، ٢٨١، ٢٧٢، ٢٦٣، ٢٦١، ٢٤١، ١٩٨	
٤٣١، ٤٣٠، ٣٩٢، ٣٩١، ٣٧٥، ٣٥٧، ٣٥٠	
٤٤٧، ٤٤٦، ٤٤٥، ٤٤٢، ٤٣٨، ٤٢٧، ٤٣٦	
٤٥٧، ٤٥٦، ٤٥٤، ٤٥٣، ٤٥١، ٤٥٠، ٤٤٩	
٤٦٠، ٤٥٨	
٣١٠، ٣٠٧، ٣٠٥	مرج ابن عامر
٣٧٢	مرج بردى
١٧٢، ١٧١، ١٦٦، ١٦٤، ١٦٢، ١٦١، ١١١	مرج راهط
١٨٢، ١٨١، ١٨٠، ١٧٨، ١٧٦، ١٧٥، ١٧٤	
٢٥٦، ٢٠٨، ١٩٩، ١٩٦، ١٩١، ١٨٩، ١٨٥	
٣٥٩، ٣٥٣، ٣١٢، ٢٩٨	
٣٧٢	مرج شعبان

١٤٤	مرج عذراء
٣٨٧	مرج كامل
٤٥٦،٤٥٣،٤٥٠،٤٤٩،٤٤٥	المر
١٩٩،١٩٦،١٩٣،٦٤	مرج الصفر
٤٥٥،٤٥٤،٤٣٥	مر الظهران
٤٤٩	مر المعروف
٤٥٦	المره
٤٥٠	المروه
٢١٢	المريه
٣٧٢،٢١٥،٢٠٢	المزه
٤٥٩،٤٥٨	المزيريب
٤٤٨	مسجد الأبياء
٤٤٨	مسجد الاثايه
٤٤٨	مسجد البيضة
٤٤٩	مسجد التنعيم
٤٤٨	مسجد ثنيه ركوبه
٤٤٨	مسجد الجحفه
٤٤٨	مسجد الروثيه
٤٤٩	مسجد سرف
٤٤٨	مسجد الشجرة
٤٤٨	مسجد شرف الروحاء
٤٤٨	مسجد العرج
٤٤٨	مسجد عرق الظبية
٤٤٨	مسجد عقبة هرشي
٤٤٨	مسجد غدير خم
٤٤٨	مسجد الغزالة
٤٤٩	مسجد قديد
٤٤٨	مسجد المتصرف
٤٤٩	مسجد مر الظهران
٤٤٨	مسجد المعرس

٤٤٨	مسجد المنبجس
٤٤٨	مسجد يحيى
٤٥٥	المثلل
٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨،	مصر
٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧،	
٨٧، ١٠٣، ١١١، ١٣٦، ١٣٩، ١٥٨، ١٧١،	
١٧٣، ١٨٠، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٩، ٢٤٤،	
٢٤٨، ٢٥٦، ٣٥٧، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٣، ٢٨١،	
٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٦، ٣٢١،	
٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٢، ٣٤٣، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨،	
٣٤٩، ٣٥١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٤٣٦،	
٤٥٠، ٤٤٧، ٤٦٢	
٤٥١	المصلى
٢٦٨، ٢٣١	المصيصة
١٩٥، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٥٧، ٤٥٣، ٤٥٩	معان
٢٨٤	المعرة
٤٦٠	المعز
٤٦٠	مغاير شعيب
١٥١، ٢١١، ٣٤٣، ٤٥٠	المغرب
٤٥٣، ٤٥٧	المغيثة
٤٥٩، ٤٧٢	المفرق
٢٢٤	مقدونيا
٦٠، ٧٦، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٨، ٩١، ١٠٤، ١٢٩،	مكة
١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٦، ٢٢٩،	
٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٢، ٢٨٠، ٢٩٨، ٣٠٩،	
٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٦،	
٤٣٩، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٤، ٤٥٥،	
٤٥٨، ٤٥٧	
٢٦٨، ٢٦٧	مطية
٤٤٧، ٤٥٤	ملل

٤٥٧	المليحة
٣١٠، ٢٨٥	منبح
٤٥٧، ٤٥٦، ٤٥١، ٤٥٠	منخوس
٤٤٩	منزل
٣٧٠، ١٩٧، ١٩٥، ١٩٤، ١٨٠، ١٤٨	مؤتة
٢٤٨	موسكو
٣٨٤، ٢٨٥، ٢١٣، ٢١٢، ١٨٩	الموصل
٤٤٣	الموقر
٤٥٩	المويلحه
٢٩	ميونيخ
٢٤٧	ن - الناصرة
٤٥٩، ٤٥٦، ٤٥١، ٤٥٠	النبك
٤٥٩	نبط
٤٤٠	النجراة
٢٧٩	نجران
٢٦٨	نربونه
٤٧	نصتان
٣٧٥، ٢٣	نصبيين
٣٠٤	النقب
٤٥٩	نقب علي
٤٢٢، ٣٠٤	نهر الأردن
٢١٩	نهر الدانوب
٢٧٦	نهر سعيد
٢٤٨	نهر الفولجا
٣٨٥	نهر مسلمة
٣٠٤	نهر الموجب
٤٥	نهر النيل
٤٢٧، ٣٠٤	نيابولس (نابلس)

٣٠٤	هـ - هبوس (قلعة الحصن)
٥٦	هراقليوبولس
٤٦٠، ٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٧	هدبه
٦٨	همدان
٥٦	هليوبولس
٢٣٩، ٢٢١	الهند
٣٤، ٣١، ٢٩	هيدلبرج
٤٤١	و - وادي الأردن
٤٥٧	وادي الأخيضر
٤٥٨	وادي الزاهر
٤٥٧، ٤٥١	وادي السرف
٣١٤	وادي السند
٢٤٦	واشنطن
٤٥٨	وادي العظام
٤٥٨	وادي العقيق
٤٥٦، ٤٥٠	وادي الغراب
٤٥٥	وادي غزال
٤٤٩	وادي فاطمه
٤٥٩	وادي القديم (الفدين)
٤٣٥، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣،	وادي القرى
٤٦٠، ٤٥٩، ٤٥٦	
٤٥٨	وادي المنحنا
٢١٣	وادي الموصل
٤٦٠	وادي النسور
٣٠٤	الوسا (الخالصه)
٤٥٩	وعرة الغباغب
٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٦	وكيع
٢٤٦	الولايات المتحدة
٢٢٤	الوندال

٣٠٤، ٢٨٦	يافا - ي
٤٣٠، ٨٠، ٧٩	يثرب
٢٨٦	يرده
٣٨٠، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٥، ١٤٨، ١٤٤، ٦٧	اليرموك
٤٥	يعني
٤٥٧	يلبا (ينبع)
٢١٦، ٢١٥، ٢٠٣، ١٤٢، ٩٢، ٧٢، ٧١، ٥٩	اليمن
٣٨٥، ٣٦٥، ٣٥٣، ٣٥١، ٢٧٩	
٤٥٩، ٤٥٧، ٤٥١	ينبع
٤١٩، ٤١٢، ٢٢٣، ٢٢٢، ٢١٩، ٢١٨	اليونان

فهارس الهوامش ١. الأعلام

٣٢١	أ - ابراهيم احمد العدوي
١٤٦ ، ٢٨٧ ، ٣٩٢ ، ٤١٥	ابراهيم الابياري
١٨٤	ابراهيم الاشتر
١٠٠	ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف
٢٠٢	ابراهيم محمد
١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٨٦	ابراهيم بيضون
٦٠	ابراهيم خورشيد
٥٢	ايماخوس
	ابن الأثير أبو الحسن علي بن اكرم الشيباني الجزري
١٤٩ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ،	
١٨٧ ، ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ،	
٢١٥ ، ٢٥٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٣٢١ ،	
٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ،	
٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ،	
٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،	
٤٤٣ ، ٤٤١	
٦٠ ، ٦٦ ، ١١٩ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ،	احسان عباس
١٤٤ ، ٣٢٦ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤ ،	
٣٥١	احسان صدقي العمد
٩٩	احمد شاكر
٥٨ ، ٧٠ ، ٢٩٢	احمد امين
٤٣٢	احمد بن أبي يعقوب بن واضح
١١٢ ، ١٤٠ ،	احمد بن حنبل
٦٢	احمد بن علي بن حجر العسقلاني
٤٧	احمد بن نوار
٣٣٩	احمد عبد الباقي
٣٢٦	احمد عبد الحليم البردوني
٢٨٨	احمد عبيد
٢١٧	احمد محمد نور يوسف

٣٦٤، ٣٢٢	أحمد مختار العبادي
٤٤١، ٤٣٣	الادريسي
٦٠، ٢٨	أدولف جروهمن
٣٨٨	أرناؤوط
٤١٥	أريوس
٨٥، ١٤٨، ١٩٦، ٢١٣، ٢١٥،	الأزدي ابوزكريا يزيد بن محمد بن اياس
٢١٦، ٢١٧، ٢٨٦، ٣٥٢،	ابن قاسم
٤٣٣	أبو اسحاق ابراهيم بن اسحق الحربي
	البغدادى
١٣٦	اسحاق بن قبيصة
	أبو اسحاق ابراهيم ابن محمد الفارسي
٤٤١، ٤٣٣	الاصطخري
٣٤٨	أسد رستم
٤٣٦	اسعد الحميري
١٢٥	اسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص
٤٩	الأسود بن عدي
٣٤١، ١١٧	ابن الأشعث
٩٦، ٩٤	الأشعري
٧٨، ٧٧، ٦٩، ٦٧، ٦٦	الأصبهاني
١٩٥، ١٩٠، ١٥٨، ١٥٣، ٧٥	الاصفهاني
١٩٦، ١٩٧، ٢٠١، ٢١٤، ٣٠٠،	
٤٤٦	
٢٥٨، ١٩٨	الاصمعي
٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٠٩، ٣٠٢،	ابن أعثم أبو محمد احمد ابن اعثم الكوفي
٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣٤، ٣٤٢،	
٣٥٣، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٤، ٣٦٥،	
٣٦٦	
٣١٨	أبي الأعور السلمي عمرو بن سفيان
	بن سليم
٣١٧، ٢٧١	أغابىوس بن قسطنطين

٢٦٩	أغاببوس المنبجي
٤١١	أغناطيوس أفرام الأول
٢٨٦، ٢٦٨	ابن الفقيه
٣٢٥	أكرم ضياء العمري
٣٧٥، ٣٥٠، ٢١٠	أ. ليفي بروفنسال
٣١٧	أبو امامه الباهلي
١٣	أميانوس مادكلينوس
٣٢١	امين واصف
٣٥٥، ١٧٥	انطوان صالحاني اليسوعي
٣٣٤، ٣٢٨، ٢٣٧	الأوزاعي
٧٣	ايلزه ليختن شتيتير
٤٤١، ٤٣٤	أيمن فؤاد سيد
٥١	أيوب بن شرحبيل
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤،	إبن بدران عبد القادر بن أحمد
٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠١	
٣٩٨	ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر
٣٢٩	أبو بشر محمد بن حمار الدولابي
٢١٢	أبو بشكوال ابو القاسم خلف بن عبد الملك
٢٠	ابن بطريق، نتيشبيوس المكنى بسعيد بن بطريق
٤٣٤	ابن بطوطة
١٩٨، ١٩٥	أبو البقاء هبة الله الحلي
٢٣٠، ٢٥٩، ٢٥٨، ١٠٣، ٨٢	أبو بكر
٢٨٦	أبو بكر احمد بن محمد الهمذاني
١٠٢	أبو بكر بن أبي سبره
٨٥	أبو بكر بن محمد بن عمرو الانصاري
٢٦٠	البلاذري
٩٠	أبو بلال مرد اساء الخارجي
١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٨١، ١٨٢	أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي
٣٦	أبونور

٢٨٣، ٢٧٤	ابن جبیر
٣٩٩، ٣٩١، ٣٩٠	ابن الجزري
٣٩٨	أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل
٧٣	أبو جعفر محمد بن حبيب
٢١٣	ابن الجوزي
١٩٣، ١٧٢، ١٥٢، ١٤٨، ١٤٣	ابن حبيب
٢٠٩، ٢٠٥، ١٩٧	ابن حبيب البغدادي
١١٨	أبو حبيبة
٦٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦٢	ابن حجر العسقلاني
١٩٨، ١٩٧، ١٩٤، ٧٧، ٧٠، ٦٩	
٢١٣، ٢٠٨، ٢٠٢، ٢٠١، ١٩٩	
٣٩١، ٣٤٦، ٢١٧، ٢١٦	
	ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن ٣١
	علي الكناشي
١٩٥، ١٩٤، ٨٦، ٧٣، ٦٦، ٦٢	ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد
٣٧٦، ٢٠١	
٧٣	ابو الحسن بن الحسين السكري
٢٨٧	أبو الحسن، علي بن أبي عبد الله محمد
	بن أبي السرور
٤١	ابن حماد
١٢٩	أبي حمزة الخازمي
٧٤	أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري
٤٣٥	ابن حوقل
٤٥١، ٤٤١، ٢٨٦، ٢٧٣	ابن خرداذبة
٢٠٠، ١٩٦، ١٩٤، ١٩٣، ١٤١، ٣٢	ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد
	الحضرمي
٣٤٤، ٣٥٠، ٧٥، ٦٩، ٦٦	ابن خلکان
٢٠٥، ٢٠٣، ٢٠٢، ١٩٩، ١٩٤	ابن خياط
٢١٦، ٢١٥، ٢١٢، ٢٠٩، ٢٠٦	

٣٩٠
 ٣٢٧، ٨٦
 ٤٤١، ٣٥١، ٢٨٥
 ٩٩
 ٣٥٠
 ،٢١٧ ،٢١٦ ،٢١٣ ،٢١٢ ،٢٠٧
 ٣٩٠ ،٣١٨ ،٣١٧ ،٢٩٣
 ٣٩٩ ،٣٩٦
 ٤٠٠ ،٣٩٥ ،٣٩٣
 ١٨٤
 ،٦٩ ،٦٨ ،٦٧ ،٦٦ ،٦٥ ،٦٤ ،٦٢
 ،١٤٦ ،١١٨ ،١١٧ ،١١١ ،٧٨ ،٧٧
 ،١٩٨ ،١٧٩ ،١٧٧ ،١٥٢ ،١٤٧
 ،٢٦٠ ،٢٥٩ ،٢٥٨ ،٢٥٦ ،٢١٦
 ،٢٦٨ ،٢٦٦ ،٢٦٥ ،٢٦٣ ،٢٦١
 ،٢٧٦ ،٢٧٣ ،٢٧٢ ،٢٧٠ ،٢٦٩
 ،٢٨١ ،٢٨٠ ،٢٧٩ ،٢٧٨ ،٢٧٧
 ،٣٥٢ ،٣٥٠ ،٣١٧ ،٢٨٤ ،٢٨٢
 ،٣٨٠ ،٣٧٩ ،٣٧٠ ،٣٦٠ ،٣٥٧
 ٤٤٢ ،٤٣٥ ،٣٨٢
 ٢٥٥
 ٢٠١ ،١٩٧ ،١٩٦ ،١٩٥
 ١٥٢
 ١٠٢
 ٥١
 ٣٥٠
 ٤٣٠
 ٢٨٦
 ١٠٤

أبو الخير شمس الدين محمد بن محمد
 الجزري
 ابوداود
 ابن رسته
 ابورزه الاسلامي
 ابن رشد ، ابو الوليد محمد بن احمد
 أبوزرعه
 أبوزكريا يحيى بن زياد الفراء
 ابن زنجلة
 ابن زياد
 ابن سعد ، محمد بن منيع البصري
 ابن سعد محمد سعد الزهري
 ابن سعيد
 أبوسعيد السكري
 أبوسفيان
 ابن سلام
 ابن سيرين
 ابن شاهين الظاهري
 ابن شداد
 ابن شهاب

١٠٤	ابن شوذب
٣٢٧	ابن الطقطقي
٢٩٦، ٢٩٤، ٢٩٣	ابن طولون شمس الدين
٤٣٤	أبو العباس احمد بن علي القلقشندي
٢٠٢	أبو عبدالله الإدريسي محمد بن محمد
	بن عباد الله
٤٣٣	أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن ادريس
	الحمودي الحسني
٣٥٠	أبو عبدالله مصعب بن عبدالله
٧١	أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي
٤٣، ٤٥، ٥١، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧،	ابن عبد الحكم، ابو القاسم عبد الرحمن
١٨٦، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٨٨، ٢٩١،	بن عبدالله
٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٠،	
٣١٦، ٣٢٢، ٣٤٥، ٣٥٩، ٣٦٠،	
٣٧٤	

٢٧٨، ٢٦٧، ٢٦٠، ٢٥٣	ب - بارتولد
٢٨٤	باسيل
٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٢١٦،	البخاري، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم
٢١٧	
٣٤٦، ٣٤٥	الجعفي
٤٧	البردي
٧٢، ٧٣، ٧٧	بروكلمان
٣٣٤	البسوي
٢٩٠	بشار عواد معروف
١٤٣، ٩٤	البغدادبي
١٥٢	بقي بن مخلد
٧٤، ٢٠١، ٢٨٣، ٤٣٣، ٤٣٦، ٤٤٢،	البكري، ابو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز
٤٤٧	البكري الاندلسي

بكر بن سودة

البلاذري أبو الحسن احمد بن يحيى

بن جابر

٣٦

٤٥ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٩٢ ، ٩٦ ،
١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
٢٣٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،
٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ ،
٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،
٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ،
٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ،
٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ،
٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،
٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٠٩ ، ٤٤١

بلال بن سعد بن تميم

بلينيوس

بندي الجوزي

بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي

بوهر

بول لومرل

بيغوليفسيكا

بيسكر

١٣٦

٢١

٣٠٧ ، ١٨٢

٤٠٤

٤٣٠

٢٢١

٢٢٠

٢٥٧ ، ٢٩

ت - الترمذي

توما الأكويني

٨٦

٤١٤

٩٦	ثابت بن قيس
٦٢	ثروت عكاشة
١٤٣	ثعلبة بن عمرو بن المجالد
١٩٢	ثيودور
١١، ١٢، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢١،	ثيوفانيس
٣٥٩	
٩٩	ج - جابر بن سمره
٩٩	جابر بن عبد الله
٤٢٩، ٤٢٣، ٣٠١، ٢٨٢، ٢٦٣	الجاحظ/ أبو عثمان عمر بن بحر
١٩٥	جيلة بن الأيهم
٣١٧	جبير بن نضير الحضرمي
٤١	جروهمن
٣٥٤	جرير بن عطية بن حديفه الخطفي
٤٤٤، ٤٤٢، ٤٣٧، ٤٣٦، ٤٢٥	الجزيري
٢١٠	ج. س. كولان
٤٠٦، ٤٠٤	جلال الدين السيوطي
٣٩٧	جمال الدين بن هشام الانصاري
٣٥٢، ٢٩٠، ١٥٢	جمال الدين الشيال
٤٠٤	جمال الدين محسر بن مالك
٣٣٤	جناده بن أبي أميه الأزدي
٢٠٥، ٢٠٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،	الجهشياري ابو عبد الله محمد بن عبدوس
٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠	
٤٢٨، ١٩٢، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٣	جواد علي
٣٦٤	جودج فضلو الحوراني
٧٧	ح - حارث سليمان الضاري
٣١٦، ١٧١	حبيب الرحمن الأعظمي
٣٥١، ٣٤١، ١١٧	الحجاج بن يوسف الثقفي
١١٢	حذيفة

٤٣٣	الحربي
٩٦	حرقوس بن زهير
٩٠	حرموز بن الفجاءة
٣٠١	حسام السامرائي
١٦٧، ١٦١، ١٥٨، ١٥٦، ١٥١	حسان بن مالك
٦٠	حسن ابراهيم حسن
١١٩	الحسن البصري
٤٣٣	الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني
١٠٩، ١٠٨	حسن بن علي
١١٩	الحسن بن محمد
٤٢٩	حسن السندوبي
٣٦٢	الحسن العباسي
٩٩	حسن غريب
٣٩٥، ٣٩٠، ٩٥، ٩٤	حسين عطوان
٢١٠	حسين مؤنس
٧٥، ٧٠	حسين نصار
١٧٦	حصين بن نمير السكوني
١٤١	الحكم بن ابي العاص
٣٥٠	حمد البرمكي
٤٤٧، ٤٤٦، ٤٣٥، ٤٣٣، ٤٣١	حمد الجاسر
١١٦	حميد بن نور
٤٤٦	الحميري
١٧٢، ١٠١	حنظلة الكاتب
١١٨، ١١٧	خ - خالد القسري
١٧٣، ١٦٥، ١٥٩، ١٥٦، ١٥٢	خالد بن يزيد
٣٥٥	خبيب
٢٢٣	خراينس
١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٩،	خليفة بن خياط
١٧٨، ٢٨٥، ٣٣٣، ٣٥٢، ٤٣٧.	
٧٢	خليل داود الزرو

الخوارزمي
الخولاني القاضي عبد الجبار

٣٧٥
٢٩٤، ٢٩٣

د - دايت

دورتياكرافولسكي

٢٨٢

٤٣٤

٢٥٣

دوزي

٤٣٣، ٤٣٢، ٢٨٦، ٦١

دي غويه

٤٥

دي غوجيه

٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٧، ٣٠٢، ٣٥٢،

الدينوري، أحمد بن داود

٣٥٦، ٣٥٩، ٣٦٧

ذ - ذكر ابن عبدالله

الذهبي

٣٥٥

٢٠٦، ٢٨٨، ٣٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢،

٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٤٣،

٣٨٢، ٣٨٤

ر - الرازي

ربيعة

٤٣٩

٣٥١

١٥٨

رتبة عبد القادر بدران

١٠٢

رجاه بن حيوة

٣٧٨

رحبه مالك بن طوق

٣٣٤

رشيد بن كيسان الفهمي

٩٩، ١٠٠، ١٠٥، ١١٢، ١٢٩،

رضوان السيد

٦١، ٣٧٢، ٤٤١،

رضوان محمد رضوان

٢١٠

الرقيق القيرواني

ز - الزبير بن بكار

الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن

١٠٧، ٣٢٦،

٧٥

٣١٧، ٣٤٦، ٣٩٩، ٤٠٢،

الزمخشري

١٤٧، ٣١٦،

الزهري

٢١٠	زهير بن قيس
٩٦	زيد بن صوحان
٢٨٦ ، ٢٨٥	س - سامي الدهان
٧١	السجستاني ابو حاتم سهل بن محمد بن عثمان
٣٣٦	سحيم بن المهاجر الرومي
١٤٦	سرحبيل بن عمرو الغساني
٥٩	السرخسي
٧٠	سزكين
٤٣٢	سعد الراشد
٣٩٧ ، ٣٩٠ ، ٢٩٣ ، ٨٦	سعيد الأفغاني
١٠٩ ، ١٠٧ ، ١٠٠ ، ٩٦	سعد بن أبي وقاص
١٧٣ ، ١٧٠	سعيد بن العاص بن اميه
٣١٦	سعيد بن المسيب
١٤٠	سعيد بن جمهان
١٠٩	سعيد بن عبد العزيز
٣٠٢	سفيان بن عوف الأزدي
٣٣٠ ، ٣٢٩ ، ٣١٧	سكينة الشهابي
٣١٨	سليمان بن ابي كريمه الصيداوي
٣٢٧	سليم بن عامر
٤٤٠	سليمان الموسى
٣٤٦	سليم النعيمي
٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٤٧	السمهوري ، نور الدين علي بن احمد
٣٥٢ ، ٢٨٥ ، ١٥٢ ، ١٤٧	سهيل زكار
٢٧١ ، ٢٦٩ ، ٢٥٧	سويرس
٤٠٢ ، ٣٣٩	سيبويه
٤٦١	سيد عبد المجيد بكر
٣٢٢	سيد بن عبد العزيز سالم
٥٦	سيده اسماعيل كاشف

٩٦	سيف بن عمر
٢١٢، ٢٠٦	السيوطي
٤٣٧	ش - الشافعي
٥٨	شاذان مصطفى
٢٠٥	شاذان بن ربيعي ()
٩٦	شاذان بن أوفى
٢٥٧، ١٠٧، ٩٧	الشعبي
٣٩٠	شعيب الأرنؤوط
١٣٦	شعيب بن أبي حمزة
٣٨٩، ٢٠٧	شكر الله بن نعمه القوجاني ()
٢٠٧	شكري فيصل ()
٣٢١	شكيب ارسلان
٣٩٠	شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد
	ابن عثمان الذهبي
٧٧	شمس الدين بن قايماز الذهبي
٤٣٤	شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله
	العمري
٤٣٤، ١٦١	شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله
	الحموي الرومي البغدادي
٣٩٠	شهاب الدين أبو الفضل احمد بن يحيى
	ابن حجر العسقلاني
٣١٨	الشيباني
٧٥، ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٢، ٤٢٩،	ص - صالح احمد العلي
٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٣٩،	
٢١٠، ٢١١، ٢١٢	صالح بن قربه
٣١٧، ٣٤٧	صالح بن يحيى
٤٠٨	صالح حمارنة
١٩٥، ٤٢٩، ٤٣٠	صالح درادكة

٣٩٠	صالح محمد عباس
١٧٢	صخر بن حرب، ابي سفيان
١٠٥، ٩٦	صعصعه بن صوحان
٣٤٢	الصقر بن صفوان
١٠٨	الصعقب بن زهير
٦١ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٢٩٣ ، ٣١٠ ،	صلاح الدين المنجد
٣٧٢	
٢٢٦	صلاح الدين عثمان هاشم

١٧٣ ، ٢٩٠ ، ٣٥٣

ض - الضحّاك بن قيس

٢٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٦ ،
٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ،
١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ،
٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٣٤ ،
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ،
٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،
٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٣ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ،

ط - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير

، ٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨	
، ٣٨٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٣٦٥ ، ٣٦٣	
، ٤٤٢ ، ٤٤١ ، ٤٣٨ ، ٤٣٧ ، ٣٨٦	
٤٤٣	
٣٣٣	طنوس الشدياق
٣٢٧	طه عبد الرؤوف سعد
٣٥٥ ، ٢٩٣	طه محمد الزيني
٢٩٤	ظ - ظافر القاسمي
١٠٨	ع - عائشة (أم المؤمنين)
٧٧	عاصم بن عمر بن قتاده
١٧٤	عمر بن صعصعه العدنانية
١٥٢	عامر بن صعصعه القيسية
٩٠	عباد بن علقمه
٣١٧	عبده بن عبيد السلمي
٢١٥ ، ٢٠٢	عبد الجبار المطلبي
٢٨٧	عبد الحفيظ الشلبي
٧١	عبد الحلیم النجار
٣٨٨	عبد الحي بن العماد الحنبلي
١٤١	عبد الرحمن الحارث
١٠٣	عبد الرحمن بن أبي بكر
٣٠٢	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد
٣٨٩	عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصراني
٣١٦	عبد الرزاق الصفاني
٤٣٨ ، ١٥٢	عبد الستار احمد فراج
، ٣٧٦ ، ٢٠٣ ، ١٩٥ ، ٧٤ ، ٦٢	عبد السلام محمد هارون
٤٢٣ ، ٤٠٢ ، ٣٩٨	
٤٠٤	عبد العال سالم مكرم
٣١٨	عبد العزيز احمد
، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٥٨ ، ٥١ ، ٤٤	عبد العزيز الدوري

٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٠ ،

٢١٥ ، ٢٩٧ ، ٣٥١

٨١

عبد العزيز صالح الهلابي

٧٤

عبد العزيز الميمني

٥٩ ، ٢٠٨ ، ٣٥٠ ، ٣٧١

عبد القادر بدران

٤٣٥

عبد القادر بن محمد الجزيري الحنبلي

٧٣

عبد الكريم ابراهيم الغرباوي

٤٣٥

عبد الكريم رافق

٣١٧

عبد الله بن بسر المازني

٣٢٥

عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي

١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٠

عبد الله بن الزبير

٨١

عبد الله بن سبأ

١٧١

عبد الله بن سعيد بن أبي سرح ابن

عبد الحكم

٣٩

عبد الله بن سلام

١٠٩

عبد الله بن عباس

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٨

عبد الله بن عمرو بن العاص

١١٥

عبد الله بن عمر بن الخطاب

١٠٠

عبد الله بن عمير الأشجعي

٣٣٤

عبد الله بن عوف القاري

٣٠٢

عبد الله بن قيس الفزازي

٣٣٤

عبد الله بن محيريز

٦٢

عبد الله بن مسلم

١٠٤

عبد الله بن همام

٥١

عبد المنعم ابوقاهوق

٢٦ ، ١٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٤١ ، ٣٥٥

عبد الملك بن موان

٤٤١

عبد المحسن الحسني

٣١ ، ٧٤

عبد المنعم عامر

١٤٤

عبد المنعم ماجد

١٤٨ ، ١٥٢ ، ٢٩٠ ، ٣٥٢

عبد المنعم عبد الله عامر

٣٦٧	عبد الواحد وافي
٣٤٦	عبد الوهاب عبد اللطيف
٣١٩ ، ٣١٧ ، ١٠٢ ، ٢١	عثمان بن عفان
٦٠	عدنان زرزور
٤٠٤	عدنان عبد الرحمن الدوري
٤٤٠	عز الدين التنوخي
٧٦ ، ٧٠	عروة بن الزبير
٩٨	العسكري
٣٣٣	علقمة بن الأختم
٣٣٣	علقمة بن جنادة الحجري
٣٣٦	علم الدين أبي الحسن علي بن محمد السخاوي
١٣٦	علي بن أبي حملة
٣٢٦ ، ١٠٤ ، ١٠٢ ، ١٠١	علي بن أبي طالب
٤٢٥	علي بن اسماعيل الأشعري
٦١ ، ٥٩	علي بن الحسن بن هبة الله
٣٢٤	علي بن رباح اللخمي
٤٠٤	علي بن محمد الأشموني
٤٠٤	علي توفيق الحسن
٣٥٢ ، ٢٨٦ ، ٢١٣	علي حبيبه
٣٧٨	علي الرضا
٢٠٨	علي محمد البجاوي
٣٩٠	علي محمد الضباع
٤٣٤	عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر
٣٥٩ ، ٣٥١ ، ٢٧٥ ، ٤٦ ، ٢٥	عمر بن الخطاب
٩٦	عمر بن زراره
١٠٢ ، ٩٦	عمر بن شبة
١٠٢	عمر بن عبد الله العنسي
٢٥٣ ، ١٢٦ ، ٥١ ، ٢٦ ، ١٢	عمر بن عبد العزيز
٣٦٩ ، ٣٦٠	

٤١١، ٣٤١، ٣٢٦	عمرو بن العاص
١٧٣	عمرو بن سعيد
٣٢٧	عمرو بن عنبسه
٤١١	عمير بن سعد بن أبي وقاص الانصاري
٨٦	عوف بن مالك
٣٠٠	غ - غازي ظليمان
١٨٢	غسان يزيد بن أبي النميس
٣٤٧	ف - فتحي عثمان
٣٩٨	الفراء
٧٥	فرانز روزنثال
٩٩	الفسوي
٣٠٢	فضاله بن عبيد
٢٧٧، ٢٧٤، ٢٦٨، ٢٥٣	فلهاوزن
٤٤٤، ٤٤٣، ٤٤٠، ٣١٤، ٣١٣	فواز طوقان
٣٢٢	فوينكس
٣٢٢	فيليب حتي
٤٤٢	ق - قاسم طوير
١١٣	قتيبة بن مسلم
٣٧٩، ٣٧٧، ٣٢٨، ٢٩٠، ٢٠٦	قدامه بن جعفر بن قدامه
٤٣٣، ٣٨٢	
٢٥٤	قريمسكي
٣٠٧، ١٩٢	قسطنطين زريق
٩٠	قطري بن الفجاءة
١٩٥، ١٧٤، ١٦٤، ١٦٠، ١٤٦	القلقشندي: أبي العباس احمد
٣٠١، ٢٩٠، ٢٨٩، ٢٨٦، ٢٨٥	
٤٣٨، ٤٣٠	
٧١	ك - كارل بروكلمان

٢٣	كالينيكوس
٢٧٤، ٢٥٣	كريم
١٠٣	كسرى
٣٩	كعب
١٨٢	كلب سفیان بن الأبرد
٢٠٩، ٢٠٢، ١٩٥، ١١٠	الكلبي
٣٥٦	كلثوم بن عياض
٩٦	كميل بن زياد النخعي
٢٥٧، ٢٥٦، ٥٦، ٥١، ٢٧	الكندي: ابو عمر محمد بن يوسف
٢٨١، ٢٨٠، ٢٧٣، ٢٧٠، ٢٥٨	
٣٢٢، ٢٩٥، ٢٩٠، ٢٨٩	
٧٣	ك، و، سترستين

١٤٨	ل - لامنس
٢٣٦، ٢٣٠	لفتيسكي
٤١١، ٣١٧	لويس شيخو
٣١٨	ليث بن سعد الفارسي
٢٧١، ٢٧٠، ٢٦٩	ليفوند
٢٦٩	ليون الثالث
١٧	ليون الخامس

٤٣٥، ١٩٤، ٧٦	م - مارسدن جونس
٢٨٢	ماسرجوية
٤٣٤	ماك كوكين ديسلان
٩٦	مالك الاشتر
٣٢٢	مالك بن أوس بن الحدثان
٣٢٩، ٣٠٢	مالك بن هبيرة السكوني
٣٦١	الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد
٣٣٤	مجاهد بن جبير
٤٦٢، ٣٦٩	مجير الدين الحنبلي

٢٥ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ١٥٦ ،

٤٣٦ ، ٢٨٥

٣٣٦

٣٣٤

٣٤٠

٧١

٦٨

٧٧

١٠٠

١٠٦

٣٩٠

٧٥

٣٣٩

٤٣٤

٣٧٦ ، ٢٠٢

٤٠٤

٧٦

٣٥٠

٢٩٩

٧٣

٦٨

٣٥١ ، ٣٠٠

٤٣٣ ، ٣٧٧ ، ١٩٦

٢١٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ١٩٥

٣٧٠ ، ٥١

٣٤٩ ، ٢٨٥ ، ١٤٨

٢٠٤

٧٥

١٩٢

١٦٨

محمد أبو الفضل ابراهيم

محمد احمد الدالي

محمد احمد دهمان

محمد اسعد طلس

محمد امين الخانجي

محمد باقر المحمودي

محمد بن اسحق

محمد بن جبير بن مطعم

محمد بن الحنفية

محمد بن سعد

محمد بن عبد الرحمن السخاوي

محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافي

محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم

محمد بن علي الأكوع

محمد بن علي العيان

محمد بن عمر الواقدي

محمد بن مكرم

محمد بهجت الاثري

محمد بن يوسف بن رسول

محمد جاسم حمادي

محمد حامد الفقي

محمد حسين الزبيدي

محمد خريسات

محمد خليل هراس

محمد رضوان

محمد رفعت فتح الله

محمد سامي أمين الخانجي

محمد السباعي

محمد سعيد العريان

٢١١	محمد شمام
١٠٤ ، ٣٣٩ ، ٣٢٥ ، ٢٠٦ ، ٧١	محمد محي الدين عبد الحميد
٤٤٧ ، ٤٣٣ ، ٤٢٥	
١٥٩	محمد عبد الحي شعبان
٣٥٩	محمد عبد الهادي أبوريده
٣٥٣	محمد عبد المعيد خان
٤٣٤	محمد عبد المنعم الحميري
٤٣٠ ، ٤٢٧ ، ٣٠٤	محمد عدنان البخيت
٤٢٧ ، ٣٠٤	محمد عصفور
٢٨٧	محمد علي البجاوي
٣٩٧	محمد علي حمد الله
٣٣٢	محمد علي مكي
٣٣١	محمد عوامه
٣٣٦	محمد كرد علي
١١٠	محمد ماهر حماده
٧٠	محمد مصطفى الأعظمي
٣٤٨	محمد مصطفى زياده
٦٠	محمود فهمي حجازي
٣٩٢	محي الدين رمضان
١٨٤	المختار الثقفي
٢٥٥ ، ٩٦	المدائني
٢٨٤ ، ٢٨٣	مدنيكوف
٤٩	مرقص بن جريج
١٨٤ ، ١٥٩ ، ١٥١ ، ١٠٤ ، ١٠٣	مروان بن الحكم
٣١٤ ، ١٢١ ، ١٠٤	مروان بن محمد
٩٠	مستورد بن علفه
١٣٩ ، ٨٤ ، ٨٢ ، ٧١	المسعودي، ابو الحسن بن علي بن الحسين
١٨١ ، ١٧٩ ، ١٧٧ ، ١٥٢ ، ١٤٤	بن علي
٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤	
٢٥٥ ، ٢٣٣ ، ٢١٥ ، ٢١٤ ، ٢٠٩	

، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣ ، ٢٧٨ ، ٢٥٩
، ٣٥٧ ، ٣٥٣ ، ٣٣٥ ، ٣٢٢ ، ٢٩٢
٤٣٣ ، ٣٦٣ ، ٣٥٩ ، ٣٥٨
، ٢٩٥ ، ٢٨٧ ، ٢٠٥ ، ١٩٣ ، ٧٦

مصطفى السقا

٤٢٥ ، ٤٣٣

مسلمه بن عبد الملك

٣٤٢

مسود بن مخرمه

١٠٠

مصطفى الباني الحلبي

١٦٣

مصطفى بن عبد الله حاجي خليفه

٧٥

مصطفى الحيارى

٢٠٦

مصطفى الشكعة

٧١

مصطفى العبادى

٤٣

مصعب بن الزبير

٣٥٠ ، ١٨٤

مظهر بن طاهر المقدسى

٣٣١

معاوية بن أبي سفيان

٤٢٨ ، ٣٣٤

معاوية بن يزيد

١٥١

معقل بن قيس الرياحى

٩٠

المقدسى ، شمس الدين

٤٥٠ ، ٤٤١ ، ٤٣٣ ، ٣٠٠

المقرئى ، ابو العباس احمد بن علي

٣٦٦ ، ٢٩٩

مكي بن ابي طالب

، ٣٩٧ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣

٤٠٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٠ ، ٣٩٩

المنبجى بن الكعبى

٢٧١ ، ٢١٠

ميخائيل أمارى

٣٢٥

موريقي

٢٢٣

موسى بن طلحه

١٠٢

ميشيل السورى

٣٢٤

موللر

٢٥٣

ميمون بن مهران

٢٨٤

مينيى

٤١٦

ن - نائله بنت عمار الكلبي

١٦٩

٣٩٧	الامام ناصر الدين احمد بن محمد بن المنير
	الاسكندري المالكي
١٨٢	ناصر محمد النقشبندي
٣٨٣، ٣٧٤	نجدة خماش
٣٨٢	نذير حمدان
١٩٢	نور الدين عبد المنعم
٣٦٣	نزار رضا
٣٥٢، ١٥١	نصر بن مزاحم المنقري
٩٩	نعيم بن حماد
٤٤٢، ٤٢٧، ٣٠٤	نقولا زياده
٩٤	النوبختي
٢٥٣، ١٩٢، ١٤٥	نولدكه
٢٨١، ٢٧٨، ٢٥٦	النوي
٤١١	نويراهين
، ٢٠٢، ٢٠٠، ١٩٧، ١٩٣، ١٣٩	النويري: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب
، ٢١٤، ٢١٣، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٤	
، ٣٤٢، ٣٣٥، ٢٩٨، ٢٨٧، ٢١٥	
، ٣٤٧	
١٧	نيكوفوروس
٦٠	- هاملتون جب
٤٣٩، ١١٧، ٢٦	هشام بن عبد الملك
٢٢٧	هشام بن عمار
٣٢٥	هشام بن الغاز الصيداوي
٣١٧	هشام بن الليث السوري
٢٩٢	هشام بن محمد بن السائب
٤٠٤	هوزيان: أبو عمرو بن العلاء البصري
٤٤١، ٣٧٦، ٢٠٦، ٢٠٢، ١٩٥	الهمداني: الحسن بن احمد بن يعقوب
١٠٣	هرقل
٤٤٢	هورست كلينكل

٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦	هوروفتس
٣٧٤	هوينر باخ فلهلم
١١٠	الهيثم بن عدي
١٣٦	و - وابصه بن معبد
٣١٧	واتله بن الاسقع
٦٣ ، ١٠٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ،	الواقدي: محمد بن عمر
١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،	
٢٠١ ، ٢٦١ ، ٣١٧ ، ٤٣٥ ،	
٢١٢ ، ٤٣٣ ، ٤٥١ ،	وكيع محمد بن خلف بن حيان
١٣٦	الوليد بن عبد الرحمن الجرشي
٢٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ٢٦٠ ،	الوليد بن عبد الملك
٢٨٧	
٤٣٦	الوليد بن عبدالله بن احمد الأزرقى
٣١٨	الوليد بن مسلم
٢٨٩ ، ٣٤٢ ،	الوليد بن يزيد
٣٤٨	وليم لانجر
٣٠	وهب بن مئيه

٢. المواقع والأماكن

٢١	أ - أرواد
٣٤٢	اذربيجان
٤٤١	اذرعات
٣٤٢	ارمينيه
٣٢١، ١٨٦	اسبانيا
٩٤، ٧٥	اسطنبول
٢٤	افاميه
٣٢١	افريقيه
٣٥٦، ١٥٨	الاردن
٤٤١	الاسكندرية
٣٥٦، ١٤٣	الاندلس
٣٢٢، ٢٨٤	انطاكيا
٢٧٤، ١٩٢	ايران
٤٣٤، ٢١٠	ب - باريس
٥٢	باسيل
٣٤٦	البحر المتوسط
٤٤٣	بركة زيزا
٤٤١	بصرى
٣٤١، ٢٨٥	البصرة
٣٤٣، ٤٦	بعلبك
٤٣٣، ٤٠٤، ٣٩٨، ٣٦٣، ٣٤٦، ٧٧، ٧٥	بغداد
٤٤١	البلقاء
١٩، ٢٥، ٣٢، ٤٤، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٦٧، ٦٨،	بيروت
٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٩٨، ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٦٣، ١٧٠،	
١٧٥، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٥، ٢٣٣، ٢٨٥، ٢٨٩،	
٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٧، ٣٠١، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٧،	
٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٥١،	
٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١،	

٤٠٣، ٤٠٢، ٣٩٨، ٣٩٧، ٣٩٦، ٣٩٢، ٣٩٠، ٣٨٢، ٣٧٢
٤٣٩، ٤٣٨، ٤٣٥، ٤٣٤، ٤٣٣، ٤٢٨، ٤١٢، ٤٠٨، ٤٠٤
٤٤٧، ٤٤٠

١٦٤ ت - تنوخ

٤٤٣ ج - جبلا

٤٣٥ جزيرة العرب

٣٤٦، ٣٣٦ جزيرة قبرص

٢١١ الجزائر

٤٣١، ١٠٤ الجزيرة العربية

٤٤٣، ٤٣٤، ٤٢٩، ١٥٤ ح - الحجاز

٢٨٤ حلب

٤٤٣ حماه

٣٥٦، ٣٥٥، ٣٤٢، ٢٨٤، ٢٨٣، ١٧٣ حمص

٤٤١ حوران

٣٩٠، ٧١، ٦٢، ٥٩ حيدر اباد

٢٦٤ د - دابق

٢٧٥، ١٨٩، ١٨٨ دجله

٢٠٧، ١٩٠، ١٨٨، ١٧٣، ١٦١، ١٥٢، ٨٦، ٧٣، ٦١، ٢٤ دمشق

٣٢٨، ٣٢٦، ٣٢١، ٣١٧، ٢٩٣، ٢٩٠، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٠٩

٤٤٣، ٣٨٩، ٣٧٢، ٣٥٦، ٣٥٢، ٣٥٦، ٣٥٢، ٣٤٢، ٣٤١

٤٤٣ دومة الجندل

٢٨٤ دير النقيرة

٣٢٢ ر - رودس

٢٨٤ روزن

٣٧٦، ٤٣٥، ٤٣٣، ٧٠ الرياض

٤٤٩	س - السرحتين
٤٣٣	السعودية
٤٤٢	سوريا
٤٢٧ ، ٣٥٦ ، ٣٢٨ ، ٢٠٢ ، ١٨٧ ، ١٤٨ ، ١٠٣ ، ٤٦ ، ٢١	ش - الشام
٤٣٤	
٧١	ص - صنعاء
٣١٨	صيدا
٣٣٦ ، ٣١٧	ط - طرابلس
٣١٨	طرطوس
٣٤١ ، ٢٧٣ ، ١٠٤	ع - العراق
٤٤٢ ، ٤٤١ ، ٤٤٠ ، ٤٢٧ ، ٣٦٩ ، ٣١٣	عمان
٥٤	غ - غزة
٣٧٩	ف - فاليقلا
٢٧٥ ، ١٨٩ ، ١٨٨	الفرات
٩٦	فرايبورغ
٤٥	الفسطاط
٢٦٥	فسطاطه
٣٥٦ ، ٣٢١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٦٥ ، ٥٤	فلسطين
٨٥ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧١ ، ٦٢ ، ٦١ ، ٦٠ ، ٥٨ ، ٥١ ، ٤٥ ، ٤٤	ق - القاهرة
٢٣٤ ، ٢١٣ ، ٢١٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٣ ، ١٦٣ ، ١٥٦ ، ١٥٢	
٣٢٥ ، ٣١٠ ، ٣٠٠ ، ٢٩٩ ، ٢٩٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥	
٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٠ ، ٢٦٤ ، ٢٥٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦	
٤٣٧ ، ٤٣٤ ، ٤٢٩ ، ٤٢٥ ، ٤١٥ ، ٣٨٢	
٢٤	قبرص

٣٥٣,٢٩٥,٢٠٩	القدس
١٨٨	قرقيسيا
٤٤٣	القسطل
٢٦٥,١٨٤,١٥,١٢	القسطنطينية
٢٥٦,٤٦	قنسرين
٣٢١	قيسارية
٤٤٣	ك - الكرك
٣٤٢,٢٩٠,١١٠,١٠٠	الكوفه
٥٢	كوم اشقوه
٤٠٤,٢٨٧,٢٢٦,١٥٢,٦٠,٤٦	الكويت
٤٢٤,٣٩٧	ل - لبنان
٣٧١,٤٥,٣٧	لندن
٤٤٦	م - مآب
٣٦١,١٢٩,١٠٧,١٠٤,٨٥	المدينة المنورة
١٧٤	المدج
٣٤٢	مرج راهط
٣٤٦	مرسيه
٣٦,٤٣,٤٥,٥٤,٦٢,٦٣,٩٤,١٤٠,٢٠٦,٢٥٧	مصر
٣٦١,٣٤٩,٣٣٩,٣٣٣,٣٢٩,٣٢٦,٢٩٤,٢٨٧,٢٥٨	
٤٤١,٤٣٥,٤٣٤,٤٣٣,٤٠٣,٣٦٨,٣٦٢	
٤٤٦	معان
٢٨٤,٢٨٣	المعرة
٤٤٣	المعلا
٤٤٣,٢٨٠,٢١٧,١٧٠,١٢٩,١١٨,١١٠,٦٨	مكة المكرمة
١٨٩,٧٧	الموصل
٤٤٣	الموقر
٤٠٣	المنيرية

٢٨٧

ن - النجف

٣٢١

نهر قاراصوا

٣٢١

نهر قزله

٣٢٦

نيويورك

٤٣٤، ١٧٩، ١٦٤، ١٤٣، ٧١

ي - اليمن

٤٤٧

ينبع

٣. العناوين

- ٨٦ (١) أبطال القياس والرأي والاستحسان
والتقليد والتعليل (ابن حزم الأندلسي)
- ٣٦٢ آثار الأول في تدبير الدول
(العباسي أبو محمد الحسن بن عبد الله
بن عمر بن محاسن).
- ٤٤٢ آثار سورية القديمة : آثار ما قبل الاسلام
(كلينكل، هوراست).
- ٣٠٠ ، ٣٧١ ، ٤٣٣ ، ٤٤٨ ،
٤٥٠ ، ٤٥١
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن
مفلح المقدسي).
- ٢١٥ ، ٢١٣ ، ٢١٢
أخبار القضاة
(وكيع ، محمد خلف بن حيان)
- ٣٣٠ ، ٣٣٣
أسد الغابة في معرفة الصحابة
(عز الدين أبي الحسن ابن الأثير)
- ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢
اعراب القرآن
(ابن النحاس ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل)
- ١٦٣ الاتجاهات السياسية في الاسلام من دولة
عمر الى عبد الملك .
(ابراهيم بيضون)
- ٣٦١ الأحكام السلطانية
(الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب).
- ٧٤ ، ١٠٩ ، ١٥٢ ، ٢٩٠ ،
٢٩١ ، ٣٥٢
الأخبار الطوال
(الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود)

٣٢٦، ١٣٥	الأخبار الموفقيات (الزبير بن بكار)
٢١١	الاسلام والتعريب في الشمال الافريقي في الثلاثة الأولى للهجرة (بوخالفة نور الهدى)
٢٠٢، ٢٠١، ١٩٩، ١٩٨ ٢٣٠، ٢٠٨	الاصابة في تمييز الصحابة (ابن حجر العسقلاني)
٢٨٦	الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (ابن شداد عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم)
٤٤٥، ٤٣٢، ٣٥١، ٢٨٥ ٤٤٩، ٤٤٧	الأعلاق النفيسة (ابن رسته أبو علي أحمد بن عمر)
٧٥	الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)
١١٧، ١١٠، ٩٦، ٧٥، ٧٣ ١٩٧، ١٩٦، ١٥٢، ١٢٩ ٢٣٤، ٢٣٢، ٢١٤، ٢٠١ ٢٦٦، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥١ ٢٨٤، ٢٨٢، ٢٨١، ٢٦٨ ٣٤٥، ٣٤٣، ٣٢٩، ٣٠٠ ٤١٥، ٣٤٧	الأغاني (أبو فرج الأصفهاني)
٢٠٦، ٢٠٢	الاكلیل (الهمداني أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب)
٣٤٦	الأكمال (الحافظ ابن ماکولا)
٣٥٥، ٢٩٣، ١٦٣	الإمامة والسياسة (ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم)

١٤٢، ٢٠١، ٣٠٠، ٣٢٧، ٣٧٧، ٣٧١، ٣٧٠، ٣٥١	الأموال (ابن زنجوية أبو أحمد حميد بن زنجوية)
٩٨	الأمة والجماعة والسلطة (رضوان السيد)
١٢١	الأمويون والخلافة (حسين عطوان)
٣٣١	الأنساب (أبي سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني)
٤٦٢، ٣٦٩	الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (أبو اليمن العليمي عبد الرحمن بن محمد الحنبلي)
٣٩٧	الأنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري)
١٠٢، ١٠٣، ١١٠، ١٢٩، ١٣٥، ١٣٠	الأوائل (أبي هلال العسكري)
٨٦	الايمان من سننه (الترمذي)
١٠٣، ١٠٢، ٩٦، ٧٥، ٦٨، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٥، ١١٥، ١١١، ١١٠، ١٠٩، ١٢٣، ١٢١، ١١٩، ١١٨، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٦، ١٥٣، ١٤٤، ١٤١، ١٣٨، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥، ١٦٤، ١٦٣، ١٦١، ١٦٠، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٦، ١٦٥، ١٧٢، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩، ١٧٩، ١٧٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٨٨، ١٨٦، ١٨٤، ١٨٠	أنساب الأشراف (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري)

٢٠٦، ١٩٩، ١٩٨، ١٩٣
٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧
٢٩٥، ٢٣٩، ٢٣٤، ٢٢٨
٣٢٦، ٣٢٢، ٣٠٠، ٢٩٧
٣٥١، ٣٤٠، ٣٣٩، ٣٢٩
٣٦١، ٣٥٩، ٣٥٥، ٣٥٢
٣٧٥، ٣٦٢

٦٠

أوراق البردي العربية
(أدولف جروهمان)

٣٣١

(ب) البدء والتاريخ
(مظهر بن طاهر المقدسي)

٣٥٠

بداية المجتهد ونهاية المقتصد
(ابن رشد الوليد بن محمد بن أحمد)

٧٧، ٦٧، ٦٣، ٦١
١٠٧، ١٠٦، ١٠٢، ٧٨
٣٤٠، ١٣٠، ١١٠، ١٠٨

البداية والنهاية في التاريخ
(ابن كثير عماد الدين أبو الفداء)

١٣٩

البصائر والذخائر
(أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس)

٢٨٧

بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء
(أبو الحسن علي بن أبي عبد الله بن أبي السرور)

٣٤٩، ١١٢، ٢١١، ٢١٠

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب
(ابن عذارى أبو عبد الله بن محمد المراكشي)

١٢٩، ١١٧، ١٠٩، ٧٤
٣٠١، ٢٨٢، ٢٦٣، ١٣٩
٤٢٣

البيان والتبيين
(الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر)

١١٧، ١١٠، ١٠٩، ١٠٠

(ت) تاريخ أبو زرعة الدمشقي
(الحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصري)

١٣٤، ١٣٣، ١٢٠، ١١٩
١٤٠، ١٣٩، ١٣٦، ١٣٥
٣٨٩، ٣٢٨، ٣٢٧، ٢٩٣

٢٨٧

تاريخ ابن الوردي
(ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفر)

تاريخ الأدب العربي
(بروكلمان)

٧٢

١٠٣، ١٠٥، ١٠٧، ١٢٠،
١٣٤، ١٣٥، ١٣٩، ١٤١،
٢٠٦، ٢٤٢.

تاريخ الاسلام
(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي)

٢١١

تاريخ افريقية
(الرقيق القيرواني)

٢٤٧

تاريخ بيروت
(صالح بن يحيى)

١٠٣، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠،
٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٢، ٢٣٩

تاريخ الخلفاء
(جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر
السيوطي)

١٢٠، ١٥٢، ٢٢٧، ٢٣٠،
٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤١،
٣٥٢

تاريخ خليفة
(خليفة بن خياط)

٦١، ٧٠، ١٩٥،

تاريخ مدينة دمشق
(الحافظ أبي القاسم علي بن الحسين بن
عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر)

٢١٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣١٧،
٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٤،
٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٤،
٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٧٠،
٣٧١، ٣٧٢

تاريخ الرسل والملوك
(أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)

٦١، ٢٨٢، ٢٨٥، ٣١٥،
٣١٦، ٣٥٠، ٤٣٦

٣٣٢

تاريخ سورية
(يوسف الدبس)

٣١٩، ٣٣٠

التاريخ الصغير
(البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل)

١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥،
١٠٦، ١٠٩، ١١١، ١١٢

تاريخ الطبري
(أبو جعفر محمد بن جرير الطبري)

،١١٧،١١٦،١١٥،١١٣
،١٢٦،١٢٣،١٢١،١١٨
،١٣١،١٣٠،١٢٨،١٢٧
،٣٢٩،٣٢٥،٣٢٣،٣٢٢
٣٤١،٣٣١،٣٣٠

٧٢

التاريخ العربي والمؤرخون
(شاكر مصطفى)

،٦٦،٦٥،٦٤،٦٢
٣٤٦،٣١٩،١١٩،٦٧
٣٥٥،٢٩٩،٢٩١،١٩

التاريخ الكبير
(محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري)

تاريخ مختصر الدول
(ابن العبري)

،٢١٦،٢١٥،٢١٣،٨٥
٣٥٢،٢٨٦،٢١٧

تاريخ الموصل
(أبو بكر يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم الأزدي)

،٣٢٧،٢٨٨،٢٠٠،١٠٣
،٣٣١،٣٣٠،٣٢٩،٣٢٨
٣٥٠،٣٤١

تاريخ اليعقوبي
(أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب اليعقوبي)

٣١٩

تجريد أسماء الصحابة
(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي)

٤٤٤

تحفة النظار في غرائب الأمصار
(ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن ابراهيم)

٢٠٥

التحكيم في العلاقات الدولية الخاصة
(سامية راشد)

٣٤٦

تذكرة الحفاظ
(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي)

٢٠٠،١٩٩

تراجم النساء
(ابن عساكر)

٣٨٣،٢٠٧

تراجم حرف العين المتلوه بالألف
(ابن عساكر)

- ٢٣٨ تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي
(ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم)
- ١١٥، ١٠٥ تفسير الطبري
(ابن جعفر محمد بن جرير الطبري)
- ٤٣٤ تقويم البلدان
(عماد الدين اسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء)
- ٩٦ التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان
(ابن أبي بكر الأشعري الأندلسي)
- ،٢٠٨،٢٠٦،٢٠٥،١٧٥ التنبيه والاشراف
،٣٤٣،٣٢٥،٣٢٢،٢٠٩ (أبو الحسن علي بن الحسين السعدي)
٤٣٣
- ،٦٦،٦٥،٦٤،٦٣،٦٢ تهذيب التهذيب
،٧٧،٧٠،٦٩،٦٨،٦٧ (شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني)
،٣٩٠،٣٤٥،٢١٧،٢١٣
٣٩١
- ١٣١، ١٠١ تهذيب الكمال
(جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزي)
- ٣٢٦ تهذيب اللغة
(الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد)
- ،١٠٥،٥٩،٤٠،٣٩ تهذيب تاريخ دمشق الكبير
،٢٩٠،٢٠٨،١٥٧،١٠٧ (تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسن
،٣٣٩،٣٣٤،٣٣٢،٣٣١ المعروف بابن عساكر)
٣٥١،٣٥٠،٣٤٥،٣٤٢
- ٧٢،٧١،٣١ التيجان في ملوك حمير واليمن
(أبو محمد عبد الملك بن هشام)
- ٢٩٦،٢٩٤،٢٩٣ (ث) الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام
(ابن طولون شمس الدين محمد بن علي)

- الثقات ١٢٠
(الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي)
- ١٢٩، ١١٢ ثورة ابن الأشعث
(رضوان السيد)
- ١١٨ (ج) الجامع الصحيح
(الترمذي محمد بن عيسى)
- ٣٣٢ الجامع المؤصل في تاريخ الموارد المفضل
(البطريك الدويهي)
- ٤٠٤ الجمل في النحو
(أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي)
- ١٥٢، ٧٣، ٧٠، ٦٦، ٦٢ جمهرة أنساب العرب
٣٢٩، ٢٩٢، ٢٠١، ١٩٥
٣٧٦ (أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم)
- ١٢١ جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة
(أحمد زكي صفوت)
- ١٩٤ جوامع السيرة النبوية
(ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد)
- ٤٤٠ (ح) الحائر في العمارة الأموية الإسلامية
(فواز طوقان)
- ١٦٣ الحجاز والدولة الإسلامية
(إبراهيم بيضون)
- ٤٠٠، ٣٩٥، ٣٩٣، ٣٩٠ حجة القراءات
(ابن زنجلة)
- ٧٥، ٦٩، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٣٩ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء

.٣٤٦،٣٣٤،١٠٦،٧٨،٧٧

(أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني)

٧٢

الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول
والثاني للهجرة
(خليل داود الزرو)

،٣٦٨،٣٥٦،٣٤٧،٣٠٠

خ (الخراج

،٤٤٦،٣٨٧،٣٨٢،٣٧٩

(أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم)

٤٥١،٤٥٠،٤٤٧

١٢١

خطبة عمر بن عبد العزيز في سيرة عمر
(ابن عبد الحكم)

٣٣٩،٣٢١

خطط الشام
(محمد كرد علي)

٤٤٤،٤٤٢،٤٣٨،٤٣٥

د (الدرر
(الجزيري)

١٨١

الدرهم الاسلامي
(ناصر محمود النقشبندي)

٦٠

دراسات في حضارة الاسلام
(هاملتون، جب)

١١١

الدولة العربية وسقوطها
(يوليوس فلهاوزن)

٣٥٤

ديوان جرير
(جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي)

١٩٥

ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي
(حاتم الطائي أبو عدي حاتم بن عبد الله القحطاني)

- ١٠٤ ديوان الفرزدق
(الفرزدق همام بن غالب بن صعصعة)
- ٣٤٦، ٣١٧ ر (ربيع الأبرار ونصوص الأخبار
(محمود بن عمر الزمخشري)
- ٤٤٦، ٤٣٤ الروض المعطار في أخبار الأقطار
(الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله
بن عبد المنعم الحميري)
- ٣٤٨ الروم وصلاتهم بالعرب
(أسد رستم)
- ٢١١، ٢١٠ رياض النفوس
(المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله)
- ٣٥٢، ٢٩٦، ٢٩١، ٢٨٥ ز (زبدة الحلب في تاريخ حلب
(ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله)
- ١٠٧ زهر الآداب وثمر الألباب
(الحصري، أبو اسحق إبراهيم بن علي القيرواني)
- ٣٣٦ س (سفر السعادة وسفير الافادة
(علي بن محمد السخاوي)
- ٧٤ سمط اللالي
(البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز)
- ١٣٩ سنن ابن ماجه
(أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني)
- ١٤٠، ١٠٦ سنن أبي داود
(أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني)

سنن الترمذي
(الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي)

١٤٠، ٩٩	
٤٥٢، ١٩٠	سورة ابراهيم
٤٣٣	سورة الأرض
٣٩٦، ٤٣٧، ١١٤، ١٠٢	سورة الاسراء
٤٠٠، ١١٤	سورة الاعراف
٣٩٧	سورة الأنبياء
١١٤	سورة الأنساب
٣٩٥	سورة الانسان
٣٩٩، ٣٩٤، ١١٤	سورة الأنعام
٤٠١، ٤٠٠	
٤٣٧، ٣٩٣، ١١٦	سورة الأنفال
٣٩٣، ٣٩٢، ١٢٣، ١١٤	سورة البقرة
٤٠٤، ٣٩٩، ٣٩٥، ٣٩٤	
. ٤٣٧	
٤٠٥	سورة البلد
٤٣٧، ٣٩١، ١١٤، ١١٣	سورة التوبة
٤٠٦	سورة الحديد
٤٣٧	سورة الحشر
٤٠٦، ٣٩٢	سورة الرحمن
٤٠٦	سورة الزخرف
٣٩٣، ٣٩٢	سورة الشورى
١١٣	سورة الصف
٣٩٨	سورة الطارق
٣٩٤	سورة عمران
٤٣٧	سورة العنكبوت
١٩٠	سورة غافر
٣٩٢	سورة الفاتحة
١١٣	سورة الفتح
١٢٥	سورة فصلت
٤٢٩	سورة قريش
٤٠٤	سورة القمر

٣٩٦	سورة الكهف
٢٩٥	سورة المائدة
١١٤	سورة محمد
١١٤	سورة المعارج
٤٠٥	سورة المؤمنون
٣٩٢	سورة المؤمن
٤٠٥	سورة مريم
٤٠٤، ٤٠٠، ٣٩٦، ٣٩٤	سورة النساء
٤٣٧	
١٩٠	سورة النمل
٤٠٦، ٣٩٥، ١١٤، ١٠٥	سورة النور
٣٩٨	سورة هود
١١٤	سورة الواقعة
٣٩٧	سورة يوسف
١٠٦، ١٠٤، ١٠٣، ١٠٢	سير أعلام النبلاء
١١٠، ١٠٩، ١٠٨، ١٠٧	(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي)
٢٨٨، ١٤٢، ١٣٣، ١٣٢	
٢٩٦، ٢٩٤، ٢٩٣، ٢٩٢	
٣٣٤، ٣٣٠، ٣٢٤، ٢٩٧	
٣٨٢، ٣٤٣	

١٢٧ سيرة ابن هشام
(ابن هشام جمال الدين أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري)

٧٣ سيرة تبع وأشعاره
(يزيد بن مفرغ)

٧٨، ٧٦ السيرة النبوية
(أبو محمد عبد الملك بن هشام)

٢٨٣، ٣٧٤ (ش) الشام في صدر الاسلام
(نجدة خماش)

- ٤٠٤ شرح الأشموني
(الأشموني، نور الدين أبو الحسن علي بن محمد)
- ٣٢٧، ٥٩ شرح السير الكبير
(محمد بن الحسن الشيباني)
- ٤٠٥، ٤٠٤ شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ
(ابن مالك، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجبائي)
- ٤٠٣، ٣٩٧ شرح الكافية في النحو
(الاستراباذي محمد رضي الدين بن الحسن)
- ٤٠٣ شرح المفصل
(ابن يعيش موفق الدين يعيش بن علي النحوي)
- ١٥٦، ١٠٨، ١٠٧، ١٠١، ٩٦ شرح نهج البلاغة
(ابن أبي الحديد عز الدين أبو حامد بن هبة الله)
- ٤٤٦ الشعر في وصف المنازل
(حمد الجاسر)
- ٣٠١، ٢٩٠، ٢٨٩، ٢٨٦ (ص) صبح الأعشى في صناعة الإنشا
(القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي)
٤٣٤
- ١٠٦، ١٠٣، ١٠٠، ٩٩ صحيح البخاري
(البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل)
١٣٩، ١٣٣
- ١٣٩، ١٣٣، ١١٨، ٩٩ صحيح مسلم
(مسلم أبو الحسين مسلم بن حجاج)
- ١٥٩ صدر الإسلام والدولة الأموية
(محمد عبد الحي محمد شعبان)

صفة جزيرة العرب
(ابن الحائك الهمداني أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) ٤٤٧، ٣٧٦، ٢٠٢

الصلة
(ابن بشكوال، أبو القاسم بن عبد الملك) ٢١٢

ط (الطبقات الكبرى
(ابن سعد أبو عبد الله محمد بن سعد
بن منيع الزهري)
٧٠، ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٥، ٦٤
١٠٠، ٩٦، ٧٨، ٧٧
١٢٠، ١١٨، ١١٥، ١١٠
١٥٢، ١٥٠، ١٣٩، ١٣٤
١٧٩، ١٧٦، ١٦١، ١٥٦
٢١٦، ١٩٨، ١٩٧، ١٨٥
٣٧٩، ٣٥١، ٣٣١، ٢٣٩
٤٤٢، ٣٨٢، ٣٨٠

طبقات فحول الشعراء
(الجمحي، أبو عبد الله محمد بن سلام) ١٠٤

طبقات النحويين واللغويين
(الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الاشبيلي) ٧٥

طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب
(عمر بن يوسف بن رسول) ٧٣

ع (عجائب المقدور في أخبار تيمور
(ابن عربشاه، شهاب الدين أبو محمد أحمد
بن محمد) ٢٧٨

العرب والملاحة في المحيط الهندي
(جورج فضلوحوراني) ٣٦٤

عقد الجمان
(العيني) ٣٤٠

١٠٧، ١١٠، ١١٧، ١١٨،	العقد الفريد
١٢١، ١٣٩، ١٦٨، ٢٠٥،	(ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد)
٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٢،	
٢٣٢، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣٥٢،	
٣٦٠، ٣٥٧	
٣١٧	العنوان
	(أغابيووس بن قسطنطين المنبجي)
٧٨، ٧٥، ٧٣، ٦٠	علم التاريخ عند المسلمين
	(رونثال، فراتر)
٨٦	عون المعبود
	(عظيم أبادي أبو الطيب شمس الدين)
١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٧،	عيون الأخبار
١٣٦، ٢٣٤، ٢٦٢، ٢٧٠،	(ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم)
٢٩٢	
٢٩٥، ٢٩٩، ٣٦٣	عيون الأنباء في طبقات الأطباء
	(ابن أبي اصيبعة أحمد بن القاسم)
٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٩	غ (غاية النهاية في طبقات القراء
	(ابن الجزري شمس الدين أبو الخير محمد
	بن محمد الدمشقي)
٩٨، ١٠٣	فتح الباري (ف
	(ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل
	أحمد بن علي الكناني)
٤١، ٩٩، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦،	الفتن والملاحم
١٣٩، ١٤١، ١٤٢	(نعيم بن حماد)
٤٥، ٦٣، ٦٤، ٦٧، ٦٨، ٦٩،	فتوح البدان

(ابو العباس أحمد بن يحيى البلاذري)

،١٩٩،١٤٨،١١٥،٧٠
،٢٠٨،٢٠٧،٢٠١،٢٠٠
،٢٣١،٢٣٠،٢٢٧،٢٠٩
،٣١٠،٣٠٢،٢٨٦،٢٨٥
،٣١٤،٣١٣،٣١٢،٣١١
،٣١٩،٣١٨،٣١٧،٣١٦
،٣٢١،٣٢٠

٠٠٠ / فتوح البلدان

،٣٢٥،٣٢٤،٣٢٣،٣٢٢
،٣٣١،٣٢٩،٣٢٨،٣٢٧
،٣٤١،٣٤٠،٣٣٤،٣٣٣
،٣٥٥،٣٥٣،٣٤٩،٣٤٥
،٣٦٤،٣٦٣،٣٥٨،٣٥٦
،٣٧٣،٣٧٢،٣٦٦،٣٦٥
،٣٨٠،٣٧٩،٣٧٧،٣٧٥
،٣٨٧،٣٨٦،٣٨٥،٣٨١
،٤٤١،٣٨٩،٣٨٨

فتوح الشام

(الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر)

،٢٠١،٢٠٠،١٩٩،٦٣
٣٣٦

فتوح مصر وأخبارها

(ابن عبد الحكم عبد الرحمن بن عبد الله)

،٣٢١،٢٩٢،٢١٢،٢٠٩
،٣٧٤،٣٥٩،٣٢٥،٣٢٣

فجر الاسلام

(أحمد أمين)

٧٠،٥٨

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية

(ابن الطقطقي، فخر الدين أبو جعفر محمد

بن علي)

٢٢٧،٢٥٠

فرق الشيعة

(النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى)

٩٤

- الفرق بين الفرق
عبد القاهر البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي التميمي) ٩٤، ٨٦
- الفصول في سيرة الرسول
(ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر) ١٤٦
- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة
(فؤاد السيد) ١٠٨
- الفقيه والمتفقه
(الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت). ١٣٧
- فلسفة المعتزلة
(البيرنصري نادر) ٤٢٥
- الفهرست
(ابن النديم، أحمد بن اسحاق بن محمد) ٧٥، ٧٤، ٧٣
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة
(الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله) ١٠٦
- القدر (ق)
(فولتير، فرانسوا ماري) ٣١
- القراءات في بلاد الشام
(حسين عطوان) ٣٩٥، ٣٩٠
- قضاة دمشق
(ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي) ١٣٣
- قيد الشريد من أخبار يزيد
(ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي) ١٦٩
- الكامل في التاريخ (ك) ٣٢٥، ٣١٩، ٢٠٩، ٢٠٤

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي
بن محمد الجزري)
٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٩،
٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٦، ٣٥٢،
٤٣٩.

الكشاف
(الزمخشري)
٣٩٩، ٤٠٢

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
(حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله)
٧٥

الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها
(مكي بن أبي طالب القيسي)
٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥،
٣٩٦، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١،
٤٠٦

الكنى والأسماء
(الدولابي، أبو بشير محمد بن حماد الأنصاري الرازي)
٣٢٩

ل (لسان العرب
(ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)
٣٢٤، ٣٥٠، ٣٦٨، ٣٧٨،
٣٨٦، ٣٨٧

لسان الميزان
(ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو
الفضل أحمد بن علي الكناني)
٣١

لطف التدبير
(محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافي)
٣٣٩

للؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية
(البطريك أغناطيوس أفرام)
٤١١

م (مآثر الانافة في معالم الخلافة
(القلقشندي، أحمد بن علي)
٢٨٧، ٢٩٠

- ١١٢ مجمع الزوائد
(الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر)
- ٢٠٢ المحاسن والمساويء
(البيهقي، ابراهيم بن محمد)
- ٢٠٩، ٢٠٥، ١٩٧، ٧٣ المحبر
(ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي)
- ٣٤٥ مختار الأغاني في الأخبار والتنهاني
(ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)
- المختصر
(ابن منظور)
١٩٩، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٥
٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠
٢١٧، ٢١٣، ٢٠٩، ٢٠٧
- ٢٠٠ مختصر البلدان
(ابن الفقيه الهمداني)
- ١٩٣، ١٠٢ مختصر تاريخ دمشق
(ابن عساكر)
- ١٦٣ المختصر في أخبار البشر
(أبو الفداء، اسماعيل بن علي بن محمود)
- ٩٤ المرجئة بخراسان في العصر الأموي
(حسين عطوان)
- ١٠٧، ١٠٥، ١٠٣، ٧٢، ٧١ مروج الذهب ومعادن الجوهر
(المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين)
١٦٧، ١٦١، ١٥٢، ١٤٣
١٨١، ١٧٩، ١٧٥، ١٦٩
٢٠٧، ٢٠٤، ١٩٦، ١٩٣
٢٣٣، ٢١٥، ٢١٤، ٢٠٨

٢٨٣، ٢٧٨، ٢٥٩، ٢٣٦
٣٢٥، ٢٩٢، ٢٨٨، ٢٨٧
٣٣٩، ٣٣٥، ٣٢٧، ٣٢٦
٣٥٩، ٣٥٨، ٣٥٧، ٣٥٣
٤٣٣، ٣٦٣

٤٥٠، ٤٣٢، ٢٨٦

المسالك والممالك
(أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبه)

٤٤٦، ٤٤٥، ٤٤١، ٤٣٤
٤٤٩، ٤٤٧

مسالك الأبحار في ممالك الأمصار
(ابن فضل الله العمري، شهاب الدين
أبو العباس أحمد بن يحيى)

١٣٤، ١١٨، ١٠٥، ١٠٠، ٩٩
١٤١، ١٤٠، ١٣٥

مسند أحمد بن حنبل
(ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد محمد الشيباني)

١٣٠

مسند أبو بكر الصديق
(المروزي، أبو بكر بن علي بن سعيد الأموي)

١٣٢

مسند الشافعي
(أحمد عبد الرحمن البنا)

١٤٠

مسند أبي داود الطيالسي
(الطيالسي أبو داود سليمان بن داود)

١٣٩، ١١٨، ٩٩

مسند أبو عوانه
(أبو عوانه يعقوب بن اسحاق)

٤٠٨

المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي
(صالح حمارنه)

٣٤٠، ٣٣٠، ٣١٩

مشاهير علماء الأمصار
(البستي، أبو حاتم محمد بن حبان)

- ٣٩٩، ٣٩٧ مشكل اعراب القرآن
(مكي بن أبي طالب القيسي)
- ١٠٦، ١٠٩، ١١٨، ١٢٠،
١٣٩، ١٤٠، ١٤٢ مصنف ابن أبي شيبة
(ابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد)
- ٥٦ مصر في فجر الاسلام
(سيده اسماعيل كاشف)
- ٦٤، ٦٦، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٥ المعارف
(ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم)
٢٨١، ٢٦٣، ٢٦١، ٢٥٨، ٧٧
- ٣٩٨ معاني القرآن
(الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد)
- ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٣٧٥ معجم الأدباء
(ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله)
- ١٦١، ١٩٥، ٢٨٥، ٣١١،
٣١، ٣١٤، ٣١٨، ٣٤٧،
٣٥٤، ٣٦٩، ٣٧١، ٤٣٤،
٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤ معجم البلدان
(ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله)
- ٣٩٠ معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار
(الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان)
- ٩٩، ١٠٠، ١٣٢، ١٣٤،
١٣٥، ١٣٧، ١٣٩، ٣٣٤،
٤٢٥ المعرفة والتاريخ
(الفسوي)
- ٧١ المعمرون والوصايا
(السجستاني، أبو حاتم سهل بن عثمان)

- ٤٣٣، ٢٠١ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع
(البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز)
- ١١٥، ١١٤ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
(محمد فؤاد عبد الباقي)
- ١٩٧، ١٩٤، ١٤٦، ٧٦ المغازي
٤٣٥، ١٩٩، ١٩٨ (الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر)
- ٧٨، ٧٧، ٧٦ المغازي الأولى ومؤلفوها
(يوسف هوروفتس)
- ٧٦، ٧٠ مغازي رسول الله
(الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر)
- ١٤٧ المغازي النبوية
(الزهري، أبو بكر محمد بن مسلم)
- ٢١١ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب
(البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز)
- ٤٠٦، ٣٩٩، ٣٩٧، ١٠٨ مغنى اللبيب
(ابن هشام جمال الدين أبو محمد عبد الله)
- ٤٢٨ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام
(جواد علي)
- ٤٠٢ المفصل في علم العربية
(الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر)
- ٩٤، ٩٣ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين
(الأشعري، أبو الحسن علي بن اسماعيل)

- ٦٠ مقدمة في أصول التفسير
(ابن تيمية تقي الدين أبو العباس)
- ٤٦١ الملامح الجغرافية لدروب الحجيج
(سيد عبد المجيد بكر)
- ٨٦ الملل والنحل
(الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم)
- ١١٨ المجالسة وجواهر العلم
(أحمد بن مروان المالكي)
- ٤٣٠ مملكة الكرك في العهد المملوكي
(محمد عدنان البخيت)
- ٤٤٨، ٤٤٦، ٤٤٢، ٤٣٣ المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة
(الحري، أبو اسحق ابراهيم بن اسحاق)
- ٤٥٠
- ١٢٦، ١٢٥ مناقب عمر
(ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي القرشي)
- ٧١ مناهج التأليف عند العرب
(مصطفى الشكعة)
- ٣٨٤، ٣٨٣، ٣٧٤ منجد
(ابن عساكر)
- ٣٦٦، ٢٩٩ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
(تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ)
- ٣٤٨ موسوعة تاريخ العالم
(لانجر، وليم)

- الموفقيات في الأخبار
(أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله)
١٣٤، ١٠٣
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (ن)
(الادريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد الحسيني)
٤٣٣، ٤٤١، ٤٤٥، ٤٥٠،
٤٥١
- نسب قريش
(الزبيري، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله)
٣٥٠، ١٠٤
- النسب الكبير
(الكلبي)
٢٠٩، ٢٠٢
- نشأة التدوين التاريخي عند العرب
(حسين نصار)
٧٨، ٧٦، ٧١، ٧٠
- نشأة علم التاريخ عند العرب
(عبد العزيز الدوري)
٥٨، ٦٠، ٦٢، ٧٣، ٧٤،
٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٧
- النشر في القراءات العشر
(ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد)
٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٩
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب
(ابن سعيد المغربي علي بن موسى)
١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧،
٢٠١
- نصيحة الملوك
(الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد)
١١٢
- نظام الحكم في الشريعة والاسلام
(ظافر القاسمي)
٢٩٤
- نقائض جرير والأخطل
(أبو تمام حبيب بن أوس الطائي)
١٧٥

١٠٣، ١٠٧، ١٤٦، ١٥٢،
١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٤،
٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤،
٢١٥.

نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب
(القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي)

٢٤٨

هـ (الهلال (صحيفة)

٤٠٤

همع الهوامع في شرح الجوامع
(السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)

١٢١

و (الوثائق والسياسية والادارية في العصر الأموي
(محمد ماهر حمادة)

٢٠٥، ٢٠٦، ٢٨٧، ٢٨٨،
٢٨٩، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠.

الوزراء والكتاب
ابن عبدوس الجهشياري)

٦٦، ٦٩، ٧٥، ٣٥.

وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان
(ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر)

٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩

وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى
(السمهوري، علي نور الدين أبو الحسن بن عبد الله)

٣٥٢

وقعة صفين
(نصر بن مزاحم المنقري)

٣٧، ٥١، ٥٦، ٢٨٩،
٢٩٠، ٢٩٥.

الولاه والقضاه
(الكندي، محمد بن يوسف)

٣٢١، ٣٢٢

ولاية مصر
(الكندي محمد بن يوسف)

المحتويات

١	كلمة صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال ولي العهد المعظم
٦	كلمة الاستاذ الدكتور عبد السلام المجالي رئيس الجامعة الأردنية
١٠	كلمة الاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت - مقرر المتابعة والمؤتمرات
١١	حولية ثيوفانيس : مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الاموي عبد الله بن لهيعة (٧٩٠-١٧٤هـ / ٧١٥-٧٩٠م) واهمية صحيفته
٢٧	المحفوظة في هيد لبرج في دراسة التاريخ الاسلامي
٤٣	اضواء من الوثائق البرديه على الادارة الامويه
٥٨	دور بلاد الشام في نشأة علم التاريخ في العصر الاموي
٧٩	مولد الحزبية السياسية وقضية الحكم
٩٦	الخلافه والملك : دراسة في الرؤيه الامويه للسلطة
١٤٣	مؤتمر الجابيه
١٩١	دور غسان في الحياة العامه
	الصقالبة ببلاد الشام في زمن الامويين مع القاء نظرة على الدراسات
٢١٨	الاسلامية عن الدولة الامويه
٢٨٥	الاجناد وادارتها
٣٠٣	المراكز الادارية والعسكريه في بلاد الشام في العصر الاموي
٣١٥	ثغور بلاد الشام
٣٤٩	الجيش الشامي في العصر الاموي
٣٦٨	الاقطاع في بلاد الشام خلال القرنين الاول والثاني للهجرة
٣٩٠	قراءة ابن عامر: مصادرها وموقف النحاة منها
	الجدل الديني المسيحي الاسلامي في العصر الاموي واثره في نشوء
٤٠٧	علم الكلام
٤٢٧	طريق الحج الشامي في العهد الاموي
	الافاريز الرخامية المحفورة والمذهبة في العهد الاموي في قبة الصخرة
٤٦٢	المشرفة في القدس
٥٠٦	فهارس النص
٥٧٦	فهارس الهوامش

مطبعة الجامعة الأردنية
عمان ١٩٨٩

رقم الايداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية
(١٩٨٩/١/١)



The Fourth International Conference
On The History Of Bilād al-Shām
During The Umayyad Period



Proceedings Of The Third Symposium

2-7 Rabi^ʿ I 1408 A.H./24-29 October 1987

Arabic Section – Vol. I

Edited
by
Muhammad Adnan Bakhit

Amman – 1989